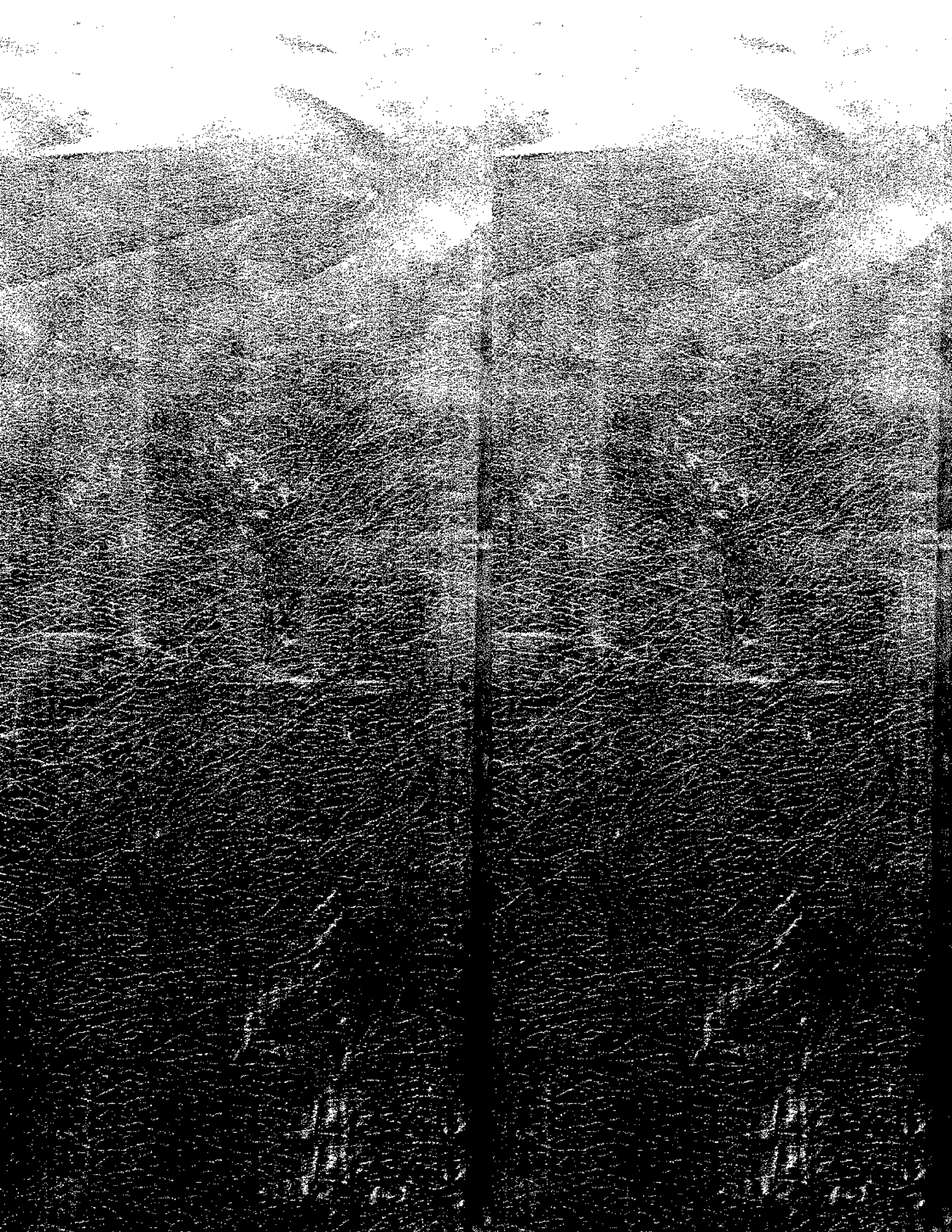






عالم الفكر

المجلد العشرون - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩

الأسبوعية



«مجلة عالم الفكر» قواعد النشر بالمجلة

(١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢٠٠ ألف كلمة ، ١٦٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الالة الطابعة ولا ترد الاصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سري .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام - الكويت - ص ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير : محمد يوسف الرومي
مستشارة التحرير : ركنة نورية صالح الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩ م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص . ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

الألسنية

- ٥ الدكتور أحمد هتار عبد
٢٥ الدكتور عبدالرحمن أبوب
٢٩ الدكتور يحيى أحمد
٩٩ الدكتور سعد مصلوح
١٤١ الدكتور عادل فاعوري
١٦٧ الدكتور أحمد الخمو

التصديق : المصطلح الألسني العربي
تحليل عملية التكلم
الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة
الدراسة الإحصائية للأسلوب
الانكسار في التداول اللساني
محاولة ألسنية في الاعلام

...

مطالعات

- ١٨٩ الدكتور أحمد عبد قنور

صور من تطور لغة الشعر العربي
الحديث عن طريق المجاز

...

من الشرق والغرب

- ٢١٩ الدكتور بنيس بو حلة

السياق التاريخي والثقافي للشعر الزنجي
الإفريقي - الأمريكي

...

صدر حديث

- تأليف : الدكتور نبيل علي
عرض وتحليل : الدكتور علي صبري نوري
٢٥٥
تأليف : Michael Lipsey
عرض وتحليل : الدكتور فهد الناصر
٢٧٩
٢٧٩
٢٧٩

اللغة العربية والحاسوب

بيرواراطية الخدمات الجماهيرية

مجلس الادارة

- حَمَد يوسف الرومي (رئيساً)
- د. نورية صالح الرومي
- د. رشاد حمود الصباح
- د. عبد المالك التميمي
- د. علي المشعوط

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تنلقاها للنشر

المحرر الضيف لمحور العدد
الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر

المحرر الضيف لعدد
(الألسنية)

هو الأستاذ الدكتور / أحمد مختار عمر
 أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
 والمعار حالياً لقسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة
 الكويت والحائز على جائزة ووسام صدام للدراسات
 اللغوية ١٩٨٩ م .

التمهيد

إذا كانت كتابة العلوم باللغة العربية تعاني من مشكلة نقص المعروض من مصطلحات عربية ، ومن تفضيل كثير من المؤلفين الكتابة بغير العربية - فإن الكتابة الألسنية باللغة العربية تعاني من مشكلتين حادتين هما :

أولا : كثرة ما تقذفه المطابع كل عام من كتابات باللغة العربية ، وما يصحبها من إدخال مصطلحات جديدة كل يوم دون أن تتوافر لها شروط المصطلح ، مما خلق مجالات كثيرة للتعارض والتصادم بين هذه المصطلحات ومستخدامها بعضهم مع بعض .

ثانيا : تشابك الفترة الزمنية للدراسات القديمة والحديثة وامتدادها عبر مئات السنين ، مما أدى إلى اشتداد الصراع بين أنصار المصطلح القديم والمصطلح الجديد واختلاط المفاهيم ، ونشوء نوع من الاحتكاك بين من يسمون بالتراثيين ، ومن يسمون بالتجديدين .

فإذا كانت مصطلحات العلوم تعاني من مشكلة التعريب ، فإن مصطلحات الألسنية تعاني من مشكلة التوحيد . وإذا كان العلميون يشكون من اتخاذ لغة غير العربية أداة للتعبير ، فإن الألسنيين يشكون من استخدام لغة عربية لم ترق في تعبيراتها المتخصصة إلى مستوى « المصطلح » . ولولا أن كثيرين ممن يقدمون المفاهيم الأجنبية في لفظ عربي يقرنون المصطلح العربي بنظيره الأوربي لغمض فهم المصطلح العربي على الكثيرين ، ولكان هذا المصطلح عاملا تفريقا لا تجميع ، وما كان هناك حد أدنى من الاتصال بين السنّي قطري والسنّي قطر عربي آخر ، بل السنّي وآخر في داخل القطر الواحد .

المصطلح الألسني لعربي وضبط المنهجية

أحمد مختار عمر

الأستاذ بكلية الآداب - قسم اللغة العربية

وإذا كان صحيحاً ما يقال عن ولادة علم جديد أو اتجاه جديد ، في الستينيات ، في حقل الدراسات اللغوية العربية استحق أن يميز باسم خاص به وهو « الألسنية » فإن التسليم بهذا القول يقتضي أولاً بيان حدود العلم وإنشاء شبكة من المصطلحات له تساعد على ضبط مفاهيمه وتصنيف ظواهره .

وإذا كان أول مظهر من مظاهر اكتمال العلوم واستقلالها وتكامل رصيدها الفني - كما يقول المسدي - هو إفرازها لثبته الاصطلاحي الخاص بها ، فإن الدراسة الألسنية العربية ما تزال بعيدة عن تحقيق هذه الغاية ، وما يزال التأليف المعجمي في مصطلحاتها الحديثة في طور التكوين مقارناً بما صدر ويصدر من معاجم وموسوعات بغير اللغة العربية^(١) .

والحديث عن مشكلات المصطلح الألسني العربي حديث متعدد الجوانب متشعب الأطراف ، ولذا لا يستطيع كاتب أن يلزم بها في عجلة كهذه ، وإنما عليه أن يختار ما يراه أهم جوانبها .

وقد رأيت في هذا التمهيد أن أركز على جوانب أربعة هي :

- ١ - مصطلح « الألسنية » .
- ٢ - واقع المصطلح الألسني العربي .
- ٣ - الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح .
- ٤ - وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح .

مصطلح الألسنية :

راجت في الأعوام الأخيرة مصطلحات ثلاثة تنافست للظفر بحق الإطلاق على حقل الدراسات اللغوية الحديثة وهي : « علم اللغة » ، و « اللسانيات » ، و « الألسنية » . وقد اخترنا مصطلح « الألسنية » لنطلقه على هذا العدد الخاص من « عالم الفكر » رغم أنه ليس أكثر الألفاظ الثلاثة^(٢) شيوعاً لجملة أسباب منها :

(١) قارن ما صدر من معاجم باللغة العربية - على سبيل المثال - بعملين رائدين صدرا باللغة الإنجليزية أحدهما : A Grand Dictionary of Phonetics الذي أصدرته الجمعية الصوتية اليابانية عام ١٩٨١ بعد أن أصدرت معجماً مماثلاً باليابانية عام ١٩٧٦ . وقد أنفقت الجمعية عشرين سنة في جمع مصطلحات المعجم واختارت من بين مادته التي جمعتها نحواً من اثنين وعشرين ألف مصطلح ضمتها هذا المعجم . أما العمل الآخر فهو : The Cambridge Encyclopedia of Language تأليف David Crystal الذي هدف من تأليفه - كما قال في تمهيد - إلى الكشف عن سحر الألسنية ودورها الذي قامت به سواء في مجال تركيب اللغة وتطورها واستعمالها أو في المجالات التطبيقية الأخرى المتصلة بمشكلات الأفراد والمجتمعات .

(٢) مازال مصطلح « علم اللغة » هو أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعاً رغم محاولات الترويج لأحد المصطلحين الآخرين .

فيتحليل القائمة البيولوجرافية التي حصرت الدراسات الألسنية التي تتناول اللغة العربية ، الواردة بمجلة « الفكر العربي » (العدد الخاص بالألسنية ١٩٧٩) والتي اشتملت على خمسة وخمسين بحثاً وكتاباً نشر معظمها في السنوات العشرين السابقة لصدر هذا العدد نجد كلمة « لغة » قد ترددت ثلاثاً وثلاثين مرة ، في حين ترددت كلمتا : « لسان » و « ألسنية » خمس مرات فقط .

ويتحليل عناوين الكتب والأبحاث العربية في ميدان علم اللغة الحديث - التي وقفت عليها - ويصل عددها إلى نحو خمسين كتاباً وبحثاً نجد النتيجة كما يأتي :

علم اللغة	: ٢٥ عناوين .
ألسنية	: ١٠ عناوين .
لسانيات	: ٥ عناوين .

وجاء أقل من ذلك عناوين أخرى مثل : علم اللسان - الدراسات اللغوية - البحث اللغوي .

أولاً : أن مصطلح « علم اللغة » قد مرّ بمراحل كثيرة ، وتقلب عليه مناهج متعددة قديمة وحديثة ، فصار في حاجة إلى وصف توضيحي لتحديد مجاله أو منهجه ، كأن يقال : علم اللغة الحديث ، علم اللغة العام . .

كذلك يختلط مصطلح « علم اللغة » كثيراً ، وبخاصة في مجال الاصطلاح الجامعي بمصطلح آخر هو « فقه اللغة » ، مع الفارق الكبير بينهما .

ثانياً : أن مصطلح « علم اللغة » يلتبس في ذهن الكثيرين بتعليم اللغة ، وأن مصطلح « اللغوي » يلتبس بالمفهوم العام للفظ ، وهو الشخص الذي يتقن عدة لغات أجنبية . وقد حدث هذا الالتباس حتى بالنسبة لمقابلته الإنجليزي Linguist الذي يفهمه الكثيرون على أنه من يتقن عدة لغات ، ولهذا ظهر المصطلح الجديد Linguistician ليكون خاصاً بعالم اللغة ، وإن لم يكتب لهذا المصطلح الرواج بعد .

ثالثاً : أن كلمة « لغة » لم تكن تستخدم في الاستعمال القديم بمعناها المعروفة الآن ، وإنما كانت تستخدم بمعنى اللهجة . ولم ترد كلمة « لغة » في القرآن الكريم إطلاقاً ، وإنما وردت كلمة « لسان » (وجمعها ألسنة) للدلالة على جملة معان منها :

- ١ - آلة الكلام : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين » (البلد ٩) .
- ٢ - اللغة ، بمعنى رصد الكلمات والقواعد الذي تملكه الجماعات اللغوية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (إبراهيم ٤) .
- ٣ - الكلام ، بمعنى الاستعمال الفردي للغة : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم » (المائدة ٧٨) .
- ٤ - الأسلوب ، بمعنى الخاصة الفردية للمتكلم : « وأخى هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي ردءاً » (القصص ٣٤) .

ومعنى هذا أن كلمة « لسان » أكثر شمولية واستيعاباً من كلمة « لغة » .

رابعاً : أن كلمة « لسان » تعد من المعجم الأساسي المشترك في اللغات السامية . وقد ترددت في فهرست ابن النديم بمعنى لغة في مثل قوله : اللسان العربي ، اللسان السرياني ، اللسان اليوناني . . في حين أن كلمة « لغة » يونانية الأصل . (علم اللغة العربية للنجازي ص ٣١٠ وما بعدها) .

خامساً : أن إطلاق اسم على الدراسات اللغوية مشتمل على كلمة « لسان » إطلاق قديم ، عكس ما يتوهم الكثيرون . فقد أطلق الفارابي في « إحصاء العلوم » على العلوم اللغوية اسم « علوم اللسان » . وأطلق أبو حيان النحوي على علوم اللغة مصطلح « علوم اللسان العربي » . وتابعه ابن خلدون في هذا فعقد في مقدمته فصلاً بعنوان « في علوم اللسان العربي » .

وحتى في العصر الحديث كان استخدام « علم اللسان » ، و « الألسنية » أسبق في الوجود من مصطلح « علم اللغة » .

وقد نشر الأب مرمرجي الدومينيكي عدة أبحاث حملت اسم « الألسنية » نشر أولها في مدينة القدس عام ١٩٣٧ باسم « المعجمية العربية في ضوء الثنائية والألسنية السامية » . وترجم الدكتور محمد مندور بحثاً لأنطوان مابيه تحت اسم « علم اللسان » ، ونشر ذلك عام ١٩٤٦ كفصل في كتاب بعنوان « منهج البحث في اللغة والأدب » .

وهكذا حسمنا الأمر بالنسبة للاختيار بين مصطلحي « لغة » و « لسان » ، ولكن بقي حسم الأمر بالنسبة لمصطلحي « اللسانيات » و « الألسنية » .

من الواضح - باديء ذي بدء - أن كلا من المصطلحين قد كتبت له السيادة في منطقة عربية دون أخرى . فإذا كان مصطلح « علم اللغة » قد شاع في معظم بلدان المشرق العربي ، فإن مصطلح « الألسنية » قد شاع في لبنان^(٣) بالذات ، ومصطلح « اللسانيات » أصبح هو الشائع الآن في بلدان المغرب العربي ، وبخاصة بعد أن اتخذت ندوة « اللسانيات واللغة العربية » (الملتقى الثالث للسانيات - تونس ١٩٧٨) توصية باستخدام مصطلح « اللسانيات » اسماً لهذا العلم ، بدلاً من مصطلح « الألسنية » . وأخذ اللغويون التونسيون والمغاربة يلتزمون في معظم ما ينشرونه أو يقيمونه من ندوات^(٤) ، كما روج له بعض اللغويين السوريين^(٥) .

فلماذا فضلنا مصطلح « الألسنية » على « اللسانيات » ؟ واختارناه عنواناً لهذا العدد الخاص ؟

هناك جملة اعتبارات كانت في الذهن عند اختيار هذا المصطلح ، أهمها :

أولاً : إن علم اللغة الحديث لا يختص بلغة معينة ، وإنما يدرس أي لغة ، ويحلل أي مستوى داخل اللغة الواحدة . فمعنى الجمعية ملحوظ في وظيفة هذا العلم ، ولذا يناسبه لفظ الجمع « ألسن » لا المفرد « لسان » .

(٣) مما ظهر من ذلك : الألسنية ولغة الطفل لجورج كلاس ، والألسنية العربية (جزءان) لريمون طحان ، والألسنية (ثلاثة أجزاء) لميشال زكريا ، والألسنية والنقد الأدبي لموريس أبر ناضر ، ورواد الألسنية الحديثة لغري بولس .

(٤) مما ظهر من ذلك في المغرب : إيتوبية في اللسانيات ، والندوة الدولية الأولى لجمعية اللسانيات ، وبجدة تكامل المعرفة ، عدد خاص عن اللسانيات . وفي الجزائر : مجلة اللسانيات ، ومحاضرات في اللسانيات الحديثة - وفي تونس : قاموس اللسانيات ، والملتقى الثالث للسانيات ، واللسانيات واللغة العربية ، واللسانيات من خلال النصوص . ومع ذلك تطلب الكتاب المغاربة بين أكثر من مصطلح ، فاستعملوا إلى جانب « اللسانيات » : « الألسنية » مثل « مفتاح الألسنية » (تونس ١٩٨١) ، و « دروس في الألسنية العامة » (تونس ١٩٨٥) . ولهذا فلا صحة لما يقوله السدي من أن مصطلح الألسنية لم يعد يستعمل عند التونسيين بعد عام ١٩٧٨ (قاموس اللسانيات ، ص ٧٠) . كما استخدموا كذلك علم اللسان ، والتفكير اللساني ، والمصطلحات اللغوية (الأخير في كتاب صدر ١٩٨٧) ، وعلم اللغة (في كتابين صدرتا عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٥) . والسدي نفسه في مقاله : الفكر العربي والألسنية (١٩٧٨) استخدم مصطلحات : علوم اللسان ، الألسنية ، البحث الألسني ، علوم اللغة ، الدراسة اللغوية ، الدراسات الألسنية . الخ .

(٥) انظر : مارود العمر . قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، (١٩٨٨) .

ثانياً : أنه لم يعد هناك حرج في النسب إلى جمع التكسير على لفظه بعد أن أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ذلك ، وبخاصة حين يكون الجمع اسماً للعلم من العلوم . وقد نُسب إلى علم الأصول ، فقيلاً « أصولي » ، وإلى الأخبار فقيلاً « أخباري » .

ثالثاً : أن التصرف في لفظ « السنية » أسهل من التصرف في لفظ « لسانيات » فحين نأخذ الصفة من الأول نقول : دراسات السنية ، وحين نتحدث عن المشتغل بهذا العلم نقول : ألسني ، بإبقاء الجمع على حاله . ولكن إذا أردنا أن نأخذ الوصف من « اللسانيات » فلا نقول - وليس من المستساغ أن نقول - « دراسات لسانياتية » ، ولا « لسانياتي » ، ولذا يردّ الجمع إلى مفردة عادة فيقال « لسانية » ، و « لساني » .

رابعاً : أن اللبس الذي يحدث عند استخدام المصطلح « لغوي » وعدم القطع ما إذا كان نسبة إلى « اللغة » أو « علم اللغة » ، والذي فضلنا - من أجله - ترك هذا المصطلح ، يحدث نفسه إذا استخدمنا لفظ « لسانيات » . فحين النسبة سنقول : « لساني » فلا يدري أي نسبة إلى « اللسان » أم إلى « اللسانيات » .

ولكن هذا المحذور يزول باستخدام كلمة « السنية » اسماً للعلم . فحين النسبة إلى الجمع « ألسني » يكون المراد النسبة إلى العلم . أما إذا نسبنا إلى المفرد فقلنا « لساني » فتكون النسبة إلى « اللسان » بمعنى « اللغة » لا بمعنى العلم الذي يدرس اللغة^(٦) .

واقع المصطلح الألسني العربي :

هناك نوعان اثنان من المصادر يمكن من خلالها دراسة واقع المصطلح الألسني العربي :

أولهما الكتب المؤلفة في بعض مباحث العلم ، وبخاصة تلك التي تتعامل مع مفاهيم غربية جديدة ، لها في لغتها مصطلحاتها الخاصة التي يراد التعبير عنها بمصطلح عربي .

وثانيهما ما ألف من معاجم أو مسارد لهذه المصطلحات ، وهي في معظمها تتخذ المصطلح الأجنبي أو المفهوم الأجنبي منطلقاً للمصطلح العربي ، عن «قابل عربي» . ولعل «العكس

(٦) من الغريب أن يكون أشد المدافعين عن المصطلح « لسانيات » هو أشد الرافضين للمصطلح « لغويات » على أساس أن اللفظ الأخير من « انتهى في تركيبه على صيغة النسبة » لغوي ، أصبح من العذر أو كالمعذر استعماله مصطلحاً للعلم . سميت به ونسب إليه - إذ من غير المستساغ الشغل « لغوياتي » أو « لغوياتي » (السدي - قاموس اللسانيات ص ٦٩)

وقد أنه ما أتت به المصطلح « لغويات » لغويات ، ونسحب بالضرورة على المصطلح « لسانيات » - إذ من غير المستساغ أن يقال « لساناتي » أو « لسانانية » . وإذا كان السدي قد انحصر في هذا المحذور عن طريق النسب واحد الصفة من المفرد يقال « لساني » - و « لسانية » فقد كان يمكن أن يفعل بعض الشيء مع « لغويات » .

وإذا كان محمد رشاد الحمزاوي قد جمع بين المصدرين في عمل واحد هو كتابه « المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية » فإن عمله هذا يعد - من ناحية - قطرة في بحر ، كما يعد - من ناحية أخرى - عملاً تراثياً دخل ذمة التاريخ . فقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧ ، واعتمد على مؤلفات يعود بعضها إلى الخمسينيات ، ومعظمها إلى الستينيات ، مسقطاً بذلك عشر سنوات هامة من تاريخ الألسنية . ولم يدخل المؤلف - مع الأسف - على كتابه أي إضافة أو تعديل أو تصويب في طبعته الثانية عام ١٩٨٧ في حين أن البحث الألسني العالمي يقفز كل يوم قفزات هائلة ، ويقدم تصورات ومفاهيم جديدة تجعل أي بحث أو عمل مسحيّ في الألسنية متخلفاً خلال بضعة سنوات .

ولعل أهم معاجم المصطلحات الألسنية المتعددة اللغة التي صدرت في الثلاثين سنة الأخيرة - إلى جانب معجم الحمزاوي هي :

١ - مجموعة المصطلحات اللغوية ، التي بدأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في وضعها عام ١٩٦٢ ، ووردت ضمن مجموعات المصطلحات العلمية والفنية في أجزاء كثيرة متتابعة . وهو المعجم الوحيد الذي ظهر بجهود هيئة علمية حتى الآن . ولكنه - مع الأسف - شديد القصور ، وواضح الجحود بعد هجره لعدة سنوات ، وعدم تزويده بالمصطلحات المستجدة أولاً فاولاً .

٢ - معجم علوم اللغة ، الذي أعده عبد الرسول شاني ونشرته مجلة اللسان العربي عام ١٩٧٧ في المجلد الخامس عشر - الجزء الثاني .

٣ - معجم علم اللغة النظري ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٢ .

٤ - معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، من إعداد نخبة من اللغويين العرب ، وقد صدر عام ١٩٨٣ .

٥ - قاموس اللسانيات ، من إعداد عبد السلام المسدي ، وقد صدر عام ١٩٨٤ .

٦ - معجم علم اللغة التطبيقي ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٦ .

ويعيب معظم هذه المعاجم اكتشافها بمجرد ذكر المصطلح الأجنبي ومقابلته العربي ، دون تعرضها لشرح المصطلح وتحديد مفهومه ، كما يعيبها جميعاً أنها قاصرة غير مستوعبة ، وأنها قتل اجتهادات شخصية لأصحابها ، ولا تخضع لمنهجية مضبوطة ، وأنها يتقصها التجديد من آن لآخر .

ولنبداً بمصطلحات عبد القادر الفاسي الفهري في أبحاثه وكتبه فنلاحظ عليها أنها تتسم بالابتكار ، والتوسع في التعريب ، وإدخال صيغ ومشتقات غير مألوفة في لغة « الألسنية » ، ومن ذلك :

- استخدامه مصطلح « التأسيم » في مقابل : nominalisation
- و « المكون الصوتي » في مقابل phonological Component
- و « الموضوع » في مقابل : topicalisation
- و « النفس لسانيات »
- و « السيكولسانيات » - في مقابل psycholinguistics
- و « التبشير » في مقابل focalisation
- و « تركيب مُبَّار » في مقابل focused construction
- و « ميتا متغير » في مقابل metavariable

أما رشاد الحمزاوي فهو أكثر جرأة من الفهري من ناحية ، وأكثر ذاتية في صك المصطلح من ناحية ثانية ، وأقل اطرادا مع نفسه في استخدامه للمصطلح من ناحية ثالثة مع أنه يعتبر نفسه من المنظرين في مجال المصطلح بعامة ، والمصطلح اللغوي بخاصة :

● فهو يطلق على علم الدلالة : السيمية .

● ويستخدم « علم اللغة النفساني » ، بدلا من « النفس » .

● ويبقى المصطلح الأجنبي كما هو - دون حتى محاولة تعريبه وإخضاعه للصياغة العربية - فيستخدم مصطلحات مثل : « إستيمولوجيا » ، و « أبلاتييف » ، و « أكوستيكي » ، و « جراماطيقا » ، و « دياكروني » ، و « فوناتيكي » ، و « برادجماتي » ، و « ستيجماتي » و « ساميولوجيا » . . . وغير ذلك .

● ولا يلتزم بمقابل واحد للمصطلح الأجنبي فكلمة accent يقابلها « بالنبر » ، و « النبرة » ، و « الضغط » . وكلمة synchronic يقابلها مرة بكلمة « متزامن » ، ومرة « أفقي » . و bilabial عنده : « شفوي » ، و « شفتاني » ، و « بين الشفتين » و phoneme عنده مرة « صوتم » ، ومرة « فونم » .

● وهو في معظم حالاته لا يربط الألفاظ المترادفة ، ولا يستخدم نظام الإحالة .

● وقد يجانبه التوفيق في المقابل العربي الذي يستخدمه . فمصطلح affricate قابله بلفظ « شديد » والصواب مقابلته بأحد مصطلحات ثلاثة يستخدمها الألسنيون وهي « مزجي » ، « مركب » ، « شديد رخو » . ومصطلح assimilation يقابله مرة بلفظ « إدغام » ، ومرة بلفظ « تماثل » . والصحيح مقابلته بلفظ « مماثلة » .

ونعرض الآن بعض المصطلحات اللغوية متبعين إياها في عدد من المصادر العربية لنرى مدى الاضطراب في صوغها ، والتباين في عرضها :

١ - المصطلح Phoneme ويرتبط به مصطلحان آخران هما allophone و phone تباينت فيها المقابلات العربية على

التحولات التالية :

المصدر	Phone	allophone	phoneme
دراسة الصوت اللغوي	فون	ألفون	١ - فونيم
قاموس اللسانيات	صوت	صوتهم تعاملي	٢ - صوتم
دروس في علم أصوات العربية	—	—	٣ - صوت / صوتم
معجم علم اللغة النظري	صوت لغوي / صوت كلامي	ألفون / متغير صوتي	٤ - فونيم / فونيمية / صوتيم / صوت مجرد
معجم مصطلحات علم اللغة الحديث	صوت كلامي	ألفون	٥ - فونيم
المصطلح اللساني	—	بد صوتية	٦ - صوتية
مفاتيح الألسنية	—	—	٧ - صوتم
مجلة الفكر العربي	—	—	٨ - مستصوت / فونيم / لافظ

وأقترح الاكتفاء بمصطلحات المصدر الأول لوضوح العلاقة اللفظية بينها ، ولسهولة تصريفها ، ولأنها أصبحت مصطلحات عالية تستخدمها اللغات الأوروبية . أما إطلاق « صوت » على الفونيم فيعيبه التباسه بمصطلحين آخرين هما Sound, Phone . أما فونيمية وصوتية فيلتبسان بصيغة النسب الوصفية ، فضلاً عن صعوبة نصرتهما . أما المصطلح « صوت مجرد » فيعيبه كونه ثنائياً .

٢ - المصطلح morpheme ، ويرتبط به مصطلحان آخران ، هما allomorph و morph حيث تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالي :

المصدر	morph	allomorph	morpheme
أسس علم اللغة	مورف	ألومورف	١ - مورفيم
قاموس اللسانيات	تشكل	شكلم	٢ - صيغ
معجم مصطلحات علم اللغة الحديث	مورف	ألومورف	٣ - مورفيم / وحدة صرفية
معجم علم اللغة النظري	مورف	ألومورف متغير دلالي	٤ - مورفيم / مورفيمية / صرفية مجردة / صرفية
			٥ - صرفية
			٥ - صرفية
المصطلح اللساني	-	بد صرفية	

وأفضل هذه المصطلحات المجموعة الأولى لأنه يمكن ربطها بعضها ببعض ، ولسهولة تصريفها .
والسندى الذى استعمل « صيغ » في مقابل المورفيم جاء الى المورف والألومورف واستخدم لفظين من مادة أخرى .

٣ - المصطلح bilabial ويعنى الصوت الذى تشترك في نطقه الشفتان وضعت له المقابلات العربية الآتية :
شفتان - شفوى - من بين الشفتين - شفوى ثنائى - شفوى مزدوج . والمصطلح الأول أدقها ، وبخاصة بعد أن أجاز مجمع اللغة العربية النسب الى المثني على لفظه . أما الثانى فينبغى أن يخصص لمقابلة المصطلح Labial وأما المصطلحات الباقية فيعيها تعدد ألفاظها .

٤ - المصطلح Lexeme وضعت له المقابلات العربية : وحدة معجمية - لكسيم - مفردة - مفردة مجردة - مأصل - معجمية . وأفضلها اللفظ المعرب .

٥ - المصطلح synchronic وضعت له المقابلات العربية : متزامن - تزامنى - وصفى - متعاصر - متواقت - آنى - ثابت - سنكرونى - مستقر - أفقى . وأفضلها المصطلحان الأولان ، لغزابة اللفظ المعرب .

٦ - المصطلح diachronic ويستعمل عادة في مقابل المصطلح السابق للدلالة على تعدد الأزمنة . وقد استعمل له المصطلحات : تطورى - تعاقبى - متعاقب - تاريخى - زمانى . وأفضلها التعاقبى الذى يتلاءم مع تزامنى من ناحية ، ولا يلتبس بغيره من ناحية أخرى .

الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح :

إذا أردنا أن نرصد هذه الاتجاهات وجدناها محوطة بالارتجالية من ناحية ، والتحكم من ناحية ثانية ، وصدم الانضباط من ناحية ثالثة . وهي سمات أدت الى خلق كثير من المشكلات أمام المصطلح الألسني وكادت توصله الى حال يفقد فيها هويته ، ويتخلى عن أخص خصائصه ، وهو ضرورة نائه على الاتفاق أو الاصطلاح بين المستغلين باللغة وعلومها . وأهم هذه المشكلات ما يأتي :

أولاً : ما انحدر الى المصطلحات الألسنية الحديثة من مشكلات عن المصطلحات القديمة التي لم يراع في وضعها المواصفات الضرورية ، فجاءت مختلفة من عدة جهات مثل :

أ - استعمال المصطلح في أكثر من مفهوم ، كإطلاق « الناقص » على الفعل الذي لا يكتفى بمرفوعه ، وعلى المعتل الآخر ، وإطلاق « ذوات الثلاثة » على الأجوف ، وعلى الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف أصول .

ب - إطلاق أكثر من مصطلح على المفهوم الواحد مثل « الواقع » على « المتعدى » ، و « الخفض » على « الجر » ، و « النعت » على « الصفة » ، و « العماد » على « ضمير الفصل » .

ج - طول المصطلح وتكونه من عدة كلمات ، ويظهر هذا بوضوح في كتب التراث الأولى .

ثانياً : ما يتحمله المصطلح الألسني العربي الحديث من مشكلات تتعلق بالمصطلح العلمي بوجه عام مثل :

أ - تعدد جهات وضع المصطلح (المجامع والهيئات) دون تنسيق حقيقي بينها (رغم وجود ما يسمى بمكتب تنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط) ، واختلاف مشارب الأفراد الذين يساهمون في وضع المصطلح ، وميل معظمهم الى الفردية .

فمجمع اللغة العربية بالقاهرة يعد أن يحدد وسائل وضع المصطلح يعطى أفضلية لوسيلتين اثنتين هما :

١ - اللفظ العربي على المعرب القديم إلا إذا اشتهر المعرب .

٢ - المصطلح العربي القديم على الجديد إلا إذا اشاع الجديد .

وكلتا الوسيلتين يمكن تحقيقهما عن طريق الاشتقاق أو المجاز . ثم نجده يعطى كذلك أفضلية للترجمة الحرفية حين لا يمكن وضع المصطلح الجديد في كلمة واحدة . وبذا يساوي بين الوسيلتين الداعية والخارجية في الأفضلية .

ولكنه يعد من باب الضرورة العلمية الالتجاء الى الوسيلتين الآتيتين :

١ - إدخال ألفاظ أعجمية على طريقة العرب في تعريبهم .

٢ - اللجوء الى النحت .

(مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما ص ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ ، وشوقي ضيف : مجمع اللغة العربية في خمسين عام ص ١٢٨) .

والمجمع العلمي العراقي يتعصب للفظ العربي لدرجة أنه كان يختار اللفظ الغامض ويفضله على الواضح كإطلاقه الجابية على الخزان ، والنوسق على الجمونه ، والإرقال على السرعة ، والكظام على الحشو ، والواجنة على المكبس ، والسدام على القداحة ، والواجنة على آلة التخريم ، والجسوة على الصلاية (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ٨) .

ولكنه رغم سلوكه هذا ، وتفضيله اللفظ العربي على الأجنبي (مطلوب ص ٥ ، ٩) ، ودعوته الى تجنب النحت والتعريب ما أمكن (مطلوب ص ١٠) ، نجده يلجأ الى التعريب كثيراً ، وإلى اللصق أحيانا كما في اللاتينى ، واللاتمخدي ، واللاتمخى ، واللاتمخى ، واللاتمخى ، واللاتمخى (مطلوب ص ٦ ، ٧) . ورغم نصحه باختيار المصطلح ذي اللفظ الواحد كان يستعمل بعض السوابق على وزن فَعْل كالفَرَط ، والحط ، والسبق ، والحق ، والبعد . . (مطلوب ص ٩) .

ولكن في نفس الوقت هناك ألسنيون ممن يشاركون بجهودهم في وضع المصطلح يسلكون طرقا مخالفة :

١ - فرى عبد السلام المسدي يهاجم إحياء الألفاظ القديمة وإطلاقها على متصور مستحدث قائلا : « وكثيرا ما يتجاذب الميراث الاصطلاحي ذوى النظر فينزعون صوب إحياء اللفظ واستخدامه في غير معناه الدقيق . . فإذا بالمدلول اللساني يتوارى حيناً خلف المفهوم النحوي ، ويتسلل أحيانا أخرى وعليه مسحة من الضباب تعتم صورته الاصطلاحية ، فتتلايس القضايا ، ويعسر حسم الجدل بين المختصين » (قاموس اللسانيات ص ٥٥ ، ٥٦) .

٢ - ونرى عبد القادر الفهرى كذلك يحذر من استخدام المقابلات العربية الواردة في التراث لأن هذا يخلق توها بصدق المصطلح العربي « على ما يصدق عليه المصطلح الغربى نتيجة إسقاطات ظرفية أو ذاتية يقوم بها المترجم ، وينتهى الى إيجاد مناسبات غير قائمة » (المصطلح اللسانى ص ١٤٤) . ويلج على فكرته هذه حين يقول في توضيح منهجه : « تجنبنا - بقدر الامكان - استعمال المصطلح المتوفر القديم للتعبير عن المصطلح الداخل ، لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة قد يفسد تمثيل المفهوم الجديد والمحلى على السواء . ولا يمكن إعادة توظيف المصطلح القديم وتخصيصه إذا كان موظفا ، لأن هذا يؤدي الى مشترك لفظي غير مرغوب فيه ، بالإضافة الى سوء الفهم » (السابق ص ١٤٥) .

وعلى عكس المجامع اللغوية نراه يشجع التعريب « لصعوبة الانتقال من لغة الى لغة باستخدام الرصيد المصطلحي الداخلى فقط . فتعريب الثقافة العلمية يقتضى اللجوء الى ما أسميناه المصطلح الخارجى » (السابق ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو لهذا يدعو الى تطوير اللغة العربية مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم (السابق ص ١٤٢) .

٣ - وعلى نسق ما قال الفهري نجد محمد رشاد الحمزاوي يهاجم اللجوء إلى الترجمة قائلا : « وتزداد القضية تشعبا عندما ننظر إلى الأساليب الفنية التي ترجمت بها هذه المصطلحات . . ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أن كل الترجمات لا تفي فنياتها وعيا علميا مركزا » . كما أن اللجوء إلى الترجمة - في نظره - يثير قضية المطابقة بين المصطلح اللغوي والواقع ، وقضية الترادف بين اللغات . (مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٤ ، ٢٦٥) . ويرى أن اللجوء إلى الترجمة لن يؤتي أكله « إلا إذا استقلت اللغة المترجم إليها بنظرياتها ، وأصبح لها من الزاد الاصطلاحي الذي يوفر لها التكثيف والتحوير والإسقاط » (السابق ص ٢٦٧) .

ب - عدم الدقة عند وضع المصطلح نتيجة عدم الدقة في فهم ما يعبر عنه . ومن ذلك عدم التفرقة بين المصطلحين الإنجليزين nasality nasalization مع أن الأول يعني تسرب الهواء كليا من خلال فتحة الأنف ، والثاني يعني تسرب الهواء من الأنف مع استمرار تسربه من الفم (وذلك كما يحدث في نطق بعض العليل) . وقد استخدم المدققون لأول مصطلح الأنفية ، ولثاني مصطلح التأنيف (دراسة الصوت اللغوي ص ١٠٢ ، ١٠٣) . ومثل هذا يقال عن الفرق بين الغاري palatal والمغور palatalized . فالأول ينطق عن طريق نطق سني في منطقة الغار ، والثاني ينطق باجتماع التلق الغاري مع نطق آخر معين . ويمكن - على ضوء هذا - التفريق كذلك بين الصوت الطبقي velar والمطبقي velarized والصوت المهموس والمهمس ، والصوت المجهور والمجهر .

ج - ترك حرية وضع المصطلحات للأفراد كل بحسب اجتهاده ، وعلى قدر قربه أو بعده من التراث العربي . وخير مثال لذلك المصطلح phoneme الذي وضع له في العربية المقابلات الآتية : فونيم صوتيم - صوتم - فونيمية - صوت مجرد - مستصوت - لفظ - لافظ . ويلاحظ في هذه المصطلحات تنوع طريقة وضعها بين التعريب الكامل والتعريب الناقص والترجمة الحرفية والترجمة الواسعة والتفسير (انظر المسدي : قاموس اللسانيات ص ٧٦ ، ٨٣ ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

د - الخلط بين المصطلح ، والشرح أو التفسير كإطلاق بعضهم « الوحدة الصوتية » على الفونيم ، و « الوحدة الصرفية » على المورفيم ، وبعضهم « علم تأصيل الكلمات » أو « علم تاريخ الكلمات » على ما يقابل المصطلح الانجليزي etymology . وأفضل من هذا إما تعريب الكلمة أو استخدام مصطلح « التأثيل » (المسدي ص ٨٤ و ٢٢٣ ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث ص ٢٤) .

ثالثا : ما ينتقل إلى اللغة العربية من مشكلات تتعلق باللغة أو اللغات المنقول عنها المصطلح . ومن أمثلة ذلك المصطلحان الانجليزيان phonology ، phonetics . فعلى الرغم من كثرة ترددهما في علم اللغة الانجليزي فإننا نجد لها عددا من التفسيرات التي توقع الباحث في حيرة وارتباك :

أ - فقد استعمل دي سوسير اللفظ phonetics للدلالة على ذلك الفرع من العلم التاريخي الذي يحلل الأحداث والتغيرات والتطورات عبر السنين ، وعده من أجل ذلك جزءا أساسيا من الألسنية في حين حدد مجال الـ phonology بدراسة العملية الميكانيكية للنطق ، وعده من أجل ذلك علما مساعدا للألسنية .

ب - أما مدرسة براغ فتستعمل مصطلح phonology في عكس ما استعمله فيه دي سومير ، إذ تريد به ذلك الفرع من الألسنية الذي يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية . ولذلك نجدها تعتبر الفونولوجي فرعاً من الألسنية . أما الفوناتيكس فقد أخرجه معظم رجالها من الألسنية ، واعتبروه علماً خالصاً من علوم الطبيعة يقدم يد المساعدة للألسنية .

ج - واستعملت الألسنية الأمريكية والانجليزية مصطلح فونولوجي لعشرات السنين في معنى « تاريخ الأصوات » ودراسة التغيرات والتحولات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها . وهو حينئذ يكون مرادفاً لما يسمى historical phonetics أو diachronic phonetics أما المصطلح فونتكس فقد استعمل في معنى العلم الذي يدرس الأصوات الكلامية ويصنفها ويحللها من غير إشارة إلى تطورها التاريخي . وإنما فقط بالإشارة إلى كيفية إنتاجها ، وانتقالها ، واستقبالها .

وعلى هذا فالفرعان يعدان من صميم الألسنية ، وإن دخل الأول تحت فروع الألسنية التاريخية ، والثاني تحت فروع الألسنية الوصفية .

د - ومن الألسنيين من رفض الفصل بين ما يسمى فونتكس وما يسمى فونولوجي لأن أبحاث كل منهما تعتمد على الأخرى ، ووضع الاثنيتين تحت المصطلح فونتكس أو تحت المصطلح فونولوجي .

هـ - ومن أجل هذا اللبس ظهر المصطلحان الجديدان phonemics و phonematics ، كبديلين للمصطلح فونولوجي .

و - ومعظم الألسنيين الآن على تخصيص الفونولوجي للدراسة التي تصف وتصف النظام الصوتي للغة معينة . أما المصطلح فونتكس فيقتصر على دراسة أصوات الكلام مستقلة عن تقابلات نماذجها ، وعن تجمعاتها في لغة معينة ، ودون نظر إلى وظائفها اللغوية ، أو حتى معرفة اللغة التي تنتمي إليها . وهم قليلاً ما يستعملون الآن المصطلح فونيمكس ونادراً ما يستعملون المصطلح فونيماتكس .

وقد انتقل الخلاف في مفهوم المصطلحين إلى اللغة العربية فاستعملها الألسنيون العرب كل حسب دراسته ومدرسته الألسنية . كما امتد الخلاف ليشمل كيفية التعبير عن مفهوم كل باللغة العربية فمنهم من أبقى المصطلح فوناتيكس وعربه إلى « فوناتيكا » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « الصوتيات » ، أو « علم الأصوات » أو « علم الأصوات اللغوية » أو « علم الأصوات العام » . وحدث نفس الشيء بالنسبة للمصطلح فونولوجي ، فمنهم من أبقاء وعربه إلى « فونولوجيا » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « علم الفونيمات » ، أو « علم الأصوات » ، أو « علم الأصوات التاريخي » ، أو « علم الأصوات التنظيمي » ، أو « علم وظائف الأصوات » ، أو « علم التشكيل الصوتي » ، أو « علم الأصوات التشكيلي » أو « الصوتية » (دراسة الصوت اللغوي ص ٤٥ - ٤٨ ، وقاموس اللسانيات ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

رابعاً : كثرة ما تقذف به المطبعة كل يوم من أبحاث ودراسات السنية متعددة المنابع والمشارب ، وامتلاء الساحة الألسنية العالمية بالمفاهيم والمصطلحات التي تتزاحم وتتداير . وقد أدى توافر النظريات الألسنية ، وما أنشأته من مصطلحات ، وما استحدثته من مفاهيم جديدة تحتاج الى مصطلحات للتعبير عنها - أدى الى حدوث تراكمات في المفاهيم والمصطلحات التي يتعين نقلها الى اللغة العربية ، مما أظهر المصطلح الألسني العربي بمظهر العاجز عن مواكبة النشاط الألسني العالمي ، واستدعى العجلة في تدارك ما فات ، مما سبب كثيراً من الإرباكات وأدى الى عدد من السلبيات من أبرزها :

أ - اعتماد كثير من المصطلحات الألسنية العربية الحديثة على التعريب أو الترجمة الحرفية ، وبهذا انتقلت مشكلات التعريب والترجمة الى دائرة المصطلح الألسني .

تصنيف المفاهيم يختلف من لغة الى لغة ، ومن ثقافة الى أخرى . ومن الصعب الحصول على لفظ مطابق في لغة ما للفظ آخر ، مما يضع العراقيل أمام الترجمة الدقيقة . والترجمة تقتضي تطويع اللغة مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم ، وهو ما لا يتوفر بسهولة في لغتنا . وترجمة المصطلح الى العربية تقتضي وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي ، وهو ما قد يتعذر الحصول عليه في شكل كلمة واحدة إذا كان المصطلح الأجنبي يكتسب جزءاً من معناه عن طريق ما التصق به من سوابق أو لواحق ، وقد يضطر هذا المترجم الى استخدام لفظين مما يجعل المصطلح صعب التصريف ، ثقيلاً في الاستعمال .

أما التعريب فيقودنا الى القذف بمحيط غريب نوعاً ما داخل محيطنا ، وبمفاهيم مجسدة في ألفاظ لغات أخرى ضمن مفاهيمنا ، وهو ما قد ينفر عنه الذوق العربي . وإن كان مما يخفف من هذا النفور إعطاء اللفظ المعرب الصبغة العربية ، والنطق به على مناهج العرب .

والتعريب يقتضي كذلك تماثلاً أو تشابهاً بين اللغتين في الأنساق الصوتية والصرفية وهو ما لا يكاد يتوفر بالنسبة للغتنا . فالإنجليزية مثلاً تشمل على أصوات ليست في العربية ، وكذا العكس . والإنجليزية تؤلف بين جذر ولاحقة أو سابقة للحصول على مفردة جديدة دون تغيير يذكر في البنية الداخلية للجذر في حين أن العربية لغة اشتقاقية تحدث غالباً تغييراً في صيغة الجذر أو أصل الاشتقاق للحصول على صيغة جديدة (الفهري : المصطلح اللسان ص ١٤٢) .

ويقترح عبد القادر الفهري لاقتحام مشكلة الترجمة البدء بمعاينة الحقول الدلالية في كل من اللغتين ، وإقامة ما يمكن إقامته من مناسبات ، وفرز ما ليس له مقابل في اللغة الهدف وبحسب الحاجة الى الوضع والتوليد . ويرى أن تتبع الحقول الدلالية في اللغتين قد يساعد على تلافي اضطراب الترجمة ، ويضرب لذلك مثلاً بالمصطلح Sign الذي يترجم الى رمز ، علامة ، إشارة ، دليل . فلو نظرنا الى أسرة Sign لوجدنا Symbol من جهة ، و signifier و signified من جهة أخرى . وحين تحدث دي سوسير عن الـ sign بين أنه اعتباطي في حين أن الـ Symbol توجد فيه العلاقة بين الدال والمدلول . فالأقرب أن يترجم Symbol الى « رمز » وأن يترجم Sign الى « دليل » باستعمال نفس المادة المعجمية التي اشتقت منها

الدالّ Signifier ، والمدللول Signified والدلالة signification . أما « علامة » فالأقرب أن تكون ترجمة لكلمة mark .
وأما إشارة فتقابل demonstrative (السابق ص ١٤٣) .

ومع الاعتراف بمشروعية التعريب كوسيلة من وسائل وضع المصطلح العربي ، فإن كثيرا من اللغويين يهرون منه ، وخصوصا إذا كان اللفظ المعرّب مما تنفر منه الأذن العربية مثل استعمال المصطلحات polysony و homonymy و paradigmatic و Syntagmatic وغيرها (انظر الحمزاوي : مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

كما أن منهم من ينظر إلى التعريب كوسيلة مرحلية ينبغي أن تعقبها وسيلة أخرى كالترجمة أو التعريب الجزئي ، كما حدث لمصطلح فونيم الذي فضل بعضهم عليه فيما بعد « الصوتم » أو « الصوتيم » ، وفضل بعضهم « الصوت المجرد » ، أو « الوحدة الصوتية » أو « المستصوت » .

ب - عدم وضع ترتيب لطرق صوغ المصطلح ، وترك الحبل على الغارب لكل مجتهد يسلك الطريق الذي يريد ، ويفضل الوسيلة التي يميل إليها . فإلى جانب الترجمة والتعريب اللذين سبق الحديث عنها نجد طرقا أخرى مثل :

* النحت الذي يتم عن طريق مزج عنصرين أوليين على الأقل ، أو نتيجة لصق أو تركيب خارجي . وطبيعي أن يؤدي استعمال النحت إلى ظهور صيغ جديدة لا تنضوي تحت أي من الموازين الصرفية أو الاشتقاقية ، ولا يقف طولها عند حد .

* الاشتقاق الذي يعد من أكبر خصائص اللغة العربية ، والذي يكسبها طواعية داخلية تمكنها من تلبية كثير من الحاجات الدلالية والمتطلبات المصطلحية . وطاقة الاشتقاق في صوغ المصطلحات لا تنتهي ، لأن الاستعمال قلما يستفرغ كل الاحتمالات الممكنة .

* المجاز ، وهو إحدى طاقات الحركة الدلالية في كل اللغات ، وهو خير معين على استيعاب المدلولات الجديدة دون إدخال أجسام غريبة في اللغة العربية ، ودون إقحام بعض الوسائل التي لا تتلاءم مع طبيعتها . ويستطيع المجاز أن يمد أمام الفاظ اللغة جسورا وقتية تتحول عليها من دلالة الوضع الأول ، إلى دلالة الوضع الطارئ (انظر : المسدي : قاموس اللسانيات ص ٢٩ - ٤٥) .

وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح :

ربما كان من أكثر المشتغلين بتأصيل المصطلح الألسني ورسم حدوده اثنان ، هما عبدالقادر الفاسي الفهري ، ومحمد رشاد الحمزاوي . ولكن ما قدماه في النهاية لا يعدو أن يكون خطوة على الطريق ، وبعضه قد أثبت الواقع العملي عدم ملائمته .

ومن أهم ما وضعه الفهري من أسس :

١ - اللجوء إلى وسائل التوليد المختلفة سواء منها ما يخص المعنى فقط (المجاز والتضمين) ، أو ما يخص المبنى فقط (المعرّب) ، أو ما يخص المبنى والمعنى (الاشتقاق والنحت والتركيب والترجمة والتعريب الجزئي . . .) .

٢ - البدء بالاشتقاق والاستفادة من معاني الصيغ والأوزان .

٣ - استخدام النحت قليلا مثل نقل السابقة allo إلى « بَدْ » مختصرة من « بديلة » كما في allophone التي اقترح لها : بَدْ صوت (= بديلة صوتية) و allomorph التي اقترح لها : بَدْ صرفية (= بديلة صرفية) .

٤ - اللجوء إلى المعرب حين يستعصى إيجاد مقابل عربي مقنع كما في كلمة acoustics التي اقترح لها : أكوستيات .

٥ - تفصيل التعريب الجزئي على التعريب الكلي ، لأنه أخف على اللسان من النحت والتركيب أحيانا مثل : metalanguage التي اقترح لها : ميتالغة ، و psycholinguistics التي اقترح لها : سيكولسانيات .

٦ - إجازة النسب إلى المثنى والجمع مثل bilabial التي استعمل مقابلا لها : شفثاني ، و bilateral التي استعمل مقابلا لها : جانينائي ، و dental التي استعمل مقابلا لها : أسناني . وعلى هذا يقاس في bilingual : لُغَتَانِي .

٧ - الابتعاد عن المصطلح القديم ما أمكن .

(المصطلح اللساني ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

وأما الحمزاوي فقد طرح تصوره من خلال كتاب له بعنوان « المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها » نشره عام ١٩٨٦ . وإذا كان الكتاب هاما في تاريخ المصطلح العلمي ، وفي تناوله لقرارات المجامع والهيئات والمؤتمرات حول منهجيات المصطلحات العلمية ، فهو لم يبلور رأيا نهائيا يمكن أن يكون مرشدا لكل من يشتغلون بوضع المصطلح ، ولم ينته إلى مبادئ تصلح قانونا يلتزم به الجميع . ومع ذلك فإن ما وضعه من قواعد سماها « مبادئ التنميط » يعد جديدا ومفيدا . وسنشير إلى بعض آرائه حول التنميط فيما بعد .

وفي تصوري أن ضبط العلم عن طريق ضبط مصطلحاته يمكن أن يتم باتباع الخطوات الآتية :

أولا : إنشاء مركز للمصطلحات الألسنية مزود بأحدث الأجهزة التي تساعد على التخزين والتصنيف والاستدعاء .

ويتبع المركز فريق عمل يجيد كل عضو فيه إحدى اللغات الأوربية إلى جانب العربية ، ويتم عن طريقه مسح المصطلحات الألسنية المستعملة خلال العشرين سنة الأخيرة في اللغات الأربع : العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية ، مع تحديد مفهوم كل مصطلح تحديدا دقيقا . ويتم عملية المسح من طريقين :

أ - المؤلفات ، من خلال قوائم المصطلحات الملحق بها .

ب - معاجم المصطلحات والموسوعات الألسنية .

وبوأكب هذه العملية عملية أخرى في التراث اللساني العربي بهدف حصر المصطلحات الألسنية التراثية ، وتحديد مفاهيمها ، وترتيب هذه المصطلحات في قوائم تارة ، وحسب مجالاتها اللغوية تارة أخرى حتى يسهل الرجوع إليها عند وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي .

وما أظن أن هذه الغاية يمكن تحقيقها في ظل المجامع اللغوية القائمة التي يتوزع مجهودها المصطلحي بين مختلف

العلوم والفنون ، والتي ينقص معظمها الكفاءات اللغوية المتنوعة التخصص سواء على مستوى أجهزة التحضير أو الإعداد أو المتابعة ، أو على مستوى البت وإصدار القرار . كما يعيب أمثال هذه المجامع إيقاعها البطيء ، وحركتها المثقولة ، وعجزها عن متابعة سيل المصطلحات والمفاهيم التي ينهمر علينا في كل يوم دون رصد أو متابعة ، فضلاً عن دراسته ووضع المقابلات العربية له . وقد كان بطء المجامع الشديد هو السبب الأساسي في فتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات الشخصية ، وإفساح المجال أمام الأفراد ليصلوا في الميدان ويحولوا ، ثم تدخلت بواعث السبق ، وحب الريادة فأفسدت أي محاولة للتنسيق . ولم يكن من المعقول أن نطلب من الباحثين أن يكفوا عن القراءة والبحث والتأليف والتعريب حتى يتلقوا الإذن من المجمع اللغوي (أو المجامع اللغوية) . ولهذا تواردت الاجتهادات دون ضابط أو رابط ، ولم تنجح القرارات التي تصدرها المجامع في توحيد المصطلح ، مثل القرار الذي أصدره المجمع العلمي العراقي عام ١٩٧٧ أن يكون هو المرجع الوحيد في وضع المصطلحات (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ١٥) فظل هذا القرار صرخة في واد أو نفخة في رماد .

ثانياً : أن يدعي جميع المشتغلين بالألسنية الحديثة ، والمتصلين بمنابعها الأجنبية إلى تزويد المركز بكل ما يصادفهم من مفاهيم جديدة ومصطلحات ، ومناشدة المؤلفين والباحثين منهم التزام وضع المصطلح الأجنبي إلى جوار ما يستعملونه من مقابل عربي ، وإعداد قوائم في آخر بحوثهم تضم المصطلح الأجنبي ، ومقابلة العربي حتى تسهل متابعة هذه المصطلحات ودراستها .

ثالثاً : احتفاظ المركز بقائمة بأسماء وعناوين الألسنيين العرب ، وإيجاد جسور اتصال معهم ، بدلاً من ترك الأمور لمجرد الصدفة . وسيحقق هذا الاقتراح غاية أخرى وهي عقد ما أثبت من صلات بين الأجيال المتتابة ، وبين علماء الأقطار العربية ، مما سيقطل من الفجوة الموجودة بينهم ويزيل الجفوة التي تحكم علاقاتهم العلمية بعضهم مع بعض .

رابعاً : العمل على تأليف معاجم متنوعة للمصطلحات الألسنية تبنى على منهجية واضحة ويتعاون جميع الألسنيين العرب . وفي تصوري أننا في هذه المرحلة - نحتاج الى ثلاثة أنواع من المعاجم :

- ١ - معجم أحادي اللغة يجمع بين المصطلح العربي والتعريف به .
- ٢ - معجم ثنائي أو ثلاثي اللغة ، يبدأ بالمصطلح الأجنبي ، ويضع مقابله مصطلحاً عربياً واحداً يختاره الألسنيون بناء على منهجية المعجم ، ومن بين المفاهيم والمصطلحات التي ثبتت واستقرت .
- ٣ - معجم كالسابق ، ولكنه لا يكتفي بمصطلح عربي واحد ، وإنما يحشد أمام المصطلح الأجنبي كل ما ورد في مؤلفات الألسنيين من مقابلات .

وسيكون المعجم الثاني بمثابة المرشد أو الدستور لجميع المؤلفين في الألسنية ، على أمل أن يلتزموا بمصطلحاته في كل ما يكتبون . أما المعجم الثالث فسيكون بمثابة الدليل للقراء الذين قد يصادفهم في قراءاتهم مصطلحات متعددة ، ولا يفتنون إلى ترادفها أو تقاربها ، ولا يتنبهون إلى الرابطة التي تجمع بينها .

خامساً : اتخاذ المعجم الثاني الذي سبق اقتراحه معياراً للاستخدام ، بعد وضع الأسس والأولويات التي سيتم بمقتضاها اختيار مصطلح واحد من بين جميع مرادفاته ، أو وضع مصطلح بديل في حال عدم وفاء المصطلحات المستخدمة بالغرض .

سادساً : يجب أن يتم فرز المصطلحات الألسنية على مراحل ثلاث ، على النحو التالي :

١ - استبقاء المصطلحات التي تحقق الشروط الآتية :

أ - ألا يكون اللفظ معنى آخر في ميدان الألسنية بمعنى ألا يكون من المشترك اللفظي .

ب - أن يكون اللفظ قليل الحروف سهل النطق به .

ج - أن يكون اللفظ سهل التصريف ، طبعاً في التوليد والاشتقاق . واستبعاد ما سوى ذلك .

٢ - ويتم في المرحلة الثانية فرز المصطلحات التي حققت الشروط السابقة بناء على الأولويات التالية (وهي مستمدة من قرارات ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة - الرباط ١٩٨١) :

أ - وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي .

ب - استخدام المصطلح في التراث العلمي العربي ، وإلا فيتم توليده عن أحد الطرق الآتية بالترتيب :

الاشتقاق - المجاز - النحت - التعريب .

ج - الألفاظ غير العربية يبدأ منها بما عُرِّب أي خضع للنمط العربي ، ووافق شكله الصيغة العربية .

٣ - فإذا أفرز تطبيق المعايير السابقة أكثر من مصطلح للمفهوم الواحد أخضعنا المصطلحات المترادفة لمبادئ الترميم الآتية (وهي مأخوذة من كتاب المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها لمحمد رشاد الحمزاوي) :

أ - رواج المصطلح بين المستعملين له من المتخصصين . ويتم ذلك عن طريق الإحصاء وترتيب الألفاظ حسب شيوع استعمالها ترتيباً تنازلياً . وهو ما يفترض أن يكون قد سبق إعداده من خلال عمليات المسح المشار إليها في بند أولاً .

ب - ملائمة المصطلح ، فبفضل ما قلّت ميادين استعماله على ما توزع على ميادين كثيرة .

ج - توفر الحافزية ، أي ما يحفز المستعمل على اختياره ، إما لصيغته البسيطة أو لتركيبه الصوري الواضح ، أو لعدم غرابته ، أو لموافقته لأنماط التجمعات الصوتية العربية .

وبعد : فإذا كان من العسير فرض منهجية إجبارية على العلماء فإن من الممكن البدء بالاتفاق على الخطوط الرئيسية ، والدعوة إلى الثاني قبل طرح المصطلح للاستعمال . ولعل قرار المجمع العلمي العراقي بعدم تثبيت مصطلح - إلا بعد ستة أشهر على تاريخ نشره يفيدنا في هذا الخصوص .

ويجب ألا ننسى أن أهم معيار لقياس نجاح المصطلح هو مدى شيوعه وتقبله بين أبناء المهنة الواحدة . فلا فائدة من مصطلح يظل حبيس الأدراج . وكم رأينا من مصطلحات تقرأها المراجع دون أن يكتب لها الرواج أو الاستحسان عند أهل الاختصاص .

مراجع البحث

- ١ - باي (ماريو) :
أسس علم اللغة - ترجمة أحمد مختار عمر . عالم الكتب ط الثالثة ١٩٨٧ م .
- ٢ - حجازي (محمود فهمي) :
علم اللغة العربية - وكالة المطبوعات بالكويت د . ت .
- ٣ - الحمزاوي (محمد رشاد) :
مشاكل وضع المصطلحات اللغوية - ندوة اللسانيات واللغة العربية - نشر المطبعة الثقافية بتونس ١٩٨١ م .
- ٤ - الحمزاوي (محمد رشاد) :
المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية .
أ - ط أولى - حوليات الجامعة التونسية ١٩٧٧ م .
ب - ط ثانية - الدار التونسية للنشر ١٩٨٧ م .
- ٥ - الحمزاوي (محمود رشاد) :
المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنظيمها - دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٦ م .
- ٦ - الحلولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة التطبيقي - مكتبة لبنان ١٩٨٦ م .
- ٧ - الحلولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة النظري - مكتبة لبنان ١٩٨٢ م .
- ٨ - شابي (عبدالرسول) :
معجم علوم اللغة - مجلة اللسان العربي - مجلد ١٥ جزء ٢ عام ١٩٧٧ م .
- ٩ - ضيف (شوقي) :
معجم اللغة العربية في خمسين عاما - أولى ١٩٨٤ .
- ١٠ - همر (أحمد مختار) :
دراسة الصوت اللغوي - عالم الكتب - ط الثالثة ١٩٨٥ م .
- ١١ - الفهري (عبدالقادر الفاسي) :
المصطلح اللساني - الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات - سلسلة اللسانيات عدد ٦ عام ١٩٨٦ م .
- ١٢ - كاتينو (جان) :
دروس في علم أصوات العربية - ترجمة صالح القرماضي - تونس ١٩٦٦ م .
- ١٣ - جميع اللغة العربية بالقاهرة :
مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما - القاهرة ١٩٨٤ م .
- ١٤ - المسدي (عبدالسلام) :
قاموس اللسانيات - الدار العربية للكتاب ١٩٨٤ م .
- ١٥ - مطلوب (أحمد) :
جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات - الملتقى الدولي الثالث للسانيات تونس ١٩٨٥ م .
- ١٦ - معهد الإنماء العربي :
مجلة الفكر العربي (عدد خاص عن الألسنة) - بيروت ١٩٧٩ م .

١٧ - الملتقى الثالث للسانيات :

اللسانيات واللغة العربية - تونس ١٩٧٨ م .

١٨ - مونتان (جورج) :

مفاتيح الألسنية - ترجمة الطيب البكوش - تونس ١٩٨١ م .

١٩ - نخبة من اللغويين العرب :

معجم مصطلحات علم اللغة الحديث - مكتبة لبنان ١٩٨٣ م .

- ٢٠

Crystal (David) :

The Cambridge Encyclopedia of language, Cambridge, 1988.

The Phonetic Society of Japan : A Grand Dictionary of Phonetics, Japan, 1981

- ٢١



التفاهم اللغوي عملية متعددة المراحل تشمل الإنتاج ، والانتقال والاستقبال . والإنتاج والاستقبال عمليتان فسيولوجيتان يساهم في الأولى المخ وجهاز النطق وفي الثانية المخ وجهاز السمع . أما عملية النقل فعملية فيزيائية تعتمد على الوسط الذي ينتقل فيه الكلام وهل هو الهواء مثلاً أو سلك التليفون .

أولاً .. الإنتاج

عمل المخ :

يقوم المخ بعمله بواسطة الجهاز العصبي ، وهو يتكون من عدد كبير من الخلايا العصبية التي يسمى كل منها باسم النيورون neuron إلى جانب عدد كبير من الخيوط العصبية التي تربط بين المخ والعضلات المحركة للأعضاء الكلامية . وفي داخل الخلية العصبية يحدث تفاعل كيميائي بين العناصر المكونة لها ينتج تياراً كهربائياً - كالذي يحدث في بطارية السيارة بين الحامض والعمود الموجب - وتحمل الخيوط العصبية التيار إلى العضلات فتسبب حركة أعضاء الكلام . ولا بد لإنتاج تيار كهربائي كاف لتحريك عضلة ما من تعاون عدد كبير من الخلايا المتجاورة ، يطلق عليها اسم (وحدة تحريك) motor unit وتنتج فيها بينها تياراً يساوي ضغطه $\frac{1}{2}$ فولت أي جزءاً من ١٢٠٠ جزء من ضغط التيار الذي يمر بالمصباح الكهربائي .

التخطيط والأتماتية :

يخطط المخ للعملية الكلامية باعتبارها كلاً لا يتجزأ . وهذه العملية معقدة تتطلب توجيه ، ومراقبة ، وعدد كبير جداً من العضلات وتصحيح سلوكها . وبفضل القدرة المسماة بالأتماتية ، يمكن للمخ السيطرة عليها . ونحن نعتبر عملية تناول الشاي عملية واحدة مع أنها في الواقع عمليات متعددة من فتح الأصابع وتحريك اليد في اتجاه الكوب

تحليل عملية التَّكَلُّم وبعض نتائجه التطبيقية

عبد الرحمن أبو رجب

أستاذ في قسم اللغة العربية - جامعة الكويت سابقاً .

والقبض عليه ورفعته وتحريك اليد في اتجاه الفم وشفط الشاي . . الخ . وبفضل كثرة المزاولة ينفذ المخ كل هذه الأعمال ويراقبها في نفس الوقت الذي يشرف فيه على عملية المحادثة^(١) كما أننا نشاهد أن المتدرب على الكتابة بالآلة الكاتبة ينظر إلى موضع كل حرف ويحرك إصبعه نحوه ويضغط على المفتاح بنسبة معينة من القوة ولكنه بعد أن يتم تدريبه يقوم بهذه الأعمال دون نظر إلى موضع الحرف . وترجع هذه الكفاءة إلى التدريب الطويل الذي يحقق ما يسمى بأتمتية الأداء .

وعندما يحاول شخص نطق العبارة (التلميذة تقرأ في كتاب) فإن على المخ القيام بالعمليات الآتية :

- أ - التحليل التركيبي (النحوي والصرفي) للعبارة .
- ب - توجيه العضلات لتحريك كل من الأعضاء الصوتية على نحو معين .
- ج - مراقبة حركة كل عضو وتصحيحها إذا ما وقع في خطأ .

أ - التحليل التركيبي :

تعتبر القواعد النحوية والصرفية المدونة في الكتب صورة خارجية لنظام سيكولوجي إدراكي عند أبناء اللغة ، يسميه تشومسكي بالقدرة اللغوية competence^(٢) وقد يكون من المسلم به أن الطفل الصغير لا يستطيع تمييز الحال من التمييز ، ولكنه يستطيع ولا شك إدراك الخطأ الذي يقع فيه أجنبي يتعلم العربية . وبفضل القدرة اللغوية الكامنة في المتكلم ، يستطيع المخ أن يخطط لترتيب الكلمات من سواكن وحركات معينة وأن يكون الجملة من كلمات ترتب على نحو معين^(٣) . وقبل نطق العبارة المذكورة يتحتم على المخ الوصول إلى الأحكام التالية التركيبية :

١ - التلميذة تقرأ في كتاب = جملة إسنادية خبرية .

٢ - الجملة = مسند إليه + مسند .

= (تعريف + اسم + تانيث) + مسند

= (تعريف + اسم + تانيث) + (فعل + تانيث) + مكمل

= (تعريف + اسم + تانيث) + (فعل + تانيث) + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلميذة + فعل + تانيث + حرف + (اسم + تنكير + تذكير)

= التلميذة + تقرأ + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلميذة + تقرأ + في + (اسم + تنكير + تذكير)

= التلميذة + تقرأ + في + كتاب .

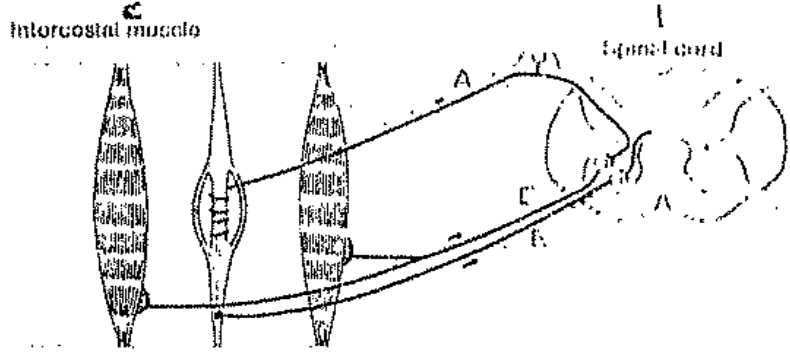
(١) نقل عن مرجع ٥ ص ٧٧

(٢) مرجع ٣

(٣) مرجع ٥ ص ٧١ - ٧٢

ب - التوجيه والمتابعة :

ينتقل المخ بعد هذا إلى توجيه العضلات للقيام بحركات معينة ، ومراقبة أداؤها في نفس الوقت بواسطة عملية الإرجاع (feed back)^(١) ، فيصدر المخ تعليماته إلى العضلات بالتحرك في ضوء الرصيد المخزن فيه من خبرات كلامية سابقة موزعة في الآلاف بل والملايين من خلاياه . وفي نفس الوقت تتم عملية الإرجاع بواسطة مستشعرات sensors موزعة في بنية العضلات المتحركة . وتتصل هذه المستشعرات بدورها بالمخ بواسطة خيوط الاستشعار العصبية فتنتقل إليه صورة لما يحدث فيها .



شكل (١)

الرسم يمثل (١)

١ - قطاع من النخاع الشوكي .

٢ - عضلة في الحجاب الحاجز ، الجزء الأوسط يقسم بعملية الإرجاع والجزء الأيمن والأيسر يقومان بالحركة .

B - الخيوط العصبية الحاملة للشحنة الكهربائية .

A - الخيوط العصبية التي تقوم بإرسال رسالة الإرجاع

ويصدر المخ أمره لكل عضلة من عضلات العضو بتحريكه على نحو يحدث العملية الأتائية الخاصة بالعضو من أول العبارة إلى آخرها ، ويلتزم بين حركته وحركات الأعضاء الأخرى لإنتاج الأثر الإدراكي الذي يمكن السامع والتكلم من تقسيم العبارة إلى أجزاء يطلق عليها الأصوات (أ ، ت ، ل ، الخ) .

وقد شبهنا في مكان آخر الحدث اللغوي بفطيرة مكونة من رقائق يرص بعضها فوق بعض ، ثم تقسم إلى قطع تتكون كل منها من جزء من الرقيقة العليا وجزء من التي تحتها والتي تحتها وهكذا .

صفات الصوت									
د	ى	م	ل	ي	ت	ا	الاصوات	الاعضاء	
استمرار	انفراج	تلاص	استمرار	انفراج	استمرار	فتح	الاشعاع	اللسان	
لسان الاسنان	ارتفاع اللام	استمرار	لسان اللثة	ارتفاع اللام	لسان اللثة	انخفاض			
استمرار	استمرار	استمرار	استمرار	ذبذبة	عدم ذبذبة	ذبذبة	الاوراق الصورية		
استمرار	استمرار ثم فتح عو القم	فتح عو الالف	استمرار	استمرار	استمرار	فتح عو القم	اللهة		
حركة المضمر									

شكل (٧)

الفتحة = فتح العفوين + انخفاض اللسان + ذبذبة الأوتار الصوتية + فتح عو القم .
 ت = فتح العفوين + لس اللسان اللثة + توقف للذبذبة + استمرار فتح عو القم .
 الكسرة = انفراج العفوين + ارتفاع اللسان اللام + ذبذبة الأوتار + استمرار فتح عو القم .
 اللام = استمرار فتح العفوين + استمرار لس اللثة + استمرار اللبائية + استمرار فتح عو القم .
 الهم = تلاص العفوين + استمرار لس اللثة + استمرار اللبائية + فتح عو الالف .
 الكسرة = انفراج العفوين + ارتفاع اللسان اللام + استمرار اللبائية + استمرار فتح عو القم .
 اللال = استمرار انفراج العفوين + لس اللسان اللسان + استمرار اللبائية + استمرار فتح عو القم .
 شكل (٧) يمثل حركات الأعضاء الشفوية - وصفات الاصوات

ويجب أن نلاحظ أن الصوت ينتج من عمليات بعضها أساسي يوجد فيه في كل موقع ، مثل فتح ممر الأنف عند النطق بالميم ولسن اللسان الأسنان مع الدال ، وبعضها مجرد استمرار لحركة العضو الذي قام بها لنطق الصوت السابق ، وليس من الضروري أن توجد في كل موقع ، وذلك كالتقاء اللسان مع اللثة عند النطق بالميم لمجاورتها للام ، وتلك الصفة لا توجد عند نطق الميم بعد فتحة مثلاً في مثل (لام) .

وتتطلب هذه العمليات المتوالية والمتعددة تحريك عدد كبير من العضلات . ويفضل الأوتوماتية ، وهي قدرة نحصل عليها بالتدريب في مرحلة الطفولة ، يقوم المخ بهذه العمليات المعقدة بآلية فورية مع مراقبة كل عضلة وتصحيح عملها إذا لزم هذا ، كما يراقب مركز المراقبة سفن الفضاء ويصحح مدارها^(٥) .

انظر الشكل (٣)

عمل الأعضاء الصوتية :

نتيجة للنشاط العصبي الذي يقوم به المخ تتحرك الأعضاء الصوتية لإنتاج العبارة ، وتتلخص عملياتها فيما يأتي :

١ - إنتاج الزفير بضغط الحجاب الحاجز على الرئتين وطرده إلى خارج الجسم عن طريق الممرات والفراغات النطقية .

٢ - تدخل الحنجرة بقف ممر الهواء قفلاً تاماً لإنتاج الهزمة أو بالانفتاح الجزئي لإنتاج همس أو الانفتاح القليل مع التوتر لإنتاج الجهر .

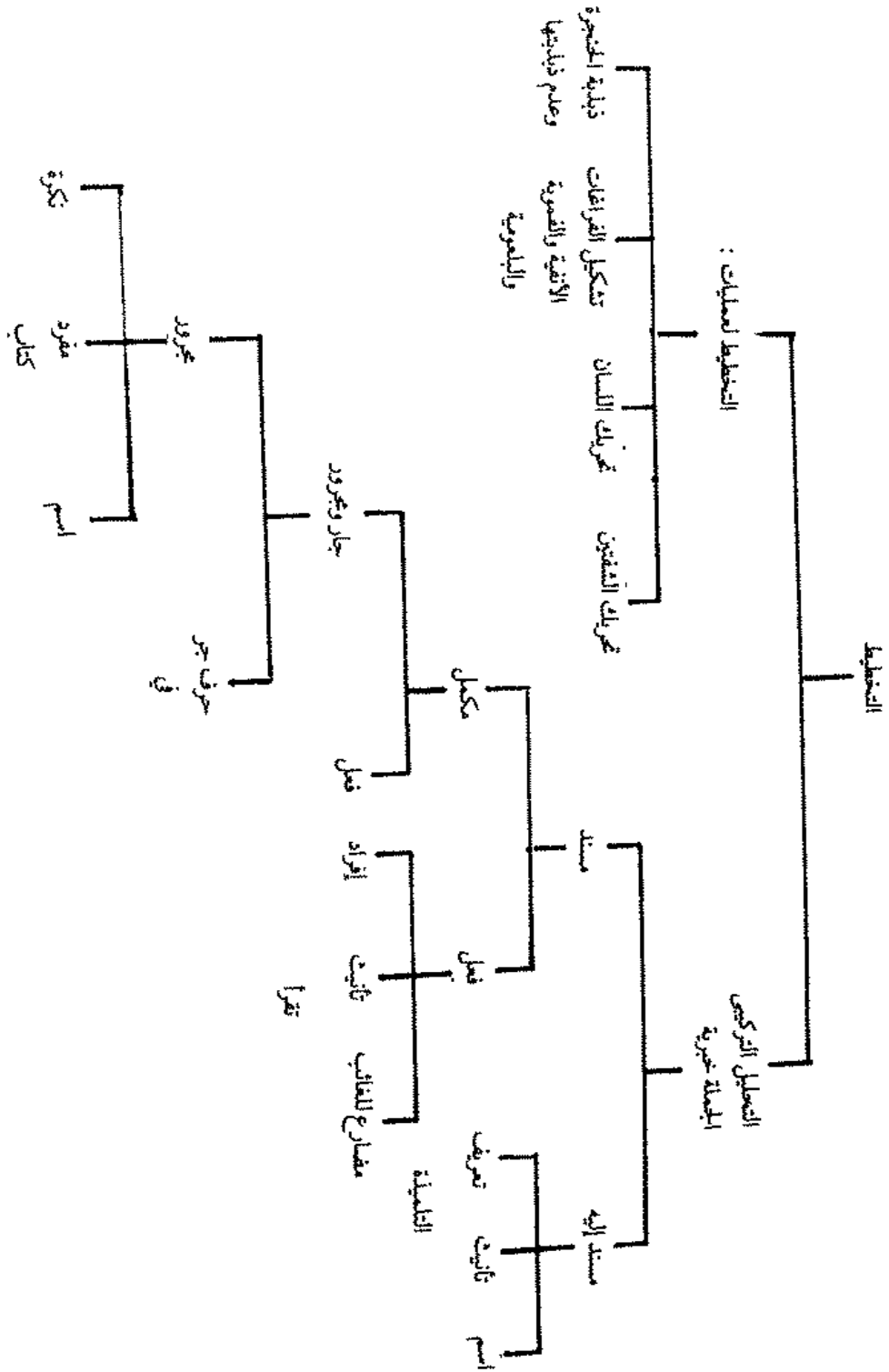
٣ - تدخل المريء بالانقباض والتراخي فوق منطقة الحنجرة لإنتاج العين والحاء والهاء .

٤ - تدخل اللهاة لفتح ممر الفم لإنتاج الأصوات الغموية أو ممر الأنف لإنتاج الأصوات الأنفية .

٥ - حركات اللسان وموقعه من الفم وقربه من بعض أجزاء سقف الفم لإنتاج الحركات أو التلامس معها لإنتاج بعض السواكن .

٦ - حركة الشفتين بالتلامس أو الانفراج أو الاستدارة لإنتاج الميم والباء والواو أو المساهمة في إنتاج الحركات . . الخ .

وقد كان الوصف الصوتي قديماً ، من عهد الهنود وسيبويه ، وحتى منتصف هذا القرن يعتمد على وصف الحركات العضوية عند إنتاج كل صوت . ثم حدث تطور في معارف اللغويين ، بعد أن ساهم الفيزيائيون وعلماء الأعصاب والتشريح في دراسة الكلام فدخل إلى الوصف العضوي للأصوات الوصف الفيزيائي لما يحدث أثناء انتقال الصوت إلى السامع . واستفاد اللغويون كذلك من الأجهزة التي يستعملها الفيزيائيون وعلماء التشريح والأعصاب .



شكل (٣)

ضغط الهواء وقياسه^(٦) :

يعتبر ضغط الهواء من العناصر الهامة في إنتاج الصوت . ولا يكون الضغط ثابتاً خلال العملية الصوتية كلها بل إنه يتفاوت قوة وضعفاً ، كما يحدث في البالون المطاطي الذي ينتهي بزمارة يمر الهواء بها فتحدث الصوت . ولو فرض أن ضغطنا على جسم البالون ضغوطات متوالية فإننا نسمع دفعات متوالية مختلفة القوة . وهذا ما يحدث عند خروج الهواء من الرئة ، حيث يقوم الحجاب الحاجز بإحداث اختلافات في مدى الضغط الواقع على الرئة . ويتفاوت الضغط بين نوع من الأصوات ونوع آخر ، فيكون قوياً مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية المهموسة ، وقليلًا مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية المجهورة وأقل في بقية الأصوات . كما يقسم الضغط - بواسطة النبضات التي أشرنا إليها - الحدث اللغوي إلى مقاطع يتفاوت ضغطها ويطلق على هذه الظاهرة اسم (النبر) .

وتعتمد قوة الضغط على عنصرين : كمية الهواء وكيفية انسيابه - أما كمية الهواء في عملية الزفير فإنها تبلغ خمسة لترات تحتفظ منها الرئتان بمقدار $1\frac{1}{2}$ لتر حتى لا تلتصق جدرانها . أما الكمية الباقية فيكون ضغطها عادة ١٦٠ جراماً تستهلك منها العملية الكلامية ما بين ٣ ، ١٥ جراماً . ومنها تستهلك ذبذبة الأوتار الصوتية ما يعادل جرامين . أما الانسياب فإنه يزيد أو يقل حسب اتساع أو ضيق الممر الذي يسير فيه الهواء وما يحدث فيه من تدخلات . وهناك قوانين رياضية يمكن بواسطتها الوصول إلى مقدار الضغط بواسطة حجم الهواء وانسيابه كماً وشكلاً . ويمكن قياس ضغط الصوت اللغوي باستعمال جهاز يسمى راسم الانسياب pneumotachograph يوصل بحاسوب يتصل في نهايته الأخرى براسم ذبذبات oscilloscope فتظهر على شاشته الخطوط البيانية الممثلة لحجم الهواء وانسيابه وضغطه . ويوجد إلى جانب هذا الجهاز مقاييس أخرى لمعرفة مقدار الضغط في الفم والأنف .

انظر شكل (٤)

وقد وجد بالتجربة أن ضغط الهواء المستعمل في النطق يختلف تبعاً للجنس والسن .

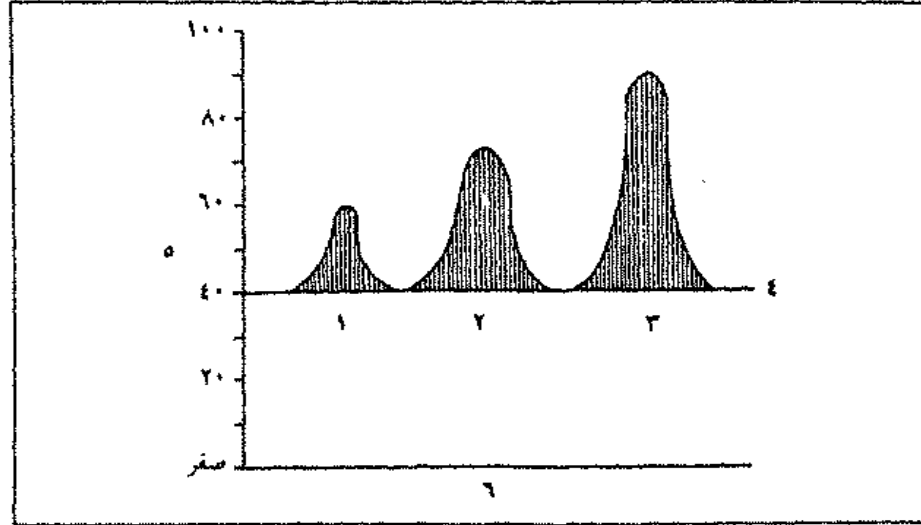
انظر شكل (٥)

سقف الحنك :

يرتفع اللسان بمختلف أجزائه في اتجاه سقف الحنك لإنتاج أنواع من الأصوات هي اللهوية والرخوة (أي التي يتلامس منها اللسان مع الجزء الرخو من سقف الحنك) والصلبة واللثوية . وقد كان موضع اللسان يحدد من قبل بواسطة صناعة سقف حنك صناعي للمتكلم يغطي بطبقة من مسحوق الطباشير ويوضع منطبقاً على سقف الحنك ثم ينطق المتكلم بكلمة فيها صوت واحد يلمس فيه اللسان السقف ، فتنتج صورة التقائهما بمسح الطباشير . وقد تطورت هذه الوسيلة البدائية أخيراً إلى جهاز دقيق يسمى (الراسم الكهربائي لسقف الحنك) electropalatograph وهذا الجهاز يتكون من سقف حنك صناعي مثبت فيه عدد من الرؤوس الإلكترونية الموصلة بأسلاك إلى شاشة عرض بها عدد من المصابيح يتصل كل منها بأحد الرؤوس . وعندما يلمس اللسان جزءاً من سقف الحنك تضئ المصابيح المتصلة بالأجزاء التي يلتقي بها . ويقوم الجهاز برسم صور متوالية لتلامس اللسان مع السقف ، وبذلك يمكن الحصول على سلسلة من الصور تمثل ما يحدث في العبارة كلها لا في صوت واحد فقط ويمكن اختزان هذه الصور في ذاكرة حاسب متصل بالجهاز واستدعاؤها لدراساتها عند الحاجة ، كما يمكن طبع هذه الصور متوالية حسب حركات اللسان .

انظر الشكل (٦)

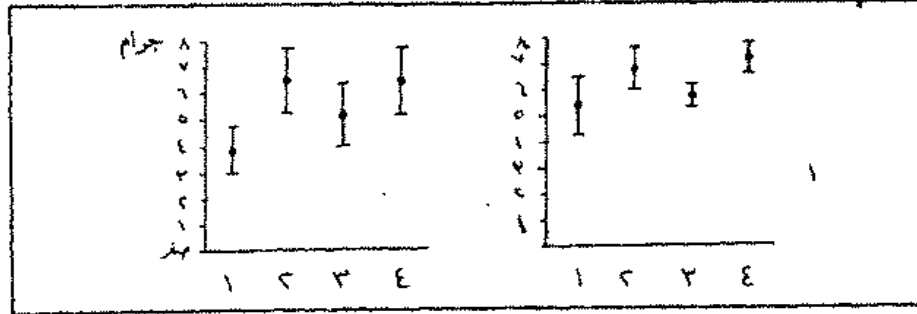
(٦) ص ٤ إلى ٨ من البحث ملخص من مرجع ١ ص ٣٥ - ٧١



شكل (٤)

كمية الهواء اللازمة عند التنفس والمحادثة والصباح

- ١ - الكمية عند التنفس.
- ٢ - الكمية عند المحادثة.
- ٣ - الكمية عند الصباح.
- ٤ - مستوى وضع الراحة.
- ٥ - الخط البياني الممثل للكمية الكلية التي يمكن أن توجد في الرئة (الخط الراسي).
- ٦ - الخط المميز لتوسع النشاط الرئوي.

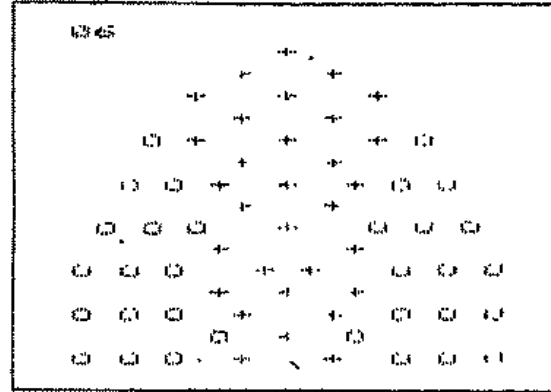


شكل (٥)

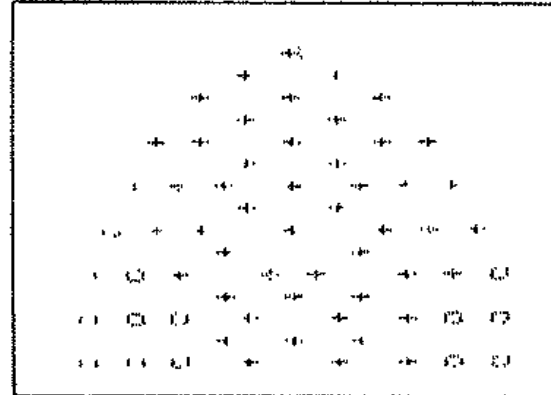
مقارنة بين نطق الرجال والنساء

الشكل (١) على اليمين يمثل نطق النساء والشكل (٢) على اليسار يمثل نطق الرجال والخط الراسي في الشكلين (١) و (٢) لقياس ضغط الهواء داخل الفم بالجرام. والخط الأفقي فيها لبيان نوع الصوت كما يلي:

- ١ - انفجاري مجهور.
- ٢ - انفجاري مهموس.
- ٣ - احتكاكي مجهور.
- ٤ - احتكاكي مهموس.



في المصرية - بيع (فعل أمر)



في المصرية - بيع (مصدر)

شكل (٦)

مقارنة بين وضع اللسان عند النطق بالحركة (ى ي) والحركة (ى س ن) وذلك في الكلمتين المصريتين بيع (فعل أمر) وبيع (مصدر).
لاحظ الفرق بين عدد الدوائر وموضعها في الرسم

ويستفاد من هذا الجهاز في علاج عيوب الكلام ، وخاصة عيوب تكوين سقف الفم .
مشاهدة العمليات العضلية لأعضاء النطق :

لا يكتفي علماء الأصوات المعاصرون بوصف النشاط الظاهري للعضو ، بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى وصف حركات العضلات التي تكونه أو التي تتحكم في حركته . وهم يستفيدون في ذلك بعدد من الأجهزة أهمها :

أولاً : المجهر الخيطي :

وهو جهاز مصنوع من خيوط زجاجية شفافة ومرنة ، من حزمتين إحداهما تنقل الضوء إلى جزء معين من فراغات النطق الداخلية من مصدر خارجي (كالبطارية) والأخرى تنقل الصورة الممثلة لحركة الأعضاء داخل الفراغات إلى الخارج . ويسمى الأولى ٩/٦٠ ملليمتر والثانية ١/٦ ملليمتر ، أي أن سمك الجزأين معاً يعادل ثلاثة أجزاء من ألف جزء من السنتيمتر . وتنتهي حزمة الضوء بمصباح وحزمة الصور بعدسة تنقل الصورة إلى مرآة خارجية . وتخرج الحزمتان من خلال الفراغ الأنفي حتى تصلا إلى مقربة من اللهاة مثلاً ، أو إلى مسافة أكبر حتى تصل إلى البلعوم أو إلى منطقة الحنجرة . ومن هذه الأوضاع الثلاثة يمكن مشاهدة حركات اللهاة عند إنتاج الأصوات الأنفية والفموية ونشاط البلعوم عند النطق بالحاء والعين والهاء ونشاط الحنجرة عند النطق بالهمزة أو عند إحداث صفة الجهر . ومن الممكن توصيل الجهاز بآلة تصوير سينمائية وجهاز تسجيل صوت حتى يمكن تسجيل أداء العضو أو الأعضاء صوتياً وحركياً للرجوع له عند الحاجة .

ثانياً - جهاز التصوير بأشعة اكس :

ويستعمل هذا الجهاز لتصوير حركات الأعضاء الداخلية من خارج الجسم . والجهاز من ثلاثة أجزاء : مولد أشعة اكس ، ومستقبل للأشعة ، وحاسوب يجمع بين المعلومات الصادرة من المستقبل وأية أجهزة أخرى كأجهزة قياس الضغط مثلاً . واستعداداً لعملية التصوير نقوم بالعمليات الآتية :

أ - يثبت عندد من الرؤوس المشعة محيط كل منها ٣ ميلليمتر تقريباً ، اثنتان على كل من اللسان والفك الأسفل والشفيتين ، وهذه هي الأجزاء المتحركة في الفم وواحدة بين الشفتين الأماميتين في الفك الأعلى أو على عظمة الفم وهما جزءان ثابتان .

ب - تصور منطقة الفم والأسنان والشفيتين قبل النطق وستظهر الرؤوس المشعة كلها بما فيها التي فوق الأجزاء الثابتة والتي فوق الأجزاء المتحركة .

ج - تصور حركات الأعضاء خلال الكلام بسرعة قدرها ١٤٠ إطاراً في الثانية لفترة ست ثوان فتتحرك الرؤوس المشعة المثبتة على الأعضاء المتحركة .

د - تنقل الصور المتوالية إلى شاشة راسم الذبذبات كما تنقل الصور الثابتة (ب) لمقارنة مقدار حركة الأعضاء كما يمكن طبع فيلم إيجابي من الفيلم السلبي للرجوع إليه عند الحاجة . ويستفاد من هذا الجهاز فيما يلي :

أ - بيان حركات اللسان بالنسبة لسقف الفم في نطق الحركات البسيطة والمركبة .

ب - بيان المواقع الدقيقة لالتقاء اللسان بمختلف مناطق سقف الحنك عند إنتاج السواكن اللهوية كالكاف والحاء والعين والصلبة كالياء والجيم والشين، والثوية كالتون واللام، والأسنانية والشفوية كالباء والفاء والواو .

ج - بيان تأثير الحركات والسواكن المتجاورة بعضها ببعض من حيث تعديل مخارجها نتيجة للتجاور .

ثالثا - الراسم الكهروعضلي . electromyograph :

يتكون هذا الجهاز من عدد من الرؤوس الألكترونية تلتصق على عضلات العضو المتحرك ، وتتصل هذه الرؤوس بواسطة أسلاك دقيقة بجهاز تضخيم amplifier وظيفته تقوية التيار الكهربائي الصادر عن الخلايا العصبية . ويوصل جهاز التضخيم بسن stylus يتذبذب بتأثير الذبذبات ويرسمها غل ورقة حساسة للاحتفاظ بسجل لشكل الذبذبات وقوتها . ويمكن الاكتفاء بمشاهدة الذبذبات دون تسجيل بنقل صورة الذبذبات إلى راسم الذبذبات لرؤيتها على شاشته .

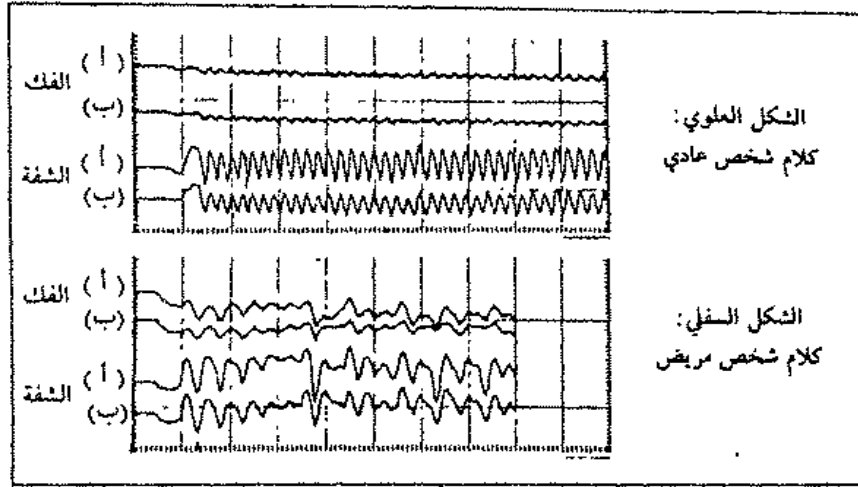
ولما كانت النتائج التي نحصل عليها بواسطة هذا الجهاز تبين عمل العضلات المكونة للعضو لا حركة العضو كله ، فإنه لا بد أن تربط حركة العضلة (لا العضو) بالإيماءات cues الكلامية عند حركة العضلة نفسها . وهذا العمل يتطلب ملاحظة إشارات الكترونية لا حصر لها ، ولهذا يتحتم استعمال حاسوب للقيام بهذا العمل واختزان النتائج التي نصل إليها . ومن الممكن الاستفادة من هذا الجهاز في بيان الفروق الدقيقة في عملية نطق العبارات المتشابهة .

رصد عيوب الكلام :

لعل الفائدة العظمى من هذه الأجهزة وخاصة الأخيرة منها هي استعمالها في الكشف عن أسباب عيوب الكلام ، وهل هي راجعة إلى عدم قيام العضو بعمله كما ينبغي أو لمرض في إحدى عضلاته أو إلى اختلال في إنتاج الطاقة الكهربائية من وحدات التحريك في المخ . وفيما يلي صورة تبين الفرق بين كلام شخص عادي وبين كلام شخص مريض بمرض الأتاكسيا ، وهو مرض يصيب بعض مناطق المخ ويتجلى عنه عجز المريض عن تحريك العضلات المناسبة لتحريك الشفتين واللسان إلى مواضعها اللازمة للنطق بالأصوات . ولهذا فإن هذا المريض ينطق الباء ميمياً فيقول (ناب) عندما يريد أن يقول (نام) ، كما يسبب هذا المرض العجز عند استعمال الأصابع في كتابة هذه الحروف بدقة .

انظر الشكل (٧)

كل ما سبق وسائل مساعدة للوصول إلى وصف مخرجي وأدائي دقيق للأصوات وعدم الاكتفاء بما كان يحدث من قبل من وصفها بالمشاهدة أو الإحساس بمكان التدخل وكيفيته إلى جانب صفة الجهر أو الهمس .



شكل (٧)

يظهر الشكل اضطراب حركات عضلات الفك والشفة عند كلام الشخص المريض (الشكل السفلي) بمقارنتها بكلام الشخص السليم

التحليل الصوتي للكلام : Phonemic Analysis

قد يظن أن الوصف الدقيق للعمليات العنصرية عند الكلام أمر كاف في دراسة الصوت اللغوي . ولكن هذا غير صحيح . والسبب في هذا أن أحكام المخ لا تتطابق تماماً مع نتائج هذه العمليات العنصرية . وقد يعتبر المخ صوتين مختلفين من ناحية الأداء والخصائص السمعية أمراً واحداً كما قد يعتبر أمراً واحداً من هاتين الناحيتين أمرين مختلفين وذلك بسبب وقوعهما في محيطين لغويين مختلفين . وما نقوله هنا طريقة أخرى للتعبير عما يسمى في علم طرق البحث بالتجريد وهو تجاهل لبعض الصفات الواقعة للشيء حتى يمكن وضعه مع سواء تحت نفس النوع . ونحن ندرك أن لفظ رجل ، يعني نوعاً من المخلوقات . . . يشمل أفراداً يختلفون في الواقع الخارجي ، منهم القصير والطويل والأبيض والأسود والصحيح والسقيم . وحتى يمكن جمع هذه الأنواع المختلفة مادياً في مفهوم واحد يختار المخ بعض الصفات المميزة المشتركة بينهم وسيلة للتصنيف وتجاهل الصفات الفردية الأخرى . وتعتبر عملية التجريد ضرورة للتفاهم الإنساني ، حيث لا يمكن أن يخصص (اسم) لكل فرد من أفراد الرجال لاختلافه من ناحية أو أخرى عن الآخرين . والذي يحدث في هذا المثال يحدث بالنسبة للأصوات اللغوية . ولهذا نتحتم أن نقوم بتحليل سلوك الأصوات إلى جانب تحليل صفاتها المادية . وتحليل سلوكها هو ما يسمى بعلم الصوتيات أو النظم السلوكية الصوتية .

لنأخذ مثلاً الوحدة التي نسميها النون ، وسنجد من أفرادها الصوت الأخير في (إن) في العبارة (إن أنت) أو في العبارة (إن بات) أو في العبارة (إن وعد) أو في العبارة (إن يكن) وفي العبارة الأولى تكون النون صوتاً ثوباً أنفياً . أما في الثانية فإنها صوت أنفي شفوي ثنائي (كالسيم) وفي الثالثة صوت أنفي شفوي مستدير (وأو أنفية) وفي الرابعة

صوت أنفي صلب (ياء أنفية) وهكذا . ورغم هذا الاختلاف المادي بين كل حالة وأخرى فإننا نضع هذه الأصوات كلها تحت وحدة نوعية نسميها النون . وهذه الوحدة تسمى الصوتيم Phoneme .

ويشمل التحليل الصوتيمي أو الوظيفي الصوتي ، حصر المجموعات الصوتية الممكنة وغير الممكنة . ففي العربية يمكن أن تلي الهاء العين في مثل « أعهد » ولكن لا يمكن أن تلي العين الهاء أو الحاء دون توسط حركة . كما يشمل الآثار الصوتية الناتجة عن الانفعال كالرضا أو الغضب . والتحليل الصوتيمي كما نرى لا يعتمد على الأجهزة بل هو تحليل يعتمد على اعتبارات سلوكية غير مادية . ويرى البعض أن ما يكشف عنه التحليل الصوتيمي هو الصورة الداخلية للموهبة اللغوية Competence التي توجد لدى أبناء لغة ما ، والتي هي الأساس الذي يعتمد عليه إنتاج الكلام وإدراكه .

ثانياً - الانتقال

كان علماء الفيزياء . . يملكون الصوت الإنساني وغير الإنساني بتطبيق نظرية فوريير ، وهو عالم عاش في القرن التاسع عشر . وكان ذلك يقتضي إجراء قياسات وحسابات تستغرق بعض الوقت .

وأثناء الحرب العالمية الثانية احتاج الحلفاء إلى طريقة سريعة لتحليل الأصوات التي يحملها الجو والبحر للتعرف على مواقع أسلحة العدو . وقد تم ذلك بفضل جهود الفيزيائيين في سلاح البحرية الأمريكي ، الذين اخترعوا جهازاً أطلقوا عليه اسم جهاز التحليل الطيفي Spectrograph . وقد تطور هذا الجهاز خلال نصف القرن الحالي وأصبح أهم وسيلة للبحث العلمي في مجال الدراسات الصوتية الطبيعية والإنسانية . وكان على رأس المهتمين بهذه الدراسات شركات التليفونات ، وخاصة شركة بيل الأمريكية ، وذلك لتحسين الاتصالات الهاتفية . وتعتبر أبحاثها من أول الأبحاث الرائدة في هذا المجال . وقد وجد الفيزيائيون أن دراسة الصوت الإنساني تختلف عن دراسة الصوت الطبيعي من ناحيتين ، أولاً أن الأصوات الإنسانية تخضع لإنتاجها وإدراكها للعادات الفعلية للمتكلم والسامع ، وبالتالي فإن الإنجليزي مثلاً يسمع العين العربية فيظنها من الحركات ، وقد يخلط بين الهمزة والعين والحاء والهاء ، والطاء والناء . وأما الناحية الثانية فهي أن الأذن الإنسانية لا تسمع الأصوات بالطريقة التي تستقبلها بها الأجهزة ، بل إنها قد تنتهي إلى الحكم بأن صوتين مختلفين فيزيائياً صوت لغوي واحد ، وأنها قد تحكم على وجود فرق بين صوتين دون أن يؤيد وجود هذا الفرق الواقع المادي الذي تبينه الأجهزة . ولهذا فقد كان على الفيزيائيين دراسة علم الأصوات اللغوية واتخاذها من وسائل البحث في دراسة الصوت اللغوي ، وقد أضافوا بذلك إلى دراسة الأصوات اللغوية خبرة جديدة لم يكن علماء اللغة قد استفادوا منها . وكان أهم هذه الإضافات الاهتمام بدراسة مرحلة انتقال الصوت بعد إنتاجه وقبل أن يصل إلى أذن السامع .

الموجات الصوتية :

ينتج الصوت الإنساني وغير الإنساني نتيجة اهتزاز ذرات جسم ما بتأثير قوة ما . وتنقل هذه الاهتزازات أو الذبذبات من ذرات الجسم المهتز إلى ذرات الهواء أو ذرات سلك التليفون أو طبقات الجو الأثيرية فتتهز بدورها .

وتشبه حركة الذرات حركة كرة البليارد تتدحرج بتأثير ضربة اللاعب حتى تصل إلى نهاية الطاولة فتصدم حافتها فترتد في الاتجاه الآخر . ولو فرض أنها قد صدمت في طريقها كرة أخرى . فإنها تحركها في نفس الاتجاه حتى تصدم الثانية كرة أخرى فتغير اتجاهها وهكذا . وتعتبر الدرجة الواحدة نظيراً للذبذبة ، أما الدرجات المتوالية فإنها تناظر الموجة الصوتية .

وتوصف الذبذبة بتحديد أمرين ، الزمن الذي تستغرقه ويسمى (الفترة period) والبعد بين نقطة بدء الحركة ونقطة ارتدادها ويسمى اتساع الذبذبة amplitude وتوصف الموجة بعدد الذبذبات التي تكونها في الثانية ويسمى بدرجة الموجة frequency ويمتوسط اتساع ذبذباتها وهو يسمى اتساع الموجة .

التوزيع المنتظم والتوزيع العشوائي^(٧) :

لو سلطنا قوة ما على تحريك عدد من الكرات الصغيرة الملساء على سطح أملس ، وكانت الكرات بنفس الشكل والوزن ، فإنها تتحرك في نفس الاتجاه وبنفس السرعة ، أي أنها تنتج درجات متماثلة . ولو سلطنا القوة على تحريك كرات مختلفة الشكل بعضها كامل الاستدارة وبعضها منحرف ، أو مختلفة الوزن لاختلاف مادتها مع تساوي أحجامها ، أو مختلفة الحجم مع اتحاد المادة ، فإن حركات الكرات ستختلف في السرعة والاتجاه . وستكون النتيجة في الحالة الأولى حدوث درجات منتظمة أما في الحالة الثانية فإن الدرجات لن تكون منتظمة . وذلك لأن الكرة الثقيلة تستهلك قدرأ من الطاقة يزيد على ما تستهلكه الكرة الخفيفة . ويوصف توزيع الطاقة بالتساوي بأنه توزيع منتظم ويوصف التوزيع غير المتساوي بأنه عشوائي . وما يحدث في هذا المثال يحدث عند إنتاج الصوت ، فعندما توزع الطاقة بين الموجات المنتجة للصوت توزيعاً متساوياً ، يكون الصوت على شكل نغمة . أما إذا كان التوزيع عشوائياً فإن الصوت الناتج يكون ضجيجاً أبيض white noise . ومثاله الصوت الناتج عن فرك اليدين أو حفيف الأشجار .

النغمات التوافقية وغير-التوافقية :

من خبراتنا السماعية ما نلاحظه أحياناً عندما نسمع مجموعة من دق الطبول . ويكون بين الدقات دقات صادرة عن طبل كبير تتوالى على أبعاد زمنية متساوية وطويلة نسبياً ، ودقات صادرة عن طبل أصغر تتوالى على أزمان متساوية ولكن كل دقتين منه تحدثان في نفس الوقت الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر ، ودقات صادرة عن طبل ثالث بمعدل أربع دقات في الزمن الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر . يطلق على الطبل الأكبر في اللهجة المصرية (ماسك الوحدة) ووظيفته تقسيم زمن العزف إلى وحدات متساوية تحدث مرة كل $1/4$ ثانية مثلاً . وفي خلال الوحدة يثق الطبل الثاني دقتين والطبل الثالث أربع دقات . وتكون النتيجة وجود تداخل زمني من دقات الطبول الثلاثة بحيث تحدث الدقة الثانية من الطبل الأول والدقة الثالثة من الطبل الثاني والدقة الخامسة من الطبل الثالث في نفس اللحظة .

(٧) ص ١١ إلى ١٤ من البحث ملخص من مرجع ١ ص ٢١٥ إلى ٢٣٦

يحدث مثل هذا في حركات الذبذبات المكونة للموجة الصوتية ، وتسمى الموجة في هذه الحالة موجة مركبة ، على نقيض الموجة البسيطة التي تحتل دقة طبل واحدة وتوصف هذه الموجة أيضاً بأنها توافقية لأنها تحدث من عدد من الموجات التي تتداخل ذبذباتها زمنياً كما رأيت .

ولو حدث أن اختلفت دقات الطبول فلم تنسجم زمنياً فإنها توصف بالنشاز أو عدم التوافق . والموجات الصوتية المركبة قد توصف كذلك بالنشاز إذا لم تنسجم أو لم تتوافق ذبذباتها .

والأصوات الإنسانية تنتج عن موجات متوافقة وعن موجات غير متوافقة من النوع الذي أطلقنا عليه من قبل اسم الضجة البيضاء . وعملية التحليل الفيزيائي للصوت تقوم بوصف الموجات التوافقية وغير التوافقية التي تحدث الشعور الوجداني المسمى بالسماع . ويستعان على هذا الوصف بتطبيق بعض الخصائص الطبيعية المشاهدة . ومن هذه :

الرنين resonance :

الرنين ظاهرة نصادفها كثيراً في حياتنا اليومية ، كما لو أننا صوتاً ما وقربنا مصدر الصوت من فراغ مقفول فإننا نلاحظ اختلافاً في شعورنا بالصوت ، كما يحدث عندما نغني في وسط طلق أو في فراغ صغير مقفول . وقد كشفت التجربة عن أن شكل الفراغ وحجمه بالإضافة إلى المادة التي يتكون منها تؤثر في نوع الصوت ، ولهذا تبني صالات العزف الموسيقي على شكل معين وتغطي بطبقات من مواد معينة تسمى بالمواد العازلة أي التي تمنع رنين الصوت غير المنتظم .

وقد كشفت التجارب عن أن لكل جسم طاقة رنينية معينة ، وأن الجسم الرنان يمكن أن يكتسب الصوت من جسم آخر يماثله في طاقته الرنينية كما في التجربة الآتية :

١ - نطرق شوكة رنانة ترددها ١٠٠ ذبذبة في الثانية ونسمع صوتاً ناتجاً عن هذه الذبذبات .

٢ - نقرب شوكة رنانة أخرى طاقتها الرنينية ١٠٠ ذبذبة في الثانية كذلك - نقربها من الشوكة الأخرى التي تصدر النغمة ، ونسجد أن الشوكة الثانية تبدأ في الذبذبة وإصدار الصوت دون أن تطرق .

معنى هذا أن الشوكة التي لم تطرق اكتسبت الرنين من الشوكة المطروقة لأنها تماثلها في الطاقة الرنينية .

الترشيح Filtering :

لو فرض أن طرقنا شوكة تصدر نغمة توافقية مكونة من موجات تردد إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث وقربنا منها شوكة تصدر نغمة بسيطة ترددها ١٠٠ ذ/ث ، فإننا نلاحظ أن الشوكة الثانية ستردد ولو فرض أن أوقفنا الشوكة الأولى باللمس أو أبعدناها من الغرفة ، فإننا نلاحظ أن الشوكة الثانية ستستمر في الاهتزاز محدثة نغمة ترددها ١٠٠ ذ/ث وهي نغمة اكتسبتها من الموجة المركبة التي أصدرتها الشوكة الأولى .

يقال في هذه الحالة بأننا قد رشحنا من الموجة المركبة إحدى موجاتها التوافقية وهي التي تصدرها الشوكة الثانية .

ولو فرض أننا أتينا بثلاث شوكة رنانة درجات تردداتها ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ ذ/ث وعرضناها للتردد الناتج عن الشوكة الأولى فإن كلا من هذه الشوكلات ستحدث موجة مناسبة لدرجتها أي أننا سنحصل على ثلاث موجات إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث . أي أننا قد وصلنا إلى تحليل الموجة المركبة الصادرة عن الشوكة الأولى إلى النغمات التوافقية التي تكونها . وهذا النوع من الترشيح يسمى بالترشيح المركب على العكس من النوع الأول الذي يسمى بالترشيح البسيط .

التقوية والاستهلاك :

لو فرض أن أصدرنا نغمة من آلة موسيقية ولتكن كمثالاً مثلاً فإن هذه النغمة ستكون ذات قوة خاصة . ولو فرض أن عزفنا آتين أو ثلاث آلات لإصدار نفس النغمة في نفس الوقت فإننا لن نسمع ثلاث نغمات منفصلة بل سنسمع نغمة واحدة قوتها ضعف أو ثلاثة أمثال النغمة الأولى . ويقال في هذه الحالة بأننا قمنا بتقوية النغمة الأولى .

وكما يمكن تقوية النغمات يمكن استهلاكها كما يتضح من التجربة الآتية :

١ - أصدر صفيرا من بين شفتيك بالنفخ .

٢ - قرب وعاء كبيراً نسبياً من شفتيك .

٣ - ستلاحظ عند وصول الوعاء إلى بعد معين من شفتيك أن الصغير ينعدم .

السبب في هذا أن الوعاء قد كون غرفة رنين لا تتناسب مع الصغير في الدرجة . ويقال في هذه الحالة بأن الموجة الصوتية أو الصغير قد استهلك .

الصوت الانساني :

هذه الظواهر الطبيعية تلعب دورها في إنتاج الصوت الإنساني ، فعندما يمر الهواء المندفع من الرئتين خلال الأوتار الصوتية يحدث ترددات أوذبذبات عديدة ، ومختلفة في الفترة والاتساع ، وبالتالي تحدث مجموعة لا تحصى من الموجات الصوتية ، تندفع إلى الفراغات العليا فيما فوق الحنجرة . وخلال مرورها بكل فراغ تنعدم الموجات التي لا تتوافق مع تردد الغرفة ، وتتقوى بواسطة الرنين تلك التي يتوافق بعضها وبعض مكونة نغمات حنجرية تعرف بالجهير . وللنغمات المركبة الحنجرية خصائص معينة تتعلق بتوزيع الطاقة بين مكوناتها ودرجاتها واتساعاتها ، كما ترى في الجدول التالي الذي يبين هذه الأمور بالنسبة لنغمة غنائية .

طاقاتها	اتساعها	درجتها	الموجة التوافقية
			الموجة الأولى (الأساس)
١,٠٠٠	١,١٠٠	١٠٠	الموجة ٥
,٩٦٧	,٩٧٣	٥٠٠	١٠
,٨٧٦	,٩٣٥	١٠٠٠	١٥
,٧٣٧	,٨٥٨	١٥٠٠	٢٠
,٥٧٣	,٧٥٧	٢٠٠٠	٢٢
,٥٠٦	,٧١١	٢٢٠٠	٢٥
,٤٠٥	,٦٣٦	٢٥٠٠	٣٠
,٢٥٥	,٥٠٥	٣٠٠٠	٣٥
,١٣٥	,٣٦٨	٣٥٠٠	٤٠
,٠٥٥	,٢٣٤	٤٠٠٠	٤٥
,٠١٢	,١٠٣	٤٥٠٠	٥٠
—	—	٥٠٠٠	٥٥
,٠٠٨	,٠٨٩	٥٥٠٠	
	الخ (٨)		

ونلاحظ أن الموجة الخمسين قد استهلكت ، أي أنها كانت موجودة بعد فراغ الحنجرة مباشرة ولكنها انعدمت عند مرورها بأحد الفراغات الذي لا تتوافق معه في التردد .

ويستمر توزيع الطاقة بعد الموجة المنعدمة ويزيد بالتدرج ثم يقل ثانية حتى ينعدم مع موجة أخرى ثم يبدأ في الزيادة التدريجية ثم النقص التدريجي حتى تنعدم وهكذا .

ولإى جانب هذه الصفة الإنتاجية الخاصة بالصوت الحنجري الإنساني فإن هناك صفة سماعية أخرى لهذا الصوت ، تتعلق بإحساس الأذن به . ولو فرض أننا أنتجنا نغمة بواسطة ضغط مقداره ١٠ وحدات ثم ضاعفنا هذا الضغط إلى مرتين ثم ثلاث مرات ثم أربع مرات وهكذا ، فإن جهاز الاستقبال الآلي ، سيسجل أصواتاً قواتها متضاعفة بنسبة تضاعف الضغط أما الأذن الإنسانية فإنها لا تشعر باختلاف قوة الأصوات بنسبة مضاعفات الضغط بل بنسبة لوغاريتمية كما ترى فيما يلي :

١ - التسجيل الآلي :

مقدار الضغط	قوة الصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	٢٠ وحدة (١٠ + ١٠)
٣٠ وحدة	٣٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠)
٤٠ وحدة	٤٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠ + ١٠)

السخ

٢ - الإحساس السمعي :

مقدار الضغط	قوة الإحساس بالصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	١٠٠ وحدة (١٠ × ١٠)
٣٠ وحدة	١٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠)
٤٠ وحدة	١٠٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠)

السخ

ولهذا نحتّم على علماء الفيزياء ابتكار مقياس للإحساس السمعي بالصوت يختلف عن المقياس الآلي لقوة الصوت سموه بالديسيبل Decibel .

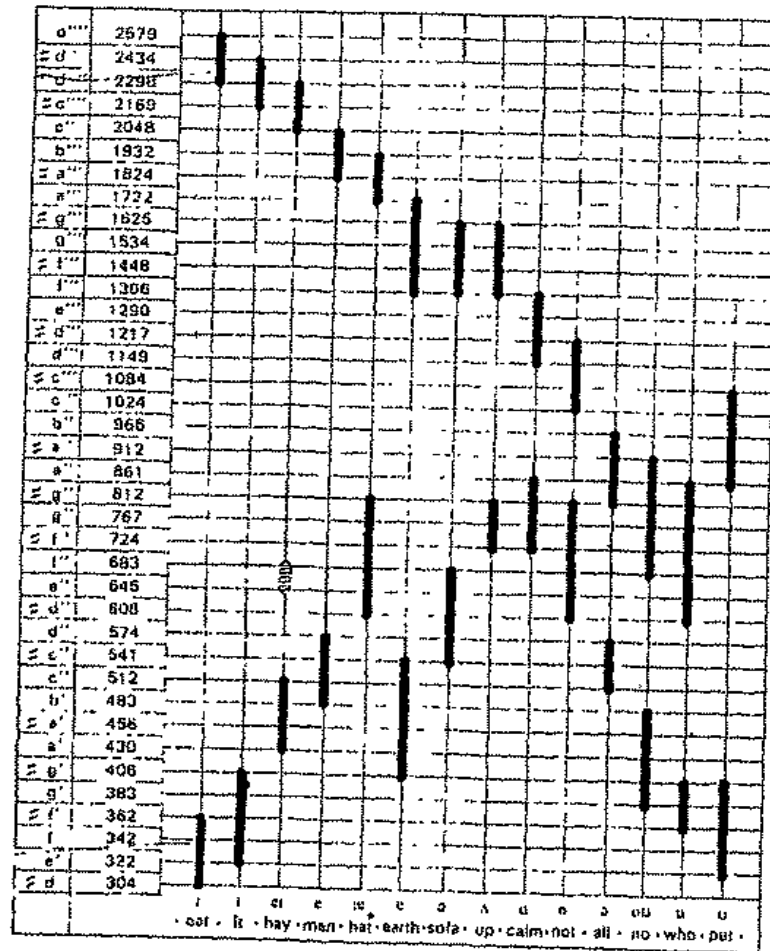
باجيت والتحليل الطيفي للحركات :

تتكون الحركة من عنصرين ، الجهر وهو ناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية ، واندفاع الهواء في الممرات العليا من أعضاء النطق وما يحدثه ذلك من رنين في هذه الممرات . ومن الطبيعي أن يكون هدف التحليل الفيزيائي للحركات شاملا لهذين العنصرين . ولعل من أولى محاولات هذا التحليل دراسة قام بها العالم الانجليزي ر. س. باجيت R.S. Paget^(٩) الذي كان يتمتع بجانب معارفه الصوتية بقدرة على الغناء ودقة السمع .

وقد فصل باجيت بين عنصر الجهر وعنصر الرنين الناتج في فراغات الممر العلوي أي ما فوق الحنجرة إلى الشفتين ، عند نطق الحركات في الإنجليزية البزيطانية دون جهر . وقد لاحظ أن كل حركة تتكون من جزمتين من الموجات المتوافقة إحداهما مرتفعة الدرجة تتراوح ذبذبات الموجات التي تكونها بين ٦٠٨ ، ٢٥٩٠ ذ/ث ، والثانية منخفضة الدرجة وتتراوح ذبذبات الموجات المكونة لها بين ٣٠٤ ، ٩١٢ ذ/ث . وكانت الخزمة المرتفعة الدرجة أكثر وضوحا في السمع من الثانية ، كما كانت الخزمة المنخفضة أشبه بمحاولة الصفير بالفم مع الفشل في إنتاجه . ولاحظ كذلك أن الخزمة العليا لا تتأثر بمدى فتح الفم بل بحركة اللسان إلى أعلى أو إلى أسفل ، إلى الأمام أو إلى الخلف . ومن

(٩) تفصيل للمرجع رقم ٧ ، وانظر أيضا مرجع ٥ ص ١٣١

هذا يستنتج أن الحزمة العليا تتأثر بغرف الرنين الأمامية ، أي الغرف القموية التي تشكلها حركات اللسان ، ولذا أسماها بالحزمة الأمامية . أما الحزمة السفلى ، فقد انتهى إلى أنها ناتجة عن رنين الغرفة الممتدة من منطقة ما فوق الحنجرة حتى الشفتين ، ولذا فإنها تتأثر بفتح الفم ضيقاً واتساعاً وقد سمي هذه بالحزمة الخلفية وقد سجل نتائج بحثه في الجدول التالي .



شكل (٨)

الشكل يمثل

- ١ - الأحزمة الترددية للحزمة التكوينية الأولى في ١٤ حركة إنجليزية - المجموعة السفلى .
- ٢ - الأحزمة الترددية للحزمة التكوينية الثانية في نفس الحركات في ١ - المجموعة العليا .

ونعيد هنا أن باجيت يتحدث عن حزمتين من الموجات تتكون كل منها من مجموعة من الموجات المتوافقة ، كما يلاحظ وجود فراغ يفصل بين الحزمة الدنيا والحزمة العليا . وهذا الفراغ يزيد أو يقل حسب نوع الحركة . وسيمر بك صورة لتحليل طيفي استعمل فيه الراسم الطيفي يوضح هذه النقطة الأخيرة (انظر الشكل رقم ١٠ ص ٤٦) .

بعد هذا نطلق باجيت بنفس الحركات مجهورة ، وبذا أضاف عنصر النغمة الخنجرية إلى أثر غرقي الرنين الأمامية والخلفية . وقد وجد أن إضافة النغمة الخنجرية تؤثر على درجة حزم بعض الحركات دون الأخرى . مثال ذلك الحركة /o/ التي ظلت درجة حزمتها العليا ١٥٤٢ ذ/ث وحزمتها السفلى ٤٠٦ ذ/ث عند الجهر كما كانت عند الهمس . وذلك على العكس من الحركة /a/ في calm التي تغيرت درجة كل من حزمتيها عند الجهر عما كانت عليه عند الهمس . بعد هذا صنع باجيت غرفة من طين الصلصال مفتوحة الطرفين رنينها ١٠٢٤ ذ/ث ووضع هذه الغرفة ملاصقة لشفتيه ونطق بنفس الحركات فوجد أن وجودها يؤثر على نوع الحركات بالنحو التالي :

١ - الحركة الطويلة في الكلمة calm (مثل صار في العربية) سمعت كما لو كانت الحركة الطويلة في الكلمة awe (مثل طور في المصرية) .

٢ - الحركة في hat (مثل بات) سمعت كما لو كانت حركة calm (صار) .

٣ - الحركة في up سمعت كما لو كانت الحركة في get .

الخ

معنى هذا أن من الحركات ما يتأثر بوجود غرفة الرنين الثالثة أي أنها تتكون من ثلاث حزم ومنها ما لا يتأثر أي أنها تتكون من حزمتين .

جهاز الراسم الطيفي Spectrograph (١٠) :

يتكون هذا الجهاز من :

١ - وحدة تسجيل الصوت ، وهي أسطوانة معدنية محيطها ممغنط يسجل عليها نص وفي مركزها يثبت عمود يديره بقوة موتور عند التسجيل أو السماع .

٢ - ميكروفون للتسجيل وآلة لمحو النص إذا أريد ذلك .

٣ - وحدة تحليل الصوت وهي مجموعة من المرشحات تمرر بها الموجات المكونة للرسالة .

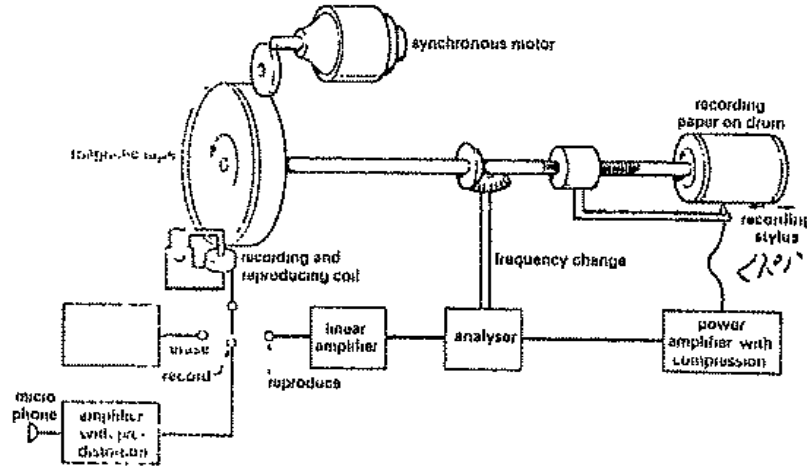
٤ - أسطوانة أخرى تلف عليها ورقة حساسة وهي مثبتة في نفس العمود الذي ثبتت فيها أسطوانة التسجيل بحيث تدوران معاً .

(١٠) الرسم عن :

٥ - حامل إبره تسجيل Stylus يتحرك بواسطة حلزون محفور في العمود وهذه الإبرة متصلة بتيار كهربائي يحدث شرارة عند ملامستها ورقة التسجيل أثناء دورانها فترسم عليها خطوطاً متوالية .

بعد تسجيل النص يدور الموتور فيحرك الأسطوانتين وحلزون الإبرة ويمر الصوت بالمرشحات فيعزل أحدها الموجة السفلى وينقلها إلى الإبرة فتذبذب بنفس شكل ذبذبات الموجة .

وبسبب الشرارات الناتجة من التيار تحدث الإبرة خطاً على ورقة التسجيل يمثل الموجة المرشحة . وتدور الأسطوانة مرة ثانية وثالثة ورابعة ويتم ترشيح الموجات واحدة واحدة وترسم على الورقة الحساسة . وبعد وصول الإبرة إلى نهاية الحلزون يتوقف الجهاز ونحصل على رسم طيفي للنص .



شكل (٩)

رسم تخطيطي لجهاز الراسم الطيفي

أورد قبل أن استمر في الحديث أن أوضح مفهوم عدد من المصطلحات قد وردت أو سترد خلال الحديث عن الرسوم الطيفية .

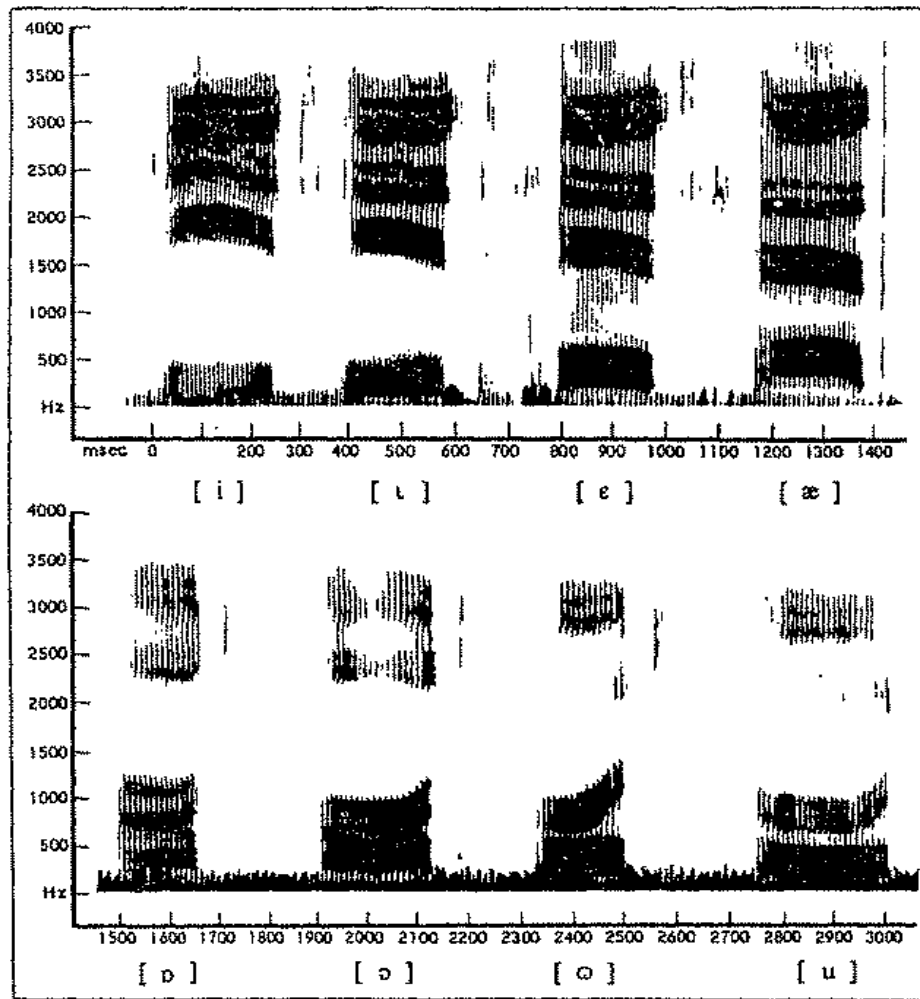
١ - موجة الأساس ، وهي موجة بسيطة من مكونات موجة مركبة وهي أقل المكونات درجة ، وإن كانت أكبرها استهلاكاً للطاقة (انظر الجدول ص ٤١) . وتكون درجة كل من المكونات الأخرى من مضاعفات درجتها . وفي الجدول المشار إليه رأيت أن درجة موجة الأساس ١٠٠ ذ/ث ودرجات المكونات من مضاعفات هذا العدد (٥٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ الخ) .

٢ - الحزمة التكوينية Formant ، وقد يطلق عليها اختصاراً لفظ الحزمة ، وهي مجموعة من الموجات التوافقية ، ذات درجات متقاربة في عدد الذبذبات ، وتظهر في الرسم الطيفي كما لو كانت خطأ عريضاً (انظر الشكل ١٠) . ويفصل كل حزمة عن التي تليها فراغ يظهر في صورة بياض في الرسم الطيفي . وتوجد الحزم التكوينية واضحة في

الرسوم الطيفية للمحركات ، والسواكن الانطلاقية المجهورة كاللام والنون ، أما السواكن الانحباسية المجهورة فلا يظهر منها إلا موجة الأساس وبعض الموجات القليلة المجاورة لها .

٣ - حزام التردد ، ويقصد به المنطقة ، بين أدنى درجة وأعلى درجة للمحزمة التكوينية أو للترددات العشوائية التي تنتج السواكن الاحتكاكية .

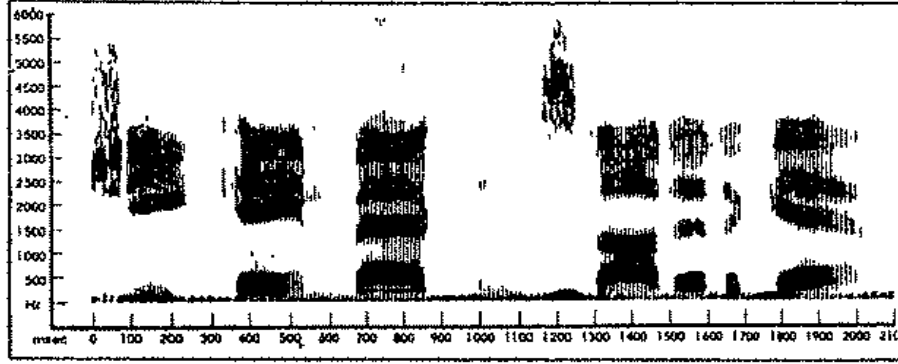
٤ - الحزام الضيق والحزام الواسع ، وهما نوعان من الرسوم الطيفية يتجهها جهاز الراسم الطيفي . وإليك أمثلة لبعض الرسوم الطيفية .



شكل (١٠)

رسم طيفي لكل من الكلمات الإنجليزية (head, hid, had, heed, hod, hawed, hood, and whud)
لاحظ الفرق بين الرسوم الطيفية للمحركات

في الشكل ثمانية رسوم طيفية لحركات في كلمات إنجليزية بريطانية تتكون من مقطع واحد يبدأ بالصوت /h/ وينتهي بالصوت /d/ وهي who'd hood, hawed, hod, head, had, hid, head وهي في الرسم من اليسار لليمين والرسوم الممثلة للكلمات الأربع الأولى في أعلى الشكل والممثلة للأربع التالية في أسفله . ويلاحظ أن بعد الحزم بعضها عن بعض (الناتج عن اختلاف درجاتها) يختلف من حركة إلى أخرى وسنرى ذلك بمقارنة الرسوم الطيفية في الشكل السابق .



شكل (١١)

رسم طيفي للعبارة الانجليزية (She came back and started again)

يظهر في الشكل الحزام الطيفي للسكان في she (ش) على اليسار بين درجة ٢٥٠٠ ، ٥٣٠٠ ذ/ث والحزام الطيفي للسكن /s/ في started وهو بين ٣٥٠٠ ، ٥٥٠٠ ذ/ث^(١١) .

انظر الشكل (١٢)

يمثل تحليلاً طيفياً للجملة الانجليزية is Pat sad or mad رسم مرة بالحزام الواسع^(١٢) وهو يظهر الحزم بوضوح ومرة أخرى بالحزام الضيق وهو يظهر مكونات الحزم .

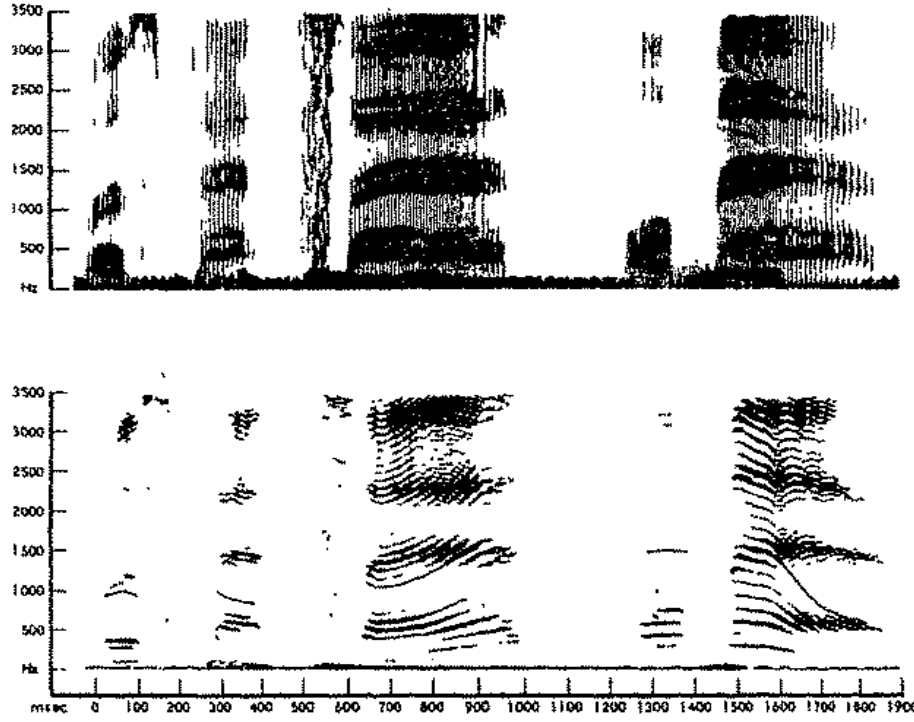
دلالات الحزم التكوينية :

تساعدنا الحزم التكوينية في عدد من الأمور :

١ - التمييز بين الحركات بعضها وبعض ، وذلك بملاحظة عدد الحزم وبعد بعضها عن بعض ودرجة الحزام الترددي لكل منها . انظر شكل ١١ ص ٤٧ وبمقارنة الرسم الطيفي للحركة /i/ وهو الأول من اليسار في الجزء العلوي بالرسم الطيفي للحركة /u/ وهو الأخير إلى اليمين في الجزء السفلي ، نلاحظ الفرق في البعد بين الحزمتين في الحركتين ، كما نلاحظ أن درجة الحزام في /i/ بين ١٧٠٠ ، ٢٠٠٠ ذ/ث أما في /u/ فإنه بين ٤٥٠ ، ٩٠٠ ذ/ث .

(١١) مرجع ١ ص ٢٧٢

(١٢) المرجع السابق ص ٢٧٩



شكل (١٢)

تحليل طيفي للعبارة الانجليزية (Is Put sad or mad?) باستعمال الحزام الواسع (الجزء العلوي) والحزام الضيق (الجزء السفلي)

٢ - التمييز بين المتكلمين في الجنس والسن :

ثبت من اختبار السماع الذي أجراه بيترسون وبارني وجود فرق واضح بين حزمتي التكوين في نفس الحركة عندما ينطقها رجل عنها عندما ينطقها صبي أو امرأة . وسنلخص فيما يلي الفرق الذي يلاحظ بينهم في نطق الحركة /i/ .

موجة الأساس	الحزمة الأولى	الثانية	الثالثة	
١٣٥	٣٩٠	١٩٩٠	٣٠١٠	نطق الرجل
٢٣٢	٤٣٠	٢٤٨	٣٠٧٠	نطق المرأة
٢٦٩	٥٣٠	٢٧٣٠	٣٦٠٠	نطق الصبي

٣ - المساعدة على التعرف على نوع الساكن المجاور للحركة ، وهو ما نعرضه هنا بالتفصيل :

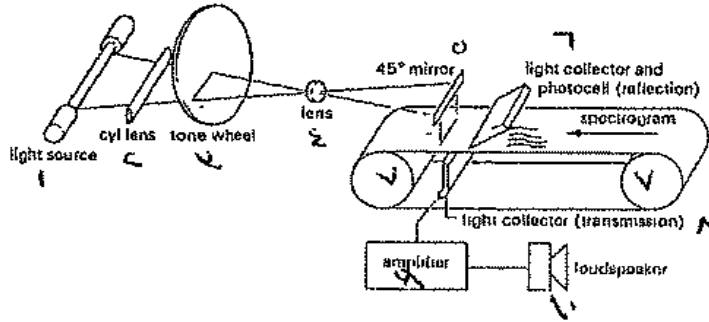
مخرج الساكن وأثره في الحركة المجاورة :

يؤثر مخرج الساكن في غرفة الرنين التي تمر بها الحركة المجاورة له وذلك لأنها تنتقل من الوضع الذي كانت عليه مع الساكن إلى الوضع المطلوب للحركة ، على ثلاث مراحل .

- ١ - مرحلة الاستقرار عند النطق بالساكن .
- ٢ - مرحلة الانتقال من شكلها مع الساكن إلى شكلها مع الحركة .
- ٣ - مرحلة الاستقرار في شكلها مع الحركة .

تجربة كوبر وزملائه (١٣) :

استعمل في هذه التجربة جهاز إعادة النطق :



شكل (١٣)

ويتكون الجهاز كما يظهر في الرسم من اليسار إلى اليمين مما يأتي :

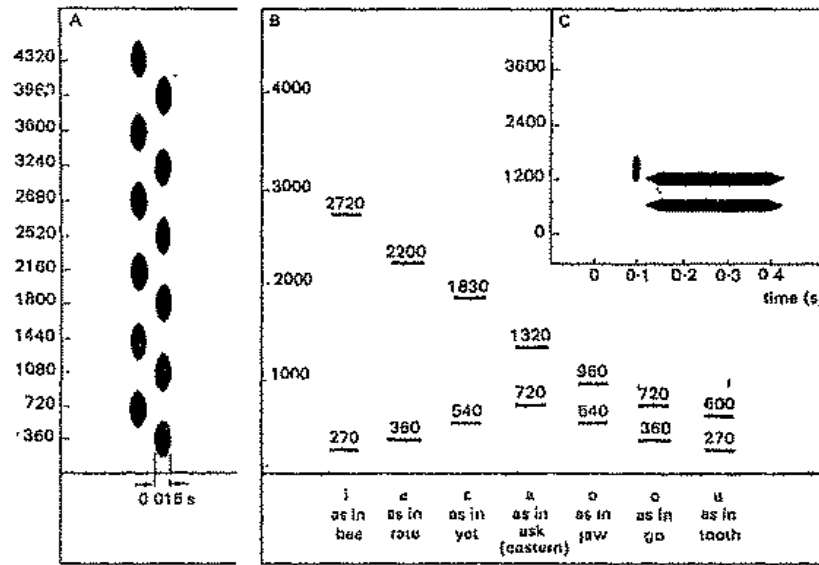
- ١ - مصدر ضوئي .
- ٢ - عدسة ضوئية طويلة ومستديرة .
- ٣ - عجلة نغمية .
- ٤ - عدسة .
- ٥ - مرآة مثبتة بزاوية قدرها ٤٥° .
- ٦ - جامع للضوء وخلية ضوئية عاكسة photocell .
- ٧ - أسطوانتين متباعدتين تلف حولهما ورقة مرسوم عليها طيف .
- ٨ - جامع ضوئي ناقل .
- ٩ - مضخم صوتي .
- ١٠ - سماعة .

وعند عمل الجهاز تلف ورقة الرسم الطيفي على شكل حزام يصل بين الأسطوانتين (رقم ٧) . وبدوران الأسطوانتين تنعكس الصورة الطيفية بفضل الضوء الصادر من المصدر (رقم ١) وتُجمع الصوت والخلية الضوئية (٦) فتقوم بتحليل الصورة الطيفية إلى موجات صوتية وترسلها إلى العجلة النغمية (٣) فتحول الموجات الصوتية إلى موجات صوتية ترسلها للمضخم (٩) والسماعة (١٠) فتصدر الصوت .

الآثار الطيفية للسواكن الانفجارية :

أ - الانفجارية المهموسة

المعروف أن الساكن الانفجاري المهموس يتكون من انحباس وانفجار دون جهر . وبالتالي فإنه لا يظهر في الرسم الطيفي إلا بعد الانفجار الذي يليه ضجة بيضاء وبعدها الخزمتان التكوينيتان لكل حركة كما ترى في الشكل :



شكل (١٤)

يتكون الشكل من ثلاثة أجزاء A , B , C .

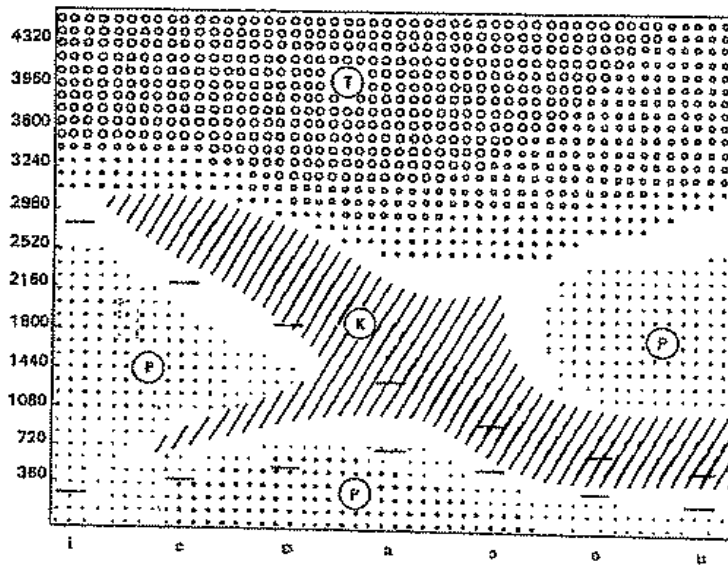
الجزء الأيسر A وفيه خط رأسي على اليسار مرقم عليه عدد اللبذبات في الثانية من صفر إلى ٤٣٢٠ وقد وزعت من أسفل إلى أعلى ، على أبعاد متساوية يفصل بين كل منها والتي تليها ٣٦٠ درجة . وعلى يمين هذا الخط توجد ١٢ نقطة سوداء ستة إلى اليسار وستة إلى اليمين وضعت على شكل عمودين لسهولة تمييز بعضها عن بعض . وهذه تمثل حزام انفجار الساكن .

والجزء الأيمن B ويتكون من خط رأسي على اليسار لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي سفلي كتبت تحته الحركات المعيارية السبع وكتبت تحت كل منها كلمة إنجليزية أمريكية تحتوي على الحركة . وفوق كل حركة بعد الخط الأفقي السفلي يوجد خطان فوق كل منها رقم يبين الأسفل درجة الحزمة التكوينية الأولى والأعلى درجة الحزمة الثانية للحركة (مثلاً u ٢٧٠ ، ٦٠٠ - ٣٦٠ O ، ٧٢٠ الخ) .

والجزء C ، عبارة عن مربع في الركن العلوي من اليمين ويتكون من خط رأسي لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي لقياس الزمن . وداخل المربع يوجد خطان أفقيان الأسفل يمثل الحزمة الأولى والأعلى يمثل الحزمة الثانية . وعلى اليسار من الخطين توجد نقطة سوداء تمثل الانفجار . وهذا الجزء مثال لأحد الرسوم الطيفية التي رسمها يدوياً الباحثون لإجراء التجربة . رسم الباحثون باليد عدداً من الأطياف يتكون كل منها من الحزمتين الأولى والثانية لكل من الحركات المعيارية السبع . ويلاحظ أن هذه الأطياف ليست نتيجة لتحليل نطق واقعي بل مجرد رسوم مبسطة لموضع الحزمتين في كل حركة . ووضعوا كل رسم في جهاز إعادة النطق وأدير الجهاز أمام عدد من السامعين الذين طلب إليهم تدوين ما يسمعون كتابياً . وقد كانت النتيجة كما يلي :

- ١ - سمع انفجار وبعده فترة صمت ثم سمعت بعد ذلك حركة .
- ٢ - وجد أن الذي يحدد نوع الانفجار هو موضع الحزمة الثانية بالنسبة للخط العمودي أي لقياس عدد الذبذبات .

٣ - لخصت نتائج السماع في الشكل التالي :



شكل (١٥)

الشكل على هيئة مربع عموده الأيسر لقياس الذبذبات وهو مدرج من صفر إلى ٤٣٢٠ والخط الأسفل الأفقي كتب تحته رموز الحركات . وفي داخل المربع يوجد خطان فوق كل حركة : الأسفل للحزمة الأولى والأعلى للثانية . وفي المربع توجد ثلاث مناطق إحداها مظلمة يرسم دوائر صغيرة وقد كتب فيها الرمز (T) وثانيها مظلمة بخطوط مائلة وكتب في وسطها الرمز (K) وثالثها مظلمة بنقط وهي موزعة إلى اليسار واليمين وإلى أسفل منطقة (K) وكتب في كل من مناطق توزيعها الرمز (P) . وإليك بعض الأمثلة لبيان كيفية الاستفادة منه .

١ - الحركة /i/ ، حزمته الأولى في حدود ٣٠٠ ذ/ث فإذا كانت الثانية في المنطقة المحصورة بين ٧٢٠ / ٢٥٢٠ سمع الانفجار /p/ . وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع الانفجار /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٢ - الحركة /e/ الحزمة الأولى ٣٦٠ ذ/ث تقريباً ، وإذا كانت الثانية بين ٧٢٠ ، ٢٠٠٠ سمع الانفجار /p/ وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٣ - الحركة /U/ الحزمة الأولى ترددها ٣٤٠ ذ/ث . وإذا كانت الثانية بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ١٤٤٠ ، ٢٤٠٠ سمع /P/ وإذا كانت بين ٣٢٤٠ ، ٤٣٢٠ سمع /t/ . وهكذا

ونود أن نعيد ملاحظتين سبقت الإشارة إليهما :

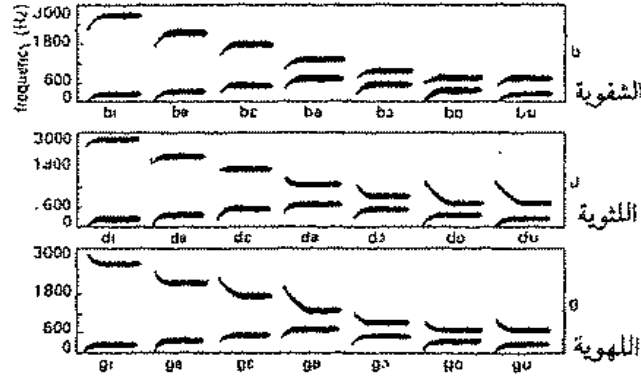
- ١ - ليست هذه الأطياف نتيجة تحليل نطق واقعي بل مجرد رسم يدوي مبسط لصور طيفية .
- ٢ - الانفجار الذي يسمع ليس نتيجة نطق واقعي بل هو ظاهرة طبيعية سمعية لدرجة الحزمة الثانية للحركات .

ب - الانفجارية المجهورة :

في بحث آخر رسم الباحثون الأطياف السابقة مع تعديلين :

١ - التخلص من الفراغ الذي يفصل بين الانفجار والحركة .

٢ - رسم شكل الانتقال بين درجة الانفجار ودرجة الحركة التالية له . ولما كان الانتقال لا يظهر إلا في الحزمة الثانية ، ولما كانت درجة جهر الانفجار أقل من درجة جهر الحركة ، فإنها تظهر في الحزمة الأولى وحدها التي لا تختلف كثيراً عن درجة الحزمة الأولى في الحركة . وهذا الفرق يظهر في انتقال صاعد في كل الحالات . أما الحزمة الثانية للحركة فإنها قد تكون مستوية أو صاعدة أو هابطة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٦)

بعد ذلك وضع كل من الرسوم الطيفية المصطنعة في جهاز إعادة النطق وسمعها عدد من المساعدين وسجلوا ماسمعه فخرجوا بالأحكام التالية .

١ - إذا كان انتقال الحزمة الثانية هابطا سمع الانفجار /g/ .

٢ - إذا كان انتقال الحزمة الثانية صاعدا من درجة ١٩٠٠ إلى درجة ٣٠٠٠ ذ/ث أو من درجة ١٨٠٠ إلى درجة ١٩٠٠ ذ/ث أو كان مستويا (على الشكل الذي تراه في الصندوق الأوسط من شكل ١٨) ، فإن الذي يسمع هو الانفجار /d/ .

٣ - إذا كان الانتقال صاعدا (على النحو الذي تراه في الصندوق العلوي) كان الانفجار المسموع /b/ .

ج - الأصوات الأنفية والجانبية (١٤)

لوحظ فيما سبق أن درجة الحزمة الثانية تختلف باختلاف مخرج الساكن الذي يشبه الانفجار أى باختلاف الصفة من شفوية إلى لثوية إلى هوية . ولما كانت السواكن الأنفية تتميز بعضها عن بعض بالشفوية /m/ أو اللثوية /n/ أو اللهوية /ŋ/ (نج) فقد امتد البحث ليشمل هذه السواكن أيضا . وبالتالي أعادوا الرسوم الطيفية السابقة مع تعديلات :

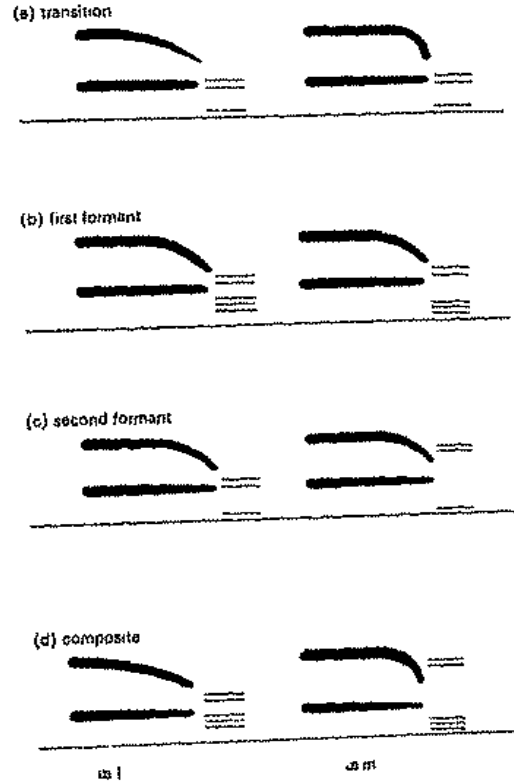
١ - إزالة النقط السوداء الممثلة للانفجار لأن السواكن الأنفية ليست انفجارية .

٢ - إضافة خطوط أخرى تمثل الحزم التكوينية في هذه السواكن لأنها مجهورة ، ثم أعادوا اختبارات السماع فانتهوا إلى الحكم التالي :

تظل الحزمتان الأولى والثانية في كل حركة كما كانت عليه مع الانحباسات المجهورة مع فرق في شكل الانتقال ، ومع وجود حزمتين للسواكن الأنفية تختلف باختلاف الحركة المجاورة .

د- السواكن الجانبية (اللام والراء) :

وجد أنها تشبه السواكن الأنفية في وجود حزمتين إضافيتين يختلف وضعهما مع السواكن الجانبية عنه مع الأنفيات ، وذلك بالنسبة لحزمتي الحركة المجاورة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٧)

في الشكل مجموعة من الرسوم الطيفية المثلثة للحركة المعيارية الرابعة (نوع من الفتحة) : أربعة تلي فيها الميم الحركة ، وهي المجموعة اليمى وأربعة تلي فيها اللام الحركة وهي المجموعة اليسرى . ويظهر في الشكل ما يأتي :

١ - الزوج الأعلى (a) . ويكون الرسم الطيفي للام والميم متشابهين مع فرق واحد هو أن الانتقال إلى الميم أشد انحداراً من الانتقال إلى اللام .

٢ - الزوج الأوسط (b) ويكون فيه الانحدار مع اللام أكثر من الانحدار إلى الميم مع زيادة عدد موجات الحزمة الأولى عن الثانية وانخفاضها مع الميم وارتفاعها مع اللام .

٣ - الزوج الأوسط (c) ويكون الانحدار متماثلاً في حالتي اللام والميم ولكن الحزمة الثانية مع اللام تكون بين الحزمتين الأولى والثانية للحركة أما مع الميم فإنها تكون فوق الحزمة الثانية للحركة . أما الحزمة الأولى فتكون فيها أقل من الحالة (b) .

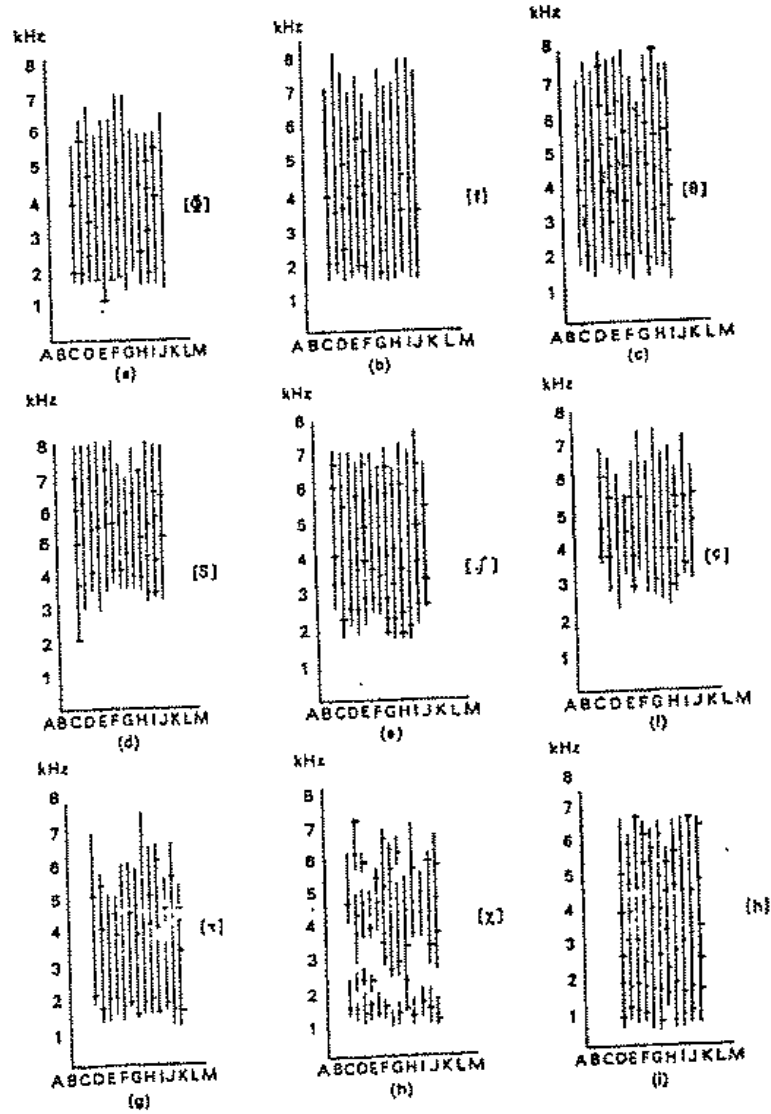
٤ - الزوج الأسفل (d) عبارة عن مجموع الصفات الموجودة في الانتقال وشكل وعلاقة الحزمة الأولى والثانية للام والميم .

هـ - السواكن الاحتكاكية^(١٥)

قلنا من قبل إن توزيع الطاقة بين الموجات التي تمثل الاحتكاكات توزيع عشوائي وأنه نتيجة لهذا لا تظهر حزم لهذه السواكن كذلك التي تظهر مع الحركات والسواكن المجهورة . والأمر الوحيد الذي نتعرف به على السواكن الاحتكاكية في الرسوم الطيفية هو وجود حزام ترددي غير منظم يختلف مدى درجته باختلاف الصوت الاحتكاكي . وللوصول لهذه النتيجة أجرى البحث التالي :

اختار الباحث تسعة من الأصوات الاحتكاكية هي الفاء الشفوية الشائيه / ϕ / ، / ϵ / ، / θ / ، / ϵ / والشين / f / والكاف الشينة / C / والحاء الأمامية / X / والحاء الخلفية / h / ، / h / ، وكلف ١٣٠ من طلاب مدرسين على الدراسات الصوتية بنطق هذه السواكن مع إطلاتها ، ثم رسم رسماً طيفياً لكل من الأصوات المنطوقة بواسطة الراسم الطيفي فظهرت مناطق التردد الخاصة بهذه الأصوات . ثم رصد الحد الأعلى والحد الأدنى لحزام التردد مع كل صوت ، وسجل نتائج ذلك بالنسبة لكل متكلم وفي الشكل رقم ١١ ص (٢٣) ترى مثلاً لحزام التردد في الشين والسين ، في العبارة الإنجليزية She came back and started again . ومراجعة الشكل المذكور نلاحظ وجود حزام ترددي على اليسار يبدأ من ٢٣٠٠ ذ/ث وينتهي عند ٥٥٠٠ ذ/ث . وهو يمثل الشين في she ، كما يلاحظ وجود حزام آخر تردده بين ٣٧٠٠ ، ٥٦٠٠ ذ/ث وهو الذي يمثل السين في Started .

وفيما يلي الرسوم البيانية التي تبين المجال الترددي لأحزمة هذه السواكن كما نطقها كل من الطلاب .



شكل (١٨) أولاً

تحليل عملية التكلم ويعرض نتائج التطبيقية



شكل (١٨) ثانياً

تعليق على الشكل

أولاً - في هذا الجزء من الرسم توجد تسعة رسوم بيانية يمثل كل منها أحد الأصوات الاحتكاكية التسعة كما نطق بها كل من المساعدين الثلاثة عشر . وقد رمز لكل مساعد بخط رأسي مواز للخط الرأسى في الرسم البيانى المميز لعدد الذبذبات في الثانية .

وقد وضع رمز الصوت الاحتكاكى على يمين كل شكل يعرف صوتى دولى (f) ، كما وضع رمز لكل مساعد بحرف كبير من الحروف الإنجليزية (A و B الخ) ، ويشير كل حرف الى أحد الخطوط الرأسية التى تمثل المساعد . وعلى هذا فالشخص A يمثل الخط الرأسى الذى على اليسار في الأشكال التسعة والشخص B يمثل الخط الرأسى المجاور ومكافئ في جميع الأشكال من A الى E و F .

ثانياً - يمثل الشكل D إجمالاً تفاصيل الأشكال التسعة السابقة وتمثل الخطوط الرأسية الأصوات التسعة . وكل من هذه الخطوط عبارة عن متوسط نطق الأشخاص الثلاثة عشر للصوت . وعلى سبيل المثال يمثل الخط الرأسى الثالث على اليسار متوسط الخطوط الرأسية في الشكل C (الثالث من اليمين في المجموعة العليا) ، والخط الثانى يمثل F أى متوسط الخطوط الرأسية في الشكل E (الثانى من المجموعة العليا) .

وسنبين فيما يلى مثالا للحزام الترددى للسين والشين والكاف الشينية (مثل ضمير النصب والجر المتصل للمخاطبة المفردة في الكويتية في الكلمة كتابك / ك ي ت ا ب ي تش /) . وذلك بين شخصين هما A ، M .

A السين من ٢ إلى ٨ والشين من ٣/٢ إلى ٧ والكاف الشينية من ٣/٢ إلى ٧ .
 M السين من ٣ إلى ٨ والشين من ٢/٢ إلى ٧/٢ والكاف الشينية من ٣ إلى ٦/٢ .

الأصوات الاحتكاكية المجهورة :

تشبه الرسوم الطيفية لهذه السواكن رسوم الاحتكاكية المهمومة مع إضافة حزم تكوينية كحزم الحركات ولكنها تكون شديدة الضعف .

ز - الأصوات الانحباسية الاحتكاكية :

وتتكون من الانحباس يعقبه احتكاك وكما هو متوقع فإن الرسم الطيفى لأى منها يتكون من خصائص التوقف والاحتكاك معا وقد سبق بيانها .

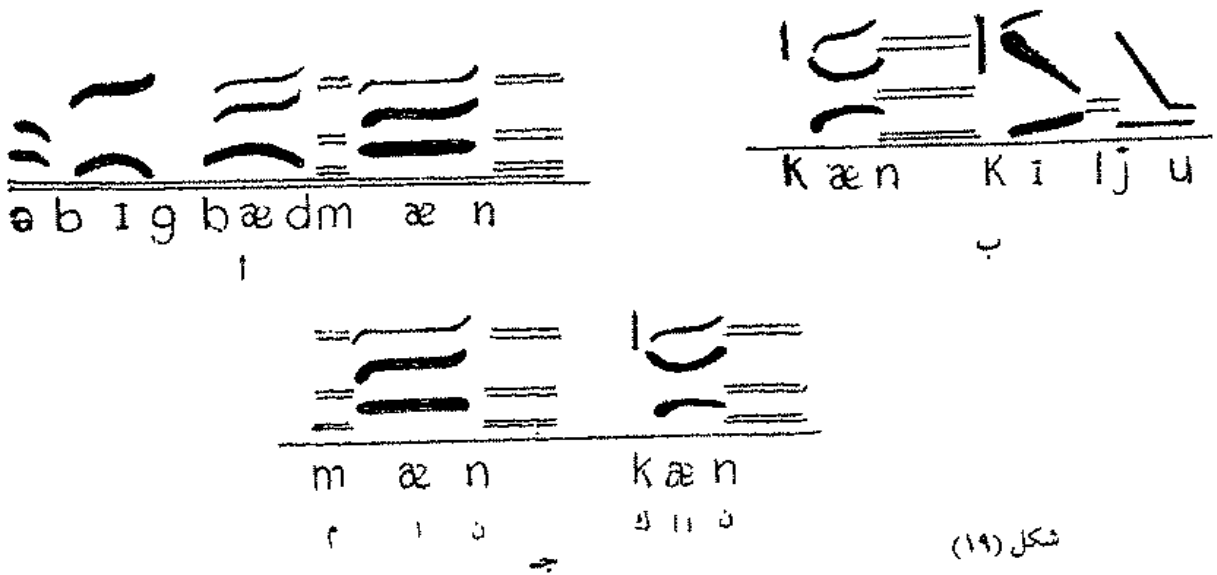
انتهينا من الوصف الطيفي لأنواع الأصوات ، ولكن هذا لايعنى تمام التحليل الطيفي للحدث اللغوي كله ، فهناك العلامات الطيفية للنبر والنغم والصفات الخاصة كالتفخيم العارض للصوت . وليس هنا مجال لشرح كل هذه الأمور .

التحليل والتركيب :

مرت بك أمثلة لتحليل العبارات إلى موجات صوتية ، بعضها يمثل حركات وبعضها يمثل انفجاريات مهموسة أو مجهورة أو أنفسيات أو احتكاكيات . والرسوم الطيفية التي قدمت إليك في الأشكال ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، تمثل تحليلا لعبارات قد نطقت فعلا ثم حول كل نطق إلى رسم طيفي أما الأشكال ١٤ - ١٩ ، فإنها لا تمثل أحداثا لغوية واقعة ، بل منطوقات مصطنعة آليا بواسطة إنتاج موجات تكون رسوما طيفية تماثل الرسوم التي نحصل عليها إذا ماحللنا المنطوقات الفعلية .

وقد تمكن المهندسون من الاستمادة تطبيقيا من عمليتي تحليل الأحداث اللغوية وتركيبها تركيبا اصطناعيا . وقبل أن أقدم للقارئ أمثلة لهذه التطبيقات أود أن أذكره ببعض التعليقات السابقة لتوضيح ما أقول .

لنأخذ مثلا الأبحاث التي لخصناها بالصفحات من (٢٦ إلى ٣٣) . وسنلاحظ أن التجارب قد أجريت على رسوم طيفية مصطنعة . وقد كان كل رسم طيفي تمثيلا مبسطا للتحليل الواقعي لأحداث لغوية عرف منها الباحثون أشكال الموجات التي تكون كل صوت ودرجاتها . وعينوا بالاختبارات السمعية الموجات التي يمكن التخلص منها دون تأثير في درجة الإفهام والموجات التي يتحتم المحافظة عليها للاحتفاظ بدرجة مقبولة من الإفهام . ثم صنعوا الرسوم الطيفية مخففين بالموجات الأساسية ومتخلصين من الموجات ثانوية الأهمية . بعد هذا ، أنتجوا الموجات التي تعينها الرسوم المصطنعة فحصلوا على كلام مصطنع .



شكل (١٩)

أ - العبارة الإنجليزية a big bad man (١٦)

ب - العبارة الإنجليزية can kill you

ج - العبارة العربية « من كان » مكتوبة من اليسار لليمين .

في الجزء العلوي من الشكل رسم طيفي مصطنع للعبارة الإنجليزية التالية : a big bad man ورسم آخر مصطنع للعبارة Can kill you ، وقد اقتطعنا المقطع الأخير من العبارة الأولى ووضعه قبل المقطع الأول من العبارة الثانية / Can / فحصلنا على رسم طيفي مصطنع يمكن أن يقبل باعتباره ممثلاً للعبارة العربية (من كان) . وعلى هذا الفرض تجرى مناقشاتنا التالية .

أولاً - جهاز القراءة (١٧):

قبل قيام الحرب العالمية الثانية كانت شركة بيل للتليفونات تجري أبحاثاً لتحسين الاتصالات الهاتفية والإقلال من تكاليفها . ووصل الخبراء إلى أنه من الممكن اختصار الحزم التكوينية للمجهرات والأحزمة الترددية للاحتكاك إلى عدد قليل من الموجات الأساسية الضرورية للإفهام وبالتالي فقد تصوروا أن السلك الذي يحمل رسالة واحدة بكل موجاتها يمكن أن يحمل عشر رسائل ملخصة . وبهذا تقل تكاليف مد الخطوط عبر الأطلنطي إلى العشر . وأبتكروا جهازاً سموه Vocoder (وهي كلمة مركبة من Voice ، coder أى مصنف الصوت) .

وكان الجهاز يتكون من جزأين الأول يحلل الصوت والثاني يتخلص من الموجات غير ذات الأهمية ويصنع من الموجات الهامة صورة طيفية للرسالة . ومن هذه الصورة الطيفية يعاد تركيب الرسالة بعد تلخيص موجاتها بإنتاج موجات صوتية مصطنعة تمثل الرسالة الطيفية ونجحت العملية نظرياً ، ولكن الرسالة التي تم الحصول عليها لم تكن تامة الوضوح فعدل عن المشروع . وخلال الحرب استغل الحلفاء هذا الجهاز للسمع على المواصلات الهاتفية للعدو . ويقال إن إسرائيل قد حصلت من أمريكا سنة ١٩٦٧ على أحد هذه الأجهزة . واستمعت إلى المحادثات الهاتفية من القادة العرب .

وبعد الحرب استغل هذا الجهاز في تطوير جهاز يقوم بقراءة النصوص المكتوبة للمكفوفين وذلك بإضافة وحدة لتصوير الرسالة المكتوبة وتحويلها لرسالة مسموعة على النحو الآتي .

لنفرض أن العبارة هي : (من كان) في هذه الحالة سيحدث ما يأتي :

١ - يقوم جهاز التصوير بنقل الشكل الكتابي إلى حاسوب تخزن ذاكرته صوراً عديدة هي :

أ - الشكل الكتابي وما يعادله من أصوات .

(من) = م + ا + ن كان = ك + ا + ن .

(١٦) تلخيص عن ٢٩

(١٧) من مرجع ٥ ص ١٣٩

ب - الأصوات وما تتألف منه من موجات وهي في هذا المثال كما يلي :

م = نغمه مستوية درجتها ٢٥٠ + مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ا = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية إلى ٢٣٠٠ .

ن = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

يلاحظ أن الذي يميز النون عن الميم هو الحزمة الثانية من الحركة (فتحة) حيث إنها تبدأ من نقطة أعلى من الحزمة الثانية للميم وترتفع حتى تستوى في درجة الاستقرار ثم ترتفع إلى اتجاه الحزمة الثالثة للنون (انظر شكل الحزمة الثانية في « من » و « كان ») .

ك = حزام في شكل خط رأسى بعده فراغ .

الفتحة الطويلة = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية في اتجاه الحزمة الثالثة للنون التي تليها .

النون = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + حزمة مستوية درجتها ٢٥٠٠ + حزمة مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ج - يصدر الحاسوب أمرا لجهاز إنتاج الموجات الآلى لإنتاج الموجات السابقة على الشكل الذى وصفناه .

د - تنتقل هذه الموجات إلى جهاز تضخيم amplifier .

هـ - تنتقل من جهاز التضخيم إلى سماعة فيسمع المكفوف الجملة المكتوبة .

ثانيا - إنتاج الكلام الاصطناعى^(١٨)

ليست محاولة إنتاج الكلام الاصطناعى محاولة جديدة ، بل إنها ترجع إلى مايزيد عن قرنين من الزمان ، ففي سنة ١٧٨٠ نال العالم الروسى كراتسينشاين Kratzenstein جائزة أكاديمية العلوم في مدينه سانت بيتر سبورج (ستالينجراد الآن) لأنه كان أول شخص أنتج الحركات /a/ ، /i/ ، /u/ ميكانيكيا . وقد صنع لتحقيق هذا العمل زممارا من البوص وصله بأنابيب قامت بعملية ترشيح الصوت الناتج عن زممار البوص . وفي سنة ١٨٤٨ قام يوهانس موللر بمحاولة ثانية لإنتاج الصوت الاصطناعى ، وذلك بأن أخذ حنجرة شخص ميت وشدها على فوهة أنبوبة وثبت خيوطا في غضاريفها ، بحيث يمكن تحريكها كما تتحرك عند الكلام ثم دفع تيارا هوائيا عبر الأوتار الصوتية فأنتج حركات . وفي سنة ١٩٥٦ قام فان دن برج Van den Berg بمحاولة أخرى مستعملا وسائل تقنية حديثة ، ومستفيدا من النظريات الرياضيه المتعلقة بالحركة والضغط ، فصنع مائلا للحنجرة من الجبس ، ومرر تيارا هوائيا خلال فتحتها فأنتج أصواتا مماثل الحركات اللغوية . ومع أن مثل هذه المحاولات لم تنتج عبارات اصطناعية كاملة فإنها قد فتحت الباب أمام محاولات أكثر شمولاً ، نذكر فيها يلي عددا منها :

(١٨) مرجع ١ ص ٣٤٦ ومابعدها

نظريه الحامل :

لتوضيح هذه النظرية نتحدث عن عمل الإرسال الإذاعي (بالراديو) وسنلاحظ أن أول ما يحدث ، (قبل بدء الإذاعة) صدور صفيح مستمر ، هذا الصفيح يسمى بالموجة الحامل ، وهي التي تعين درجة الموجة التي يتم عليها الإرسال الإذاعي ، ثم يضاف إلى هذه الموجة عزف الكمان مثلا ، وهذا العزف يمثل العنصر الثاني وهو الرسالة . أما العنصر الثالث وهو المنظم فيمثله الميكروفون ، وهو يتلقى الحامل والرسالة ويمزجها معا وبهذا تتم العملية الإذاعية .

وفي الكلام الطبيعي يحدث عن طرد الزفير إلى الخارج حدوث الموجة الحامل ، ويتدخل الأوتار الصوتية والغرف الرنينية العليا ، أي ما فوق الحنجرة تحدث الرسالة أما الجهاز المنظم modulator الذي يمزج الحامل فإنه نفس الجهاز الذي يصدر الرسالة أي الأعضاء الصوتية من الحنجرة إلى فتحي الفم والأنف .

وقد تمت محاولة لإنتاج الأصوات اللثوية الإنسانية بإحداث الموجة الحامل والموجات المثلثة للرسالة وإمرارها بمنظم كالميكروفون لمزجها . وقد تمت هذه التجربة في إصدار الأصوات الإنسانية بنجاح ما . ولكنها لم تكن وسيلة عملية يمكن تطبيقها بسهولة .

نظرية الأطياف والحزم والأحزمة :

وقد تعرضنا فيما سبق لمفهوم هذه المصطلحات الثلاثة ، وانتهينا إلى أنه من الممكن تعيين الصفات الصوتية العضوية الأدائية بما يقابلها من صفات طيفية على النحو الآتي :

ـ الحركات وتعين كل حركة درجة الحزمة التكوينية الأولى والثانية والثالثة (انظر المثال ص ٢٤ .)

ـ السواكن الانفجارية ويعينها الحزام الطيفي ودرجته (انظر المثال ص ٢٦ - ٢٨)

ـ السواكن الشفوية ويعينها الانتقال الصاعد للحزمة الثانية من الحركة المجاورة لها .

ـ السواكن اللثوية ويعينها صعود طفيف في الحزمة الثانية للحركة التالية لها إذا كانت / i / أو / e / أو استواء في هذه الحزمة إذا كانت الحركة ' ε ' (في مثل ساب العربية) أو هبوط مع بقية الحركات المعيارية الأربع الباقية / a / ، / ɔ / ، / u / ، / ɒ / .

ـ السواكن اللهوية ويعينها هبوط في الحزمة الثانية من الحركة التالية لها ويظهر كل هذا بمراجعة الشكل ص ٢٩ .

- السواكن الأنفية ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية كالتى توجد في الحركات الأولى في نطاق ٢٥٠ والثانية ٢٥٠٠ والثالثة ٣٢٥٠ ذ/ث

- السواكن الجانبية . ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية درجاتها ٢٥٠ ، ١٢٠٠ ، ٢٤٠٠ ذ/ث

الخ

ومادام من الممكن تحديد الخصائص والصفات الطيفية لكل صوت فإنه من الممكن بالتالى رسم تحليل طيفى يمثل المقطع الذى يوجد فيه الصوت . وتكون الخطوة التالية القيام برسم طيفى يمثل العبارة كلها .

وقد مربك وصف عمل جهاز إعادة النطق ، ومن الممكن استقلال هذا الجهاز لنطق العبارة التى يمثلها الرسم الطيفى كما سبق أن رأيت .

وباختراع الحاسوب ، أمكن إنتاج الأصوات من الرسوم الطيفية بسرعة مذهلة ، يسرت عملية إنتاج الكلام الاصطناعى والاستفادة منه في الأجهزة العلمية والمنزلية كالساعة الناطقة والسيارة التى تدار أجهزتها بإصدار الأوامر الكلامية أو التى تنقل إليك بكلام اصطناعى أجبار العوائق التى تكون قد حدثت في الطريق الذى تسلكه عند السفر .

محاولة تجزئة الكلام الطيفى splicing :

من المحاولات التى جرت لإنتاج الكلام الاصطناعى تسجيل أصوات اللغة منفردة دون إجراء تحليل طيفى لها ، فتسجيل صوت / م / وصوت / ا / (فتحة) وصوت / ن / وصوت / ك / وصوت / ء / ، فإذا أردنا إنتاج اللفظ (كان) وضعنا في الجهاز تسجيل الكاف ثم الفتحة الطويلة ثم النون ، وإن أردنا إنتاج (كائن) وضعنا تسجيل الكاف وبعده تسجيل الفتحة ثم تسجيل الهمزة ثم الفتحة ثم النون ، وهكذا . وكانت النتيجة غير مرضية لأننا لا نسمع كلمات بل أصواتا منفصلة .

وسبب هذا أن الكاف قبل الفتحة لا تماثل الكاف بعد الكسرة ، كما أن الفتحة بعد الميم لا تماثل الفتحة قبل النون وهكذا ، ولهذا جرت محاولة أخرى سجلت فيها عبارات كاملة كثيرة العدد ، ثم قسم الشريط إلى أجزاء (بالقص) بحيث يمثل كل جزء صوتا واحدا في موضع معين ، في الأول أو الآخر أو الوسط قبل كل صوت وبعده كل صوت يمكن أن يجاوره . وبالتالي فإنه لن يكون لدينا تسجيل واحد للكاف بل عدد كبير يمثل جميع مواقعها وتجاوراتها . وقد قدر أننا نحتاج على الأقل إلى ٨٠٠٠ تسجيل دون أن ندخل في الاعتبار ، النبر والنغم الذى يصحب الصوت .

وحتى تتصور صعوبة تحقيق هذه الطريقة سنعرض المثال التالى :

١ - إذا كان لدينا الحرفان ب ، م فإن التجمعات الممكنة اثنان هما ب م ، م ب

٢ - إذا كان لدينا ثلاثة حروف ، ب ، م ، هـ فإن التجمعات ستكون ، ب م هـ ، م هـ ب ، هـ ب م ، ب هـ م ، م ب هـ ، هـ م ب ، أى ستة تجمعات .

٣ - إذا كان لدينا أربعة حروف ، أى ب م هـ د فإن التجمعات ستبلغ ٢٤ تجمعاً وهكذا .

هل تتصور العدد الهائل من تجمعات إذا أحرينا هذه العملية بين أصوات تبلغ ٨٠٠٠ صوت .

وهكذا كان من غير الممكن تطبيق هذه الطريقة في إنتاج الكلام المصطنع . ثم اخترع الحاسوب وتطور تقدمه حتى صار من الممكن إجراء ما يبلغ مليون عملية تجميع في الدقيقة ، وبالتالي لم يكن من العسير استعماله في حصر تجمعات الآلاف الثمانية المذكورة . ولهذا الطريقة ميزة أخرى ، حيث إنها لا تحتاج للبحث المعمل الصوتي وهو معقد وطويل . ويكتفى للقيام بعملية التسجيل والتقسيم ، إعداد النصوص الكافية واستعمال الآلات لإجراء تقسيمها بعد تكبير الشريط المسجل وتقسيمه بالقص . ثم اختزان أجزاء النصوص في ذاكرة الحاسوب ، واستدعائها في التجمعات التي نريدها والتي تكون العبارة التي نريد إنتاجها اصطناعياً .

كما أن هذه الطريقة تمتاز على طريقة التحليل والتلخيص الطيفي بأنها لا تتخلص من أية موجات ثانوية بل احتفظت باللفظ كما سجل في الواقع .

ثالثاً - البصمات الصوتية :

مر بك أثناء المناقشة جدول بعد شكل ١٢ ص (٢٤) وهو يمثل الفرق بين نطق رجل وامرأة وطفل للحركة /i/ ومر بك أيضاً الشكل ١٨ ص (٣٢ ، ٣٣) والتعليق عليه الذي قارنا فيه بين الحزام الترددي للسین والشين كما نطقه شخصان رمزنا لهما بالحرفين (أ) ، (ب) . وبمقارنة هذين الشكلين يتضح لك وجود فروق في الصور الطيفية للصوتيات عندما ينطقها شخص عنها عندما ينطقها آخر . وليس هذا قاصراً على الحركة /i/ أو الساكنين س ، ش ، بل هو أمر عام يشمل جميع الأصوات اللغوية التي ينطقها الإنسان .

وعلى أساس هذه النظرية قيل بوجود ما يسمى بالبصمات الصوتية أى الخصائص الطيفية التي توجد ولا تختلف في نطق شخص ما لأى تعبير لغوى . وعلى المهندس الذى يصمم جهازاً يقوم بهذا العمل أن يزود الجهاز بوحدة تحليل طيفي ، تخزن الصور الطيفية للعبارة التي تحللها في ذاكرة حاسوب ، حتى يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .

ولنفرض أن لصاً دخل مع زميل له إلى أحد البنوك لسرقة خزائنه وكان بالخزانة جهاز تسجيل . وعندما تبادل اللص الحديث مع زميله سجلت إحدى عباراته . وأثناء المحاكمة يسمع القاضى النص المسجل ويدار الجهاز فيحلله

تحليلاً طيفياً ، يخزن في الذاكرة ثم يكلف المتهم بنطق العبارة نفسها ويدار الجهاز مرة ثانية فيسجل ما نطق به المتهم ويحلله تحليللاً طيفياً كذلك ثم تجرى عملية ملاءمة matching يقارن فيها بين الصورتين الطيفيتين ، فلماذا كانتا متلازمتين ، فلن يكون هناك مجال للشك في أن المتهم قد ارتكب جريمة السرقة .

تعرضت في الأمثلة السابقة للنظرية الصوتية اللغوية التي يمكن ، بل والتي طبقت فعلاً تطبيقاً عملياً ، أما كيفية التنفيذ الهندسي للأجهزة فهو أمر ليس لذي الكفاءة أو المعرفة الكافية لوصفه .

ثالثاً - الاستقبال :

يتم التفاهم بين أنواع الحيوان المختلفة بصيحات محدودة العدد كالتعبير عن الخوف أو الجوع أو الرغبة الجنسية . أما التفاهم الإنسان فإنه غنى بالأفكار والانفعالات بفضل تعدد أصوات اللغة في صفاتها وطرق تجميعها في كلمات لا حصر لمفهوماتها .

وقد ذكرنا من قبل أن النغمات عالية الدرجة ، وبصفة خاصة الحزمة التكوينية الثانية والثالثة ، هي التي تعين نوع الحركة وتساعد على تعيين السواكن الانفجارية والأنفية والجانبية ، وأن السواكن الاحتكاكية تتميز بوجود حزام ترددي عالى الدرجة . وكل هذا يشير إلى أن الدرجات النغمية العالية ذات قيمة تفاهمية كبرى . وهذا يفسر قدرة الجهاز السمعي الإنسان على سماع النغمات العالية بأكثر مما عرفناه عن قدرة حيوان كالفيل مثلاً ، إذ يبلغ المدى السمعي عند الفيل ما بين ١٧ إلى ١٠,٠٠٠ ذ/ث بينما يبلغ عند الإنسان من ٣٠ إلى ١٥,٠٠٠ ذ/ث بل وقد يصل لدى بعض الناس إلى ٢٠,٠٠٠ ذ/ث .

ومن المعروف أن النغمات ذات الذبذبات الدنيا يمكن أن تخترق الحواجز أما ذات الذبذبات العليا فإنها تستهلك بامتصاص الحواجز لها . ولهذا زود سكان الغابات وخاصة تلك التي تتعرض للاقتراس بوسيلة لإدراك الأصوات ذات الذبذبات السفلى كخطوات الحيوان المفترس الحادرة قبل الهجوم على فريسته . وهذه الوسيلة هي شكل بوق الأذن ، حيث يكون كالأنبوبة الطويلة المفتوحة من طرفها وأحد جوانبها إلى جانب قرب الأذنين إحداهما من الأخرى والقدرة على تحريكها في اتجاهات معينة مما يمكنها من تكبير الصوت وتحديد مكان مصدره . (١٩)

ورغم هذا الفرق بين كل من وظيفة اللغة ومدى الإدراك السمعي عند الإنسان والحيوان ، فقد وجد الباحثون أن معرفة النشاط الإدراكي الداخلى عند الإنسان لن يتم إلا بدراسة هذا النشاط عند الحيوان . وذلك لأن التجربة المباشرة قد تؤدي إلى الموت أو إلى إصابة المخ بإصابة دائمة لعلاج لها . وقد لوحظ أن نوعاً من الضفادع يسمى بالضفدع الثور Bullfrog يصدر صيحات شبيهة بالحركة / ذ / (الكسرة) وأن هذه الصيحة مركبة من حزمتين تشبهان الحزمة الأولى والثانية في هذه الحركة وأن الموجة الأساسية لهذه الصيحات هي ١٠٠ ذ/ث تليها موجات توافقيه درجاتها مضاعفات

لهذا العدد أى ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٥٠٠ الخ وقام الباحثون برسم يدوى للصور الطيفية لهذه الصيحات وأسمنت لأنواع أخرى من الضفادع فلم تستجب لها . ثم عرضت على هذه الضفادع واستجاب لها كما لو كانت صادرة عن فرد حي من أفرادها . وكان على الباحثين أن يعرفوا ما إذا كان مخها يحتوى على مراكز إدراكية لهذه الأصوات فوضعوا رؤوسا إلكترونية صغيرة على أجزاء من مخها بعد شج رأسها وعرضوها لسماع الأصوات فحدثت ردود فعل كهربائية في بعض خلايا المخ المعينة . وقد وجد أن هذه الخلايا لا تستجيب إلا للموجات توافقية متحدة في عدد الذبذبات مع هذه الصيحات وهكذا انتهوا إلى وجود مراكز عضوية في المخ وظيفتها استقبال الصوت وإدراكه .

النظرية الآلية Motor Theory (٢٠) :

تقول هذه النظرية بأننا ندرك الأصوات بنفس الطريقة التى نتجها بها ، ونحن نشاهد أن بعض الناس يحركون أعضاءهم النطقية عند قراءة نص ما . ويرى أصحاب هذه النظرية أن هذه الظاهرة تطبيق واضح لنظريتهم ، ويقولون بأننا حين نسمع صوتا ما تقوم أعضاءنا الصوتية بنفس العمليات التى تتم لإنتاج هذا الصوت ، بأداء دقيق لا يكاد يدرك . ويقارن المخ بين نشاط الأعضاء الصوتية هذا وبين الصور المخزنة فيه عن صور النشاط العضوى اللغوى المختلفة حتى يلائم بينه وبين واحدة من الصور المخزنة فيتم الإدراك . ومثل هذه العملية هو ما يحدث في جهاز الحاسوب عند قيامه باسترجاع المعلومات استعدادا للوصول إلى حكم معين .

ويرفض بعض من يقول بهذه النظرية قيام الأعضاء الصوتية بأية عمليات تمهيدا لإدراك الصوت المسموع ويرون أن الجهاز الإدراكى الإنسانى شبيه بالجهاز الإدراكى عند الثور الضفدع . أما وسيلتهم إلى إثبات هذا الرأى أو ترجيحه على الأقل ، فهى افتراض أن ملكة الإدراك عند الإنسان تمثل تطورا بيولوجيا عن ملكة قديمة كانت عند الأم الأصل للأنواع الثديية . وتدل الدراسات المقارنة التى قام بها نيجوس في كتابه *Negus, comparative anatomy of the Larynx* ، على أن الخنجره في الحيوانات الأرضية (فيما عدا الحشرات) من أبسط أنواعها إلى أرقاها أى إلى الحيوانات كانت تستعمل في إنتاج أصوات مركبة الموجات مكوناتها موجة أساسية وحزم تكوينية وأن الموجه الأساسية تنتج عن تذبذب جهاز نغضى (كالخنجره عند الإنسان) وأن المكونات التوافقية تحدث عن عمليات الترشيع والتقوية ، تماما كما يحدث عند إنتاج الصوت الإنسانى وهم يلفتون النظر إلى أن جميع الحيوانات الثديية كالثقلط والكلاب مزودة بجهاز إدراكى مركزه بعض خلايا المخ وظيفته الاستجابة الكهروفيزيائية للموجات الصوتية . وهم يتصورون أن عمل هذا الجهاز يتم بالملاءمة بين الصوت الذى يسمعه والخبرات الصوتية المخزنة في المخ وأنه بواسطة هذه الملاءمة يحكم المخ بأن الصوت المسموع من هذا النوع أو ذاك ، تماما كما يحدث في جهاز الحاسوب عندما يراجع المخزن فيه حتى يصل إلى الحكم على نوع شيء ما . ومع هذا فهناك فرق جوهري بين عمليتي الاختزان والمراجعة عند الإنسان والحيوان . وسبب هذا الفرق ، أن صيحات الحيوان محدودة في عددها ودلالاتها ولهذا يمكن اختزانها باعتبارها من نفس النوع مهما كان موطن الحيوان أو ظروفه المعيشية .

أما الإنسان فإن الكلام الذي يصدر عنه يحتوي على رموز ودلالات لا تكاد تخصى ، كما أنه يختلف حسب موطن الشخص وطبقة الاجتماعية ومستواه الثقافي الخ . ولهذا فإن عملية الاختزان والاستدعاء أكثر تعقيداً عند الإنسان منها عند الحيوان ، حتى ولو كانت متحدة في الأصل التطوري .

التصنيف encoding والحكم decoding :

لا يخرن الصوت الإنسان في الذاكرة بذاته ، بل بنوعه . ونود أن نذكر القارئ بما قلناه من قبل عن عملية التجريد التي نجريها في الدراسات الصوتية . وتقتضى هذه العملية تجاهل الفروق الفردية والتركيز على صفات النوع في كل موقع من المواقع^(٢١) وقد مثلنا لذلك بالأصوات المختلفة التي نصفها تحت وحدة / ن / رغم اختلافها من ناحية الأداء بل والتحليل الطيفي .

ويقوم جهاز إدراك المفهومات والرموز وتخزينها بتصنيف الرموز على هذا النحو . والسؤال الهام هو ما إذا كان الجهاز يخرن الأصوات أو المقاطع أو الكلمات .

الثابت أن الأذن حين تتلقى رسالة صوتية تقوم بعملية عكسية لتلك التي تحدث في الحنجرة والفراغات العليا في جهاز النطق . وهذه العملية الأدائية تتخلص من العديد من الموجات الصادرة عن عمليات الزفير في منطقته أسفل الحنجرة ، وذلك بدفعها إلى الفراغات العليا التي تقوم بعملية ترشيح وتقوية يحدث عنها الصوت اللغوي المركب من حزم أو أحزمة طيفية . أما الأذن فإنها تقوم بتحليل هذه الحزم إلى الموجات المكونة لها ، حيث تمر كل موجة بالشعيرات السمعية الحساسة في الجزء المسمى بالقوقعة ، فتتهتز الشعيرة التي توافق في الدرجة الموجة وينتج عن ذلك تيار كهربائي تنقله الحيوط العصبية إلى خلايا المخ لاختزانه .

ولكن القيام بعملية التحليل هذه لا يعنى أن الأصوات ، أو الموجات التي تكونها تخرن باعتبارها وحدات منفصلة عما يحاورها بل إنها تمثل أفراداً الجنس صوت (صوتيم) يحدد اختيار الفرد منها المحيط الصوت المحيط به . ولناخذ مثالا لتوضيح ما نقول : الفتحة الطويلة التي نسميها بالآلف توجد في عدد من مجموعات التجاور منها :

١ - في اللفظ (أمام) يوجد ، ساكن أنفي شفوي + ألف + أنفي شفوي .

في اللفظ (أمان) يوجد ، ساكن أنفي شفوي + ألف + أنفي لثوي .

في اللفظ (لام) يوجد ، ساكن لثوي جانبي + ألف + أنفي شفوي .

(٢١) راجع ص ٨ من هذا البحث .

في اللفظ (إيماء) يوجد ساكن أنفى شفوى + ألف + حنجرى انفجارى .

في اللفظ « حنان » يوجد ساكن أنفى لثوى + ألف + أنفى لثوى .

في اللفظ (نام) يوجد أنفى لثوى + ألف + أنفى شفوى .

في اللفظ (آناء) يوجد أنفى لثوى + ألف + حنجرى انفجارى .

في اللفظ (لأن) يوجد لثوى جانبي + ألف + لثوى أنفى

وفي كل نموذج من النماذج المذكورة توجد في الألف صفات خاصة يفرضها المحيط الصوتى الذى توجد فيه ، وبالتالي فإن تحليلها الطيفى سيختلف في كل نموذج عنه في النموذج الآخر . ولهذا فإن الخيوط العصبية لن تنقل نمودجا طيفيا واحدا ، بل ستنقل في حالة المثال السابق ثمانية أشكال طيفية يختص كل منها بأحد النماذج المذكورة .

وبنفس هذه الطريقة يتم اختزان المعلومات في الحاسوب . وعندما يسمع الشخص لفظ (لام) مثلا. فإن الشعيرات العصبية ستنقل إلى المخ صورة طيفية معينة فيراجع المخ مخزناته من الصور الطيفية حتى يجد الصورة المختزنة الملائمة لها في الشكل الطيفى فيحكم بأن هذه الرسالة تمثل الكلمة (لام) . المثال السابق يوضح أن عملية الاختزان تتم مع عملية تصنيف ماتخزن وأن عملية الإدراك تتم بالوصول إلى الحكم بعد مراجعته النماذج المختزنة وسلامة الرسالة لواحد منها . ويجب أن نذكر هنا بأن هذه النظرية لاتزال محل الجدل وأن الأبحاث لاتزال جارية لكشف هذا السر المحير .

أ - المراجع العربي :

- ١ - عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢ - عبد الرحمن أيوب : الكلام : إنتاجه وتحليله ، نشر جامعة الكويت ١٩٨٤ .

ب - المراجع الانجليزيه :

(3) CHOMSKY. N.	The Formal Nature of Language APP. A. in Biological Foundations of Language, U.S.A., 1967,
(4) LENNEBERG E.H.	Biological Foundations of Language, U.S.A., 1978.
(5) LIEBERMAN P.	The Biology and Evolution of Language, U.S.A., 1984.
(6) LURIA. A.R.	The Working Brain, Penguin Books. U.K. 1973.
(7) PAGET. R.S.	Vowel Resonances, International Phonetic Association, 1922.
(8) STEVENS. P.	Spectra of Fricative Noise in Human Speech, Speech and Sound, Vo. 3, 1960, PP 32-49.
(9) —	Journal of the Accoustical Society of America, U.S.A.
(a) P. COOPER F.S. et al.	Some Experiments on the Perception of Synthetic Speech Sounds., Vol. 24, 1952, PP 597-606.
(b) U. DELATTRE. P.C. et al.	Accoustic Loci and Transitional Cues for Consonants, Vol. 27, 1955, PP 769-773.
(c) PETERSON. G.E. and BARNEY. H.L.	Control Methods used in a Study of the Vowels., Vol. 24, 1952, PP 175-84.

مقدمة :

حينما يبرز الاتجاه التوليدي Transformational Grammar على مسرح الدراسات اللغوية في منتصف الخمسينيات ، فإن ذلك كان إيداناً بتحول جذري في مسرح الدراسات اللغوية . لقد عمل هذا الاتجاه على تأسيس متركزات جديدة في البحث اللغوي . وهذه المتركزات على اختلاف تفاصيلها يجمعها إطار فلسفي واحد حاول شومسكي Chomsky (صاحب الاتجاه) ومن بعده تلاميذه ومريدوه تأسيسها بعمق . وهذا الإطار يتناول اللغة على أنها نشاط عقلي . يقول شومسكي (Chomsky 1965:4) :

« ان النظرية اللغوية نظرية عقلانية ، حيث انها تعنى باكتشاف الحقيقة العقلية الكامنة تحت السلوك الفعلي » .

لقد تغيرت جوانب كثيرة في نظرية النحو التحويلي ، وغير شومسكي نفسه الكثير من أفكاره ، وطور جانباً آخر منها ضمن تفاصيل تتخذ سمات منطقية أو سيكولوجية . ولكن الإطار الفلسفي العام للنظرية بقي ثابتاً ، ألا وهو أن طبيعة اللغة هي نفسها طبيعة العقل . ويستتبع ذلك أن هدف الدراسة اللغوية ضمن هذا الاتجاه ينحصر في صياغة النماذج الشكلية المعبرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة . وهذه المهمة ممكنة في كل حالة لأن المتكلم يستعمل في لغته عدداً محدداً من التراكيب . ودراسة هذه التراكيب المستعملة بالفعل يكون بالامكان التوصل الى مجموعة متناهية من الأحكام التي تصف السلوك اللغوي الصحيح للمتكلم . والاستعمال المتكرر لهذه القواعد أو التحويلات المنبثقة منها هو الذي يمكن المتكلم من إنتاج جمل لانهاية لها (من الساحة المنطقية على الأقل) . وهذه

الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة

يحيى أحمد

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الكويت

القواعد نفسها هي التي تمكن المتكلم من الحكم على الجمل التي يسمعها أو يقرأها ، فيرفض ما لا يتفق منها مع قواعد اللغة . وهي التي تعينه على فهم الجمل الجديدة التي يسمعها أو يقرأها لأول مرة . وهي التي تساعد على فهم الجمل الغامضة أو المزدوجة المعنى ، وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية في تمثل اللغة .

وقد اهتم الاتجاه التحويلي بإبراز العلاقة بين اللغة والعقل في جانبين آخرين : الأول هو مسمى بالمظاهر العالمية للغة ، ويتمثل هذا الجانب - من جملة أمور أخرى - في الجهاز الفطري الكامن في الإنسان والذي يمكنه من اكتساب اللغة . ويتمثل الجانب الثان في فكرة البناء العميق . فما دامت اللغة هي عمل العقل ، فمعنى ذلك أن هناك دائماً عوامل تكمن تحتها . هذه العوامل هي عبارة عن الأشكال اللغوية المجردة المختزنة في عقل الإنسان . ومن المعروف أن هذه الأشكال اللغوية تجمعها قوانين هدفها الربط بين الصوت والمعنى . وقد أعطيت القواعد التحويلية - transformational rules مطلق الصلاحيات لأجراء التعديلات المناسبة الكفيلة بتوصيل الجملة الى بنائها السطحي : الشكل المنطوق أو المكتوب .

إن الذي يهمنا من هذه المقدمة هو أن نخلص الى أن نظرية النحو التحويلي قد جعلت النحو عملية ميكانيكية تتحقق عناصره بشكل آلي حينما تتبع القواعد الموضوعية لابتداء تلك العملية . ولم تعط النظرية أى تبرير وظيفي لحدوث التحويلات في مراحل مختلفة من توليد الجملة . لقد أخرجت من الاعتبار الظروف النفسية التي يكون فيها المتكلم ، كما أهملت إهمالاً تاماً مسألة السياق الذي يقع فيه الكلام واعتبرت اللغة مجرد نشاط عقلي .

وقد برزت نظريات واتجاهات لغوية متعددة تحاول أن تفسر طبيعة اللغة من زوايا مختلفة . ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفي الذي يقف على الطرف النقيض للاتجاه التحويلي . وسنتولى في هذه الدراسة بيان أسس الاتجاه الوظيفي ونظريته البراغمية الى اللغة ، مع التركيز على جانب يبدو مهماً لنا ألا وهو انعكاس النظرة الوظيفية على كيفية تحليل اللغة . ولذلك فقد حرصت على أن أضمن المقالة الجانب التحليلي حتى لا يكون السرد مجرد حديث نظري . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية اضطررت الى استخدام مجموعة مصطلحات عربية هي في أغلبها ترجمات مقترحة من شخصيا ، ولذلك رأيت من المناسب أن أردف كل مصطلح عربي بمترادفه الأجنبي لكي يكون القارئ المتخصص على بينة بالأفكار التي أتحدث عنها .

والبحث يبدأ بتعريف الاتجاه الوظيفي وبيان خصائصه المميزة ، ثم يعرض للمدارس الوظيفية المعاصرة مبيناً مناهجها وأفكارها من خلال تطبيقها على اللغة العربية في حدود ما تسمح به المساحة . وأخيراً يتوقف عند التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي :

ما هو المقصود بالاتجاه الوظيفي ؟

الاتجاه الوظيفي مدرسة من مدارس الفكر اللغوي المعاصر ، وهو يعنى بكيفية استخدام اللغة وبالقائمة الاتصالية للغة^(١) . فاللغة في نظر هذا الاتجاه عبارة عن وسيلة اتصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصل الى أهداف وغايات . وإذا أردنا أن نبحث عن صياغة منهجية يمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفي فإن ذلك يتمثل في السؤال التالى : لماذا نستعمل اللغة ؟ وقد لاحظنا فيما سطرناه في المقدمة أن المد اللغوي الذى اكتسح حقل الدراسات اللغوية في الستينيات والذى يتمثل في نظرية شومسكى العقلانية قد اهتم بمجموعة العلاقات الرياضية المفسرة لميكانيكية اللغة ، وليس بوظيفة اللغة في البيئة اللغوية أو كيفية أدائها للمعاني .

والجانب الوظيفي للغة ليس شيئاً منفصلاً عن النظام اللغوي نفسه . فتداخل الأدوار roles والمشاركين participants في النظام النحوي حسب نمط معين (كما سيمر بنا) في كل لغة مرتبط ارتباطاً مباشراً بالوظيفة التى تؤديها الجمل في السياقات المختلفة . ويزيد هاليدى (Halliday 1973:23) هذه النقطة توضيحاً بقوله :

« إذا كان بإمكاننا أن نغير مستوى الرسمية formality في كلامنا أو كتابتنا ، أو أن ننقل بحرية من نمط سياقى معين الى نمط آخر ، فنستعمل اللغة تارة لتخطيط نشاط منظم ، وتارة لإلقاء محاضرة عامة ، وتارة لتدبير شئون الأولاد ، فلأن طبيعة اللغة على شاكلة بحيث إن جميع هذه الوظائف مبنية حسب طاقتها الاستيعابية الكلية » .

وبذلك فإن الاتجاه الوظيفي يربط بين النظام اللغوي وكيفية توظيف هذا النظام لاداء المعاني . ويتمثل هذا الربط في ثلاثة مظاهر .

المظهر الأول الخيارات المتعددة المتاحة للمتكلم والمتمثلة في الأبنية والتركيب المختلفة الموجودة في لغته . ان كل تركيب يؤدي وظيفة مختلفة لأنه يمكن المتكلم من تنظيم كتل المعلومات طبقاً لظروف الكلام . فالجمل التالية مثلاً :

- ١ - استقبلت الأوساط الأدبية نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٢ - استقبل نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٣ - الأوساط الأدبية استقبلت نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٤ - نجيب محفوظ استقبل نبأ حصوله على جائزة نوبل ببالغ السرور .

تؤدي وظائف مختلفة لأن كل واحدة منها تقرن بسياق مختلف وتستعمل في ظروف مختلفة . وانطلاقاً من هذا الفهم ، فإن هذه الجمل الأربع لاتعتبر مترادفة لأن كل واحدة منها تركز على جانب معين من الحدث ، وبذلك فإن لكل

(١) لمزيد من التفاصيل انظر هاليدى (Halliday (1973: 22

واحدة منها قوة تعبيرية متميزة مستمدة من الدور الذى يؤديه كل أسلوب في الحياة الاجتماعية . ولنتذكر هنا أن الاتجاه التحويلي يعتبر الجمل (٢) و (٣) و (٤) مجرد صياغات تعبيرية متفرعة عن الجملة الرئيسية ، ويمكن التوصل اليها بتطبيق القواعد التحويلية على الجملة رقم (١) . وأما التأويل الدلالى الذى يرتبط بهذه الجمل فهو واحد في جميع الأحوال .

المظهر الثانى هو أن جذور اللغة تمتد الى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها . فلا يمكن فصل اللغة عن الثقافة : التراث والعادات والتقاليد . ان الظواهر الاجتماعية التى يرتبط بها الفرد بحكم انتمائه الى مجتمع ما تفرض عليه سلوكا لغويا معينا . ويظهر ذلك بوضوح في أساليب التخاطب التى يتقنها الفرد في المواقف المختلفة . فالتحدث الى رئيس الدولة وإلى زميل في العمل وإلى فراش في دائرة العمل لا يتخذ مجرد أشكال لغوية مختلفة ، وإنما نجد أن الأشكال اللغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن الكلام يعكس الخلفية الاجتماعية والثقافية للفرد . ولذلك فوصفنا لكلام شخص بأنه كلام مؤدب أو كلام وقح يعتبر وصفا جماليا أخلاقيا نابعا من اعتقاداتنا الاجتماعية . ان البنية الاجتماعية تنعكس في التراكيب اللغوية التى نستعملها . ونجد هذا الانعكاس كذلك في المصطلحات الدالة على صلة القرابة وفي مصطلحات الألوان والتعبيرات المشتقة منها . ونجدها فوق كل ذلك في المستويات الأسلوبية registers . واللكنة التى يتحدث بها الشخص تعكس مظهرها اجتماعيا . حينها نسمع لكنة الصعيدي وهو يتحدث باللهجة المصرية ، أو لكنة البدوي وهو يتحدث باللهجة الكويتية نستطيع أن نقرر مباشرة أن هذا الشخص ينتمى الى شريحة اجتماعية معينة . والتنغيم كذلك يرتبط بهذا الجانب ارتباطا واضحا ، بحيث إنه بإمكاننا أن نتعرف على الفئة الاجتماعية التى ينتمى اليها الشخص وذلك من خلال طريقة تحدثه .

المظهر الثالث تضافر العناصر ، بمعنى أن عناصر اللغة مجتمعة تساهم في أداء الفكرة التى يريد المتكلم توصيلها . والأمرا هنا يشبه عمل السلك الكهربائى . فالسلك الكهربائى الواحد يتكون من مجموعة أسلاك شعرية دقيقة . ولا نستطيع عندئذ أن نقول ان سلكا بعينه من هذه الأسلاك الدقيقة مسئول عن توصيل الكهرباء . فهذه الوظيفة تقوم بها هذه الأسلاك الدقيقة كلها مجتمعة . وهكذا الأمر بالنسبة للغة . فلا يمكن أن يستقل عنصر أو مستوى لغوى بأداء الوظيفة . فالوحدة الصوتية - مثلا - تستطيع أن تؤدي وظيفة من خلال وحدات صوتية أخرى تشكل الكلمة ذات الدلالة المفيدة في المعجم ، والكلمة بدورها تؤدي وظيفتها ضمن نظام نحوى .

إذن فالالاتجاه الوظيفي يتميز من بين الاتجاهات الأخرى في الدراسات اللغوية بأنه يربط اللغة بالوظيفة التى تؤديها من جانب ، وبالبيئة الاجتماعية وتضافر العناصر من جانب آخر . والتحليل اللغوى الوظيفي يكون من منظور يهدف الى بيان الوظائف التى تؤديها اللغة في البيئة اللغوية . أما الإطار النظرى الذى يتم من خلاله التحليل فهو مصمم لأداء هذا الغرض العام . ولذلك لا يفضل الوظيفيون بجدلية النظرية اللغوية وإلى أى حد تتمثل فيها الكفاية الوصفية de-scriptive adequacy والكفاية التفسيرية explanatory adequacy فالنظرية ليست هدفا وإنما هى إطار يتم من خلالها الكشف عن الخيارات المتاحة أمام المتكلم . يقول هاليدي في مقدمة كتابه « مقدمة في النحو الوظيفي » (Halliday 1985:19) :

« إننا لسنا بحاجة الى نظرية متخصصة الى حد كبير بحيث يستطيع المرء أن يفعل القليل بها » .

ويقول في الصفحة الثامنة من المقدمة نفسها :

« ان الكلام المنطوق يحتاج الى شكل مرن وليس الى بناء جامد من التمثيل الشكلي » .

ونجد هذا المنحى واضحاً عند لغوي مدرسة براغ الذين أجروا تحليلاتهم من خلال « مفاهيم وظيفية » وليس من خلال نظرية بالمعنى الذي نجده عند التحريين أو البنائيين الأمريكيين . ونجده أكثر وضوحاً عند المتأخرين من الوظيفيين أمثال دل هايمز Del Hymes الذي نلاحظ على منهجه أنه عبارة عن مقترحات اجرائية أكثر مما هو نظرية .

المدارس الوظيفية المعاصرة :

توجد ضمن الاتجاه الوظيفي العام مدارس متعددة ، تختلف في تناولها للمظاهر المدروسة من حيث عمق التحليل ومن حيث التركيز على التفاصيل المتعلقة بالظاهرة . وعلى الرغم من التباعد الزماني والثقافي بين هذه المدارس الا أنه يجمعها تصور واحد تجاه طبيعة اللغة : فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة وللتأثير على الآخرين .

وسأحاول فيما يلي أن أقدم للقارئ العربي صورة شاملة لمضمون أفكار المدربين الوظيفية . وسيجد القارئ أن بعض الأفكار التي سيرد ذكرها من الممكن تتبع جذورها في الفكر البلاغي العربي أو مقارنتها بأفكار البلاغيين العرب النابيين . ولكن الهدف المرسوم لهذه المقالة يجعلني أتجنب الخوض في هذا الجانب .

مدرسة براغ :

في حوالي سنة ١٩١١ ألقى ماثيسوس Mathesius (١٨٨٢ - ١٩٤٥) محاضرة مهمة حول ماسماه بـ (خصيصاً اللغة) characterology of language وقد قال ياكسون عن هذه المحاضرة إنها لو كانت قد أُلقيت في مكان آخر غير براغ ، في موسكو مثلاً ، لأحدثت ثورة حقيقية في الدراسات اللغوية عندئذ (٢) ولذلك لم تكن أفكار ماثيسوس معروفة لدى الأوساط اللغوية حتى انعقد الاجتماع الأول لمدرسة براغ في أكتوبر ١٩٢٦ ، وكان ذلك بمبادرة من ماثيسوس نفسه . وبعد انتهاء جلسات الاجتماع ، اتفق المجتمعون على الالتقاء بصفة دورية ضمن « حلقة براغ اللغوية » . وابتداء من هذه الفترة تجمع حول ماثيسوس مجموعة من المهتمين بالدراسات اللغوية . وقد عرف هذا التجمع فيما بعد باسم (مدرسة براغ) .

(٢) انظر في ذلك (5 : 1966) vachek .

وقد ضم التجمع عددا من اللغويين الأوكرانيين والألمان والروس والسلافيين ممن لم يكونوا يقيمون في تشيكوسلوفاكيا . فالتسمية اذن لا تشير الى المحلية ، ولكنها تستخدم استخداما علميا لتشمل تلك النظرة الخاصة التي تميزت بها هذه المدرسة في التحليل اللغوي ألا وهي النظرة الوظيفية .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تأثر نشاط مدرسة براغ تأثرا بالغا ، حيث أغلقت القوات الألمانية التي احتلت تشيكوسلوفاكيا جميع الجامعات فيها . وشهد عام ١٩٣٩ موت أحد أبرز أفراد المجموعة وهو ترويتسكوي^(٣) . وفي تلك الفترة ونتيجة لظروف الحرب ، اضطروا رومان ياكسون أن يهرب من الحكم النازي ، فرحل الى الدنمارك ، ثم النرويج وأخيرا حط الرحال في الولايات المتحدة الأمريكية . وقبل نهاية الحرب بفترة قصيرة ، أى في الثاني عشر من أبريل ١٩٤٥ توفى مؤسس المدرسة ورائدها الأول ماثيسوس . وأدت كل هذه الأمور الى تشتت أفراد المدرسة .

وبعد استتباب الأوضاع وفي بداية الخمسينيات حاولت الأوساط الأكاديمية في بعض الجامعات التشيكية إحياء اتجاه مدرسة براغ ولكن من خلال مسميات جديدة مثل (الرابطة اللغوية) Linguistic Association و (جماعة علم اللغة الوظيفي) The Group for Functional Linguistics وقد ضمت هذه التجمعات أفرادا نشيطين واصلوا الكتابة ضمن الاطار الفكري للمدرسة ، وأعادوا نشر الدورية المشهورة التي كانت تصدر باسم المدرسة والمسماة « Travaux de Linguistique de Prague » .

« ان السمة البارزة للغوي مدرسة براغ هي نظرتهم الى اللغة في إطار الوظيفية . وأعني بذلك ليس فقط أنهم نظروا الى اللغة ككل على أنها تخدم غرضا ، فهذه حقيقة معروفة وهي وحدها لا تميزهم عن غيرهم . بل القصد أيضا أنهم كانوا يحللون اللغة المعينة من خلال وجهة نظر تهدف الى أن تبين لنا الوظائف الخاصة التي تؤديها الأبنية المختلفة في استخدام اللغة ككل . وهذه النظرة ميزت مدرسة براغ تميزا واضحا عن معاصريهم من اللغويين الأمريكيين (وتميزهم بوضوح كذلك عن التحويليين) الذين نظروا الى النحو على أنه يتكون من مجموعة من العناصر » . (Sampson 1980:103)

من معالم مدرسة براغ المهمة اهتمامها بقضية المعنى . ولكي نعرف أهمية هذا الجانب فإنه من المفيد أن نذكر في هذا السياق أن الاتجاه البنائي المتمثل في كتابات بلومفيلد وغيره من اللغويين الأمريكيين ، قد ربط المعنى بعنصرى المثير ورد الفعل . أى أن تحليل المعنى يكون بأن نبين نوع المثير الذى يولد رد فعل معينا والمتمثل في العبارات التي ينطق بها المتكلم ، وأن نبين رد الفعل السلوكي الذى يحدثه المتكلم باعتباره مثيرا . فمستعمل اللغة قد يمثل عنصر الاستجابة أو

(٣) نيكولاي ترويتسكوي Trubetzkoy (١٨٩٠ - ١٩٣٨) واحد من أعضاء مدرسة براغ الذين لم يكونوا يعيشون في تشيكوسلوفاكيا ، فهو ينتمي الى أسرة من نيلاد روسيا . كان والده أستاذا للفلسفة ، وأصبح مديرا لجامعة موسكو . وقد درس ترويتسكوي اللغات الهندية - الأوروبية ، وأصبح عضو هيئة تدريس في جامعة موسكو عام ١٩١٦ . وحينما بدأت الثورة البلشفية ، هرب الأمير ترويتسكوي الى روستوف ، ثم بعد ذلك الى ليتا حيث أسندت اليه رئاسة قسم الدراسات السلوفاكية في جامعة ليتا عام ١٩٢٢ . ثم أصبح بعد ذلك عضوا في مدرسة براغ (بعد براغ عن ليتا مسافة ١٥٠ ميلا) . وبقي ترويتسكوي في ليتا حتى توفي في عام ١٩٣٨ اثر أزمة قلبية ، وذلك نتيجة لاستجواب قوات الجشتابو له ، حيث كان ترويتسكوي من مناهضي النازية . انظر (Sampson 1980: 107) .

رد الفعل حينما يكون متلقيا ، وقد يمثل عنصر المثير حينما يكون مرسلا . ان اتخاذ الاتجاه البنائي لهذا الإطار النفسي الضيق للتفسير الدلالي كان بسبب تأثيره بأفكار مذهب من مذاهب علم النفس يعرف بالسلوكية Behaviourism ، وهو مذهب يفسر السلوك الإنسان حسب الأفعال الظاهرية والتي هي عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية في البيئة . ويذهب الى أن خصوصيات ومحتويات العقل يمكن النفاذ إليها عن طريق الاستبطان . ولذلك فإن قضية المعنى تشكل نقطة ضعف في الاتجاه البنائي ، ولم تعط حقها من الاهتمام .

والملاحظ أن تحليل مدرسة براغ للمعنى لم يتخذ منحى المنطق الوضعي أو المنحى التجريدي الذي يفصل المعنى عن الاستعمال اللغوي ، وإنما اتخذ منحى وظيفيا . وهذا واضح في أن ماسموه بالمحتوى الدلالي semantic content يرتبط من جانب بمستويات لغوية أخرى كالمستوى النحوي والمستوى الأسلوب ، ومن جانب آخر بحقائق العالم الخارجي ، بما في ذلك مشاعرنا تجاه هذا العالم . (راجع 1966:34 Vachek) فهناك حقيقة مهمة حول عملية الاتصال اللغوي ينبغي أن ندركها ألا وهي أن المتكلم حينما يوجه خطابه الى المستمع فإنه لا يريد فقط أن ينقل إليه بعض الحقائق ، ولكنه يريد أيضا أن ينقل إليه مشاعره تجاه الحقائق . إن العبارات المنطوقة تكون دائما مغلفة بمشاعر الفرد . وذلك بحكم انتمائه الى بيئة اجتماعية تموج فيها شتى المعطيات والمتغيرات . وقد فهم لغويو مدرسة براغ أن ربط محتوى الكلمة بالحقائق الخارجية يمثل وظيفة اللغة في المجتمع . وسنجد أن مدرسة لندن قد وظفت هذه الفكرة توظيفا مثاليا من خلال نظرية سياق الحال .

المنظور الوظيفي للجملية :

سأعرض فيما يلي بتفصيل أكثر للنهج الوظيفي لمدرسة براغ من خلال التحدث عن مجالات الدراسة اللغوية التي ساهمت فيها مدرسة براغ مساهمات مميزة : النحو والدلالة^(٤) .

تعتبر مقالات مائسيوس في تحليل الأبنية التركيبية للانجليزية والتشكيكية نقطة البداية لنمط من التحليل سماه مائسيوس نفسه « المنظور الوظيفي للجملية » .

Functional Sentence Perspective ولكي نتضح لنا طبيعة هذا المصطلح ، فإنه من المفيد أن نذكر هنا أن اللغة في منظور مدرسة براغ لها ثلاثة مستويات هي :

١ - المستوى النحوي (ويندرج فيه الصرف كذلك) .

٢ - المستوى الدلالي .

٣ - المستوى الكلامي Organisation of utterance .

(٤) لن يتسع المجال هنا للتطرق الى الأفكار الوظيفية لمدرسة براغ حول الوحدة الصوتية والملاحج الصوتية المميزة . وبإمكان القارئ أن يجد تغطية جيدة لبعض تلك الجوانب في

كتاب (أحمد مختار عمر . ١٩٧٦) .

والمستوى الأخير يبين كيف يتفاعل المستوى النحوي والمستوى الدلالي في عملية الاتصال اللغوي^(٥). وضمن نطاق هذا المستوى الثالث برزت فكرة المنظور الوظيفي للجملة. ويقوم هذا التحليل على أساس القيمة الاتصالية للغة. ان اللغة تستخدم كوسيلة تعبيرية تأثيرية. وهي ليست شيئاً مجرداً عن الواقع الذي توجد فيه، بل ان وظيفتها هي التفاعل مع هذا الواقع. والمنظور الوظيفي للجملة ينظر الى الجملة على أنها تتكون من شقين: الأول ويسمى المسند theme، والثاني ويسمى المسند إليه rheme.

والأمثلة التالية توضح كلا من الشقين:

« المال والبنون »		زينة الحياة الدنيا »	
المسند		المسند إليه	
تمكن	أخى	من الدفاع عن المتهم	
المسند	المسند إليه		
يريد	الله	بكم اليسر	
المسند	المسند إليه		

ويأتى المسند - في الغالب - أولاً ثم يعقبه المسند إليه. هذا هو الترتيب المتبع حينما يكون نسق الجملة محايداً. والنسق المحايد هو الترتيب المألوف لأجزاء الجملة في الاستعمال العادى، أى الاستعمال الذى يراد به مجرد الاخبار أو الاسناد. أما حينما يريد المتكلم أن يجذب انتباه السامع الى عنصر معين في الجملة، أو أنه يريد التركيز على عنصر معين لأنه يمثل في نظرة زبده الحدث اللغوي، فإنه يلجأ عندئذ الى خرق هذا النسق الطبيعي.

« والله »		يدعو الى	
المسند		دار السلام	
المسند إليه		إليه المسند	
أخوك	أخبرني	بذلك	
المسند	المسند إليه		

(جواباً للسؤال: من أخبرك بذلك؟).

(٥) راجع في ذلك مقالة دانش (Danes 1966: 225). وهل الرغم من تقسيم اللغة الى هذه المستويات فإن أي مستوى منها لا يمكن فصله عن بقية المستويات، لأن اللغة ذات أنظمة متداخلة. ولكن نقوي براء شعرواً بأن تحديد المستويات ضروري للبحث عن حقائق اللغة.

(٦) استخدمني مصطلحي المسند والمسند إليه من حيث الاستعمال وليس المعنى مع استعمال سيويه لها. ففي الجملة الاسمية يعتبر المبتدأ مسنداً والخبر مسنداً إليه: « فأنبتاً مسند والمجي عليه مسند إليه » (الكتاب ٧٨/٢). وفي الجملة الفعلية يكون الفعل مسنداً والفاعل مسنداً إليه. وأود أن ألفت نظر القارئ الى أمرين يتعلقان بهذين المصطلحين. الأول أن جمهور النحاة استعملوا على خلاف ما أشار اليه سيويه. الثاني أن سيويه ومن جاء بعده من النحاة قد استعملوا المصطلحين للإشارة الى اعتبارات نحوية، ولكنني استعملتهما هنا للإشارة الى شيئين (أ) عنصر المعلومات في الجملة (ب) مدى ما للوحدة من دينامية في الاتصال اللغوي. وسررد شرح ذلك في نص المقالة. انظر كذلك الحاشية رقم (٨).

وفيا إلى مثالان توضيحيان آخران يعبران عن فكرة واحدة ، لكن الفرق بينهما هو في مجال التركيز ، وسنجد أن توزيع المسند - المسند إليه يعكس هذا الفرق :

وصل	الوفد الرياضى الصينى	الى البلاد ليلة أمس
المسند	المسند إليه	

(جوابا للسؤال / ماهى أخبار الوفود الرياضية ؟)

الوفد الرياضى الصينى	وصل	الى البلاد ليلة أمس .
المسند إليه	المسند	

(جوابا للسؤال : أى وفد وصل الى البلاد ليلة أمس ؟)

ان تحديد موضع المسند في الترتيب المحايد ينبع من الحقيقة المعروفة وهى أن المرء يبدأ كلامه بالمعلومات المعروفة لدى المتكلم أو التى سبقَت الإشارة إليها أو التمهيد لها في السياق . ثم يضيف بعد ذلك المعلومات الجديدة التى يظن أنها كفيلة باثراء القارئ أو السامع . ولكن مفهوم المسند والمسند إليه لا ينحصر في هذا النطاق من الفهم الابتدائى . فالواقع أن اللغويين الذين جاءوا بعد مائسيوس قد طوروا هذا المفهوم . ومن أبرز هؤلاء اللغويين جان فرباس Jan Firbas . يتخذ فرباس « المنظور الوظيفى للجملة » أساسا لتحليل ومحدده بوضوح (Firbas 1959:39) على النحو التالى : « المقصود بالمنظور الوظيفى للجملة هو ترتيب عناصر الجملة بالنظر إليها في ضوء السياق الفعلى » . ويقدم مفهومًا وظيفيًا جديدًا يسميه « دينامية الاتصال » Communicative dynamism ، وهى خاصية من خاصيات الاتصال تتجلى في سياق تنمية المعلومات التى يراد التعبير عنها^(٧) . ذلك أنه في عملية الاتصال اللغوى تتعدد العناصر التى تدخل في تكوين الجملة ، وهذه العناصر لها امكانية متفاوتة في إثراء معلومات المستمع : فبعضها يحتوى على معلومات يعرفها المستمع بالفعل (أو يمكن استعادتها من خلال السياق) ، وبعضها يحتوى على معلومات جديدة . وحينما ننظر إليها من هذه الزاوية نجد أن قدرتها على تحريك الحدث الكلامى متفاوتة ، وهذا انعكاس للطبيعة الديناميكية لعملية الاتصال اللغوى .

وطبقا لمفهوم « دينامية الاتصال » فإن هناك ثلاث وحدات وظيفية في الجملة : المسند وهو ينقل أقل درجة من دينامية الاتصال . المسند إليه وهو ينقل أعلى درجة من دينامية الاتصال . وبعد هاتين الوحدتين أو قبلهما أو بينهما تأتى الوحدة الانتقالية ، transition وتكون غالبا من العناصر الاضافية (الظرف ، الحال) أو العناصر التى نحتاج إليها

(٧) راجع مزيد من التفاصيل مقالة فرباس (Firbas 1971) ص ١٣٦ لها بعد .

لاستقامة الجملة نحوياً (أدوات النسخ ، أدوات الشرط الخ)^(٨) . وهنا نرى أن تحديد المسند - المسند إليه يكون على أساس وظيفتها في الاتصال اللغوي ، بينما التحديد السابق كان يربط بينهما بشكل ما بعنصر المعلومات . ولكي يتمكن من تحديد هذه الوحدات في الجملة ، فإنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الثلاثة التالية :

١ - تسبق الجملة ، أي كيفية ترتيب الأجزاء فيها .

٢ - السياق العام للحدث اللغوي .

٣ - السياق الدلالي الخاص للجملة (البنية الدلالية) .

وهذا يبين لنا أن دينامية الاتصال ليست نظاماً منفصلاً ، ولكنها وليدة عدة عوامل مجتمعة . والجملة التالية توضح هذه الوحدات :

السياق : أين رمى الفراش الأوراق ؟

الجملة : في سلة المهملات	رمى	الفراش	الأوراق
مسند إليه	وحدة	مسند	مسند إليه
انتقالية			

السياق : هل جميع الناس ظالمون ؟

الجملة : والظلم	من شيم النفوس	فان تجد
مسند	مسند إليه	وحدة انتقالية

الجملة : لا يظلم	فلعله	ذا عفة
(المتنبي)	وحدة انتقالية	مسند

السياق : هل تصدق أنني نسيت أن أغلق باب شقتي ليلة أمس ؟

.. وماذا حدث ؟

الجملة : دخلت قطة صغيرة داخل المطبخ .

المسند إليه

(٨) لقد وضحت في الحاشية رقم (٦) أن مصطلحي المسند والمسند إليه سيستخدمان بمفهوم جديد . ولكي لا يكون هناك لبس في ذهن القارئ فإني أحب أن أذكر أن البلاغيين العرب يقسمون الجملة الفعلية إلى ركنين أساسيين : المسند (ويمثله الفعل) والمسند إليه (ويمثله الفاعل) . ويقسمون الجملة الاسمية كذلك إلى ركنين : المسند إليه (ويمثله المبتدأ) والمسند (ويمثله الخبر) . وقد استخدم البلاغيون العرب مصطلح (متعلقات الاستناد) للتعبير عن كل ما عدا المسند والمسند إليه . أي أن البلاغيين العرب يربطون في الموقعية بين المسند والمسند إليه والترتيب النحوي لمناصب الجملة (بين المسند إليه وكونه يقع فاعلاً ، أو بين المسند وكونه يقع فعلاً وهكذا) . ولكن الواضح من استعمالنا هنا أن هذا الربط غير ممكن ، لأن ترتيب المسند - المسند إليه والترتيب النحوي مستويان مختلفان من التحليل في المنظور الوظيفي .

ولو أمعنا النظر في هذه الجمل الثلاث لوجدنا أن تعيين عناصر دينامية الاتصال يتحدد على أساس السياق . فالسياق هو الذي يحدد لنا ما إذا كان أحد عناصر الجملة شيئاً معلوماً أو شيئاً جديداً هو عبارة عن الإضافة التي يريد المتكلم أن يوصلها إلى السامع . ولو أعدنا قراءة الجملة الأخيرة لوجدنا أنها تشكل بأكملها المعلومة الجديدة التي يريد المتكلم أن يخبر السامع بها . ولذلك فكل العناصر فيها تحمل درجات عالية من دينامية الاتصال . وهنا نجد أن الحقائق الخارجية عن الإطار التركيبي للغة لها دخل في التعرف على المعنى .

وفي الجمل المتعدية نجد أن « المفعول به » يمثل الهدف أو نتيجة الحدث (الذي يعبر عنه فعل الجملة) ، ولذلك فالمفعول به يحمل - في الظروف العادية - درجة من الدينامية هي أعلى من درجة الفعل . وتعليل ذلك أنه من وجهة النظر الوظيفية فإن الهدف (أو النتيجة غير المعروفة) يعتبر أهم من الحدث نفسه .

ومن عناصر السياق الدلالي الخاص للجملة في المنظور الوظيفي استخدام أداة التعريف . فالكلمة المعرفة بأداة التعريف غالباً ما تحمل درجة متدنية من الدينامية وذلك على افتراض أن أداة التعريف تشير إلى شيء معهود أو معروف لدى المستمع . فحينئذ نقول :

وصلت الرسالة أمس
مسند

ونسند إلى (الرسالة) وظيفة المسند . فهذا يعني أن المتكلم كان قد أتى على ذكر الرسالة في فترة سابقة ، أي أنها تشير إلى شيء معلوم . ولكن هذه ليست وظيفة ثابتة لأداة التعريف ، وأعني أنها لا تستخدم دائماً بهذه الكيفية . فمع تضافر العوامل الدلالية والسياقية فإن أداة التعريف قد تقترن بالمسند إليه وذلك على نحو ما هو موضح في المثالين التاليين :

السياق : هل جميع الطلبة الذين تدرسهم حالياً ضعاف في اللغة ؟

<u>الجملة : كلا الطالب المستجد</u>	<u>على وجه الخصوص</u>	<u>يعاني من ضعف في اللغة</u>
المسند إليه	المسند	وحدة انتقالية

السياق : أين ضاع قلمك ؟

<u>الجملة : ضاع</u>	<u>قلمي</u>	<u>في المكتبة</u>
وحدة انتقالية	مسند	مسند إليه

فالمسند إليه هنا يقترن بما يشكل المعلومة الجديدة في الرسالة اللغوية وذلك على الرغم من ارتباط هذا المسند إليه بأداة التعريف . على أنه من الواضح ، كما انتبه إلى ذلك فرباس (Firbas 1966:248) أن الوظيفة الأساسية لأداة

التعريف هي أن تبين أن الاسم معرف من حيث الإشارة ، وهي لا تستطيع وحدها أن تجعل الاسم أكثر دينامية . وإذا وجدنا اسماً معرفاً يؤدي وظيفة المسند إليه فهذا راجع الى وجود عوامل أخرى والتي يعتبر السياق من أهمها .

لقد رأينا كيف يساهم نسق الجملة من جانب والسياق من جانب آخر في توضيح عناصر دينامية الاتصال . وحينما نتعامل مع الجملة بهذه الكيفية فإن بالامكان التعرف على تركيبة المعلومات ومنهجية توالفها بشكل أكثر تفصيلاً . من الممكن عندئذ أن نتحدث عن « المسند الصريح » Theme proper ، وهو العنصر الذي يحمل أدنى درجة من درجات الدينامية . « والمسند إليه الصريح » retheme proper ، وهو يحمل أعلى درجة من درجات الدينامية . (انظر مقالة فرباس 1971) . وفي الجملة التالية نجد أن الضمير يعود الى شيء معروف قد سبق ذكره في السياق ، ولذلك فقدرت على إثراء معلومات القاريء ضئيلة جداً ، ويصنف في سلم الدينامية على أنه مسند صريح .

السياق : أين وجدت المحفظة ؟

الجملة : وجدت	في الطريق
مسند صريح	مسند إليه

أما في الجملة التالية فهناك عنصران يحملان دينامية عالية ، ولكن الواضح أن أحدهما أكثر فعالية من حيث أهميته في الحدث اللغوي .

السياق : من الذي أيد صحة تلك الأنباء ؟

الجملة : (أيد صحة تلك الأنباء)	مصدر دبلوماسي عربي	رفيع المستوى
مسند	مسند إليه	مسند إليه صريح

أن الصورة التي رسمناها حتى الآن توضح لنا أن توزيع درجات دينامية الاتصال في الجملة هو حصيلة تضافر ثلاثة عوامل هي : السياق ، نسق الجملة ، والبنية الدلالية . أما المجال الذي تتوزع خلاله دينامية الاتصال فهو الحدث الكلامي بأكمله . وقد يقتضي ذلك تقسيم الكلام الى فقرات والفقرات الى جمل وهكذا (راجع : Firbas 1971 : 138)

وقد يتبادر الى الذهن أن تحليل فرباس تحليل ذوقي انطباعي وليس تحليلاً مبنياً على قواعد مقننة . والواقع أن فرباس ، شأنه شأن سائر لغويي مدرسة براغ ، لم يكن يميل الى التقنين الجامد للمظاهر الوظيفية للغة . والواضح في مسلك مدرسة براغ أنها لم تحفل بالتقنين أو بجعل الدراسة اللغوية دراسة علمية ، كما كان الشأن لدى المدرسة الأمريكية . فقد كان اهتمام مدرسة براغ منصباً بوجه خاص على الكيفية التي تزود بها اللغة المتكلم بعدد من الأساليب والطرائق التعبيرية مناسبة لظروف اجتماعية مختلفة (راجع : Sampson 1980 : 271) . والجانب الانطباعي أو

الشخصي أمر لا مفر منه في التعامل مع لغة النص ، أو اللغة التي نستعملها كوسيلة اتصال ، لأن مجال التحليل في هذه الحالة أوسع من مجال تحليل الجملة نحويًا . ومع ذلك فإن فرياس لم يترك الأمر للذوق وحده ، بل إنه زودنا بالجوانب النظرية الكفيلة بمساعدتنا في تحديد العناصر التي تساهم في تشكيل الجمل أثناء عملية الاتصال .

مدرسة لندن :

إن الجانب الواضح الذي يميز مدرسة لندن هو تأثير الاعتبارات العملية في سير الدراسات اللغوية في بداياتها الأولى . فقد كانت حدود الامبراطورية البريطانية تشمل مساحات شاسعة من المستعمرات في آسيا وإفريقيا . وقد استدعى هذا الوضع التفكير في كيفية وصف أصوات اللغة الانجليزية وقواعدها لكي يسهل على الأجانب تعلمها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد كانت لتلك المستعمرات لغاتها المحلية الخاصة بها ، بل إن بعض المستعمرات كانت تسود فيها أكثر من ثلاث لغات رئيسية . وبرزت نتيجة لذلك مسألة إيجاد طرق لكتابة اللغات وشرح قواعدها ، وخاصة اللغات المحلية واللغات غير المدونة على نطاق واسع . ومن اللافت للنظر أن مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية School of Oriental and African Studies ، وهي كلية من كليات جامعة لندن ، أنشئت عام ١٩١٦ لخدمة الامبراطورية البريطانية في دراسة لغات المستعمرات وثقافتها وتدريبها لرجال الحكومة . ومن هذا المنطلق فإن دراسة اللغويين الانجليز للغات الافريقية والآسيوية تختلف عن دراسة اللغويين الأمريكان للغات الهندية - الأمريكية ، وذلك ليس فقط في أسلوب الدراسة والمصطلحات المستعملة ، ولكن أيضا في الهدف العام للدراسة . فاللغات الافريقية والآسيوية لم تكن على وشك الانقراض كما كانت كذلك اللغات الهندية - الأمريكية . ولذلك فلم تكن هناك ضغوط تستدعي لأن يفكر اللغويون الانجليز في ابتداء وسائل اجرائية لتدوين اللغات ووصفها قبل أن تنقرض . وذلك يعني ، كما أشار سامبسون (1980: 215) ، أنه بينما شعر الوصفيون الأمريكان بالحاجة الى تطوير وسائل استكشاف آلية للغات التي كانوا يصفونها ، فإنه كان يمكن فريث وزملائه أن يشغلوا ببناء جوانب نظرية .

وفي مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية تطورت الدراسات اللغوية ونمت على يدي فريث J.R. Firth (١٨٤٥ - ١٩١٢) والذين تتلمذوا على يديه أو عملوا معه . وكان فريث قد عين في عام ١٩٤٤ أستاذا لعلم اللغة العام في تلك الكلية . وبعد بذلك أول أستاذ يعين في هذا المنصب في الجامعات البريطانية . وقد تركزت كتابات فريث في المعنى والأصوات . أما من جاءوا بعد فريث ، أو الذين يطلق عليهم « الفيرثيون الجدد » neo Firthians فقد توسعوا في هذين الجانبين وتطرقوا كذلك الى مجال المفردات والنحو ، كما سيمر بنا . وقد اتخذت كتاباتهم المنحنى الوظيفي الذي أصبح سمة لمدرسة لندن ، وتحلى ذلك في مظاهر عديدة من التحليل اللغوي . وستتوقف في البداية عند دراسة المعنى .

المعنى وسياق الحال

نظر فريث الى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة ، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصابها من صوت وصورة ، ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع . فالجمل نكتسب دلالاتها في

النهاية من خلال ملايسات الأحداث ، أي من خلال سياق الحال^(٩) context of situation . ولذلك فقد اقترح فيرث أن « تدرس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعية » (Firth 1950 : 181) social process . وفي هذا الجانب يبدو تأثير فيرث بأفكار مالفينوفسكي واضحا . ولتوضيح هذه النقطة ، يستحسن أن نعرض للأفكار الناضجة التي طرحها مالفينوفسكي والتي مهدت السبيل أمام فيرث ليؤصل نظريته في المعنى .

كان مالفينوفسكي Malinowsky (البولندي الأصل) أستاذاً للأنثروبولوجيا في مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics وقد سافر في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى الجزر المحيطة بأستراليا في المحيط الباسيفيكي لأجراء بحوث ميدانية عن أهالي جزر تروبريانند . Trobriand وفي أثناء تسجيل ملاحظاته وجد أنه من الصعب ترجمة ما يقوله أهالي تلك الجزيرة من عبارات وبجمل ترجمة حرفية إلى اللغة الانجليزية . ووجد أن تلك الصعوبة تزداد حينما يصل الأمر إلى الحديث عن عادات وتقاليد خاصة بأهالي تلك الجزيرة . وفي محاولته لحل تلك المشكلة خرج بملاحظات نشرها في كتاب يعد من أمتع كتب الرحلات (الحدايق الساحلية وسحرها) . Coral Gardens and Their Magic . وهذه الملاحظات هي التي أرست مبادئ نظرية سياق الحال في وصف المعنى .

خلاصة كلام مالفينوفسكي حول هذا الموضوع أن معنى الجملة يتحدد في السياق المعين الذي ترد فيه . والسياق الذي قصده مالفينوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع ، حيث أنه كان يكتب كأنتروبولوجي . ولكن مالفينوفسكي لم يتوسع في الحديث عن السياق وكيف يمكن تناوله ضمن نظرية لتحليل المعنى ، لأن مالفينوفسكي لم يكن مهتما بصياغة نظرية لغوية .

اقتبس فيرث من مالفينوفسكي فكرة أهمية دراسة اللغة في إطار سياق معين ، وأعطى لهذه الفكرة أبعاداً أعمق ، فقد جعلها تخطيطاً تنظيمياً مجرداً abstract construct ، وحصنها في مجال اللغة بعد أن كانت فكرة عامة تمس النواحي الثقافية في المجتمع . وقد مر بنا أن فيرث ينظر إلى اللغة على أنها عملية اجتماعية أو نشاط اجتماعي . أي أن نظرية فيرث اللغوية تقوم على أساس ارتباط اللغة بالفرد والمجتمع . ولذلك فإن فكرة سياق الحال أصبحت تعني عند فيرث دراسة اللغة كأداة اجتماعية ، أي كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة .

ولكي يتم تحليل معنى الجملة حسب مقتضيات « سياق الحال » ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار العناصر التالية (راجع Firth 1950 : 182) :

١ - الحقائق المتعلقة بالمشاركين في الحدث اللغوي ، كان نذكر مثلاً ما إذا كان المشارك طفلاً أو رجلاً ناضجاً ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، أو امرأة . ويندرج تحت هذا العنوان الخلفية الثقافية للمتكلمين .

(٩) راجع كذلك ، تمام حسان ١٩٧٣ : ٣٣٧-٣٣٨ فما بعد) حيث عرضت الفكرة مع مقارنتها بنظرة البلاطون العرب .

٢ - الأحداث اللغوية نفسها ، أي العبارات المنطوقة بالفعل وكيفية نطق الجملة أو الجمل من حيث التنغيم والنبر الخلفي ، وما يصاحب هذه الأحداث اللغوية من مظاهر لغوية غير منطوقة ، كحركة اليدين وتعابير الوجه .

٣ - الأمور المادية التي لها صلة مباشرة بالحدث اللغوي relevant objects .

٤ - أثر العبارات اللغوية المنطوقة فعلا (أي ما يستتبع النطق من سلوك اعتمادا على العبارات المنطوقة) فقد تؤثر جملة ما على أحد السامعين ، ولكن لا تترك نفس الأثر في سامع آخر لاختلاف العادات والتقاليد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : كيف يمكن تحديد ماله صلة بالسياق ، وخاصة الأمور المادية ذات الصلة المباشرة بالحدث اللغوي ؟ هذا السؤال كثيرا ما يطرحه منتقدو نظرية سياق الحاك . فمثلا تقول الدكتورة ديدري ولسون (D.Wilson : op cit) ، أستاذة علم الدلالة في جامعة لندن (الكلية الجامعية) : ان بإمكان المرء أن يعد قوائم عديدة لما يمكن أن يشكل الأمور المادية لجملة من قبيل « أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن » . والقوائم ستشمل أمورا مثل ما يلي :

« هذه الغرفة التي تعد جزءا من بناء قديم في الكلية الجامعية .
هذه الغرفة المملوكة لجامعة لندن .
هذه الغرفة التي تقع في لندن . الخ . . . »

والواقع أن نظرية سياق الحال لا تعني باعداد قوائم عن الظروف المادية ، فاعداد مثل هذه القوائم أمر في غاية الصعوبة . هذا علاوة على أن أية قائمة لن تكون متكاملة في الظروف الطبيعية . ولكن الفكرة تتركز على مبدأ « الاختيار » Selectivity ، أو الصلة المباشرة ، حيث إنه في كل حدث لغوي تكون هناك عناصر معينة نستطيع أن نختارها على أنها ذات صلة بموضوع الجملة . ولنأخذ كمثال توضيحي الجملة التي أوردتها ولسون ، ونضعها في السياق التالية :

الكهربائي : آسف للمقاطعة . يجب أن نقوم ببعض الإصلاحات الاضطرارية على موزع مكيف هذه الغرفة .

المحاضر : حاول أن تجرب ذلك فيما بعد ، من فضلك . أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن .

الكهربائي : مع الأسف أن الانتظار غير ممكن ، فقد أخبرني رئيس المهندسين أن المحول الرئيسي في كلية الآداب في الشويخ سينفصل آليا لو لم نقوم بالإصلاحات حالا .

من الواضح من خلال هذا السياق أن الأمور المادية التي لها صلة بالجملة هي وجود جهاز تكييف في قاعة المحاضرة يسبب خللاً للموزع . أما الأمور المادية الأخرى من قبيل أن الغرفة لها ستائر مصنوعة من قماش وليس معدن ، وأن فيها مقاعد طويلة وليس مقاعد صغيرة منفصلة ، وأن هناك بيوت عنكبوت في زواياها الخ . . فهي لا شك ليست ذات صلة مباشرة بالحدث اللغوي . وكما قال هاليدي (Halliday 1978 : 29) فإنه « من المهم أن نقيّد فكرة « السياق » ، وذلك بأن نضيف لها كلمة « ذات صلة » relevant ، لأن سياق الحال لا يعني كل صغيرة وكبيرة في المحيط المادي ، كتلك التي قد تظهر فيها إذا كنا نسجل بالصوت والصورة حدثاً كلامياً مع كل المشاهد والأصوات المحيطة به . أنه يعني تلك الملامح التي لها صلة وثيقة بالكلام الحاصل » .

ولنتصور مشهداً آخر . طالب يدخل قاعة المحاضرة متأخراً عن موعد المحاضرة بعشرين دقيقة ولا يبادر أستاذه بالاعتذار بل يتجه مباشرة إلى مقعد فارغ فيجلس فيه . يقطع الأستاذ محاضرتَه ويقول له : « صباح الخير » (بنغمة صاعدة - هابطة في النهاية ، مع مد المقطع الطويل في الخير) . إن الظروف المادية المحيطة بهذه العبارة (وصول الطالب متأخراً) والتنظيم المستعمل ، تدل على أن الأستاذ يريد أن يلوم الطالب على التأخير وليس أن يلقي عليه تحية الصباح . أما بقية الأمور المادية ، مثل شكل الطالب ونوع لباسه فلا علاقة لها بهذا الحدث اللغوي .

وقد أثار بعض الباحثين اعتراضاً نظرياً آخر حول مفهوم سياق الحال في تحليل المعنى ، وذلك على أساس أن عناصر السياق الأربعة (التي ذكرناها فيما مضى) تعطى انطباعاتاً بأن تلك الحقائق يمكن استعمالها بشكل منهجي حينما نصف كيف يضيف الأفراد التفسير الدلالي على الجمل (Langendoen 1968 : 50) ويبدو أن هذا النقد يتعامل مع فكرة السياق بعقلية المدرسة التحويلية - التوليدية التي تفسر الاستعمال اللغوي على أنه نتيجة مراحل توليدية وتحويلية متتالية . ولكن الاتجاه الوظيفي لا يفصل المعنى عن تركيب الجملة . بمعنى أن المتكلم لا ينطق بالجملة عارية أولاً ثم يكسيها ثوب المعنى في مرحلة تالية (كما يرى التحويليون) . ولكن المعنى ينشأ في الظرف المناسب وفي لحظة الخلق اللغوي ، أي في لحظة تفاعل المرء مع الحدث . يقول هاليدي (halliday 1978 : 33) :

« إن السياق جزء من التخطيط الكلي . . . ليس هناك انفصال بين ماذا نقول وكيف نقول ، اللغة إنما تكون لغة عن طريق الاستعمال في سياق الحال . وكل ما فيها مرتبط بالسياق » .

إن جزءاً كبيراً من معاني المفردات والجمل المستعملة يعتمد على الخبرة المشتركة ما بين المتكلم والمتلقي . ولذلك فنحن نحتاج إلى سياق الحال ليس فقط لكي نتأكد من معرفة مدى ملاءمة الكلام أو اللغة المستعملة في هذا الظرف أو ذاك ، ولكن أيضاً لكي نستطيع أن نفسر الأساليب اللغوية والمستويات اللغوية register وطبيعة اللغة نفسها .

وقد طور هالندي فكرة السياق في دراساته عن الترابط اللغوي cohesion وتحليل النصوص text analysis ، فاقترح أسلوباً آخر لتحديد العناصر السياقية التي تلعب دوراً في بيان معنى النص . وهذا الأسلوب يوظف ثلاثة مصطلحات على وجه التحديد هي :

الحقل : Field وهو المجال الطبيعي (الاجتماعي) الذي يكون مسرحاً للنص ، فيشمل بذلك النشاطات المختلفة ، والأهداف الخاصة التي تستعمل اللغة من أجل تحقيقها .

التوجهات Tenor ويشمل العلاقات ما بين المشاركين في الحدث اللغوي : وضع كل مشارك والدور الذي يؤديه كل مشارك .

النمط Mode وهو الوسيلة اللغوية المتبعة في النص (أو الحدث اللغوي) . ويشمل الأسلوب اللغوي والوسائل البلاغية .

ويعرّض هالندي على تأكيد فكرة مهمة وهي أن هذه العناصر لا ينبغي أن تعامل على أنها أنواع من الاستعمال اللغوي ، ولكنها إطار نظري لتمثيل السياق الاجتماعي الذي يستطيع المتكلم من خلاله أداء المعاني .

ونحاول فيما يلي أن نوضح هذه المصطلحات وذلك من خلال تحليل النص التالي^(١٠) .

حكاية أحقين

« حكى أن أحقين اصطحباً في طريق فقال أحدهما للآخر : تعال نتمنّ على الله ، فإنّ الطريق تقطع بالحدث . فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها . وقال الآخر : أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها الى غنمك حتى لا تترك منها شيئاً . قال : ويحك ، أهذا من حق الصلبة وحرمة العشرة ؟ فتصايحا وتخاصما ، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق . ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما . وطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحدثهما . فأنزل الرقيقين وفتحهما حتى سأل العسل على التراب . ثم قال : صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحقين » .

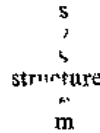
(١٠) هذا التحليل لا يغطي الجانب المتمثل بتساوق المفردات وترابطها ، انه يركز فقط على العناصر السياقية المرتبطة بتفسير النص

(المستطرف في كل فن مستظرف)

المحتوى السياقي	المحتوى الدلالي
الحقل	أحقان يسيران في طريق ينشأ بينهما نزاع وتشابك بالأيدي بسبب سوء الظن . شيخ معه حمار وعليه جرتان من عسل
التوجهات	رغبة أحد الطرفين في تزجية الوقت أثناء السير . قنيت خيالية بهدف المداعبة تثير نزاعا حقيقيا . التصايح وتبادل الاتهامات التشابك بالأيدي نتيجة لسوء التفسير التوقف عن السراك والموافقة على الاحتكام شيخ يبدي موافقته على حل المشكلة بفتح الجرتين وإسالة العسل
النمط	تكييف الجمل وفقا للأهداف طريقة التكلم الاستعانة بالقيم الأخلاقية والدينية ترابط النص تعال نتمن على الله (طلب) أنا أتمنى . . . (توكيد الذات) ويحك (لوم وتقريع) أهذا من حق الصحة وحرمة العشرة ؟ (استفهام استنكاري) « صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحقين » (جملة مركبة ذات وحدتين تغميتين) أدوات الربط والعطف وضمائر التكلم والإشارة .

مستويات التحليل اللغوي

إن النمط الوظيفي الذي نجلده عند مدرسة لندن يتعامل مع أربعة مستويات في التحليل اللغوي تمثل الأنظمة المختلفة في اللغة . وقبل أن نتعرف على هذه المستويات ، يستحسن أن نتوقف عند مصطلحين مهمين أوردهما فيرث يمثلان الأساس الفكري لهذا التحليل . يرى فيرث أن للغة محورين : محور النظام system ويمثله العلاقات الرأسية paradi gmatic relations ، أي ثوابت اللغة ، مثل مباني التقسيم في النظام الصرفي . ومحور البناء structure ويمثله العلاقات الأفقية syntagmatic relations التي تتميز بالتجدد ، مثل الجمل المختلفة في اللغة . ومن النظام اللغوي يستمد البناء القيم المختلفة اللازمة لعمل العناصر . فالأبنية اللغوية في شكلها الصحيح - هي انعكاس للنظام بما فيه من قواعد مؤسسية . ولا يمكن أن نفهم عنصرا بمنأى عن العنصر الآخر ، فالجانبان مرتبطان ببعضهما أشد ارتباط . ويوضح فيرث هذا الارتباط بالترميز الشكلي لكيفية كتابة المصطلحين باللغة الانجليزية على النحو التالي :



ويمكن دراسة النظام والبناء على عدد من المستويات نذكرها باختصار فيما يلي :

المستوى الصوتي

لقد اعتبر فيرث أن النظام الصوتي للغة يتألف من عدة أنظمة polysystemic ، وليس من نظام أحادي monosystemic المتمثل في سرد الوحدات الصوتية (الفونيمات) على أساس توزيعها الخطي . ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية أو التطريزات الصوتية prosodic features التي تبرز في أماكن مختلفة من المقطع أثناء الاستعمال ، كالمظاهر التي تصادفها في حالتي الوقف والوصل مثلا .

وطبقا للتحليل التطريزي prosodic analysis ، فإن الوحدات الصوتية والمقاطع المحددة يمكن أن تدخل ضمن العلاقات الرأسية ، أما العلاقات التي قد تتولد ما بين المقاطع والوحدات الصوتية في الكلام المتصل فإنها تدخل ضمن العلاقات الأفقية .

مستوى المفردات ، في المستوى المفرداتي نجد أن مفهوم « التساوي » collocation يعكس فكرة البناء^(١١) . والتساوي في صياغاته المبكرة كان يعني الترابط الأفقي الطبيعي ما بين الكلمات . أي تصاحب الكلمة مع كلمة أو

(١١) « التساوي » ترجمة مقترحة منا للمصطلح الذي استعمله فيرث ومن بعده هالبيدي وآخرون . وقد أورد تمام حسان (١٩٧٣) هذا المصطلح وترجمه « بالتضام » . ولكن شرحه « بالتضام » (ص ٢١٦) لا يتضمن المعنى الأصلي للمصطلح ، فهو يستعمل « التضام » كمصطلح عام تدرج تحت ظاهرتان : التساوي والانتظام . لمزيد من التفاصيل حول مفهوم التساوي في الاتجاه الوظيفي راجع مقالنا (أحمد ١٩٨٤) .

كلمات أخرى ، أو رفقة الكلمة أو جبرتها لكلمات أخرى في السياق الطبيعي ، مثل : كذبة إبريل ، حللت أهلا ، صلاة التراويح ، لم ينس بيت شقة (بالنفي دائما ، أي أننا لا نقول : نيس بيت شقة) شاي ثقيل (ولكن لا نقول : شاي قوي) . وقد تطور المفهوم فأصبح يعني إلى جانب ذلك : دخول الكلمة في سياق مقبول مع كلمة أو كلمات أخرى . فالفعل (أطلق) مثلا يمكن أن يتساوق مع العناصر التالية :

- أطلق لحيته (جعلها تنمو)
- أطلق ساقيه للريح (ولي هاربا)
- أطلق له الحبل على الغارب (ترك له حرية التصرف)
- أطلق الدواء بطنه (سهله ومشاه)
- أطلق عليه اسما غريبا (سماه باسم غريب)

إلى آخر ذلك من تساوقات . ولكن (أطلق) لا تتساوق مع (محاضرة) في قولنا : (أطلق محاضرة) معنى ألقى محاضرة .

وبالوضوح من هذه الأمثلة المحدودة أن التساوق يمكن استخلاصه من العلاقات الأفقية ما بين الكلمات ، وليس من الربط بين الكلمات ومفاهيمها (راجع Firth 1951:1961) .

المستوى النحوي ، ويتضمن تركيب الجملة (النحو وتركيب الكلمة) (الصرف) . في هذا المستوى يعتبر مفهوم « الانتظام » colligation معبرا عن البناء . والانتظام هو التجاور الطبيعي للعناصر النحوية والصرفية بحيث يؤدي هذا التجاور إلى تلازمها في الاستعمال . فمثلا أداة النفي (لم) تنتظم مع الفعل الماضي فتقلب الصيغة إلى المضارع . وضماير النصب المتصلة تنتظم مع الفعل المتعدي دائما . والفعل رغب يجب أن ينتظم اما مع (في) أو مع (عن) . وطبيعي أن هذا النمط من الانتظام يكون مشغولا عن جزء من المعنى النحوي .

المستوى الدلالي ، وقد مر بنا أن فكرة سياق الحال ضرورية لفهم المعنى . ولكن الجانب الواضح في اتجاه مدرسة لندن أن المعنى لا يؤدي ولا ينبغي قصر تحليله على المستوى الدلالي فحسب ، بل إن جميع المستويات تتضافر لأداء المعنى . فهناك معنى على المستوى النحوي ، وهناك معنى على المستوى اللفظي وهكذا . وحول هذه الفكرة يقول فيرث (Firth 1951 b: 227) :

« الأشكال اللغوية لها معنى على المستوى النحوي واللفظي . وهذا المعنى تحدده أنماط الأنظمة النحوية التي تقام للغة . إن حالة الرفع في لغة ذات أربع حالات اعرابية سيكون لها بهذا المفهوم معنى مختلف عن حالة الرفع في نظام ثنائي أو نظام له أربع عشرة حالة اعرابية مثلا » .

ويستطرد فيرث في توضيح هذه اللفظة قائلا :

« ان المفرد في نظام لغوي ثنائي العدد له معنى نحوي يختلف عن المفرد في نظام ثلاثي العدد (كاللغة العربية - المترجم) . أو رباعي العدد كاللغة الفيجية Fijian التي تفرق رسميا بين المفرد والمثنى والجمع القليل والجمع الكثير » .

ونجد كذلك أن فكرة التحليل الصوتي التطريزي تهدف ، من جملة أشياء ، الى بيان ظلال المعاني في سياق الاستعمال . ولذلك نجد أن فيرث يكرر في مواطن كثيرة من كتاباته أن دراسة اللغة هي بالدرجة الأولى دراسة للمعنى . وهذا التفكير يتخذ منحى واضحا ومحددا عند هاليدي الذي ينظر الى اللغة على أنها نوع من السلوك الدلالي المحتمل meaning potential . والمقصود بالسلوك الدلالي المحتمل هو ما يستطيع المرء أن يؤديه أو يفعله باللغة (Halliday 1973: 51) .

والإبداع اللغوي creativity عندئذ لا يكمن ، كما يرى التحويليون في قدرة المتكلم على توليد أو خلق جمل جديدة ، وإنما يكمن في قدرة المتكلم على خلق معان جديدة . وهذا المثال يوضح الاختلاف الجذري بين اتجاه شومسكي العقلاني واتجاه هاليدي الوظيفي . فعلى حين ينظر شومسكي الى اللغة على أنها شيء نعرفه ، ينظر هاليدي الى اللغة على أنها شيء نفعله . ويفسر هاليدي ظاهرة اكتساب الطفل للغة الأم بأنها تنطوي على تعلم لاستعمالات اللغة في الظروف الاجتماعية المختلفة ، وللمعاني المرتبطة بهذه الاستعمالات . والتراكيب والكلمات والأصوات عبارة عن الوسائل والأطر التي تتحقق عن طريقها احتمالات المعاني . (راجع أيضا Halliday op. cit) .

النحو النظامي

يعتبر النحو النظامي systemic grammar من أكثر الاتجاهات النظرية تكاملا عند مدرسة لندن . وقد وضع أسسه النظرية البروفيسور مايكل هاليدي ، ثم توسع أتباعه ومريدوه في التطبيقات والتفريعات^{١١} . والنحو النظامي مبني على أساس تعدد وظائف اللغة multiple function . وهذا المبدأ ينعكس على النظام اللغوي ، فنجد أن كل تركيب أو بناء لغوي يؤدي وظيفة مختلفة . وهذا يعني أن مستعمل اللغة يجد أمامه من الوسائل التعبيرية ما تمكنه من التعبير عن أفكاره ومشاعره . هذه الوسائل ليست في الواقع سوى الاستعمالات الفعلية للنظام اللغوي . ومن ثم فإنه من الصحيح أن نقول إن الوسائل التعبيرية المتاحة للمتكلم ، أو الاستعمالات التي من الممكن أن يلجأ إليها مستعمل اللغة تكون في حدود الامكانيات اللغوية الموجودة في اللغة . هذه الامكانيات هي عبارة عن خصوصيات كل لغة .

هذا التركيز على الجوانب الوظيفية للغة من قبل النحو النظامي ، يجعل المهمة الرئيسية التي ينبغي الاضطلاع بها منذ البداية هي تصنيف هذه الوظائف الرئيسية ضمن نظام نحوي يعكس بالدرجة الأولى تلك الاستعمالات . والنظام

(١٢) انظر حول هذه النظريات مقالة بيتر (Butler 1989) .

النحوي الذي قدمه هالدي عبارة عن شبكة ضخمة من العلاقات المتداخلة لأنه مبني على وظائف اللغة كما تصورها . وليس من الممكن استيعاب النظام بأكمله في هذه المقالة ، ولذلك فسأكتفي بتوضيح الصورة من خلال التطرق لفكرة التعدي واللزوم في اللغة .

ان نمط التعدي واللزوم عند هالدي يتمثل في العلاقات التي يمكن تأسيسها ما بين «النشاط» process type « والمشاركين » participants .

لنقرأ الجمل التالية :

- ١ - بكى الطفل .
- ٢ - أركض في المساء .
- ٣ - انفجر الوضع الأمني في لبنان .
- ٤ - مرض عميد الكلية في بداية الفصل الدراسي .

تحتوي كل جملة من الجمل السابقة على عنصرين :

(أ) نشاط يمثل الفعل .

(ب) ومشارك واحد هو عبارة عن الاسم سواء أكان عاقلاً أم مجاداً . وإذا تأملنا الأمثلة السابقة لتتعرف على نوع النشاط فيها ، فسنجد أن المثالين (١) و (٢) يدلان على حركة action ، بينما المثالان (٣) و (٤) يبينان حدثاً event . والمشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حركة يسمى « عامل »^(١٣) actor . أما المشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حدث فنسميه « متأثر » patient .

وحيثما يقتصر النشاط على العامل أو المتأثر فهو « نشاط قاصر » عندئذ non-directed action . أما حينما ينطلق النشاط من العامل ولا يتوقف عنده بل يتجاوزه الى عنصر ثان في الجملة فهو نشاط مجاوز directed action ، كما في الأمثلة التالية :

- ٥ - كتبت الطالبة المستجدة بحثاً جيداً .
- ٦ - شرح المعلم الدرس .

(١٣) أي القائم بالعمل أو النشاط . وقد تجنب استخدام المصطلح الشائع (فاعل) وذلك بهدف توضيح المفاهيم الجديدة . وفي الغالب ان هذا المصطلح بمعناه الجديد لا يتأتى صلة لمصطلح العامل المعروف في النحو العربي ، والذي يقصد به العنصر المنوي أو الظاهر الذي يتسبب في جلب العلامات الاعرابية الظاهرة أو المقدرة على أواخر الكلمات .

وهذا العنصر الثاني يطلق عليه مصطلح الهدف goal لأنه عبارة عن نتيجة النشاط أو أثر النشاط الذي قام به العامل . ونجد في بعض التراكيب أن ما يمثل نتيجة النشاط هو عبارة عن مشارك نطلق عليه مصطلح الظرف ، كما في الأمثلة التالية :

- ٧ - أشار الاستاذ الى السبورة .
- ٨ - غرد العصفور فوق الشجرة .
- ٩ - جلس التلميذ على الكرسي .

والآن دعونا نقرأ الأمثلة التالية :

- ١٠ - يكلف الكتاب عشرين دينارا .
- ١١ - يشبه زيد أباه .
- ١٢ - يملك علي سيارتين .
- ١٣ - بدت الفتاة سعيدة .

ان الأفعال في هذه الأمثلة تشبه النوع الثاني من أنواع النشاط (أي النشاط المجاوز) والاعراب الشكلي الظاهري يعامل (٥ - ٦) و (١٠ - ١٣) معاملة واحدة ولكن الأمر بالنسبة للجمل الأخيرة (١٠ - ١٣) مختلف . فنحن نرى أن النشاط في تلك الأمثلة (أي الفعل) ليس حركة وليس حدثا ، ولكنه يعبر عن وضع من الأوضاع state ، ولذلك فهو فعل وضع stative verb . أما الاسم المرفوع الذي يأتي بعد أفعال الوضع فلا يقوم بعمل ولا يتأثر به ، ومن ثم فلا يصح أن نطلق عليه مصطلح العامل . وبالتمعن في وظيفته نجده عبارة عن شيء يتصف بالحقيقة التي يرد ذكرها في النشاط (المذكور قبله) . ومن ثم فستختار له دورا نسّميه « متّصف » . أما الاسم المنصوب في تلك التراكيب فالظاهر من وظيفته العامة أنه يبين الشيء الذي اتصف به المتّصف ، ولذلك فنسّميه وصفا . وقد يكون الوصف عددا وقد يكون اسما صريحا .

ونجد أيضا في اللغة العربية جملا من قبيل ما يلي :

- ١٤ - أعطى ابنه مبلغا من المال .
- ١٥ - منح المدير سكرتيرته أجازة مرضية .
- ١٦ - أهدى زوجته خاتما من الماس .

ان الأفعال في هذه الجمل أفعال حركة ، والنشاط فيها بطبيعة الحال من النوع المجاوز . ولكننا هنا بازاء نوع مختلف من النشاط . فالحركة التي تصدر من العامل ذات بعدين . فهي من جانب تؤثر في شيء (غالبا ما يكون عاقلا) ، وهي من جانب آخر تبين الأثر الذي ترك في هذا الشيء نتيجة للنشاط . وهذا يعني أن هناك مشاركين اثنين

(غير العامل) في هذا النوع من الجمل . ولو أعدنا قراءة الجمل السابقة (١٤ - ١٦) بدقة فسنجد أن المشارك الأول منها عبارة عن شيء أو عنصر استفاد من العمل الذي صدر من العامل . أما الثاني فهو الشيء المستفاد ، أي أنه مجرد أثر أو نتيجة للنشاط . وتبعاً لهذه الوظائف فنسمي الأول « مستفيد » beneficiary ، ونسمي الثاني « هدف » ، والتسمية الثانية تعد من الوظائف التي مرت بنا قبل قليل .

منح	المدير	سكرتيته	أجازة	مرضية
_____	_____	_____	_____	_____
نشاط	عامل	مستفيد	هدف	صفة
مجاوز				

ونجد في الجدول التالي تلخيصاً لأنواع النشاط والمشاركين التي ذكرنا نماذج لها في هذا العرض الموجز .

نوع النشاط	المشاركون
حدث « مرض »	الفاعل = <u>متأثر</u> « عميد الكلية »
حركة (نشاط قاصر) « أركض »	الفاعل = <u>عامل</u> « أنسا »
حركة « نشاط مجاوز » « شرح » « غرد »	المعلم } العصفور } الفاعل = <u>عامل</u>
وضع « يكلف » « يشبه »	الكتاب } زيد } الفاعل = <u>متصف</u>
حركة (نشاط مجاوز) « منح »	الفاعل = <u>عامل</u> « المدير »
	المفعول به = <u>مستفيد</u> « سكرتيته » المفعول به = <u>هدف</u> « أجازة »

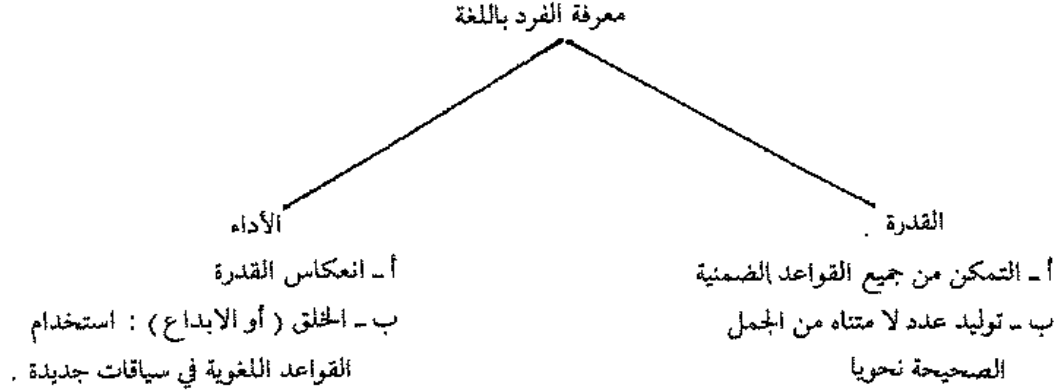
هذه مجموعة محددة من الجمل المستعملة في اللغة العربية ، والقصد منها هو رسم صورة توضيحية لكيفية تداخل الأدوار والمشاركين في النحو النظامي . ولو كان المجال يسمح بالاستطراد لوسعنا من حجم الأمثلة لمعالج مجاميع أخرى من الأدوار والمشاركين^(١٤) . ولكن هذه الأمثلة المحددة تعتبر بحد ذاتها كافية لتوصلنا الى الخلاصة التي نريد التوصل اليها هنا . إن النحو النظامي يلغي ذلك التقسيم الحاسم للأفعال الى لازم ومتعد ، والذي ينبثق من أسس صرفية ، ويعتبر التعدي وال لزوم من وظيفة الجملة بأكملها ، لأن الوظائف اللغوية تؤدي عن طريق الجملة المتكاملة . ويكون تحديد الأدوار ونوعية المشاركين على أساس وظيفتها الدلالية في الجملة . ولذلك فإنه يجب أن نعتبر « العوامل » و « المهدف » وغيرهما من الأدوار الوظيفية على أنها وظائف دلالية وليست وظائف نحوية . ومن الواضح بعد ذلك أن نرى هاليندي يحاول أن يقيم نظاما نحويًا على أساس دلالية وظيفية ، لأنه يعتقد أن نحو كل لغة مصمم بكيفية معينة لتمكين المستعمل من أداء المعاني المختلفة . والحقيقة الواضحة عندئذ أنه حينما نكتب نحول لغة ما فاننا نبحث عن وسائل أداء تلك اللغة للمعاني .

لكن هذا النمط من التحليل الذي يعول على وظيفة الجملة في التعبير تعويلا تاما لا يخلو من صعوبات . وقد صرحت مارغريت بري (Berry 1982: 77) ، وهي من أقطاب هذا الاتجاه ، بأنه من السهل أن نفكر في أمثلة حيث يتداخل ما نلفظه نظامين ضمن نظام واحد . وهي تقصد أن تحديد وظيفة المشارك على وجه الدقة قد لا يكون أمرا سهلا في بعض الحالات . فمثلا حينما نقول : « تزوج المدير سكرتيرته » فهل نصف (المدير) في هذا المثال على أنه « عامل » أو « مستفيد » ؟ هناك من الباحثين المعاصرين (Schlesinger 1989: 193) من اقترح أن يكون تعيين عضوية المشارك في مثل هذه الحالات مسألة درجات . أي أنه علينا أن نقبل الأمر على وجوهه وندخل اعتبارات السياق حتى نستطيع أن نرجح وظيفة على أخرى غيرها .

الوظيفية عند هائمز

إن النمط الوظيفي الذي اقترحه هائمز Hymes يعتبر في جوهره رد فعل للتيار العقلاني الذي نشره شومسكي وأتباعه منذ منتصف الستينات . لقد قصر شومسكي معرفة الفرد بلغته على الملكة الذهنية التي سماها « القدرة » competence ، والجانب التنفيذي الذي سماه « الأداء » performance . والقدرة تتمثل في تمكن الفرد من القواعد الضمنية underlying rules التي يلجأ الى استعمالها أثناء الأداء . أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة (Chomsky 1965: 4) ، على نحو ما هو موضح في الشكل التالي :

(١٤) أنظر مصطفى لطفي (١٩٧٦) حول الجمل التي تمكس مفهوما ذعيا .



والأمر اللافت للنظر في هذا التعريف أن شومسكي يرى أن معرفة الفرد بلغته تنحصر في الملكة النحوية التي يتمتع بها هذا الفرد والتي تمكنه من توليد الجمل الجديدة . لقد توقف هائمز عند هذه النقطة على وجه التحديد ، ورأى أن تعريف شومسكي للقدرة اللغوية تعريف ضيق لا يناسب الطبيعة الاجتماعية للغة . ومن ثم فقد اقترح أن تستبدل بفكرة « القدرة على الاتصال » communicative competence أن اللغة وسيلة اتصال في المجتمع ، ومن ثم فإن أي حديث عن قدرة المرء على اللغة ينبغي أن يربط باستعمال اللغة في بيئة ثقافية - حضارية معينة . ويرى هائمز (Hymes 1971: 281 ff.) أن قدرة المرء على اللغة لها أربعة مظاهر تنبع كلها من استعمال اللغة :

- أ - إلى أي حد يكون الشيء ممكناً possible (نحوياً) . وهذا المظهر يشير إلى امكانيات اللغة وانفتاحها .
- ب - إلى أي حد يكون الشيء معقولاً feasible استناداً إلى وسائل التنفيذ المتاحة . والتركيز هنا على الجوانب النفسية التي نستخدمها في تنفيذنا للغة ، مثل الذاكرة والتخطيط الذهني للكلام ، والفهم الخ .
- ج - إلى أي حد يكون الشيء مناسباً appropriate وذلك ضمن السياق الذي يستعمل فيه هذا الشيء . وهذا يشير إلى فكرة الاستعمالات اللغوية language registers والأساليب اللغوية styles التي يلجأ مستخدم اللغة إليها في الظروف المختلفة متخذاً لكل حالة ما يناسبها من مفردات وطريقة تعبير ، مع مراعاة الأعراف والتقاليد الاجتماعية .
- د - إلى أي حد يكون الشيء قد أنجز (من حيث الأداء) . أي ماذا نطق المتكلم من عبارات وجمل وماذا يستتبع هذا النطق من سلوك . وهذا المظهر يتكلم عن محوري المتكلم والمتلقي في آن واحد : ماذا يستطيع أن يقوله الفرد كمتكلم ، وماذا يستطيع أن يتقبله كمتلقي .

والصورة النهائية التي يمكن أن تخرج بها بعد قراءة هذه المظاهر الأربعة هي أن مفهوم « القدرة » لم يعد مقصوراً على المعرفة البحتة بقواعد اللغة وتوليد عدد لا متناه من الجمل ، وإنما أدخلت فيه اعتبارات وظيفية جعلته يشمل أموراً أخرى من بينها .

أولاً : أنه يفسح المجال لعنصر النية أو القصد في التعبير . فقد يستعمل المتكلم في موقف ما جملة تبدو من حصيلته مفرداتها أنها جارحة أو تنطوي على اهانة ، ولكن المتكلم يقصد بها المزاح أو الدعابة في ذلك الطرف . وذلك كأن يقول أحدهما لصديق أو زميل له في العمل رآه لتوه قد صعد السلم وهو يتنفس بقوة : « هكذا العجائز ، حينما يصعدون على السلم يلهثون ، ويحتاجون الى ساعة لالتقاط أنفاسهم » . ولذلك فإن الأمور ستضطرب لو أن المستمع حمل الكلام بحمل الجلد .

ثانياً : انه يصرح بوجود مهارات أخرى عديدة يتمتع بها المتكلم والمتلقي بحكم كونها أفراداً في بيئة اجتماعية - ثقافية معينة ، مثلاً مهارة الاستماع وإظهار الكياسة والأدب ، والرغبة في الإبقاء على مودة زمالة العمل وغيرها .

ثالثاً : أنه يؤكد على أهمية التقاليد الاجتماعية والأعراف والموروثات الشعبية في استعمالنا للغة وفهمنا وتحليلنا لها .

والملاحظ في اتجاه هائمز أنه لا يقترح نموذجاً لغوياً يمكننا من الاستفادة من هذه الملامح الاتصالية في التحليل ، كالذي وجدناه مثلاً عند مدرسة براغ ومدرسة لندن . ولذلك فإن النموذج الوظيفي الذي يقدمه عبارة عن مقترحات عملية في الجانب الدلالي على وجه الخصوص . ومن الممكن توظيف النموذج في مجال تحليل النصوص text analysis . وفي هذا المجال نجد أن آراء هائمز تلتقي مع آراء هاليدي التقاء واضحاً .

التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي

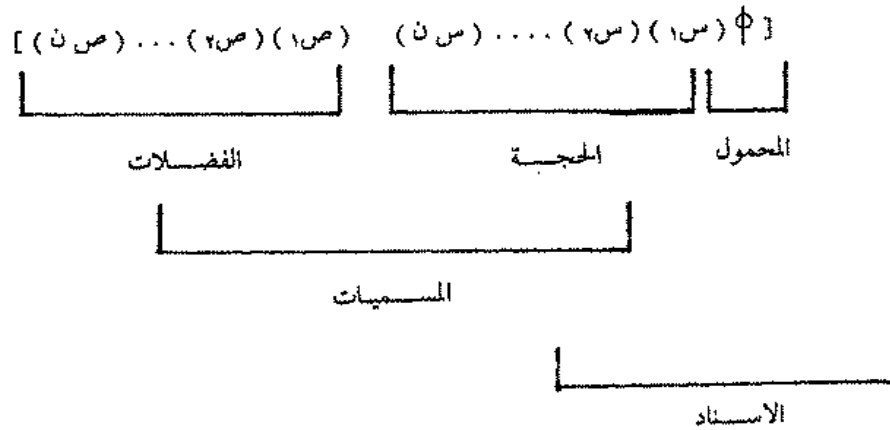
اتخذ الاتجاه الوظيفي منعطفاً واضحاً عند اللغويين الغربيين في جامعات هولندا وألمانيا وبلجيكا واليابان وغيرها . وهذا الاتجاه الجديد يجمع بين المرتكزات النظرية للاتجاه الوظيفي والتي ذكرناها في بداية بحثنا هذا ، وبين المنطق الصوري . لكن الواضح أن الاتجاه الوظيفي في شكله المطور والذي يسميه أصحابه بالنحو الوظيفي Functional Grammar ، يتعامل مع ثلاثة مستويات في التحليل ، لكل واحد منها مجاله ومصطلحاته . يرى « سايمون ديك » (Dik) (1978: 13) ، وهو أحد أبرز منظري هذا الاتجاه وكتابه ، أن جملة مثل « أكل محمد التفاحة » يمكن أن تحلل على ثلاثة مستويات مختلفة :

١ - المستوى النحوي	فعل	فاعل	مفعول به
٢ - المستوى الدلالي	فعل	عامل	هدف
٣ - المستوى البراغماتي	مسند	متمم	
	(theme)	(tail)	
أو :	موضوع	بؤرة	
	(topic)	(focus)	

وهناك من الوظيفيين المعاصرين من يكتفي بمستويين اثنين : مستوى يمثل التمثيل النحوي والدلالي للعناصر rep-
resentational level ، ومستوى يمثل العناصر المشاركة في الحديث اللغوي interpersonal level (انظر Hengeveld
1989: 128) .

والجملة في « النحو الوظيفي » عبارة عن إسناد predication ، وهذا الاسناد يتكون من عدد من المسميات
Terms التي هي عبارة عن تعبيرات expressions لها خاصية الإشارة ، أي مسميات يمكن أن تستعمل للإشارة إلى
موجودات في العالم . ونحن نستطيع أن نتوصل إلى الاسناد وذلك بأن نملأ ما يمثل خانة المحمول predicate (وهو يبين
العلاقة ما بين الموجودات أو خصائص الموجودات) وأن نملأ ما يمثل خانة الحججة argument (التي هي عبارة عن
المسميات التي تستبدل بها المتغيرات) . ثم بعد ذلك تأتي الفضلات أو المكملات stellites (أي ما ليس بعمدة مثل
الحال والتمييز والصفة . . .) .

ويمكن توضيح المصطلحات بالشكل التالي :



(راجع Dik 1978: 15, 26) .

وفي هذا الشكل يمثل (س١ . . . س٣) متغيرات يمكن تعيين وظيفتها الدلالية . ولتعيين الوظائف الدلالية
فإن الجملة تقدم في « النحو الوظيفي » على شكل اطار اسنادي predicate frame . والمثال التالي يوضح هذا الجانب :

وزع (س١ : انسان (س١)) (س٢) (س٣ : ذو حياة (س٣))			
فعل	عامل	هدف	مستلم
وزع	الاستاذ	الأوراق	على التلاميذ

ولنأخذ فيما يلي مثالا توضيحيا آخر :

اغتيال (س ^١ : انسان (س ^١)) (س ^٢ : انسان (س ^٢))		
فعل	عامل	هدف
اغتيال	جنود الاحتلال	شايين فلسطينيين

وهكذا فلكل جملة اطار اسنادي مصمم لبيان وظيفتها . وفي هذا الاطار الاسنادي يتم استبدال المتغيرات بمسميات تتفق في خصائصها الاختيارية selectional restriction مع المحمول . أي أن الاطار الاسنادي الثاني لا يصلح لتحليل جملة مثل (اغتيال الظلم فكري) لأن العامل والهدف كليهما أسياء مجردة . ونجد في بعض الكتابات المعاصرة أن هذه المتغيرات يتم استبدال قيمها برموز منطقية على مستوى التمثيل الشكلي (Hengeveld 1989: 131) .

ولعل القارئ يلاحظ أن هذا النمط الوظيفي في شكله المطور يختلف عما قدمته المدارس الوظيفية السابقة من تحليل غير معقد مستمد من الاستعمال المباشر وليس من تطبيق المنطق . ولم يكن الوظيفيون المتقدمون يقفون عند الوظيفة الذهنية في اللغة إلا بقدر ما تعكس قضية تخطيط المرء للغة . فنقطة الخلاف إذن بين المجموعتين هي أن الوظيفيين يحللون اللغة من خلال مصطلحات دلالية تدل دلالة مباشرة على وظيفة الجملة . بينما الوظيفيون الجدد يرون أن الوظيفة يمكن إبرازها بالاسناد المنطقي . ولكن الجميع يتفقون حول فكرة عامة تجعل الاتجاه الوظيفي متميزا من بين الاتجاهات اللغوية الأخرى ، وهذه الفكرة تتمثل في أن اللغة أداة اتصال في الحياة الاجتماعية ، وأن القواعد الاجتماعية والأعراف والتقاليد تتحكم في اللغة . وحينما نصف اللغة فاننا يجب أن نصفها من خلال وظيفتها في البيئة الاجتماعية التي تؤدي فيها تلك اللغة وظيفتها .

وقد أخذت الدراسات الوظيفية في السنوات الخمس الأخيرة تركز على المجالات المتعلقة بالأسلوب والمستويات اللغوية وأسس الترابط في النص cohesion ، وذلك من خلال تحليل النصوص text analysis وهذا المصطلح يطلق على الدراسة الوظيفية لمكونات النص اللغوي سواء أكان هذا النص عبارة عن عمل أدبي مطبوع written text ، أم كان مجرد نص منطوق oral text . ولكن نظرا لأن اختلاف نوعي النص (المكتوب والمنطوق) يثير قضايا تفصيلية مختلفة ، فقد انفردت اللغة المستعملة في التمازج والمناقشات بمصطلح خاص يدل دلالة مباشرة على نوع الدراسة ، وهذا المصطلح هو « تحليل المحادثة » discourse analysis وفي هذا المجال يكون التركيز على ظواهر تبرز في لغة الكلام خاصة ، مثل النبر والتنغيم ، والتقسيم المقطعي للكلمات ، وإيقاع الكلام ، وتقسيم الكلام الى وحدات لغوية حسب المعلومات التي يريد المتكلم التعبير عنها .

المراجع

- أحمد مختار عمر (١٩٧٦) «دراسة الصوت اللغوي» . عالم الكتب ، القاهرة .
- تمام حسان (١٩٧٣) «اللغة العربية معناها ومبناها» . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- مصطفى لطفي (١٩٧٦) «اللغة العربية في أطارها الاجتماعي» . معهد الأتماء العربي ، بيروت .
- يحيى أحمد (١٩٨٤) «المعنى بين الاتجاه التجريدي والاتجاه الوظيفي» . المجلة العربية للعلوم الانسانية ، المجلد الرابع ، ص ص ٥١ - ٧٠ .
- Berry, M (1982) 'Review of Halliday 1978' Nottingham Linguistic Circular, No. 11, pp. 64- 94.
- Butler, Chris S. (1989) 'Systemic models: Unity, diversity and change.' Word 40 pp. 1-35.
- Chomsky, N. (1965) 'Aspects of the Theory of Syntax' MIT Press Cambridge, Mass.
- Danes, F. (1966) 'A Three-Level Approach to Syntax' TLP 1m pp. 225-240.
- Dikm Simon C. (1978) 'Functional Grammar' North-Holland Publishing Company, Nether Lands.
- Firbas, J. (1959) 'Thoughts on the Communicative Function of the Verb in English, German and Czech' BSE 1, pp. 39-63.
- Firbas, J. (1966) 'Non-Thematic Subjects in Contemporary English' TLP 2, pp. 239-254.
- Firbas, J. (1971) 'On the Concept of Communicative Dynamism in the Theory of Functional Sentence Perspective' Sbornik Praci Filosoficke Fakulty Brnesk University A 19, pp. 135-144.
- Firth, J.R. (1950) 'Personality and Language in Society' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1951a) 'Models of Meaning' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1951b) 'General Linguistics and Descriptive Grammar.' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1957) 'Papers in Linguistics 1934-1951' Oxford University Press.
- Halliday, M.A.K. (1973) 'Exploration in the Functions of Language' Edward Arnold.
- Halliday, M.A.K. (1978) 'Language as Social Semiotic.' Edward Arnold.
- Halliday, M.A.K. (1985) 'An Introduction to Functional Grammar' Edward Arnold.
- Hengeveld, K. (1989) 'Layers and Operators in Functional Grammar,' JL, 25, No. 1, pp. 127-157.
- Hymes, D. (1971) 'On Communicative Competence.' in: J.B. Pride and J. Holmes (eds). Sociolinguistics Harmondsworth: Penguin Books.
- Langendoen, D.T. (1968) 'The London School of Linguistics.' Cambridge, Mass; MIT Press.
- Sampson, G. (1980) 'Schools of Linguistics' Hutchinson; London.
- Schlesinger, I.M. (1989) 'Instruments as Agents: On the Nature of Semantic Relations.' JL, 25 No. 1, pp. 189-210.
- Vachek, J. (1966) 'The Linguistic School of Prague.' Indiana University Press.
- Wilson, D. (1978) 'Introduction to Semantics. Lecture Notes.' Department of Linguistics and Phonetics U.C.

فأتممته البحث :

يقول الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) في (الانتقان) : (وقال الهذلي في كامله :) (اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني : العدد ليس بعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليروج به سوقه)^(١) . وقد سقت مقالة الزعفراني هذه في حق طائفة من العلماء اشتغلت بتتبع بعض المؤشرات الكمية في الأسلوب القرآني . ولكنها - على قدامها - تكاد تكون تعبيراً عن شكوك مترادفة بطرحها كثير من المعاصرين في جدوى المعالجة الإحصائية للأساليب^(٢) . وتستند هذه الشكوك إلى بدهية تبدو ظاهرة الصدق ، فقد لحظ أن جمهور أئمة النقد من لدن أرسطو إلى العصر الحديث عاجلوا باقتدار أخطر مشكلات النص الأدبي دون أن يحسوا حاجة ملحة تلجئهم إلى اصطناع الطرق الإحصائية والاستدلال بنتائجها . بل إن المقاربة الإحصائية لم تحظ عند عدد من أعلام اللسانيين المحدثين مثل سوسيور وبلومفيلد وتشومسكي بتصيب ملحوظ من العناية . على أن ذلك لم يطمعن على هؤلاء الأعلام ، ولم يؤخر منزلتهم بين أهل العلم . وإذا كان الدرس الأدبي واللساني كلاهما قد كان ولم يكن إحصاء فإوجه الضرورة إذن في اصطناعه ضرباً من ضروب المقاربة للظاهرة اللسانية بعامة ، والأسلوبية خاصة ؟

الدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم والإجراء الوظيفية

سعد صليوح

أستاذ مشارك بكلية التربية الأساسية - الكويت

(١) السيوطي : الانتقان في علوم القرآن ، ت . عبد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١ / ٢٤١ .

(٢) انظر : حل سبيل المثال لا الحصر - صلاح فضل ، علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، كتاب النادي الأدبي الثقافي - جدة ، ط ٣ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .
وشفيح السيد : الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

والحق أن هذا الاعتراض القديم الجديد يعتضد أيضاً بظهور عدد وافر من الإشكالات المعرفية والمنهجية التي أثارها الظاهرة الأسلوبية نفسها ، وما تزال تتردد في أدبيات هذا العلم دوغماً جواب حاسم . وحسبنا هنا أن نشير إلى رؤوس من هذه المسائل : فما حد الأسلوب ؟ ، وهل يعرف بالإضافة إلى المنشيء بوصفه اختياراً ؟ أم إلى ذات الرسالة بوصفها شفرة لغوية ؟ أم إلى المتلقى بوصفه مجموعة من المثيرات والمنبهات التي تستدعي انفعالات ومواقف وأحكاماً معينة^(٣) ؟ وهل ثمة مشروعية معرفية لاختصاص ظاهرة الأسلوب بعلم قائم برأسه بحيث يكون من العلوم المتجاوزة الاختصاص interdisciplinary ؟ أم أن دراسة الأسلوب ينبغي أن تكون فرعاً من علم آخر ؟ وإذا صح الفرض الأخير فأي العلوم في هذه العلاقة يكون أصيلاً وأياً يكون تابعاً ؟ وكيف تتحدد العلاقة بين الأصل والتابع ؟

وينتقل الخلاف حول هذه المسائل المنهجية إلى معسكر اللسانيين مع اتفاق جمهورهم على اعتبار ظاهرة الأسلوب موضوعاً من موضوعات العلوم اللسانية ، وذلك حين ينظرون في أمر العلاقة بين الدرس الأسلوبي والدرس اللساني ، هل هي علاقة فرع بأصل^(٤) ؟ أم أن كليهما أصل بنفسه ؟ وما كان المكون الأسلوبي من بنية النص ، أترأه ينتشر على كافة مستويات التحليل الصوتية والصرفية والنحوية على ما يقول شاتمان S. Chatman أم أنه مستوى قائم بنفسه على قول جالبرين Galperin^(٥) ؟ على أن المدارس اللسانية تتفاوت تفاوتاً كبيراً في مدى ما توليه من عناية لدراسة ظاهرة الأسلوب ، وفي تحديد موضع المكون الأسلوبي من ثنائيات كثيرة اشتهرت بين النقاد اللسانيين ، مثل ثنائية الشكل والمضمون ، وثنائية النمط والانحراف (أو الأصل والعدل) ، وثنائية النطق والتدوين ، وثنائية لغة الفكر ولغة اللسان ، وثنائية اللغة والكلام ، وثنائية الجملة وما وراء الجملة . وهو اختلاف ينتج آثاراً بعيدة المدى على المستويات النظرية والتطبيقية وإجراءات التحليل . وثمة أيضاً مسألة تتعلق بالخيار الأسلوبي ، أهو خيار يتم فيه التشكيل الأسلوبي عن وعي واختيار وإرادة من المنشيء أم أنه عملية خاضعة للغة بوصفها من المعطيات التاريخية القاهرة والمهيمنة على عملية الإبداع^(٦) .

تلکم السلسلة التي لا نهاية لها من الخلافات لم تحسم بعد ، ولا نتوقع لها حسماً قريباً . إنها أسئلة تكاد تكون أبدية ،

(٣) أدت هذه التلاية إلى تقسيم الأسلوبيات إلى أسلوبيات تعبيرية ، وأسلوبيات تأثيرية وأسلوبيات موضوعية . وانظر عرضاً مفصلاً لهذه الاتجاهات وغيرها في : 1-H. F. Plett, "Concepts of style : A Classificatory and a Critical Approach", Language and Style, Vol. no 4, Fall, 1977, PP. 268-9.

2- W. O. Hendricks, "The Notion of Style", Language and Style, Vol. V111, No. 1, Winter, PP. 35-41.

(٤) حول العلاقة بين الأسلوبيات واللسانيات انظر

Nils Erik Enkvist, "Linguistic Stylistics" Mouton, 1973, PP. 16-17.

(٥) نقوش هذان الرأيان بالتفصيل في :

Nils Erik Enkvist "On the place of Style in Some linguistic theories" in Literary style : Asymposium" ed. S. Chatman, Oxford Univ. Press, 1971, PP. 52-3.

(٦) الرأي الأخير هو قولان بارت ولتريد من التفصيل ينظر .

Roland Barthes, "Style and its Image", in Literary Style, Op. cit, P. 8.

وأيضاً عبد الله صولة : (الأسلوبية الذاتية أو التشويبية) ، مجلة فصول ، مج ٥ ، ع ١٤ ، ١٩٨٢ ، ص ٨٩ .

وستظل دائماً محاور للحوار والخلاف بين أهل العلم . وكل هذه الخلافات واردة على أصل قضية الأسلوب بما هو ظاهرة ، وعلى قضية الأسلوبيات بما هي علم أو مجال معرفي متعين . ومن البدهي أن قضية المعالجة الإحصائية للأسلوب لن تكون بمنجى من تأثير هذه الخلافات سواء من جهة المفهوم أو الإجراء أو الوظيفة ، بل من جهة الحاجة إليها أصلاً .

وإذا كان من الصعب أن يُستوفى القول في جميع ما سبق من قضايا ، إذ يقضي بنا ذلك إلى الخروج عن أصل الغاية التي نصبت لهذه الدراسة = وكان من المحالات المنهجية أيضاً أن تُعرض عنها بالكلية في هذا المقام ؛ لوثاقه العلاقة القائمة بينها وبين سلسلة التصورات المنهجية والتحليلية التي تشكل قوام البحث - لذلك كان سَوَاء الأمر هو أن نستفرغ الوسع في استصفاء ما يتصل من هذه المعضلات الخلافية بقضية الدراسة الإحصائية للأسلوب اتصالاً مباشراً ، وفي إرجاء الحديث المفصل حول الفروع والجزئيات ، مع الإشارة إليها في مظاهرها ، ليستقيم لنا البحث في أمر الإحصاء الأسلوبي من حيث المفهوم والإجراء والوظيفة . وهذه الثلاثة المحاور تقع تحتها منظومة المشكلات النظرية والتطبيقية التي يثيرها الدرس الإحصائي للأسلوب . وتشكل في الوقت نفسه البنية الأساسية لهذا البحث على الوجه التالي :

١ - مبحث المفهوم ، ويشمل :

- ١ - ١ - الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي .
- ١ - ٢ - ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي .

٢ - مبحث الإجراء ، ويشمل :

- ٢ - ١ - المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية .
- ٢ - ٢ - التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية (أسلوبيات المقال) .
- ٢ - ٣ - أسلوبيات المقام .
- ٢ - ٤ - التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام / المعنى / المقال .
- ٢ - ٥ - التشخيص الأسلوبي .
- ٢ - ٦ - المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص .
- ٢ - ٧ - النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبي .
- ٢ - ٨ - إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي .

٣ - مبحث الوظيفة ، ويشمل :

- ٣ - ١ - مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائي .
- ٣ - ٢ - مجالات تطبيقه

٣ - ٣ - أنماط المقاييس الأسلوبية .

٣ - ٤ - مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية ، والمعالجة الإحصائية :

وفي ما يلي يعالج البحث هذه المسائل على الترتيب السابق ذكره .

١ - مبحث المفهوم

١ - ١ - الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي :

لا شك أن ظواهر السلوك اللغوي لدى أي جماعة لغوية إنما تتصف ، في بعض مستوياتها الاتصالية على الأقل وفي بنية شفرتها ، بالوحدة والتجانس ، لأنها لو لم تكن كذلك لاستحال التواصل بين المتكلمين بها . وأول الشروط لتحقيق التفاهم أن يكون المرسل والمستقبل كلاهما على علم بالشفرة المشتركة ، ويتحققها الفيزيقي من حيث رموزها ، وعلاماتها ، وقواعد تأليفها ، ومفاتيح حلها .

بيد أن التنوع في تجليات الشفرة اللغوية الواحدة حقيقة تشهد بها الملاحظة ، ويصدقها العلم ، فالسلوك اللغوي يتباين تبايناً ظاهراً بين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ، حتى إن التجارب المختبرية لتقطع بأن الفرد الواحد لا يكرر كلمة واحدة عند أدائها بجميع خصائصها الأولى في ظرفين مختلفين ، وهكذا تتنازع السلوك اللغوي عوامل جغرافية محلية ، وانتفاءات اجتماعية موحدة Group affiliations وانتفاءات اجتماعية متعارضة^(٧) Cross affiliations في خطوط ودوائر متداخلة ومتقاطعة حتى يبلغ التنوع مداه ، مُشكلاً ما اصطلح على تسميته بلهجة الفرد idiolect ، وهي مجموعة السمات المميزة للسلوك اللغوي عند فرد بعينه في جماعة لغوية بعينها .

هذا التنوع في إطار الوحدة هو ما حاولت النظرية اللسانية الحديثة تفسيره من خلال ثنائية اللغة والكلام / Langue Parole عند سوسور ، أو ثنائية الكفاءة والأداء Competence/Performance عند تشومسكي على خلاف بين الثنائيتين في المنطلق الفلسفي ، ومن ثم في الإجراءات التحليلية والغايات^(٨) . غير أن النظرية اللسانية الحديثة قامت في الأساس على افتراض الوحدة والتجانس ، وصرفت عنايتها في المقام الأول إلى دراسة ما هو عام ومشترك في إطار ما سمي باللسانيات التقريرية deterministic linguistics ، وشغلت دراسة التنوعات والفروق المحل الثاني من الاهتمام ، واضطلعت به مجموعة من العلوم تدخل ضمن ما يسمى باللسانيات الاحتمالية Probabilistic linguistics . وإلى هذه

(٧) سعد مصلوح : الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٠-٤١ .

(٨) من الأصول النفسية والفلسفية لنظرية تشومسكي انظر : جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية ترجمة حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٠٧-٢١٠ و ص ٢٤٧-٢٥١ . وعبد حمود غالي : ألما النجاة في التاريخ ، جدة ، ١٩٧٦ ، ص ٩-١٦ ، ص ١٧-٢٢ وجون سيرل : تشومسكي والثورة اللغوية ، مجلة الفكر العربي ، ع ٩/٨ ، ١٩٧٩ ، ص ١٢٤-١٢٧ .

المجموعة من العلوم تنتمي الأسلوبيات اللسانية Linguostylistics ويتوزع مباحث الأسلوبيات اللسانية المعاصرة اتجاهان أو مدرستان متنافستان ، هما بحسب تصنيف بير جيو Pierre Guiraud : مدرسة الأسلوبيات التقليدية Tra-ditional Stylistics التي وضع أصولها بالي Bally ، ومدرسة الأسلوبيات الحديثة new Stylistics التي اشتقها جاكوبسون Jacobson من الاتجاه البنوي لمدرسة براغ . وتتفق المدرستان على تعريف الأسلوب بأنه الصيغة المميزة للنص . غير أن الطائفة الأولى تبحث عن مصدر تعريفاتها في دراسة الخواص الأسلوبية للنظام (أو الشفرة) The Code على حين تلتزم الطائفة الثابتة في وصف البني الداخلية للرسالة The message^(٩) .

ونحن إذا اعتبرنا الصيغة المقترحة للأسلوبيات اللسانية عند بالي ومدرسته من جهة ، ثم عند جاكوبسون ومن نهج نهجه من جهة أخرى ، ثم اعتبرنا كذلك العوامل الاجتماعية والنفسانية الفاعلة في تشكيل الرسالة - أدركنا ما عليه موقف الأسلوبيات اللسانية من تعقد ، فهي دراسة تتقاطع مع اللسانيات التقريرية (بوصفها إطاراً مرجعياً لوصف التنوعات حتى داخل النظام نفسه) ، وتكملها في آن معاً . كذلك تتقاطع هذه الدراسة مع اللسانيات الاجتماعية (في مبحث محددات المقام ، وفي تحديد الإطار المرجعي للتنوع الاجتماعي) ، ومنع اللسانيات النفسانية (في مبحث الشخصية والنمو) ، ومع النقد الأدبي (في معالجة النص الأدبي ، الذي هو من أعظم التنوعات اللغوية تميزاً) . ويمتاز الدرس الأسلوبي من كل علم من هذه العلوم جميعاً بخصوصية تحدده مجال بحثه ، فهو يقارن (اللسانيات التقريرية) باحتفائه بمبدأ التنوع ، وهو لا يلتزم من اللسانيات الاجتماعية إلا بعض الأطر المرجعية المعينة على التصنيف ، وهو يأزاء اللسانيات النفسانية يختص بالسلوك اللغوي - السوي عادة - دون سائر أنواع السلوك البشري الأخرى . وهو يأزاء النقد الأدبي إنما ينصرف إلى السلوك اللغوي في النص ، وإلى التشخيص بالأصالة والتقويم بالتبعية ، وهو إذا عالج في النص جوانب أخرى مما يهم الناقد الخالص فليس إلا من خلال المكون اللغوي وما يتصل ببنيته من قضايا ، وهي - لحسن الحظ - كثيرة وخطيرة .

وموجز القول أن الدرس الأسلوبي يتم بدراسة مظهر هام من مظاهر التنوع في السلوك اللغوي ، ويتميز بذلك إلى (اللسانيات الاجتماعية) ، على حين تقوم (اللسانيات التقريرية) على إهمال مبدأ التنوع وافترض الوحدة والتجانس والمثالية في ظروف التواصل اللغوي . وعن هذا يعبر تشومسكي بأوضح عبارة إذ يقول :

(إن النظرية اللسانية معنوية ، أولاً وقبل كل شيء بإنسان مثالي في سلوكه اللغوي ، تكلماً وسمعاً ، يعيش في جماعة لغوية متجانسة تمام التجانس . وهو عارف بلغته تمام المعرفة ، ولا يخضع في تطبيقه هذه المعرفة أثناء أدائه اللغوي الفعلي لتلك الظروف التي لا صلة لها بالجانب النحوي ، مثل محدودية الذاكرة ، والارتباك ، والعوارض التي تتوزع اهتمامه وانتباهه ، ولما يمكن ارتكابه من أخطاء عشوائية أو عمية .

(٩) Pierre Guiraud, "Immanence and Transitivity of Stylistic Criteria", in literary style : A symposium", op cit. P. 16.

ذلك هو الموقف - كما يبدو لي - لدى مؤسسي اللسانيات العامة الحديثة . ولم يطرأ بعد من الأسباب المقنعة ما أدى إلى تعديل هذا الموقف (١٠) .

ذلكم الفرد المثالي في سلوكه اللغوي ، وتلك الجماعة اللغوية المتجانسة التي تمارس التواصل اللغوي في ظروف مثالية ليس إلا فرضاً نظرياً تنطلق منه مباحث النظرية اللسانية . وإذن فقد كتب على اللسانيات الاحتمالية ، ومن بينها الأسلوبيات اللسانية مواجهة مشكلة التنوع اللغوي ، أو - بعبارة أخرى - امتحان فروض (اللسانيات النظرية) ، وتكملة نواقصها ، والإسهام في معالجة أوجه القصور في النظرية اللسانية الحديثة .

من هنا تبرز وثيقة العلاقة بين الدرس الأسلوبي وأهمية المعالجة الإحصائية لظاهرة الأسلوب ، بل بين (اللسانيات الاحتمالية) في مجملها والإحصاء ، فيما دام التنوع هو موضوع الدراسة فلا بد من رواة لغويين informants يتم اختيارهم من الجماعة اللغوية ويتحقق في سلوكهم التنوع ، ولا بد من اختيار عينات من النصوص تمثل المجتمع الإحصائي Statistical Population إذا لم يتيسر دراسة المجتمع نفسه . وهو الأمر الغالب دائماً ، ولم يكن بُدً كذلك من إقامة الاختيار ، سواء للعينات أو الرواة ، على أساس يضمن دقة النتائج وسلامة الأحكام ، ومن وسائل علمية يمتحن بها ثبات هذه الأحكام وصدقها . فماذا كان موقف الدراسات اللسانية بنوعها حيال الاستعانة بالمعالجة الإحصائية للمادة اللغوية الخافلة بمظاهر التنوع والاختلاف ؟

يقرر فرانك آنشين Frank Anshen أن الدراسات اللسانية قد سلكت حيال اعتبار التنوع ومعالجته إحصائياً واحداً من مسالك ثلاثة :

أما المسلك الأول فهو تجاهل التنوع ، والاعتراف بأن كل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية المعينة هو متكلم مثالي بالضرورة ، ومن ثم له الحق في أن يكون المتحدث الوحيد باسم جماعته في هذا المجال ، إذ هي بدورها جماعة مثالية متجانسة في سلوكها اللغوي ولما كان هذا التجانس لا وجود له على الحقيقة = وكانت دراسة التنوع اللغوي مرادة في ذاتها لأهميتها النظرية ، ولأنها قوام علوم لسانية بأسرها - وجدنا آنشين يطلق على هذا الاتجاه تسمية لا تخلو من سخرية ، إذ يسميه اتجاه (عُدْ عن ذا) (ignore it !) .

وأما الثاني فقد توسط بين الأمور ، وطالب بتقييد المادة المدروسة بالبيئة والمقام . وإن كان ذلك قد جرى على نحو غامض لا يمكن الاطمئنان إلى أسسه وإجراءاته ونتائجه .

وأما ثالثها فقد أثر اللجوء إلى المعالجة الإحصائية ليضبط طرق اختيار الرواة والعينات ضبطاً علمياً ، وبحول البيانات غير الرقمية إلى بيانات رقمية ، ويختبر الصدق والثبات في النتائج ، ويستكنه الدلالات الإحصائية للأرقام^(١١) .

ولا شك أن المسلك الأخير هو الحل العلمي المنهجي لمعالجة ظاهرة التنوع اللغوي على نحو علمي منضبط ، بل إن أهمية الإحصاء قد ثبتت لكثير من علوم اللسانيات التقريرية مثل اللسانيات التاريخية على سبيل المثال^(١٢) . أما في الأسلوبيات اللسانية فالحاجة إليه أشد إلحاحاً ، لأنها لا تقارب السلوك اللغوي بما هو ظاهرة متنوعة فحسب ، بل تقاربه أيضاً بما هو استعمال لغوي متميز بالقياس إلى غيره . وبذلك يتجاوز اللجوء إلى الإحصاء هنا دائرة الجواز إلى دائرة النذب . بل إلى دائرة الوجوب إذا أريد للتشخيص الأسلوبي وللأحكام النقدية الناتجة عنه أن تناط جميعها بأوصاف ظاهرة منضبطة .

١ - ٢ - ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي

ثمة مفاهيم تكتسب بشيوعها في الاستعمال العام وضوحاً زائفاً ، حتى إذا ما رازها العلماء واختبروها ، وتناوشتها المدارس العلمية على اختلاف أصولها ومناهجها وإجراءاتها البحثية تكشف أمرها عن قدر لا يستهان به من الغموض والتعقيد . وإلى هذا الصنف من المفاهيم ينتمي مصطلح (الأسلوب) ، سواء في مصنفات اللسانيين أو النقاد^(١٣) . وتحريز هذا المفهوم جدير بأن يكون مطلباً علمياً لذاته . بيد أن الترام البحث بقضية المعالجة الإحصائية للأسلوب سوف يضطرنا إلى أن نقبل نوعاً من الحد هو إلى التفسير أقرب منه إلى التعريف ، فعلماء اللسان والنقاد - على وجه الإجمال - يرون في الأسلوب واحداً من تجليات التنوع في السلوك القولي . إلا أن ماصدقات هذا التنوع من اللساني أوسع منها عند الناقد . وفرق ما بين الرجلين هو فرق في الغاية تتبعه سلسلة من الفروق ، فغاية اللساني هو الكشف عن أسرار الظاهرة اللسانية ، وما سوى ذلك من غايات هو عنده تالٍ وتبع . وغاية الناقد هو قراءة العمل الأدبي وتفسيره وتقويمه ، وما سوى ذلك عنده من الغايات تالٍ وتبع وينشأ من ذلك أن النص الأدبي هو واحد من مظاهر استخدام اللغة التي يوليها اللساني عنايته في بحث الأسلوب من منظوره الخاص . أما الناقد فالنص الأدبي هو كل بضاعته ، والموضع الوحيد لتأمله ونظره . ويدهي أن المكون الأسلوبي اللساني هو بالنسبة إليه واحد من مكونات أخرى ، لا يكمل عمله إلا بالوقوف

Frank Anslen, "Statistics for Linguists", Newbury House publishers, U.S.A., 1978, PP. 2-3.

(١١)

(١٢) عن الإحصائيات المعجمة في اللسانيات التاريخية انظر .

Milka Ivic, "Trends in Linguistics" Trans. by Muriel Heppell, 2nd Printing, Mouton, 1970 PP. 219-220.

D. L. Omsted, "Lexicostatistics as" Prooe "of Genetic Relationship", Anthropological Linguistics", Vol. 3, No. 4, PP. 9-14.

H. A. Gleason, Jr., "Counting and Calculating for Historical Reconstruction", Anth. Linguistics, Vol. 1, No. 2, PP. 11-32.

(١٣) عن مفهوم الأسلوب انظر : سعد مصلوح . المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣ - ٢٩ .

عليه ، وينقص عمله بالوقوف عنده . تلك هي المنطقة التي يتقاطع عندها عمل اللساني والناقد ، ثم يتجاوزها كل منهما ماضياً إلى غايته ، إنها منطقة الوصف والتشخيص ، وسنعود إلى هذه القضية بفضل بيان في فقرة قادمة . وحسبنا هنا أن نشير إلى سعة ماصدقات مفهوم (الأسلوب) في البحث اللساني ، فهو إذا أضيف إلى فرد كان أسلوباً فردياً ، وإذا أضيف إلى فئة من فئات المجتمع كان أسلوباً فئوياً ، وإذا أضيف إلى عصر بعينه كان أسلوباً مميزاً لحقبة من حقب تاريخ اللغة ، وإذا أضيف إلى جنس من أجناس القول كان أسلوباً نثرياً أو شعرياً أو قصصياً أو مسرحياً ، وإذا أضيف إلى الوساطة الناقلة كان أسلوباً صحفياً أو إذاعياً أو مكتوباً أو مقروءاً . وإن القاريء لواجب في هذا العرض المختصر أمرين : سعة ماصدقات المفهوم عند اللساني وبالقياص إليه عند الناقد ، وتقاطع الاهتمامات بين اللساني والناقد على اختلاف الوسائل والغايات بينهما .

ويمكن أن نتلمس مجال المعالجة الإحصائية بين تعريفين شهيرين من تعاريف (الأسلوب) .

الأول : تعريف يحدد الأسلوب بأنه مفارقة departure (أو انحراف deviation)^(١٤) عن النموذج آخراً من القول ينظر إليه على أنه معيار norm . وبالمقارنة بينهما يقع التمييز بين (النص المفاوق) و (النص - النمط) . ويشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما .

والثاني : تعريف يحدد الأسلوب بأنه اختيار Choice أو انتقاء Selection يقوم به المنشئ لسلمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة .

إن هذين التعريفين - وإن كان لهما من طابع البساطة ما يكاد يبلغ مبلغ البدهة - يثيران من الإشكالات النظرية أو المنهجية أكثر مما يحلان ، فأولهما يقتضي معرفة بخصائص التعبير الأصل (أو النمطي) (أو المعتاد) ليكون في الامكان قياس التعبير المعدول deviant إليه . وهو أمر لا يمكن أن يكون موضع اتفاق أو إجماع ، كما أن السبيل إليه صعبة متوعدة المسالك . وثانيهما يلزمنا بمعرفة قائمة الأبدال المتاحة ، تلك التي يُعجل المنشئ فيها فكره بالاختيار والاستبعاد . والأسئلة التي يطرحها هذا التعريف كثيرة متشعبة ، لعل من أهمها : هل لثل هذه القائمة وجود بالفعل ؟ وهل من الميسور التوصل إلى صياغتها ولو على وجه التقريب ؟ ثم ماذا عن طبيعة هذا الاختيار : أترأى يتم من المنشئ عن وعي وقصد ؟ أم أنه يتم بطريقة جبرية لا سيطرة حقيقية عليها للمنشئ ؟^(١٥)

(١٤) انظر مناقشة بارت لهذا المفهوم في المرجع السابق ذكره ، P. 7 وأيضاً نقد تيفان تودورف في دراسة له بعنوان :

"The Place of Style in the Structure of the Text", in Literary style : A Symposium" Op. Cit, PP. 30-1.

(١٥) لمة دراستان هامتان في مقولة (الاختيار) هما :

-Louis T. Milic, "Rhetorical Choice and stylistic option", in Literary Style, Op. cit, PP. 77-88.

-Jane R. Walpole, "Style as Option" in College Composition and Communication", Vol. XXXI, No. 2, 1980, PP. 205-212.

بيد أن من المثير حقاً أن هذه الإشكالات هي التي تفتح الباب لتدخل المعالجة الإحصائية للأسلوب على نحو يمكن أن يفيد في تحرير كثير من التصورات النظرية والإجراءات البحثية . وهو ما سيعرض له هذا البحث فيما بعد . ونبادر هنا إلى تأكيد أن ما بين التعريفين من وجوه التكامل هو أوسع من وجوه الاختلاف أو التناقض . ويرجع التعريف الثاني نظيره من الوجهة العملية - فيما نرى - لأمر ، منها أولاً : أن الاختيار أمر تصدقه تجربة الأدباء فيما يكتبون . وثانياً : لأن القول بأن الأسلوب هو تعبير معدول عن أصل معتاد يمكن أن يؤدي إلى القول بأن كل تعبير جاء على الأصل دون عدول هو خلل من الجمال . وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه . وثالثاً : لأن الانحراف عن النمط ومفارقته يمكن أن يعد شكلاً من أشكال الاختيار ومحصلة له . ورابعاً : لأن مفهوم الاختيار يفتح المجال لتجميع مفردات الظاهرة الأسلوبية وضم شتاتها في منظومة بحثية واحدة ، ذلك أن الاختيار امر يفترض أن يقوم به المنشئ على كافة مستويات التواصل بدرجات متفارقة . ومن ثم فهو ليس محض اختيار لغوي وحسب ، بل هو محكوم من جهة بإمكانات المقال ، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام Context of situation . وتشمل مقتضيات المقام عوامل كثيرة ، منها مصدر الخطاب ، والمقصود بالخطاب ، وموضوعه ، والوسيلة المعتمدة في الإبلاغ ، وجنس الخطاب ، والعلاقة بين مصدر الخطاب والمقصود به ، والحضور الذهني أو العيني للمخاطب ، والمسرح الذي تجري عليه وقائع الخطاب ، وغير ذلك كثير مما سنعرض له في حينه .

وأياً ما كان المفهوم الذي يعتمد أساساً للتحليل ، فثمة أمران نحسبهما موضع اتفاق بين الدارسين :

أولهما : أن الأسلوب مفهوم احتمالي في جوهره . وهو بهذه الصفة مستحق لأن يكون موضوعاً للمعالجة الإحصائية إذا شئنا إحكام الوصف والتشخيص .

وثانيهما : أن الأسلوب بمصادقاته المختلفة لا يمكن تحليله تحليلاً شافياً إلا في ضوء التحليل الشامل للغة المعنية ، ذلك أن هذا التحليل الشامل هو بمثابة تحديد لخلفية الصورة (أو الأرضية) The background التي تبرز بالقياس إليها الشكل The foreground ، فلا بد من قياس المتنوع إلى المتجانس ، والخاص إلى العام ، يقول هاليداي Halliday : (إذا كان لعالم اللسان أن يأمل في الإسهام في تحليل الأدب الإنجليزي ، فإن عليه أولاً أن ينجز وصفاً شاملاً لإنجليزية العصر على كل المستويات)^(١٦) .

وإذا كان الوصف الشامل للغة هو الأساس المعتبر لفحص الظاهرة الأسلوبية فإن التشخيص الإحصائي للأسلوب لا يمكن أن يستغني فيه أوبه عن التشخيص الإحصائي لمباني اللغة ، وذلك في إطار الظاهرة المدروسة على أقل

(١٦) M-A. K. Halliday, "The Linguistic Study of Literary Texts", Proceedings of the Ninth International Congress of Linguists, ed. H. H. Lunt, The Hague, 1964, P. 302.

تقدير . ومن هنا تنشأ علاقة وثيقة بين اللسانيات الإحصائية والأسلوبيات الإحصائية ، بحيث تتولى الأولى بيان الخصائص المشتركة في الاستعمالات اللغوية وتقوم الأخرى بالدراسة الدالة للخصوصيات والفروق . أما حين يتعذر وجود الوصف أو الإحصاء الشامل - كما هو الحال في العربية - فإن قصارانا أن نقيس انحرافاً إلى انحراف ، أو اختياراً إلى اختيار . وسبيلنا إلى ذلك هي المقارنة بين الخصائص الأسلوبية لأكثر من نص عند منشيء واحد ، أو عند أكثر من منشيء ، أو في نوع بعينه من النصوص عند عدد من المنشئين ، أو في جزء من أجزاء نص بعينه إلى غيره من أجزاء النص ، أو في مدونة كاملة .

٢ - مبحث الإجراء

٢ - ١ - المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية :

٢ - ١ - ١ - تعريف : تعني بالمتغيرات الأسلوبية Stylistic Variables مجموعة السمات اللغوية (بالمفهوم الأوسع لهذا المصطلح) ، التي يعمل فيها المنشيء بالاختيار أو الاستبعاد ، وبالتكثيف أو التخلخل ، وبتتابع طرق مختلفة في التوزيع ليشكل بها النص ، وحينئذ تصبح المتغيرات الأسلوبية خصائص مميزة Stylistic features أو مواثر Dis Crimimators ، ومن ثم ينبغي التمييز بين مفهوم المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية ، من حيث إن المتغيرات الأسلوبية هي مادة غفل متاحة من جهة الإمكان العقلي على الأقل أمام جميع المنشئين ، ليعمل فيها كل منهم بما سبق بيانه من طرق لتكون في النص خصائص أسلوبية . وإذن يكون المتغير خاصية أسلوبية بالقوة ، تتحول في النص إلى خاصية أسلوبية بالفعل .

٢ - ١ - ٢ - أنواع المتغيرات الأسلوبية

المدخل الأساسي لتصنيف المتغيرات الأسلوبية هو الوساطة الناقلة المستخدمة في الرسالة اللغوية (أو النص) ، فلإلقاء والأداء الشفهي أسلوبيات تفارق أسلوبيات النص المسطر على الأوراق . ويمكن تصنيف المتغيرات الأسلوبية إجرائياً وتبعاً لذلك إلى متغيرات شكلية وصوتية وصرفية وتركيبية ودلالية . ونود هنا أن نورد ملاحظ ثلاثة :

أولها : أن المتغيرات الشكلية ينصرف معظمها إلى النص المدون ، وتعالج الصورة الطباعية أو التدوينية التي يظهر بها النص على الورق ، ومظاهر التشكيل الجمالي للحروف بما هي كم فيزيقي يدرك بالبصر . ولا ينبغي ذلك أن يكون لهذه التشكيلات الجمالية أبعاد أخرى على المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي .

ثانيها : أن المتغيرات الأسلوبية مختلف أنواعها يمكن اعتبارها على مستويين : مستوى الجملة في ما نطلق عليه مصطلح (نحو الجملة) Sentence Grammar ومستوى النص في ما اصطلح على تسميته (نحو النص) (١٧) . Text Grammar .

(١٧) لبيان المقصود من مذهب المصطلحين انظر :

Teun A. Von Dijk, "Some Aspects of Text Grammar : A Study in Theoretical Linguistics and Poetics", Mouton, The Hague, 1972, PP. 10-12.

-Wilbur Pickering, "A Frame Work for Discourse Analysis", Summer Institute of Linguistics. Publication No. 64, 1980, P. 5

ثالثها : أن ما ذكر من أنواع المتغيرات هنا إنما ذكر على سبيل التمثيل لا على جهة الاستقصاء والخصر . وقد سوغ ذكرها أنها من أكثر المتغيرات سيورة في البحث الأسلوبي ، وهي أطوعها للمعالجة الإحصائية ، وفي ما يلي قائمة بالمتغيرات الأسلوبية المختارة :

أولاً : من المتغيرات الشكلية :

- (١) الشكليات التي تميز الشعر من النثر (قسمة البيت إلى شطرين) .
- (٢) توزيع الأبيات (الأسطر) على الصفحة .
- (٣) الأشكال الهندسية البديعية .
- (٤) نظام الفراغات على الصفحة .
- (٥) فنون البديع القائمة على التصحيف والتحريف .
- (٦) طول الكلمة (مقياساً بعدد الحروف) .
- (٧) طول الجملة (مقياساً بعدد الكلمات بحسبان الكلمة كما فيزيقياً متصلاً مسبوقةً وملحوقاً بفراغ)^(١٨) .
- (٨) أنواع من الجناس (المركب والمتشابه) .
- (٩) علامات الترقيم^(١٩) .

ثانياً : من المتغيرات الصوتية :

- (١) التوزيع النسبي لفئات الفونيمات^(٢٠) .
- (٢) أنواع المقاطع (المفتوحة / المغلقة)^(٢١) .
- (٣) التشاكل المقطعي isosyllabism^(٢٢) .
- (٤) الكلمات الموحية onomatopoeic .

(١٨) هذا المعيار لتحديد الكلمة هو المعيار المعترف به إحصائياً بالنسبة للتصووس المألوفة . وقد هوّن عليه كاتب هذا البحث في دراسة لحاصية تنوع المفردات (انظر حاشية رقم ٢٤) . وأيضاً :

-Jan Heibich, "Statistical Methods on Evaluating Words for Indexing Purposes" in Prague Studies in Mathematical Linguistics Academia, Prague, 1972, No. 4, P. 66.

(١٩) علامات الترقيم هي أحد المتغيرات التي يمكن استخدامها في قياس أسلوبية طول الجملة ونوعها . انظر :

George A. Miller, Language and Communication", New York, Toronto, London, 1963, PP. 126-7.

(٢٠) قامت بعض الباحثات باستخدام مقياس كاي ٢ في دراسة توزيع فونيمات الصوائت في خمس مملكات جاهلية انظر :

Mary C. Bateson, "Structural Continuity in Poetry", Mouton. 1970, PP. 60-67.

(٢١) يرى بعض العلماء ارتباطاً بين حسن الجرس في الشعر وشيوع المقاطع المفتوحة انظر : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، القاهرة ، الانحلو المصرية ، ١٩٦٥ ، ط ٣ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٢٢) عن التشاكل المقطعي انظر :

A. W. DeGroot, "Phonetics in Its Relation to Aesthetics", in Manual of Phonetics, ed. B. Malcomberg, Amestrdam. 1968, P. 538.

- (٥) أنساق نبر الكلمات Word-Streess (أو أشكال الوزن العروضي) .
- (٦) قافية الصدارة alliteration .
- (٧) الجناس بأنواعه (التام والناقص) .
- (٨) السجع .
- (٩) نظم التقفية ومنها :
- (أ) القافية التامة True rhyme (ويراعى فيها التطابق التام) .
- (ب) لزوم ما لا يلزم .
- (ج) القافية البصرية eye rhyme (وتقوم على التطابق في الرسم الكتابي دون النطق) .
- (د) القافية الناقصة half rhyme (وتقوم على التشابه لا التطابق في النطق ، ومنها ما يسمى بمصطلح العروضيين بالإكفاء والإجازة والسناد بأنواعه) (٢٣) .
- (هـ) القافية السمعية ear rhyme (ويراعى فيها تطابق الانطباع السمعي دون الرسم الكتابي) .
- (١٠) القلب .
- (١١) تشاكل البدايات anaphora .
- (١٢) التشريع .
- (١٣) طول الكلمة (مقيسا بعدد المقاطع أو الفونيمات) .
- (١٤) تماثل الصوائت assonance .
- (١٥) تماثل الصوامت Consonance .
- (١٦) انسجام الصوائت Vowel harmony .
- (١٧) حسن الوقع euphony . (وترتبط بالشيوع النسبي لفئات معينة من الأصوات وهي الصوائت ، والصوامت الرنانة resonants الأنفية والجانبية والترددية وأنصاف الصوائت في مقابل الفئات الأخرى : الاحتباسيات والاحتكاكيات . كذلك يرتبط حسن الوقع - كما أسلفنا بالشيوع النسبي للمقاطع المفتوحة في مقابل المقاطع المغلقة) .
- (١٨) تقابل السمات الفارقة distinctive features .
- (١٩) التخالف الصوتي dissonance .

ثالثاً : من المتغيرات الصرفية :

- (١) أقسام الكلم ؛ (الاسم ، الفعل ، الصفة ، الظرف .

(٢٣) عرقلت ظاهرة القافية التامة والناقصة باستفاضة في :

س - موديه : الشعر العربي الحديث ١٨٠٠ - ١٩٧٠ : تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي ، ترجمة شفيق السيد وسعد مصلوح ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٥ - ٢٢٦ .

(٢) الصيغ الصرفية . (الأفعال ، الجموع ، المصادر ، المشتقات) .

(٣) مبتكرات الصيغ .

رابعاً : من المتغيرات التركيبية :

(١) المركبات النحوية : (المركب الجري / الظرفي / النعتي / البدلي / العطف) .

(٢) أنواع الجمل : (اسمية / فعلية ، بسيطة / مركبة / معقدة ، إنشائية / ، خبرية) .

(٣) التنافر والتعقيد التركيبي .

(٤) جميع مباحث علم المعاني في البلاغة العربية .

(٥) المجاز بالحذف (من مباحث علم البيان) .

(٦) البعد التركيبي من المقابلة .

(٧) البعد التركيبي من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل (بالمصطلح البلاغي) .

(٨) فنون بلاغية من مباحث علم البيان والبديع مثل :

(التوفيق ، والعكس ، واللف والنشر ، والابتداء والتخلص والانتها ، والجمع والتفريق والتقسيم ، ورد الأعجاز

على الصدور ، وغير ذلك)

(٩) الصحة النحوية grammaticality .

(١٠) الجواز النحوي acceptability .

خامساً : من المتغيرات الدلالية :

(١) الوحدات المعجمية lexemes .

(٢) السجل المعجمي register .

(٣) المفردات القديمة archaism .

(٤) المفردات الدخيلة .

(٥) التركيز والتشتت في توزيع المفردات .

(٦) المولد .

(٧) تنوع المفردات (٢٤) .

(٨) الثروة اللفظية (٢٥) .

(٢٤) انظر : محمد مصلوح : قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب . دراسة تطبيقية على نماذج من كتابات العقاد والراعي وطه حسين ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مع ١ ، ١٩٨٦ ، ص ١٤٩ - ١٦٩ .

(٢٥) صاغ المعادلة الخاصة بقياس الثروة اللفظية بيرجير . وانظر نقداً لهذه المعادلة وتطبيقها في :

Marie Tesitelova "On The SO-Called Vocabulary Richness", in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, 1972, No. 3, PP. 104-115.

- (٩) البعد الدلالي للاستعارة (بأنواعها : التجريدية / الإحيائية animation التشخيصية Personification) .
- (١٠) البعد الدلالي للتشبيه والمجاز المرسل والكناية .
- (١١) فنون بديعة في التراث البلاغي مثل : الطباق ، والتدبيج ، ومراعاة النظر ، وإيهام التناسب ، والإرصاد ، والمشاكلة ، والرجوع ، والتورية ، والاستخدام ، والتجريد ، والمبالغة ، والتبليغ ، والإغراق والغلو ، والتضويف والعكس . . الخ) .

سادسا : من متغيرات ما فوق الجملة^(٢٦)

- (١) طول الفقرات وتوزيعها .
- (٢) هرمية البنية المنطقية للنص .
- (٣) انفتاح النص أو انغلاقه^(٢٧) .
- (٤) هرمية البنية النحوية : (الكلمة ← المركب ← العبارة ← الجملة ← الفقرة) .
- (٥) الربط بين الجمل .
- (٦) التوافق والتخالف في مباني الجمل .
- (٧) وسائل السبك Cohesion (صوتية / حرفية / تركيبية / معجمية) .
- (٨) المعلومات المقدمة given information^(٢٨) .
- (٩) معدل ورود المعلومات rate of information^(٢٨) .
- (١٠) الالتفات (على مستوى النص) pronominalisation .

تلكم الأنواع من المتغيرات الأسلوبية ذكرت هنا لا قصدا إلى الحصر . ويمكن القول - على وجه الإجمال - إن أي خاصية لغوية مائزة distinctive أو فائضة redundant^(٢٩) هي متغير أسلوبى بالفعل وخاصية أسلوبية بالقوة . وهي بذلك قابلة لأن تكون موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية بهدف التشخيص الأسلوبى للنص ، أو للكشف عن أنواع التشكيل الأسلوبى الذي خضعت له من قبل المنشئ .

(٢٦) قمة خلاف في تحديد الوحدة الخامة للأسلوب : أهي الجملة أم ما فوق الجملة . ومن القائلين بالأول ريتشارد أوهمان انظر :

R. Ohmann, "Literature as Sentences" in *Essays on the Language of Literature*, eds. S. Chatman and S. Levin, Boston. 1967, PP. 232-3.

على حين يرى أ. ميد اللسانيات تخصص مستوى الجملة وتفرد الأساليب بمستوى ما فوق الجملة . انظر :

A. Hill, "Essays in Literary Analysis", Austin, Texas, 1965, P. 69.

(٢٧) انفتاح النص أو انغلاقه ، إحدى الخصائص الأسلوبية التي يحول عليها بعض الباحثين لتشخيص الفرق ما بين لغة النساء ولغة الرجال . انظر :

Thomas J. Farrell, "The Female and Male Modes of Rhetoric", *College English*, Vol. 40, No. 8, April, 1979, PP. 909-910.

W. Longacre, *Op. Cit.*, PP. 71-74 and 79-81.

(٢٨)

(٢٩) للتمييز بين الخواص المائزة والمألوفة - بررها في التشكيل الأسلوبى انظر :

A. W. Degroot, *Op. Cit.*, PP. 537-8.

٢ - ١ - ٣ : المتغيرات الأسلوبية والطرز النحوي :

تشتمل قائمة المتغيرات الأسلوبية على تصورات ومصطلحات لسانية ، وعلى مفاهيم يكثر استخدامها في البلاغة المدرسية . ومعلوم أن التعاريف التي تساق لأكثر هذه التصورات ، وتوظيف ما هو معروف منها في التحليل الأسلوبي إنما يختلف باختلاف المدارس والاتجاهات اللسانية ، فكثير منها ليس موضع اتفاق وإجماع ، ضرورة أن هذه المدارس يخالف بعضها عن بعض في المنطلق الفلسفي والغاية ومناهج التحليل وإجراءاته .

وتطرح هذه الحقيقة البديهية على القائم بالتحليل الأسلوبي ضرورة تحديد الطراز النحوي grammatical model الذي يعتمده أساساً لتحديد مفهوماته ، ومن ثم لتحديد المنهج وإجراءات التحليل وطرق القياس . وقد جهل فضيلة هذا الأمر - على أهميته البالغة - كثير من الذين عالجوا بعض مسائل تاريخ العربية أو بنيتها أو ظواهرها الأسلوبية ، حين استخدموا هذه المصطلحات ملقن إياها ملقى المسلمات ، على توهم وضوح مفاهيمها واستقرارها وثباتها . وليس هذا الظن صواباً بإطلاق . ولا يتسع المجال هنا لتتبع أشهر الطرز النحوية واستعراض علاقتها بالدراسة الأسلوبية بعامة والإحصائية منها بخاصة . بيد أننا هنا نعيد ما سبق أن أشرنا إليه في موضع آخر من أن (الطرز النحوية جميعها - بما في ذلك الطراز التقليدي - كلها قابل من حيث المبدأ لأن تشكل أساساً منهجياً للبحث الأسلوبي) (٣٠) . هذا وإن كان من الطبيعي أن تتفاوت الطرز في مدى كفاءتها ووفائها بمتطلبات الوصف الدقيق للخصائص الأسلوبية .

٢ - ٢ : أسلوبيات المقال :

يقصد بأسلوبيات المقال التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية Stylization أو بعبارة أخرى - تنظيم السمات اللغوية في النص على نحو تتحول به من مجرد كونها بنوداً في قائمة المتغيرات إلى خصائص أسلوبية مائزة للنص . وينبغي هنا إيراد عدد من الملاحظات الهامة :

الأول : أن قائمة المتغيرات الأسلوبية التي سبق إيرادها هي محصلة رصد وتأمل لعدد غير قليل من الدراسات الأسلوبية . وقد يكتسب بعضها الصفة الجامعة Universal بحيث يمكن أن تصادفه في اللغات على اختلافها ، وقد يكون لبعضها طابع من الخصوصية يجعله وفقاً على لغة بعينها . كما أن أهمية بعضها قد يتفاوت من لغة إلى لغة بحسب خصائص بنيتها وقوانينها .

الثاني : أن هذه القائمة ليست جامعة ولا مانعة ، ولا يبعد أن يجتهد مجتهد فيضيف إليها ، أو ينقص منها ، أو يعدل من العلاقات بين وحداتها بما يؤدبه إليه تأمله للنصوص واجتهاده في رصد خصائصها .

الثالث : من المحال أن يستخدم منشئ واحد لا في نص واحد ولا في مجموعة من النصوص جميع المتغيرات الأسلوبية التي سبق ذكرها . وإنما يتحقق التشكيل الأسلوبي باختيار عدد منها يتم باستخدامه نماذج الأساليب (٣١) .

(٣٠) سعد مصلوح . الأسلوب . . . ص ٣٢ - ٣٣ .
(٣١) هذا خلافاً لما يتصوره بعض الباحثين من إمكان ذلك بل وجوبه . يقول صلاح لفضل : (لا يمكن الوصول إلى نتائج هامة دون حصر شامل لكل الخواص في جملة النص) (علم الأسلوب ، ص ٣٠٦) . وانظر رداً على هذه المقولة في :
سعد مصلوح : دراسات نقدية في السلاسل العربية المعاصرة ، علم الكتب ، القاهرة ١٩٨٩ م ، ص ٦٥ - ٦٦ .

الرابع : إن التشكيل الأسلوبي عملية مركبة تتم في نسيج متشابك معقد على جميع المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية في آن معاً .

الخامس : أن تعقد عملية التشكيل الأسلوبي يقابلها صعوبة مماثلة من جانب الباحث عند محاولته فك تداخلات النسيج . وتشخيص الخصائص المائزة ، واستكناه دلالاتها .

السادس : أن المستويات السابق ذكرها تتفاوت في مدى طواعيتها للتشكيل الأسلوبي . وتحتل المتغيرات الدلالية قمة القابلية للتشكيل ، يليها المتغيرات الصرفية والتركيبية . أما المتغيرات الصوتية فهي أكثر خضوعاً لنظام اللغة ، ومن هنا تبدو مهمة الشاعر في التشكيل الأسلوبي صعبة بالقياس إلى غيره من المنشئين ، وبها يتفاوت الشعراء في قدراتهم وخصائص شاعريتهم .

السابع : أن القول بقيام نص ما على متغيرات أسلوبية معينة لا ينفي إمكان وقوع أبدالها أو نقائصها من المتغيرات في النص نفسه ، أو في غيره من نصوص المنشئ الواحد . وإنما الفيصل في تقويم دورها في التشكيل الأسلوبي هو لدرجة الشبوع وطرق التوزيع .

الثامن : أن الاختيار ، والشبوع ، والتوزيع ، هي العوامل الثلاثة التي تحدد متضاهية التشكيل النهائي لأسلوب النص . وبها تتحقق مفارقة النص للمعيار المعتاد .

هذه الملاحظ الثمانية هي أهم ما ينبغي اعتباره عند النظر في شأن المتغيرات الأسلوبية والطريقة التي تتحول بها من مجرد قائمة صماء إلى خصائص أسلوبية فاعلة في التشكيل الأسلوبي للنص . بقي أن نقرر أن جميع ما سبق إيراده مما هو واقع تحت تسمية المتغيرات الأسلوبية إنما يمثل القسم الأول في عملية التشكيل الأسلوبي ، ونعني به القسم المقالي . وهذه الحقيقة تفتح باب القول في أمر القسم الثاني وهو القسم المقامي . وكلا القسمين يرتبط بالآخر أوثنى ارتباط في هذا الصدد . ومن ثم كان لا بد أن نتخذ من مفهوم المقام ومحدداته context parameters موضوعاً للفقرة التالية .

٢ - ٣ : أسلوبيات المقام :

من جوامع الكلم التي تتردد في كتب السلف مقولتان ، أولاهما : (لكل مقام مقال) والآخرى : (البلاغة هي موافقة الكلام لمقتضى الحال) . وقد اكتسبت هاتان المقولتان في القديم والحديث طابعاً تعليمياً . ولكنها تقرران من الوجهة العلمية مبدأً تطبق على صحته جميع الاتجاهات والمدارس في العلوم اللسانية خاصة والإنسانية عامة ، ألا وهو وجود علاقة لا يمكن تجاوزها - تنظيراً أو تحليلاً - بين المقال وما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي . ولأمر ما جعل المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب النزول أصلاً من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقومون إلا به . وما المعرفة بأسباب النزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال (٣٢) .

(٣٢) انظر : السيوطي : المرجع السابق ذكره ، ج ١ / ص ١٠٧ - ١١٠ ، وقد ناقش هذه المسألة أيضاً : قاسم حسان . انظر : العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

وإذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبا في اللسانيات الاجتماعية والتاريخية والنفسانية فإنه في مجال التحليل الأسلوبي أوجب . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الاختيارات الأسلوبية لا تحكمها ظواهر اللغة الخالصة فحسب ، بل تحكمها كذلك محددات المقام . ونعني بها الخصائص التي تحدد الطرف الاجتماعي - المادي الذي سيق في إطاره الكلام ؛ سواء أكان منظوقا أم مكتوبا Socio-physical envelope .

والعلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر ، فكما أن المقال دليل على المقام ، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال . وتظل العلاقة الجدلية قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية ، (فحين يتكلم زيد إلى عمرو يكون عمرو مهتما لاستنباط الطريقة التي صنف بها زيد مقام الكلام ، أي أنه - على سبيل المثال - سيلحظ نظرة زيد إلى مستوى الألفة بينهما أو إلى ما ألزم زيد نفسه باتباعه أثناء الكلام من التأدب اللائق . وسيؤدي ذلك إلى تأثير مرتد ، أي أن الأفكار التي كونها زيد حول ما استنبطه عمرو من أفكار عنه تؤثر على نظرة عمرو إليه ، كما تؤثر أيضا على تصنيفه هو - أي زيد - لمقام الكلام مع عمرو ، ومن ثم تؤثر على أسلوبه (٣٣) .

وهكذا يتبين لنا أن العلاقة التي تحكم المقام والمقال - في الموقف الحي - ليست بالبساطة التي تبدو بها بادي النظر .

على أن ثمة جانبا آخر يزيد من تعقد تلك العلاقة ، ذلك أن ثمة فنونا من القول والكتابة كالمعارض والتوبيخ والسخرية وغيرها تعتمد في تشكيلاتها الأسلوبية وفي بلوغ غايتها من التأثير والإبلاغ على المفارقة القائمة بين أجزاء المقال (٣٤) ، أو المفارقة القائمة بين المقال والمقام (٣٥) . وما ينشأ عن هذه المفارقات من خذلان للتوقع يتحقق به التأثير الأسلوبي المراد . ومن ثم فإن العلاقة بينهما في هذا الصدد يراد لها أن تخالف قصدا عن التألف والمتوقع ، على نحو لا يتحقق الغرض من المقال إلا به ، وهو نمط من العلاقة العكسية غير المباشرة لا يقل أهمية في هذا المجال عن العلاقة الإيجابية المباشرة بين القولتين .

وبالنظر إلى ما تتمتع به فكرة المقام من أهمية محورية في عملية التشكيل الأسلوبي - على النحو الذي سلف بيانه - وبالنظر إلى أن اعتبار محددات المقام وإدخالها في المعادلة الإحصائية لتشخيص الأساليب يواجه الأسلوبيات الإحصائية بتحدٍ حقيقي يندر مثيله في التشخيص الإحصائي لأسلوبيات المقال - نقول : نظرا لما تقدم كان لزاما أن نعرض بالبيان لهذه المحددات ولللكيفية التي يمكن أن تكون بها موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية .

ثمة محاولات مختلفة بذلها مستغلون بعلوم اللسان والدراسات الاجتماعية لوضع صيغة جامعة لمحددات المقام تكون لها القابلية للتطبيق عند تصنيف المقامات والمقالات في مختلف اللغات . ولا شك أن الفروق الشفافية بين الجماعات الكبرى والجماعات الصغرى واختلاف المقامات في تفاصيلها الدقيقة ذات التأثير المحتمل على تشكيل الأسلوب - كل أولئك يجعل مهمة وضع التصنيف الجامع لمحددات المقام أمرا لا يتقاد للباحثين في يسر . ومن ثم ، لا

N. Enkvist, *Linguistic Stylistics*, P. 63.

(٣٣)

(٣٤) مثاله قوله تعالى : « فبشرهم بعباد الهم » آل عمران : ٢١ (إذا ما قورن بقوله تعالى : « وبشر الصابرين » البقرة : ١٥٥) .

(٣٥) مثاله قوله تعالى : « ذق إنك أنت المرزوق الكريم » الدعاء : ٤٩ (إذا ما قورن بقوله تعالى : « فذوقوا عذابكم الا عذابا » الشأ : ٣٠) .

وجود لصيغة نهائية أو مثالية من هذا النوع . وعلى من يستخدم أيا من هذه الصيغ المقترحة أن يعيد النظر فيها لاستيفاء ما يراه ناقصا ، واستبعاد العناصر غير ذات التأثير على الظاهرة موضوع الدراسة .

ولعل النموذج الذي اقترحه دافيد كريستال D.Crystal وديريك دافي D.Davy من أكثر نماذج محددات المقام بساطة وشمولا وقابلية للتطبيق في مجال تشخيص الأساليب ، ويتخذ هذا النموذج الشكل التالي (٣٦):

(أ) محددات التفرد individuality

- اللهجة

- العصر

(ب) محددات الخطاب

- واسطة الاتصال medium

(كتابة ، كلام شفهي)

(واسطة بسيطة / واسطة مركبة)

- المشاركة participation

(أداء فردي ، حوار)

(مشاركة بسيطة / مشاركة مركبة)

(ج) محددات المجال province

مثال : لغة العبادة ، الإعلان ، القانون . . . الخ .

(د) محددات الموقف الاجتماعي

وتتصل بالمكانة الاجتماعية النسبية للمشاركين في عملية الاتصال من حيث الرسمية ، والتأديب ، والقراءة ، وعلاقات العمل .

(هـ) المحددات الشكلية modality

وتشمل ما يوجد من فروق في صيغة الاتصال كالرسائل ، وبطاقات البريد ، والملاحظات والبرقيات ، والتقارير والمقالات العلمية ، والمتون الدراسية .

(و) العوارض الشخصية singularity

وتختلف عما يندرج تحت عوامل التفرد من جهة كونها عوارض مؤقتة وطارئة ويمكن استخدامها في التلاعب أو المناورة . ويتم إقحامها في الموقف لإحداث تقابل لغوي محدد (ومثالها أن يلوي أحدهم لسانه بصيغة لغوية يقلد بها الطبقة الراقية أو لكنة أعجمية) . أما عوامل التفرد فتمتاز بالدوام والثبات .

٢ - ٤ : التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام / المعنى / المقال :

عالج هذا البحث فيما مضى من فقرات جانب المتغيرات الأسلوبية المقالية ، وجانب محددات المقام ، مقترحا أحد النماذج التي أثبتت كفاءتها في هذا الصدد ، ونعني به نموذج كريستال ودافي على ما سبق بيانه .

بيد أن عملية التشكيل الأسلوبي لا يمكن حصرها في ثنائية المقال والمقام ، ذلك أن هذا الحصر إنما يغفل الضلع الثالث من مثلث التشكيل الأسلوبي وهو جانب (المعنى) أو (المكون الدلالي) ، كما يغفل الإشارة إلى الآلية mechanism التي تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ثم إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) وتتمثل تلك الآلية في وظائف اللغة Language Functions ، وقد تولى هاليداي تحديد دور (المكون الدلالي) و (وظائف اللغة) في تشكيل الخصائص المائزة للمقال ، وقدم صيغة لهذه العلاقة تستحق التوقف عندها بشيء من البيان (٣٧) .

يميز هاليداي ما بين وظائف اللغة عند الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة ، وما يطرأ على هذه الوظائف من تطور بنمو الطفل وانتقاله إلى مرحلة النضج . ويرى هاليداي أن الوظائف اللغوية عند الطفل مرتبطة بحاجاته ارتباطا مباشرا . ومن ثم نرى لديه شكلا لغويا واحدا يتكرر كلما أراد التعبير عن حاجة بعينها دون اعتبار للأبدال الأخرى المتاحة . وبذلك يمكن القول إن النظام اللغوي عند الطفل في طفولته المبكرة يتشكل من مجموعة من التنوعات المشروطة والمقيدة تقييدا مباشرا بالمواقف والمقامات ، أي أن ما يريد الطفل أن يعبر عنه هو الذي يحدد التركيب اللغوي تحديدا مباشرا .

وبخلال المسار الذي يقطعه الطفل نحو النضج تتوارى الوظائف المتعددة تدريجيا ليحل محلها نظام وظيفي هو أعمق في الرمزية والتجريد وإن كان أبسط في التركيب من سابقه . ويتشكل هذا النظام من ثلاث وظائف كبرى macrofunctions هي : الوظيفة التصورية ideational ، أو الوظيفة التعاملية interpersonal والوظيفة النصية textual .

يتمثل جوهر (الوظيفة التصورية) في التعبير عن التجربة وعما يتضمنه الموقف من تقويم للأحداث والأشخاص والأفكار ، ومن جوانب عاطفية تأثيرية . ويؤخذ من ذلك أن هذه الوظيفة معنية بالتعبير عن التجربة تعبيرا يشمل العمليات التي تجري داخل نفس الإنسان وخارجها ، أي يشمل الظواهر القائمة في العالم الخارجي وظواهر الوعي البشري ، كما يشمل العلاقات المنطقية التي يمكن استنباطها من هذه الظواهر .

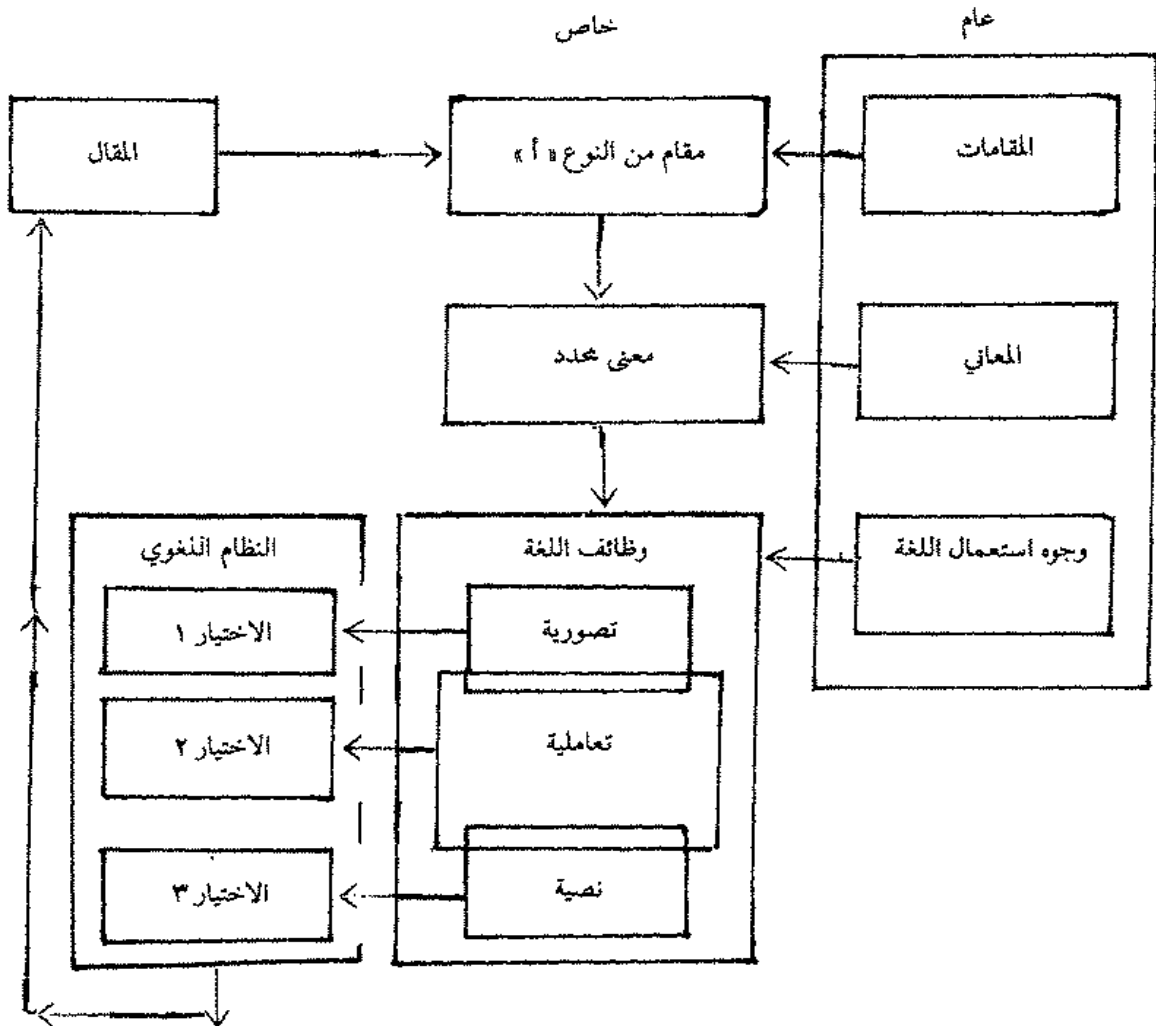
وتعبر (الوظيفة التعاملية) عن دور المتكلم في مقام الكلام ، وما يلزم به نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين . وهذه الوظيفة من وظائف اللغة هي التي تعين على تأسيس العلاقات الاجتماعية وترسخها ، وهي التي من خلالها تتحدد الفئات الاجتماعية ، وتتشكل وتقوي شخصية الفرد ، إذ إن تمكنه من الاتصال بالآخرين والتعامل معهم يعينه على التعبير عن ذات نفسه وعلى تطويرها .

(٣٧) أخذنا هذا العرض المفصل للنظرية هاليداي من :

roger T. Bell, "Sociolinguistics, Goals, Approaches, and Problems", London, 1976, PP. 84-7.

أما (الوظيفة النصية) فتختص ببناء الحدث اللغوي أي (المقال) ، وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ، ولقوانين النحر ، ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها .

وتتكامل هذه الوظائف الثلاث الكبرى لتقوم ، من خلال نظرية نحوية قائمة للغة معينة ، بإقامة علاقات مفصلية بين (المكون الدلالي) من جهة ، وكل من المكونين (الاجتماعي) و (اللغوي) من جهة أخرى . ويرى هاليداي أن (الدلالة) تمثل مستوى تركيبيا وسيطا بين أوجه الاستعمال الاجتماعية للغة والأشكال اللغوية ، أي أنه إذا غاب هذا العنصر الدلالي الحاسم فإن أي شكل لغوي يمكن أن يعبره عن أي وجه من وجوه استعمال اللغة . ومن ثم تكون الوظائف الكبرى للغة - كما سبق البيان - آلية تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ، ثم في نهاية الأمر إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) . وفي الشكل التالي تمثيل للعلاقة بين العناصر المكونة لثلاثية التشكيل الأسلوبي : المقام والمعنى والمقال .



ونحاول الآن أن نلتزم في الشكل السابق توضيحاً للآليات والعلاقات المتضمنة في عملية التشكيل الأسلوبي .
ولنبداً قراءة الشكل من اليمين :

يبدأ الشكل في أقصى اليمين بما هو عام من مقامات ومعان واستعمالات للغة . ويعتمد المتكلم أو المنشئ إلى هذا العام فيقوم بعزل عدد محدود من مجموع المقامات الممكنة (وقد اكتفى الرسم بالاشارة إلى مقام واحد منها على سبيل التمثيل وأطلق عليه تسمية المقام «أ») . ثم يقوم باختيار ما يناسب المقام المختار من المعاني ، وكذلك باختيار وجه واحد من وجوه الاستعمالات اللغوية الممكنة يناسب ما وقع عليه اختياره من مقام ومعنى . وهذه الاختيارات الثلاثة تتحدد الوظائف اللغوية ودورها . ويدخل جميع ما وقع عليه اختيار المنشئ في دائرة ماهو « خاص » ، ثم إن كل وظيفة من الوظائف الثلاث تتطلب إجراء اختيارات معينة من مجموع النظام اللغوي للغة المعنية . ومن مجموع ذلك كله يتشكل المقال الذي يتم تشكيله وصياغته للتعبير عن مقام بعينه .

ونعود الآن إلى نموذج كريستال ودافي لتعرف - من خلال استطلاع الشكل السابق - تلك العلاقة القائمة بينه وبين نموذج هاليداي . وحيث سيتبين لنا أن نموذج كريستال ودافي وما شاكله يحتل في شكل هاليداي المربع الأول مما هو « عام » ، وأن إعمال محدداته في تشكيل مقام بعينه ومقال بعينه يحتل المربع الأول مما هو « خاص » . وأنه باستخدام كلا النموذجين تتكامل العناصر اللازمة لوصف عملية التشكيل الأسلوبي بعناصرها الثلاثة : المقام والمعنى والمقال .

بقيت كلمة أخيرة تتعلق بإعمال نموذج كريستال ودافي في تحديد المقامات ؛ فبعض أوصاف المقام قد تتلازم بحيث يمكن بالنص على وجود أحدها حجب أوصاف أخرى بطريق التضمن ، أو استبعاد أوصاف أخرى بطريق التنافي ، أي أن بعض الأوصاف قد يتضمن - أو قد ينفي - بالضرورة أوصافاً أخرى . ويوجب هذا على الباحث أن يقوم بتنظيم محددات المقام بحيث يقتصر على المحددات الأساسية دون حشو ، وفضول . فلا يضيف إليها ماهو معلوم وجوده بالضرورة ، أو ماهو معلوم غيابه بالضرورة . هكذا يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد فيه المقال بالمقام ، ويستكشف فيه المقام من خلال المقال^(٣٨) . ولعل حاجتنا إلى هذين الأمرين جد ملحة لاسيما عند الدراسة الدلالية والأسلوبية للنصوص المدونة في تراثنا القديم .

٢ - ٥ : التشخيص الأسلوبي :

فرق ما بين التشكيل الأسلوبي Stylization - وهو ما سبق الحديث عنه - والتشخيص الأسلوبي Stylistic diagnosis الذي هو موضوع هذا المطلب هو أن الأول عمل تركيبى يقوم به المنشئ ، أما الثاني فنشاط تحليلي يقوم به الباحث . وهدف الأول إنتاج النص أما هدف الثاني فهو الكشف عن الهوية الأسلوبية للنص . ومادة الأول هي المتغيرات الأسلوبية أما مادة الثاني فالتصورات والإجراءات المنهجية . وكما يقوم التشكيل الأسلوبي على محاور الاختيار والتوزيع والشيوخ فلا بد أن يقابل ذلك من جهة الباحث عمل يكشف به عن أجدر المتغيرات الأسلوبية بأن تكون

(٣٨) انظر نموذجاً لاكتشاف المقام من خلال المقال في :

Deborah Schiffrin, "Discovering the Context of an Utterance", Linguistics, Vol. 25, 1987, PP. 11-32.

خصائص أسلوبية ماثرة للنص ، أي تلك التي يمكن أن توصف بأنها اختيارات للمنشئ ، وعن درجات شيوع هذه الاختيارات وأنماط توزيعها .

وإذا كانت تقنيات المعالجة الإحصائية من الكفاءة بحيث تعين الباحث على الكشف عن درجات الشيع وأنماط التوزيع فإن القطع باختيارات معينة للمنشئ أمر هو من الصعوبة بمكان . وثمة حالات نادرة - بالنسبة لأدباء العربية - يصرح فيها المنشئ باختياره قولاً أو كتابة . كما أن من الممكن في حالات أخرى الاستدلال بمسودات النصوص التي أعمل فيها المنشئ بقلمه بالاستبقاء والاستبعاد^(٣٩) . على أن الباحث في غيبة مسودات النصوص - وهو الطرف الغالب - لا يمكنه أن يعثر على دليل مباشر يحدد الخصائص المستبعدة ، علماً بأن الاستبعاد له في ميزان التشخيص الأسلوبى مالاستبقاء من أهمية . وإذن فليس أمام الباحث إلا طريق افتراض الفروض واختبارها على ما سيأتي بيانه .

ويهدف التشخيص الأسلوبى الإحصائى إلى تحقيق غايات ثلاث تتدرج هرمياً على النحو التالى :

- (١) الوصف الإحصائى الأسلوبى للنص للكشف عن الخصائص الأسلوبية الماثرة فيه .
- (٢) التحليل الإحصائى للنص .
- (٣) الحكم التقويى ، أو ما يمكن الاصطلاح على تسميته (نعوت الأسلوب) .

وترجع خاصية التدرج والهرمية بين هذه الغايات إلى أن الوصف أساس لا غنى عنه في التحليل ، وأن كليهما أساس لا غنى عنه في الحكم والتقويم . ولدارس الأسلوب دراسة إحصائية أن يستبعد الغاية التقويمية بالكلية وأن يقتنع في عمله بالوصف والتحليل ، إما لأن الحكم والتقويم خارجان عن مهمة البحث (كما في البحوث الهادفة إلى الكشف عن المؤلف المجهول^(٤٠) ، أو ترجيح نسبة نص ما إلى منشئ بعينه من بين عدد من الاحتمالات البديلة) . وإما لأن الوصف والتحليل قد لا يؤدى إلى حكم تقويى يطمئن الباحث إليه . ويحصل من ذلك أن الغايتين الأولىين متلازمان غالباً . أما الغاية الثالثة فغير لازمة على وجه الضرورة . أما الأبحاث التي تتغيا تمييز نعوت الأساليب فلا مندوحة لها من التوغل في مجال الحكم التقويى شريطة أن تسلم مقدمات الوصف والتحليل إلى حكم موضوعى منوط بأوصاف ظاهرة منضبطة .

وتتنظم إجراءات التشخيص الأسلوبى في مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة الفرض وفيها يحدد الباحث المتغيرات الأسلوبية التي يرجح مسئوليتها عن التميز الأسلوبى للنص المدروس اعتماداً على خبرته وإطلاعه على ما سبق من دراسات ، أو على وضع استجابات عدد من المتلقين موضع الاختبار .

(٣٩) انظر :

- مصطفى سويك : الأسس النفسية للإبداع الفنى في الشعر خاصة : القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥١ - ٢٧٧ .

- حسين عيسى : الإبداع في الفن والعلم ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٩ م ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .

(٤٠) انظر :

سعد مصطوح : تحقيق نسبة النص إلى المؤلف : دراسة أسلوبية إحصائية في الثابت والمنسوب من شعر شوقي ، مجلة فصول ، ص ٣ ، ع ١ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .

الثانية : مرحلة اختبار الفروض . وتقوم على معالجة النص المدروس إحصائياً بهدف إثبات صحة الفروض أو بطلانها . وتشتمل هذه المرحلة على جانبين : أولهما جانب الوصف الإحصائي ، والثاني جانب التحليل الإحصائي وستخصص هذه المرحلة ببيان فيه شيء من التفصيل ، إذ هي الغاية الأساسية من هذا البحث .

الثالثة : مرحلة الاستنتاج . وهي الثمرة المرجوة من وضع الفروض واختبارها .

٢ - ٦ - المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص

أشرنا في غير هذا البحث إلى أن كثيراً من الدراسات والرسائل الجامعية التي اعتمدت الوسيلة الإحصائية لمعالجة النصوص ، ولا سيما نصوص الأدب لم تأخذ من الإحصاء إلا وظيفته البدائية الأولى ، ونعني بها وظيفة العد ، أو الحصر Counting^(٤١) . وهذه الوظيفة - وإن كانت من أساسيات العمل الإحصائي - ليست إحصاء Statistics بالمفهوم العلمي المنتج ، فلقد تجاوزت وظيفة الإحصاء عملية الحصر والعد لإجمالي المفردات وأقسام الكلام وأنواع الجمل وغير ذلك ، لتعطي مزيداً من البيانات القابلة للتوظيف في مجال الكشف عن أدق خواص النص على كافة المستويات التحليلية المختلفة . ليست الغاية إذن هي الحصول على أرقام مطلقة عارية من الدلالة ، ولكنها الوصول إلى الأرقام والبيانات النسبية القادرة على إنتاج مقارنات دالة .

وإذا كانت مرحلة اختبار الفروض هي المرحلة التي يتجلى فيها دور المعالجة الإحصائية للنصوص فإن ذلك لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة هامة ، وهي أن التدخل الإحصائي يبدأ مع مرحلة وضع الفروض وربما قبلها . إننا في الدرس الإحصائي أمام أحد خيارين : فلما أن نخضع للفحص مادة تمثل مجتمعاً إحصائياً كاملاً Statistical population ، كديوان شعر ، أو عمل أدبي برمته ، أو مدونة كاملة . وإما أن نستغني عن ذلك - مختارين أو مجبرين - باختيار عينات Samples يشترط بها أن تكون جيدة التمثيل للمجتمع الإحصائي المطلوب دراسته . واختيار العينات - وهو الظرف السائد - مطلب له ضوابطه وقواعده في مبحث العينات والاحتمالات ؛ حيث تتحدد خصائص العينة وحجمها بالنسبة للمدونة أو المجتمع الإحصائي . ومن هنا فإن الإحصاء يبدأ غالباً قبل مرحلة الوصف والتحليل ، أي عند اختيار العينات المدروسة . وعلى الباحث الذي تلجئه ظروف بحثه إلى اصطلاح المعالجة الإحصائية وليس له بها سابق خبرة كافية - أن يناقش مع بعض المتخصصين في الإحصاء مسألتين مبدئيتين :

أولاهما : تحديد نوع العينة وحجمها ، فالحل العلمي الدقيق لهذه المسألة يوفر على الباحث وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً قد يضيعها بلا جدوى ، كما يستنقذ الباحث من مناهات أخرى به أن يتجنبها من أول الطريق .

الثانية : هي اختيار أساليب المعالجة الإحصائية المناسبة لاختبار فروضه ولنوع العينة وحجمها .

(٤١) سعد مصباح : (الأسلوب ...) ، ص ٧ ، وأيضاً :

مختار محمود الهانسي : مقدمة في طرق الإحصاء الاجتماعي ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٢ - ٤ .

ويتصل بما سبق أوهام تشيع في بعض الدراسات الإنسانية التي تستخدم المعالجة الإحصائية ؛ منها ما سبق أن ذكرنا من الخلط بين العد والإحصاء ، ومن : الاعتقاد بأن الخطأ في اختيار نوع العينة الجيدة التمثيل يعوضه زيادة حجم العينة . والحق أن الأمر على النقيض تماما ، فزيادة حجم العينة إذا بني على خطأ في اختيار نوعها يزيد من فرص فساد النتائج . ومن : الاعتقاد بأن هذا النوع من الدراسات إنما يتفاضل بحسب ما تمتاز به الطرق الإحصائية المختارة من دقة . والحق أن مقياس التفاضل هو موافقة الطرق المستخدمة لطبيعة البيانات العددية الخاضعة للمعالجة^(٤٢) .

وليس يتظر من مثل هذا البحث تقديم تعريف مفصل بالطرق الإحصائية الممكن استخدامها في دراسة الأسلوب ، فمكان ذلك هو متون الإحصاء . لكن ذلك لا يعني من محاولة لإضاءة هذه الطرق على نحو يزيل الوحشة القائمة بين كثير من النقاد واللسانيين وهذا الأسلوب المنضبط في معالجة النصوص .

ومادام مفهوم الدرس الإحصائي للأسلوب يتضمن بالضرورة مفهوم المقارنة بين أكثر من متغير أسلوب في نص واحد ، أو بين متغير واحد في أكثر من نص ، أو بين أكثر من متغير في أكثر من نص - فإن هذا المفهوم يستدعي طرقا إحصائية معينة تفيد في تحقيق التشخيص الأسلوبي سواء على مستوى وصف النص أو على مستوى تحليله .

نبدأ الآن أولا بتحديد لأهم الطرق الإحصائية المستخدمة في الوصف . ثم نثني بما يستخدم منها في التحليل أو (الاستدلال) الإحصائي . وتشمل طرق الوصف إمكانات كثيرة أهمها وأكثرها شيوعا في الإحصاء الأسلوبي (واللساني) ما يلي :

أولا : مقاييس الوصف الإحصائي :

(١) قياس كثافة المتغير الأسلوبي density

ومثاله قياس كثافة نوع معين من أنواع الجمل (الاسمي / الفعلي / السيط المركب / المعقد / الإنشائي / الخبري) . ويتحقق بقسمة عدد الجمل من النوع المراد قياسه على المجموع الكلي لعدد العمل المكونة النص^(٤٣) . ومن ذلك في العربية قياس كثافة المجاز density of metaphor بقسمة عدد المركبات المجازية على العدد الكلي للمركبات اللفظية المجازية وغير المجازية collocations في النص^(٤٤) .

(٢) قياس النسبة بين متغيرين أسلوبيين ratio

وذلك بقسمة تكرارات أحدهما على تكرارات الآخر . ومن ذلك قياس نسبة الأفعال إلى الصفات (معاملة بوزيمان)^(٤٥) ، أو نسبة الجمل البسيطة إلى المركبة ، أو نسبة المركبات المجازية إلى الحقيقية .

(٤٢) فؤاد البهي السيد : علم النفس الإحصائي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٦٤ .

(٤٣) انظر : Curtis W-Hayes, "A study in Prose Style, Edward Gibbon and Ernst Hemingway", in Statistics and Stylistics, ed. L. Dolezel and R.W. Baily. New York, 1969, PP. 80-81.

(٤٤) انظر : سعد مصلوح . في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستمارة : دراسة تطبيقية لقصيد من أشعار البارودي وشوقي والشاذلي ، مجلة الحياة الثقافية ، تونس ، ٤٦ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ، وما بعدها .

(٤٥) سعد مصلوح : (الأسلوب ..) ، ص ٦٦ - ٦٢ .

(٣) قياس النزعة المركزية للمتغيرات Central tendencies

(وبيان ذلك أن تميز نص أو منشيء ما باستخدام جمل طويلة مثلاً لا يعنى انعدام الجمل القصيرة ، بل كل مايعنيه أن ثمة نزعة مركزية غالبية الى استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة بتكرارات أقل . وهكذا الأمر في رصد الخواص الأسلوبية الأخرى) وأهم مقاييس النزعة المركزية . الوسط الحسابي arithmetic mean ، والوسيط median ، والمتوال mode والوسط الهندسي geometrical mean (٤٦)

(٤) قياس تشتت بيانات المتغيرات dispersion

حين تتفق النصوص في نزعة مركزية واحدة فإن ثمة احتمالات لإمكان التمييز بينها باستخدام مقاييس التشتت ، أى قياس الدرجة التي تنمجه بها البيانات الرقمية للانتشار حول قيمة وسطى . ومن أهم مقاييس التشتت : المدى range ، والتباين variance والانحراف المعياري standard deviation (٤٧)

(٥) قياس التوزيع الاحتمالي للمتغيرات probabilistic distribution

ويقصد به قياس تكرارات متغير أسلوبى ما (وليكن المتغير (أ) بوصفه واحداً من أبدال متاحة (وليكن أ ، ب ، ج . . . ن) في ارتباطه بمقام معين . وسأى مناقشة النموذج الرياضى الذى يمكن الاحتكام إليه في وصف الأسلوب عند تعدد الاحتمالات .

(٦) قياس معامل الارتباط بين المتغيرات .

ومثاله قياس ارتباط الحدوث بين متغيرين أسلوبيين (كالارتباط بين طول الجملة والبساطة أو التركيب فيها) ، أو بين متغيرات أسلوبية معينة ومتغيرات المقام (كالارتباط بين طول الجملة واختلاف الوسط الناقل media ، أو بينه وبين اختلاف شكل النص بين البرقية والرسالة البريدية) ، أو بين المتغيرات الأسلوبية والأحكام النقدية التقويمية (كالارتباط بين طول الجملة أو تنوع المفردات والحكم بصعوبة الأسلوب) (٤٨) .

ثانياً : طرق الاستدلال الإحصائى .

بينما - فيما سلف - أهم طرق الوصف الإحصائى وأكثرها شيوعاً في الدراسة الإحصائية للأسلوب . وقد يكون الوصف كافياً بذاته ليشكل أساساً مقنعاً لاختبار المتغير الأسلوبى أو العلاقة بين المتغيرات ، وتحديد أهميتها في التشخيص الأسلوبى لنص ما ، إما بالاعتراف بها سمة مائزة للنص ، وإما باستبعادها واعتبارها من السمات الفائضة redundant features . وأمثلة الحالات التي يكتفى فيها بالوصف الإحصائى هي تلك التي يجري فيها الوصف على المجتمع

(٤٦) المرجع السابق : ٤٥ .

(٤٧)

(٤٨) استخدم ل : دوليجيل معامل الارتباط في التشخيص الأسلوبى للعلاقة بين طول الجملة وطول الكلمة في نصوص اللغة التشيكية . وقد لبت وجود معامل ارتباط عال بينها

إلا في الشعر . انظر :

I. Dolezel, "A Framework of Statistical Analysis of Style", in "Stylistics and Stylistics", Op. Cit, PP. 19-20.

الإحصائي . أما عند اللجوء إلى فحص عينات من المجتمع الإحصائي فقد تنشأ الحاجة إلى استجلاء الدلالة الإحصائية للبيانات المستخرجة من العينات بغية استنتاج المميزات الرئيسة للأصل (أو المجتمع الإحصائي) ، وحينئذ ينحو الباحث (نحو التعميم العلمي للظاهرة التي يبحثها ، ويهدف إلى استنتاج خواصها الإحصائية في صورتها العامة . ولذا يسمى هذا النحو الاستدلال الإحصائي ، لأنه يستدل على الخواص الإحصائية للأصل من الخواص الإحصائية لإحدى عيناته أو بعضها ، أي أنه يستنبط صفات الكل من الجزء أو الأجزاء التي تنطوي تحت إطاره والمشكلة لا تقف عند هذا الحد ، بل تمتد في جوهرها إلى الكشف عن مدى صحة ذلك الاستنتاج ودلالته الإحصائية ، فنستطيع أن ندرك مدى ثقتنا في تعميم نتائج الأبحاث المختلفة التي نقوم بإجرائها (١٩) .

وجدير بالذكر هنا أن بعض ما سلف بيانه من طرق الوصف الإحصائي صالح للاستخدام في مجال الاستدلال الإحصائي . ومن أهمها قياس التباين والانحراف المعياري ومعامل الارتباط . وبقي أن نعرض لمقياس يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في اختبار الدلالة الإحصائية أسلوبياً ولغوياً ، وهو مقياس كاي^٢

(١) مقياس كاي^٢ : Chi - Square (٥٠)

يعتبر مقياس كاي^٢ من مقاييس التوزيعات الحرة التي لا تعتمد على شكل التوزيع التكراري ، ويكثر استخدامه في البحوث الأسلوبية واللغوية الإحصائية لاختبار دلالة التكرارات على المستوى الفونيمي ، وإن كانت إمكانات استخدامه أوسع من ذلك بكثير . وتقوم فكرة للمقياس على اختبار دلالة الارتباط بين ظاهرة ما والبيانات العددية المتعلقة بتوزيعها . (مثال ذلك : الارتباط بين جنس المتكلم ذكراً أو أنثى واشتمال الكلام على ظواهر صوتية أو تركيبية أو أسلوبية معينة) . ونحن - في هذه المسألة بين فرضين : إما أن الارتباط بين جنس المتكلم وهذه الظواهر هو ارتباط منعقد ويسمى هذا الفرض : فرض العدم أو الفرض الصفري null hypothesis وإما أن يكون ثمة ارتباط دال بين الآخرين . ويقوم المقياس باختبار فرض العدم . وينشأ عن رفض فرض العدم . قبول الفرض البديل (أي إثبات وجود العلاقة) ، كما أن عكس ذلك أيضاً صحيح . ويتم الاختبار بإدخال التوزيع الفعلي (أو التوزيع المشاهد) للظواهر مع التوزيع المتوقع لها في معادلة وهي : إيجاد ناتج طرح رقم التوزيع الفعلي من رقم التوزيع المتوقع ، ثم تربيع ناتج الطرح وقسمته على الرقم المتوقع . وتتم هذه العملية بالنسبة لكل خانة من خانات الجدول ، ثم نقوم بإيجاد المجموع الكلي لنواتج هذه العملية في جميع خانات الجدول .

وتقدم لنا المعادلة السابقة طريقة حساب مقياس كاي^٢ . أما حساب دلالة المقياس (أي حساب المستوى الذي يمكن عنده رفض فرض العدم) فيلزم له حساب درجة الحرية degree of freedom . (وهي حاصل ضرب عدد الصفوف الأفقية في جدول التوزيع المعنى باستثناء الصف الخاص بالمجموع الكلي مطروحاً منه واحد صحيح × عدد

(٤٩) فؤاد اليهس السيد : المرجع السابق ذكره ، ص ٤١٢ - ٤١٣

F. Anshen, Op. Cit, PP. 23-25.

(٥٠) لنظر :

ومن تطبيقاته في العربية انظر :

- أحمد طلعت سليمان : علاقة الجنس والجهر بالعلماني في المتضادات العربية - دراسة إحصائية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، مج ٩ ، ع ٣٤ ، ربيع ١٩٨٩م ، ص ٢٦ .

الأعمدة الرأسية للجدول باستثناء عمود المجموع الكلي ، مطروحا منه واحد صحيح . وثمة جداول إحصائية جاهزة تحدد المستوى الذي يمكن عنده رفض فرض العدم (أى إثبات العلاقة) مع كل درجة من درجات الحرية .

(٢) مقياس النسبة المخرجة z-score (٥١)

يقيد هذا المقياس في إجراء حساب مباشر لدلالة فرق المتوسطات ، أى لتحديد ما إذا كان الفرق بين متوسطي مجموعتين من القيم كافيا لاعتباره دالا من الوجهة الإحصائية أم لا . ويتطلب هذا المقياس معرفة مايتى :

(أ) متوسط القيم في المجموعتين المعنيتين .

(ب) عدد المشاهدات في كل مجموعة .

(ج) حساب درجة التباين Variance لكل مجموعة (مربع الانحراف المعياري) .

أما المعادلة الخاصة به فتكون بإيجاد : الفرق بين متوسطي قيم المجموعتين ثم قسمته على الجذر التربيعي لحاصل جمع (درجة تباين المجموعة الأولى مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها + درجة تباين المجموعة الثانية مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها) .

تلکم هى أهم الطرق الإحصائية المعتبرة عند اللسانيين والأسلوبيين في معالجة النصوص اللغوية . وننتقل الآن الى التعريف بمفهوم النموذج الرياضى في التشخيص الأسلوبى وأنواعه .

٢ - ٧ . النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبى :

يكثر ظهور المعادلات الرياضية في الدراسات الإحصائية للأسلوب ، مما يشكل حاجزا نفسيا بين كثير من المهتمين بأمر النص اللغوى - والأدب خاصة - وهذا النوع من الدرس العلمى ، وربما كان للألفة في ذلك دخل كبير . وقد أمحضت هذه الفقرة لمناقشة فكرة النماذج الرياضية المستخدمة في التشخيص الأسلوبى mathematical models وأنواعها ، وكيفيات استخدامها في فحص الأساليب .

يقصد بالنموذج الرياضى الصياغة التجريدية للعلاقة القائمة بين المتغيرات الأسلوبية على النحو الذى تشكل به خاصية أسلوبية مائزة . بذلك يكون النموذج الرياضى صياغة للمقياس الأسلوبى في شكل معادلة رياضية تلخص العلاقة بين المتغيرات الأسلوبية في المقياس . وينشأ مما سبق توقع اختلاف النماذج الرياضية الأسلوبية بحسب حظها من التجريد أو البساطة ، فأبسط النماذج هو ما كان خاصا بالكشف عن خاصية أسلوبية واحدة . أما حين يضبط النموذج العلاقة بين أكثر من خاصية أسلوبية فمن المتوقع أن تكون المعادلة أشد تركيبا حتى إذا افترضنا وحدة المقام . أما إذا اختلفت مواصفات المقام ، واختلفت ، تبعا لذلك ، عدد الخصائص المفحوصة وعلاقتها بعضها ببعض من جهة ، وعلاقتها بالمقام من جهة أخرى ، فحينئذ يكون على النموذج ان يخطو في سلم التركيب درجة أعلى من سابقه .

وتتنوع النماذج الرياضية المستخدمة في فحص الأسلوب باعتبار آخر ، ونعني به تعدد فروع الرياضيات نفسها . وقد حددها هـ . ب . ادموندسون H . P. Edmundson فسلكتها في نوعين رئيسيين هما : النماذج الحتمية-deterministic models ، والنماذج الاختيارية stochastic models . وتشمل النماذج الحتمية بحسب تصنيف ادموندسون : (٥٢)

(١) النماذج الهندسية geometric models وتمثلها بحوث هيردان Herdan (٥٣).

(٢) النماذج التحليلية analytic models وتمثلها بحوث زيف Zipf (٥٤)

(٣) النماذج المنطقية Logical models ومن دعاها لويس ميليك Louis Milic (٥٥).

(٤) النماذج الجبرية algebraic models ومنها دراسات هايس Hayes (٥٦)

أما النماذج الاختيارية فتشمل :

(١) النماذج الاحتمالية probabilistic models

(٢) النماذج الإحصائية Statistic Models

وعمل هذين الاتجاهين أودن يول O . Yule ولويوموار دوليجيل L . Dolezel .

ويرى د . د . تالنتير D.R. Tallentire أنه لا بأس باعتبار هذا التصنيف أساساً للنظر . بيد أنه أورد عليه ملحظين :

أولها : (أن هذه الأنواع ليست منقطعة الصلة بعضها ببعض كما يوحي بذلك الرسم التوضيحي الذي قدمه ادموندسون ، فالمنطق والتحليل أساسيان لنماذج الاحتمالات والنماذج الإحصائية ، كما أن هذين النوعين يعتبران فرعاً واحداً من فروع الرياضيات) .

(٥٢)

D. R. Tallentire, "Mathematical Modelling in Stylistics, its extent and General Limitations", in : Computer in Literary and Linguistic Research, ed. R. A. Wisbey, Univ. of Cambridge, 1971, P. 118.

(٥٣) ينتمي المنظور الذي يقترحه هيردان إلى الهندسة الإسقاطية Projective Geometry وهي فرع من فروع الهندسة التي جاءت لتخرج الهندسة الإقليدية من المجال الذي حصرت نفسها فيه ، وهو دراسة السطوح المستوية ، ودراسة الأشياء في أبعادها الثلاثة الصارمة : الطول والعرض والارتفاع ، وهي ما يعرف بهندسة المجسمات . ويرى هيردان أن الثنائية الهندسية المتمثلة في (النقطة) و (الخط) يمكن ربطها على الترتيب بثنائية (النمط) و (المقروء) Type-Token في دراسة اللغة . أما تالنتير فيرى أن النموذج التقني يبدو أقل النماذج الرياضية اتصالاً بالأسلوبيات . انظر : D. R. Tallentire, Op. Cit. PP. 120-121.

(٥٤) عن جهود زيف في اللسانيات الرياضية انظر : (مرجع سبق ذكره الحاشية ٢٤) .

Milka Ivic, Op. Cit. PP. 217-218.

(٥٥) يتحقق النموذج المنطقي - كما يتصوره لويس ميليك بإجراء عملية اختصار افتراضي للجملة يتوصل به الباحث إلى أبسط صيغة تكون عارية من كل ما يمكن أن يمد حلية أسلوبية . ثم نحري مقارنة هذه الصورة المبسطة بالجميل الواردة معاً في النص . وبذا تكون الصورة المبسطة بنية الافتراضية أعيدت صياغتها صياغة منطقية وتسمى بالجملة - النواة Kernel Sentence أو جملة ما قبل الأسلوب Pre-Stylized وانظر لمزيد من التفصيل :

سمد مصلوح : (الأسلوب ...) ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٥٦) من أوضح الدراسات دلالة على اتجاه هايس دراساته للأساليب الشعرية عند جيرون ومنحوي (انظر سنية رقم ٤٣) .

والملاحظ الثاني فحواه أن كل فرع من الفروع الستة يمد الدراسات الأسلوبية بنموذج محدد . وهذا لا ينفى إمكان استخدام توليفات من هذه النماذج الأساسية في دراسة المشكلة الواحدة . وقد أُنجزت دراسات ناجحة باستخدام مزيج من هذه النماذج (٥٧) .

وتتفاوت النماذج الحتمية بأنواعها المختلفة : الهندسية والتحليلية والمنطقية والجبرية في قدرتها على استيعاب العلاقات في التشخيص الأسلوبي ، فأقلها عطاء وشيوعا النموذجان الهندسي والتحليلي ، ولا كذلك المنطقي والجبري ، فهما - بهذا الترتيب - أكثرها شيوعا . ويستفاد مما سبق أمور :

أولها : أن مفهوم النموذج الرياضي في التشخيص الأسلوبي أعم من مفهوم النموذج الإحصائي الاحتمالي ، أو أن التشخيص الإحصائي الاحتمالي هو واحد من عدة نماذج رياضية ممكنة التطبيق في مجال التشخيص الأسلوبي . (ويلحظ هنا أننا اعتبرنا النموذجين الإحصائي والاحتمالي بحسب تصنيف آدموندسون نموذجاً واحداً) .

ثانيها : أن موضوع هذا البحث يوجب علينا أن نصرف اهتمامنا الأصيل إلى معالجة النموذج الرياضي الاختياري . أما النماذج الرياضية الحتمية فمجالها هو دراسة التشخيص الأسلوبي بإطلاق ، وليس خصوص التشخيص الأسلوبي الإحصائي .

ثالثها : أن الملاحظ السابق - وإن كان صحيحاً بوجه عام - يرد عليه استثناء في ما يتصل بالنموذج الجبري ، لأسباب : منها قدرته على حصر التنوعات اللغوية التي تشكل قائمة الاختيار ، أو تحدد مجال الاحتمالات التي يمكن تصنيفها إلى : (تعبير - نمط) و (تنوعات انحراف) . كما أن صلة نحوية بين النموذج الجبري والأنحاء الجبرية ، ولا سيما النحو التوليدي التحويلي . وسنرى حين نعرض لمشروع دوليجيل في التشخيص الأسلوبي الإحصائي احتفاءه الشديد بمقولات النحو التحويلي ، وإيمانه بقدرتها على تزويد النظرية الأسلوبية الإحصائية بما يمكنها من أداء مهمتها على الوجه المأمول . لذلك كان من المفيد - فيما نرى - أن نعرض بشيء من التفصيل للنموذج الرياضي الجبري من بين النماذج الحتمية ويتفصيل أشد للنموذج الإحصائي الاحتمالي إذ هو المقصود بالأصالة .

أولا النموذج الجبري .

الأنحاء الجبرية - ومن بينها الطراز التوليدي التحويلي - وثيقة الصلة بالرياضيات من جهة ، وبالمنطق من جهة أخرى ، إذ إن قوامه هو استخدام نماذج شكلية (أوصورية) في اللسانيات النظرية وفي الوصف التحليلي لتراكيب اللغة . وعلى الرغم من أن استخدام الصياغة الشكلية ينحى غالباً قضية التنوعات الراجعة إلى تمييز الأفراد واختلاف المقامات - فقد أثبت النحو التوليدي قدرة على استيعاب التنوعات من خلال استخدامه لمقولات التوليد والتحويل . وترجع أهميته في هذا المجال إلى اهتمامه بالمستوى التركيبي (أى مستوى النظم) Syntactic level ، وهو مستوى يحظى بعناية الأسلوبيين الذين يقدمون الاشارات التركيبية على الخيارات المعجمية في تشخيص الأساليب . وقد وجد هؤلاء

ولقد دفعت الحاجة الى تطوير قواعد التحويل للمدرس الأسلوبى بعض العلماء مثل وليام لايوف W. labov الى القول بوجود التمييز بين نوعين من القواعد ، أولها القواعد الملزمة (أو مانوثر تسميته قواعد الوجوب Categorical rules) والقواعد الاختيارية (ونسُميها قواعد الجواز Variable rules) ورأى أن الحاجة ماسة الى نوع من التحليل النحوى تعمل فيه القواعد في نسبة مئوية معينة من الحالات وتتخلف عن العمل في الحالات الباقية . ويلاحظ اينكيفست Enkvist أن اقتراح لايوف قد أطلع الباحثين على مثال للكيفية التى يمكن بها تزويد النحو التحويلي بقواعد تقيس الاحتمالات قياسا كميا . وهاهنا تلخيص للمعادلة الرياضية الاحصائية التى اقترحها لايوف .

$$X \xrightarrow{\text{nature of } \pi} Y/A-B$$

وتتدرج قيمة K_0 في قواعد التنوع بين الصفر والواحد الصحيح . أما في القواعد الوجوبية فليس لها إلا قيمة ثابتة هي الواحد الصحيح . وتأخذ قاعدة التنوع الاحتمالي شكل المعادلة الآتية :

$$\phi = 1 - \tau$$

$$(K_0 - \alpha K_1 - \beta^2 \dots \gamma K_r)$$

أما الرمزان $x-v$ فيمثلان أوزان هذه العوامل .

وقد صممت المعادلة بحيث إذا اشتملت بعض فقرات الجمل المدروسة على أحد الثوابت الموجبة أدى ذلك إلى نقص قيمة K_0 . وهكذا يتسع مجال تطبيق القاعدة بتناقض قيود تطبيقها وزيادة قيمة cp .

وحين نعطي الثوابت المختلفة قيما تتحدد في ضوء اختبار المادة ودراساتها ينبغي ترتيب الثوابت في تسلسل هرمي . ويقوم معيار الترتيب على أساس البدء بالقيود (أي العامل الثابت) الذي يحوز الوزن الأكبر ، ثم الذي يليه وهكذا .

وبخلاصة القول أن استخدام النماذج الجبرية التي نمذنا بها قواعد التحويل يمكن أن تتم بطريقتين مختلفتين بسهولة وتركيبا ، في الأولى يجري إحصاء تكرارات استخدام المنشئ لقاعدة معينة أو المجموعة من القواعد . ومن المتوقع أن يتفاوت المنشئون في إثمارهم قواعد معينة على غيرها ، مما يشكل سمة أسلوبية نحوية يمكن اعتمادها في المقاربة الأسلوبية . أما الطريقة الثانية فهو مركبة نسبيا ، إذ تقوم على تزويد النحوي نفسه بنوع من قواعد التنوع يختلف عن قواعد الوجوب والجواز في النحو التحويلي التقليدي .

ثانيا : النموذج الإحصائي الاحتمالي .

هذا النوع من النماذج الرياضية هو أقدرها فيما نرى على تقديم النموذج الموفق الذي يمكن الباحث من التعبير الصوري عن تميز الأساليب باعتباريات مختلفة . وتكاد ترقى هذه المقولة إلى أن تكون موضع اتفاق بين أكثر الدارسين لظاهرة الأسلوب ، إذ هو أكثرها انسجاما مع طبيعة هذه الظاهرة . ولعل في ماسلف من حديث عن الأساس النظري للإحصاء الأسلوب ومفاهيم الأسلوب ما يعزز صحة هذا الرأي ويثبت صوابه .

وحين تذكر النماذج الإحصائية الاحتمالية في الدرس الأسلوب تبرز جهود عالين من أعلام هذا الاتجاه هما أودى يول ولوبوموار دوليجيل . وقد صاغ أولهما واحدا من أهم المقاييس وأكثرها حساسية في مجال تمييز البصمة الأسلوبية ، وهو ما أصبح يعرف بخاصية يول Yule's Characteristic (٥٨) . أما ثاني الرجلين فكان من بين جهوده دراسة مفصلة أرادها أن تكون (إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوب) A Framework of Statistical Analysis of Style ، وقد توافرت لهذه الدراسة ميزة الدقة والشمول على نحو يجعل منها مشروعا بحثيا يمكن . في حالة استيعابه . أن يكون منطلقا للبحث في كافة مجالات الإحصاء الأسلوب ، ولناقشة ما يثيره من قضايا ومشكلات . وفي مايلي عرض لمشروع دوليجيل حاولنا أن نستوفي فيه الدقة والتبسيط في آن معا .

(٥٨) تلك الخاصية التي استخدمها كاتب هذا البحث في دراسته للشذوئيات المجهولة (انظر حاشية ٤٠) . وتوجد مناقشة مفصلة لخاصية يول في مقال بافال باشاشك

(بالروسية) ، واستخدامها في تحقيق نسبة نص من نصوص القرن التاسع عشر .

Paval Vasak : "Metodi ustanovleniya Spornogo avtorstva" (Methods of Determination of Disputed Authorship), in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, No. 3, 1972, PP. 143-161.

٢ - ٨ إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوب (مشروع دوليجيل) (٥٩)

٢ - ٨ - ١ . الأسلوب مفهوم احتمالي

تقوم النظرية الإحصائية للأسلوب - عند دوليجيل - على أساس مقولة بسيطة هي أن (الأسلوب مفهوم احتمالي) . ويمتاز المفهوم الاحتمالي بسمتين أساسيتين :

الأولى : أنه في عالم الاحتمالات لا يتوقف وقوع الظاهرة (أ) على وجود الشرط (س) ، بحيث توجد بوجوده وتعدم بانعدامه . لكن الذي يقال هو أن الظاهرة (أ) تقع في وجود الشرط (س) باحتمال معين ، أي أن وجود الشرط (س) لا يمتنع معه وقوع الظواهر (أ) (ب) أو (ج) . . الخ . ولكن تختلف درجات الاحتمال . وهذا هو الأمر القابل للقياس الإحصائي ، ويسمى بالتوزيع الاحتمالي Probability distribution .

والسمة الثانية للمفهوم الاحتمالي هي أن التوزيع الاحتمالي يصف توقع حدوث الظاهرة في مجتمع إحصائي مثالي . لكننا نستطيع - عمليا - أن نكتفى بملاحظة وقوع الظاهرة بعينات ممثلة للمجتمع الإحصائي . ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جميع العينات أن تتجانس تجانسا تاما في توزيع الظاهرة المدروسة . فالمشاهد بالتجربة أن قيم الاحتمالات تتأرجح حول قيمة معينة تأرجحا غير ذي دلالة من الناحية الإحصائية . وهنا يتجلى التوزيع الاحتمالي (الذي سبق الإشارة إليه في السمة الأولى) في شكل آخر يسمى بالتوزيع التكراري للعينات Sample frequency distelbution .

ويرى دوليجيل أن ثمة براهين قوية على أن كلتا هاتين السمتين تتجلى في الخواص الأسلوبية للنصوص . وينشأ عن تقرير الصفة الاحتمالية للظواهر الأسلوبية وجوب تحديد الصفة العامة للأسلوب على أساس من درجة الحضور (أو الغياب) لأشكال معينة من التعبير ، لأن هذه الأشكال هي نتيجة لإشارات المنشئ أكثر من كونها نتيجة عادات ثابتة . إن العادات الثابتة تؤدي إما إلى الاستعمال المطلق وإما إلى الكبت المطلق لبعض أشكال التعبير . وهذا الأمر غير وارد في الأسلوب . ولذلك كان من الأرجح أن ننظر إلى الأسلوب على أنه نتاج إثار واختيار لا أنه نتيجة عادات ثوابت . وإذن فالسمات الأسلوبية هي اتجاهات وليست عادات .

على أن القياس الإحصائي قادر على تحديد الدلالة الإحصائية لتأرجح قيم العينات حول القيمة الاحتمالية ، أي أنه قادر على التوصل إلى القرار الصحيح : إما بإهمال التأرجح واعتباره غير ذي قيمة وإما بالاعتداد به . من ثم يمكن بالقياس الإحصائي الكشف عن الاتجاهات الأسلوبية المستقرة Stylistic Stability المخفية وراء التأرجحات الظاهرة . ونستظهر مما سبق أمرين هامين :

أولهما : اعتبار الخواص الأسلوبية اتجاهات لاعادات .

(٥٩) هذا عرض لإطار العمل الذي اقترحه دوليجيل للكيفية التي تصاغ بها معادلة رياضية لتحخيص الخصائص الأسلوبية للنص في علاقتها ببعضها بعض ، وفي علاقتها بالنظام ، مع إعطاء كل خاصية وزنها الحقيقي في المعادلة انظر .

L. Dolezel, "A Framework for the Statistical Analysis of Style", in *Statistics and Stylistics*, OP. Cit, PP. 57-65.

والثاني أنها اتجاهات مستقرة تختفي وراء ما يبدو من تأرجح لقيمتها في العينات . والتسليم ههذين الأمرين - عند دوليجيل - يمكن أن يجعل من المعالجة الإحصائية نظرية أسلوبية تمتاز بالكفاءة ، وليس مجرد مظهر ثانوي من مظاهر النظرية الأسلوبية لكنه يقرر أن الطريق إلى تحقيق ذلك ما يزال طويلا ، وأن مشروعه هذا ليس إلا خطوة على الطريق .

ويبرز دوليجيل في مشروعه أهمية ثنائية الكفاءة/ الأداء في إمداد النظرية الأسلوبية بالخلفية العامة المناسبة لتفسير التنوع الأسلوبي . وهو يعد عمليات التشكيل الأسلوبي مكونا أساسيا من مكونات مقولة (الأداء) . أما مقولة (الكفاءة) فإنها تشكل خلفية ضرورية لأي نظرية أسلوبية . ومن خلال بعض الملاحظ النقدية التي يبديها على نظرية (الأداء) يمدد لنا الشروط المتوقعة في أي مخطط كامل للأداء ، فيرى أن على هذا المخطط :

(١) أن يفسر السمات البراجماتية للسلوك اللغوي .

(٢) أن يفسر الفروق الجوهرية بين النصوص .

إن على هذا المخطط - بعبارة أخرى - أن يعطى وصفا لعملية التشكيل الأسلوبي Style - Formation Process التي يتجلى فيها تأثير السمات البراجماتية من جهة ، كما أنه مسئول - من جهة أخرى - عن كشف الفروق الأسلوبية بين النصوص .

٢ - ٨ - ٢ - عملية الاختيار .

عملية الاختيار هي مكون أساسي من مكونات عملية التشكيل الأسلوبي . وهي في جوهرها ، اختيار شكل تعبيرى واحد من بين مجموعة ابدال متاحة ويكون الاختيار في أبسط حالاته بين بديلين . أما في الحالات المعقدة فيكون الاختيار بين عدد كبير من الأبدال .

ويحكم عملية الاختيار عوامل براجماتية يمكن تصنيفها إلى نوعين :

(١) عامل ذاتي : subjective ويشمل الإشارات اللغوية للمتكلم ، وطابع تفكيره ، ومهاراته الأسلوبية .

(٢) عامل موضوعي : Objective ويشكله المقام Context (بأوسع مفهومات هذا المصطلح) . وهذا العامل مستقل عن المتكلم ، وإن كان يمارس تأثيره من خلاله . ويشمل العوامل المتعلقة بالاتصال اللغوي . مثل شكل اللغة : منطوقة أو مكتوبة ، وشكل الخطاب : فردى أم حوارى ، وجنس القول . . إلى غير ذلك من العوامل وكلا هذين النوعين من العوامل البراجماتية جاضرا أثناء إنتاج النص . ويمكن - نظريا - استنباط ثلاثة احتمالات للعلاقة بين العوامل الذاتية والموضوعية في تشكيل الأسلوب .

الاحتمال الأول : قد يخضع الاختيار عند المنشئ لإثارته الخاصة ، وينحى تماما اثر المقام (العامل الموضوعي) . ويمكن التمثيل لهذا النمط بشاعر تسيطر خواصه الأسلوبية المميزة على جميع قصائده في جميع

الموضوعات . ويعنى هذا هيمنة العامل الدائى عنده وتنحية العامل الموضوعى . ويسمى هذا النمط من المنشئين :
(المنشئ المتحرر من المقام) Context - Free Speaker .

الاحتمال الثانى : أن يكتب المنشئ إثاراته الفردية كتبنا تاما ، ويخضع تمام الخوض لما يمليه المقام . ويمكن التمثيل لذلك بكتابات الأجهزة الإدارية وكتاب الدواوين ، حيث يسود العامل الموضوعى وينحى العامل الدائى تنحية تامة . ويسمى مثل هذا (المنشئ الخاضع للمقام) Context - Bound Speaker

الاحتمال الثالث : أن يضبط المنشئ اختياراته تبعاً لما يتطلبه المقام . وهو العامل الموضوعى الذى يتجاوز الفرد Supra U indivduai context ولكنه يحتفظ فى الوقت نفسه بتفرده . وخصوصيته التى تميزه عن غيره من المنشئين ومثل هذا المنشئ يسمى المنشئ الحساس للمقام context u Sensitive Speaker إذ هو يخضع اختياراته ... الخ

والنمط الثالث هو أكثر الأنماط شيوعاً ، ومثاله المنشئ الذى يحتفظ بخصوصياته الأسلوبية ، وهو - مع ذلك - ينوع ما بين أسلوبه منطوقاً ومكتوباً . والملاحظ أن المنشئ الواحد لا يلزم نمطاً واحداً من الأنماط الثلاثة بل قد يراوح فى أسلوبه بينها جميعاً ويمكن القول بأن هذا النوع من الأسلوب هو حسيطة تدافع قوتين : العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية . وهما تعملان فى اتجاهين متضادين ، وتحاولان السيطرة على المسافة الاتصالية فى لغات البشر .

٢ - ٨ - ٣ . البنية الإحصائية للنص

تحدد البنية الإحصائية للنص بمجموع الخواص الذى ثبت له بالقياس . ويمكن أن تصاغ المعادلة العامة للبنية الإحصائية للنص كما يلى .

$$\left\{ \begin{array}{l} \text{ص} = \text{نص} , \text{خ} = \text{خاصية} , \dots \end{array} \right.$$

حيث ص = نص ، خ = خاصية ، (...) وتشير الى جميع خواص النص التى تم فحصها . ويطلق على هذه المعادلة :

المعادلة المبدئية للنص Elementary - Text Formula وهى معادلة معينة نظراً لما نتوقعه من عدم تماثل القياسات الإحصائية للخواص المختلفة ، وهو ما يجعل من جمعها فى معادلة واحدة مشكلة إحصائية تتطلب حلاً . ونحن ندخل فى الاعتبار التصنيف المقامى القائم على أساس ما هو موجود من العوامل البراجماتية المؤثرة فى إنتاج النص يتحصل لنا أن مجموع نصوص لغة ما (ويرمز لها بالرمز : ص (ل) ، حيث ل = لغة ، ص = نص) يمكن تصنيفها باعتبارين :

١ . الأول : أن تصنف تبعاً للعوامل الذاتية . وينتج لنا هذا التصنيف ص (ل) .

حيث ص = نص ، و (ل) = منشئ أو متكلم بعينه مع تنوع المقامات . ويصبح مدلول ص (ل) هو مجموعة النصوص التى ينتجها منشئ بعينه بقطع النظر عن اختلاف المقامات .

الاعتبار الثالث : أن تصنف تبعاً للعوامل الموضوعية . ويتتج لنا هذا التصنيف ص (ق) ، حيث (ق) = مقام بعينه . ويصبح مدلول الرمز ص (ق) هو مجموعة النصوص التي تنتج في مقام معين بقطع النظر عن اختلاف المنشئين .

ولما كانت الجهة منفكة بين التصنيفين فإنه يحصل لنا باجتماعها ص (لك ق) ، أي مجموعة النصوص التي ينتجها منشئ معين في مقام معين . ومن الطبيعي أن نتوقع خلوص بعض المجموعات من هذا النوع ، ضرورة أن المنشئ المعين لا يتوقع منه أن يكتب في جميع المقامات .

وقد نتساءل : كيف يحدد الباحث العوامل الذاتية والموضوعية التي يتم على أساسها تصنيف مجموع نصوص اللغة : ص (ل) . والجواب أن هذه العوامل يمكن تحديدها امبريقياً ، فالتصنيف البراجماتي هو إطار تجريبي امبريقي للتحليل الإحصائي يمكن تحديده دون أن نعرف شيئاً عن البنية الإحصائية للنصوص . وتحول النصوص بعد تحديدها على هذا الأساس البراجماتي إلى مجتمعات إحصائية . وبذلك يمكن استخدامها لتحديد الخصائص الإحصائية للنصوص .

ولقد سبق لنا الحديث عن المعادلة المبدئية للنص ، ووصفناها بأنها معنية مع بيان لحثيات هذا الحكم . ومن ثم لم يكن بد من تهذيب هذه المعادلة . وأول مراحل هذا التهذيب أن نحذف منها بعض الخصائص التي تعوق عملية التشخيص الإحصائي للنص . ولدينا - عادة - نوعان من هذه الخصائص :

الأول : خصائص مافوق الأسلوب Supra - Stylistic Features

ويقصد بها بعض الخصائص التي تتجاوز الخيار الأسلوبي ، وتفرض نفسها على جميع المنشئين فلا تنقاد للتشكيل الأسلوبي . وليس لهذا النوع من الخصائص اللغوية ما يؤهله ليشكل سمات ماثرة بين الأساليب . وسنرمز له بالرمز (خ - ل) ، حيث خ = خاصة ول = لغة .

ومثل هذه الخصائص - وإن لم تكن مادة للتشكيل الأسلوبي - هي خلفية ضرورية لإدراك الفروق الأسلوبية بين النصوص . وإلى هذا النوع تعزى الفونيمات والجرافيمات (أي وحدات نظام الهجاء) .

والثاني : خصائص ما دون الأسلوب Sub - Stylistic Features

ويندرج تحت هذا المفهوم خصائص يثبت من فحص ص (لك ق) أنها تتسم بعدم الثبات non-stationary ، أو أنها تتأرجح تأرجحاً ذا دلالة إحصائية . وتمثل هذه الخصائص تحديداً حقيقياً للنظرية الإحصائية في دراسة الأسلوب . ولا مفر أمام الباحث من عزل هذا النوع واستبعاده ، لكي تستقيم البنية الإحصائية للنص .

وحين يتم عزل هذين النوعين من الخصائص غير الأسلوبية يصبح من الممكن إجراء أولى خطوات تهذيب المعادلة المبدئية للنص ، حيث نحصل لنا : المعادلة المبدئية لأسلوب النص elementary text - Style formula . ولا يسمح

بدخول المعادلة إلا للمتغيرات الأسلوبية التي يثبت بالفحص الإحصائي أنها سمات أسلوبية . وصيغة هذه المعادلة هي :

ص = (خ_١، خ_٢، خ_٣، ...، خ_ن) . حيث خ_س = خاصية أسلوبية ، أما ١ ، ٢ ، ... ، ن فهي مجموع الخواص الأسلوبية بما فيها الخواص التي ترتبط بخواص سبق ورودها ارتباطا على وجه اللزوم .

وتنتج الخطوة التالية في تهذيب المعادلة إلى استبعاد الخواص التابعة ، أي المتضمنة في خواص أخرى على وجه التلازم ، واستبقاء الخواص الأسلوبية الأساسية والمستقلة دون غيرها . وتنتج هذه الخطوة : المعادلة المخفضة لأسلوب النص reduced text - style Formula ، وهي :

ص = (خ_١، خ_٢، ...، خ_ن) ، حيث تساوى خ_ي في هذه المعادلة خاصية أسلوبية مستقلة (وحيث يكون عدد الخواص المستقلة ن أصغر من مجموع الخواص المستقلة والتابعة) .

٢ - ٨ - ٤ . مادة الفحص والفروض

على الباحث أن يجري فحصه الإحصائي على فئات النصوص من النوع ص (ك ق) ، أي نصوص منشئ معين في مقام محدد . ويرمز إلى المجموع الكلي للنصوص ص (ك ق) بالرمز ص (ق) ، ويعني مجموع فئات النصوص في مقام محدد بقطع النظر عن اختلاف المنشئين . وتشكل ص (ق) المدونة الأساسية للمادة التي تخضع للفحص بهدف تحديد البنية الإحصائية للنصوص . وثمة احتمالان متعارضان يمكن أن يؤدي إلى أحدهما فحص التجانس في (خ_ي) (أي الخواص الأسلوبية المستقلة) . ولكل منهما تفسيره :

أولهما : أن تتأرجح قيم (خ_ي) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق) من المدونة ص (ق) تأرجحا ذا دلالة إحصائية . وحيث يمكن اعتبارها خواص مستقرة في نصوص منشئ بعينه بحيث تميزه تميزا واضحا عن غيره من المنشئين ، أي أنها خاصة أسلوبية ذاتية . وسنرمز لهذه الخواص بالرمز (ش - خ_ي) حيث ش = شخصية .

ثانيهما : أن تتأرجح قيم (خ_ي) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق) من المدونة ص (ق) تأرجحا غير ذي دلالة إحصائية ، أي أن (خ_ي) تبدو متجانسة في جميع المدونة . وحيث ينبغي أن تعزى (خ_ي) إلى الخواص الأسلوبية الموضوعية objective stylistic characteristics لأنها خواص تتجاوز الفرد - supra-individual وسيكون رمزها (ض - خ_ي) ، حيث ض = موضوعية :

على أن ثمة احتمالا ثالثا هو أن تتجانس (خ_ي) في أسلوب بعض المنشئين دون بعض ، مع افتراض وحدة المقام (ق) . ويفسر دوليجيل هذا الاحتمال بأنه تشابه في أسلوب الأفراد أكثر من كونه خواص أسلوبية موضوعية .

ونعود إلى فحص الخواص الأسلوبية الذاتية (ش - خ_ي) من جديد لكي نحدد ما كان منها ذاتيا خالصا ، وما كان ذاتيا موضوعيا (ش - ض - خ_ي) ، وذلك بتعريضها للاختبارين التاليين :

الثالث : يحسب الباحث متوسط قيمة (ش - خ) في المدونتين ص (ق) و ص (ق) ثم يرى هل تختلف القيمتان اختلافًا دالًا ؟ وإذا كان الجواب عن السؤالين السابقين بالإيجاب فإن الخواص الذاتية المميزة لا تكون ذاتية خالصة ، بل هي خواص ذاتية موضوعية (ش ص - خ) في آن معا . فهي ذاتية باعتبار تأرجح قيمها الدال خلال المدونة ، مما يعنى ثباتها لدى المنشئ الواحد واختلافها عند سائر المنشئين . وهي موضوعية بحكم اختلاف مسافة تأرجح قيمها أو اختلاف متوسط قيمة التأرجح باختلاف المقام . أما الخواص التي لا تلبى متطلبات الاختيارين السابقين فتكون ذاتية خالصة (ش - خ) . وهكذا يتحصل لنا عما سبق ثلاثة أنواع من الخواص الأسلوبية هي :

- (٣) خواص أسلوبية موضوعية خالصة (ض - خ)

ومن هذه الأنواع تشكل الصورة الأخيرة لمعادلة التشخيص الإحصائي للأسلوب ، ونعني بها :

المعادلة المحددة لأسلوب النص Specified text - Style Formula

وتتخذ الصيغة الآتية :

ص = (ش - خ) ، ش - خ ... ش - خ ، ش - خ ... ش - خ ، ش - خ ... ش - خ ، ش - خ ، ص - خ ، ص -
 ۱ ۲ ۳+ک ۴ ۵+م

خ ... ص - خ)
 ۶+ن ۷

وتعني هذه المعادلة ببساطة أن الخواص المحددة لأسلوب النص (ص) تساوي مجموع الخواص الأسلوبية المستقلة (لا التابعة) بأنواعها الثلاثة : الذاتي (ش-خ... ش-خ) والذاتي الموضوعي (ش-ض... ش-ض... ش-ض-م)، والموضوعي (ض-خ... ض-ض-خ).

وتتميز المعادلة المحددة لأسلوب النص بأنها تمثل النص تمثيلا شكليا باستخدام منظومات من مكوناته المستقلة المتنوعة . كما أنها تعبر عن الدرجة التي تسهم بها المكونات الذاتية والموضوعية في تشكيل النص ، وما يتمتع بها كل منها من وزن خاص . كذلك تظهر لنا هذه المعادلة أسلوب النص في هيئة بنية إحصائية مركبة . وهكذا يمكن تشخيص أسلوب النص إحصائيا بتجزئته الى عدد محدد من المكونات الأسلوبية الموصفة القابلة للقياس الدقيق . وعمل هذا

الإنجاز في رأى دوليجيل أهم إسهام يقدمه المفهوم الإحصائي لنظرية الأسلوب . وجدير بالذكر أن صفة الذاتية والموضوعية في المعادلة لاتحدد الخواص اللغوية ، بل العوامل البراجماتية المتحركة في توليدها .

٢ - ٨ - ٥ . خلاصة

يخلص لنا مما سبق :

أولا : أن التوصل الى المعادلة القادرة على تشخيص البنية الإحصائية لأسلوب النص قد مر بالمراحل الآتية :

- (١) المعادلة المبدئية للنص .
- (٢) المعادلة المبدئية لأسلوب النص .
- (٣) المعادلة المختصرة لأسلوب النص .
- (٤) المعادلة المحددة لأسلوب النص .

ثانيا : أن المعادلة المحددة لأسلوب النص تتنوع بحسب العوامل الذاتية والموضوعية التي تحكم الاختيار من البدائل .

ثالثا : أن الاختيار من بين مجموعة الابدال المتاحة إذا كان محكوما بالعوامل الذاتية الخالصة كانت صيغة المعادلة هي :

$$\text{ص} = (\text{ش} - \text{خ}_1 , \text{ش} - \text{خ}_2 , \dots , \text{ش} - \text{خ}_n)$$

رابعا : إذا كان الاختيار محكوما بالعوامل الموضوعية الخالصة فإن المعادلة تكون كما يلي :

$$\text{ص} = (\text{ض} - \text{خ}_1 , \text{ض} - \text{خ}_2 , \dots , \text{ض} - \text{خ}_n)$$

خامسا : إذا كان الاختيار محكوما بعوامل ذاتية موضوعية كانت صيغة المعادلة :

$$\text{ص} = (\text{ش} - \text{ض} - \text{خ}_1 , \text{ش} - \text{ض} - \text{خ}_2 , \dots , \text{ش} - \text{ض} - \text{خ}_n)$$

سادسا : أن الحالات الثلاثة السابقة تفترض وجود نصوص متجانسة فحواها أن الخواص الأسلوبية المتطابقة لغويا قد فهو أن تتألف النصوص من الأنواع الثلاثة السابقة وتعتبر عن ذلك المعادلة المركبة التي سبق إيرادها .

سابعا : ينهنا دوليجيل - في ختام مشروعه - الى مشكلة هامة فحواها أن الخواص الأسلوبية المتطابقة لغويا قد تختلف طبيعتها الإحصائية باختلاف النصوص أو باختلاف أنواع النصوص ، فقد يكون طول الجملة خاصة ذاتية في نص ، وموضوعية في نص آخر ، وذاتية موضوعية في نص ثالث . وينشأ عن ذلك اختلاف وظيفة الخاصية في عملية التشخيص . لأنها في النص الأول صالحة لأن تكون مميزا لأسلوب المنشاء الفرد ، وفي الثاني لا تصلح ألينة لهذه الوظيفة . أما حين تكون الخاصية ذاتية - موضوعية فإن صلاحيتها لتمييز فردية الأسلوب تكون مقيدة بمنطقة معينة ، أي أنها لا تكون مميزا إلا في حدود مقام واحد ثابت . وهذه المشكلة - عند دوليجيل - من أكبر المشكلات التي تواجه النظرية الإحصائية في التحليل الأسلوبى صعوبة وخطرا ، ولم تلق حتى الآن ماهى جديرة به من اهتمام .

ثامنا : قد يتخذ من هذا التعارض المثير للذهشة في التفسيرات المتنوعة للخواص الأسلوبية دليل على وجود نقص في النظرية . غير أن النقص في النظرية ليس هو وحده المسئول عما يشيع في نتائج الأساليب الإحصائية من مظاهر التردد والتناقض . ذلك أن التفسيرات ذات طابع افتراضي ظاهر . كما أن الحساب الدقيق لهذه المادة صعب بسبب العلاقة المعقدة بين (النص - العينة) و (النص - المجتمع) .

يضاف الى ذلك أن وضع حدود مرضية للمجتمع الإحصائي للنص (أو المجتمعات) هو مهمة معقدة ، لأن المجتمعات الإحصائية هي بالنسبة لدراسة النصوص مجموعات مقترحة ، أي لا يمكن وقوعها تحت حصر .
وأخيرا : يقرر دوليجيل أن الأمل معقود على استخدام الحاسوب للتوسع في معالجة مجموعات كبيرة ومتكاملة - وبها يتمكن من الاختبار العلمي للفروض الأساسية في نظرية الأساليب الإحصائية . ولا بد من تضافر الجهود في هذا الاتجاه ليكتسب هذا الدرس صفة المنهج العلمي الحديث عن جدارة .

٣ - مبحث الوظيفة

٣ - ١ . المقياس الأسلوب الإحصائي

نحاول بهذا المبحث الثالث أن نستوفي أنحاء التقسيم المقترح لهذه الدراسة ببيان للكيفيات والمجالات التي يمكن بها وفيها توظيف الإحصاء في دراسة الظاهرة الأسلوبية . ونحسب أن أول ما ينبغي البدء به هنا هو بيان مفهوم المقياس الأسلوب الإحصائي ، واستخداماته ، ومجالات تطبيقه .
المقياس الأسلوب الإحصائي هو : (صيغة شكلية تؤسس علاقة بين المتغيرات أو الخصائص وما يمتاز به النص من غيره من النصوص ، أو ما يستدعيه من أحكام ونعوت) .

٣ - ٢ . مجالات تطبيقه .

وينشأ عما سبق وجود وجهين لاستخدام المقياس الأسلوب :

أولها : تأسيس علاقة بين المتغيرات الأسلوبية بهدف الكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة ، (وهو الهدف الوصفي)

ثانيها : تأسيس علاقة بين الخصائص الأسلوبية المائزة بهدف الكشف عن نعوت الأسلوب . (وهو الهدف التقويمي) ، كلا الهدفين واقع في مجال التشخيص الأسلوب ، إلا أن أولها ينصرف الى تشخيص الأساليب ، وثانيها ينصرف الى تشخيص نعوت الأساليب .

ويشكل كلا هذين الاستخدامين بابا واسعا يدلف منه الباحثون الى ميدان عريض ، ويستشرفون فيها آفاقا رحبة للبحث الأسلوب . وتتسع مجالات التطبيق والإفادة من المقاييس الأسلوبية الإحصائية لتشمل :

(١) في اللسانيات الاجتماعية : Sociolinguistics : قضايا الاستعمال الاجتماعي للغة ، والسجل اللغوي register ، وتحليل الخطاب discourse Analysis ، ومقاييم اللغة Pragmatics of language

(٢) وفي اللسانيات التاريخية : historical linguistics : قضايا تمايز الأساليب باعتبار العصر ، والتغير التاريخي للأساليب dynamic Stylistics وفحص الوثائق التاريخية اللغوية .

(٣) وفي اللسانيات النفسانية قضايا اللغة والفكر ، واللغة والشخصية ، والعقلانية والانفعالية ، ومبحث الإبداع .

(٤) وفي اللسانيات الأدبية : قضايا تمايز أساليب الأفراد ، والكشف عن المؤلف المجهول ، وتصحيح نسبة النصوص ، وتحقيق قضايا الانتحال والوضع والتقليد ، وتمييز نعوت الأساليب ، وتشخيص العلاقة بين المنشئ وشخصياته الروائية أو المسرحية ، وأنماط اللغة الأدبية ، والترتيب التاريخي لأعمال المنشئين ، ومبحث الأنواع الأدبية ، وجماليات التشكيل اللغوي للنص الأدبي .

(٥) وفي الدراسات التربوية : قضايا المعجم الأساسي ، والثروة اللفظية ، وقابلية النصوص للقراءة readability ، والتشويق والإثارة في تشكيل لغة النصوص التعليمية .

هذا الى مجالات أخرى كثيرة في علم الاجتماع ، وعلم الثقافات ، وعلم المعلومات ، والسمياتيات ، وعلوم الإعلام نوردها لا على وجه الحصر وإنما لنشير بها الى ما ينتظر الأسلوبيات الإحصائية من مهمات جسام في جميع ميادين الدراسات الإنسانية على تنوعها ورحابتها .

٣-٢ . أنماط المقاييس الأسلوبية .

تتعدد أنماط المقاييس الأسلوبية بحسب المبدأ الذي تستند إليه . ومن الأهمية بمكان أن تحدد هذه الأنماط ، فذلك أنسب المداخل لمناقشة قضية كثر حولها الجدل واختلطت فيها الأوراق ، ونعني بها مبدأ شمولية المقياس الأسلوبى ، ومدى شرعية افتراض المقاييس وتجاوزها حدود اللغة التى استنبطت فيها الى غيرها من لغات البشر . وسنعود الى ذلك في مايلي من حديث .

ويمكن أن نستظهر مبادئ أربعة تقوم على أساسها الاستدلال بالمقاييس الأسلوبية الإحصائية .

(١) مبدأ رياضى : وإليه تنتمى المقاييس الأسلوبية التى تقوم على حساب العلاقة بين الكميات في صيغة معادلة رياضية ، ومنها حساب التباين ، والانحراف المعياري ، والارتباط ، وكاي^٢ ، والنسبة الحرجة وسائر طرق الاستدلال الإحصائي .

(٢) مبدأ لغوي : يقوم على الكشف عن الدلالة اللغوية للعلاقة بين المتغيرات الأسلوبية المقالية ، ومعناه مقاييس طول الجملة ، وأنواعها ، والمقاييس المعجمية وغير ذلك مما يقيس الشيع والتوزيع لمتغيرات المقال .

(٣) مبدأ منطقي : وهو حساب رياضى للمتغيرات الأسلوبية يستمد حجته من موافقته لبديهيات المنطق . ومن هذه المقاييس قياس تنوع المفردات Vocabulary diversification الذى استنبطه ت . م . جونستون T.M. Joneston . وقد أقامه على أساس من رد مجموع مفردات الكلمات التى يتشكل منها النص Tokens الى الأنماط الأساسية بعد حذف جميع تكراراتها Types ، ثم قياس التنوع بطرق ذات دلالات مختلفة بحساب النسبة بين المجموع الكلى للكلمات وأنماطها .

(٤) مبدأ نفساني : وأكثر المقاييس التي تقوم على مبدأ نفساني تستمد أساسها من الفروض العلمية في الدراسات النفسانية . وإلى هذا النمط ينتمي معامل بوزيمان Busemann's Coefficient لقياس درجات الانفعالية والعقلانية في الأسلوب عن طريق حساب النسبة بين الأفعال والصفات ، وقد أوحى بفكرة المقياس له ما لاحظته من دراساته في اللسانيات النفسانية للغة الأطفال ، إذ لاحظ غلبة الأفعال على الصفات فيها فيكونه من قصص ، وتغير هذه النسبة باتجاهها نحو الانخفاض بنمو الطفل ونضوج قدراته وملكانته الفكرية والإدراكية . وهكذا تشكل هذا الفرض العلمي في إطار البحوث النفسانية . وجرى اختباره فأُسفر عن إمكانات طيبة في قياس درجة الاستقرار العاطفي ، وقياس أنماط الشخصية ، وحفظها من الانفعالية والعقلانية .

ولقد كانت هذه الملاحظة العلمية منطلق بوزيمان لوضع هذا المقياس الأسلوبي ، ومنطلق من جاءوا بعده لتطويره . وأصبح ممكنا به اختبار الفوارق الأسلوبية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وبين الأسلوب العلمي والأدبي ، وبين الشعرية والنثرية ، وبين لغة الفرد ولغة الحوار ، وبين لغة الرجال ولغة النساء ، وبين لغة الصغار ولغة الكبار ، ولغة الأنواع الأدبية ، وقياس الخط الدرامي في القصة والمسرحية والرواية (٦٠) .

٣ - ٣ . مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي :

نعود هنا - في ضوء ما تقدم - لمناقشة مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي بمحاولة للإجابة عن هذا السؤال الهام : إلى أي مدى يجوز للغات أن تتقارص المقاييس الأسلوبية فيما بينها ، وأي حجية تكون للمقياس إذا جاوزنا به حدود اللغة التي استنبط فيها إلى غيرها من لغات البشر ؟ (ومن الضامن لتلك المقاييس أن تتحول إلى كليات معرفية مهما اختلفت الألسنة التي تجري عليها ؟ أفليس من الطبيعي أن نختبر الجهاز الإجرائي أولا ؟ بل أليس بديهيا أن نعمل على استنباط هذا الجهاز من صلب المدونة التي نتخذها مناطا لبحثنا التطبيقي ؟) (٦١) .

ولأن هذه التساؤلات تتردد في غير موضوع ومن غير باحث فإنها - ولاشك - مستحقة لأن تكون موضع اعتبار . وعلمنا - لدى مناقشتها - أن ننبه إلى أنها لا ترد إلا على النمط الأخير من المقاييس ، إذ إن حجية المقاييس القائمة على المبدأ الرياضي أو المنطقي ثابتة في كل لسان ، كما أن حجية المقياس القائم على مبدأ لغوي في إطار اللغة الواحدة ليست موضع خلاف . من هنا كان حظ المحاولة التي بذلت لإعمال معامل بوزيمان وتطبيقه على المادة العربية من النقد والمناقشة موفورا . وقد كان من كاتب هذه السطور رد مفصل في غير هذا المكان على ما أثير من ملاحظات وحسبنا هنا أن نقول : إن مثل هذا المقياس إذا كان قد استنبط من لغة بعينها فإن ذلك يمنحه شرعية الفرض العلمي الذي يبقى قابلا للإثبات أو النفي بحسب ما يؤدي إليه الجهد التطبيقي . وقد أثبتت الدراسات التي أجريت عليه في الألمانية والانجليزية والفرنسية

(٦٠) انظر : سعد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٥٩ - ٦٢ و ١٢٣ - ١٢٥ .

(٦١) من رسالة كريمة تلعلمها كاتب هذا البحث من الدكتور عبد السلام السدي مؤرخه في ١٠/٤/١٩٨٤م . وعلق على استخدامنا لمعامل بوزيمان في التشخيص الأسلوبي .

وقريب من ذلك ما ورد في :

صلاح فضل : علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، ص ٣٢٦ ، وانظر لنا عليه في : دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة ، ص ٧٦ - ٧٨ .

أما اللسانيون فقد مال كثير منهم إلى تزكية هذه التجربة وتأكيد أهميتها . وانظر في ذلك عرضاً بإقتداراً واقعياً للكاتب في : مازن الوعر : دراسات لسانية تطبيقية ، دمشق ، دار طلاس ، ط ١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٦٣ - ٢٠٠ وقد ضمنه المؤلف وجهة نظره في إيجابيات التجربة وسلباتها .

صدقه وقدرته على أن يكون مؤشرا كاشفا لأنواع الأساليب . ولم تكن درجة صدقه على العربية بأقل منها في غيرها من اللغات .

بيد أن الاحتراز الأساسي - في هذا المقام - إنما ينصرف إلى المتغيرات اللغوية الأسلوبية الداخلة في الكميات المقيسة ، إذ ينبغي تحديدها تحديداً قاطعاً ونافياً لكل لبس . ومن ثم كان لابد من تكييف المقاييس من هذه الوجهة لتكون صالحة للتطبيق وتحقيقاً للغاية المنشودة بها . إن هذه المتغيرات . وإن اتفقت في طبيعتها اللسانية العامة (صوتية كانت أو صرفية أو تركيبية أو دلالية) هي تصورات ذات ماصدقات مختلفة باختلاف التنظيم اللغوية المعينة ، ومن ثم نتوقع اختلاف حدود الفونيمات وأنواع المورفيمات والجمل والحقول الدلالية من لغة إلى لغة ، كما نتوقع أيضاً اختلاف التوبيع والتفصيل وإجراءات الوصف باختلاف الطرز النحوية . ومن هنا كان تحرير مفاهيمها وتحديد ماصدقاتها وعلاقاتها النظامية ضرورة منهجية لا ترخص فيها . بيد أن اختلاف هذه المفاهيم ، وخصوصية المباني والاستعمالات الأسلوبية في لغة ما لا ينفي ما للظاهرة الأسلوبية من طبيعة لسانية عامة ، وهي بذلك إحدى الجوامع اللسانية -Linguistic Universals التي لا تخلو منها لغة ، ولا تختص بها إحداها دون سائرها .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية والمعالجة الإحصائية

لعل استبصار الأفاق الرحبة التي تعد بها المعالجة الإحصائية ، بله الحاسوبية (٦٢) ، لنصوص اللغة تفضي بنا إلى ضرورة وضعها في حاقٍّ موضعها من الهموم العلمية للباحث العربي المعاصر . ولاشك أن رصد ماتم إنجازها في هذا المقام ربما كان أيسر منالا من تعداد المجالات التي تنطبع العربية إلى اقتحامها والإفادة منها . (٦٣) .

بيد أننا نشير هنا إلى عدة مجالات تمثل بالنسبة لجمهور الباحثين أحلاماً تستعصى على التحقيق إلا باستنفار الجهود وتضامر المؤسسات العلمية القادرة على التخطيط والمتابعة والإنجاز .

أولها : إنجاز وصف دقيق للعربية المعاصرة على اختلاف تنوعاتها الإقليمية ، والاجتماعية .

وثانيها : إنجاز المعجم التاريخي للعربية .

وثالثها : إنجاز الأطلس اللساني العربي .

ورابعها : الإسهام الجاد من اللسانيين في صياغة نظرية نقدية تستوفي أشراف العلمية والموضوعية في دراسة النص الأدبي بأنجناسه المختلفة .

وفي كل ما تقدم نحسب أن أعمال المعالجة الإحصائية والحاسوبية في دراسة نصوص العربية قديمها وحديثها هو أمر لا يمكن تجاهله بحال .

(٦٢) لا يفوتنا أن نوه هنا بكتاب نبيل علي : اللغة العربية والحاسوب ، (القاهرة ، دار تعريب ١٩٨٨) - وهو دراسة تحتاج إلى متابعة لسانية جادة . وقد أورد المؤلف في حتامه قائمة لرية ببحوث مقترحة في مجال اللسانيات الحاسوبية مطبقة على اللغة العربية (ص ٥٣٦ - ٥٥٠) .

(٦٣) قطع معهد الخرطوم الدولي للغة العربية (التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) شوطاً في إنجاز مشروع الدراسات الإحصائية على اللغة العربية . وكان لكاتب البحث شرف الإشراف على بعض مراحله . ولكن ضعف الإمكانيات وضخامة المشروع تقف عائقاً دون إكماله . وانظر لكاتب البحث . مؤشرات لغوية إحصائية في متون الصحافة العربية : مصر - ليبيا - السودان ، في (دراسات إحصائية استطلاعية في العربية المعاصرة) ، الخرطوم ، ١٩٨٥ ، ص ١ - ٣٣ .

مثلاً ان اللزوم المنطقي logical implication هو محور علم المعاني، كذلك الاقتضاء implicature هو من أهم المفاهيم التي يقوم عليها علم التداول Pragmatics. وبالرغم من التقارب بين هاتين العمليتين، إلا أن ثمة فوارق حاسمة دعت غرايس Grice، واضع هذا المفهوم، الى اشتقاق مصطلح جديد من المصدر «implicate» ذاته وتخصيص عملية الاستدلال التي تجري في التداول اللفظي باسم الـ implicature تمييزاً لها عن الـ implication المتعارف عليها.

في التراث العربي، أي في كتب المنطق والأصول والبلاغة، تستعمل نفس لفظة «اللزوم» أو «الاستلزام» للدلالة بتوابع عام على أية واحدة من عمليتي الاستدلال المذكورتين، دون تفرقة^(١). انما، نظراً للاختلاف الجوهرى بينهما، أخذنا بمصطلح «الاقتضاء» المستعمل في أصول الفقه بمعنى شبيه بمفهوم غرايس، للدلالة على الاستدلال التداولي، وحصرنا لفظة «اللزوم» بالاستدلال المنطقي وحده.

خلافاً للزوم، يستند الاقتضاء إلى مبادئ عامة تقع خارج تنظيم اللغة وتهدف الى الاتصال القائم على التعاون. ومع ذلك فللاقتضاء تأثير فعال على بنية اللغة ذاتها.

من أهم ميزات الاقتضاء، انه يقدم تفسيراً صريحاً لمقدرة المتكلم على ان يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة. فبالنسبة للمثل :

أ : كم الساعة ؟
ب : لقد أذن العصر .

الاقتضاء في التداول اللساني

عادل فاخوري

الأستاذ بقسم الفلسفة - جامعة الكويت

(١) هكذا يقال مثلاً «يلزم من كل غراب أسود أن بعض الغربان سود» بمعنى اللزوم أو الاستنتاج المنطقي. وكذلك يقال مثلاً «أن قولي «رايتك البارحة في المطار» هو لازم قائله قولي «كنت البارحة في المطار» ، بمعنى اللزوم التداولي.

لا يستطيع علم المعاني وحده أن يمدنا إلا بالتوضيح الآتي على الأكثر :

أ : أنا أُرغب أن تقول لي (كم الساعة ؟)

ب : لقد (أذن العصر) في وقت سابق لاستفسارك .

لكن من الظاهر، لكل من يتكلم العربية، أن المراد بهذا التخاطب يتجاوز بكثير المنطوق الحرفي . فالحوار يقصد بالتفصيل :

أ : أُرغب أن تقول لي (كم الساعة) بحسب التوقيت المحلي المتعارف عليه دولياً، في اللحظة التي أتكلم فيها معك الآن، إذا كان باستطاعتك ذلك .

ب : بالحقيقة أنا لا أعرف الوقت الدقيق الآن، لكنني أستطيع أن أفيدك بخبر يمكنك من أن تستنتج الوقت على وجه التقريب وهو (أن أذان العصر قد مضى) منذ فترة وجيزة .

ولا ريب أن هذا المقصود التفصيلي بالذات، أي الاستخبار عن الوقت الدقيق ومحاولة إفادة المعلومات على قدر المستطاع، لا يمكن الوصول إليه كلياً بواسطة علم المعاني، بل لابد من اللجوء إلى الاقتضاء التخاطبي لسد الثغرة الحاصلة بين المقول حرفياً وبين ما يتلخّص المستمع .

ومن فوائد الاقتضاء كذلك أنه قادر على إحداث تبسيط في بنية الأوصاف الدلالية semantic description ، كما في مضمون هذه الأوصاف . فإذا ما قارنا بين المثلين الآتيين .

١ - فتح سميّ قنينة البيبي وشربها دفعة واحدة .

٢ - بيروت عاصمة لبنان والقاهرة عاصمة مصر .

نجد أن معنى واو العطف في المثل الأول يغاير جزئياً معناها في المثل الثاني . فالواو في (١) تدل على التعقيب بحيث أنه من الصعب تصور عكس الترتيب الزمني، إذ قولنا :

شرب سميّ قنينة البيبي دفعة واحدة وفتحها :

يبدو غير معقول : بينما في (٢) لا تفيد الواو أكثر من مطلق الاشتراك والجمع، أي تماماً المعنى الذي يحدد جدول الصديق لرابط الوصل (٨) ، وهو صديق المركب فقط عند صديق الطرفين :

ب	ج	ب ٨ ج
ص	ص	ص
ص	ك	ص
ك	ص	ك
ك	ك	ك

وبالتالي، فإن عكس ترتيب الطرفين لا يغير شيئا في المعنى. فقولنا:

القاهرة عاصمة مصر وبيروت عاصمة لبنان

لا يختلف مع قولنا في المثل (٢). لأن تقييم (ج ٨ ب) هو مرادف لتقييم (ب ٨ ج) كما يستبان من الجدول الآتي :

ب	ج	ج ٨ ب
ص	ص	ص
ص	ك	ص
ك	ص	ك
ك	ك	ك

أمام هذه الاشكالات، لا يجد علم المعاني من حل سوى الادعاء بأن الواو يشوبها الالتباس، إذ تحتل عدة معاني مختلفة، أو الزعم أن معاني الكلمات هي بنوع عام غامضة ومضطربة تتقلب مع تغير السياق والتركيب. لكن في الحالة الأولى، يلزمه تشعب المعاني حتى بالنسبة لأبسط الكلمات. فمثلا عند اعتبار الجملتين:

العلم أبيض
العلم أبيض وأحمر وأزرق

يضطر علم المعاني لأن يضيفي كل مرة على كلمة « أبيض » معنى مختلفا فهي في الجملة الأولى تعني «كلية أبيض» وفي الثانية «جزئيا أبيض».

وفي الحالة الأخرى، أي عند الزعم أن المعاني في اللغات الطبيعية غير مستقرة، يعجز هذا العلم عن كيفية تحديد معنى الكلمة المتغير، عند كل وقوع لها.

أما مفهوم الاقتضاء فهو بلاشك يقدم الحل الأنسب، إذ يقرر ان الفاظ اللغة الطبيعية انها تنزع الى المعاني الموحدة الثابتة، لكن من طبيعة هذا الكنه الدلالي ان تتعلق به غالبا لواحق متغيرة يقتضيها السياق وفقا لقواعد معينة.

وأخيرا، من ميزات الاقتضاء، بالاضافة الى ما سبق، انه استنادا الى عدد قليل من المبادئ، قادر على تفسير كثير من الامور التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد.

المعنى غير الطبيعي

من الواضح انه عند تلفظ ما، غالبا ما نستطيع أن نستدل على توابيع مختلفة، لكن هذه التوابيع ليست واقعة، جميعا تحت المعنى المقصود لإبلاغه، أي المعنى المقصود به أن يدرك انه مقصود، وهو ما يسميه غرايس « المعنى غير الطبيعي » non-natural meaning. وحدها تلك الاستدلالات التي أطلقنا عليها اسم «المقتضيات» implicature هي

من المعاني التي يراد إبلاغها على النحو المذكور، وهي بالتالي، إلى جانب المقول what is said أو المنطوق، تشكل القسم الثاني للمعنى غير الطبيعي. لذلك كان لابد من ربط نظرية الاقتضاء بنظرية المعنى غير الطبيعي.

تتمحور نظرية الاتصال^(٦) عند غرايس H.P. Grice حول ما يخصه باسم « المعنى غير الطبيعي » أو « الدلالة غير الطبيعية »^(٧) non - natural meaning. وبالاختصار « المعنى غ ط » أو « الدلالة غ ط » meaning nn. لتحسين هذا الفهم وتمييزه مما عداه يستعرض غرايس مختلف الاستعمالات التي تتقبلها لفظة « meaning » في التداول العادي.

فالتمييز العام الذي ينطلق منه هو التفرقة بين الاستعمال الذي يحتمل القصد والاستعمال الذي لا يحتمله.

هكذا مثلاً في العبارات الآتية :

الغيوم تعني أو تدل على المطر
الاحمرار يعني أو يدل على الخجل
تقطيب الحاجبين يعني أو يدل على الاستياء

تكون الدلالة طبيعية، من حيث أن الأمور الدالة، أي الغيوم والاحمرار وتقطيب الحاجبين، لم تحدث قصداً من قبل شخص ما، للدلالة على المطر والخجل والاستياء على التوالي، بل إن دلالتها تعود لمجرد علاقة عليية بين الدال والمدلول. ومن الواضح أنه في هذا الاستعمال لا تنطوي كلمة « معنى » أو كلمة « دلالة » على القصد البتة.

بينما في أمثلة أخرى، كان يتكلف احدهم تقطيب حاجبيه ليدل على استيائه، أو يلوح بيده لالقاء التحية على صديق، أو في أثناء التخاطب المعهود، لاشك أن الدلالة مقصودة من قبل المرسل. فالتلويح مثلاً هو فعل قام به المرسل قصداً لإبلاغ صديقه التحية.

بين الدلالات التي تحتمل القصد يميز غرايس عدة أنواع تختلف ما بينها باختلاف موقف المتلقي من القصد الدلالي بالذات.

ففي بعض الحالات، كما في حال ترك احدهم بيته مضاءً عند غيابه لإيهام السارق بوجوده فيه، أو كما في حال تعمد تقطيب الحاجبين لأظهار الاستياء، لابد لقصد المرسل حتى يتحقق، أن يبقى خفياً عن المتلقي. فدراية المتلقي بقصد المرسل تضارب ولاشك مع تحقيق هذا القصد. فلكي يعني البيت المضاء للسارق أنه ليس خالياً، من الضروري أن يكون السارق جاهلاً بأن صاحب البيت أنها تركه مضاءً ليقتصد بذلك عدم خلو البيت. فإن عرف

(٦) هذه النظرية معروضة في عدة مقالات نشرها غرايس خلال فترة من الزمن تزيد على عشر سنوات. راجع :

Meaning, philosophical Review, Vol. 66. 1957

Utterer's Meaning, sentence - Meaning and Word Meaning, Foundations of Language, Vol 4, 1968.

Utterer's Meaning and intentions, philosophical Review, Vol. 78, 1969.

(٣) كلمة « meaning » الانكليزية قد تؤدي بالعربية بكلمة « معنى » أو بكلمة « دلالة »، دون فرق لكن. الاستعمال الشامل لكلمة « meaning » يقربها بالآخرى من كلمة « دلالة » ذات المفهوم العام. بينما لفظة « معنى »، تيل إلى الاستعمال في الطابع اللغوي.

السارق قصد صاحب البيت فشل تحقيق القصد. وكذلك بالنسبة لتعطيل الحاجبين، إذ متى أدرك المتلقي قصد المرسل بطل أن يدل التعطيل على المعنى الطبيعي أي الإستياء.

إلى جانب هذا النمط من الدلالة القصدية، ثمة نمط آخر حيث الدراية بالقصد لا تتنافى مع تحقق الدلالة. لنفترض مثلاً أني ناولت صديقاً لي صورة فوتوغرافية تمثل امرأته في أحضان رجل ما، فاصداً بذلك الدلالة على أن امرأته تخونه، فلاشك أن قصدي يتحقق إذا ما أدرك الصديق أن هذه الصورة تعني أن امرأته تخونه، وهو يتحقق حتى وإن ذرى الصديق قصدي أن أعني له ذلك بعرض الصورة عليه. انما، في هذا المثل، مع أن دراية المتلقي بقصد المرسل لا تتنافى مع تحقق القصد، إلا أنها غير منوطة به: فدراية القصد ليست شرطاً ضرورياً لتحقيقه. فلو وقع صديقي صدفة على الصورة دون علمي، أو لو أني تصرفت بشكل يستطيع معه ملاحظتها، دون أن أظهر له قصدي بالدلالة على خيانة امرأته، فإنه سيدرك بلا ريب الرسالة التي تحملها الصورة^(٤).

بالنسبة لفئة من الدلالة القصدية لا يكفي حتى تصح، أن لا تتنافى دراية المتلقي بقصد المرسل مع تحقق قصد الدلالة، بل لابد من الدراية لتحقيق القصد المذكور. فلا يستطيع المرسل أن يبلغ شيئاً إلى المتلقي إلا إذا استطاع أن يبلغه قصده بالدلالة على ذلك. هذه الفئة من الدلالة القصدية هي ما يخصصها غرايس باسم «الدلالة غير الطبيعية». هكذا مثلاً، إذا التقيت بشخص ما في الشارع ولوحت له بيدي أو قلت له «مرحبا» فإني بذلك أقصد إلقاء التحية عليه. لكن قصدي هذا لن يتحقق إلا إذا ذرى الشخص به. فحالما يدرك المتلقي قصدي يتحقق هذا القصد، وبالعكس أي أنه إن لم يدر به فلن يتحقق. إذ أن دراية قصد الدلالة غير الطبيعية هو شرط لابد منه لتحقيق القصد. بهذا الصدد يقول سورل «إن للاتصال بين الناس خصائص عجيبة يفرد بها عن سائر أنماط السلوك الإنساني. ومن عجيب تلك الخصائص أنه إذا حاولت أن أقول شيئاً لشخص ما، فحالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئاً، ويدري ما أحاول أن أقوله له بالضبط، أكون «عند توفر بعض الشروط» قد نجحت في إبلاغه ذلك. بل إنه طالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئاً، ولم يدر ما أحاول أن أقوله له، فأني أكون لم أنجح كلياً بإبلاغه ذلك»^(٥). أو وفقاً لتعبير غرايس: أن تدل على شيء ما دلالة غير طبيعية هو أن تدل عليه بواسطة دراية المتلقي لقصد الدلالة عليه. فقصد الدلالة عليه إنما هو قصد الدلالة عليه بواسطة دراية القصد.

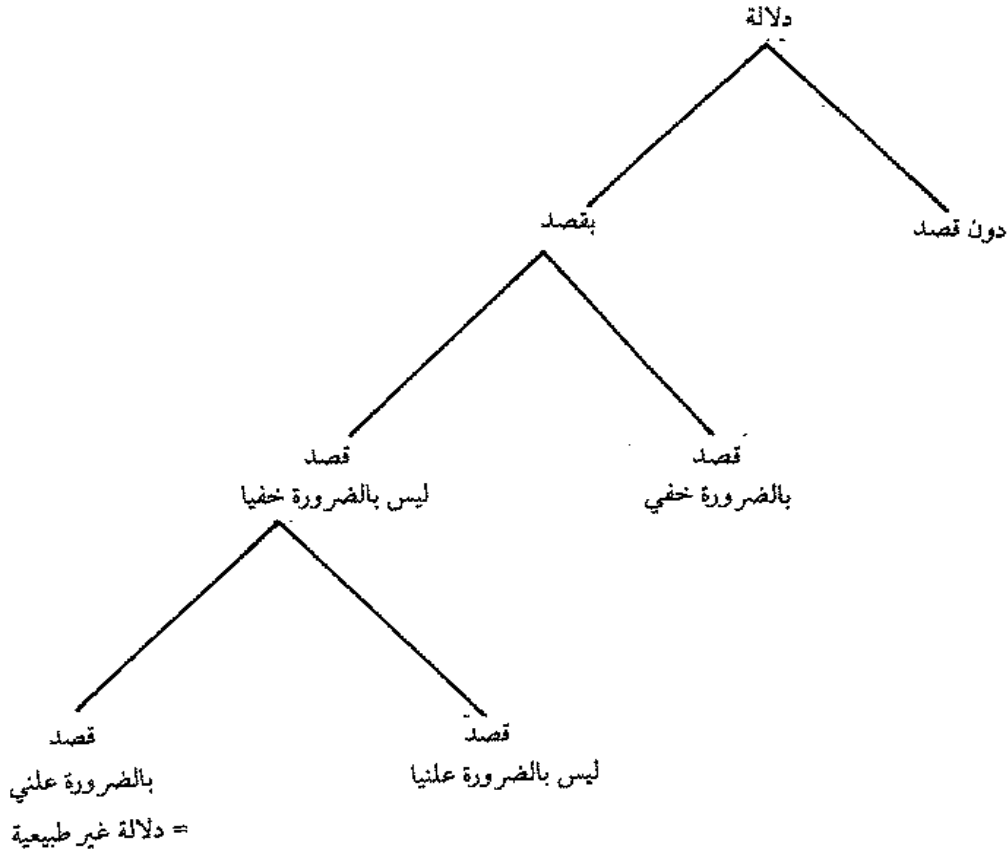
من هذا التحليل يتبين لنا أن خصوصية الانعكاس هي خصوصية جوهرية للاتصال القصدي. فحتى يحصل الاتصال القصدي بالمعنى الحصري للكلمة، لا يكفي أن يتم توصيل المحتوى بشكل قصدي، بل لابد بالإضافة إلى ذلك أن يُقصد توصيل أن هذا المحتوى قد أريد توصيله بشكل قصدي. ففعل التوصيل ينعكس على ذاته ويشكل جزءاً مما يجري توصيله^(٦).

(٤) أغلب الدلالات الاجتماعية هي حادثة من هذا النمط، مثل ارتداء الأزياء الدالة على المكانة أو الرتبة (بزة الجترال) أو هل نشاط أو عمل ما (ثياب السهرة أو الرياضة)، ومثل البناء واستعمال بعض الأدياء الخاصة بطقس اجتماعية (قيادة سيارة رولز رويس).

(٥) Speech Acts, P. 47

(٦) لكن هذا لا يعني أن توصيل المحتوى وتوصيل هذا التوصيل هما لعمدان متغايران. وإلا وجب في كل فعل دلالي غير طبيعي أن يكون عند المرسل قصد أول للدلالة على المحتوى للمتلقي، وقصد ثان للدلالة على القصد الأول، وقصد ثالث للدلالة على الثاني، وهكذا إلى ما لا نهاية له. وبالتالي تعدل توصيل أي شيء.

كل أنواع الدلالات السابقة التي أتينا على ذكرها، يمكن إجمالها بالمشجر الآتي :



مع الأخذ بعين الاعتبار ان : خفي = غير علني .

قواعد التخاطب

يقوم مفهوم الاقتضاء أصلا على نظرية خاصة في كيفية استعمال اللغة . فالممارسة اللغوية ، بحسب غرايس ، نشاط عقلائي يهدف إلى التعاون ما بين المتخاطبين . لذلك كان لا بد من افتراض توجيهات أو قواعد ، صادرة عن اعتبارات عقلية ، تندير السلوك التخاطبي وتجعله فعالا وناجحا . هذه التوجيهات أو القواعد تسير بهدي مبدأ شامل يطلق عليه غرايس اسم « مبدأ التعاون » the co — operative principle الذي ينص على مايلي :

مبدأ التعاون : إجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه ، في مرحلة حصولها ، الغرض أو المآل المُسَلَّم به من التخاطب المعقود .

أما القواعد، أو كما يسميها غرايس «الحِكَم» maxim، التي تندرج تحت هذا المبدأ الشامل، فيجري تصنيفها إلى أربع مقولات، مقتبسة عن كانط، هي : مقولات الكمية والكيفية والإضافة والجهة.

١ - مقولة الكمية : وهي تخص كمية المعلومات التي يجب توفيرها. وتؤدي بالقاعدتين :

- I اجعل مشاركتك تفيد على قدر ما هو مطلوب، من أجل تحقيق أغراض التخاطب الحالية .
- III لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب .

٢ - مقولة الكيفية : وتتعلق بالقاعدة العامة « حاول أن تكون مشاركتك صادقة true » التي تنخصص بقاعدتين هما :

- I لا تقل ما تعتقد انه كاذب. False.
- III لا تقل ما تفتقر الى دليل واضح عليه .

٣ - مقولة الإضافة : وتنفرد بقاعدة واحدة هي : إجعل مشاركتك ملائمة .
هذه المقولة المجملة تخفي ولاشك كثيرا من المشاكل العويصة، كمعرفة طرق افتتاح الكلام، وأنواع التدخل المناسب، وتغيير موضوع المحادثة، وحسن التخلّص واختتام التخاطب الخ . . .

وأخيرا :

٤ - مقولة الجهة : وهي لا تهتم كسائر القواعد بما هو مقول أو منطوق، بل بكيفية قوله أو النطق به . قاعدتها العامة هي : كن واضحا . وعنهما تنفرع القواعد :

- I احترز من الغموض obscurity .
- II احترز من الالتباس ambiguity .
- III تحرّ الايجاز .
- IV تحرّ الترتيب .

وبالاختصار، هذه القواعد ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به، لكي يتم التخاطب بالطريقة المثلى من التعاون والعقلانية والفعالية. بالطبع هذا لا يعني أن عليهم ان يتبعوا القواعد المذكورة حرفيا في كل الأحوال والأوقات. إذ، قلما يستمر التخاطب العادي على هذا المنوال. بل المقصود من ذلك انه، حتى عندما لا يجري التخاطب ما ترسمه القواعد المذكورة، يظل السامع يفترض، خلافا للظاهر، ان المتكلم مازال يأخذ بهذه القواعد، ولو على مستوى أعمق، حتى يتسنى له التوصل الى معنى ما. فمن دون تقدير هذه القواعد يستحيل التواصل بين الناس.

توضيحا لذلك، إليك المثل الآتي :

أ : أين سمير ؟

ب : هناك « فيات » حمراء أمام بيت سعاد .

فجواب (ب) ، إذا أخذ حرفياً ، لا يفي بسؤال (أ) . فهو يبدو ، على الأقل أنه يخالف مقولتي الكمية والاضافة . لكن مع ذلك ، لا نعتبر أن (ب) ، بجوابه ، لا يعير اهتماماً لما قاله (أ) ، وبالتالي يرفض مبدأ التعاون ، بل تقديراً منا بأن هذا المبدأ مازال سارياً ، نحاول أن نجد العلاقة بين مكان سمير ومكان الفيات الحمراء . فإذا افترضنا كما يعرف (أ) و (ب) أن سميراً يملك فيات حمراء ، اقتضى الجواب ان سمير هو في بيت سعاد .

إن أهمية القواعد والحكم المذكورة بالنسبة إلى اللغة تعود إلى انها تسمح باستدلالات تتجاوز المحتوى الدلالي للعبارة التي يُتلفظ بها . ولذلك يُخصّص غرايس هذه الاستدلالات باسم « الاقتضاء التخاطبي » Conversational implicature ، تميزاً لها عن اللزوم أو الاستلزام المنطقي entailment, logical implication ، أو أيضاً الاستنتاج المنطقي logical consequence ، الذي ينحصر بالاستدلالات المبنية على المضمون الدلالي فقط . فالأقتضاء يعتمد ، بالإضافة إلى المضمون ، على مطالب معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساساً على التعاون .

هذا الاقتضاء التخاطبي يجري بطريقتين مختلفتين على الأقل ، وذلك طبقاً للموقف الذي يتخذه المتكلم من القواعد . فقد يراعي المتكلم القواعد والحكم بشكل صريح إلى حد ما ، تاركاً للمخاطب مهمة توسيع وتظهر ما قيل باللجوء إلى استدلالات مباشرة انطلاقاً من مراعاة المتكلم للقواعد . ففي الاستخبار الآتي :

أ : نفذ البنزين من سيارتي !

ب : هناك محطة عند زاوية الشارع .

لا بد للسائل أن يستدل من جواب (ب) أن هذا يعلم ان المحطة مفتوحة وأن فيها بنزيناً ، وإلا لما كان متعاوناً . هذا النوع من الاقتضاء التخاطبي الذي يقوم على مراعاة القواعد ، نريد أن نطلق عليه مع لفنسن Levinson اسم « الاقتضاء المتعارف » أو « النموذجي » standard implicature .

أما الاقتضاء على الطريقة الأخرى ، فيحصل عندما يُخل المتكلم ، عن قصد وعلانية ، بحكم التخاطب وقواعده ، أو كما يعبر عن ذلك غرايس عندما يستخف Flout المتكلم بهذه القواعد . فعندما يعلن مثلاً أحد الأشخاص أمام حضور نسائي ان :

فلانا مات بذلك المرض

أو أن :

فلانا أجريت له عملية في أحد المواضع .

خارقاً بذلك قاعدة الجهة التي تفرض الوضوح ، فمن الواضح ان كلامه يقتضي انه يتجنب خدش مشاعر الآخرين .

نظراً لأهمية كل من الاقتضاء المتعارف والاقتضاء الذي ينجم عن خرق القواعد ، ينبغي لنا ان نعرض بالتفصيل أمثلة على كل منهما وذلك وفق علاقتها بالقواعد .

الاقتضاء التخاطبي المتعارف

الكيفية

إذا قلت مثلاً :

الجامعة مغلقة

فقولِي يقتضي أُنِي اعتقد ذلك، بِحُكم قواعد الكيفية. هذا ما نشير إليه بالرمز « + » على النحو الآتي :

الجامعة مغلقة + « أنا أعتقد أنها مغلقة وعندي دليل واضح على ذلك.

إن الاقتضاء المذكور هو الذي يعطي تفسيراً لما يسمى بِإشكال مور Moore's Paradox ، أي للتلفظ الذي يجمع بين الالتيات وعدم الاعتقاد كادعائي بأن :

الجامعة مغلقة ولكنني لا أعتقد ذلك.

إذ، من الواضح، أن أمثال هذه العبارة غير مقبولة في التداول فهي تحتل نوعاً من التناقض. لكن تناقضها ليس من النوع المنطقي، لأن كون الجامعة مغلقة وكوني لا أعتقد ذلك لا يتنافيان، بل قد يتفقان. بينما إذا استلزمنا منطقياً، استناداً إلى التعريف أو قاعدة المحمولات، من القول « الجامعة مغلقة » أن « الجامعة غير مفتوحة » وركبنا من هذين القولين عبارة شبيهة بالسابقة، أي عبارة تجمع بين الملزوم وسلب اللزوم، كان قولنا :

الجامعة مغلقة ومفتوحة

مستحيلًا منطقياً. إذ كون الجامعة مغلقة وكونها مفتوحة هما حدثان لا يمكن أن يجتمعا البتة^(٧).

هذا النوع من الاقتضاء التداولي، الذي يصح على الجمل الخبرية، ينطبق أيضاً على الجمل الانشائية كالوعد والأمر والاستفهام. يكفي لذلك أن نعمم قواعد الكيفية المقصورة على الصدق بالنسبة للجمل الخبرية، بحيث أنها تتطلب الصراحة في كل أنواع الجمل. فعندها يقتضي السؤال مثلاً :

هل عندك سيارة ؟

جهل السائل لذلك، ووجود الرغبة في معرفة الأمر. إذن :

هل عندك سيارة ؟ « أنا لا أعرف ذلك وأريد معرفته.

الكمية

مجازاة هذه المقولة تقدم بعضاً من أهم نماذج الاقتضاء المتعارف standard لنفترض أن أحداً قال :

لأحمد خمسة عشر ولداً

فذلك يقتضي أن لأحمد خمسة عشر ولداً فحسب، بالرغم من أنه لا يتنافى مع حقيقة هذا القول أن يكون عدد أولاد أحمد عشرين. لكن اقتضاء القول لكون أحمد عنده فقط خمسة عشر ولداً، يعود إلى أنه لو كان لأحمد عشرون

(٧) هلا، من ذلك، ثمة فرق آخر بين الاقتضاء الذي نحن بصدده واللزوم المنطقي. وهو أن اللزوم المنطقي ينتج ما هو مقول، بينما ينتج المنطقي التداول عن فعل القول ذاته.

ولذا لكان على المتكلم بحكم قاعدة الكمية التي تفرض الإخبار بقدر ما هو مطلوب، أن يقول ذلك. فيما أنه لم يفعل، كان بالتالي يريد إبلاغ المستمع أن لأحمد فقط خمسة عشر ولدا.

مثل آخر: عندما يصرح المتكلم بأن:

الْعَلَمُ أَحْمَرُ

فبما أنه لم يُضف نوعاً أخرى تخبر عن الألوان التي يمكن أن يحتويها العلم، كأن يقول مثلاً « العلم أحمر وأزرق وأبيض »، يقتضي قوله أن يكون « كل العلم أحمر » أو « العلم فقط أحمر ».

كذلك إذا قرع سمعنا هذا الحوار:

أ: كيف كانت مباراة الفريق الوطني أمس في كرة القدم؟

ب: لقد سجّل الفريق إصابات رائعة.

وعلمنا فيما بعد أن الفريق الوطني قد خسر مع ذلك المباراة، فسوف نعتبر أن جواب (ب) كان يدفع إلى التضييل، إذ أن (ب) لم يقدم كل المعلومات التي تتطلبها ظروف السؤال.

من هذه الأمثلة يتضح أن القاعدة الفرعية الأولى من مقولة الكمية التي توصي بإعطاء المعلومات النامة التي تتطلبها الحال، هي القاعدة الأساسية التي يُعتمد عليها لمثل هذا النوع من الاقتضاء. فبتطبيق القاعدة، يرتبط التلفظ utterance عادة باقتضاء تداولي يجعل من الحكم المقصود أقوى الاحكام التي يمكن إطلاقها في الظرف الحالي وأكثرها إفادة.

الإضافة

إلى هذه المقولة يعود الفضل في تقديم أوسع لائحة من المقتضيات. بل إن البعض يذهب إلى أن مقولة الإضافة هي عامة لدرجة أنها تستوعب سائر المقولات. من قبيل المقتضيات المتعلقة بالاضافة، اقتضاء الأوامر الصادرة من أجل تعاون راهن، وفوري. وعليه:

ناول الملح!

+ < ناول الملح الآن!

إن قاعدة الإضافة هي التي تتيح، أكثر من أية قاعدة أخرى، الإيجاز في التخاطب والتخلى عن ذكر أمور مفروغ منها. فعندما يشير عابر سبيل لسائق نفد البنزين من سيارته، إلى أن:

هناك محطة عند زاوية الشارع

من الواضح أن قوله يقتضي أن تكون المحطة مفتوحة وإن يوجد فيها بنزين. وأحياناً ما يكون الاقتضاء على درجة أكبر من الخفاء مما يستوجب بعض التفكير. ففي الحوار:

أ : يبدو أن سميرا منقطع عن النساء هذه الأيام .
ب : لكنه كثيرا ما يتردد إلى العاصمة .

لا بد ، حتى يتم لنا فهم استدراك (ب) ، أن نفترض وجود تناسب ما بين رد (ب) وملاحظة (أ) . لكن ذلك لا يستقيم لنا إلا عند تقدير عدة معلومات مشتركة بين (أ) و (ب) . منها مثلا أن سميرا نادرا ما يأتي إلى العاصمة ، وأنه يسكن في منطقة لا تتيح له الاختلاط بالنساء ، وأن لا داعٍ يجعله يتردد الآن إلى العاصمة سوى حاجته إلى الجنس اللطيف . إلى ما هنالك .

لا شك أن مثل هذه التقديرات هي التي تسد الثغرات التي تظهر أحيانا بين ردود المتخاطبين ، وتبرر بالتالي وجود القاعدة التي تعتمد عليها ، أعني قاعدة الإضافة .

الجهة

أخيرا ، ثمة أنواع أخرى من الاقتضاء تحصل عن مراعاة قاعدة الجهة . هكذا مثلا : إذا لجأ المتكلم إلى الإطناب وقال للمستمع :

أدر مقبض الباب باتجاه عقارب الساعة حتى نهاية الحركة ، ثم اجذبه برفق نحوك .

فطلب المستمع ، في سياق ما ، يقتضى ، وفقا للقاعدة الفرعية الثالثة التي تنص على الإيجاز ، أن يكون المخاطب جاهلا بتفاصيل فتح الباب المذكور وأن يكون المستمع راغبا في عدم إحداث تشويش .

من بين قواعد الجهة ، قد تكون القاعدة الفرعية الرابعة ، التي تتوخى مراعاة الترتيب ، هي الأهم . ففي مثل العبارات الآتية :

١ - وصلت الطائرة ونزل الركاب .

٢ - صرخ بصوت عظيم ومات .

٣ - ذهب فوزى إلى الدكان واشترى قنينة عصير .

٤ - أمطرت السماء وارتوى العشب .

تقتضى الواء ، بسبب قرائن خارجية متنوعة ، الترتيب الزمني . وهذا ما يفسر غرابة العبارات المذكورة إذا ما قلبنا المتعاطفين وقلنا :

١ - نزل الركاب ووصلت الطائرة .

٢ - مات وصرخ بصوت عظيم .

٣ - اشترى فوزى قنينة عصير وذهب إلى الدكان .

٤ - ارتوى العشب وأمطرت السماء .

بينما ذلك لا يضير في عبارات أخرى حيث الواو مستعملة بالمعنى المطلق . فقولنا :

بيروت عاصمة لبنان ودمشق عاصمة سوريا

لا يختلف بتاتا عن قولنا :

دمشق عاصمة سوريا وبيروت عاصمة لبنان .

من هذا التفسير بواسطة الاقتضاء ، يتبين لنا كيف أنه يمكن التخلص من الإحراج الناجم عن إسناد أكثر من معنى معجمي لحرف الواو . فلستنا بحاجة إلى ادعاء وجود لفظتي «و» أو أكثر : واحدة تدل على مجرد الاشتراك في الصدق ، وأخرى تدل ، بالإضافة إلى ذلك ، على الترتيب الزمني . إذ أن الترتيب الزمني ، وغيره من المفاهيم الإضافية ، ليست سوى مقتضيات تنجم عن القرائن الخارجية عند مراعاة القاعدة الفرائية الرابعة لمقولة الجهة .^(٨)

الاقتضاء التخاطبي الحاصل عن خرق القواعد

النوع الثاني من الاقتضاء يحصل عند خرق إحدى القواعد بشكل صريح وسافر ، أو كما يعبر عن ذلك غرايس ، عند الاستخفاف Flouting بالقواعد أو استغلالها exploitation . هذا بالطبع مع احترام مبدأ التعاون العام ، لأن المتكلم إذا انحرف عن استعمال موافق للحكم والقواعد ، احتاج المستمع على الأقل إلى تقدير مبدأ التعاون ، حتى يتوصل عبر استدلال متتابعة إلى المقتضى الذي يقصد المتكلم إبلاغه . أما البُنية من هذا الخرق فهي توليد الصور البيانية .

إليك عرضاً مسهباً للصور التي تنجم عن خرق قواعد التخاطب :

الكمية

١ - خرق القاعدة الأولى .

إذا سئل أستاذ فلسفة عن رأيه بأحد طلابه في هذه المادة واكتفى بالجواب بأن « الطالب لا يتوانى عن متابعة المحاضرات ، وهو يجيد تماماً اللغة الانكليزية » ، فهو يكون بذلك قد أخلَّ بالقاعدة الأولى لمقولة الكمية لأنه لم يقدم المعلومات اللازمة . وبما أن الإخلال لا يمكن إرجاعه إلى قصور في معرفة الأستاذ ، إذ من أدري منه بمقدرة تلميذه ، فالمفترض إذن أنه تجنب التصريح بالإفادة المطلوبة خوفاً من الإحراج . أما داعي الإحراج في هذا السياق فلا يمكن أن يكون سوى اعتقاده بأن الطالب فاشل في الفلسفة . لا ريب أنه كان بمستطاع الأستاذ أن يرفض اللعبة ويمتنع بالتالي عن الإجابة ، لكن بمجرد أنه فعل ذلك فقد أظهر حسن نيته في التعاون . إذن ، بالرد قصّد الأستاذ أن يُبلغ مراده للمخاطب بشكل غير صريح ، متوسلاً طريقة بيانية تعرف باسم التعريض أو التلويح .

(٨) هذه النظرية التداولية الحديثة تطابق موقف قدماء النحاة العرب . فعند هؤلاء إن الواو لا تقيّد سوى مطلق الاشتراك والجمع ، أي أنها بعيدة ذاتها لا تدل على أكثر من التشريك في المعنى العام . فإن أضافت غير ذلك من ترتيب زمني ، ومصاحبة وتعقيب أو مهلة ، وخسة أو شرف . الخ فذلك يكون يقتضي القرائن الخارجية .

من باب العبارات التي تُخل بالقاعدة الأولى ، يمكن اعتبار كحد أقصى المبهيات tautology البينة ، كقولنا
مثلا :

الحرب هي الحرب |
إما أن تجيء سعاد أو لا تجيء |
ان فعل الأمر فقد فعله |
فؤاد فيه ما فيه |

فهذه العبارات لا تُبلغ ، على صعيد القول أو المنطوق ، شيئا على الإطلاق . ولا فرق بين بعضها البعض من حيث
شروط الصدق ، إذ أنها كلها تعود إلى صور منطقية صحيحة هي على التوالي :

س (حـ) سـ (سـ) حـ (حـ) سـ

ب ب ب

ب ب ب

في (سـ) في (سـ ، فؤاد ، فؤاد)

لكن مع ذلك ، فالتلفظ يشتمل هذه الأقوال يحمل ، بمقتضى التداول ، مدلولات أخرى مختلفة عن المنطوق . إذ
أنه لما كانت المبهيات قاصرة عن إعادة المرام ، كان لا بد للمستمع ، إذا صح تقديره ان المخاطب راغب في التعاون
معه ، ان يصل إلى اقتضاء مفيد . ففي حال قول « الحرب هي الحرب » ، قد يكون المقتضى مثلا أن من طبيعة
الحرب جلب الهول والدمار والتهجير ، إلى ما هنالك . وفي العبارة الثانية ، أي « إما أن تجيء سعاد أو لا
تجيء » ! ، فقد يفهم المستمع في سياق ما أن المراد هو : هدىء روعك فالاضطراب لا يؤدي إلا إلى مضرتك في كلا
الاحتمالين . في الثالثة ، فالفحوى الذي يقتضيه الكلام هو ان الأمر لا يعنينا والشخص المقصود هو الذي يتحمل
مسئوليته . وأما أخيرا قولنا « فؤاد فيه ما فيه » فهو دليل على ما في هذا الفؤاد من هموم ومعاناة . من الواضح أن أمثال
هذه العبارات تُستعمل عادة إما للتخلص من موقع حرج أو لاختتام الكلام . لذلك يتعلق إدراك تفاصيل مقتضياتها
بسياق ومقام التلفظ .

٢ - خرق القاعدة الثانية للكمية أي « لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب » .

إذا أراد شخص مجرد الاستفسار عن صحة خبر ما ، ولم يكتف المجيب بالتصديق على الخبر ، بل راح يتكلف
الإدلاء برأي وراء الآخر لا يترك شاردة ولا واردة ، مُصرًا على صحة كلامه بشكل لا يقبل النقض ، فمن المتوقع ان
يلفت مثل هذا الهذر ، إن كان مقصودا ، انتباه السامع إلى أن المجيب يلْمَح بذلك إلى أنه غير موثق من صحة
الخبر .

الكيفية

ان الاختلال بقواعد وحكم مقولة الكيفية يوفر لنا أكثر أنواع الصور البيانية .

١ - خرق القاعدة الأولى أي « لا تُقُل ما تعتقد أنه كاذب » .

١ ، ١ . التهكم : شخص ما ، بعد أن بَلَغَهُ أن أحد الأصحاب سَرَب بعض أسرارهِ إلى أحد منافسيهِ في العمل ، يعلن ، أمام حضور على علم بذلك : « فلان هو من الأصدقاء الذين يمكن الوثوق بهم » . لا ريب أن كذب هذا التصريح ظاهر لأي مستمع ، لأن ما صرح به الشخص المذكور لا يطابق ما يفكر به . فإذا افترض المستمع أن المتكلم لم يرفض مع ذلك التعاون في الحديث بل أراد أن يوصل أمراً ما ، فلا بد له أن يبحث عن قضية لها علاقة بما قيل . والأرجح أن القضية المقصودة هي ، في هذا السياق ، نقيض ما صرح به المتكلم .

٢ ، ١ . الاستعارة : اقتضاء المعنى المستعار له يجرى في أغلب الأحيان بطريقة مشابهة لفهم التهكم . فالمنطوق الحرفي للاستعارات هو لغو ساقط . هكذا مثلاً ، هتاف المتيم لعشيقتهِ :

أنت القمر

لا يمكن أن يعني به أنها ذلك الجرم الذي يدور حول الأرض ، بل إنه يريد أن يصفها بأمر له علاقة ما بالقمر . وبما أن الأمر في مثل هذا المقام يستحيل أن يكون النقيض ، فعلى الأرجح أنه يريد أن يُسند إليها صفة شبيهة بتلك للقمر ، كالبياض والحسن الخ . . .

بالنسبة إلى نفس الاستعارة ، قد يختلف المعنى المستعار له وفقاً للظروف والأحوال . فالعبارة :

رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر من فولاذ

تعنى ، لدى المعجبين بتاتشر ، فضائل الحزم والقدرة . أما إذا قيلت من أحد الخصوم الذين يريدون الخط من سمعة تاتشر ، فإنها تدل على رذائل الخشونة وعدم المرونة وفقدان الأنوثة ، بالرغم من أن كل هذه الصفات تشترك في القوة . من الممكن ، كما يشير إلى ذلك غرايس ، جمع الاستعارة مع التهكم ، بحيث يترتب على ذلك مستويات من الاقتضاء . مثلاً ، إن قال أحدهم عن امرأة قبيحة :

أطل القمر

فالانتقال يكون أولاً من القمر إلى الحسناء ، ومن ثم إلى نقيضها أي إلى المرأة القبيحة . هذا النوع من التراكيب اليبانية المتعددة لا يقتصر فقط على الاستعارة والتهكم ، بل يشمل سائر الصور كما سنفصل ذلك في بحث مستقل .

٣ ، ١ التعريض أو التلويع : ثمة إخلال لقاعدة الكيفية يقع حين ألتلفظ بخطأ صارخ كما في هذا الحوار :

أ - أليست بيروت في ليبيا ؟

ب - وكذلك دمشق في أرمينيا .

حيث (ب) ، برده الظاهر الكذب ، يلوح إلى خطأ (أ) .

٤ ، ١ التفريط litote : ومثاله أن يقال عن رجل حطم كل شيء بأنه « شرب قليلاً » أو « تناول كأساً » .

٥ ، ١ الإفراط أو المبالغة hyperbole : كل فتاة تحلم بضابط .

الإضافة

من الصعب إيجاد أمثلة يحصل فيها الاقتضاء عن خرق حقيقي لقواعد هذه المقولة . إذ أنه من النادر إعطاء جواب لا يمكن إلاّ اعتباره غير ملائم بالنسبة إلى سياق ما . ففي الحوار التالي :

: ألا تعتقد يا صاحبي ان فلانة عمجوز قجباء !

ج : (باضطراب) الطقس جميل جدا اليوم . أليس كذلك ؟

يمكن تفسير الجواب ، على أنه إنكار لاقتراح (أ) وبلميح له بأنه ارتكب هفوة أو زلة لسان . ولكن ، في ظرف آخر ، قد يقتضى الجواب أيضا لفت نظر (أ) مثلا الى وجود ابن أخ فلانة بالقرب منه .

مثل آخر حيث الاقتضاء هو شبه مألوف :

الابن : لنذهب إلى السينما يا أبي !

الاب : ماذا عن الفروض المدرسية ؟

حيث الأب يريد أن يذكر ابنه بأنه ليس حرا بعد للذهاب إلى السينما .

الجهة

يمكن إيجاد أمثلة على الإخلال بالوضوح بالنسبة لكل قاعدة فرعية من هذه المقولة .

١ - الالتباس : يعني غرايس هنا الالتباس القصدى الذي يريد المتكلم أن يُبلّغه إلى السامع على أنه كذلك . وهذا يقع حينما تحتتمل العبارة معنيين أو أكثر ، دون أن توجد قرينة تمنع من ذلك . أما المعاني المرادة ، فقد تكون كلها حقيقية على سبيل الاشتراك في اللفظ ، أو بعضها حقيقيا وبعضها مجازيا ، أو كلها مجازية . من الالتباس المبني على الاشتراك قول (٩) أحد العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل ، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي :

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وفارقتَه إذ أعوزتكَ المأكَلُ
وما اخترت رأي الشافعي تديننا ولكننا تهوى الذي منه حاصلُ
وعسا قليل أنت لاشك صائرٌ إلى مالكٍ ، فافطن لما أنا قائلُ .

فما لك ههنا يصلح ان يكون مالك بن انس صاحب المذهب ، ويصلح ان يكون مالكا خازن النار .

ومن باب الاشتراك في اللفظ هذا السؤال الطريف من مقامات الحريري « أيحل للصائم أن يأكل نهارا » ، إذ أن النهار اسم مشترك بين « ضد الليل » و « فرخ الحبارى » .

(٩) راجع : ابن الاثير ، المثل السائر ، القسم الثالث ، صص ٧٧ - ٧٨ .

في بعض الالتباسات ، قد يرجع معنى على آخر ولو كان بعيدا . من أمثلة ذلك ما يحكيه غرايس عن الجنرال البريطاني الذي بعث عند احتلاله مدينة السند Sind رسالة يقول فيها باللاتينية « Peccavi » . فترجمة هذه الكلمة تعني حرفيا بالانكليزية I have sinned أي أخطأت . لكن من حيث اللفظ ، واضح أن الترجمة الانكليزية مجانسة للعبارة I have Sind ، التي تعني « أنا أملك السند » . بالطبع ، لا تحتل الرسالة بحد ذاتها أي لبس . إنما ، لما كانت اللغة المكتوبة بها غريبة عن المرسل والمتلقي ، كان لا بد من الترجمة . ولا شك أنه عند التلغظ بالترجمة يظهر الالتباس . فالمعنى الحقيقي للعبارة اللاتينية محتمل ، إذ قد يكون الجنرال البريطاني ، مثلا ، خالف الأوامر ليحتل السند . لكن معنى اللفظ المجانس هو المقصود على الأرجح .

٢ - الغموض . ما يدفع المتكلم للإخلال بالوضوح هو أنه ، يريد حين إبلاغ المخاطب أمرا ما ، إخفاء ذلك الأمر عن أشخاص آخرين حاضرين ، تفاديا لالتزام أو إحراج أو جرح شعور . هكذا مثلا إذا أحب رجل أن يدعو امرأته إلى المسرح دون إشعار أولاده المتواجدين حولها بذلك فقد يتوجه إليها بالقول : ما رأيك بالميم سين راء حاء ؟ كذلك مثلا ، إذا أراد رجل استعمال عبارات تتضمن كلمات نابية وبذيئة ، أمام حضور نسائي ، فقد يكتفى بالإلماح أو بكلمات مجزوءة . كقوله فقط « المنحوس منحوس »^(١٠) دون أن يكمل .

٣ - التطويل والإطناب . لنفترض ورود المقطع الآتي في مقال ناقد موسيقى :

أصدرت السيدة فلانة سلسلة من الأصوات تشبه أغنية « أنت عمري »

بدلا من قوله : غنت السيدة فلانة أغنية « أنت عمري »

فلا شك أن التطويل المقصود يقتضي أن إداء المرأة كان بعيدا كل البعد عن مفهوم الغناء الحقيقي .

خصائص الاقتضاء التخاطبي

لتعيين الاقتضاء التخاطبي ، لا يكفي الاعتماد على الحدس والخزر ، بل لا بد للمخاطب أولا أن يأخذ بعين الاعتبار المعطيات الآتية :

- I المدلول الحقيقي للألفاظ المستعملة .
- II مبدأ التعاون والقواعد المتدرجة تحته .
- III سياق العبارة اللفظي والحالي .
- IV المعلومات الخلفية السابقة .
- V كون المعطيات I - V مشتركة بينه وبين المتكلم .

(١٠) كلمة الكمال هي : ولو خلقوا على لقاء فتاوس

ومن ثم عليه أن يتبع الطريقة العامة الآتية حتى يتوصل إلى المقتضى المطلوب :

- I قال المتكلم إن : ب
- II لا داعى للتفكير بأن المتكلم لا يراعى القواعد ، أو على الأقل مبدأ التعاون .
- III لكي يقول المتكلم إن ب ، ويراعى حقا القواعد ومبدأ التعاون لا بد له أن يفكر ب ج .
- IV على المتكلم ، إن صح أنه متعاون ، أن يعرف أن ثمة معرفة مشتركة^(١١) بينى وبينه بأنه لا بد من افتراض ج .
- V لم يقم المتكلم بأي عمل يمنعنى من التفكير بأن ج .
- VI فالتكلم إذن يريدني أن أفكر بأن ج ، وأنه ، عند قوله ب ، أراد اقتضاء ج .

من الطريقة التى يجرى بها الاقتضاء ، يمكن تبيان الخصائص الأساسية التى تتمتع بها هذه العملية .
غرايس يستخلص الميزات الآتية :

١ - قابلية النسخ cancellability ، أو قابلية الإلغاء defeasibility .

إن قابلية النسخ هي من المفاهيم الحاسمة في علم التداول ، إذ أن معظم أنواع الاقتضاء تتمتع بهذه الخاصية . فالأقتضاء القابل للنسخ هو الذي يمكن إبطاله بإضافة مقدمة أو أكثر إلى المقدمات الأصلية . وهو بذلك يشبه الاستقراء ويخالف الاستنباط واللزوم المنطقي . ففي الحجج المنطقية يستحيل إلغاء الاستنتاج في أي حال من الأحوال . مثلا ، في القياس الآتي :

كل إنسان حيوان
كل حيوان فان
كل إنسان فان

تلتزم النتيجة بالضرورة ، مهما زدنا على المقدمات من قضايا صادقة أو كاذبة حتى لو كانت هذه القضايا مناقضة للنتيجة . أما في الاستقراء ، فكما هو معروف قد تبطل قضية جديدة النتيجة السابقة . مثلا ، من سبق له أن استدل من مشاهدة ألف خروف وملاحظة أن كل واحد منها أبيض أن كل الخراف بيض ، ثم وقع بصره على خروف أسود ، فلا بد له أن يتخلى عن استنتاجه السابق ، إذ أن المقدمة المستجدة تجعل النتيجة السابقة غير صحيحة . فالقياس الآتي :

(١١) بالمرّة المشتركة بين المتكلم والمخاطب لـ «ج» ، لدى حل وجه التدقيق أن : المتكلم يعرف ج ، والمخاطب يعرف ج ، والمتكلم يعرف أن المخاطب يعرف ج ، والمتكلم يعرف أن المتكلم يعرف أن المخاطب يعرف ج . . . إلى مالا نهاية له .

شاهدت ألف خروف
كل واحد من الألف خروف هو أبيض
الخروف الواحد بعد الألف هو أسود
كل الخراف بيض
هو بالطبع عقيم .

كذلك حال الاقتضاء ، إذ ليس من العسير إبطال مفعوله ، لنعتبر هذا الاقتضاء المباشر بالنسبة لمقولة الكمية :

لأحمد ثلاثة مؤلفات
+ < لأحمد ثلاثة مؤلفات فحسب .

فإنه يكفي لإبطال المقتضى ، إضافة جملة اعتراضية من النوع الآتي :
لأحمد ثلاثة مؤلفات ، إن لم يكن أكثر .

بل إنه ممكن إنكار الاقتضاء بشكل صريح دون الوقوع في التناقض ، فيقال مثلا :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، بل عشرة
لأحمد ثلاثة مؤلفات ، وربما أكثر .

علاوة على ذلك ، قد ينعدم الاقتضاء ، إذا ما اتضح من سياق التلفظ أن المقتضى المحتمل لم يكن من مراد المتكلم . فلو سأل مثلا رئيس اتحاد الكتاب ، الذي يشترط على الكاتب للانتهاء إليه أن يكون له ثلاثة مؤلفات ، أحد زملاء أحمد مستفسرا :

هل لأحمد العدد المطلوب من الكتب ؟

فالجواب بأن :

لأحمد ثلاثة مؤلفات

لا يقتضى بالطبع قصر عدد الكتب على ثلاثة ، كما اقتضى الأمر في المثل الأول . إذ أنه يتضح من السياق أن الاستخبار هو عن استيفاء أحمد شروط الانتهاء في التأليف وليس عن العدد المضبوط لكتبه .

بسبب ميزة قابلية النسخ هذه ، يستحيل تأدية الاقتضاء بعلاقة معينة بين المعاني الحقيقية للألفاظ على غرار اللزوم المنطقي .^(١١)

(١٢) لراى غلاف ، راجع : Lakoff, G., 1975

٢ - عدم الانفكاك non-detachability .

بعدم الانفكاك يقصد غرايس ان الاقتضاء يتعلق بالمضمون الدلالي لما هو مقول ، وليس بالصورة اللغوية . وبالتالي ، يستحيل انفكاك المتعضيات عن التلفظ Utterance بمجرد إبدال الألفاظ بمرادفات لها . هذه الخاصية تعود إلى كل اقتضاءات التخاطب ، باستثناء الاقتضاءات التي تنجم عن قواعد الجهة modality ، لكون الاقتضاءات الأخيرة ترتبط بصورة التلفظ . لنأخذ مثلاً عبارة تهكمية تقتضى عكس المنطوق ، كقولنا :

زيد عبقرى

حيث المقصود هو ان :

زيد أبله .

فإذا ما استعملنا مكان العبارة الأولى ، في السياق ذاته ، أية جملة من الجمل الآتية :

زيد نابغة

زيد دماغ كبير

زيد إنسان خارق

فلا شك أنها سوف تشارك العبارة السابقة في مقتضى التهكم ذاته .

على وجه التحديد ، إن تعلق الاقتضاء بها هو مقول يقع على مستوى التمثيل الدلالي semantic representation بما في ذلك بعض خصائص الصورة المنطقية ، وهذا لا يمكن ان يحصل لا عن البنية السطحية غير المفهومة للعبارة ولا عن مجرد شروطها الصدمية .

أما عن امتناع تعلق الاقتضاء بالبنية السطحية غير المفهومة ، فلأن البنية السطحية قد تحتمل عدة تفسيرات ، يتبع عن أحدها مقتضى ما ولا يتبع عن الآخر . لنأمل في معنى العبارات الملتبسة من النوع الآتي :

لم تُصِب كل الرصاصات الهدف

فهذه تتقبل تفسيرين ، الأول يؤدي بالصيغة المنطقية :

$$\bigwedge_{x \in S} (R(x) \rightarrow A(x)) \quad \text{((ص) رصاصة (س) أصابت (س) الهدف))}$$

أي بالقضية الكلية السالبة ومعناها :

لا رصاصة أصابت الهدف

والثاني بالصيغة :

$$s \rightarrow (s \rightarrow s) \text{ (رصاصه (س) أصابت (س ، الهدف))}$$

أي بسلب القضية الكلية ومعناها :

ليس كل الرصاصات أصابت الهدف .

فالتفسير الثاني فقط يقتضى كون : ^(١٥)

بعض الرصاصات أصابت الهدف

بينما لايجري هذا الاقتضاء على التفسير الأول .

وأما عن عدم الاكتفاء بشروط الصدق لتحمين الاقتضاء ، فلأنه غالباً مايستحيل تقدير المقتضيات انطلاقاً من هذه الشروط وحدها . هكذا مثلاً اذا اخذنا عبارتين على الصيغتين الآتيتين :

ب

ب ٨ (ب ← ب)

فلا ريب انهما تشتركان بشروط الصدق ذاتها ، إذ انه كلما صدقت ب كانت ب ٨ (ب ← ب) صادقة أيضاً ، وبالعكس . لكن ، إذا قارنا بين العيتين الآتين للصيغتين المذكورتين :

لقد وقع الامر

لقد وقع الامر ، واذا ماوقع فقد وقع (اى قد وقع ما وقع)

يبدو ان الثانية فقط تختص بالاقتضاء :

لاجدوى من التحسر على ماقد حدث .

وعليه ، بعض المقتضيات على الاقل ينجم عن البنية الدلالية أو المنطقية لما هو مقول وليس عن شروط الصدق بالذات . إذن ، بوجه عام ، لايكفى اعتبار شروط الصدق لحسان المقتضيات بل لابد من الرجوع إلى التمثيل الدلالي أو الصورة المنطقية للعبارات .

ان استتباع مقتضيات مختلفة لتلفظات متساوية في شروط الصدق لكنها متبانية في الصور المنطقية ، هو الذي يسمح بالتمييز بين عدة تلفظات تكاد تكون مترادفة ، وذلك ببيان الفروق الدلالية القائمة على اختلاف في

(١٣) لاحظ انه يريد اقتضاء لدائى ولكن لا لزوم منطقى ، إذ قد يصدق سلب القضية الكلية ويكون المقتضى كاذباً .

المقتضيات ، وهو بالتالي يتيح تفسير التباين في الأسلوب ، أى في اختيار العبارات التى تتمتع بشروط الصدق نفسها .

بهذه الخاصية الموسومة بعدم الانفكاك ، يتم فصل الاقتضاء التخاطبى عن غيره من أنواع الاقتضاء التداولى كالاقتضاء العرفى والافتراض presupposition . فبالنسبة إلى الافتراض يظهر ان الاقتضاء يرتبط بالصورة اللغوية وليس بالمعنى ، إذ ان قولنا مثلا :

لم يفلح زياد في الوصول إلى القمة ،

يفترض أن :

زيادا حاول الوصول إلى القمة .

بينما قولنا :

لم يصل زياد إلى القمة

وهو قول مرادف للأول ، لا يبدو أنه يفترض ذلك .

٣ - قابلية الحساب Calculability

هذه الميزة تعنى أنه بالامكان إقامة دليل أو حجة على أى مقتضى من المقتضيات بالطريقة التى سبق تفصيلها ، وذلك بالانتقال من المعنى الحرفى للتلفظ إلى المقتضى المطلوب ، إستنادا إلى مبدأ التعاون والقواعد .

٤ - اللاعرفية non - Conventional

أخيرا ، يتميز الاقتضاء التخاطبى بكونه لاعرفيا ، أى بكونه لايشكل جزءا من المعنى العرفى للألفاظ . إذ أن الوصول إلى المقتضى لا يتم إلا من بعد معرفة المعنى الحرفى ، وكذلك من بعد اعتبار السياق وتطبيق قواعد التخاطب . وما يؤكد لاعرفية الاقتضاء هو ان التلفظ قد يصدق بينما يكون المقتضى كاذبا ، وبالعكس فقول المتكلم :

ضرب عادل زيادا

يقتضى وفقا لقاعدة الكمية ان :

عادل لم يُقتل زيادا بضربه

وإلا يكون المتكلم قد رفض التعاون وذلك بإعطاء معلومات غير وافية بالمطلوب . مع ذلك ، لا يمنع ان يتلفظ المتكلم بالجملة المذكورة في مقام تصديق فيه ويكذب مقتضاها ، وذلك بغية تضليل المخاطب . أما العكس ، أى أن يكذب التلفظ ويصدق المقتضى ، فيحصل في المجازات الكنائية ، كقولنا مثلا :

يجلس الأسد على عرش الغابة

الذى هو دون شك كاذب ، بينما مقتضاه وهو كون الأسد يسود على الغابة صادق .

وأیضا مما يثبت لاعرفية الاقتضاء هو أن عبارة ما ذات معنى واحد قد تستتبع مقتضيات مختلفة باختلاف المواقف والمقامات . بل إنه في مقام معين يستحيل احيانا تحديد مجموعة المقتضيات التى تصدر عن تلك العبارة . فالقول :

عادل آلة

قد يقصد به أن عادلا بارد ، أو انه لايتوقف عن العمل ، أو أنه لايتبصر في الأمور الخ . .

انوع الاقتضاء

في تناولنا للاقتضاء التخاطبى ، تطرقنا إلى تقسيم هذا الاقتضاء إلى نوعين : اقتضاء خصصناه باسم «المتعارف» أو «النموذجي» standard وهو الاقتضاء الناجم عند مراعاة المتكلم للقواعد والحكم ، واقتضاء أكثر تعقيدا يحصل في حال استخفاف Flouting المتكلم بالقواعد المذكورة .

لكن يمكن ، من منظور آخر ، تفريع الاقتضاء التخاطبى ، كما فعل غرايس ، إلى قسمين مختلفين هما : الاقتضاء العام generalized ، وهو الذى يحصل دون أن يوجد بالضرورة سياق حالى معين ، واقتضاء خاص يتطلب وجود مثل هذا السياق : مثال الاقتضاء الخاص الاستدلال من القول :

تبدو القطة في غاية الانشراح

على ان :

القطة أكلت الجبنة .

لأن هذا الاقتضاء لايجوز إلا إذا وردت العبارة الأولى في مجرى حديث معين كالآتى :

- أين اختفت قطعة الجبنة ؟

- تبدو القطة في غاية الانشراح .

وكذلك اقتضاؤنا لـ :

سمير هو السارق

من الخبر أن :

سمير اشترى شقة .

لا يصبح إلا استنادا لمعرفتنا بظروف وأحوال مخصوصة ، كحصول سرقة بنك ، وعدم تواجد سмир في هذه الفترة ،
وكون سмир معدوم الحال الخ . . ومن شواهد الاقتضاء العام اقتضاء الاسم التكره أن لا يمت مسماه بصفة قريبة إلى
المتكلم . فقولى مثلا :

دخلت بيتا واسعا

يقتضى أن

البيت ليس لى .

إذا ما قارنا بين تفريع الاقتضاء التخاطبى السابق إلى اقتضاء متعارف يراعى الحكيم واقتضاء مجازي يستغلها ،
وبين التفريع الشائى الجديد إلى اقتضاء عام واقتضاء خاص ، نجد أنها يتقاطعان بدرجات متفاوتة من التوزيع :

اقتضاء مجازى	اقتضاء متعارف	
		اقتضاء عام
		اقتضاء خاص

فمعظم التللفظات utterance التى تستغل الحكم تندرج تحت الاقتضاء الخاص . هكذا مثلا لا يمكن تفسير التهكم
دون الرجوع إلى مزاعم واقتراضات assumption خلفية . بينما يبدو أن ثمة استعارات كقولنا :

الهلل منجل

وهيئات مثل :

فؤاد فيه مافيه

الحرب هى الحرب

تفيد المطلوب بشكل مستقل نسبيا عن السياق .

بين أصناف المقتضيات التخاطبية المذكورة ، تكتسب المقتضيات العامة أهمية خاصة بالنسبة للنظرية اللسانية . ذلك انه من العسير تمييز هذه المقتضيات عن المضمون الدلالي semantical للألفاظ ، فاقترانها بالألفاظ الملائمة هو أمر مألوف في كل السياقات العادية .

من قبيل هذا الصنف المقتضيات المنوطة بمقولة الكمية ، والتي تحصل بين العبارات التي تتدرج على نحو سُلَمي scalar من الاكثر إلى الأقل بحيث ان السابق يستلزم اللاحق . ففي هذه الحال يقتضى الأقل سلب الاكثر . فمثلا بالنسبة للزوج المرتب بحسب الكثرة : (كل ، بعض) يقتضى اثبات البعض سلب الكل . فقول المتكلم :

بعض الأساتذة حضروا الندوة

يقتضى : لم يحضر كل الاساتذة الندوة .

والاستدلال التداولي على ذلك هو أنه :

لو كان المتكلم في حالة تسمح له بأن يثبت العبارة الأقوى ، أى إن كل الاساتذة حضروا الندوة ، لكان خالف القاعدة الأولى من قواعد الكمية حين قضي بأن بعض الاساتذة حضروا الندوة ، لكن بما أن المخاطب يفترض تعاون المتكلم معه وبالتالي عدم رغبته بخرق قاعدة الكمية دون تنبيهه إلى ذلك ، فهو يعتبر ان المتكلم يريد إبلاغه ، أنه ليس في حالة تميز له لإثبات العبارة الأقوى ، بل انه يعرف ان ذلك الاثبات غير صادق . من أمثلة هذه المقتضيات السُلَمية المجموعات المرتبة التالية :

< ممتاز ، جيد >

< دائما ، غالبا ، أحيانا >

< واجب ، حلال >

< بالضرورة ، بالواقع ، بالامكان >

< و ، أو >

< ن ، ... ، ٣ ، ٢ ، ١ >

حيث اللاحق يقتضى نفي السابق .

اقتصرنا حتى الآن على استعمال كلمة «اقتضاء» لما أسميناه بالاقتضاء التخاطبي . لكن الاقتضاء ، بمفهوم غرايس ، هو مصطلح عام يشمل كل أنواع الاستدلالات التداولية التي يمكن الوقوف عليها . فالمقتضى عامة هو القسم من المعنى غير الطبيعي meaning - nn الذى يقابل المنطوق أو المقول What is said المحدد بشروط صدق العبارات .

بالإضافة إلى الاقتضاء التخاطبي ، وهو الاقتضاء الذى يركز على الحكم والقواعد التي سبق تصنيفها ، يتطرق غرايس إلى نوع من الاستدلال غير المشروط بالصدق ، مابين للاقتضاء التخاطبي ، يخصه باسم الاقتضاء

العرفي conventional implicature . فالإقتضاء العرفي لا ينجم عن مبادئ تداولية عليا كتحكم وقواعد التخاطب ، بل انه يعود إلى المفردات المعجمية بالعرف أو بالاتفاق by convention .

من أمثلة الاقتضاء العرفي :

فلان ذكي لكنه كسول

فلفظة «لكن» لها نفس المضمون المشروط بالصدق الذي لحرف العطف «و» ، إذ أن الجملة المركبة بواسطة «لكن» تصدق في حال صدق الجملتين الفرعيتين معا وهما في مثلنا «فلان ذكي» و «فلان كسول» . إنما بالإضافة إلى ذلك تقتضي لفظة «لكن» تنافرا بين طرفي القضية المركبة . فقولنا السابق يستدعي عرفا أن أحد المتخاطبين لم يكن يتوقع أن يكون فلان كسولا . ومن الواضح أن هذا النوع من الاقتضاء لا يتعلق ، كما هو الحال مع المقتضيات غير العرفية ، بحكم أو بقواعد إضافية ، بل فقط بالمفردات نفسها .

كذلك ، من باب الاقتضاء العرفي الدلالة على المنزلة الاجتماعية المنوطة ببعض الألفاظ فعندما تقول بالإنجليزية :

tu es le directeur (أنت المدير)

Vous etes le directeur (أنتم المدير)

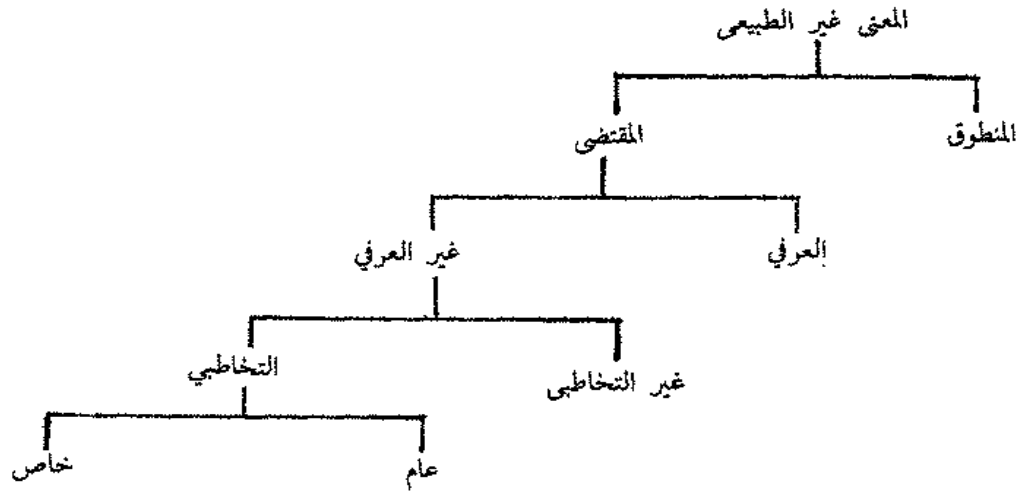
لا يوجد فرق بين الضمير « Vous » (أنتم) حين استعماله لمخاطب مفرد والضمير « tu » (أنت) من حيث شروط الصدق . إنما الاختلاف بينها يرجع إلى المقتضى العرفي اللاحق بالضمير (Vous) والدال على علو منزلة المخاطب .

خلافا للاقتضاء التخاطبي ، لا يتصف الاقتضاء العرفي بأى من الخصائص التي يتميز بها الأول . وبالفعل ، فالمقتضيات العرفية هي غير قابلة للنسخ non - cancellable ، إذ أنها لا تعتمد على افتراضات assumption حول طبيعة السياق يمكن إلغاؤها . وهي كذلك قابلة للانفكاك detachable لأنها لا تتعلق إلا بمفردات لفظية مخصوصة ، وهي بالتالي تزول عند ابدال المفردات بألفاظ مرادفة لها . فهكذا مثلا ، عند إحلال واو العطف محل «لكن» يبطل مقتضى التنافر بالرغم من بقاء شروط الصدق ذاتها .

وأخيرا فالمقتضيات العرفية لا يمكن حسابها Calculated بالاستعانة بقواعد تداولية ومعلومات سياقية ، لأنها حاصلة بالعرف والاتفاق . فهكذا مثلا ليس من طريقة تحولنا الاستدلال على تنافر وتعاند بين القضيتين المعطوفتين بـ «لكن» انطلاقا من معرفة شروط صدق هذه الأداة . لذلك ، فإنه من المتوقع أن يكون مضمون المقتضيات العرفية محدودا نسبيا .

علاوة على أنواع المقتضيات التي سلف ذكرها ، توجد أنواع أخرى غير عرفية ، تنجم عن قواعد ومبادئ مختلفة . فثمة قواعد آداب principles of politeness تنتج مقتضيات معقدة جدا . وعلى العموم كل ضوابط يؤخذ بها في استعمال اللغة ، يقابلها مقتضيات تنجم إما عن اتباع هذه الضوابط أو عن استغلالها .

من هذا التشعب لأنواع المقتضيات يظهر لنا ان المضمون المشروط بالصدق لتلفظ ما ، أى المنطوق باصطلاح غرايس ، لايشكل سوء جزء ضئيل من المعنى التام لهذا التلفظ :



المراجع

- فأخوري ، عادل ، اللسانية التوليدية والتحويلية ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- Brown, P. and Levinson, S., *Universals in language usage: Politeness. Phenomena.* in E. Goody, *Questions and politeness*, Cambridge, 1978.
- Ducrot, O., *Les echelles argumentatives*, paris, Minuit, 1980
- Grice, H.P. *Meaning*, *philosophical Review*, 67, 1957
- , *Logic and Conversation*, Harvard Univ. 1967. Halvossen. P., *the Syntax and Semantics of. Cleft Construction*, Austin: Univ of texas, 1978
- Horn, L.R., *On the Semantic Properties of the Logical Operators in English*. Indiana Univ. 1972.
- Jacques, F., *Dialogiques*, Paris, PUF, 1979
- Karttunen, L.& Peters, S. *Conventional Implicature*, 1979
- Keenan, E.O. *The Universality of conversational Implicature.* In: *language in Society*, 5, 67-80, 1976.
- Levinson, S., C. *Pragmatics*, Cambridge, 1983
- Mc Cawley. J., *Conversational Implicature and the lexicon*, 1978
- Recanati, F., *Les enonces performatifs*, Paris, minuit, 1981
- Sadock. J., M., *On Testing for Conversational Implicature*, 1978
- Schiffer, S.R., *Meaning*, Oxford, 1972
- Sperber, D.,& Wilson, D. *Irony and the use*, 1981
- Wunderlich, D. *Linguistische Pragmatik*, frankfurt, 1972

أولا : مقدمة في اللسانيات

تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في أن الأولى تقوم على مراقبة الوقائع اللغوية دون أن تفضل بعضها على حساب بعض باسم بعض المبادئ الجمالية أو التربوية، إذ أن علم اللسان يعتمد على الرؤية العلمية وليس على الرؤية الافتراضية التي كثيرا ما لجأت إليها علوم القواعد القديمة انطلاقا من معيار الخطأ والصواب. لذلك تقف الألسنية الحديثة ذات الرؤية العلمية المجردة على النقيض من علم القواعد التقليدي ذي الرؤية المعيارية الافتراضية، وهي رؤية لم تنج منها قواعد لغة من اللغات بما في ذلك علم النحو العربي - كما سيتضح لنا في سياق هذه الدراسة - على الرغم من اعترافنا بالمجهودات الهائلة التي بذلها علماء النحو والصرف العرب عما يندر لها نظير في اللغات الأخرى .

كذلك تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في نظرتها الى اللغة باعتبارها في المقام الأول أصواتا لغوية تألفت ضمن نسق معين، وهذه الصفة الصوتية للغة هي التي تحظى باهتمام الباحثين الألسنيين. أما الكتابة فهي امر طارئ على اللغة وحديث العهد نسبيا. لقد وجدت اللغة البشرية بصيغتها الصوتية منذ مئات آلاف السنين، ومازال معظم البشر حتي اليوم يتكلمون دون أن يستطيعوا القراءة والكتابة ثم إن المرء يتعلم كيف يتكلم قبل أن يتعلم كيف يقرأ، واستعمال الكتابة أمر لاحق على استعمال اللغة وليس العكس. ومن المدهش حقا أن نجد بهذا الخصوص واحدا من علماء العربية القدامى قد توصل الى هذه الحقيقة الهامة في دراسة اللغة، وهو ابو الفتح بن جني، حيث ذكر في كتاب «الخصائص» : «باب القول على اللغة وما هي : اما حدها فانها

محاولة ألسنية في الأعمال

أحمد المحمدي

أستاذ في جامعة تلمسان في الجزائر .

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»^(١). وقوله إنها «أصوات» يعني أنه يستبعد جانب الكتابة في دراسة اللغة، تماماً كما يفعل الدرس اللغوي الحديث. لكن هذا الاكتشاف المثير لابن جني لم يترك أثراً في الدرس اللغوي عند علماء العربية القدامى، ربما لأنه جاء متأخراً زمنياً، حيث عاش ابن جني في القرن الرابع الهجري، أي بعد أن كان علم النحو العربي قد اختط طريقه وتصلب عوده. وعلى العموم سوف نرى أن ابن جني قد توصل بمجهود فردي ذ إلى عدد من الحقائق العلمية التي تطابق إلى حد بعيد ما يقرره الدرس اللغوي الحديث والتي خالف بها علماء عصره ومن سبقه دون أن يستطيع مع ذلك تعديل مسار الدرس اللغوي عند علماء العربية.

هناك نقطة أخرى أبرزتها اللسانيات الحديثة، وتنطلق من سابقتها، هي أن اللغة مجموعة من الدلائل، إن كل لفظة أو عبارة هي دليل لغوي، ولهذا الدليل اللغوي وجهان: وجه صوتي ويسمى الدال، ووجه قيمي هو المدلول، أي قيمة الدليل ومعناه. فإذا تغير الدال أو جزء منه استتبع ذلك تغير في المدلول. وعلى سبيل المثال ليس الفرق بين (كَتَبَ) و (كَاتَبَ) هو فقط في الصورة الكتابية من حيث زيادة حرف الألف في الثانية، بل هو فرق صوتي قبل كل شيء أي أنه اختلاف الدال في الأولى عن الدال في الثانية. ويشتمل الدال في الأولى على ألف قصيرة (الفتحة) تلي فاء الفعل، بينما يشتمل الدال في الثانية على ألف طويلة تلي فاء الفعل، أي أن الفرق هو في طول المصوت الداخلي الذي يلي فاء الفعل، فهو صوت قصير في الأولى وطويل في الثانية، وهو فرق طفيف كما نرى. لكن هذا التغير الطفيف في الدال أدى إلى تغير في المدلول، إذ أن مدلول (كَتَبَ) غير مدلول (كَاتَبَ). لكن علم النحو العربي لم ينظر إلى المسألة من جانبها الصوتي ليبحث عن الأثر الذي يحدثه تغير الدال في المدلول، بل اكتفى بمحاولة استنباط القواعد التي تضبط تغير المصوت. ولذلك نظر إليها من جانبها الكتابي فقط^(٢).

هذا الموقف الذي اتخذه علماء النحو والصرف في وضع قواعد العربية، أي الرؤية المعيارية الافتراضية والوقوع تحت تأثير خداع الكتابة، هو ما سوف يطبع الدرس اللغوي عندهم وهو الذي سوف يؤدي إلى التعقيد الذي تعرفه اليوم قواعد اللغة العربية.

ثانياً : الاعلال من منظور لساني

ولا يضاعف هذا الواقع اختربنا مسألة في علم الصرف ما زالت تثير حتى اليوم كثيراً من اللغط حولها وتسبب للدارسين صعوبات جمة، وهي مسألة الاعلال. وقد سمي الاعلال كذلك نسبة إلى حروف العلة، وهي الواو والياء والألف ثم يلحقون بها الهمزة. أما أنها حروف علة فلأنها كما يقول الاسترأبادي «لا تسلم ولا تصح، أي لا تبقى على حالها في كثير من المواضع عند مجاورتها لما يخالفها من الحركة والحرف، فهي كالعليل المنحرف المزاج المتغير حالاً بحال»^(٣). وواضح من هذا التعريف أنه لا يستجيب لطبيعة اللغة، وهي طبيعة فيزيائية قبل كل شيء، فكان

(١) أبو القاسم عثمان بن جني: الخصائص. تحقيق محمد علي النجار (دار الكتاب العربي بيروت (بلا تاريخ)، ج ١ ص ٣٣.

(٢) للمزيد من المعلومات حول هذه القضايا اللسانية، انظر: اندريه مارتيني: مبادئ اللسانيات العامة - ترجمة د. أحمد الحمو (مشتورات وزارة للتعليم العالي، دمشق ١٩٨٥)، ص ١١ و ١٩.

(٣) رضي الدين الأسترأبادي: شرح الكافية، نقله عن د. عصام نور الدين: أبنية الفصل في شافية ابن الحاجب. (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢)، ص ٢٠٨.

أصوات اللغة أشخاص آدميون يصيبهم الاعتلال والمرض وتعترى أمزجتهم انحرافات وتقلبات. لذلك ترفض اللسانيات الحديثة مثل هذه النظرة وترى أصوات الواو والياء والألف وكذا الحركات على أنها مصوتات بخلاف بقية أصوات اللغة كالسين والميم التي تعتبرها من الصوامت. كذلك لا تميز النظرة الحديثة بين الواو والياء والألف من جهة وبين الضمة والكسرة والفتحة من جهة أخرى إلا في طول المدة الزمنية، فتعتبر الأولى مصوتات طويلة وتعتبر الثانية مصوتات قصيرة. أما الهمزة التي ألحقها النحاة العرب بحروف العلة في مسألة الاعلال فسوف نرى لاحقاً أنها لا تدخل في عداد المصوتات. بل هي من الصوامت.

وبما يجدر ذكره هنا أن ابن جني قد تنبه إلى الطبيعة الواحدة لكل من حروف المد (حروف العلة) والحركات، حيث ذكر في «باب مضارعة الحروف للحركات، والحركات للحروف» من كتاب الخصائص: «أن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمى الضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والفتحة الألف الصغيرة». ثم يقرر: «فاذا ثبت أن هذه الحركات أبعض للحروف ومن جنسها، وكانت متى أشبعت ومطلت تمت ووفت جرت مجرى الحروف»^(٤).

لكن النحاة العرب اعتبروا أن الحركات خارجة عن الكلمة وذات قيمة ثانوية، فعاملوها غير معاملتهم لحروف المد. وسوف نرى لاحقاً أنهم أخطأوا في ذلك مما أدى بهم إلى استنباط قواعد غير دقيقة. كذلك سيتضح لنا في سياق هذا البحث أن الحركات تقوم بوظيفة مطابقة لوظيفة حروف المد، فكلها من المصوتات. وقد تنبه الشيخ الرئيس ابن سينا بدوره في «رسالة أسباب حدوث الحروف» إلى الطبيعة الواحدة لحروف المد والحركات، بل ذكر أيضاً نسبة الأولى إلى الثانية من حيث طول المدة الزمنية في النطق، حيث قال: «ولكنني أعلم يقيناً أن الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف». وكذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمة، والياء المصوتة إلى الكسرة»^(٥). وإذا كان ابن سينا لم يقرر بشكل نهائي نسبة المصوت الطويل إلى المصوت القصير من حيث المدة الزمنية، فهي ضعف أم أضعاف، فإن الرأي قد استقر حالياً على أن المصوت الطويل يعادل ضعف المصوت القصير وأن الحركة تعادل من حيث زمنها نصف زمن حرف المد. لكن ما يلفت النظر أن ابن سينا قد استعمل مصطلح «مصوت» في وصفه لحروف المد والحركات. والحقيقة أنه استعمل أيضاً مصطلح «صامت»، مما يعني أن الألسنية الحديثة لا تنفرد بهذا الاكتشاف، أي تقسيم أصوات اللغة إلى صامت ومصوت، بل أن من علماء اللغة العرب من عرف هذا التقسيم ولكن دون أن يترك أثراً في مسار علم النحو والصرف. وهكذا ميز ابن سينا بين الواو الصامتة والواو المصوتة، وبين الياء الصامتة والياء المصوتة. أما الألف فلا تكون إلا مصوتة. وقد وجد أن الواو الصامتة قريبة من الفاء في مخرجها وأن الياء الصامتة قريبة من السين والزاي. كذلك عرف ابن جني مصطلح «مصوت» واستعمله في كتاب «الخصائص»، حيث ذكر في «باب في مطل الحروف» مايلي: «والجروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة. وهي الألف والياء والواو»^(٦).

(٤) الخصائص ٣١٥/٢ - ٣١٦.

(٥) الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا: رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى علم. (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٣)، ص ٨٥.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٣ - ٨٥.

(٧) الخصائص ١٢٤/٣.

ولنبداً الآن في مسألة الاعلال. يعرف علماء الصرف الاعلال بأنه «ما تتعرض له أصوات العلة من تغييرات، بحلول بعضها محل بعض، وهو ما يسمونه (الاعلال بالقلب)، أو بسقوط أصوات العلة بكاملها، ويسمونه (الاعلال بال حذف)، أو بسقوط بعض عناصر صوت العلة، وهو ما يسمونه (الاعلال بالنقل أو التسكين)»^(٨). فيما يلي سوف نعالج الحالة الأولى، أي الاعلال بالقلب. وسوف نستشهد على ذلك بمثال ما يسميه الصرفيون «الفعل الأجوف»، أي ما كانت عينه (الحرف الثاني) حرف علة، مثل (قَالَ) و (بَاعَ). يقول الصرفيون أن أصل (قَالَ) هو (قَوْلَ) وأن أصل (بَاعَ) هو (بَيْعَ) وأنه لما تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفاً، فصارت (قَوْلَ : قَالَ) و (بَيْعَ : بَاعَ). لكن الصرفيين لم يوضحوا لنا لماذا تنقلب كل من الواو والياء إلى ألف إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما. علماً بأن مخرج كل مصوت من هذه المصوتات الثلاثة - الواو والياء والألف - مختلف عن مخرج الآخر. ثم إن تغير المصوت في الدليل اللغوي يعني تغير الدال، وتغير الدال يؤدي إلى تغير المدلول - كما أسلفنا - ، أي أن (قَوْلَ) لا يمكن أن تكون (قَالَ) لما بينهما من فروق في المصوتات. والأمر الثاني - وهو الأهم - أن الصرفيين لم يخبرونا من أين جاؤوا بهذا الأصل المزعوم (قَوْلَ وبَيْعَ) الذي بنوا عليه نظريتهم. إن لغة العرب لم تعرف هذا النوع من الألفاظ ولم ترد لها أشباه في أحوالها السامية، علماً بأن النحاة والصرفيين القدرسي لم يلتفتوا إلى اللغات السامية الأخرى، شقيقات العربية - في محاولة تقعيد اللغة العربية. وبديهي أن الألسنية الحديثة ترفض أن تبني على ما هو خارج اللغة أو ليس منها، فكيف إذا كان قائماً على مجرد وهم أو افتراض. ومع ذلك لا بد للمرء أن يتساءل من أين جاء الصرفيون بهذا الأصل المزعوم، ولماذا افترضوه دون سواه. الجواب يكمن فيما يسمى عندهم «الميزان الصرفي». لقد وجدوا أن أكثر ألفاظ العربية يمكن ردها إلى أصول ثلاثية، أي ذات ثلاثة صوامت، فوضعوا وزن (فَعَلَ) ليشتقوا منه بقية الأوزان. ولذلك سمو الصامت الأول فاء الفعل والثاني عينه والثالث لامه نسبة إلى صوامت الوزن (فَعَلَ).

وواضح من ذلك أنهم أولوا اهتمامهم للصوامت دون المصوتات التي اعتبروها معتلة لا تثبت على حال ولا يصح الركون إليها. وهكذا راحوا يزنون الأفعال والأسماء من مجردة ومزيدة. ولكن عندما وصلوا إلى ما يسمى بالفعل المعتل، أي ما كان فيه حرف علة، لم يستجيب الوزن الذي وضعوه لهذه الحالة، إذ أن وزن (قَالَ) لا يمكن أن يكون (فَعَلَ)، لذلك كان لا بد من الزعم والافتراض. لقد وجدوا أن الصوت الثاني في الصيغ الأخرى المشتقة من الفعل الأجوف إما أن يكون واواً كما في (قال يقول قولاً)، وإما أن يكون ياء، كما في (باع يبيع بيعاً). ومن هنا تفتقت أذهانهم عن هذا الأصل المزعوم (قَوْلَ وبَيْعَ). ولقد أكد لنا ابن جنبي توهم النحاة لذلك الأصل، حيث ذكر في الخصائص :

«هذا الموضع كثير الإيهام لاكثر من يسمعه، للاحقية تحته، وذلك كقولنا: الأصل في قام قوم وفي باع بيع. . . وليس الأمر كذلك، بل بضده، وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه.

وأنا معنى قولنا : أنه كان أصله كذا : أنه لوجاء مجيء الصحيح ولم يُغَلل لوجب أن يكون معيئه على ما

(٨) د. عبدالصبور شاعين : المنهج الصوتي للجنة العربية (مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠)، ص ١٦٧. وانظر أيضاً الشيخ أحمد الحملاني : شدا العرف في فن الصرف (القاهرة ١٩٦٩) ص ٢٨٨ وص ١٦٢.

ذكرنا. فأما ان يكون استعمل وقتا من الزمان، ثم انصرف فيها بعد الى هذا اللفظ فمخطأ لا يعتقده احد من اهل النظر^(٩).

الا ان هذا الاصل المزعوم قد أوقعهم في تعقيدات لا حصر لها، حيث واجهوا من الكلمات ما تحققت فيه شروطهم دون ان تنقلب الواو الى الياء الى الف. لذلك راحوا يحصون الالفاظ ويضعون الشروط والقيود حتى بلغ عددها عشرة شروط^(١٠) مما جعل مسألة الاعلال من اعقد مسائل الصرف العربي.

وقد جرت في العصر الحاضر محاولات شتى لتبسيط مسألة الاعلال على يد دارسين عرب وأجانب وفيها يلي سوف نستعرض بايجازاتهم هذه المحاولات قبل ان نعرض لرأينا في هذه المسألة محاولين وضعها في اطارها الصحيح.

رأي فريق من علماء الساميات ان الافعال المعتلة ذات أصول ثنائية وليست ثلاثية وأن اصل (قال) هو (قَل) واصل (يقول) هو (يَقَل) وانما جاءت الالف في (قال) والواو في (يقول) من اطالة الصوت الداخلي القصير. أي حركة القاف. مما جعل هذه الافعال تدخل في نظام الفعل الثلاثي.

والرأي الثاني الذي قال به بعض علماء الساميات لا يبتعد كثيرا عن موقف علماء الصرف العرب.

لقد رأى هذا الفريق أن الأفعال المذكورة كانت منذ البدء ثلاثية وأن المصوتات الطويلة (حروف العلة) فيها جاءت نتيجة القلب أو الحذف: إن أصل (قال) هو (قَوْل) وأصل (قِيلَ) هو (قَوْل) وأصل (يَقُولُ)^(١١). وواضح أن كلا الفريقين قد اعتمد على الظن والتخمين وأن نظرياتهم لم تخرج عن كونها محض افتراض قد يصح وقد لا يصح، ولذلك لا يمكن الركون الى أقوالهم مهما اظهرت من الخلق والاتساق المنطقي. أخيراً جرت محاولة ثالثة على يد الدكتور عبدالصبور شاهين فيها بين الرأيين السابقين واقترب بذلك كثيرا من الحقيقة. لقد وجد أن أصل (قال) هو (قول) وإنها سقطت الواو في الأصل مما أدى الى التهام المصوتين القصيرين - الفتحة التي على القاف والفتحة التي على الواو - في مصوت طويل واحد هو الألف باعتبار أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين، أي أن حرف المذ يعادل حركتين قصيرتين. وقد مثل ذلك من خلال استعمال الحرف اللاتيني أو الكتابة الصوتية: إن (قَوْل) هي q u a l - u - a l l u ، فإذا سقطت الواو (a) اتصلت الفتحتان القصيرتان قبلها وبعدها فصارت الكلمة (قال): q u a l l u ، وكل ما حدث هو اسقاط الواو للتخلص من ثلاثية المقطع في (قَوْل) واستبدال مصوت طويل بذلك هو الألف^(١٢). لقد حاول د. شاهين في هذا التفسير أن يستفيد من بعض معطيات اللسانيات الحديثة، لاسيما ما يتعلق منها بنسبة المصوتات القصيرة الى الطويلة، الا انه وقع مع ذلك في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الصرفيون القدامى عندما انطلق من اصل مفترض غير موجود، هو (قَوْل). ولقد رأينا أن هذا الاصل المزعوم لم تعرفه اللغة العربية وأن النحاة قد ابتدعوه من لدن أنفسهم لمطابقة الميزان الصرفي (فَعَلَ) الذي كان أيضا من وضعهم^(١٣). وفي رأينا أن الحل الأمثل ينبغي أن ينطلق مما هو موجود في اللغة فعلا دون اللجوء الى افتراضات ومزاعم لا أساس لها.

(٩) الخصال ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(١٠) انظر لهذا المرفع ص ١٢٢.

(١١) انظر هنري طليش: العربية الفصحى. تعريب الدكتور عبدالصبور شاهين. (دار الشرق، بيروت ١٩٨٣)، ص ٢٠١.

(١٢) انظر د. عبدالصبور شاهين. المنهج الصوتي للغة العربية، ص ٨٢ - ٨٥ و ص ١٩٢ - ١٩٥.

وفي سبيل ذلك سوف نستعرض أولاً اسناد الفعل الأجوف الى ضائير الرفع في الماضي والمضارع ثم نحاول استنباط القواعد التي تضبط عملية التحول التي تطرأ على هذا النوع من الأفعال :

الماضي

الشخص جنس	المتكلم	المخاطب	الغائب
مذكر	مفرد قُلْتُ - تَئْتُ بَعْتُ - تَبَعْتُ	قُلْتُ - تَئْتُ بَعْتُ - تَبَعْتُ	قَالَ بَاعَ
	مثنى	قُلْتُمَا - تَبَعْتُمَا بَعْتُمَا - تَبَعْتُمَا	قَالَ - ا بَاعَ - ا
	جمع	قُلْنَا - تَبَعْنَا بَعْنَا - تَبَعْنَا	قَالَ - و بَاعَ - و
مؤنث	مفرد	قُلْتُ - تَئْتُ بَعْتُ - تَبَعْتُ	قَالَتْ - تَئْتُ بَاعَتْ - تَئْتُ
	مثنى	قُلْتُمَا - تَبَعْتُمَا بَعْتُمَا - تَبَعْتُمَا	قَالَ - تَا بَاعَ - تَا
	جمع	قُلْنَا - تَبَعْنَا بَعْنَا - تَبَعْنَا	قَالَ - نَ بَاعَ - نَ

المضارع

الشخص جنس	المتكلم	المخاطب	الغائب
مذكر	مفرد أَقُولُ - أَبِيعُ أَقُولُ - أَبِيعُ	تَقُولُ - تَبِيعُ تَقُولُ - تَبِيعُ	يَقُولُ - يَبِيعُ يَقُولُ - يَبِيعُ
	مثنى	تَقُولَانِ - تَبِيعَانِ تَقُولَانِ - تَبِيعَانِ	يَقُولَانِ - يَبِيعَانِ يَقُولَانِ - يَبِيعَانِ
	جمع	تَقُولُونَ - تَبِيعُونَ تَقُولُونَ - تَبِيعُونَ	يَقُولُونَ - يَبِيعُونَ يَقُولُونَ - يَبِيعُونَ
مؤنث	مفرد	تَقُولِينَ - تَبِيعِينَ تَقُولِينَ - تَبِيعِينَ	يَقُولِينَ - يَبِيعِينَ يَقُولِينَ - يَبِيعِينَ
	مثنى	تَقُولَانِ - تَبِيعَانِ تَقُولَانِ - تَبِيعَانِ	يَقُولَانِ - يَبِيعَانِ يَقُولَانِ - يَبِيعَانِ
	جمع	تَقُولْنَ - تَبِيعْنَ تَقُولْنَ - تَبِيعْنَ	يَقُولْنَ - يَبِيعْنَ يَقُولْنَ - يَبِيعْنَ

ان نظرة فاحصة على صيغ الفعل الماضي سوف تكشف لنا بوضوح تام أنها تشترك في الأعم الأغلب بجذر واحد هو (قُل . . qul) ، ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى صيغ الفعل الماضي عند استناده الى الشخص الغائب، حيث يبدو أن جذره هو (قال qal) باستثناء جمع الاناث، حيث يعود الجذر الى حالته الأصلية (قُل . . قُل) . لنلق الآن نظرة ثانية على صيغ الفعل المضارع وسوف نرى أنها تشترك جميعا بجذر واحد هو (قُل . . قول . . qul) باستثناء جمع الاناث في المخاطب والغائب، حيث أن جذرها هو جذر الماضي (قُل . . قُل) ، إذا استثنينا الآن - وبصورة مؤقتة - مسألة تصرف الفعل الماضي مع الشخص الغائب لتبين لنا أن للفعل الأجوف جذرين، واحداً للماضي هو (قُل . . قُل) وآخر للمضارع هو (قُل . . قول . . قُل) وأنه لا فرق بينهما إلا في طول المصوت الداخلي، فهو قصير في جذر الماضي وطويل في جذر المضارع. ثم إن هذين المصوتين من جنس واحد: حركة الضمة في جذر الماضي وحرف المد الواو في جذر المضارع. وتبعاً لذلك نستطيع أن نقرر الآن أن جذر المضارع قد نتج عن إطالة الصوت الداخلي القصير في جذر الماضي .:

قُل ← قول ، مما يعني أن الواو أو الياء اللتين قامت من أجلها أكثر قواعد الاعلال ليستا أصليتين في الكلمة ، بل نشأتا عن إطالة المصوت القصير في الجذر الأصلي . وسوف يتأكد لنا ذلك لاحقاً من خلال استعراض بقية المشتقات .

لنعد الآن إلى جذر الماضي مع الشخص الغائب (قال)، الذي يمتاز عن مثيله مع المتكلم والمخاطب بوجود حرف ألف في وسطه، فما هي هذه الألف ومن أين جاءت ؟

لكي نقرر في أمر هذه الألف ينبغي أن نقارن بين صيغة الماضي عند استناد الفعل الى الشخص الغائب وبين صيغته عند استناده الى المتكلم والمخاطب .

وهنا نلاحظ أن صيغته في الحالة الثانية تتألف من الجذر (قُل . . قُل) مضافاً إليها لاحقة تتغير حسب الشخص والعدد والجنس . فاللاحقة (. . نا) في (قُلْنَا) مشتقة من ضمير الرفع المنفصل (نحن)، واللاحقة (. . ت) في (قُلْتَ) مشتقة من (أنت) أو أنها صيغة مختصرة من هذا الضمير . وكذلك فإن اللاحقة (. . تيا) في (قُلْتِيا) مشتقة من الضمير (أنتِيا)، واللاحقة (. . تُم) في (قُلْتُم) من الضمير (أنتم)، و (. . تِ) في (قُلْتِ) من الضمير (أنتِ) و (. . تَن) في (قُلْتَن) من الضمير (أنتن) .

هذا يعني أن اللواحق المذكورة هي صيغ مختصرة من ضيائر الرفع المنفصلة وأنها تدل على الشخص والعدد والجنس . أما في حالة استناد الفعل الماضي الى الشخص الغائب فإن اللواحق أمرها مختلف . وباستثناء (نَ) أي نون النسوة في (قُلْنَ) - وهي صيغة مختصرة من (هُنَّ) فإن بقية اللواحق لا تدل على الشخص بل على الجنس والعدد فقط . ان (. . تا) في (قُلْتا) تدل على التأنيث والتثنية، لكنها لا تدل على الغيبة . وكذلك (. . تِ) تاء التأنيث في (قُلْتِ) تدل على التأنيث والافراد ولا تدل على الشخص الغائب ولا علاقة لها بضمير الرفع (هي) مثلها لا علاقة للاحقة (گگگ تا) في (قُلْتا) بضمير الرفع (هما) .

أما اللاحقة (. . و) في (قالوا) فإنها ليست أكثر من علامة لجمع الذكور سواء في الأفعال أو في الأسماء . وإذا كانت تقتزن في الأسماء مع النون إلا أنها قد تفقدها في حالات معينة معروفة . ثم إنها تقتزن بالنون في الفعل المضارع (يقولون) .

هذا يعني أو وجود النون أو عدمه لا يغير شيئا من مدلول (. . و) والتي تدل على الجنس والعدد دون الشخص . ويكفي أن تشير إلى أنها تبدل في المضارع على جمع الذكور للشخص الغائب وللشخص المخاطب ، أي أنها لا تختص بشخص دون شخص بما يؤكد أنها لا تحمل دلالة على الشخص . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن اللاحقة (. . ا) في (قالا) التي تدل على التثنية ، ولذلك سماها القدامى (ألف الاثنين) . وهي تدل على التذكير لخلوها من تاء التانيث مقارنة مع اللاحقة (. . تا) في (قالتا) . أخيرا بقيت لدينا الصيغة (قال) ، وهي صيغة قد خلت ظاهريا من لاحقة تضاف إليها لتدل على ما دلت عليه اللواحق الأخرى عند إسناد الفعل إلى الشخص الغائب .

لكن الحقيقة أن صيغة (قال) ليست خالية تماما من اللواحق ، إذ إن الفتحة التي في آخر الفعل هي لاحقة حقيقية تدل على ما دلت عليه زميلاتها من اللواحق الأخرى . فإذا كانت الألف - وهي مصوت طويل - تدل على التثنية فلماذا لاتدل الفتحة - وهي مصوت قصير - على الافراد ، علما بأن الفتحة تعادل نصف الألف وهي من جنسها كما رأينا . وإذا كان المرء يجد صعوبة في قبول هذه الفكرة فلأن علم الرسم العربي يبرز المصوتات الطويلة دون القصيرة ، أي أننا نكتب الألف دون الفتحة وكذلك الواو دون الضمة ومثلها الياء دون الكسرة . أما من حيث النطق فلا تقل الوظائف الطويلة التي تؤديها المصوتات القصيرة في شيء عن الوظائف التي تؤديها مثيلاتها من المصوتات الطويلة . وبالتالي لا مناص لنا أن نقرر بأن الفتحة في (قال) هي لاحقة حقيقية تدل على ما دلت عليه بقية اللواحق مع الشخص الغائب ، أي على الجنس والعدد . وهنا لابد أن يرسم في ذهننا السؤال المشروع التالي : إذا كانت هذه اللواحق الخمسة - باستثناء نون النسوة - تدل على الجنس والعدد فقط ، فما الذي يدل على الشخص الغائب إذن ؟ إذ لابد من دال يدل عليه . وجوابنا أن الألف التي في وسط الفعل (قال) هي الدال الممكن الوحيد على الشخص الغائب . ونستطيع أن نبرهن على ذلك بأنه حيث دلت اللواحق على الشخص لم تظهر هذه الألف . فهي لم تظهر عند إسناد الفعل إلى الشخص المتكلم لأن لواحق الفعل تدل عليه بالمثل ، بل لم تظهر عند إسناد الفعل إلى الشخص الغائب في جمع الاناث لأن نون النسوة قد دلت عليه .

ماذا يعني ذلك ؟ يعني أن الألف دخيلة على الفعل مثلما أن اللواحق دخيلة عليه أيضا . أي أن الألف لم تنشأ عن انقلاب الواو في (قَوْل) ولا عن انقلاب الياء في (يَبَّع) ، بل أضيفت هذه الألف إلى الفعل من خارجه ، وهذا يلغي فكرة (الاعلال بالقلب) من الأساس . وقد رأينا سابقا أن الواو يحد ذاتها ليست أصيلة في الفعل بل هي ناشئة عن إطالة المصوت الداخلي القصير - أي الضمة في (. . قُلْ) - لتصبح مصوتا طويلا في جذر المضارع ، أي واو في (. . قُول . .) ، وبالتالي ليس من شأنها أن تنقلب أو تتحول بل هي خاصة بجذر المضارع وحده .

لقد توصلنا حتى الآن إلى فكرتين أساسيتين جديدتين بشأن الاعلال ، تقوم الأولى على أن حرف المد في جذر المضارع قد نشأ عن إطالة المصوت الداخلي القصير في جذر الماضي ، وليس عن أصل مزعوم مثل (قَوْل) و (يَبَّع) .

وتقوم الفكرة الثانية على أن - الألف في (قال) و (باع) دخيلة على جذر الفعل وتؤدي وظيفة محددة هي الدلالة على الشخص الغائب لخلو اللواحق من هذا المدلول . فيما يلي سوف نتوسع قليلا في شرح هاتين الفكرتين : بخصوص مبدأ استخلاص بعض صيغ العربية من بعض عن طريق إطالة المصوتات الداخلية القصيرة استطاع هنري فليش^(١٣) أن يحصر الصياغة الاسمية في اللغة العربية في سبع صيغ أساسية خالية تماما من المصوتات الطويلة وبين كيف أن اللغة العربية قد طورت من هذه الصيغ السبع أخرى كثيرة بلغ عددها سبعا وعشرين صيغة ، وذلك عن طريق ما أسماه «التحول الداخلي» أي من خلال اشباع المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا . كما بين أن الأمر نفسه شائع في صيغ الأفعال وأن بعض الصيغ قد انشقت من بعض بواسطة إطالة المصوت الداخلي القصير ، مثل : فَعَلَ . فاعَلَ ، تفَعَّل . تفاعل^(١٤) ، مما يشير إلى أن الظاهرة شائعة جدا في اللغة العربية وأنها لم تأت بدعة في اللغة حينها نسبنا أصل جذر المضارع إلى جذر الماضي . ثم إن العربية قد اتبعت هذا المنهاج مع الصوامت مثلما اتبعته مع المصوتات .

أليست صيغة (قَتَلَ) مشتقة من صيغة (قَتَلْ) وذلك من خلال تضعيف الصامت الأوسط في الفعل ، أي من خلال ما يسمى تشديد الحرف ؟ وقياسا على ذلك فإن إطالة المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا هي ظاهرة مشابهة ، وما ينطبق إذن على الصامت ينطبق أيضا على المصوت . لقد اشتقت (قَاتَلَ) من (قَتَلَ) بواسطة اشباع الفتحة التي تلي الصامت الأول فانقلبت إلى ألف ، وكذلك اشتقت (قَتَلْ) من (قَتَلَ) بواسطة مضاعفة الصامت الثاني ، أي أن اشباع الفتحة في (قَاتَلَ) يشبه تشديد التاء في (قَتَلَ) ، فهي تؤدي كلها في نهاية المطاف إلى مضاعفة عنصر صوتي داخل النسيج ، سواء أكان صامتا أم مصوتا . وما يقال هنا عن التضعيف ينطبق بالطريقة نفسها على قُلْ . قُولْ . أو بَع . بَعْ . بَيْع . . . ، مما يعني أن جذر المضارع قد نتج عن جذر الماضي بواسطة اطالة أو مضاعفة المصوت الداخلي القصير . ونستطيع بطريقة معكوسة أن نبرهن على أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين . لقد عرف عن بعض العرب أنهم يعمدون في حالة المقطع المديد (صامت + مصوت طويل + صامت مضعف) إلى تقسيم المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين منفصلين بواسطة همزة ، فبدلا من قراءة (ولا الضالين) يقرؤون (ولا الضالين) حسب رواية ابن جني^(١٥) . هذا يعني أننا نستطيع تجزئة المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين مثلما نستطيع تجزئة الصامت المضعف إلى صامتين متتاليتين .

أما بخصوص المبدأ الثاني في أن الألف في (قال) و (باع) دخيلة على جذر الفعل وليست ناشئة عن انقلاب الواو أو الياء ، فهناك أكثر من شاهد على ذلك . إن الألف التي في اسم الفاعل ، مثل : قَاتَلَ وبائع ، هي الألف نفسها التي في الفعل الماضي (قال) و (باع) ، أي أن تلك الألف تدل على الفاعل ولا شيء غيره . وقد تنبه قديماً إلى ذلك ابن مضاء الأندلسي في كتابه «الرد على النحاة» عندما ذكر أن النحاة يقولون في مثل (زيد ضارب عمرا) ، أن في (ضارب) ضميرا مستترا تقديره هو فاعل ، لكن ابن مضاء يرى أن (ضارب) تدل على الصفة وصاحبها فلا داعي للتأويل^(١٦) .

(١٣) هنري فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٢ وما يليها .

(١٤) المرجع نفسه ، ص ١٤١ وما يليها .

(١٥) الخصائص ج ٣ ، ص ١٤٧

(١٦) ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٤٧) ، ص ١٠٠

وصاحب الصفة هو الفاعل . وإذا كان ابن مضاء لم يحصر الدال على الفاعل في الألف وتركه بلا تحديد ، إلا أنه أقرب كثيرا من الصواب عندما رأى أن شيئا ما في اسم الفاعل يدل عليه وأنه لا حاجة بالتالي إلى تقدير ذلك الفاعل تقديراً . أما الصرفيون فيقولون بأن أصل (قائل) هو (قاول) وأصل (بائع) هو (بايع) وأن الهمزة قد انقلبت عن الواو في (قاول) وعن الياء في (بايع) ، وكانوا قبل ذلك قرروا بأن الألف في (قال) قد انقلبت عن الواو في (قَوَّل) كما انقلبت في (باع) عن الياء في (بيع) ، مع أن الواو في (قاول) هي الواو نفسها في (قَوَّل) والياء في (بايع) هي الياء نفسها في (بيَّع) .

كيف إذن انقلبت إلى ألف في (قال) و (باع) بينما انقلبتا إلى همزة في (قائل) و (بائع) ، علماً بأن الألف لم تنزل قائمة في هاتين الصيغتين الأخيرتين ؟ إن اطراد القاعدة يقتضي أن تكون الألف في اسم الفاعل قد انقلبت عن الواو والياء وليس الهمزة . لكن الحقيقة أنه لا الألف ولا الهمزة قد انقلبتا عن الواو أو الياء المفترضتين . ويبدو أن هناك من الصرفيين من تنبه إلى ذلك فابتدع تفسيراً مختلفاً ، وهو أن الهمزة في (قائل) و (بائع) قد انقلبت عن الألف في (قال) و (باع) وليس عن الواو في الصيغة المفترضة (قاول) أو عن الياء في الصيغة المفترضة (بايع) ^(١٧) . إن هذا الافتراض يعني أننا هنا أمام سلسلة لا متتهمة من الانقلابات التي لا تخضع لقانون ، حيث أن الواو في (قَوَّل) والياء في (بيَّع) قد انقلبتا إلى الألف في (قال) و (باع) ثم انقلبت الألف الجديدة نفسها إلى همزة في (قائل) و (بائع) . لكن هذا الفريق من الصرفيين لا يخبرنا من أين جاءت الألف في صيغة اسم الفاعل ، مع أنها تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه الألف في الفعل الأجوف ، مما يؤكد أن هذه الألف التي في اسم الفاعل هي الألف في الفعل الأجوف وأنها لن تنقلب بالتالي إلى همزة .

إن هذا الاختلاف في التفسير ناتج عن عدم توصل علماء الصرف إلى حقيقة التغيرات التي تطرأ على المصوتات وإلى عدم فهمهم للطبيعة الفيزيائية لهذه المصوتات . وسوف نعود إلى مسألة أصل الهمزة في سياق هذا البحث . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الألف في الفعل المنقوص هي الألف نفسها التي رأيناها في الفعل الأجوف وفي اسم الفاعل . وسواء أوردت هنا مقصورة أم ممدودة فإن هذا لا يغير شيئاً من واقع الأمر ، لأنه شأن من شؤون علم الرسم العربي . إن الألف لا ترد في الناقص الواوي أو اليائي إلا في صيغة الماضي عند اسناده إلى الشخص الغائب ، مثل : (قضى) و (بكى) و (دعا) ، باستثناء حالات قليلة تظهر فيها الألف في المضارع أيضاً ، مثل : (سعى - يسعى) . هذا يعني أن الألف في الفعل المنقوص تسلك السلوك ذاته الذي رأيناه في الفعل الأجوف . لكنها لا تظهر هنا إلا مع المفرد المذكر ، بينما تختفي مع المثنى والجمع والمؤنث بسبب دخول لواحق العدد والجنس على الفعل . أما مع المفرد المذكر فإن اللاحقة التي تدل على العدد والجنس ، أي الفتحة ، هي ذات طبيعة واحدة كالألف بحيث تندمج معها وتختفي ، لأنه لا يمكن تحريك الألف بالفتحة . فالألف في الفعل المنقوص دخيلة على جذر الفعل وتدل على الشخص الغائب وليست منقلبة عن واو أو ياء .

وكما رأينا في الفعل الأجوف فإن الواو والياء في مضارع الفعل الناقص ليستا أصليتين بل نتجتا عن إطالة المصوت القصير في صيغة الماضي . إلا أنهما تظهران في ماضي الفعل الأجوف في هيئة مصوت قصير ، بينما تظهران في

(١٧) انظر عبده الراجحي : التطبيق الصرفي (بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨٤) ، ص ٧٦ .

ماضي الفعل المنقوص في هيئة حرف صامت . وسوف نرى لاحقا أن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، مما يجعل المبدأ الذي استنبطناه في حالة الفعل الأجوف يصح أيضا في حالة الفعل المنقوص ، أي أن جذر المضارع قد نشأ عن جذر الماضي من خلال إطالة المصوت القصير .

إذا كان المصوت الطويل في جذر المضارع قد نتج عن إطالة المصوت القصير في جذر الماضي ، فما هو أصل الواو والياء الصامتين في المصدر (قُول) و (يُبِع) ؟ ان ما درج علماء الصرف على تسميته بالمصدر ليس مصدراً في حقيقة الأمر بل هو مشتق من جذر المضارع ، مثلما أن جذر المضارع قد اشتق بدوره من جذور الماضي ، أي أن - (قُول) قد اشتقت من (. . قُول) وأن (يُبِع) قد اشتقت من (. . بيع) ، مما يعني أننا أمام متوالية اشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم
قُل ← قُول ← قُول

وتفصيل ذلك كما يلي :

ذكرنا أن جذر المضارع (. . قُول) و (. . بيع) قد نتج عن جذر الماضي (قُل) و (بيع) وذلك بواسطة إطالة المصوت الداخلي القصير في هذا الأخير . كما ذكرنا أيضا أن المصوت الطويل يعادل ضعف المصوت القصير ، أي أن المصوت الطويل يتألف من مصوتين قصيرين :

فتحة + فتحة = ألف طويلة

ضمة + ضمة = واو طويلة

كسرة + كسرة = ياء طويلة

ولو نظرنا الآن الى جذر المضارع (. . قُول) و (. . بيع) لوجدنا أنه يشتمل على مصوت طويل نتج عن اندماج مصوتين قصيرين . وبمقارنة بالاسم (قُول) و (يُبِع) سوف يتضح لنا أن النصف الاول من المصوت الطويل في جذر المضارع قد سقط وحل محله مصوت قصير من نوع آخر هو الفتحة ، ولذلك تحركت القاف في (قُول) والباء في (يُبِع) بالفتحة . لكن النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع قد بقى على حاله وظهر في هيئة واو صامتة في الاسم وياء صامتة في الاسم الثاني .

ويمكننا تمثيل ذلك على الشكل التالي :

ان جذر المضارع (. . قُول) عبارة عن ق + ك + ع + ل

وكذلك جذر المضارع (. . بيع) عبارة عن ب + ح + ع + ع

وعندما حلت الفتحة في الاسم محل المصوت القصير الأول من جذر المضارع صارت على الشكل التالي :

ق + ك + ع + ل

ب + ح + ع

هذا يعني أن الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (يَبِيع) ليستا سوى النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع ، وأن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، فكأن (قَوْل) هي في أصلها (قُ ل) وأن (يَبِيع) هي في أصلها (بَ ي ع) . ولو جربنا نطقها على هذا الشكل ، أي نطق الضمة دون صامت قبلها ونطق الكسرة دون صامت قبلها أيضا لوجدنا أنه لا يختلف كثيرا عن نطق الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (يَبِيع) مع فارق واحد ، هو أننا نطق في أول الضمة وكذا في أول الكسرة بصوت الهمزة ، وبتسهيل الهمزة نحصل على التوالي على واو صامتة وعلى ياء صامتة ، مما يؤكد أن كلا من الواو الصامتة والياء الصامتة ليستا في الأصل سوى مصوت قصير ، أي ضمة في حالة الواو وكسرة في حالة الياء بعد تسهيل الهمزة التي في أول كل منهما . أما من أين جاءت الهمزة ولماذا ، فهذا ما سوف نشرحه بعد قليل في مبحث الهمزة . ولو أردنا التعبير عن ذلك بلغة اللسانيات الحديثه قلنا بأن جذر المضارع في (.. قَوْل ..) و (.. يَبِيع ..) يشتمل على مصوت طويل بينما يشتمل الاسم (قَوْل) و (يَبِيع) على مصوت مزدوج مؤلف من مصوتين قصيرين متعارضين : فتحة وضمة في (قَوْل) وفتحة وكسرة في (يَبِيع) . وما قلناه عن المتوالية الاشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم

يمكن التعبير عنه على الشكل التالي :

مصوت قصير ← مصوت طويل ← مصوت مزدوج

بقي أن نشير إلى أن تحول مصوت طويل إلى مصوت مزدوج لا يقتصر في اللغة العربية على الحالة التي نحن بصدددها ، بل هنالك حالات أخرى أيضا يحدث فيها مثل هذا التحول . وحالة النصب في الفعل المضارع المعتل الآخر إذا كان متبها بالواو أو الياء هي حالة مماثلة يتحول فيها المصوت الطويل إلى مصوت مزدوج . ان فعل (يدعو) ينتهي بمصوت طويل في حالة الرفع ، لكنه ينتهي في حالة النصب (لن يدعو) بمصوت مزدوج هو الواو الصامتة والفتحة . وكذلك فعل (يرمي) في حالة الرفع و (لن يرمي) في حالة النصب . والفرق بين حالتنا السابقة وهذه الحالة هو أنه في حالة الاسم (قَوْل) و (يَبِيع) حلت الفتحة محل النصف الأول من المصوت الطويل في جذر المضارع ، بينما حلت الفتحة في حالة الفعل المضارع المنصوب (لن يدعو) و (لن يرمي) محل النصف الثاني من المصوت الطويل ، أي أن الواو الطويلة والياء الطويلة في الحالة الأولى قد تحولتا إلى فتحة متبوعة بضمة وإلى فتحة متبوعة بكسرة في (قَوْل) و (يَبِيع) ، بينما تحولتا في الحالة الثانية إلى ضمة متبوعة بفتحة وإلى كسرة متبوعة بفتحة في (يدعو و يرمي) . وهكذا نتج في الحالتين مصوت مزدوج .

ثالثا : حقيقة الهمزة

أوضحنا حتى الآن أن فكرة انقلاب المصوتات بعضها عن بعض فكرة غير صحيحة وأنها قد قامت على افتراض وجود أصول متوهمة اخترعها النحاة من بنات أفكارهم لمطابقة الميزان الصرفي الذي وضعوه . كذلك بينا أن أقصى ما يمكن أن يحدث للمصوت هو أن يتحول إلى مصوت من جنسه أو إلى مصوت مزدوج - كما رأينا آنفا . أما ما خلا ذلك فوهم لا أساس له . ولكن ماذا عن انقلاب المصوتات إلى همزة حسب ادعاء الصرفيين ؟ أنهم يقولون بانقلاب

الواو في (قائل) إلى همزة في (قائل) وانقلاب الياء في (بايع) إلى همزة في (بائع) ، أي أنهم يفترضون أصل (قائل) : قائل وأصل (بائع) : بايع انطلاقاً من الأصول المفترضة (قَوْل) و (بَيْع) . وواضح أن الصرفيين هنا قد لجأوا مرة ثانية إلى الافتراض والظن ، مما ترفضه اللسانيات الحديثة . والأمر الثاني أن الهمزة ليست من جنس المصوتات بل هي من الصوامت ، وهذا ما لم ينكره القدماء . لكنهم مع ذلك أخطأوا في فهم الهمزة . وقيل أن نبحت عن أصل الهمزة في أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) سوف نستعرض بإيجاز موقف القدماء من الهمزة لتبين الأسباب التي جعلتهم يقعون في الخطأ .

لقد أجمع القدماء تقريباً على أن الهمزة من الأصوات المجهورة ، مع أن الدراسات الصوتية الحديثة لم تترك مجالاً للشك في أن الهمزة لا تدخل في عداد المجهورات . ويرى فريق من الدارسين اليوم أن الهمزة صوت مهموس ويفضل فريق آخر أن يعتبرها لا مجهورة ولا مهموسة ^(١٨) .

ويبدو أن من أسباب وقوع القدماء في الخطأ أنهم قد أخذوا بما أورده سيبويه في «الكتاب» حول الهمزة دون تمحيص . لقد ذكر سيبويه أن الهمزة واحدة من الأصوات التسعة عشر التي عدها مجهورة وعدها من بينها أيضاً المصوتات الطويلة الثلاثة : الألف والواو والياء ^(١٩) ، مما سوغ له ولمن بعده القول بإمكانية انقلاب المصوتات إلى همزة .

ماهية حقيقة الهمزة إذن ؟

ينبغي التأكيد قبل كل شيء أن الهمزة ليست من حروف المباني وأن وجودها أو عدمه لا يغير شيئاً من مدلول الكلمة بخلاف بقية أصوات اللغة التي يؤدي استبدال واحد منها بغيره أو سقوطه إلى ظهور نسج صوتي جديد يحمل مدلولاً مختلفاً . وعلى سبيل المثال ، ان قولنا (يومنون) دون همزة لا يدل على غير ما يدل عليه قولنا (يومنون) بنطق الهمزة .

وفي المقابل لو أسقطنا من كلمة (يومنون) حرف النون مثلاً لظهر لدينا نسج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يومون) * . ولو أبدلنا من الميم قاف لظهر لدينا أيضاً نسج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يوقنون) . وهذا ما ندعوه في اللسانيات الحديثة «الوظيفة التمييزية» . وتعني هذه الوظيفة أن غياب صوت لغوي من أصوات النسج الصوتي أو حلول صوت لغوي آخر مكانه يؤدي إلى ظهور نسج صوتي جديد بمدلول جديد ، لأن كل صوت لغوي يميز من خلال وجوده أو عدمه وكذلك من خلال موقعه أيضاً بين نسج صوتي وآخر . ولذلك سميت وظيفته بالوظيفة التمييزية . أما غياب الهمزة في النسج الصوتي فلا يؤدي إلى ظهور نسج صوتي جديد ولا إلى تغير في المدلول الذي يحمله النسج ، لأن وظيفة الهمزة ليست تمييزية بل هي «وظيفة تباينية» قبل كل شيء . ومعنى الوظيفة التباينية أن الصوت اللغوي يساعد في أن يسهل على السامع عملية تحليل الكلام إلى وحدات متعاقبة ^(٢٠) . أن وظيفة التباين

(١٨) انظر كمال محمد بشر : علم اللغة العام - الأصوات (القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٨٠) ص ١١٣ .

(١٩) سيبويه . الكتاب (القاهرة : مطبعة بولاق ١٣١٦ هـ) ، ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٢٠) انظر : اندريه مرتينييه ، مبادئ اللسانيات العامة ، ص ٥٦ .

* والأصح «يومنون»

هذه غالباً ما تكون منوطة بالنبر في أكثر اللغات المعروفة . لكن الهمز في حقيقته ليس الا نوعاً من أنواع النبر . وكانت العرب تنبر بأشكال مختلفة منها الهمز والمد .

ثم ان تعريف ابن سينا للهمز في «رسالة أسباب حدوث الحروف» يؤكد هذه الحقيقة فالهمزة عنده «حفر قوى من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير»^(٢١)

كذلك فالهمز لغة هو الضغط أو النبر ، لذلك لا عجب ان العرب كانت تسقط الهمز من كلامها في مناسبات كثيرة ، ومنها قولهم^(٢٢) «وَيْلَهُ» بمعنى ويل لأمه ، وحكاية أحمد بن يحيى قول المرأة لبناتها وقد خلا الأعرابي بهن «أَي السَّوْتَيْتِي» (تريد : أَيْ السوء أنتِ) . كما ورد في القراءات اسقاط الهمزة في مواضع عديدة ، منها قراءة الكسائي «بِئْسَ أَنْزِلُوكَ» (البقرة ٤) وقراءة ابن كثير «أَنهَا لَحْدَى الْكَبْرِ» (المذثر ٣٥) . أخيراً ذكر ابن جني أن أصل لفظ الجلالة (الله) هو «الاه» فحذفت الهمزة وأضيفت (ال) التعريف ، وكذلك كلمة (الناس) فإن أصلها «أناس»^(٢٣)

الا انه تواجهنا في اللغة العربية ألفاظ تبدو فيها الهمزة أصلية لأول وهلة بحيث لا يمكن اسقاطها أو تسهيلها أو ابدالها . ويتجلى هذا الأمر على نحو خاص عندما تكون الهمزة متحركة ، كما في مطلع الالفاظ التالية : أحوال ، أسرى أو اذا وردت في موقع العين مثل : سأل وسأل وسؤال أو في موقع اللام مثل : بدأ ودرأ وما فتيء .

لنتأمل نطقنا للاسماء المبدوءة بأداة التعريف (ال) اذا وقعت في أول الكلام ، كقولنا : الرجل ، الباب الخ . . . انه لا يخطر ببالنا أننا نبدأ هنا بنطق الهمزة مع أننا لا نملك نطق صوت الالف في مطلع هذه الالفاظ دون نطق الهمزة في أولها . ذلك ان الهمزة تشكل جزءاً لا يتجزأ من مطلع (ال) التعريف مثلما لا يعتمد على الرسم في اللغات الاخرى الى كتابة همزة في مطلع هذا النوع من المصوتات مع ان الهمزة موجودة . ومثال ذلك في الالمانية Achten (احترم) و Essen (أكل) و Irdisch (دنيوي) ، وفي الانجليزية After (بعد) و Us (حالة المفعول من ضمير المتكلم الجمع) و Increase (زيادة) ، وفي الفرنسية Amour (حُب) و Eau (ماء) و homour (دعابة) ، وفي الفارسية «است» (يكون) و «ايشان» (هم) و «اسب» (حصان) و «آب» (ماء) . و «اطاق» (غرفة) .

وفي كل هذه الامثلة توجد همزة في مطلعها لانها مبدوءة بمصوت . لكن اللغات الاخرى لا تكتب الهمزة بل تكتب المصوت فقط لان الهمزة ليست الا جزءاً من المصوت اذا ورد غير مسبوق بصامت . ودليل ذلك ان صوت الهمزة يختفي من مطلع هذه الامثلة جميعاً حالما يصبح مصوت المطلع مسبقاً بحرف صامت ، ومثال ذلك في الالمانية ان كلمة Essen (أكل) تصبح Messen (قاس ، كال) اذا دخل عليها الصامت (m) في اولها ولا يبقى فيها اثر للهمزة ، ومثلها في الانكليزية كلمة Increase اذا دخلت عليها an (اداة التنكير) ، وفي الفرنسية تختفي الهمزة من مطلع Amour اذا دخلت عليها أداة التعريف فتصبح l'amour ، وفي الفارسية تختفي الهمزة ايضاً من مطلع

(٢١) رسالة أسباب حدوث الحروف ، ص ٧٢

(٢٢) انظر الخصائص ج ٣ ، ص ١٥١ - ١٥١

(٢٣) الرجوع نفسه .

«است» اذا دخلت عليها الهاء فتصبح «هست» (بمعنى موجود) ، مما يشير الى ان ما كان في مطلع تلك الكلمات ليس همزة بل مصوتا وأن الصوامت التي ادخلت عليه تحركت به فاختلف صوت الهمزة .

وقياسا على ذلك فان ما يتوهمه المرء من وجود همزة في (سأل) ومشتقاتها ليس الا مصوتا داخليا ، اي ان الهمزة في (سأل) هي في حقيقة امرها ذلك المصوت القصير الذي نسميه فتحة والهمزة في (سئل) هي كسرة ، والهمزة في (سؤال) هي ألف ممدودة ليس الآ .

ولو كتبنا كلمة (سؤال) هكذا «سَال» بلا همزة فسوف نطقها بلفظها الاصلي نفسه ، لان الهمزة ليست الا من خداع الكتابة . ويمكننا هكذا تطبيق المبدأ المذكور على بقية الامثلة .

يبقى اخيرا نوع واحد من انواع الهمز اذا ورد في آخر الكلمة بعد الالف ، مثل : ماء ، هواء وغير ذلك ، وقد شرح ابن جني هذا النوع من الهمز بما يقترب كثيرا مما قلناه عن وظيفتها التباينية بالمفهوم اللساني الحديث . لقد ورد في «الخصائص» تحت «باب في مظل الحروف» ما يلي : «والحروف المطولة هي الحروف الثلاثة اللَّيْنَةُ المصَوِّتَةُ . وهي الالف والياء والواو . اعلم ان هذه الحروف اين وقعت وكيف وجدت ففيها امتداد ولين الا ان الاماكن التي يطول فيها صوتها ، ويتمكن مدتها ، ثلاثة . وهي أن تقع بعدها الهمزة ، أو الحرف المشدد ، أو أن يوقف عليها عند التذکر . فالهمزة نحو كساء ، ورداء ، ونخطيئة ، ورزيفة ، ومقرؤة ، ومخبوئة . وانما تمكن المد فيهن مع الهمز أن الهمزة حرف نأي منشؤه ، وتراخي مخرجه ، فاذا أنت نطقت بهذه الاحرف المصوِّتة قبله ، ثم تهاديت بهن نحوه طلن ، وشعن في الصوت ، فوفين له ، وزدن في بيانه ومكانه ، وليس كذلك اذا وقع بعدهن غيرها وغير المشدد ، الا تراك اذا قلت : كتاب ، وحساب ، وسعيد ، وعمود ، وضروب وركوب ، لم تجدن لدنات ، ولا ناعيات ، ولا وافيات مستطيلات ، كما تجدن كذلك اذا تلاهن الهمز أو الحرف المشدد» (٢٤) . ويستفاد من قول ابن جني ما يلي :

١ - ان الهمزة تختلف عن بقية الصوامت في الوظيفة التي تؤديها داخل النسخ الصوتي .

٢ - ان وظيفتها هي اطالة المصوت الذي يقع قبلها وبراظه أكثر من سواه .

وهذه الوظيفة يؤديها النبر عادة ، وبالتالي فان ابن جني قد أشار هنا بخصوص الهمزة الى ما نعينه في اللسانيات الحديثة بالوظيفة التباينية . فإذا فهمنا الهمز على أنه نوع من أنواع النبر اتضح لنا لماذا كان الهمز شائعا في بعض لهجات العرب دون بعضها الآخر ، ولماذا رفض الرسول (ﷺ) أن يخاطبه أعرابي «يا نبي الله» لأن الهمز لم يكن شائعا في لهجة قريش (٢٥) . وبما أن هذا هو حال الهمزة ، فما حقيقة وجودها في أساء الفاعل مثل (قاتل) و(بائع) ؟

من المعلوم أن عين اسم الفاعل تكون متبوعة دائما بكسرة ، أي بمصوت قصير اصطلاح على تسميته بالكسرة ، مثل (قاتل ، مانع ، طالع ، الخ . . .) . الا أن أساء الفاعل التي اشتقت من أصل ثنائي أو محتل لا يوجد فيها في مكان العين سوى المصوت القصير ، أي الكسرة . وبما أن الالف في اسم الفاعل قد باعدت بين فائه وبين تلك الكسرة ، صرنا نطق بالكسرة عارية عن أي صامت قبلها .

(٢٤) الخصائص ، ١٢٤/٣ - ١٢٥

(٢٥) انظر الخصائص ، ٣٨٣/١

وبناء عليه فإن ما يوجد في مكان العين من اسم الفاعل (قائل) و (بائع) هو الكسرة فقط ولا شيء سواها .
ونستطيع أن نكتب أسماء الفاعل هذه على الشكل التالي : (قائل) بدلا من (قائل) و (بائع) بدلا من (بائع) .
لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد هنا همزة ، إلا أن وجودها ليس ناشئا عن انقلاب الواو في (قائل) أو انقلاب الياء في (بائع) ، بل يرتبط بما ذكرناه سابقا عن خصائص الهمز فالهمزة تقوم هنا بوظيفة الفصل بين مصوتين متتابعين : الألف الطويلة والكسرة القصيرة . والسبب الثاني لوجود الهمزة هنا هو أن المرء لا يستطيع لأسباب فيزيولوجية أن ينطق بالمصوت لوحده عاريا عن أي صامت قبله دون أن يبدأ بنطق الهمزة . فلا نستطيع نطق ألف قصيرة (فتحة) ولا طويلة لوحدها دون أن نبدأ بنطق همزة في أولها ، والشئ نفسه ينطبق على الواو والياء سواء أكانتا حرف مد أو حركة قصيرة .
هذا يفسر ما قلناه آنفا عند الحديث عن أصل الواو الصامتة في (قائل) والياء الصامتة في (بائع) ، إذ أن هذين الصوتين ليسا سوى ضمة بعد تسهيل الهمزة الالزامية التي في أولها بالنسبة للواو ، وكسرة بعد تسهيل الهمزة الالزامية التي في أولها بالنسبة للياء . لذلك نستنتج أن الهمزة التي توهمها الصرفيون في عين اسم الفاعل ليست في حقيقة الأمر سوى المصوت القصير غير المسبوق بحرف صامت ، ووجود الهمزة تابع لوجود ذلك المصوت وليس نتيجة انقلاب عن واو أو ياء لا وجود لهما أصلا . ولتوضيح هذه الفكرة أكثر سوف نقوم بالتجربة البسيطة التالية :

نأخذ اسم الفاعل (قائل) ونحلله إلى الوحدات الصوتية التي يتألف منها نسجه الصوتي : قائل = صامت (قاف) + مصوت طويل (ألف) + صامت (تاء) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) ولو أسقطنا الآن من هذا النسج الحرف الصامت الذي في موقع العين ، أي التاء ، فإن ما يبقى هو تاء اسم الفاعل (قائل) :

صامت (قاف) + مصوت طويل (ألف) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) = قائل = قائل .

ونستطيع إجراء مثل هذه التجربة على كلمات أخرى ، مثل : (قابل) باسقاط الباء أو (قائل) باسقاط الخاء ، وسوف نحصل على نتيجة مماثلة .

والأمر نفسه يصح في اسم الفاعل (بائع) . فلو أخذنا اسم الفاعل (بائع) وأسقطنا حرف الراء من موقع العين مع الإبقاء على الكسرة التي لحقت بالراء ، فإن ما يبقى هو بالضبط اسم الفاعل (بائع) ، أي (بائع) . وهكذا يتضح بكل جلاء أن أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) هي نُسُجٌ صوتية خلا موقع العين فيها من حرف صامت وبقيت الكسرة لوحدها في موقع العين ، وهي الكسرة التي تلحق عادة عين اسم الفاعل في غير المعتل .

ذكرنا آنفا بأن الهمزة صوت مهموس عند بعض علماء الأصوات في العصر الحاضر وغير مجهور ولا مهموس عند فريق آخر ، لكنها على أي حال ليست مجهورة . لماذا إذن وقع علماء الصرف العرب في الخطأ حين عدوها مجهورة ؟ أغلب الظن أن سبب ذلك يعود إلى ما ذكرناه عن طبيعة الهمزة التي يرتبط نطقها غالبا بنطق المصوتات . وبما أن المصوتات مجهورة ، فإن نطقها قد أثر في نطق الهمزة فبدت لهم هي الأخرى مجهورة . وهذا ما سهّل عليهم القول بإمكانية انقلابها عن المصوتات كما رأينا . ويستطيع كل إنسان أن يتفحص بنفسه الجهر والهمس في أي صوت لغوي يشاء . إذ يكفي أن يضع المرء إبهامه وسبابته على عنقه حول منطقة الأوتار الصوتية ، فإذا شعر باهتزاز الوترين كان الصوت مجهورا ، وإلا كان مهموسا . ولو جرب أن ينطق باحدى كلمتي (قائل) و (بائع) لشعر بكل وضوح باهتزاز

الوترين الصوتيتين في موقع العين ، مما يقدم دليلا اضافيا على أن عين (قائل) و (بائع) عبارة عن مصوت قصير مجهور هو الكسرة .

رابعاً : استنتاجات

لقد تطرقنا في سياق هذا البحث إلى أمور عديدة ومختلفة . وفيما يلي سوف نرى ما يترتب عليها بالنسبة لعلم النحو العربي :

أولاً : ذكرنا بأن الفتحة التي تلتحق بنهاية الفعل الماضي في (قال) و (باع) ليست حركة اعراب أو بناء ، بل هي دال على مدلول هو الافراد والتذكير ، مثلما أن ألف التثنية هي دال بدورها ، ومدلولها التثنية والتذكير . ويترتب على ذلك بأن قول النحاة في اعراب (قال) : «فعل ماض مبني على الفتح» قول لا سند له ، لأن هذه الفتحة في نهاية الفعل غير الفتحة التي تلتحق بآخر الاسم . وما يصدق على الفتحة هنا يصدق على جميع الحركات التي تلتحق بآخر الفعل في اللغة العربية . ان فكرة البناء والاعراب في الأفعال لا تشير إلى أي وظيفة ، اذ مامعنى أن نقول بأن الفعل الماضي مبني على الفتح أو السكون أو أن الفعل المضارع مرفوع بالضمة أو منصوب بالفتحة ؟ ان مثل هذا الكلام لا يقود إلى شيء مادام لا يشير إلى الوظيفة التي تؤديها الضمة أو الفتحة ولا إلى الوظيفة التي قد يضطلع بها الاعراب أو البناء في الأفعال . كذلك فإن قول النحاة أن الفعل المضارع فعل معرب قول غير صحيح ، لأن الاعراب يعني الرفع والنصب والجر . لكن الفعل المضارع لا يكون مجروراً بالكسرة أبداً وكذلك لا يكون منوناً ، وبالتالي إن الاعراب والبناء صفتان تختصان بالاسماء دون الأفعال ، ولا بد إذن من البحث عن المدلولات التي تحملها الحركات عندما تلتحق بأواخر الأفعال .

فأما الفعل الماضي فلا تلتحق به الفتحة إلا عند اسناده إلى الشخص الغائب ، وقد تعرفنا على المدلول الذي تحمله تلك الفتحة . وفيما عدا ذلك فإن السكون هو الصفة المميزة لآخر الفعل الماضي عند اسناده إلى الشخص المتكلم أو الشخص المخاطب .

وأما الفعل المضارع فيكون على حالات ثلاث : فإما أن تلتحق الضمة بآخره ، كقولنا (يقول) و (يضرب) ، وإما أن تلتحق الفتحة بآخره ، كقولنا (أن يقول) و (أن يضرب) ، أو أن يكون آخره ساكناً كما في حالة الجزم (لم يقل) و (لم يضرب) .

يقول النحاة بأن الفعل المضارع يكون مرفوعاً إذا تجرد عن الناصب والجارم . ويترتب على هذا الكلام أن الحالة الطبيعية للفعل المضارع هي الرفع ، وأن النصب والجرم هما حالتان طارئتان على الفعل المضارع . لكن مثل هذا التعليل يسقط من حسابه أي وظيفة يمكن لهذه الحركات أن تشير إليها أو أن تؤديها . والأولى بنا أن نبحث عن هذه الوظائف وتلك المدلولات التي تحملها كل حركة ، فهذه الحركات ليست في حقيقتها إلا دوائر تدل على مدلولات محددة . ولو أمعنا النظر قليلاً في حالة المضارع المرفوع لوجدنا أنه يدل باستمرار على «التقرير والاثبات» شرط ألا تلتحق به (قد) التي تفيد التوقع . فقولنا «رأيت محمداً يذهب إلى السوق» فيه تقرير وإثبات لحدث معين دون ربطه بأي شيء آخر . أما في قولنا : «قلت لمحمد أن يذهب إلى السوق» فهذا يعني أن الفعل لم يقع بعد ، وليس هناك

ما يؤكد وقوعه مستقبلاً ، أي أنه مازال معلقاً بظروف مستقبلية . ولذلك نقترح إطلاق صفة «التعليق والاستقبال» على حالة الفعل المضارع المنصوب . وتنطبق هذه الصفة على المضارع المنصوب بأن أو يلين أو باللام سواء أكانت للتعليل أم للوجود .

فكل هذه الحالات تفيد معنى التعليق والاستقبال لحدث معين . أخيراً فإن السكون الذي يلحق آخر المضارع يفيد معنى عدم وقوع الفعل أو الحدث الذي يدل عليه الفعل . وسواء جاء الفعل بعد أدوات النفي أو بعد لا الناهية فإن السكون يشير هنا إلى امتناع حدوث الفعل . ولذلك نقترح إطلاق صفة «الامتناع» على الفعل المضارع إذا لحق بآخره السكون .

ويترب على هذه النظرة إلى الحركات التي تلحق بالفعل المضارع أمران هاما : أولهما أن النصب والجزم في الفعل المضارع ليسا ناشئين عن أدوات يسمونها أدوات النصب والجزم ، بل عن الوظيفة التي يراد للفعل أن يؤديها في الجملة . فالضمة في آخر الفعل هي دال ومدلوله التقرير والاثبات ، والفتحة هي دال ومدلوله التعليق والاستقبال ، والسكون هو أيضا دال ومدلوله الامتناع . وإذا كنا قد توصلنا إلى ذلك مستعينين بالمعطيات التي وفرتها اللسانيات الحديثة ، فإن بعض القدماء قد توصل إلى ذلك ولكن دون تمكنهم من تقديم برهان على ذلك . ففي معرض حديث ابن جني عن نظرية العامل شكك بالعوامل اللفظية والمعنوية وانتهى إلى القول : «فأما في الحقيقة ومحصل الحديث ، فالعمل من الرفع والنصب والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره»^(٢٧) . والفرق بين ماقرره - ابن جني وبين ماقررنه أن ابن جني قد نسب ظهور الحركات الاعرابية إلى المتكلم ونسبناها نحن إلى الوظيفة التي تؤديها في القول . أما النتيجة فواحدة .

وعندما جاء ابن مضاء القرطبي بعد ذلك بقرنين استند إلى كلام أبي الفتح ابن جني واتخذ موقفاً مماثلاً في كتاب «الرد على النحاة» فقال :

«قصدي من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه ، وأنبه على ما أجمع على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعائهم أن النصب والخفض والجزم لا تكون إلا بعامل لفظي وذلك بين الفساد . وقد صرح بخلاف ذلك ابن جني وغيره»^(٢٨) . لكن ابن مضاء اكتفى بأن نفى فكرة العامل بادلة عقلية ومنطقية دون أن يشرح الوظيفة التي تؤديها تلك الحركات . والأمر الثاني أن تسمية الفعل المضارع لا تشير إلى الوظيفة أو الوظائف المنوطة بهذا الفعل في الجملة ، علاوة على كونها غير صحيحة . إن تسمية الفعل الماضي تشير إلى الزمن الذي يقع فيه الفعل ، لكن تسمية المضارع لا علاقة لها بمسألة زمن الفعل لا من قريب ولا من بعيد ، أي أنها لا تعبر عن الوظيفة المنوطة بهذا الفعل . ثم أنها تسمية غير صحيحة لأن المضارع لا يضارع غيره في شيء . لقد أطلق النحاة على الفعل المضارع هذه التسمية لاعتقادهم أنه يضارع الاسم - وربما اسم الفاعل بالذات - في حركات الاعراب . وقد رأينا آنفاً أن الحركات التي تلحق بآخر الفعل ليست حركات اعرابية كالحركات التي تلحق بآخر الاسم . مثل (كتابٌ وكتاباً وكتابٍ) ، بل هي دوال على مدلولات وظيفية محددة . وبالتالي فإن تسمية هذا الفعل بالمضارع أمر يحتاج لإعادة النظر فيه . لكن هذه التسمية تشير إلى الأساس غير الوظيفي الذي قام عليه النحو العربي منذ بدايته ، وكنا قد أشرنا إليه في بحث سابق^(٢٩) . وهو أن النحو العربي قد قام في الأساس لضبط حركة أواخر الكلام عندما بدأ اللحن يتفشى على ألسنة

(٢٦) الخصائص ١٠٩/١ - ١٠١

(٢٧) ابن مضاء : الرد على النحاة ، ص ٨٥ .

(٢٨) انظر مجلة «المستقبل العربي» ، العدد رقم ١٠٦ تاريخ ١٩٨٧/١٢ بعنوان : «حول وألما اللغوي» ، ص ٦٧ وما يليها .

الموالي من غير العرب في البلاد التي خضعت للحكم الاسلامي ، وذلك خوفاً من ضياع اللغة العربية في تلك الاقطار وخشية من وقوع القرآن الكريم تحت طائلة التحريف والتزوير . ولقد نزل القرآن بلغة معربة يرتبط فيها مدلول الكلمة داخل الجملة بحركتها الاعرابية . فاذا تغيرت الحركة تغير المدلول . واذا كان ذلك الحافظ لحركة تعيد اللغة العربية امراً مقبولا في البداية ، الا أنه شكل فيما بعد عائقاً أمام فهم صحيح لطرائق وآليات عمل هذه اللغة ، وهو أمر مازلنا نعاني منه حتى اليوم .

ثانياً : ذكرنا أن مصوت الألف يدل في الفعل الأجوف والناقص وكذا في اسم الفاعل على الشخص الغائب ، أي أن مصوت الألف هنا هو بمثابة دال على الفاعل . لكن هذا يتعارض مع فكرة أساسية في النحو العربي هي فكرة الضمير المستتر . لقد دأب النحاة على أن يعربوا (قال) بأنه «فعل ماض مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو في محل رفع فاعل» . ومادام لدينا دال بارز ومنطوق على الفاعل هو مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل ، فما حاجتنا إلى دال لانراء ولا نلمسه وإنما نفترض وجوده افتراضاً . لكن ففي فكرة الضمير المستتر يفرض علينا الاجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بمواضع الضمير المستتر الأخرى :

١ - كان مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل هو الدال على الفاعل في الفعل الأجوف والناقص ، فما هو الدال على الفاعل في الفعل الماضي الصحيح اذا أسند إلى ضمير الغائب ؟

٢ - ماهو الدال على الفاعل في بعض مواضع الفعل المضارع حيث يقول النحاة بوجود ضمير مستتر ؟

بخصوص الفعل الصحيح مثل (صعد وضرب) يبدو للوهلة الأولى أن لا دال على الشخص الغائب لأن لواحق الفعل عند اسناده إلى الشخص الغائب لا تدل الا على العدد والجنس . فما هو الدال على الشخص إذن ؟ والجواب هو «الدال صفر» . والدال صفر بالمفهوم اللساني الحديث يعني خلواً إحدى الصيغ من دال منطوق بالمقارنة مع صيغ أخرى تشتمل على دال خاص بها . فإذا كانت صيغ الفعل الماضي تشتمل على دال على الشخص عند اسناده إلى ضمائر المتكلم والمخاطب ، وهو الدال المتمثل باللواحق ، فإن خلواً صيغة الفعل الماضي من دال خاص بها عند اسناده إلى الشخص الغائب هو دال بحد ذاته ، وهذا ما يسمى بالدال صفر . وهنا قد يرد إلى الذهن الاعتراض التالي : ما الفرق إذن بين أن نقول بالدال صفر أو بالضمير المستتر ، مادام الدال على الشخص الغائب غير موجود في الحالتين . والجواب على ذلك أنه اختلاف من حيث المبدأ . فالقول بالضمير المستتر يعني القول بوجود شيء غير موجود أصلاً ، أما القول بالدال صفر فهو إقرار بعدم الوجود ، ومن ثم اعتبار عدم الوجود هذا دالاً بحد ذاته .

أما بخصوص الفعل المضارع فإن النحاة حددوا مواضع الضمير المستتر كما يلي :

١ - عند اسناد الفعل إلى ضمير المتكلم .

٢ - عند اسناده إلى ضمير المخاطب المفرد المذكور .

٣ - عند اسناده إلى ضمير الغائب المفرد . وواضح من هذا التحديد أن النحاة ينظرون إلى مانعته لواحق الفعل على أنها دوال على الفاعل ، ولذلك أطلقوا عليها اسم ضمائر الرفع المتصلة . وعند خلواً الفعل من هذه اللواحق ، افترضوا وجود ضمائر اسندوا إليها وظيفة الدلالة على الفاعل . أما بوادىء الفعل التي جمعوها في «أنيت»

أو «نأيت» فإنهم اعتبروها من علامات الفعل المضارع واطلقوا عليها لذلك اسم «حروف المضارعة» (كذا) . لكننا سنرى بعد قليل أن حروف «أنيت» هذه هي دوال حقيقية على الفاعل في الفعل المضارع ، وأن لوائح الفعل التي اعتبروها ضمائر رفع ليست في الواقع أكثر من دوال على العدد والجنس ، أي أنها تشارك البواديء في الدلالة على الفاعل .

لنعد إلى إسناد الفعل إلى ضمائر الرفع الذي وضعناه في القسم الأول من هذا البحث ، وسوف نسجل الملاحظات التالية :

١ - يمتاز الفعل المضارع على الفعل الماضي باشتياله على بواديء ولوائح ، بينما خلا الفعل الماضي من البواديء .

٢ - أن بعض صيغ تصريف الفعل المضارع تخلو من اللوائح وتكتفي بالبواديء ، مثل : تَهْ/ضرب بالمقارنة مع تَهْ/ضرب/ين ،

٣ - أن اللوائح تلحق بالفعل المضارع لمنع اللبس عندما تشابه البواديء بحيث لا يستطيع الدلالة على العدد والجنس ، مثل تصريف المضارع مع ضمائر المخاطب .

إن البادئة (أ . .) في (أقول) و(أضرب) هي اختصار واضح وصريح من ضمير الرفع (أنا) ، وهي تدل على الشخص والعدد ولا تحتاج بالتالي إلى لاحقة إضافية . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البادئة (ت . .) في (نقول) و(نضرب) ، إذا أنها صيغة مختصرة من ضمير الرفع (نحن) . أما عند إسناد الفعل المضارع إلى الشخص المخاطب فيلاحظ أن جميع صيغ تصريف الفعل هنا تشترك ببادئة واحدة هي (ت . .) مما استوجب وجود لوائح تدل على العدد والجنس ، أي أن البادئة (ت . .) تدل على الشخص المخاطب بينما تدل اللوائح على العدد والجنس . وقد شذت عن هذه القاعدة صيغة واحدة من صيغ المخاطب هي صيغة المفرد المذكر ، حيث خلت من لاحقة تدل على العدد والجنس . وهنا يمكن القول أن الدال صفر يدل على العدد والجنس بالمقارنة مع بقية الصيغ التي اشتملت على لوائح خاصة تدل عليهما . ولا حاجة للتذكير أن اللاحقتين (. .ان) و(. .ون) تدلان بالترتيب على الثنية والجمع ليس فقط في الفعل المضارع وإنما في الأسماء أيضا ، مثل (كاتبان) و(كاتبون) . كذلك يدل المصوت الطويل ، أي الياء في اللاحقة (. .ين) على المؤنث المفرد ، مثل (تضربين) ، وهي موجودة أيضا في الضمير المنفصل (أنيت) وفي الضمير المتصل (لُك) وفي الضمير الإشاري للمؤنث (اسم الإشارة) ، أي - (هذي) و(هذه) . ويرى هنري فليش أن الضمير (أنيت) كان قديما (أنتي) والضمير (لُك) كان قديما (كي) وأن الكسرة الطويلة (الياء) هنا هي بالتالي من مخلفات اللغة القديمة^(٢٩) .

عند إسناد المضارع إلى الشخص الغائب نلاحظ وجود نوعين من البواديء ؛

(ي . .) تدل الغائب المذكور و(ت . .) تدل على الغائب المؤنث :

وعند أمن اللبس أمكن استعمال البادئة (ي . .) لجمع الاناث ، مثل (يضرين) و(يأتين) ، وأيضا بهدف التفريق بين الغائب والمخاطب .

(٢٩) هنري فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٠ و ص ١٣١ .

بقي أن نشير إلى أن التشابه الثانوي بين صيغة المخاطب المفرد المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المثنى المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المثنى المذكر وبين صيغة الغائب المثنى المؤنث يعود إلى المنشأ المختلف للبادئة (تـ . .) في كل حالة . ففي حالة المخاطب يبدو أن التاء مشتقة من ضمائر الرفع للمخاطب التي لا يخلو واحد منها من حرف التاء . أما في حالة الغائب فهي علامة للتأنيث ، لاسيما أن دلالة التاء على التأنيث أمر شائع ومعروف في اللغة العربية .

نستنتج مما تقدم أن بوادى المضارع ليست علامات للمضارع ، لأنه لا يحتاج إلى مثل هذه العلامات . ويكفي المرء أن يقارن النسخ الصوتي لجذر المضارع مع النسخ الصوتي لجذر الماضي حتى يميز الأول عن الثاني . فجذر الماضي من فعل (ضرب) هو (ضرب) بعد حذف البواديء واللواحق .

ويستطيع المرء بنظرة واحدة أن يدرك اختلاف المصوتات بين الجذرين ، مما يكفي معه للتعرف على جذر كل منهما . وقد أشار ابن جني إلى ذلك في «الخصائص» إذ اعتبر أن اختلاف المصوتات بين صيغتي الماضي والمضارع هو بمثابة تعبير عن زمن كل منهما :

«وذلك أنه قد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضي لصيغة المضارع ، إذ الغرض في صيغ هذه المثل إنما هو لإفادة الأزمنة ، فجعل لكل زمن مثال مخالف لصاحبه ، وكلما ازداد الخلاف كانت في ذلك قوة الدلالة على الزمان .

فمن ذلك أن جعلوا بازاء حركة فاء الماضي سكون فاء المضارع ، وخالفوا بين عينيها .

فقالوا : ضرب يضرب ، وقتل يقتل ، وعلم يعلم» (٣١) .

لكن النحاة اعتمدوا الشكل المكتوب في تقرير ذلك ، وهو الشكل الذي لا تظهر فيه المصوتات القصيرة (الحركات) ، لذلك راحوا يفتشون عن علامات تدركها العين لا السمع ووجدوهم في بوادى الفعل لعدم ورودها في صيغة الماضي واعتبروها من علامات المضارعة . ولو أنهم اعتمدوا الشكل المنطوق لادركوا اختلاف المصوتات بين صيغة الماضي وصيغة المضارع . وأغلب الظن أنهم لم يأخذوا بفكرة جذر الفعل للسبب نفسه ، أي لاعتقادهم الشكل المكتوب دون المنطوق ، حيث أنه لا فرق في الكتابة بين الجذرين في الفعل الصحيح . ولو أنهم فعلوا ذلك لفتشوا لبواديء الفعل المضارع - عن وظيفة غير التي ظنوها ، أي وظيفة الدلالة على الفعل المضارع . كما أن هذا الاعتبار أوقعهم في التناقض . فبما أنهم اعتبروا البواديء مجرد علامات للمضارع أصبحوا مضطرين للتفتيش عن الدوال على الفاعل في اللواحق ، ولم يفتنوا إلى أن بعض هذه اللواحق موجودة في الأسماء أيضا ، مثل (. . ان) التي تدل على التثنية و (. . ون) التي تدل على جمع المذكر . وبدلا من أن ينسبوا إلى وظيفتها الأصلية ، وهي وظيفة الدلالة على العدد ، نسبوا إليها وظيفة جديدة هي الدلالة على الفاعل .

وهكذا اعتبروها في الأسماء مجرد حروف ، بينما اعتبروها في الأفعال ضمائر رفع متصلة .

وتلخيصا لما تقدم نستطيع أن نقول أن بوادى الفعل المضارع تشترك مع لواحقه في الدلالة على الفاعل . والدال على الفاعل في قولنا (يكتبون) هو البادئة (يـ . .) بالاشتراك مع اللاحقة (. . ون) . ولو أردنا تجريد هذا الدال

عن جذر الفعل لحصلنا على دال مركب من جزأين منفصلين : (يـ . ون) . وتسمي اللسانيات الحديثة هذا النوع من الدوال «الدال المنقطع» ، أي أن (يـ .) تمثلان الدال المنقطع للمدلول «غائب جمع مذكر»^(٣١) . وإذا نظرنا الى بوايد الفعل ولواحقه على هذه الصورة أي باعتبارها دوال على الفاعل ، انتفت حاجتنا إلى افتراض وجود ضمائر مسترة مقدرة تقديرا ، مما يخرج بالنحو العربي من دائرة الغيبيات إلى دائرة الموجودات .

ثالثا : ذكرنا بأن هناك متوالية اشتقاقية هي :-

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم

وتعني هذه المتوالية أن جذر المضارع قد اشتق من جذر الماضي وأن الاسم قد اشتق بدوره من جذر المضارع ، هذا يعني أن الماضي أسبق من المضارع وأن الفعل أسبق من الاسم . إلا أن مثل هذه النتيجة تخالف ما هو شائع لدى أكثر علماء العربية الذين رأوا أن الاسم سابق على الفعل في الزمان وسموه لذلك مصدرا وأن المضارع سابق على الماضي .

ولا شك أن بعض الأسس غير الصحيحة التي بنوا عليها آراءهم قد قادت الى تلك النتائج الغريبة . ان التعرف على حقيقة الأسبقيات في اللغة يعني اكتشاف الآليات الصحيحة التي تعمل اللغة بموجبها .

ولقد كشفنا بما لا يدع مجالا للشك كيف اشتق جذر المضارع من جذر الماضي وكيف اشتق الاسم بدوره من جذر المضارع . ويؤكد هذا الاكتشاف من جديد أن علماء العربية القدماء قد جانبوا الصواب في بعض ماذهبوا اليه ولم يتوصلوا دائما إلى الآليات الحقيقية التي تعمل داخل اللغة . على أننا نجد سنداً قويا لدى ابن جني فيما ذهبنا اليه ، إذ توصل أبو الفتح الى النتائج نفسها التي توصلنا اليها ، وإن كان عن طريق مختلف ، وذلك بفضل ما كان يتمتع به هذا الرجل من نظر ثاقب في شؤون اللغة ونظرة علمية تقترب كثيرا من نظرة اللسانيات الحديثة إلى اللغة . لقد ذكر في «الخصائص» تحت عنوان «باب في هذه اللغة : أي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ؟» مايلي :

هلا ذهبت إلى أن الاسماء أسبق رتبة من الأفعال في الزمان ، كما «أنها أسبق رتبة منها في الاعتقاد ، واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت اليه ، إذ كان الواجب أن يبدؤوا بالاسماء ، لأنها عبارات عن الأشياء ، ثم يأتوا بعدها بالأفعال التي بها تدخل الاسماء في المعاني والأحوال . . . ؟ قيل يمنع من هذا أشياء :

منها وجود أسماء من الأفعال ، نحو قائم من قام ، ومنطلق من انطلق ، ألا تراه يصح لصحته ويعتزل لا اعتلاله ، نحو ضرب فهو ضارب ، وقام فهو قائم . . . فاذا رأيت بعض الاسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز ان يعتقد سبق الاسم للفعل في الزمان ، وقد رأيت الاسم مشتقا منه ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه . . . وأيضا فإن المضارع يعتزل لاعتلال الماضي ، وإن كان أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضي»^(٣٢) . وما يؤسف له حقا أن كثيرا من آراء ابن جني التي خالف بها علماء اللغة ممن سبقوه لم يأخذ بها المتأخرون ممن جاءوا بعده ، مع أنه أصاب بها كبد الحقيقة . ولو أن المتأخرين فعلوا ذلك لوفروا علينا عناء كثيرا وحالوا دون تقهقر اللغة الفصحى أمام العاميات في العصور التالية .

(٣١) مبادئ اللسانيات العامة ، ص ١٠٠

(٣٢) الخصائص ٣٢/٢ - ٣٤

تمهيد :

يتجه البحث في هذا المقال إلى المجاز والاستعارة ، بوصفهما عنصريين من عناصر التطور الدلالي ، وطرق تحول المعاني . ولابد هنا من تأكيد مذهبنا إليه في بحوث سابقة من التفريق بين نوعين من الاستعمال المجازي ، أحدهما فني يثير في المتلقي هزة انفعالية ، ويبعث إيجاء ولذة شعورية ، والآخر ، بعضه كان من النوع الأول ، لكنه لطول الاستعمال والتكرار على مدى زمن طويل فقد تألقه الفني ، وانضم إلى رصيد اللغة المعجمي ، وفارق المعجم الشعري الحى ، وغدا بذلك مجازا زاويا ، وبعضه الآخر لم يهدف مستعملوه إلى تحقيق ذلك التأثير الفني أصلا ، إنما وضع أساسا بوصفه نقلا غير تصويري ، وذلك للوفاء بمتطلبات التسمية المعرفية La nomination Cognitive نحو قولنا (رجل الكرسي) ، و(عنتق الزجاجة) ، و(الخراطوم) دلالة على الانبوب المطاطي المستعمل في نقل المياه ، و(عين الباب) و(رأس الجبل) وغير ذلك . والأمثلة على هذا النحو الأخير كثيرة ، وهى تمثل مبدأ من مبادئ التطور اللغوى في معظم اللغات الحية . وقد تنبه إلى هذا كثير من الدراسين في القديم والحديث ، في لغتنا وفي غيرها من اللغات المعروفة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المقال مخصص لرصد ذلك الجزء من التحول المجازي من النوع الذى كان فنا ، ثم غدا أسلوبا لغويا ، لأن بين هذين الحدين ضروبا شتى من تطور اللغة عبر المجاز . أما الأمثلة التى كانت مدار البحث والتحليل فهى مستمدة من مجموعة مختارة من الشعر العربى الحديث الذى يمثل مدرسة الإحياء والتراث وامتدادها ، ولاسيما فى مصر والشام ، ولا شك فى أن النظر المتعمق فى (مستوى) الشعر العربى الحديث اللغوى يصبح كثيرا من

صور من تطور لغة الشعر العربى
الحديث عن طريق المجاز

أحمد محمد قدور

وقد ارتبطت صور كثيرة من هذا المجاز بالمراحل القديمة من حياة البشر، وغدت - على الرغم من التقدم الحضارى - عالقة في الأذهان، وشائعة في الاستعمال إلى درجة يمكن أن توصف بأنها محل اشتراك عدد من اللغات. نحو: «الأسد»، «الذئب»، «الثعلب»، «الشمس»، «البدر».

وقد تنبه كثير من الدراسين إلى هذا النوع من الرمز المجرد لمعان مشتركة لايشكل العدول عنها إلى غيرها جدلة أو طرافة. فالمساحة الدلالية لهذه الرموز أضحت واسعة وعامة^(١).

وفي الفصحى المعاصرة يجد الدارس عددا من هذه المجازات الرمزية التي انحدرت من صور بلاغية قديمة، فقدت بسبب كثرة التكرار قيمتها الإيحائية الفنية، وغدت قريبة من الأساليب اللغوية.

ويمكن أن نعد في هذا الجانب عددا من المجازات الشائعة، نحو: الأسد، والنجم والشبل، والسيف، والبدر، والذئب، والثعلب، والنسر... ويلاحظ - هنا - كثرة الأساليب المجازية الدائرة حول أمثال هذه الكلمات.

والصور البلاغية الداوية والاستعمالات المرتبطة بالمراحل القديمة للحياة، ليست المصدر الوحيد لهذا المجاز الرمزي، فالمذاهب الأدبية الحديثة أذاعت بين الشعراء رموزا وأشكالا فنية ذات دلالة. ولا يخفى مالاتجاه الرمزي من أثر في شيوع عدد من الرموز

المقولات التي غدت (جاهزة) يتداولها الدارسون من غير تمحيص. وإن الطريق إلى تجاوز تلك المقولات لابد أن يكون عن طريق الدرس المتأن لأهم الظواهر الدلالية في الدلالة الحقيقية، والمجازية والثقافية - الرمزية، وهو مانتجه إليه أنظار الدارسين المحدثين من النقاد واللغويين.



١ - التطور الدلالي عن طريق المجاز الرمزي :

نقف في هذا البحث عند قسم من أقسام البحث المجازي^(٢)، هو «المجاز الرمزي»، والتطور الذي سعى إلى تبيينه - هنا - يتخذ اتجاهين : الأول منها يختص بطبيعة المجاز وتحوله إلى رمز. فالصورة يمكن استئثارها مرة على سبيل المجاز، لكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح فلها تغدو رمزا لدى شاعر معين^(٣).

ويشكل الاستعمال المتكرر للمجاز لدى الشاعر منظومة رمزية خاصة، فالصور المجازية التي نشعر بجذبتها وابتكارها لدى شاعر ما في عمل من أعماله تغدو بعد ظهورها في أعمال تالية خصائص فنية خاصة... تتخذ شكل المجاز الرمزي.

غير أن هذه المنظومة قد تكون مجالا لاشتراك عدد من الشعراء في زمن معين أو ضمن اتجاه فني، فتغدو عندئذ منظومة عامة تخص جيلا أو اتجاهها لدى مجموعة من الشعراء.

(١) وأدين وويليك، نظرية الأدب، ص ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٧، وهيفل، الفن الرمزي، ص ١٤.

● انظر مقالنا حول «الدلالة في المجاز والاستعارة» في : الموقف الأدبي، العدد ١٦٥ / كانون الثاني ١٩٨٥ م اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

ومقالنا حول «التطور الدلالي في العربية الفصحى» في : عالم الفكر، العدد الرابع، المجلد السادس عشر، ١٩٨٦ م، وزارة الإعلام، الكويت.

المجازية ، يتجلى في صوغ الصفة «سيفان» للدلالة على الرجل المشوق كالسيف^(٣) . إضافة إلى الاشتقاقات الفعلية الأخرى .

وإن استمداد كثير من الصور المجازية القديمة ، وتوظيفها في الشعر الحديث ، كان موضع نقد ، إذ اتجه النظر إليها لدى بعض الدارسين بحسب معايير الجدة والتقليد ، لتسويغ الهجوم على كل قديم إلى درجة الامتهان والابتذال^(٤) .

واتخذ البحث لدى بعضهم الآخر صورة الانتقاد الساخر ، فهايون عبود يقف عند بناء الصورة في شعر الأخطل الصغير ، ويتناول بعض الدلالات المجازية ، نحو : «الليث والنسر والسيف» ، ويعيب الشاعر على استعمال الأساليب العربية القديمة والمجازات العامة المبتذلة^(٥) .

وقد فات هؤلاء التفريق بين المجاز الذي يعد في الأساليب المجازية للغة والمجاز الفني الذي يدرس في نطاق الصورة ، ويقوم على أساس الجدة والابتكار أو الاحتذاء والتقليد .

والأجدى عندنا هو تحليل المجاز من خلال العلاقة بين الشعر الحديث والشعر القديم ، وخصوصية الشعر من جهة ، ومن خلال التجربة الإنسانية الضاربة في القدم من جهة أخرى .

المجازية ، كالبلبل «الشاعر» ، والوتر «الشعر والفن» ، والنسر «الشاعر» ...

أما الاتجاه الثاني - من اتجاهات التطور هنا - فمختص بالتطور اللغوي الدلالي «الحقيقي» وفيه تفقد المجازات معظم قدراتها الإيحائية ، وتغدو دلالات لغوية تضاف إلى رصيد المعجم .

وتتسع العربية لضروب من الاشتقاقات المنحدرة من كلمات شاعت دلالتها المجازية . ونضرب أمثلة قليلة - هنا - على أن تتخذ مواضعها في الأجزاء التطبيقية لاحقاً ، فالشبل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد^(٦) ، وتتولى أمه اللبوة رعايته والدفاع عنه ، ومن هنا جاء تشبيه المرأة التي تعطف على أولادها ، وتصبر على تنسنتهم بعد فقد الأب باللبوة التي ترعى أشبالها وتدافع عنهم . وقد رافق هذه الدلالة المجازية تطور اشتقائي (من اسم إلى فعل) ، فقليل : أشبلت فلانة بعد بلعها : صبرت على أولادها ...^(٧)

ونعرض مثالا آخر هو كلمة «ذئب» التي تدل على حيوان له صفات مشهورة نحو : الخسة والغدر والخبث . ومن المجاز الشائع تشبيه الإنسان بالذئب إذا خبث ، وقد رافق التطور المجازي ظهور اشتقاقات من الاسم «ذئب» إلى الفعل مجرداً ومزجداً . فيقال : ذئب فلان ذأبة : خبث كالذئب ، وذأبته الريح : أثنه من كل جانب فعل الذئب^(٨) .

وهناك ضرب من الاشتقاق في دلالة «السيف»

(٣) لسان العرب ، ١١/٣٥٢

(٤) أساس البلاغة ، ص ٢٢٨

(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٠

(٦) لسان العرب ، ٩/١٦٦ - ١٦٧ ، وأساس البلاغة ، ص ٢٢٧

(٧) جبران خليل جبران ، البدائع والطرائف ، ص ٤٩

(٨) عبود ، مارون ، على المحلل ، دار الثقافة ودار مارون عبود ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٠ - ٤٥ ، ٨٩

عددا من المجازات التي تتحول إلى رموز دينية وصوفية ، نحو الشمس ، والأسد والصخرة ، والنمر ...^(٩)

وفي الجوانب الدلالية للدكتور فايز الداية مواضع متعددة حللت فيها مجازات وتشبيهات سائدة تصلح دليلا على اشتراك العربية واللغات الأجنبية في كثير من الأساليب المجازية ، نحو: الكلب ، والثعلب ، والذئب ، والخنزير.^(١٠)

ويجد شيوع هذه المجازات لدى الشعراء المعاصرين تفسيراً يربط الشعر العربي ، حديثه بقديمه ، ويبدو أن الصلة بين الشعر الحديث والقديم هي التي كانت تزيد في اعتماد الشعراء على محفوظهم ، واستمداد الصورة القديمة ، واعتمادهم عليها اعتماداً كبيراً .

فالشعر يعتمد إلى حد بعيد على التعلم ، وعلى شعر سابق ، كما أنه يمتد تاريخياً في ثقافات متنوعة ، وغالبا ماتستعمل الكلمات في الشعر لتستدعي استعمالاتها الشعرية السابقة ، ومن الطبيعي أن يؤلف شعر حضارة من الحضارات نظاماً دلالياً ومجازياً متماسكاً^(١١).

إن لغة الشعر - باختصار - شط من اللغة الأدبية يعتمد الدلالة المجازية ، والعلاقات السياقية ، ويشكل التاريخ الثقافي عامة ، والاستعمال الشعري خاصة أساساً للغة الشعر الرمزية .

فالمجازات التي عابها مارون عبود وإيليا حاوي وعصبة الشعرة^(١٢) وغيرهم على الأخطل الصغير^(١٣) لا يمكن أن تقتصر على المدلول الضيق للكلمة ، وعلى الرغم من أنها مستمدة من عصر سالف غير عصرنا فقد أصبحت تعني معنى عاماً ، هو بمثابة الرمز لمعان متعددة ، مثل القوة والعنف والبأس ، وإن استعمال الشاعر كلمة «قنبلة» أو «مدفع» عوضاً من السيف أو الرمح في هذا المجال لا يغير من حقيقة المعنى شيئاً ، وبالتالي لا يضيء عليه صفة الجدة والطرافة إن لم يسيء إليه . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأسد ، وهو التشبيه القديم ، فالأسد مازال رمزاً للبأس في ذهن البشر برغم تقدمهم المادى في وسائل الفتك^(١٤) .

وقد تنبه عدد من الدارسين والنقاد إلى صيرورة عدد من الصور القديمة رموزاً ومجازات لغوية ، وتشبيهات سائدة . فالفيلسوف «هيجل» يميز بين التطور الدلالي والاستعمال المجازي ، والرمزي . يقول : «... وشيء آخر أمر الدلالة المستخدمة كرمز ، فالأسد على سبيل المثال يعتبر رمز الشجاعة ، والثعلب رمز المكر ، والدائرة رمز الأبدية...»^(١٥) و«صورة الأسد لا تستحضر فينا فقط المعنى الذى لها من حيث هي رمز - البطل - بل تقدم كذلك الموضوع نفسه في وجوده الحسي»^(١٦) .

ويرصد صاحباً نظرية الأدب - وارين وويليك -

(٩) قديمة ، د . مفيد محمد ، الأخطل الصغير ، حياته وشعره ، ص ٣٢٠ - ٣٢٥

(١٠) تجدر الإشارة إلى أننا اعتمدنا شعر الأخطل الصغير أساساً للتطبيق ، وقد أحصينا جميع المواضع المتعلقة بهذا الجانب في شعره إضافة إلى أمثلة أخرى اخترناها من الدواوين والكتب الأدبية والنقدية .

(١١) الدقاق ، د . عمر . نقد الشعر القومي ، ص ١٧٢ - ١٧٥

(١٢) ، (١٣) هيجل ، الفن الرمزي ، ص ١٢ - ١٤

(١٤) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٥ ، ٢١١

(١٥) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥

(١٦) هو ، غراهام ، مقالة في النقد ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والمعلومات الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م ، ص ١٣٤

ويسلك بحث المجاز - ههنا - خطين متعاكسين ،
الأول : من الحقيقة إلى المجاز ، والثاني : من المجاز
إلى الحقيقة . ويكون ذلك يتبع الأصل الحقيقي الذي
تطور إلى مجاز ، ويتبع المجاز الشائع الذي تطور إلى
استعمال حقيقي أو معرفي .

* العلم ، العلم أصلا : الراية أو الجبل ، ثم
أطلقت على الرجال عن طريق المشابيه . وقد شاع
استعمالها إلى درجة غدت تعد في الاستعمال اللغوي .
وفي أساس البلاغة مثالان يثبتان بالأصل الحسي .
يقول : « هو من أعلام العلم الخافقة ، ومن أعلام
الدين الشاهقة »^(١٧) فالأعلام الأولى مأخوذة من دلالة
الأعلام على « الرايات » ، والأعلام الثانية مأخوذة من
دلالة الأعلام على « الجبال » بدليل ورود الصفتين :
الخافقة والشاهقة .

واستعمال كلمة الأعلام للدلالة على الرجال الأفذاذ
والمشهورين شائع في العربية على مدى عصور متتابعة .
وغدت هذه الدلالة متداولة في كتب التراجم والسير
قديما وحديثا^(١٨) .

وفي شعر الأختل الصغير ترد كلمة « علم » للدلالة
على الشاعر عروة صاحب عفراء : « علم الهوى من آل
عذرة عروة »^(١٩) . وترد أيضا للدلالة على أحد زعماء
الكفاح الوطني الحديث : « ياله من علم في
علم »^(٢٠) ، وقد جمع الشاعر - ههنا - بين دلالتين :
علم « الرجل » ، وعلم « الراية » في ثقط يدعى في
البلاغة العربية بالمجاز اللغوي .

ولا يعني استعمال المجاز القديم أن الشاعر
« تقليدي » غير مجدد ، فالمعول عليه - ههنا - لا يكون في
استعمال هذه المجازات أو تلك - بل في سياقها ،
وارتباطها بتجربة الشاعر من غير أن تبدو منبئة عنها .



ونختار أمثلة محدودة لرصد الظاهرة المدروسة ، لأن
البحث يسعى إلى تقديم مادة صالحة لأن تكون أساسا
لبناء أحكام صحيحة ، ولتفهم التطور اللغوي عن
طريق المجاز ، دون أن يدعي الإحاطة بالجوانب
الدرسية للمجاز عامة .

ولا يخفى ما لغياب الدرس التأصيلي للمجاز من أثر
سلب في دراسة الخصائص الفنية . والحاجة مازال
ماسة إلى تكاتف الجهود لإنشاء معجم شعري « صوري »
يتقرب الصور المجازية من خلال تطورها التاريخي ،
ويعزز الحديث منها من القديم .

وتمثل خطتنا في هذه الفقرة مآثر سمناه في الفصل
الأول ، وخاصة في تقصي الأصول الحسية للدلالة ،
وتمييز الحقيقة من المجاز . وعمدنا في هذا الجانب
معجم أساس البلاغة للزمخشري مع مراجعات متعددة
للأصول الأخرى من معاجم وكتب لغوية وبلاغية .
ويوثق الجانب الحديث من خلال المعاجم الحديثة
والدواوين القريبة زمننا من الأختل الصغير ، إضافة
إلى اجتهادات مصدرها السماع .

(١٧) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٣١٢
(١٨) من كتب التراجم مثلا : « الدرر الكامنة في أعلام الامة الثامنة والأربعين حيدر القلافي » و « سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي » ومن الكتب الحديثة « الأعلام » لخبر الدين
الزركلي ، وسلسلة « أعلام العرب » في مصر . . .

(١٩) شعره ، ص ٢٨٨

(٢٠) شعره ، ص ٣١٢

* الشبل ، الشبل ولد الأسد إذا أدرك الصيد^(٢١) .
وفي أساس البلاغة دلالة مجازية من هذه المادة . يقول
الزمخشري : «أشبلت فلانة بعد بعلمها : صبرت على
أولادها ولم تتزوج ، ومنه أشبلت عليه إذا عطفت ،
وتقول : هي في إشبالها كاللبوة على أشبالها»^(٢٢) .

والدلالة المجازية - وهنا - واضحة وقد رافقها تطور
اشتقاقى (من اسم إلى فعل) . ودلالة الشبل على ولد
الأسد مخصصة أصلاً ، ثم انتقلت إلى الدلالة على
الصغير المرجو خيره وبأسه تشبيهاً له بأشبال الأسد .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الأشبال»
بدلالاتها المجازية في حقل يضم دلالات أخرى كالأسد
والعرين والفيل . . ففي الحديث عن بني حمدان ترد
كلمة «الأشبال» في السياق التالي: (٢٣)

ملاعب الصيد من حمدان ماسلوا
إلا الأهلة والأشبال والقضب

وفي الحديث عن فتیان الأمة حديثاً يرد قوله «ليست
من الأشبال فتية أمة . .»^(٢٤)

وقوله أيضاً : «أشبال ذا الوطن الجريح . .»^(٢٥)

* الأسد ، الأسد معروف ، وهو في عرف العرب

مثال للشجاعة ، وقد عدَّ الإمام عبدالقاهر أمثلة من
هذا المجاز في الاستعارة والتمثيل العامي لشيوعه^(٢٦) .

وقد مر بنا في تضاعيف هذا الفصل ما يدل على
صيرورة هذا المجاز رمزاً شائعاً يرتبط في أذهان البشر
بمعاني القوة والبأس والاستبسال .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «أسد» في
موضعين ، ففي الحديث عن شباب لبنان يرد قوله :
«قضى على الأسد» هزلأذمام له . .»^(٢٧) ، وفي الحديث
عن كفاح العراق الحديث يرد قوله : «أسد
العراق . .»^(٢٨)

ويلحق بالدلالة المجازية الرمزية - وهنا - ما يتعلق
بالأصل الحقيقي ، فالأسد له أماكن سكن مخصصة
الدلالة ، نحو «العرين» و«الغيل»^(٢٩) . وقد غدت
شائعة الاستعمال بدلالاتها المجازية على «الوطن»
لارتباطها بأصل المجاز «الأسد» . ولا يخفى على
الدارس أن هذا الاستعمال يركز على خصيصة بارزة
يشخصها أناس في مجتمع كلامي خاص بوصفها
تشبيهات سائدة . ففي «الأسد» تكون السمة البارزة :
الشجاعة والإقدام وجهاً لوجه ، وفي «العرين» تكون
السمة البارزة : المنعة والحماية المصون من
الاعتداء . .»^(٣٠)

والمواضع التي وقفنا عندها في شعر الأخطل الصغير

(٢١) لسان العرب ، ١١ ، ٣٥٢

(٢٢) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٢٢٨

(٢٣) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٢١

(٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٨

(٢٦) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز ، تحقيق د . محمد رضوان الداية ود . فايز الداية ، ص ١٣٧

(٢٧) شعره ، ص ١٣٧

(٢٨) المصدر السابق ، ص ١٦٣

(٢٩) الثعالبي ، أبو منصور ، فقه اللغة ولسان العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت د . ث . ص ٣٠٢

(٣٠) الخواص الدلالية ، ص ٣٨٥

الفعل مجردا ومزيذا». ويبدو من خلال ماقدمنا فهم الزخشرى للتطور اللغوي، وكشفه عن طريقه: المشابهة، وانتقاء عنصر أساسي من دلالة الكلمة «حركة الذئب ودورانه...، خبثه، افتراسه»

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الذئب» بدلالاتها المجازية في موضع واحد. ففي الحديث عن تحكم المستعمر وأذنايه في الوطن يرد قوله: «يأمة غدت الذئب تسوسها...»^(٣١)

* النسر، النسر طائر من الجوارح، حاد البصر، قوي من رتبة الصقريات، وهو أكبر الجوارح حجماً^(٣٢)، ويمثل النسر في العربية رمزا للقوة والشمم، والرفعة. وقد ذهب الأستاذ العقاد إلى «أن هناك اشتباها بين النسر والعقاب في استعماك العرب، جاء من وصف النسر بالصفات التي تنفرد بها العقاب، فالنسر ليس من عتاق الطير... ويقع على الجيف، وقلما يصيد ولا يخالب له...»^(٣٣)

وفي هذا العصر غدا النسر شعارا لكثير من الأقطار العربية^(٣٤)، وفي مجال الطيران تطلق كلمة «نسر» على الطيار امتداحا. وقد وردت بهذه الدلالة في شعر أحمد شوقي^(٣٥).

تستعمل فيها كلمتا «العرين والغيل» للدلالة على الوطن. ففي حديثه عن «مصرع النسر» المقصود ههنا أحد الزعماء. ترد كلمة العرين في قوله «ورمى الذعر في العرين الضراغم»^(٣٦) وفي الحديث عن كفاح لبنان يرد قوله: «إيه لبنان... أين العرين؟...»^(٣٧)، وفي رثاء أحد الزعماء يرد قوله: «دخل الغيل على رثياله قدر...»^(٣٨)

* الذئب، الذئب معروف بالافتراس والخسة والغدر، وفي الأمثلة والآراء المنقولة عن عدد من النقاد والدارسين- في هذه الفقرة- مايدل على شيوع الدلالة المجازية الرمزية لكلمة «ذئب»، وقد تنبه «يوجين نيدا» إلى هذا المجاز بوصفه من التشبيهات السائدة^(٣٩).

وفي أساس البلاغة ما يؤكد ذبوع الاستعمال المجازي وتطوره إلى الدلالة الحقيقية، يقول الزخشرى: «من المجاز: هو ذئب في ثلة، وهم أذؤب، وذئاب، وهم من ذؤبان العرب: من صعاليكهم وشطارهم، وقد ذؤب ذابة: خبث كالذئب. وأكلهم الذئب- أي السنة. وتذأبته الريح: فزعته. وتذأبته الريح: أتنه من كل جانب فعل الذئب»^(٤٠)

ويتسع التطور- ههنا- لضروب من الاستعمالات المجازية التي رافقها تطور اشتقاقي «من الاسم إلى

(٣١) شعره، ص ٢٤١

(٣٢) شعره، ص ٢٨٣

(٣٣) المصدر السابق، ص ٣١٣

(٣٤) الجوانب الدلالية، ص ٣٨٤-٣٨٥

(٣٥) أساس البلاغة، ص ١٤٠

(٣٦) شعره، ص ٢٩٧

(٣٧) المعجم الوسيط، ٩١٧/٢

(٣٨) العقاد، عباس محمود، أشعار مجتمعات، ص ١٤٧-١٤٨

(٣٩) المعجم الوسيط، ٩١٧/٢

(٤٠) الشوقيات، ١٥٥/٢، الحاشية رقم (٢)

شجر^(٥١)، ثم استعملت للدلالة على المنزل، يقول الزمخشري: «وكرر الرجل: اتخذ طعاما عند بناء وكره أو شرائه... ومن المجاز: مادار في فكري نزولك في وكرى^(٥٢)»

وتمثل دلالة «وكرر» على المنزل الذي يتخذه الإنسان تطورا ضمن المحسوسات - من التخصيص إلى التعميم - وقد وردت بهذه الدلالة في أساس البلاغة من غير أن ينص على أنها من المجاز.

غير أن هناك تطورا آخر في الفصحى المعاصرة - مصدره السماع - يتجلى في إطلاق كلمة «وكرر» على المكان الذي يتخذ منطلقا للجريمة، وللدلالة على مغبأ الخارجين على القانون.

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «وكرر» للدلالة على «الوطن» و«المنزل»، ففي الحديث عن جبل لبنان يرد قوله: «إيه وكرر النسور...»، والقصيدة تحمل عنوان «وكرر النسور»^(٥٣) وفي الحديث عن كفاح لبنان الوطني يرد قوله «أيام وكرر في النسور مقدس»^(٥٤)، وفي الحديث عن أبي الطيب وإخفاق طموحه في إدراك الإمارة، يرد قوله: «إذن لاثكلت أم الشعر...»

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «نسر» بدلالتها المجازية على البطل والمقاتل الياسل، ففي حديثه عن جبل لبنان يرد قوله: «قل لوكر النسور قدست وكرا...»، وفي الحديث عن استغلال الغرب لبنان وجوع أهله يرد قوله: «لبنان مالفراخ النسر جائعة والأرض أرضك...»^(٥٥) وفي رثاء أحد الأعلام يرد قوله: «النسر ذا نرق على هضباته...»^(٥٦)، وفي قصيدة يرثي فيها «فصيل بن الحسين»، وهي بعنوان مصرع النسر - يرد قوله: «ذلك النسر كيف خلق وانقض...»^(٥٧)، وفيها أيضا: «هكذا مصرع النسور...»^(٥٨)، وفي موضعين آخرين ترد كلمة «النسر» متضامة مع كلمة «وكرر»^(٥٩).

ونشير إشارة موجزة إلى قصيدة شهيرة لعمر أبي ريشة، هي قصيدة «نسر»^(٦٠) وقد ذهب أحد الدارسين إلى أن نسر أبي ريشة صورة رمزية دلت على اضطرابه وترجمه بين عالم الفن، والواقع، وشقاؤه في حياته على الأرض...^(٦١) وفي فخر بدوى الجبل بلباء المناضلين يرد قوله: «نحن النسور ومن نعى جوانحنا...»^(٦٢)

ويمكن أن نتبع كلمة «نسر» كلمة أخرى ملازمة لها، هي كلمة «الوكر»، والوكر أصلا مكان الطير على

(٥١) شعر الأخطل الصغير، ص ٤٦

(٥٢) المصدر السابق، ص ٥٩

(٥٣) المصدر السابق، ص ١٧٧

(٥٤) المصدر السابق، ص ٢٤١

(٥٥) المصدر السابق، ص ٢٤٢

(٥٦) المصدر السابق، ص ٤٦، ٨٦

(٥٧) ديوان أبي ريشة، ١/٥٨

(٥٨) الأشر، د. محمد صبرى، الشعر في سورية، ص ١٢٤

(٥٩) بدوى الجبل، ديوانه، ص ٢٧٠

(٥٠) الناصبي، قته اللغة، ص ٣٠٣، واللسان، ٢٩٣/٥

(٥١) أساس البلاغة، ص ٥٠٧-٥٠٨

(٥٢) شعر الأخطل الصغير، ص ٤٦

(٥٣) المصدر السابق، ص ٨٦

قديمًا إلى الدلالة على الرجل الذي يشبه السيف أو يتقلده ، وقد عرف لهذا الاستعمال صور متعددة كالتشبيه ، والاستعارة والمجاز المرسل - بإطلاق الجزء على الكل - وفي الفصحى المعاصرة يشيع استعمال كلمة «السيف» للدلالة على المحارب والمناضل في مقام المدح . ومن هذه الدلالة مواضع متعددة في شعر أحمد شوقي وأنور العطار وعمر أبي ريشة وبدوى الجبل .^(٥١)

وفي شعر الأنثى الصغير ترد كلمة «السيف» بدلالاتها المجازية في عدد من المواضع ، ففي حديثه عن تاريخ الشام وعراق أهلها يرد قوله :^(٥٢)

نسلتهم أمضى السيوف فهذه
لابن الوليد وتلك للجراح

وفي رثاء هنانو يرد قوله : «سقط السيف بعد طول الضراب من يد المجد . . .»^(٥٣) وفي قصيدة «الجابي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي :^(٥٤)

ألا سيف من الإيمان
يبى سيف مسنونا
يجلي عن سما الأوطان
هذا النذل والهنونا

وعطل الوكر . . .»^(٥٥) وفي وصف الهجرة ، والنفاف الصغار حول أمهم ، يرد قوله : «تجمعوا في الوكر حول حماة جللها الأسى»^(٥٦)

* السيف ، السيف : نوع من السلاح وقد شاع استخدامه في القتال في عصور سابقة ، وبلغت أسبأه أو صفاته خمسين أسبأ أو صفة^(٥٧) ، ومن السيف اشتقوا أفعالاً متعددة نحو : سافه : ضربه بالسيف ، واستاف القوم وتسايفوا : تضاربوا بالسيوف ، وأساف وساف وسيف وتسيف . . .^(٥٨)

ويبدو أن تشبيه الإنسان بالسيف قديم وشائع ، ويدل على ذلك اشتقاق الصفة «سيفان» و«سيفانة» للدلالة على الرجل والمرأة إذا كانا معشوقين كالسيف^(٥٩) . وفي دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر استعمال مجازية لمادة «سيف» عدها المؤلف في التمثيل العامي^(٦٠) .

وبلاحظ الدارس عدداً من التسميات المعرفية المتطورة عن طريق المشابهة ، نحو : السيف الساحل الممتد في البحر ، والسفك الذي يشبه السيف ، والليف من السفف . . .^(٦١)

ويبدو أن الاستعمال المجازي لكلمة «السيف» تطور

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣

(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٧٧

(٥٦) السيوطي ، الزهر ، ٤٠٥/١ - ٤٠٩

(٥٧) لسان العرب ، ١٦٦/٩ - ١٦٧ ، والمعجم الوسيط ، ٤٦٨/١

(٥٨) اللسان ، ١٦٦/٩

(٥٩) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص ٢٠٥

(٦٠) لسان العرب ، ١٦٧/٩ ، والمعجم الوسيط ، ٤٦٨/١

(٦١) الشوقيات ، ١٧/٣ ، وتلال الأيام للمطار ، ص ٩٨ ، وديوان أبي ريشة ، ٥٨/١ ، وديوان بدوى الجبل ، ص ٢٣٤

(٦٢) شعر الأنثى الصغير ، ص ٢٣٤

(٦٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٤

وفي قصيدة «رائد عربي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي: (٦٥)

يصرع السيف في غمار من المجد
فلا يرتضي سوى الدم غمدا
أنت أغنية السيوف إذا ثا
رت لتبني مجدا وتهدم مجدا

وعن سيف الدولة وأبي الطيب يرد قوله: «سيفان في قبضة الشهباء...» (٦٦)

ويتخذ المجاز- في الموضع الأخير- شكلا من مجاز الجذور اللغوية الذي يتعمق في معنى الأسماء والألقاب، ليشير عددا من المدلولات (٦٧)، فعلي بن حمدان عرف بلقب «سيف الدولة» حتى طغى على اسمه، والأخطل الصغير يثير في المتلقي بذكر كلمة «سيفان» ثلاثة معان، هي: معنى السيف السلاح، ولقب سيف الدولة، ومجاز: السيف الرجل العلم أي «علي والمتنبى».

* الشمس، الشمس: النجم الرئيس الذي ينشر الضياء، وقد لوحظ معنى «التحول وعدم الاستقرار» في عدد من الدلالات المتطورة قديما، نحو «شمس فلان إذا ند، ولم يستقر تشبيها بالشمس في عدم استقرارها» (٦٨)، ومنه: «شمس: أظهر العداوة،

ورجل شمس» (٦٩) وقد عدها الزمخشري في المجاز، وهي من الدلالات المتطورة التي غدت تدخل في مجال الحقيقة.

ويبدو للدارس من خلال الأمثلة المتداولة في كتب البلاغة (٧٠) أن تشبيه الإنسان رجلا كان أم امرأة بالشمس شائع متداول، وقد لوحظ فيه معاني الرفعة، والظهور، والنور الموجودة في دلالة الشمس الحقيقية، ويمثل هذا التشبيه، تشبيه الإنسان بالقمرة والبدر والهلل والكوكب والنجم والمصباح.

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «شمس» في نوعين من الاستعمال المجازي، أحدها: المجاز الذي يتعلق بوصف الرجل أو المرأة بالرفعة والبهاء والجمال. ومنه قوله في رثاء أحد الزعماء: (٧١)

كفنوا الشمس برمحان وورس
يا لشمس أذنت من عهد شمس

وقوله أيضا: «عربي يصدع الشمس بشمس»
وقوله في رثاء فيصل: «أطلعت شمس فيصل منك مصابيح...» (٧٢)، وقوله في وصف «سلمى» رفيقة الصبا: «وأرتنا إذ غابت الشمس شمسا...» (٧٣)

ويمثل هذا الاستعمال ماورد في شعر بدوى الجبل، ففي رثاء «غازي» يرد قوله: «مصرع

(٦٥) المصدر السابق، ص ٣٣٦

(٦٦) المصدر السابق، ص ١٢١

(٦٧) رثان، ك، ك، ك، المجاز الذهني، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨ م، ص ٥٤

(٦٨) الأصمغاني، المفردات، ص ٢٦٧

(٦٩) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢٤١

(٧٠) ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، البابي الحلبي بمصر، ١٩٣٩ م، ١/٥٩

(٧١) شعرة، ص ٣١٢

(٧٢) شعرة، ص ٢١٠

(٧٣) شعرة، ص ٨٢

العلم الذي يستضاء بعلمه أو قيادته ، وعلى الإنسان الموصوف بالصباحة والوضاء رجلا كان أم امرأة . ويظهر في هذين الاستعماليين تطور ضمن المحسوسات : نور الصبح ، وإشراق الوجه ، وتطور من الحسي إلى المجرد : نور الصبح ، ونور العلم والهداية .

وفي التطور عن طريق التسمية المعرفية - لتطور الأدوات المستعملة - عرفت كلمة « مصباح » الدالة على المصباح الكهربائي Lampe électrique^(٨٠) ، وتنافسها في مستويات أخرى من الفصحى المعاصرة كلمات أخرى نحو : « النور » و « الضوء » و « لمبة » المعربة^(٨١) .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة « مصباح » بدلالاتها المجازية في موضعين ، ففي حديثه عن امرأة هجرها يقول :^(٨٢)

مهلا فمصباحك لم يسألتك
إلا بما من شعلتني تقبسين
وفي رثاء فيصل يرد قوله :^(٨٣)

أطلعت شمس فيصل منك للمعر
ب مصاييح من شقوق الغمام
ويرد الاستعمال الأول إلى الدلالة على النظارة والتألق ، وفي الثاني ، يرد إلى الدلالة على الآمال

الشمس . . «^(٨٤)» ، وفي رثاء « هنانو » يرد قوله : « وريث الشمس من عبد شمس . . »^(٨٥)

ثانيها : مجاز يقترب من الاستعمال الحقيقي في إطلاق كلمة « شمس » على المصابيح الكهربائية الحديثة . وقد ورد منه مثالان ، ففي حديثه عن حياة المدن الحديثة يرد قوله :^(٨٦)

والكهرباء هنا تشع شمسوها
وسراج أكثر من هناك الأنجم

وفي وصف قصر الحاكم - متصرف لبنان - يرد قوله :^(٨٧)

لمن القصر بدت فيه الشمس

فعلى وجه الدجى منها نهار

* المصباح ، المصباح : السراج الذي يستضاء به ، وأصله متطور عن طريق المجاز المرسل ، لأن المصباح هو قرط السراج ، ثم أطلق على السراج والقنديل^(٨٨) . ويلاحظ تطور دلالة « صبح » إذا أشرق الصبح إلى الصباحة والجمال والبهاء والنور في الوجه خاصة ، ومنه مارواه الزخشرى : « من المجاز : رأيت المصابيح تزهر في وجهه . . »^(٨٩)

ويبدو أن دلالة « الصباحة » غدت من التطور الدلالي الذي يعد في باب الحقيقة . أما الدلالة المجازية فتتجلى في تشبيه الإنسان بالمصباح أو استعارته له دلالة على

(٧٤) ديوان ، بنوى الجليل ، ص ٢٠٩

(٧٥) ديوانه ، ص ٢٣٢

(٧٦) شعر الأخطل الصغير ، ص ٩٢

(٧٧) شعره ، ص ٢٠٢

(٧٨) لسان للعرب ، ٥٠٦/٢

(٧٩) أساس البلاغة ، ص ٢٤٧

(٨٠) للمعجم الوسيط ، ٩٠٤/٢ ومادة نجف ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢

(٨١) المصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢ ، وشاعرين ، د . عبد الصبور ، في علم اللغة العام ، جامعة حلب ٨١ - ١٩٨٢ م ، ص ٢٥

(٨٢) شعره ، ص ٨٤

(٨٣) شعره ، ص ٢٤٠

والأحلام التي أطلعها شمس فيصل للعرب من خلال الظلام .

وهناك استعمال مجازي آخر يمكن أن يفرد في جانب متميز ، وهو استعارة المصباح للدلالة على نور العلم والهدى دون أن يشير إلى علم أو امرأة موصوفة بالجلم .

ويمثل هذا الاستعمال تطورا من الحسي - دلالة المصباح بأنواعه - إلى المجرد أي النور الذهني والإشراق الفكري .

ويرد من هذا النوع مثال واحد في شعر الأخطل الصغير ، ففي حديثه عن الفن ، يقول :^(٨٤)

إنني سكبت بها البيان على الطلا
في عزلتي وجعلتها مصباحي

وأمثلة هذا الاستعمال كثيرة ، ومنها القديم والحديث ، «فالفيومي» صاحب «المصباح المنير» جعل كلمة «مصباح» عنوانا لمعجمه مثلا . وهناك أمثلة أخرى من الاستعمال الحديث ، منها ماورد في الشعر نحو قول أنور العطار : «باسنا الفن أنت مصباحي» .^(٨٥) وما ورد في الدراسات الأدبية ، نحو قول أحمد الشايب في تاريخ النقد : «نتخذ مقياسا . . ومصباحا نهتدى به في إنشاء» .^(٨٦)

* النجم ، النجم : اسم لكل واحد من كواكب السماء ، وهو بالثريا أخص^(٨٧) ، ويلاحظ الدارس تطورا ضمن المحسوسات من التخصيص إلى التعميم ، فقد خرجت دلالة «النجم» الذي يطلق في السماء إلى كل ما يطلع ويظهر^(٨٨) ، وهناك تطور دلالي آخر يتمثل في دلالة نجم «على الجزء» ، لأن الدّين كان يؤدي «نجوما» أي لدى كل نجم . ومنه : «أنزل القرآن نجوما» .^(٨٩)

وفي تطور آخر من الحسي إلى الذهني نجد دلالة التنجيم وهي النظر في النجوم تطورت إلى معنى التفكير والتبصر . «ويقال للإنسان إذا تفكر في أمر لينظر كيف يديره : نظر في النجوم» .^(٩٠)

وقد أشرنا في تضاعيف هذا الفصل إلى أن دلالة «نجمة» - واحدة نجم السماء - محدثة ، فالنجمة قديما هي شجرة ممتدة على وجه الأرض .^(٩١)

والتطور المجازي يتجلى في دلالة «نجم» قديما و«نجم ونجمة» حديثا على الإنسان العلم أو الرجل الشهير أو الفنان والفنانة .

وفي الأصول القديمة وكتب السيرة والحديث إشارات لامعة إلى هذا الاستعمال ، منها : تشبيه

(٨٤) شعر ، ص ١١٧

(٨٥) العطار ، أنور ، ظلال الأيام ، ص ٥٨

(٨٦) إبراهيم ، طه أحمد ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت د . ت ، من مقدمة أحمد الشايب ، ص (٥)

(٨٧) لسان العرب ، ٥٧٠ / ١٢

(٨٨) المفردات ، ص ٤٨٣ ، وأساس البلاغة ، ص ٤٤٨ ، واللسان ، ٥٦٨ / ١٢ ، والتكليات للكفوي ، ٣٣٠ / ٤

(٨٩) أساس البلاغة ، ص ٤٤٨

(٩٠) لسان العرب ، ٥٧١ / ١٢

(٩١) المعجم الوسيط ، ٩٠٥ / ٢

والتزامن هو تعبير يدل على وصف المدرك الحسي الخاص بحاسة معينة بلغة حاسة أخرى أى بالمفردات الدالة عليها ، نحو وصف الصوف بأنه مخملي أو دافئ ، أو ثقيل أو حلو ، ووصف دوى النفير بأنه قرمزي^(١٠١) .

ويبدو أن هذا المصطلح حديث النشأة ، فقد جاء في معجم المصطلحات العربية أنه ظهر عام ١٨٩١ م في «قاموس القرن»^(١٠٢) . ويذهب الدارسون إلى أن «بودلين» هو صاحب الفضل في انتشار المصطلح وتداوله^(١٠٣) .

غير أن مايمينا في هذا الجانب هو دراسة التزامن من وجهة لغوية - دلالية تقوم على تحليل الاستعمالات اللغوية المترامنة على أساس البحث المجازي .

ففي نظرية الأدب «لوارين وويليك» يعدّ المؤلفان التزامن شكلا من أشكال التحول المجازي ، «وهناك خاصة أخرى تعزى في بعض الأحيان للأديب والشاعر بخاصة وهي التزامن «synaesthesia» أو ربط الإدراكات الحسية الناشئة من إحساسين أو أكثر . وأشيعها بين الأدباء ربط السمع بالبصر ، السمع الملون ، واعتبار صوت البوق قرمزيا ، وغالبا مايكون التزامن الحسي تقنية أدبية وشكلا من التحول المجازي .»^(١٠٤)

وفي التطور المجازي نميل إلى أن تطور كلمة «كوكب» مماثل لتطور كلمة «نجم» ، فالكوكب : الفنان والزعيم والبارع الجمال^(١٠٥) .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الكوكب» بدلالاتها المجازية على الرجل الشهير أو الزعيم العلم . ففي حديثه عن عراقه الشام يرد قوله :^(١٠٦)

هو منبت لكارم هو مطلع
لكواكب هو ملعب لجياد

وفي موضع مماثل يرد قوله :^(١٠٧)

الشام منبتهم وكم من كوكب
هاد وكم من بلبل صداح

وفي معجم المسرحيات العربية والمعربة ترد كلمة «كواكب» للدلالة على الممثلين والممثلات ، وقد وردت في العنوان التالي : «فهرس كواكب المسارح التمثيلية من ممثلين ، وممثلات»^(١٠٨)



٢ - التزامن الحسي :

وينفرد التزامن الحسي «synesthesie» بجانب من المجاز الحديث في الفصحى المعاصرة ، وهو واحد من سبل التطور الدلالي في الصورة الفنية .

(١٠٢) النهل الوسيط ، ص ٧٢ ، ٣٤٧

(١٠٣) شعره ، ص ١٤٠

(١٠٤) شعره ، ص ٢٣٤

(١٠٥) داغر ، يوسف أسعد ، معجم المسرحيات العربية والمعربة ١٨٤٨ - ١٩٧٥ م ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ٦٩٨

(١٠٦) وهبة ، مجدى ، وعيندس ، كامل ، المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٨٤

(١٠٧) المصدر السابق ، الموضع نفسه

(١٠٨) هورتيك ، لويس ، الفن والأدب ، ص ١٧ - ١٨ ، ويمندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١١٠

(١٠٩) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٨٥ - ٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٦

بالنعومة ، والحشونة ، والوضوح مع أن الوضوح للمرثيات لا للمسموعات ، والصفات الأخرى للملموسات .^(١١٠)

ويدخل التزامن لدى بعض الدارسين في المجاز الشائع في لغة الخطاب ، وفي الأدب ، على حين التمس له آخرون أمثلة ترجع إلى الكتاب المقدس والإلياذة والأوديسة .^(١١١)

ويمكن أن تنتهي من هذا الدرس إلى أننا ننظر إلى التزامن على أنه تطور ضمن المحسوسات ، وأنه يخضع لما تخضع له بقية الأنماط المجازية من ابتدال ويل بسبب كثرة التداول حتى تغدو بعض أمثله أقرب إلى التعبير الحرفي منها إلى المجاز الفني أو الصورة المؤثرة انفعاليا . ويظهر هذا التحول من المجاز الفني إلى الاستعمال اللغوي «الحرفي» في بعض الأمثلة التي نقلها صاحباً نظرية الأدب ، نحو «صوت جميل» وصفة «حلو» التي تخص الذوق ثم استعملت لوصف الروائع ، والأنغام ، والمناظر .^(١١٢)

ويبدو من خلال المواضيع التي وردت في شعر الأخطل الصغير من هذا النوع «التزامن» أنه يمكن أن تجعل في قسمين استناداً إلى تصنيف «أولمان» وقياساً على أمثله . ويكون التطور في الأول من حاسة إلى أخرى ، ويكون في الثاني بتطور معطيات حاسة معينة إلى المادي ، والمجرد الذهني ، وهو خروج على الحقل الدلالي للحواس .

وفي الجوانب الدلالية ينقل الدكتور فايز الداية تصنيفاً للتطور يقوم على نقل الأسماء للمشابهة بين المعاني ، ويعدّ أولمان - وهو صاحب التصنيف - التزامن واحداً من أقسام نقل الأسماء . «ومشابهة المعاني إنما تكون :

أ - ذات جوهرية : في مشابهة الشكل بين ورقة الكتابة ، والورقة الطبيعية ، وفي المشابهة الوظيفية والمشابهة الموقعية .

ب - مترامنة حسياً : وذلك بتشبيه الصوت باللون «يعرف بطريقة أكثر زرقة» ، واللون بالرائحة «الأبيض المنعش» .

ج - انفعالية : عندما يشبه إحساس ما شيء مادي رابطة بينهما بعض الخواص «صدافة دافئة» ، و «خلق حلو» ، طيب»^(١١٣)

ولعل أقدم تفسير للترزامن ، واتجاه الدرس اللغوي فيه ما أورده الدكتور محمد مندور في الأدب ومذاهبه ، فقد عدّ «التبادل أو التعادل» Correspondance اتجاهها لغوياً خاصاً بالبحث في وظيفة اللغة ، وإمكاناتها ، ومدى تقيدها بعمل الحواس ، وتبادل تلك الحواس ، على نحو يفسح أمام الكاتب أو الشاعر مجال اللغة ، وتسخيرها لتأدية وظائف الأدب .^(١١٤)

ويعدّ محمد مبارك التزامن - من غير أن يسميه - نوعاً من النقل من الحسي إلى الحسي نحو وصفنا للصوت

(١١٠) الداية . فايز ، الجوانب الدلالية ، ص ٣٨٠ و ٤٩-٤١ p. Guiraud, la sem-antique.

(١١١) مندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١١٠ - ١١١

(١١٢) المبارك ، محمد ، لغة اللغة وخصائص العربية ، ص ٢٢٢

(١١٣) وهبة وهندس ، المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٨٤ ، هيكل ، د . أحمد ، الأدب ، بيروت ، عدد ١١ / سنة ١٩ / تشرين الثاني ، ١٩٧١ م ، ص ٢٣

(١١٤) دارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٦

ويضمّ القسم الأول الدلالات المتعلقة بالحواس ، وما ينتج عن تزامنها وتبادلها المواقع التعبيرية من أشكال مجازية ، على حين يضمّ الثاني مجموعة من الدلالات المجازية الذاتية التي تخرج فيها معطيات حاسة معينة من حقلها الدلالي لتغدو استعمالاً لغوياً متطوراً من المجاز .

أ- نقف في هذا القسم عند عدد من الدلالات اللغوية المتطورة عن طريق التزامن : من الحسي إلى الحسي ، أي من حاسة إلى أخرى .

ففي قصيدة بعنوان «الشام منبتهم» يقول الشاعر :^(١١٥)

في كل رابية ، وكل حنية
عصاه تسطع بالشذا الفسّاح

ودلالة : سطع الشذا مماثلة لما عدّه الزغشري من المجاز ، يقول : «من المجاز : سطعت رائحة المسك ، وأعجبني سطوع رائحته»^(١١٦) ويبدو من خلال مراجعة أصول مادة «سطع» أنها مرتبطة أصلاً بسطوع الصبح لإضاءته وانتشاره . «يقال للصبح إذا طلع ضوءه في السماء قد سطع .. أول ما ينشق مستطيلاً ، وفي حديث السحور : كلوا واشربوا لا يهيدنكم الساطع المصعد .. وأشار بيده . يعني الصبح الأول المستطيل .. فلذلك قيل للعمود من أعمدة الخباء سطع ، ومنه عتق سطعاء إذا طالت وانتصبت»^(١١٧)

ومن الواضح أن دلالة «سطع» مرتبطة بحاسة البصر التي تدرك المحسوسات المرئية ثم تطورت دلالة الانتشار والانبعاث في ضوء الصبح إلى الدلالة على كل منتشر أو منبعث ، نحو : سطع الغبار ، وسطعت الرائحة : فاحت وعلت وانتشرت ، وسطع السحاب ، وسطع البرق ...

وتصوّر في دلالات أخرى معنى الارتفاع والاستطالة الموجود في دلالة «سطع الصبح» فقليل : سطاع : عمود الخباء ، وعنق سطعاء ، طويلة ومنتصبة ، ويصح أن يعد في هذا التطور معنى سطع بيديه : رفعها مصفقا^(١١٨) .

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» يقول الشاعر :^(١١٩)

عرس الأحرار أن تسقي العسدى
أكؤسا حمرا وأنغاماً حزانى

إن دلالة «تسقي العسدى أكؤسا» تعد من المجاز القديم ، ففي «أساس البلاغة» : «من المجاز : تساقوا كأس الموت ، وساقيته إياها ..»^(١٢٠) أى حارب بعضهم بعضاً . أما دلالة «الأنغام» فهي مرتبطة بحاسة السمع التي تدرك الأصوات . غير أن الشاعر عمد إلى تجسيد الأنغام وجعلها مما يدرك بالذوق الحسي : الشرب . ويبدو أن دلالة «سقى» متطورة قديماً إلى دلالات ذهنية خارجة على الحواس ، نحو :

(١١٥) شعر الأعطل الصغير ، ص ٢٣٣

(١١٦) الزغشري ، أساس البلاغة ، ص ٢١٠

(١١٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ١٥٤/٨ - ١٥٥

(١١٨) المصدر السابق ، ١٥٥/٨

(١١٩) شعره ، ص ١٨٠

(١٢٠) أساس البلاغة ، ص ٢١٥

وقد نبه الأصفهاني إلى أصل الدلالة ، وما تطور منها من دلالات مجازية ، يقول : «والمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس ، وكني به عن النكاح ، فقيل : مسها . . وكني بالمس عن الجنون ، قال : «كالذي يتخطبه الشيطان من المس» ، والمس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى...»^(١٢١)

ويمكن أن نعد دلالة «مس العطر» من التطور ضمن المحسوسات عن طريق التعميم . وفي مواضع كثيرة ترد مفردات تدل على العطر والشذا والأريج في سياقات تقوم على التجسيد المترامن .

ففي قصيدة بعنوان «الفردوسي» يقول الشاعر :^(١٢٢)

همل للأزاهر عن أمانتها خبير
عن شاعر سكب الأطياب في فيها

وفي قصيدة بعنوان «عيد الحبيب» يقول :^(١٢٣)

النور والعطر رقراقان في أفق
من المباسم مذ الظن والنظر

وفي قصيدة بعنوان «الصبا والجمال» يعمد الشاعر إلى تجسيد «العبير» في قوله :^(١٢٤)

سكر الروض سكرة صرعته
عند مجرى العبير من نهديك

استقى الأعبار والمعارف أى أخذها وتلقاها من مصادرها .

وفي موضع آخر نجد الشاعر قد عمد إلى تجسيد «الغناء» ، وهو مما يدرك بالسمع وجعله مما يتناول أو يتذوق عن طريق القم . ففي قصيدة بعنوان «بأبي أنت وأمي» يقول :^(١٢٥)

غنني واسكب غناك ولماك
في فمي فديت فاك ، هل أراك
وعلى قلبي يداك ورضاك

وفي جانب آخر نجد أمثلة للتزامن بين حاستي اللمس والشم ، ففي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، يقول الشاعر :^(١٢٦)

ملعب الأحلام ما أحـ

سلاك حلو المبتسم

وإذا مسك عطر

في أهزازيج النسم

تنبرى الريشة والأو

تار والحب النغم

وبدل أصل «مس» على اللمس باليد^(١٢٧) ، ثم تطورت الدلالة إلى كل ما يلامس الجسد أو يقع أثره عليه أو يصيبه ، نحو مس الماء والسوط والمرض . . وغيرها من المحسوسات .

(١٢١) شعره ، ص ٢٩٣

(١٢٢) شعره ، ص ٣٣٥

(١٢٣) لسان العرب ، ٢١٨/٦

(١٢٤) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٦٧

(١٢٥) شعر الأخطل الصغير ، ص ٧٣

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٣١٨

(١٢٧) المصدر السابق ، ص ٤٥

إجمالاً على أنها مجازية ولو عن طريق الحساسية الأدبية واللغوية .

وهناك «بعض العبارات - وهي طبعاً أكثرها ابتداءً - قد قبلها الجمهور، وتفهمها كصفة الخلاوة التي تطلق قبل كل شيء على الطعام ثم على الصوت واللون واللمس، بل وأخيراً على السجية الخلقية»^(١٢٦)

وترتبط الدلالة اللغوية لمادة «حلا» بحاسة الذوق : حلا الشيء صار حلوا وحلّ الطعام : جعله حلوا . . غير أن الدلالة خرجت إلى مجموعة من المعاني المجازية . ففي أساس البلاغة : «من المجاز : حلي فلان في عيني . . وحليت الشيء في عين صاحبه ، وهو حلو اللقاء ، وحلو الكلام ، واستحليت هذه الجارية ، واحلوت لي . . وجارية حلوة العينين ، وتحالت المرأة : أظهرت حلواتها . .»^(١٢٧)

ويظهر التطور - ههنا - في توسع الدلالة وخروجها من التخصيص بحاسة الذوق الحسية إلى الدلالة على كل ما يروق ويحسن من منظر، وسلوك، وخلق وكلام . . إضافة إلى دلالاتها في وصف معطيات الحواس الأخرى كالشم والسمع . وفي نظرية الأدب ينقل المؤلفان عن «كامبل» صاحب فلسفة البلاغة قوله : إن صفة «حلو» وهي في الأصل تخص الذوق يمكن أن تستعمل الآن للروائح والأنغام والمناظر .»^(١٢٨)

وفي قصيدة بعنوان «مرحبا مصر» يحسد «الأريج» وينقله من الشم إلى اللمس والبصر . يقول :^(١٢٩)

ليس تألو الرياض أن توقف الزهر
ر وإن تجمع الشذا ليس تألو
لتريق الأريج سكبا ونبها
نا على وجه مصر حين يطل

وفي قصيدة بعنوان «ثم إن قلبي» يحسد «الشذا» ويجعله ماء . يقول :^(١٣٠)

وإذا النسيم وأنت في بحر الشذا
غرق دنا من وجنتيك ليثما

وفي موضع واحد من قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» اجتمع ضربان من التزامن أحدهما من السمع إلى البصر، والآخر من اللمس إلى البصر . فقد عمد الشاعر إلى تحسيد «الأنين» وجعله مما يرشف بالعين . يقول :^(١٣١)

وأينسا بساحت النجوى به
عريسا رشفته مقلتاننا

ب - ونقف في القسم الثاني عند عدد من معطيات الحواس التي توسعت دلالاتها، وخرجت من خصوصية التزامن . وسوف يبدو من خلال الأمثلة أن هذه المعطيات تعرضت لجوانب متعددة من التطور ، حتى عد معظمها في الاستعمال اللغوي ، ولم نعد نشعر

(١٢٩) : القصص السابق ، ص ٦١

(١٣٠) : القصص السابق ، ص ٦١

(١٣١) : القصص السابق ، ص ١٨١

(١٣٢) : هورثيت ، الفن والأدب ، ص ١٩

(١٣٣) : الرمضاني ، أساس البلاغة ، ص ٩٤

(١٣٤) : واريث وويث ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٦

بالإحساس الداخلي Affectivite^(١٣٥) ، وقد ذهب بعض المحدثين إلى عد هذا التطور من التطور غير المحمود الذي لا مسوغ له .^(١٣٦) وفي الموضع الرابع ترد «مأحلاك» للدلالة على جمال الطبيعة ، وترد عبارة «حلو المبتسم» للدلالة على جمال الإشراق . وتوظف الدلالة - ههنا - لوصف جمال لبنان ومظاهر الطبيعة فيه

وتماثل دلالة «مر» صار مرًا التطور الذي تبيّنه في مادة «حلا» ، فدلالة «مر الشيء» صار مرًا ، وأمر الشيء . . . مرتبطة بحاسة الذوق التي تميز الطعوم . غير أن هذه الدلالة توسعت إلى وصف كل مستكره من منظر وكلام وأمر . . . وفي أساس البلاغة «من المجاز نزل به الأمران : الهرم والمرض ، ولقيت منه الأمرين ، ومر عليه العيش وأمر ، وما أمر فلان وما أحلى . . .»^(١٣٧)

وفي شعر الأختل الصغير ترد مادة «مر» في موضعين ، ففي قصيدة بعنوان «سلي الليل» يرد قوله :^(١٣٨)

سقيت مسرات الحياة فلم أجد
كمثل الذي يسقيه من كفك الحجر

وفي قصيدة «عروة وعفراء» مرّ بنا موضع وردت فيه كلمة مرّ في قوله : «مر الشقا بحلاوة الوجدان»^(١٣٩)

وفي شعر الأختل الصغير ترد مادة «حلا» في مواضع متعددة ، ففي قصيدة بعنوان «وداد» يصف جمال أبنته ، ويقول :^(١٤٠)
حلاوة مهما يزد

يوم عليها تزد

وفي قصيدة بعنوان «أحلى الحب» يرد قوله :^(١٤١) «إن كان أحلى الحب أول قبلة . . .» ، وفي قصيدة بعنوان «عروة وعفراء» ، يقول :^(١٤٢)

عشي لمنزله بنفس مغالب
مرّ الشقا بحلاوة الوجدان

وفي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، ويقول :^(١٤٣)

ملعب الأحلام ما أح
سلاك حلسو المبتسم

ففي الموضع الأول ترد كلمة «حلاوة» لوصف الجمال الحسي ، وفي الموضع الثاني ترد كلمة «أحلى» لوصف اللذة الحسية في القبلة ، وفي الموضع الثالث ترد عبارة «حلاوة الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» متطورة في الفصحى المعاصرة إلى معان متعددة ، منها دلالتها على حالات نفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم ، وما يتعلق

(١٣٤) شعره ، ص ١٠١

(١٣٥) شعره ، ص ٢٧٧

(١٣٦) شعره ، ص ٢٩١

(١٣٧) شعره ، ص ٣٣٤

(١٣٨) عبدالتور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ٢٨٩

(١٣٩) المبارك ، محمد ، لغة اللذة وخصائص العربية ، ص ٢٣٣

(١٤٠) أساس البلاغة ، ص ٤٢٦

(١٤١) شعره ، ص ٧٢

(١٤٢) شعره ، ص ٢٩١

ونقف في ختام البحث في تطور المواد المتعلقة بالذوق عند تطور الكلمة الدالة على الحاسة نفسها «ذاق». والذوق حاسة تُعزّز بها خواص الطعم بوساطة الجهاز الحسي في الفم ومركزه اللسان.^(١١٣)

غير أن التذوق لم يعد مقتصرًا على الذوق الحسي بل تطوّر إلى معنى «التعرّف» أو الملامسة الحسية، وتطور إلى الدلالة على مد النظر إلى النساء وتفحص مواطن الجمال فيهن.

وفي الأدب والفن تدلّ مادة «الذوق» على حاسة معنوية، أو ملكة الإحساس بالجمال، والتمييز بين حسنات الأثر الفني وعيوبه.^(١١٤) وتطورت دلالة «الذوق» أيضا إلى شؤون الحياة والمجتمع كالذوق في اختيار الملابس، والذوق في المعاملة والجمالة، والذوق في ترتيب المنزل...

وفي أساس البلاغة يعدّ الزخشي دلالة «ذقت الطعام» الأصل الحسي ثم يعدّ الدلالات المتطورة جميعا من المجاز. يقول: «من المجاز: ذقت فلانا، وذقت ماعته... وهو حسن الذوق للشعر إذا كان مطبوعا عليه، وما ذقت اليوم في عيني نوما، وذاق القوس: تعرّفها ينظر مامقدار إعطائها، وذق قوسي لتعرف ليها من شدتها، وقد ذاقها يدي، وتذاق التجار السلعة، وذقت كفي فلانة إذا مستها. وفي الحديث «إن الله يبعث اللواقين والذواقين كلما تزوج أو

تزوجت مدّ عينه أو مدت عينها إلى أخرى، أو آخر.»^(١١٥)

ويمكن أن تردّ أمثلة الزخشي إلى ثلاثة أضرب، الأول: اللمس «ذاقتها يدي» والثاني: البصر «الذواقون والذواقات»، والثالث: الحس المعنوي الفني «حسن الذوق للشعر»، إضافة إلى الأمثلة التي تدل على التعرف، نحو: ذاق القوس، تذاق التجار السلعة...

وفي شعر الأخطل الصغير تردّ مادة «الذوق» في عدد من المواضع. ففي قصيدة بعنوان «المسلول»، يقول:^(١١٦)

لا أنام ولا أذوق كسرى
أنا لست من يحيا لفجر غد

وإن دلالة «أذوق كسرى» من المجاز القديم الذي ذكره الزخشي، وقد غدت هذه الدلالة استعمالا لغويا لا يثير في المتلقّي هزة انفعالية.

وفي قصيدة بعنوان «هند وأمها» يقول:^(١١٧)
عرفتهم واحدا واحدا
وذقت الذي ذقته مرتين

وتقرب دلالة «ذقت الذي ذقته» من معنى التعرف، ومعاناة الشيء. وفي قصيدة بعنوان «سلمى الكورانية» يقول الشاعر:^(١١٨)

(١١٣) المعجم الوسيط، ٣١٨/١

(١١٤) عبدالنور، د. جوير، المعجم الأدبي، ص ١١٨

(١١٥) الزخشي، أساس البلاغة، ص ١٤٧

(١١٦) شعره، ص ٢٥٤

(١١٧) شعره، ص ٢١٩

(١١٨) شعره، ص ٥٥

اهتمامنا كان موجها إلى رصد التطور الدلالي الحقيقي دون غيره من جوانب التطور وبجالاته .

آ - ففي جانب من جوانب الدرس المجازي - ههنا - نقف عند عدد من الصور المتطورة بتأثير الترجمة ، وما ينشأ عنها من إشراق الكلمة العربية دلالة الكلمة الأجنبية ، فتغدو أكثر ارتباطا بالمعصر ومعطياته .

وأول ما نقف عنده تركيب وصفي هو «إبتسامة صفراء» ، وتقوم الصورة - ههنا - على تجسيد الإبتسامة وإعطائها صفة لونية «الصفرة» ، وتختص هذه الصفة في نظام الألوان «السيمولوجي» بالدلالة على القلق وعدم الاستقرار والذبول ، وشحوب الحياة .

وقد ذهب الدكتور إبراهيم السامرائي إلى عدّ هذا التركيب الصوري المجازي من التعابير الأوربية المترجمة . يقول : «ضحكة صفراء أو إبتسامة صفراء ، وهو في الفرنسية Rile jaune»^(١٤٩)

ودل السياق الذي وردت فيه هذه الصورة في شعر الأخطل الصغير على ارتباطها بجزو المرض والشحوب ، فالحديث كان عن مرض أحمد شوقي في لبنان .^(١٥٠)

والتركيب الثاني هو «وجهك المستعار» ، ونميل إلى عدّه تعبيرا مترجما ، أو متأثرا بالعادات الأوربية الحديثة في وضع الأقنعة المستعارة في الحفلات التنكرية . ويبدو - ههنا - تطور الدلالة الحسي إلى الدلالة على المظهر الكاذب والبرياء والخداع .

إذا أرتك الجبال الغيد كاسية
فالشط أذوق منها حين عراها

وعلى الرغم من أن دلالة «أذوق منها» عامة غير محصورة ، فإنه من الممكن أن تعد في الذوق الفني الذي يختص بالجمال الحسي .

وفي قصيدة بعنوان «شاعر النيل» يقول :^(١٥١)

أنت والنيل ضفتان لمصر
تبتسان الأذواق والأرزاقا

وإنّ إنبات الأذواق - ههنا - دلالة مجازية يمكن أن تسلك في الذوق الفني الذي يدل على ملكة الإحساس بالجمال في جميع مناحي الفكر والأدب والفن .



٣ - أثر التطور الدلالي الحديث في تراكيب مجازية شائعة :

ويخصص القول في هذه الفقرة لدرس عدد من التراكيب المجازية «الصور الفنية» ضمن سياقها النظمي syntagmatique . وتعزى جودة الصورة - ههنا - إلى ورود كلمة متطورة دلاليا فيها ، أو قيامها عليها ، ويلاحظ أثر الترجمة في حداثة عدد من الصور ، إضافة إلى ارتباط بعضها بالسياق الاجتماعي والحضاري الحديث .

وتجدر الإشارة إلى أننا وقفنا عند عدد من الصور المجازية ضمن المواد المحللة في القسم الأول ، غير أن

(١٤٩) شعره ، ص ٢١٤

(١٥٠) السامرائي ، د . إبراهيم ، لغة اللغة للعقرون ، ص ٢٨٩

(١٥١) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٩

ودل السياق على استعمالها للدلالة على المجد والنصر
والتضحية . يقول: (١٥٧)

باجتهاداً صفتى المجد له
لبس الغار عليه الأرجوانا

وفي سياق صورة فنية ترد عبارة «قوس من النور»
للدلالة على شاهنامة الفردوسي ، ويبدو أن هذا
التركيب المجازي مستمد من دلالة «قوس النصر» ،
وهو عقد من خشب أو نحوه يقام فوق الطريق العام في
شكل قوس ويزين بالمصابيح والأعلام ونحوها . (١٥٨)
وقائل هذه الدلالة التعبير الفرنسي Arc de triomphe

يقول الأخطل الصغير: (١٥٩)

قوس من النور مساجت تحته أمم
وغاية من ظمى غنى الردى فيها

ب - وفي قسم آخر من التراكيب المجازية الحديثة ،
ترد مجموعة مستمدة من السياق الاجتماعي والحضاري
الحديث .

ونقف عند تركيب وصفي هو «الليالي الحمراء» ، وهو
تركيب مجازي يدل على انتهاب الملذات في النوادي
الليلية ، أو السعي إلى تهيئة الشراب والملذات في مكان
آخر .

ودل السياق الذي وردت فيه هذه العبارة على

وفي الفرنسية Masque قناع ، وجه مستعار ،
ومظهر كاذب ، ورياء . و bal Masque حفلة راقصة
تنكرية . (١٦٠)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد عبارة «وجهك
المستعار» في موضع واحد . يقول: (١٦١)

فانجب العيش لا أبا لك نبها
وأطرح عنك وجهك المستعارا

وفي أحد أعداد مجلة «الأدب» وقفت على التركيب
نفسه واردا في شعر لخليل حاوي ، وفي افتتاحية
العدد . (١٦٢)

والتركيب المجازي الثالث ، هو «لبس الغار عليه
الأرجوان» ، ودلالة «إكليل الغار» مستمدة من
الفرنسية على ما يبدو ، فالغار Laurier إكليل ،
وانتصار وتكليل بالمجد . (١٦٣)

وفي المعجم الوسيط «الغار : كان الرومان يتخذون
منه إكليلاً يتوجون به القائد المظفر أو الشاعر المغلق رمز
لمجده» . (١٦٤)

وقد أضفت كلمة «الغار» المتطورة عن طريق
إشراها معنى الكلمة الفرنسية وما تحمله من دلالة
ثقافية ، جدة وحداثة في التركيب المجازي الصوري .

(١٥٢) عبد الوار - د جوار - وليميس - سهيل - المنهل الوسيط - ص ٥١٤

(١٥٣) شعرة - ص ٩٦

(١٥٤) مجلة «الأدب» بيروت - عدد ٧٠ - سنة ١٩٦١ م - ص ٣٢

(١٥٥) المنهل الوسيط - ص ٤٧٧

(١٥٦) المعجم الوسيط - ٢ - ص ٦٦٦

(١٥٧) شعرة - ص ١٨١

(١٥٨) المعجم الوسيط - ٢ - ٧٦٦ - المصطلحات العلمية والفنية - ٤٦/٣

(١٥٩) شعرة - ص ١٦٦

بجو عصرية هو تنويج ملكة الجمال في حفل ذى رسوم معلومة .

ويبدو أثر التقليد الحديث «تنويج ملكة الجمال» في السياق كله ، فدلالة «التاج» غدت رمزا للتكريم ، ويبدو أنها مستمدة من صفر التاج لدى الرومان ووضعها على رؤوس الملوك والشعراء والعظماء .

وقد وردت عبارة «صفر الغار» للدلالة على التكريم في شعر الأخطل الصغير،^(١٦٦) كذلك وردت عبارة «تري تاجا يصفى» للدلالة على مكانة عمر بن أبي ربيعة وسبقه .^(١٦٧)

ونميل إلى عد هذه التراكيب من التراكيب الحديثة دلاليا ، ومجازيا ، ولا يخفى أثر التقاليد الاجتماعية الحديثة في تطورها .

ج - ونلمح مواقع التطور الدلالي في تراكيب مجازية شائعة . وسوف نقف عند ثلاث مواد استمدت منها الصور المجازية .

فالإكليل كلمة معروفة قديما بدلالاتها على التاج المزين بالجوهر ، وقد وردت كلمة «التاج» مرادفة كلمة «الإكليل» ، في موضعين من لسان العرب .^(١٦٨)

ويبدو التطور الحديث في دلالة «الإكليل» على طاقة من الورد والزهر ، وقد تعددت أغراض الأكاليل في عصرنا ، وأهمها مايقدم في مناسبات الزواج والأفراح ،

ارتباطها بالجو الاجتماعي الحديث . ولا يخفى - ههنا - أثر الصفة اللونية «الحمرة» ، فالحمرة من الألوان المهيجة وترمز غالبا إلى اللذة والمتعة الحسية . يقول الأخطل الصغير:^(١٦٩)

غنني يابللي ، واسقني ياجدولي
الليالي الحمر لسي والشراب

كذب الواشي وخاب
من رأى الشاعر تاب
عمره فاجر من الحب
وليل من شراب

وترد تراكيب متعددة مستمدة من دلالة «تاج» ، و«عرش» غير أن مايمتد ههنا هو ارتباط التعابير المجازية بالسياق الاجتماعي والحضارى الحديث .

ففي مناسبة تنويج «ملكة الجمال» ، ترد كلمتا «تاج» و«عرش» في السياق التالي:^(١٧٠)

الصبا والجمال ملك يديك
أى تاج أصر من تاجيك
نصبجيا الحسن عرشه فسالنا
من تراها له فدل عليك

ويلاحظ - ههنا - توسع في الاستعمال المجازى في عبارات غدت شائعة الاستعمال ، نحو «عرش الشهرة» و«عرش العلم» و«عرش البطولة» . ونقف عند تركيب «عرش الحسن» فالعرش في هذا السياق مرتبط

(١٦٠) شعره ، ص ٦٩

(١٦١) شعره ، ص ٤٥

(١٦٢) الهوى والشباب ، ص ١٧٦ - ١٧٧

(١٦٣) شعره ، ص ١٥١

(١٦٤) لسان العرب ، ٢/ ٢١٩ ، ١١/ ٥٩٥ - ٥٩٦

والأتراح ، وقد ذهب المعجم الوسيط إلى النص على
حدائث هذه الدلالة .^(١٦٦)

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «إكليل» في عدد
من التراكيب المجازية المتطورة من دلالة الإكليل
الحسية . ففي الحديث عن «الزهاوي» ترد عبارة
«إكليل الأديب»^(١٦٧) ، وفي الحديث عن «شاعر النيل»
ترد عبارة «أكاليل من زنود وأجباد»^(١٦٨) . . وفي الحديث
«مصرع النسر» ، ترد عبارة «الأكاليل من ذؤابة
هاشم»^(١٦٩) ، وفي حديث الشاعر عن شعره يرد قوله :
«صفت الأكاليل من نور ومن أرج للعيد . .»^(١٧٠) .

وتشير المواضع المذكورة إلى تطور دلالة «الإكليل»
المجازية إلى رمز للرفعة والمكانة السامية ، وترد في
الموضع الأخير إشارة إلى أكاليل الفرح في الأعياد .
فقصائد الشاعر أكاليل توج بها الأعياد ، وبجال الطرب
والشعر .

وهناك دلالة مجازية مستمدة من دلالة «الإكليل» في
طقوس الزواج المسيحي ، والإكليل - ههنا - غذا رمزا
لللقاء الحبيبين في يوم الزواج . وترد كلمة «الإكليل»
للدلالة على الزواج عن طريق المجاز المرسل في
قوله :^(١٧١)

وأنه سوف يسمى سعي مجتهد
حتى يوطئ للإكليل سراها

وفي شعر عمر أبي ريشة دلالة مماثلة ، يقول :^(١٧٢)
ودعنا إلى لقاسها فينا الـ
حب والشلج حامل إكليله

وهناك كلمة أخرى دارت على ألسنة أكثر الشعراء
المعاصرين ، وهي «الملاك» ويلاحظ أن هذه الكلمة
غدت رمزا للجمال والطهر والبراءة . وقد فارقت هذه
الدلالة أصلها الحسي الذي يدل على الرسول الذي
يحمل رسالة ، والمملك المرسل إلى الأنبياء ، وغدت من
المجاز الحديث .

ودلالة «الملاك» محدثة ، وتدل على ملك نوراني
يتشكل بأشكال مختلفة .^(١٧٣) وقد استعملت هذه
الكلمة في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية . وهي
واردة في عهده القديم للدلالة على «رسول الرب» أي
«ملاك» .^(١٧٤)

وفي موضعين من مواضع كثيرة يظهر التطور
المجازي . ففي قصيدة بعنوان «عشت فالعب بشعرها»
يقول :^(١٧٥)

من ملاك فسي برديها مقيم
جسد طاهر وروح كريم
وعيا فيه ترى الحسن حيا

(١٦٦) المعجم الوسيط ٢ : ٧٩٦

(١٦٧) شعره . ص ١٦٦

(١٦٨) شعره . ص ٢١٣

(١٦٩) شعره . ص ٢٣٨

(١٧٠) شعره . ص ٣١٨

(١٧١) أقوى والشيا . ص ١٢١

(١٧٢) ديوان أبي ريشة ١ : ٢٤٣

(١٧٣) المعجم الوسيط ٢ : ٨٨٦

(١٧٤) معر التكوين . الإصحاح ١٦ . الآية ٧ - ١١

(١٧٥) شعره . ص ١٥٣

وفي الشعر الحديث ترد كلمة «هيكل» بدلالاتها المجازية في مواضع كثيرة ، ففي ديوان الشوقيات «هيكل الحرية»^(١٧٨) و«هيكل الاسجاج»^(١٧٩) ، وفي ديوان أبي ريشة «هو ذا هيكل»^(١٨٠) و«ليس في هيكل مجال لشمشوم»^(١٨١) ، وفي الشعر المعاصر للظاهر مكي يرد قول فدوى طوقان «أنا هنا وحدي بهيكل ذكرياتي»^(١٨٢) ، ومن قصائد الشابي المشهورة قصيدة بعنوان «صلوات في هيكل الحب»^(١٨٣)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «هيكل» للدلالة على موضع الذكرى ، والقداسة . ففي وقوفه أمام الصحراء العربية يرد قوله عن نفسه : «إحدى الشموع أمام هيكلك الرهيب»^(١٨٤) وفي تحية موجهة إلى نضال فلسطين يرد قوله : «فلسطين يا هيكل الذكريات»^(١٨٥) ، وفي سياق الحديث عن اكتشاف الكهرباء ، يقول على لسانها : «لتحجبت .. ولما دنس هيكل»^(١٨٦)

وتشير المواضع الثلاثة إلى استعارة دلالة «هيكل» : بيت العبادة ، وتوظيفها في سياقات مجازية .

ويسوغ اتجاه الدرس وقوفنا عند جانب آخر من الدلالة ، «فالهيكل» : الضخم من كل شيء ، والفرس ، والبناء المشرف . وتشير الأصول إلى دلالة

وفي قصيدة بعنوان «أترى يذكرونه» ، يقول :^(١٧٧)

قلت أهواك ياملاكي فردت
مقلته . لكن تلغشم فيه

ويبدو استعمال كلمة «ملاك» في كلا الموضعين دالا على جمال المحبوب ، وبرأته وطهره . وهي صفات ملحوظة في دلالة «الملك النوراني» . ويمكن أن تعد كلمة «ملاك» رمزا من الرموز الدينية في الشعر الحديث .

وفي مواضع أخرى ، ترد كلمتا «ملاك» و«ملك» للدلالة على المحبوب أو الملك النوراني في سياقات مجازية .^(١٧٨)

والهيكل هو بناء البيعة برمته أو صحنها ، وموضع في صدر الكنيسة يقرب فيه القربان . وقد نص الوسيط في طبعته الأولى على حداثة هذه الدلالة .^(١٧٩)

ويبدو للدارس تطور دلالة «هيكل» في الشعر الحديث عن طريق المجاز إلى معنى مستحدث يدل على بيت الشاعر ، وملأه ، ومكان ذكرياته ، وأشواقه . ومن الواضح أن هذه الدلالة المجازية متطورة من دلالة «الهيكل» على بيت العبادة وما يحدث فيه من مناجاة وروح ودعاء .

(١٧٥) شعره ، ص ٢٦٤

(١٧٦) شعره ، ص ٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٣ ، ٣٢٢ ، وملاكة ، ص ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٨٧ ، وملك

(١٧٧) للمعجم الوسيط ، ١٠٠١/٢ ، ط . أول ، تصوير ، د . ت

(١٧٨) الشوقيات ، ١٥٢/٢

(١٧٩) المصدر السابق ، ١٥٣/٢

(١٨٠) ديوان أبي ريشة ، ١٨٩/١

(١٨١) المصدر السابق ، ٢٤٩/١

(١٨٢) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . أول ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢٥

(١٨٣) الشابي ، أبو القاسم ، أغاني الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط . ١٩٥٥ م ، ص ١٢١

(١٨٤) شعره ، ص ١٦٥

(١٨٥) شعره ، ص ٢٩٩

(١٨٦) شعره ، ص ٣٥٣

«هيكل» على أنماط ضخمة من الشجر ، ثم انتقلت إلى الخيل تشبيهاً ، وفي مرحلة تالية تحولت إلى شكل جديد طارىء على أهل الجزيرة العربية هو «بيت النصارى» ، وفي دلالة «الهيكل» تتضح قدرة العربية على التكيف مع المستحدثات .^(١٨٧)

والتطور الحديث في هذا الجانب مستمد من دلالة «البناء» ، ففي الفصحى المعاصرة غدت كلمة «هيكل» تدل على بناء أساسي في المصطلحات الأدبية والفنية والصناعية .

ففي المجال الأدبي النقدي ، يقال مثلاً «هيكل القصيدة» و«هيكل القصة» . ويلاحظ أيضاً ظهور المصدر الصناعي الجديد «الميكلي» ، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي structuralisme ، وقد ترجم إلى «بنوية» ، و«بنائية» ، و«بنائية» أيضاً^(١٨٨) .

د- وفي مواد أخرى يلاحظ الدارس أثر المجاز في شيوع الدلالة ، ويعد المجاز في هذا الجانب سبباً من أسباب التطور باتجاه التعميم .

فالعرس : الزفاف ، والتزويج ، ووليمتها ، غير أنّ هذه الدلالة توسعت عن طريق المجاز في تراكيب شائعة في الفصحى المعاصرة ، نحو : عرس المجد ، وعرس البطولة ، وعرس الأحرار . .

ويلاحظ الدارس إطلاق كلمة «عرس» على الأفراح والمناسبات التي استجذت في حياتنا ، نحو إطلاق

كلمة «عرس» على فرحة الاستقلال ، والنصر ، أو الشهادة ، وترتبط الشهادة بدلالة العرس من جانب اجتماعي ووطني ، فقد غدا سماع نبأ الاستشهاد مدعاة لإطلاق الزغاريد ، ومن هنا جاء وصف الشهادة بأنها عرس .

ويمكن أن ننتهي إلى أنّ كلمة «عرس» غدت تطلق على كل فرح مهما كان نوعه ويشكل الاستعمال المجازي في الشعر أساساً لهذا التطور .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «عرس» في مواضع كثيرة ، وسوف نقف عند أهم التراكيب المجازية ، ونحيل إلى الباقي . ففي قصيدة بعنوان «ليالي الجهاد» ، ترد عبارة «عرس البطولة» في السياق التالي^(١٨٩) :

أو كقيشارة علاها غبار الـ
مجد غنت عرس البطولة قبلاً

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» ، ترد عبارة «عرس الأحرار» ، في قوله^(١٩٠) :

عرس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤسا حراً ، وأنغاماً حزاني

وفي مواضع أخرى ، ترد كلمة «عرس» للدلالة على الفرح عامة . نحو «نحن عرسان للغناء والشعر»^(١٩١)

(١٨٧) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(١٨٨) المسدي ، د . عبدالسلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ص ٢٠٤ ، وهورتيك ، الفن والأدب ، ص ٢٧٣ ومنذور ، س . د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١٢٤ ، والموقف الأدبي ، عدد ١٣٥ - ١٣٦ ، تموز - آب ١٩٨٢ م ، ص ٢٠٠ والفكر العربي المعاصر ، عدد ١٨ / ١٩ ، شباط - آذار ١٩٨٢ م ، ص ٩٧ .

(١٨٩) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٣ .

(١٩٠) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(١٩١) المصدر السابق ، ص ٣١ .

والناس في عرس ، فيست الزغاريد في الخلق ودالت
دولة ووئد استقلال...»^(١٩٢)

والأحلام هي عبارة عما يراه النائم في نومه من
الأشياء ، ولكن غلبت «الرؤيا» على ما يراه من الخير
والشيء الحسن ، وغلب «الحلم» على ما يراه من الشر
والقيح ، ومنه قوله تعالى : «أضغاث أحلام»^(١٩٣) ،
ويستعمل كل واحد منها موضع الآخر.^(١٩٤)

وفي أساس البلاغة «من المجاز : أحلام نائم
للأمان الكاذبة»^(٢٠٥). ويبدو أثر الاستعمال المجازي في
تطور دلالة «الأحلام» إلى كل ما يدل على الرغبة ،
والأمل ، والأمنية والطموح ، إضافة إلى الدلالة على
مفهوم «الأحلام» في التحليل النفسي الحديث ، وما
استحدث له من مصطلحات ، نحو «أحلام اليقظة» ،
وهو ضرب من التخيل يرتخي الفرد فيه العنان لنفسه
فيهم بين صور خيالية للذيلة مشبعاً برغبات لم تشبع في
الحياة الواقعية.^(٢٠٦)

ويبدو أن هناك علاقة ما بين ما يراه النائم في نومه ،
وما يتمناه في صحوه وحياته ، وقد شغل تحليل الأحلام
نفساً كثيراً من مدارس التحليل النفسي الحديثة .

و«حُنت لعرسك عرس الشعر...»^(١٩٧) ، و«عرس
ماجت البشائر فيه»^(١٩٨) في وصف استقبال روح حافظ
إبراهيم في جنة الخلد . و«عرس أهازيجه حر...» في
وصف ذكرى الاستقلال^(١٩٩) ، و«عاد العرس
مأساة» ، في وصف نكبة لبنان بحكامه بعد فرحة
الاستقلال.^(٢٠٠) ، و«إسلام فارس أعراس»^(٢٠١) في
وصف فرحة الفرس بالدين الجديد . وترد أيضاً في
مواضع أخرى في سياق صور فنية تقوم غالباً على
المشابهة.^(٢٠٢)

وتماثل ماوقفنا عنده مواضع متعددة في الشعر
الحديث ، ففي شعر أبي ريشة «عرس المجد»
و«عروس المجد»^(٢٠٣) ، وفي شعر بدوى الجبل «حملت
زغردة العرس لكم» في وصف فرحة الاستقلال^(٢٠٤) ،
وفي مختارات الشعر العربي المعاصر ، يرد قول سليمان
العيسى «العرس عرس المجد لم تر أمتي أشهى وأحلى»
وقوله : «أنا من عرينك في الشبال تمرّ بي الأعراس
عجلى» ، وقوله : «عرس العروبة...»^(٢٠٥)

وفي آخرين نثرين : «وإذا هو رأى الأعراس
والأفراح أيام فيصل...»^(٢٠٦) ، «ولكن النكسة حلت

(١٩٢) المصدر السابق ، ص ٧٥

(١٩٣) المصدر السابق ، ص ٢١٢

(١٩٤) المصدر السابق ، ص ٢٣١

(١٩٥) المصدر السابق ، ص ٣٣٨

(١٩٦) المصدر السابق ، ص ٧٤

(١٩٧) المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ١٠٧ ، ١٢١ ، ٣١٢ ، ٣٢١

(١٩٨) ديوان عمر أبي ريشة ، ٤٣٧/١

(١٩٩) ديوان بدوى الجبل ، ص ٩٥

(٢٠٠) (٥) ، (٦) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٣٦ - ٢٣٩

(٢٠١) الطاهر ، أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص (٥)

(٢٠٢) الدقاق ، د . عمر ، فنون الأدب المعاصر ، ص ١٤

(٢٠٣) (٩) يوسف ، آية / ٤٤ /

(٢٠٤) لسان العرب ، ١٢ / ١٤٥

(٢٠٥) أساس البلاغة ، ص ٩٤

(٢٠٦) المصطلحات العلمية والفنية ، ١ / ١٧٢

وفي مواضع مماثلة ترد كلمة «الأحلام» في شعر أبي ريشة «مابلغنا بعد من أحلامنا ذلك الحلم الكريم . . .»^(٢١٣)، و«يشرح لي أحلامه»^(٢١٤)، و«سرت وملء الدرب أحلامي»^(٢١٥)، ومواضع أخرى^(٢١٦).

وفي مختارات «الشعر العربي المعاصر» ، يرد قول سليمان العيسى «ويجسد الحلم الكبير على شفاه الحاضر . . .» و«أهلا فتي العرب وحلمهم . . .»^(٢١٧) . وفي مقدمة «ظلال الأيام» : «أيام سعدنا بأحلام الشباب» و«وقف شعره على تقديس الألم العبقري فبكى الأحلام الضائعة . . .»^(٢١٨)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد تراكيب مجازية كثيرة ، ويبدو أن المجاز - ههنا - تحول إلى حقيقة ، ويؤيد ذلك شيوع الاستعمال في الفصحى المعاصرة .

ونكتفي بالإشارة إلى أهم التراكيب المجازية ، ونحيل بعدئذ إلى الباقي ، ففي مواضع متعددة ترد كلمة «حلم» للدلالة على الأمنية ، نحو «حلم عربي»^(٢١٩) ، وللدلالة على الرغائب «حلم اللهو والشراب . . .»^(٢٢٠) ، وللدلالة على الآمال «أنشدت أحلامي على فارغ من خشب القلب»^(٢٢١) و«ياقصود المنى على شفق الأحلام . . . أطلعت شمس فيصل للعرب مصابيح»^(٢٢٢) و«أعيادك البيض أحلام مجتحة . . .»^(٢٢٣) . ومواضع أخرى كثيرة .^(٢٢٤)



(٢٠٧) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٤٩

(٢٠٨) المصدر السابق ، ص ٣٠٩

(٢٠٩) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٢١٠) المصدر السابق ، ص ٢٤٠

(٢١١) المصدر السابق ، ص ٣١٨

(٢١٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٢٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤ .

(٢١٣) ديوان أبي ريشة ، ٤٤٤/١ - ٤٤٥ .

(٢١٤) المصدر السابق ، ٣٩٥/١

(٢١٥) المصدر السابق ، ٣٥٦/١

(٢١٦) المصدر السابق ، ٩٣/١ ، ٨٤ ، ١١٩ ، ١٩٥ ، ٢٦٥

(٢١٧) مكي - الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧

(٢١٨) المطار - أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص (م . ي)

المصادر والمراجع

- إبراهيم ، طه أحمد تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت .
- ابن الأثير ، حبيب الدين المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحمد ، الثاني الحلبي مصر ، ١٩٣٩ م
- ابن كثير السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الثاني الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، قصدير ، د . ت .
- أبريشة ، عمر ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٨١ م
- الأشتر ، د . محمد صبرى الشعر في سورية بين الحريين ، أملية مستنسخة في كلية الآداب بجامعة حلب ، ١٩٧١ م - ١٩٧٢ م
- الأصفهاني ، الراغب المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ت .
- بدوى الخليل (محمد سليمان الأحمد) ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٨ م
- التمالي فقه اللغة وسر العربية ، دار للكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .
- جيران ، جيران خليلي البدائع والطرائف ، مكتبة كرم ، دمشق ، د . ت .
- الجرحاني ، عبد القاهر دلائل الإعجاز ، تحقيق د . محمد وصوان الداية ، دار قتيبة ، دمشق ، ط . أولى ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م
- الحورى ، بشارة (الأخطى الصغير) الهوى والشباب ، دار المعارف ، ١٩٥٣ م
- شعر الأخطى الصغير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . ثالثة ، د . ت .
- خياطة يوسف ، ومرعشلي ، تديم المصطلحات العلمية والفنية ، دار لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٠ م
- داغر ، يوسف أسعد معجم المسرحيات العربية والمعربة ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م
- الدائية ، د . فايز الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجرى ، دار الملاح ، دمشق ، ط . أولى ، ١٩٧٨ م
- الذقاق ، د . عمر . فنون الأدب المعاصر في سورية ، دار الشرق ، حلب ، ط . أولى ، ١٩٧١ م
- نقد الشعر القومي ، اتحاد الكتائب العرب ، دمشق ، ١٩٧٨ م
- رئس ، ك . ك المجاز الذهني ، ترجمة د . عبد الواحد لؤلؤة ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ م
- الزيمشترى (محمود بن عمر) أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
- السامرائي ، د . إبراهيم . فقه اللغة المقارن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٧٨ م
- السيوطي المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد السجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، الثاني الحلبي ، القاهرة ، د . ت .
- الشامي ، أبو القاسم أغاني الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٥٥ م
- شاهين ، د . عبد الصبور في علم اللغة العام ، مديرية الكتب والطبعات بجامعة حلب ، ١٩٨١ - ١٩٨٢ م
- الشهابي ، مصطفى المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م
- شوقي ، أحمد الشوقيات ، مطبعة ألا تنقاة ، القاهرة ، ١٩٥٣ م
- عبد ، مارون . على الملح ، دار الثقافة ، ودار مارون عبود ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٧٠ م
- عبد النور ، د . جيبور المعجم الأدبي ، دار العلم للعلايين ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٩ م
- عبد النور ، د . جيبور ، المثل الوسطي (فرسي) ، دار العلم للملايين ودار الآداب ،
- وادي ، د . سهيل بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٢ م
- الخطار ، أنور . ظلال الأيام ، مطبعة الرهاني ، دمشق ، ١٩٤٨ م
- الحقاد ، عباس محمود أشعات مجتمعات في اللغة والأدب ، دار المعارف بمصر . ط . ثانية ، د . ت .
- قميحة ، د . مفيد محمد الأخطى الصغير ، حياته وشعره ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط . أولى ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
- الكائد حلوى ، حياة الصحابة ، تحقيق محمد علي دولة ، دار الفلم ، دمشق
- الكفوى ، أبو البقاء الكلبيات ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط . ثانية ، ١٩٨١ م ، ١٩٨٢ م
- المارك ، محمد . فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ط . سابعة ، ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة المعجم الوسيط ، دار الفكر ، ط . ثانية ، د . ت .
- المسدي ، د . عبد السلام الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط . ثانية ، ١٩٨٢ م
- مكي ، د . الطاهر أحمد الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٨٠ م
- مندور ، د . محمد الأدب وبذاهبه ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت .
- المندري الترغيب والترهيب ، تحقيق مصطفى عياد ، الثاني الحلبي بمصر ، ط . ثانية ١٩٥٤ م
- هو ، غرامام مقالة في النقد ، ترجمة محيي الدين صبيحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م
- هورنيك ، لويس الفن والأدب ، ترجمة د . بدر الدين قاسم الرفاعي ، مراجعة د . عمر شخاشيرو ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٥ م
- هيفل ، الفن الرمزي ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩ م
- وعدة ، محدي والمهندس ، كامل معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ م
- ويليك ، رينيه ، ووارين ، أوستن نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبيحي ، مراجعة د . حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٨٦ م

الدوريات

- مجلة الآداب ، بيروت ، العدد /٦/ ، حزيران (يونيو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦٦ م
 مجلة الآداب ، بيروت ، العدد /٧/ ، تموز (يوليه) ، السنة التاسعة ، ١٩٦٦ م
 مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، العدد (١٨ - ١٩) ، شباط - آذار ، ١٩٨٢ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٢٠/ ، نيسان ، ١٩٨١ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٢٢/ ، حزيران ، ١٩٨١ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٣٥ - ١٣٦/ تموز - آب ، ١٩٨٢ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٣٨ - ١٣٩/ ت ١ ، ت ٢ ، ١٩٨٢ م

المراجع باللغة الفرنسية

- Dubois (J.), Giacomo (M.), Guespin (L.) Marcellesi (J.B.),
 Mevel (J P.).
 Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973.
 Guiraud (P.)
 La semantique, Que sais-je? presses universitaires de France 8e edition, Paris 1975.



عندما خصصنا المبحث الرابع للنزعة الزنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، ضمن سياقها التاريخي والثقافي ، عللنا هذا المسلك بأهمية دمج المستوى الدلالي للمتن ورؤية الشاعر للعالم في بنية شعرية أشمل ، تربطها بالمتن علاقة مرجعية دالة ، وذلك بمقتضى إجرائية المنهج الذي اخترناه وحاولنا الإفادة من طرائقه . فحتى تستوفي بنية المتن تماسكها دلاليا ورؤيويًا كان من اللازم أن نلحقها ، وفق ما فعلنا ، بالحقول الشعري الذي أنتجها وحدد لها ملامحها التكوينية ، وعلى ضوء هذا أليس من الوارد والختمي القيام بنفس المسلك إزاء الحقول الشعري السوداني الموسوم بنزعة الزنوجية ؟ نقصد أليس في الإمكان دمج هذا الحقول الشعري ، المرجعي مبدئيًا ، في بنية شعرية تشمله هو الآخر ، وتتيح لنا فهمه بشكل أوسع مما رأينا ؟ وبالتالي ألا يجوز أن ينتقل المرجع من وظيفته التفسيرية للمتن إلى وظيفة أخرى تجعل منه بنية قابلة لأن تُفسَّر هي في حد ذاتها ، اعتمادًا على بنية أكبر ، أو على مرجع المرجع ؟ كل ما تساءلنا حوله ممكن وجائز ، بل وضروري أيضا ، نظرا إلى (أن دراسة هذه البنية الأوسع تستلزم بدورها القيام بدورها في بنية أخرى تتعالتق معها ، وتحتويها)^(١) .

هذا إذن ما سنلجأ إليه في المبحث الراهن ، بحيث ستنبص مقاربتنا على بنية شعرية ، تحوز ، بالقوة وبالفعل ، أواصر مرجعية مع ما حددناه كنزعة زنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، وهذه البنية الشعرية المقصودة هي الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، مؤطرا بإطاره التاريخي والثقافي .

وتجنبنا لأي تماء مفرط ، قد يجرنا إليه هذا المسلك ، نبادر إلى القول إن ما سنقوم به لا يتعلق ببحت ما في

السياق التاريخي والثقافي للشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي

بغيسى بوصالة

من صاغ مصطلح الزنوجة هو شاعر الهند الغربية إيمي سيزير عام ١٩٣٩ ، وتبيناه على الفور ليوبولد سيدار سنغور^(٢) ، وقد وردت الكلمة لأول مرة ضمن ديوان سيزير المشهور (مذكرة عودة إلى بلدي) الذي نشر في العام نفسه .

هذا ما يتعلق بمفهوم الزنوجة وبسولاتها ، ورثنا تفصيل الحديث في جل ما يرتبط بالزنوجة ، من حيث تدرجها المفهومي ، ومن حيث ردود الفعل التي خلقتها ، نرى لزما أن نعود إلى فترة ما قبل ولادة الكلمة ، إلى الممهدات التي سبقتها ، وبالتالي إلى الأفكار والطروحات التي راجت في العالم الأسود قبل أن ترسم الزنوجة كحركة فكرية على يد الثلاثي المعروف ليوبولد سيدار سنغور ، وإيمي سيزير ، وليون داماس . فهل يعقل مثلا أن تكون الزنوجة قد نهضت ، كمشروع حضاري في انقطاع عن إرهاصات مبكرة ؟؟ طبعاً لا ، وحتى مع عدم حيازة تلك الإرهاصات لنفس المدلول الذي التصق بالزنوجة ، فهي ترشح بتحليل مقارب للتحليل الذي أعطته الزنوجة لمختلف إشكاليات العالم الأسود . إن تلك الإرهاصات تبقى ذات وزن كبير أثناء أي تناول للزنوجة ، لأنها تدلنا على الانشغالات التي استبدت بالفكر الزنوجي ، في ظل التجسرية التاريخية المريعة التي مر بها السود وهم يواجهون مشروع تدمير هويتهم . إننا نقصد بهذه الانشغالات مواقف وجهات نظر لا تخلو من تماسك ، مظانها كتابات ثلة من المثقفين السود ، ممن سبقوا جيل سنغور وسيزير وداماس .

وربما أمكن إرجاع يقظة الوعي الزنوجي إلى القرن الثامن عشر ، إلى أحد الفلاسفة الأفارقة ، إنه آموغينا

احتمالات التأثير التي من الجائز أن تكون للشعراء الزنوج الأفارقة - الأمريكيين على الشعراء السودانيين ، أو استكشاف قرائن ما لانعكاس شعر أولئك على شعر هؤلاء ، فنحن لا يهمنا لا هذا ولا ذاك ، وإنما الذي يعيننا في الأساس هو محاولة التقاط ما يمكن أن نعتبره نقاطا للتشابه والتشارك بين الشعراء ، أو ما يمكن عده ، باللغة الغولدمانية ، عناصر تماثل بنيوي ، لا تنحصر في تناظرية المكون الدلالي - الرؤيوي في كليهما ، بل ونس سياقها التاريخي والثقافي . لكن قبل أن نشرع في تحليل مختلف جوانب الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، أليس من المجددي أولاً تناول الكلمة - المفتاح ، الزنوجة ، وتفكيك مدلولها ، وما رافق هذا المدلول من حيثيات ، وصولاً إلى تبيان مضاعفاتها المتعددة ، جمالياً ودلالياً ورؤيواً ، على كامل فعاليات الثقافية لدى زنوج إفريقيا وأمريكا والانتيل .

يقول ليوبولد سيدار سنغور في استجواب سئل خلاله عن مفهوم الزنوجة : (للكلمة معنى مركب : موضوعي وذاتي ، موضوعياً تعني الزنوجة ، مثلما حددت ذلك ، « مجموع القيم الحضارية للعالم الأسود » ، أما ذاتياً فإنها تعني الطريقة التي يتخذها أي زنوجي أو أية مجموعة سوداء في ممارسة القيم الآيلة إلى حضارتها^(٣) . هذا هو التعريف الذي سطره سنغور للزنوجة ، وسواء أخذنا من هذا التعريف المعنى الموضوعي ، أو أخذنا المعنى الذاتي ، ففي المحصلة نكون حيال رؤية وجودية خاصة تشترط ممارسة الفرد الأسود ، كما تشمل سائر العالم الذي يحيا به السود . لكن هناك شيء يجب أن نثبتته وهو أن كلمة الزنوجة ، كصيغة لغوية ، لم تكن من وضع سنغور ، إذ أن (أول

(٢) (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre. in (Magazine littéraire) no. 195-Mai 1983-P. 31.

(٢)

(٣) ب. س. لويد : (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٩٦ .

تضحى في الحديث عن هذه الخصوصية ، هي فترة الميلاد الرسمي للزوجة . فالجوهري في استحضارنا لأمور هو هذا المقال بالذات ، فهو وثيقة تضيف إلى قيمتها التاريخية ، التي لا جدال فيها ، قيمة أولية تتضح في تعبير أمور عن وعي بالدونية وبالاختلاف ، وأيضاً عن وعي بأهمية تجاوز هذه الدونية القسرية ، ثم التنظير لاختلاف الهوية الزنوجية عن الهوية البيضاء ، مع العلم أن الإحساس بالدونية والاختلاف هو الذي حرك كل الأوعية الزنوجية التي سبقت ميلاد الزنوجية أو تولدت من صلبها . لقد كان أمور رجل لاهوت ومنطق وميتافيزيقا ، بيد أن ما تكتسبه الوثيقة الأتفة من وزن يفوق وزن كل ما خلفه من تراث نظري ، ولعل الفضل في اكتشاف تلك الوثيقة يعود إلى الزعيم الإفريقي قوامي نكروما . هذا من جانب ومن جانب آخر فإن اختيار أمور - بعد استعادته لحريته - العودة إلى مسقط رأسه له دلالة القصوى في رأينا ، إذ فضل الرجوع إلى إفريقيا بالرغم من الإغراءات الكثيرة التي أتاحها له إقامته في أوروبا . إن العودة من لندن فيلسوف ، لن يجد حتماً في قارته مناخاً علمياً مواتياً ، تأخذ بعداً عميقاً ، فهي اختيار وجودي دال ، ووعي بضرورة الانشداد إلى فضاء وثقافة ذاتيين ، داخلهما يجب أن يتأمل ويبدع بدل المكوث في فضاء وثقافة غربيين .

وإذا ما انتقلنا إلى القرن التاسع عشر فسوف نواجه علماً آخر كان لأرائه ، ولا شك ، أثر ملموس في مفهوم « الشخصية الإفريقية » ذي الصلة الوثيقة بمفهوم الزنوجة ، إنه إدوارد ويلست بلايدن ، المفكر الزنوجي الذائع الصيت ، خصوصاً في أوساط المثقفين السود الناطقين بالإنجليزية وكما كان للثقافة الغربية فعلها في عمل وعي الفيلسوف أمور ، يقدم بلايدن مثالا إضافيا

أقبر أو أمو فينيا الإفريقي ، أحد المسكوت عنهم في تاريخ الفلسفة الإنسانية . فلقد كان لإحساس هذا الفيلسوف بمآزقه العبودي - بحيث أخذ من إفريقيا إلى أوروبا كعبد في بداية الأمر - تأثير كبير في تفتح وعيه على هويته المغايرة ، وفي إدراكه لحبوبة التسليح بالمعرفة الغربية ، الفلسفية خاصة ، لكي يتمكن من التنظير لمآزقه العبودي ولغايرة هويته ، باعتبارهما مأزقا ومغايرة ييمان ملايين من إخوانه السود . وهكذا كان حرصه على التكوين الفكري لشخصيته ، وعلى النهل من نفس الثقافة الغربية التي تسوغ استعباده واستعباد أبناء جنسه ، فكان نبوغه الفلسفي في ألمانيا مشاراً انتباه الأوساط الفلسفية وقتئذ ، بل ولقد أوصلته ألفتته الفكرية ، وهو الأسود المستعبد ، إلى التربع على كرسي التدريس الجامعي في جامعات « هال » و « يتيبرغ » و « إينا » خلال العقد الرابع من القرن الثامن عشر . ومن هنا كان ضرورياً أن تفضي هذه التجربة المتفردة ، أي قدرة أسود على امتلاك الثقافة الغربية ، إلى نشوء وعي لدى أمو بجدارته الإنسانية ، وبإحقاق السود في وضع حقوقهم يعيد إليهم الاعتبار ، فكتب مقالا باللاتينية تحت عنوان « حقوق الأفارقة بأوروبا » ، وبما لا ريب فيه أن (هذا المقال ذو أهمية ، ذلك أنه يؤكد على أي حد كان أمور على وعي بوضعته كإفريقي ، وإلى أي حد كان أيضاً منشغلاً بمشكلة الاسترقاق وبالشرط الاجتماعي للسود في أوروبا)^(٤) .

فالمقال بمعالجته الريادية لمشكلة الاسترقاق ، ولاصطدام السود المنقلين إلى أوروبا بمناخ اجتماعي مغاير ، يبقى في نظرنا محطة أساسية في سيرورة الفكر الزنوجي ، ومعلمة مضيئة تكشف عن إدراك للخصوصية السوداء - قبل فترة الثلاثينات التي شهدت

لما أسهمت به هذه الثقافة ، بشكل غير مباشر ، في تحسس مثقف أسود لإشكالية علاقته بتاريخه الخاص ، وبالثقافة البيضاء التي لا تتوان عن تحطيم تاريخه ذلك ، ومن لب هذه الثقافة المعادية صنع بلايدن منظوره النقدي لأوضاع العالم الأسود ، ويبحث في احتمالات تجاوز السود لما يطبع أوضاعهم من انفصام واختلال على أكثر من وجه .

لكن إذا كان أمر قد نهل من معين الثقافة اللاتينية السائدة آنئذ في أوروبا ، فإن بلايدن قد متع من مصادر ثقافية أنجلو ساكسونية ، بفضل استقراره لفترة في الولايات المتحدة ، وعلى شاكلة أمر فقد تقلد هو الآخر منصب الأستاذية بجامعة « ليبيريا » ج كما أفادته زيارته لأوروبا في الاطلاع على ثقافتها .

إن بلايدن ينتمي إلى تلك الفئة من المثقفين الزنوج التي رجعت ، ضمن من رجعوا ، إلى إفريقيا بعد صدور قانون العودة الأمريكي الذي خول للعبيد المحررين تأسيس كيان وطني في ليبيريا وسيراليون ، فتولد لدى هذا المفكر شعور بعمق الفوارق بينه وبين أبناء جلدته على المستويين الثقافي والاجتماعي . فهو القادم من أمريكا ، والمتفتح على الفكر الغربي ، والقادر على استيعابه ، في حين يبرز إخوانه السود تحت نير الجهل ، مع عجزهم عن تحليل إشكالية علاقتهم بالعالم الأبيض المسؤول عن أوضاعهم . وهو المثقف الزنوج المشحون بالقيم والتقاليد الغربية ، بينما يعيش هؤلاء الذين ظلوا في إفريقيا في بؤس فظيع ، وهذا ما دفعه إلى أن يصب جماع تفكيره على تأسيس خطاب يكفل تفسير هذه المفارقة العميقة ، ويقدر على تحليل عناصرها ،

بحثا عن تأصيل مغايرة سوداء عن الثقافة البيضاء ، هذه الثقافة التي كان بلايدن على وعي بمضاعفاتها على شخصيته الوجودية والفكرية . وبهذا يعد (أول مثقف أسود فكر تفكيراً زنوجياً خالصاً وجعل من إفريقيا وحدة أصيلة متميزة عن سواها)^(٥) ، فإليه يرجع (مفهوم « الشخصية الإفريقية » وهو ما كانوا يردونه إلى نكروما ، فقد كان من مفاهيمه التي تردد فيها يضطرب ويقول)^(٦) ، وعلى ذكر نكروما لابد أن نشير إلى التأثير الذي كان لأفكار بلايدن على أطروحاته ، بل إن ذلك التأثير لم يقتصر على نكروما وإنما تعداه إلى أغلب مثقفي إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، وكذا قطاع واسع من مثقفي إفريقيا الناطقة بالفرنسية . وعلى أي فقد (يطول شرح النظرية التي انتهى إليها بلايدن ، فهي تذكر من عدة وجوه بالنظرية التي استنبطها ليوبولد سيدار سنغور ودعاها الزنجية)^(٧) .

وفي نفس القرن يمكن أن نذكر دائماً إسماً آخر اقترن بسدوره بنفس المنظور الفكري للمسألة الزنوجية ، ويتعلق الأمر هذه المرة بالمفكر الزنوجي الأمريكي ويليام دي بوا الذي شرع ابتداء من عام ١٨٩٠ في الدفاع عن أصولية الشخصية السوداء في المجتمع الأمريكي . لقد عرف ديويوا كرجل فلسفة ، درس في جامعتي « هارفارد » و « برلين » ، واختتم مساره التعليمي بالحصول على شهادة الدكتوراة في الفلسفة ، لكن بموازاة اهتماماته الفلسفية كانت له اهتمامات أخرى بقضايا العالم الأسود والشخصية السوداء . وعلى الرغم مما طبع أفكار ديويوا من تجزئية ، مردها إلى اقتناعه بالفوارق الواردة بين السود الأفارقة وسود الشتات على مستوى الأولويات

(٥) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنوجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٤٩

(٦) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٦٧ .

(٧) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنوجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٥٠ .

القيح في الوقت نفسه . إن الطلبة تنوح وتضحك ، إذا كان يحلو لهم سماعها فذلك يسبب لنا فرحا عظيما . أما إذا كانوا لا يحبون سماعها فلا يهتأ ذلك أبدا . نحن نبنى معابدنا كما يحلو لنا ، ونقف بأنفة وإباء وقد تحررنا من الذلل والعبودية»^(٩) .

ولا ريب أن البيان يكشف ، بكثير من الوضوح ، عن البرنامج النظري لتيار « اليقظة الزنوجية » ، وهو برنامج يخدم مشروع التعبير عن الشخصية الزنوجية داخل محيط إثني وثقافي أبيض ، كما يبين عن جرأة فكرية في الإفصاح عن وعي أسود أمريكي ، متحرر من ثقل المركبات التاريخية التي راكمتها عقود من المحاصرة والاضطهاد .

وإجمالا فقد شكل مشروع « اليقظة الزنوجية » بوتقة انصهرت فيها روافد فكرية عديدة ، بحيث يحضر التراث الزنجي والمسيحية ، مثلما تحضر الشيوعية السوفياتية وفلسفة اللاعنف الغاندية . ولا شك أن طبيعة هذه الروافد تبين نوعية الاختيارات الفكرية والإيديولوجية لتلك الجماعة من المثقفين الزنوج الأمريكيين ، فبقدر ما أولوا للتراث الزنجي أهمية كبيرة جذبته إلى المسيحية قيمها الإنسانية كالعبدالة والإخاء . . . وكما انتقوا من الشيوعية معاداتها للاستغلال الرأسمالي آثارهم في الغاندية تجسدها لقدرة التقاليد الروحية الشرقية على مغالبة الجبروت والاضطهاد الأبيض . وهكذا عملوا على استثمار كل هذه الروافد لتحليل مجمل المآزق العلائقية مع العالم الأبيض ، مع تركيزهم على ضرورة التخلي عن (وضعية التسول

النضالية بحيث كان) يدافع عن حقوق سود أمريكا ناظرا إليهم كأمركيين ، ويشير في الإفريقيين حية إنجاز تحررهم على أرضهم»^(١٠) ، قلنا على الرغم من هذه التجزئية فإننا لا يمكن أن نتغاضى عن جهده في تحليل بعض مآزق السود السياسية والاجتماعية على وجه الخصوص . إن خطاب دي بوا ينشد إلى ما هو (إيديولوجي أكثر من انشداده إلى ما هو حضاري في كليته وشموليته ، ومع ذلك فإن الزاوية الأكثر مردودية في هذا الخطاب تتجلى أولا في تأثيره القوي على أفكار وأطروحات كل من جورج بادموور ، وقوامي نكروما ، وجومو كينياتا ، الذين هم أقطاب ما يعرف بمفهوم « الشخصية الإفريقية » ، وثانيا في تحول الخطاب المذكور إلى ما يشبه الإنجيل لدى مجموعة من المبدعين الزنوج الأمريكيين التأم شملهم حول تيار زنوجي أمريكي يدعى « اليقظة الزنوجية » ، إذ استمد هذا التيار الكثير من متركزاته الفكرية مما سطره دي بوا حول الشرط اللاإنساني للسود في مجتمع أبيض واضطهادي كالمجتمع الأمريكي ، وكان من بين أعضاء هذا التيار لانغستون هيويز ، وكلود مارك كي ، وكوني كولن ، وستير لينغ براون ، وجان تومر . . . الذين أصدروا بياننا مشهورا حددوا ضمنه بعضا من مسألتهم وتصوراتهم حيال المسألة الزنوجية ، وما جاء في هذا البيان : (نحن بناء الجيل الزنجي الجديد نريد التعبير عن شخصيتنا وأصالتنا الزنوجية دون أي شعور بالتحلل أو الخوف . فإذا كان ذلك يروق للبيض فسكون سعداء كثيرا . وإذا كان لا يروقهم فلا نبالي بذلك أبدا . نحن نعلم علم اليقين أننا على جانب كبير من الجمال ومن

(٨) — Lillian Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du xx e siècle) P. 15.

(٩) خليل شطا : (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة و المعرفة ، ش ٢٠ العدد ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، من ٧٧ - ٧٨ .

الثقافي التي كان عليها الأمريكي الأسود»^(١٠)، وعلى ضرورة (امتلاك وعي بالهوية)^(١١).

لقد ساد هذا التيار لفترة امتدت من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٨ ، الشيء الذي يؤكد سبقه التاريخي على نشوء الحلقة الباريسية التي اقترن ذكرها بمفهوم الزنوجة ، بل إن قمامك التصورات وتشيع النصوص الإبداعية بروح زنوجية أصيلة ، وهما ما ميزتا كتابات أعضاء «الليقطة الزنوجية» ، صنعا شهرة هذه الأخيرة (فوصل تأثيرها شيئا فشيئا إلى جزر الأنتيل الفرنسية ، وكوبا ، وهاييتي ، ثم فرنسا حيث كانت تتبلور النخبة الفنية للمستعمرات الإفريقية)^(١٢)، وهذا يفيد وصول أصداء معينة من وراء المحيط إلى مقهى «مونغارتر» الباريسي حيث كان يجتمع سنغور وسيزير وداماس ، زيادة على ما كان لزيارات لانغستون هيوز وكلود مالك كي لباريس من آثار لا تنكر على توجهات الثلاثي الناطق بالفرنسية .

إن استعراضنا للمحطات الفكرية التي سبقت الولادة الرسمية لمفهوم الزنوجة يهدف إذن إلى تجلية المسار الذي سلكه الوعي الزنوجي قبل فترة الثلاثينات ، فالمفهوم لم ينبثق من فراغ ، ولم ينهض في أرض يباب ، وإنما ولد في نطاق تراث مهد له وغذاه حتى استوى يافعا على يدي كل من سنغور وسيزير وداماس . وإذا كان لنا أن نسمي ما استعرضناه بالوسائط الفكرية الممهدة للزنوجة ، يمكن ، بالمقابل ، أن نستعرض

الوسائط الإعلامية التي احتضنت أقلاما عرفت بإسهامها في تأسيس الزنوجة ، وذلك من خلال الكتابة في مجالات وصحف أصبح تاريخها جزءا من تاريخ الحركة الزنوجية . (ففي عام ١٩٣٢ ، ظهرت بباريس مجلة صغيرة طبعت رسميا ، ومعنى من المعاني ، بداية الأدب الزنوجي المكتوب بالفرنسية)^(١٣)، وقد تأسست على يد مجموعة من الطلبة المارتينيكيين الذين كانوا يدرسون بباريس ، أشهرهم سيزير ، ثم انضم إليهم السينغالي سنغور والغوياني داماس . كان اسم المجلة هو «الدفاع المشروع» ، ولعل في هذه التسمية ما يدل على غمط التحليل الذي ارتآه هؤلاء الطلبة ، فالمسألة تتعلق إذن بموقف دفاعي : دفاع عن الهوية ، ورد الاعتبار لمجموعة إثنية خضعت لعنف متعدد مورس عليها ، عنف عبودي وعنق استعماري وعنق ثقافي . . . وبموازاة هذا الدفاع أعلنت المجلة عن انحيازها إلى القوى المناهضة لكل تلك الأشكال من العنف ، فكان تضامنها مع الأمية الثالثة ومع المثل التي اعتنقها الحزب الشيوعي الفرنسي .

ومادام الحقل الإبداعي الذي ألف بين هؤلاء الطلبة هو الحقل الشعري فقد نزعوا إلى إبداع كتابة شعرية متحررة من نفوذ الجمالية الكلاسيكية والرومانسية الفرنسية ، ومنفتحة على التقنية الشعرية للبرناسيين والسرياليين ، إلى جانب تأثرهم بشعراء تيار «الليقطة الزنوجية» . ومع إدراك هؤلاء الطلبة لضيق أفق الاختيار على مستوى لغة الكتابة ، فإنهم حاولوا تطويع

(١٠) — Jean marie lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de negritude) in :

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - لستق ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ ، العددان الثاني والثالث ، ص ٥٣٤ .

(١١) — Ibid, P. 534

(١٢) — Lylian kesteloat : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du xx e siecle) P. 21.

(١٣) — Lylian kesteloat : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturge noirs du XXe siecle) P. 75.

القيم والتقاليد الغربية فكان (من الخمني أن يؤسس هذا الموقف القاعدة لثورة ثقافية أصيلة ، ومن هنا كان ميلاد حركة الزنوجة^(١٦) ، أما المبدعون الذين كانوا يسيرون الصحيفة فهم سنغور ، وسيزير ، وداماس ، ثم التحق بهم كل من ليونار سانت قيل ، وأرسطونيد موجي ، وبيراجوديبوب ، وأوسمان سوس ، والأخوين أشيل .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية توقفت الصحيفة ، بسبب تشتت الملتفين حولها ، فقد انضم سنغور إلى الجيش الفرنسي والتحق بالجبهة ، أما سيزير فقد عاد إلى المارتينيك ليصدر مجلة باسم « مدارات » ، بحيث استفز هذه المجلة بعض الأسماء الثقافية اللامعة ومنها فرانزفانون ، وإدوار كليسان ، وروني دويستر ، وجورج ديسبورت بينسا اختار داماس الصمت والانسحاب نتيجة مناعب سياسية . لكن الإحباطات التي تولدت عن اختفاء الصحيفة كمبر حيوي للنخبة الثقافية الزوجية بباريس سرعان ما تبددت ، وذلك إثر ظهور مجلة جديدة حملت إسما بلغيا هو الآخر وهي مجلة « الحضور الإفريقي » التي ظهرت بفعل جهد ومثابرة رعييل آخر من المثقفين السود المتواجدين بباريس كالسينغالي أليون ديوب ، والغوادولوبيين بول نيجير ، وكري تيروليان ، والعاجي برنار دادبي ، والداهوميين آيبي وبهانزان ، وأخيرا الملقاشي رايمانانجرا .

وقد صدر العدد الأول من « الحضور الإفريقي » في يناير ١٩٤٧ ، بكل من باريس وداكار ، ثم تلت أعداد

بنية اللغة الفرنسية حتى تستوعب أقساطا من الثقافة السوداء ، مما يعني عزوفهم عن كثير من القيم التعبيرية في اللغة الوسيطة الإخبارية ، و(ضمن هذا العزوف الذي هو تطلع إلى تحرير الأسلوب ، كان تطلع المجلة إلى تحرير الخيال والشخصية الزوجيين^(١٧) . ونظرا للضغوط التي اعترضت « الدفاع المشروع » سواء من طرف غلاة الفرنسيين ، أم من طرف البورجوازية السوداء في الأنتيل لم تتمكن إلا من إصدار عدد واحد (يونيو ١٩٣٢) . ثم جاءت بعدها صحيفة « الطالب الأسود » التي طالبت مدة صدورها بالمقارنة مع « الدفاع المشروع » ، إذا انطلقت في عام ١٩٣٤ لتتوقف عام ١٩٤٠ . ومرة أخرى نواجه تسمية لا تحلو من دلالة ، ففي الوقت الذي كان في الإمكان صوغ عناوين ذات إيجاء أدبي تعتمد أصحابها تسميتها بـ « الطالب الأسود » كنوع من الإفصاح عن خطاب أدبي قادم إلى باريس من وراء البحار ، أبدعه مبدعون ينتمون إلى ثقافة تتحضر للأخذ بمصيرها . لقد تركزت جهود الصحيفة على إنضاج وعي أسود جماعي يوحد بين سود إفريقيا وسود الأنتيل داعية إلى التخلص من الأفكار القبلية والإقليمية ، وإلى تجنب اللويان في الحضارة البيضاء ، وفي نفس الاتجاه (طالبت « الطالب الأسود » بالحرية الإبداعية للزنوجي خارج كل تقليد غربي ، إلا أنها ذهبت بعيدا فعينت الوسيلة التي سيتمكن بها الأسود من تحقيق تحرره من أي احتواء : هذه الوسيلة تكمن في العودة إلى الينابيع الإفريقية^(١٨) ، أي الرفض المطلق لأية رابطة مع الغرب من غير رابطة اللغة ، والتحرر من

(١٤) — Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poesie negro-africaine) in

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بقراس لسنن ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، المعداد الثاني والثالث ص ٤٧٨ .

(١٥) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du XXe siecle) P. 79.

(١٦) — Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poesie negro-africaine). in

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بقراس - لسنن ١٩٧٩ - ١٩٨٠ المعداد الثاني والثالث ، ص ٤٦٧ .

المثقفين البيض ، (ووجدت جمهورها شيئا فشيئا خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك التاريخ ، وخلقت حركة أدبية جديدة بين الزنوج الناطقين بالفرنسية)^(١٧) ، إن سيزير (« سيكتشف مهنته » حين كان بفرنسا يبيع شهادة الإجازة في الآداب)^(١٨) ، وإثر ذلك خاطب سنغور قائلا : (يجب علينا أن نثبت زنجيتنا)^(١٩).

كلما بدأت قصة الزنوجية ، لكن ماذا يعني أن يثبت سيزير وسنغور زنجيتهما ؟ يعني أن يتشبها بحضورهما ، وأن يحكما على تاريخهما ، وأن يتركا مسافة كافية بينهما وبين الحضارة البيضاء ، على أن ترك المسافة لا يشير إلى قطيعة نهائية بقدر ما يشير إلى ضمان تماسك الذات السوداء ، وتزويدها بالثقة في حضارتها وفي تاريخها ، ثم شعنتها بروحيتها الجماعية لأن (البحث عن روح جماعية يعد أمرا معقولا ومقبولا عندما نذكر بأن كلا من سنغور وسيزير وداماس لهم خلفياتهم المتباينة ، أتوا من جهات متفرقة من العالم ، وتباين ظروفهم الاجتماعية ، لا يؤلف بينهم سوى لون جلودهم وبأسهم ، وربما الأصول المشتركة البعيدة ، ونظرا لأن حالتهم النفسية أو روحهم غير مستريحة فليس هناك أفضل من البحث عن روح جماعية)^(٢٠) . وعليه فقد (تأمل ثالوث الزنوجية ذلك كله ثم انتهوا إلى أنهم رسل لبلادهم ، وأن عليهم إثبات حقهم في الحياة أولا ، ثم تحطيم خرافة « التفوق الأبيض » ثانيا ، ثم إنشاء أدب يحمل الحب والأمل للعالم ، ولو أدى ذلك إلى الاشتداد في استرداد وجههم المفقود الذي حاول المستعمرون طلاءه باللون الأبيض وتزييف أصالته)^(٢١).

منتظمة تضمنت مواد ونصوصا تدور حول قضايا العالم الأسود وخاصة الثقافية منها ، وهكذا عاجلت قضايا الآداب الشفوية ، والموسيقى الزنوجية الإفريقية - الأمريكية ، كالجاز مثلا ، كما لم تغفل إضاءة جوانب من الفلسفات الإفريقية ، وجوانب من المعتقدات لدى زنوج الأنتيل كالقودو الهايتي . ولم تكتفِ المجلة بإصدار أعدادها المنتظمة ، بل وازت ذلك بإصدار منشورات في مختلف الحقول الثقافية عرفت بـ (منشورات الحضور الإفريقي) . وبما لا شك فيه أن انضمام أسماء وازنة ، سواء من العالم الأسود ، أو من فرنسا ، إلى الأعضاء المؤسسين قد خدم تطور المجلة وذيوعها وسمعتها العالمية ، ومن بين هذه الأسماء سنغور ، وسيزير ، والأمريكي ريتشارد رايت ، والداهومي بول هازومي ، وسارتر ، وجيد ، وموني ، وبالاندي . كانت هذه إذن نظرة على ما دعونه بالوسائط الفكرية والإعلامية التي اعتمدتها الحلقة الباريسية في إطلاق صيحة الزنوجية كعقيدة تتوخى توحيد العالم الأسود ، فأمر ، وبلايدن ، ودي بوا ، وأعضاء تيار « اليقظة الزنوجية » هم الذين أرسوا المقدمات الفكرية الأساسية لولادة الزنوجية ، في حين مثلت منابر « الدفاع المشروع » و« الطالب الأسود » و« الحضور الإفريقي » المجال الإعلامي الذي رعى الزنوجية ودعم حضورها وأمددها بأسماء مبدعة إضافية . ولتعد الآن إلى المفهوم في حد ذاته ، فقد قلنا سابقا إن الفضل في ابتكار كلمة الزنوجية يعود في المقام الأول إلى إيمي سيزير الذي أوردها في ديوانه (مذكرات عودة إلى بلدي) (١٩٣٩) ، ومن ثم شاع تداولها بين المثقفين السود ، وفي حلقات وكتابات

(١٧) جيرالدمور : (سبعة أبناء من إفريقيا) ترجمة : علي شلش ، ص ١٩ .

(١٨)

(١٩)

(٢٠) الدكتور محمد عبد الغني سموي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٢ .

(٢١) علي شلش : (ألوان من الأدب الإفريقي) ، ص ١٣ .

— Frantz Fanon : (peau noire, masques blancs) P. 156.

— Stanislas Adolevi : (Négritude et negrologues) P. 16.

ملغاشي ، وهذا أمريكي والآخر مارتينيكي ، لأول مرة توطدت عقيدة الانتفاء الواحد والمصير الواحد . وتعد هذه العقيدة أحد أهم مكاسب الزوجية ، إذ يسرت وحدة الصف إمكانية تأسيس خطاب فكري يهتم جماع العالم الأسود ، في قضايا المادية والروحية ، بقطع النظر عن عوامل اختلافه المصطنعة . وقبل الحديث عن مختلف المدارس الشعرية الزوجية يخلق بنا أن نسط القول في أبرز جوانب هذا الخطاب ، وأن نتناول أهم الإشكاليات التي استقطبت بال أصحابه ، إلا أننا سنركز أكثر ما يمكن على آراء سنغور باعتباره الناطق الرسمي باسم الزوجية ، ويشفع له في هذه الخطوة لمعيته وغزارة كتاباته النظرية بالمقارنة مع رفاقه .

وربما اعتبرنا العلاقة مع الغرب أسخن جبهة واجهت الزوجية ، سواء على مستوى المكتوب النظري أم على مستوى الإبداع الشعري ، لماذا هي أسخن جبهة على الإطلاق ؟ الغرب هو معقل أزمت الذات السوداء ، فالاصطدام بالغرب هو الذي أنشأ السؤال المركزي حول مصداقية الكلام عن حضارة سوداء لها القدرة على صيانة العالم الأسود من خطورة الهيمنة الثقافية البيضاء ، كما تستطيع إفحام أساليب التشكيك المنهجي للبيض في تاريخ السود وثقافتهم ، لذا انكبت الزوجية على تحليل هذه الزاوية لأنها المدخل الرئيسي لمشروع الهوية الزوجية وتصليب منطق البنائي .

وهكذا شرع الزوجية في الحديث عن وجود حضارة سوداء ، وعن ثلاثة هذه الحضارة ، وعبريتها ، بل وإخصابها لكثير من الحضارات الإنسانية ، وإن كان هناك شيء جدير بالذكر فهو الدور الذي مارسه كتابات

بهذا يتجلى نوع التحليل الذي اتخذته الثلاثي المؤسس للزوجية ، فهناك الإيمان بجدارة العالم الأسود وجدارة حضارته وتاريخه ، وهناك أيضا إزماح ضمني على تفكيك إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، التي اغتالت ثقة السود في جدارتهم بين الأمم والأجناس . إن الزوجية أقرب إلى صرخة الوليد الذي يطل معلنا عن حياته بعد تعاقب ألوان من الموت المادي والنفسي ، حملتها عهود الاضطهاد الأبيض ، وهي أيضا سلاح واق من الاستتباع الحضاري ، ومن الإحساس بالذونية أمام النموذج الحضاري الغربي ، ولذلك التف الثلاثة حول أهمية تحويل الزوجية إلى عقيدة لحماية الشخصية السوداء ، وتلافي الاختلافات الجغرافية والاجتماعية ، إذ أن ما يوجد بين السود هو لونهم وهويتهم المشتركة . ولنستمع إلى سيزير متحدثا عما يجمعه مع سنغور (إن ما يجمعنا هو الرفض المتصلب لأن نكون مستلبين ، لأن نفقد روابطنا ببلداننا ، وبشعوبنا ، وبلغاتنا)^(٢٢) ، إذن فقد أتى أوان تحطيم سلطة اللون ، من حيث كونها حاجزا أمام ملاقات الشخصية السوداء لهويتها الحقيقية ، فاللون في نظر سنغور (أشبهه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية)^(٢٣) ، أو كما يقول الكاتب الهايتي روني دوبيستر (لقد صُير اللون حاجزا منيعا بين جنسي الأسود وما حققه في التاريخ)^(٢٤) .

لأول مرة عمت ، بفضل الزوجية ، حساسية مشتركة بين المثقفين السود بباريس ، فاندثرت تلك الدعوات الإقليمية التي زكاهها الاستعمار ، من مثال هذا سينغالي والآخر عاجي ، وهذا كاميروني والآخر

— Aime Cesaire, *Negre rebelle* in (Le Monde de dimanche) No. 11463-dimanche 6 decembre 1981-P. 1.

(٢٢)

(٢٣) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٢ .

(٢٤) روني دوبيستر : (الأسس الاجتماعية الثقافية لشخصيتنا) ، (الثقافة الإفريقية) ص ٣٠٠ .

الزنجي ، وقدرته على خلق أغماط عقائدية ،
وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وفنية حملت
سمات متميزة .

فقد عرفت المجتمعات الإفريقية فكرة الألوهية
فأبدعت طقوسها التعبدية الخاصة ، بينما قام نظام
الحكم لديها على قواعد وأصول تكشف عن غير قليل من
الضبط والتنظيم ، وعلى صعيد الاقتصاد توصلت تلك
المجتمعات إلى تحقيق حاجاتها الحيوية ، أما الفاض
فكان يُسوّق إن بالنقد أو بالمقايضة ، في حين لم تعرف
المجتمعات المذكورة التفاوت الطبقي ، مادامت الحياة
تقوم على أساس التعاقد والتكافل ، وهو ما دفع سنغور
إلى الحديث عن اشتراكية إفريقية أصيلة . وعندما نتكلم
عن الفنون فلا نعتقد أنه يمكن القفز على ما خلفه
الفنانون السود من تحف وروائع ، خاصة في المعمار
والنحت ، و (أقدم إنتاج فني إفريقي يصل إلى القرن
الخامس قبل الميلاد (ثقافة نوك) ، ومع بداية العصر
الميلادي يمكن معرفة الثقافة الزيمبابوية في القرن السادس
الميلادي ، وكذلك ثقافة ساو SAO في القرن التاسع .
وفي القرن الثالث عشر ظهرت الإمبراطوريات الإفريقية
الكبيرة (الیورویا وبنین) واعتبارا من القرن الخامس
عشر ظهرت إمبراطوريات الكونغو وداهومي . . . الخ
وقد أنتجت هذه الممالك أعمالا فنية عديدة وهامة حتى
القرن التاسع عشر أي عندما وصل الأوروبيون ، ومنذ
ذلك التاريخ بدأ الفن الإفريقي عملية التراجع) (٢٨) .
والواقع أن (الفن الإفريقي يؤلف « حكمة مكتوبة »

بعض المثقفين الغربيين المتنورين فيما يخص إعادة تقييم
الحضارة السوداء ، الأمر الذي فتح المجال أمام
الاعتراف بتعددية حضارية ، بدلا من الفكرة القائلة
بألا وجود لحضارات من غير حضارة الغرب . وإذن غدا
من المشروع أن يشار ، وبشيء من الزهو ، إلى ما حققته
الإمبراطوريات والممالك الإفريقية من إنجازات
حضارية ، وذلك على أكثر من صعيد ، وفي هذا الإطار
(نخرج بحقيقة وجود قديم جدا ، على بيدر متفرقات ،
يمتد من النيل الأبيض حتى بحيرة تشاد ، هو وجود
عناصر نموذجية ، من الحضارات العائدة إلى العصر
الثاني الصحراوي وما يقابله قديما في مصر . وهذا ما
يفسر ، على الأقل ، المشابهات المدهشة بين بعض
مؤسسات مصر القديمة والعوائد الجارية عند سكان
ضفاف النيل الأزرق اليوم) (٢٩) ، ولعل هذا يذكرنا
بالتشابه الكبير الذي كان بين الحضارة المروية (٣٠)
والحضارة المصرية القديمة ، والأكثر من هذا يجوز أن
نؤكد (أن المعركة الأكثر أهمية لعلم التاريخ الإفريقي
المعاصر كانت ولا تزال هي معركة مصر القديمة ، التي
اقرنت باسم السينغالي الشيخ أنسادوبوب ، إذ تتعلق
القضية بإسهام فائق في مجال المصريات ، والكيمياء ،
والفيزياء النووية ، مثلما تتعلق بتحديد الصبغة
« الزنوجية » لمصر الفرعونية (٣١) .

أما في القرون الوسطى فيمكن أن يشار إلى
إمبراطوريات غانا والداهومي ومالي والكونغو . . . وإلى
حضاراتها الباذخة ، وهو ما يدل على عبقرية العقل

(٢٥) دانييل بولي : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ١٩٥ .
(٢٦) هي الحضارة التي كان يطلق عليها قدماء المصريين حضارة « ناهسو » التي تعني حضارة أرض السود ، والمروية نسبة إلى مروي مستقر تلك الحضارة في أقصى الجنوب من
مصر ، وقد كشف المؤرخون عن تطابقات عدة بينها وبين الحضارة المصرية القديمة سواء على صعيد المعتقدات وبيئات الحكم أو على صعيد التقاليد والعمارة . . .
— Elikia M'Bokolo : (L'histoire de l'Afrique revue et corrigée par les africains) in (Magazine littéraire) No. 195-Mai (٧٧)
1983, P. 40.

(٢٨) محمد عدنان مراد : (القارة الإفريقية أصولها وتاريخها وحضارتها) مجلة (الآداب الأجنبية) ص ٣٨ - ٣٩ شتاء وبيع ١٩٨٤ ص ٤١ - ٤٢ .

إلى الاعتراف بالقرن الإفريقي الغريب ، المعروف « بفن البتو » (٣٢).

وعلى صعيد آخر استطاعت المخيلة السوداء أن تبذل في المجال الموسيقي ، وأن تبتكر آلتها الموسيقية الخاصة التي أصبحت لها شهرة عالمية كالكور والبالفون والطبل الإفريقي . ومما يلاحظ أن الموسيقى الزنوجية لم تكن تؤلف لمحض الطرب والترفيه بقدر ما كانت تتصل بالتقاليد والطقوس فهي (تقيم عملة على الصعيد الاجتماعي وتخطبها بين الرجال والنساء في المجتمع الذي تمارس فيه . وعلى صعيد أرفع فإنها تقيم تخطبها وصلة مع الآلهة وقوى الطبيعة) (٣٣) ، ولعل الشاهد على أصالة وعمق وتعبيرية هذه الموسيقى ذبوعها العالمي ، عبر الجاز والراجتايم والبلوز والريكي ، وكذلك تأثيرها القوي على الصرعات الموسيقية الغربية كالروك والبوب .

وما ذكرناه بصدد هذه المجالات يمكن ذكره بصدد الملاحم ، والأساطير ، والحكايات الشعبية ، والأشعار الشفوية ، والمسرح البدائي ، وشخصية الراوي الجوال ... وكمثال فقد (أصدر بليز ساندرارز عام ١٩٢١ « المختارات الزنوجية » التي تضم بعض الأساطير المتعلقة بنشأة الكون وعددا من الحكايات العصرية) (٣٤).

كل هذا يفهم المقولة الأنثروبولوجية حول فقر الحضارة السوداء ، إن لم نقل النفي المطلق لوجودها ،

حقيقية ، تاريخاً دون حوادث ، ذلك أننا نستطيع أن « نقرأ » عبر هذه الآثار تنظيم مجتمعاتها ، وتسلسلها ، وبنياتها السياسية ، لا نقرأ المعارك ، ولكن النظام السياسي ، ونظام النقود وما ينطوي عليه الاقتصاد من قيم أخلاقية عبر الكتل المنحوتة (٣٥) ، التقنيات الزراعية ، الأعمال والأيام ، والألعاب ، والصيد والرقص .

وعلى ضوء هذا فليس من المثير حقاً أن ينبهر الفنانون الغربيون أمام القطع الفنية التي أبدعها الفنانون السود الفطريون ، وأن يعجبوا بالإمكانات الجمالية الهائلة التي ترشح بها الصور والمنحوتات الإفريقية (وهكذا قام الفنانون الأوروبيون المعاصرون بكسر طوق التحديدات التي طالما وجهت الحركة الفنية في الرسم خلال العصور الماضية ليعتمدوا حرية التحرك والتعبير تماماً كما فعل الفنان الإفريقي منذ آلاف السنين) (٣٦) . وبدون مبالغة نستطيع القول بأن التكعبية ، كاتجاه تشكيلي طليعي ، تدين بشكل أو بآخر ، للثروة الفنية الزنوجية ، ويظهر ذلك جلياً في أعمال بابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣ م) ، وجورج براك (١٨٨٢ - ١٩٦٣ م) ، وهنري ماتيس (١٨٦٩ - ١٩٥٤ م) الذين افتتسوا (بالطبيعة المباشرة والمستقلة لهذه الأعمال وجنوحها نحو تبسيط الشكل) (٣٧) ، وفي ذات المنحى (نشر أبولينير بالاشتراك مع بول غليوم عام ١٩١٧ « المجموعة الأولى من التماثيل الزنوجية » الأمر الذي دعم الحركة الرامية

(٢٩) روجيه غارودي : (حوار الحضارات) ترجمة : الدكتور عادل العوا ، ص ١٥٤

(٣٠) (أثر الفن الإفريقي على الحركة التكعبية الأوربية) ترجمة : ميسون أبو الحبيب - مجلة (آفاق عربية) ص ٤ ، العدد ١١ ، تموز ١٩٧٩ ، ص ١٢٤ .

(٣١) حسين هداوي : (فن النحت الإفريقي) مجلة (فنون عربية) السنة الثانية ١٩٨٢ ، المجلد الثاني ، العدد ٦ ، ص ٤٠ .

(٣٢) خليل شطا . (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) - ص ٢٠ العدد ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

(٣٣) أولاولو ميداني : (مكانة الموسيقى التقليدية في المجتمع الإفريقي خصوصاً في نيجيريا) مجلة (الثقافة العربية) ص ٩ ع ٨ ، أغسطس آب ١٩٨٢ ، ص ١٥٧ .

(٣٤) خليل شطا (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) - ص ٢٠ العدد ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

كونها مذهباً للاستعلاء العنصري قد يتخذ موقفاً مضاداً ويمنع الاتصال والتكيف مع الفرنسيين . ولكن سرعان ما تعدلت هذه العوامل ، وعندما نشبت الحرب أو قبلها تحولت إلى مذهب يصلح للحموار مع الإدارة الاستعمارية (٣٦) . وقد جاءت هذه الليونة مع التدرج الفكري والإيديولوجي الذي عرفته الزنوجة ، وبخاصة سنغور ، إذ سيبدأ الحديث عن نوع من الانفتاح على الحضارة الغربية ، والدعوة إلى تشييد حضارة ثنائية في تجاوز لكل عصبية ولكل استعلاء حضاري ، (ويرجع فضل سنغور فيما كتبه وأخذ به دائماً في أنه يعيد الرجل الأسود على كل المستويات إلى الجماعة الأساسية التي ينتمي إليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه الحضارات المختلفة وخصوصاً حضارة الرجل الأبيض الذي كان العدو الأول والذي أصبح أهم صديق) (٣٧) .

أما الإشكالية الثانية التي عكفت عليها الزنوجة فهي الموقف من العقيدتين المسيحية والإسلامية ، والموقف في حد ذاته يعني المفاضلة بين العقائد الوثنية الزنوجية وبين ديانتين سماويتين ، وفي هذا الموضوع ترى الزنوجة بأن عقائد الأسلاف ليست بذلك الشكل الذي توجد عليه في الأدبيات الاستعمارية والكنيسة والأنثروبولوجية ، أي كونها عقائد لا إيمانية يتبعها قوم يجب انتشالهم من كفرهم الفطري ، بل العكس ، لأن الزنوج يرون بأنهم مكتشفو فكرة الرب للإنسانية ، وعندهم أخذتها مصر القديمة ، لتنتقل إلى حضارات أخرى . فما يلوح مجرد ممارسة عقائدية وثنية يضمّر تصوراً يرى بأن هناك قوة إلهية مفارقة للبشر ، وبأنها تملك قدرات معجزة ، هذه القوة هي ما يعرف بـ « مونزو » ، وإن اتخذ أسماء متعددة

ومادام الأمر كذلك فقد اقتنع المثقفون الزنوج بأهمية العودة إلى ماضيهم الحضاري وقراءته قراءة جديدة حتى تنجح لهم المباشرة بخصوصيتهم ، دوناً مركبات ، وبهذا شعروا بأنهم يحرقون من ورائهم تاريخاً طمسته أو شوهته عهود من الهيمنة والاضطهاد . إن المطلوب هو بناء موقف جديد من النموذج الحضاري الغربي ، والتحرر من جاذبيته ، وبالتالي من مطلقته ، أي تحليل الذات السوداء من اغشائها ومن ذوبانها الشائهة في حضارة البيض . وبالمناصفة لابد أن نشير إلى عمق الأزمات النفسية التي استفحلت أعراضها في أنحاء كثيرة من العالم الأسود ، من جراء الانتقال من النمط الحياتي التقليدي إلى النمط الحياتي الحديث ، وعلى سبيل المثال جرى خلال عام ١٩٦١ بحث ميداني حول الأعراض النفسية بمنطقة أبيوكوتا بنيجيريا من قبل نفسانيين وأنثروبولوجيين من جامعة « كورنيل » فتوصلوا إلى أن (عدد الأعراض النفسية الفسيولوجية والأعراض العصبية التي وجدت بين سكان أوروبا أكثر من التي وجدت بين سكان شمال أمريكا) (٣٨) .

ويعد هذا الانقسام من بين ما حفز الزنوجة على التنبيه إلى غنى الحضارة السوداء ، وإلى التمسك بقيمتها ، وعدم الارتقاء كلية في حضارة البيض بما هي حضارة مفارقة للبيئة السوداء . وفي إطار إعادة التقييم الحضاري انسأقت الزنوجة إلى مواقف استعلائية أحياناً ، صدرت عنها أفكار تؤيد تفوق الحضارة السوداء على نظيرتها البيضاء ، وتدعو البيض إلى الاستفادة من التراث الأسود ، (وعندما بدأت نظريات الزنوجة لأول مرة تأخذ شكلها في باريس في تلك الفترة كانت لها خصائص ثورية أول الأمر ، ثم اقتربت من

(٣٥) ب . س . لويدي (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوكي جلال ، ص ٢٧٠ .

(٣٦) الدكتور محمد عبد الغني سمودي : قضايا إفريقية) ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣٧) الدكتورة جوزين جودت عثمان : (مالرو ، سنغور وحضارة الإنسان) مجلة (عالم الفكر) المجلد الثامن - ع ٣ - أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٩١ - ٩٦ .

أحدهم على الخلد الأمين^(٤٠)، بينما اقترن الإسلام بد (كبرى المصائب) أنه من التشاد حتى النيل كان صيد العبيد يحتاج كل السودان الأوسط^(٤١)، وهي نفس الفكرة التي كان يرددها النخاسون البيض، من كون المسلمين هم أول من استعبد السود. بعد هذا لنا أن نتصور إذن رد الفعل الذي سيكون للزوجة من الديانتين معا، قد نرجح لا محالة رد فعل يدعو إلى معاداة الديانتين والحذر من تعاليمهما، بيد أن الأمر الواقع كان أكثر من أي رد فعل حاسم، ونقصد بالأمر الواقع تغلغل المسيحية والإسلام في وجدان كثير من السود، وهذا ما صيغ حضورهما بشيء غير قليل من المفارقة.

ففي حين يدعو بعض المثقفين الزنوج إلى استثمار قيمتي الأخوة والعدالة المسيحتين وإدماجها في التراث العقلاني الزنوجي (لنلاحظ مدى المصادقية التي تغلف إيمان الزنوج المسيحيين في إفريقيا وأمريكا والأنتيل كموقف من تحريف المثل المسيحية ومن الاضطهاد الأبيض)، نجد فئة أخرى منهم تناصر الإسلام كمعقيدة مضادة لإيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري. وينبني هذا الطرح على وضعية الزنوج المسلمين بالولايات المتحدة، فجماعة المسلمين أتباع الإنجيا محمد تعطي للإسلام بعدا انتقاميا، مما يجعله عقيدة ثأرية من مسيحية الأبيض المضطهد، وبهذا اكتسب الإسلام (صبغة عنصرية غريبة عنه منافية لروح ونصو ص) وقد أدرك الزعيم الزنوجي الشهير

اختلفت باختلاف الجهات والمجتمعات الإفريقية، فهو «الورمنو» عند اليوروبا بنيجيريا، و«فارو» عند البامبارا بمالي، و«منقو» في إفريقيا الشرقية، وهو «أكزير» عند الإثيوبيين، و«لقبا» في السداهومي، و«اورمانكوما» عند الاكان في غانا.

ويقتضي الاعتقاد في فكرة الإله تلبية أوامره، كالقرب والتقوى وتكريم الموت والتعاون والمحبة... ثم تجنب نواهيه التي هي نقائص هذه الأمور. ولا شك أن هذا ما تتضمنه الديانات السماوية، مع مراعاة الاختلافات السائدة عند كل مقارنة ومن ثم (قبل الإفريقيون المحدثون تعاليم محمد والمسيح لأنهم لم يروا في الذي سمعوه من أهل الديانتين جديدا جديرا بخلاف^(٣٨)). ومع ذلك (لم تدخل الديانتان الكبيرتان النفس الإفريقية بالسرعة التي يقول بها بعض الباحثين، عشرة قرون الآن والإسلام يلتقط طريقه بالتجارة واللقاء المسلم أحيانا والحرب بعض الأحيان، قرن أو أكثر منذ جاءت المسيحية القارة، ولكن قرابة سبعين مليون من الناس مازالوا على دين آبائهم^(٣٩)).

فحسب الزوجة ليس بوسع العالم الأسود أن يسقط من ذاكرته مختلف العدايات والمخابيات التي ابتلى بها بتزكية من الكنيسة، وفي المقابل لا يمكن نسيان الدور الذي قام به المسلمون في تدشين عهد الاسترقاق بإفريقيا، فالمسيحية (استعملت في كثير من الأحيان لتخديرهم وتعليمهم إدارة الخلد الأيسر إذا ما صفع

(٣٨) جاك محمد أحمد: (وجدان إفريقيا) ص ٢١.

(٣٩) نفسه، ص ٢٥.

(٤٠) مدثر عبد الرحيم: (بين الأصالة والتبعية: تجربة الاستعمار وأطماع التحرر الثقافي في البلاد الآسيوية والإفريقية) ص ١٧.

(٤١) دنيز يولم: (الحضارات الإفريقية) ترجمة: نسيم نصر، ص ٨٣ - إشارة:

(أ) من المعلوم أن اليهودية لم تحقق انتشارا كبيرا كالأديان حقلته المسيحية والإسلام، بحيث يعتبر معتقوها قلة، ويتمركزون في إثيوبيا ورمولون بالقلاندا.

(ب) يصدد دور المسلمين في استبعاد الأفارقة توضح أن إيرادنا هذه الوجهة من النظر لا يعني تبينا لها، وإذا كان المسلمون قد اتخذوا بعض السود كمعبد لإلههم لم يسيئوا معاملتهم، بل لقد وصل الكثير منهم، في ظل الإسلام، إلى مراتب سياسية سامية (كالور، لؤلؤ، المعاليك...) وإلى مراتب علمية هامة (بالفوت).

العقائدية الثلاثة : التراث العقائدي الزوجي والمسيحية والإسلام ، ضمن أخلاقية انفتاحية وتسامحية ، لما في هذا التركيب من نتائج إيجابية سيغتنى بها المشروع الحضاري الأسود .

ويبقى أن نلفت الأنظار إلى أن هذه الأطروحة تستنسخ نفس الأطروحة السنغورية حول ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية لصالح تأسيس حضارة كونية جديدة .

إذا كان هذا ما طرحته الزوجية بخصوص الإشكاليتين السالفتين فماذا يتعلق بمعالجتها للفكر الماركسي ؟ وهل كان للمثقفين الزوج موقف تجاه نظرية علمية في تحليل التاريخ والاقتصاد والثقافة ؟ الحقيقة أن الماركسية استأثرت بحيز لا يستهان به من مساحة الفكر الزوجي ، بحيث نوقشت جوانب عديدة من هذه النظرية ، مثلما نوقشت احتمالات إخضاعها لمهام محاربة الاسترقاق والاستعمار وتجاوز وضعيتها الاستلاب ، وبالتالي لاستعادة الهوية الزوجية .

إن ما تردد من أفكار ماركسية في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية يعود في الأصل إلى المفكر الأنثيلي جورج بادموور الذي كان قد زار الاتحاد السوفياتي واطلع على التجربة السوفياتية في تطبيق أفكار ماركس وإنجلز ولينين ، وقد أعجب بادموور بهذه التجربة فنتج عن ذلك تحمسه للماركسية ، وهو ما يعرب عنه قائلا (فمن الجوهري بالنسبة إلينا في إفريقيا أن نفهم أساليب الفلسفة الماركسية وأهدافها حتى نعرف ما قد نتحقق من

مالكهم إكس خطأ ذلك الاتجاه وخطره فجاهد جهادا كبيرا لتصحيحه حتى استشهد مجاهدا في سبيل ذلك وفي سبيل تحرير الزوج عامة)^(٤٢).

لقد اعتبر قوامي نكروما التعددية العقائدية إحدى أزمات العالم الأسود باعتبارها معوقا حضاريا وعبئا تاريخيا ، (ولكي يبين جيدا فداحة هذه الأزمة قارنها نكروما بـ (الشيروفرينا) ، فالتعددية إجمالا هي العدو)^(٤٣). أما الكاتب السينيغالي مامادو ترور ديوب فقد عبر عن رفضه لما عنده ديانات طارئة فقال (يمارس الأفارقة حاليا ديانات مستوردة وكل آلهة الأجداد ماتت تقريبا . أما أنا ، فلإني أجاهر هنا معلنا : إن إلهي لا يزال أسود)^(٤٤). لكن خارج هذين الموقفين اتخذت الزوجية موقفا مفتحا لا يقفز على الأمر الواقع كما قلنا قبل قليل ، موقفا يرى أنه لا يحيد عن التعددية العقائدية ، بعيدا عن أي تجاهل مجاني ، أو تنكر للتأثيرات الثقافية للمسيحية والإسلام في مناح كثيرة من حياة السود .

فالمسيحية متواجدة في الممارسة السوداء كمعتقد وكتقافة ، وكذلك يحضر الإسلام ، سواء كسلوك إيماني أو كتجل ثقافي ، (وتشير بعض الأبحاث التي أجريت مؤخرا في الساحل الإفريقي الشرقي وبعض بلدان غرب إفريقيا كغانا وساحل العاج والسنغال وغيرها إلى أهمية الثقافة العربية الإسلامية)^(٤٥).

لذلك وجدنا سنغور ، فضلا عن اعتناقه الكاثوليكية ، يدافع عن أطروحة تركيب التيارات

(٤٢) مدثر عبد الرحيم : (بين الأسالة والنتيجة) تجربة الاستعمار وأخطأ التحرر الثقافي في البلاد الآسيوية الإفريقية) ص ١٨

(٤٣) Paulin J. Hountondji : (Sur la "philosophie africaine") P. 204.

(٤٤) مامادو ترور ديوب : (الزوج والعرب في مواجهة المستقبل) ترجمة . خليل فرحيات - مجلة (الكاتب العربي) ص ٢ - ع ٦ - ١٩٨٣ ، ص ٣٩ .

(٤٥) الدكتور إبراهيم الزين صغرون : (لمحات تاريخية عن دور السودان والسودانيين في انتشار الإسلام في أوغندا) مجلة (آداب) كلية الآداب - جامعة الخرطوم - ع ٤ -

١٩٨١ ، ص ١٢٥ .

أن نقتبسه منها ونجعله يتلاءم مع حاجياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، دون أن نقبله جملة كمقيدة» (٤٦).

إن بادامور باعتناقه الوعي للماركسية سيفتح الباب أمام مجموعة من المثقفين الزنوج الناطقين بالإنجليزية ، الذين أسعفهم تكوينهم الإنجليزي على الاطلاع على أفكاره للأخذ بها كأداة لتحليل بنيات المجتمعات التقليدية الإفريقية ، ومن هؤلاء قوامي نكروما ، وجوليوس نيريري . فكلاهما ينفي توفر تراكمات مادية ضخمة في المجتمعات التقليدية الإفريقية ، وكلاهما ينفي حصول أي شكل من أشكال الصراع الطبقي في تلك المجتمعات ، إذ طبعها البساطة على المستوى الاقتصادي ، والتكافل على المستوى الاجتماعي ، ثم يؤكدان على تداخل البنيتين التحتية والفوقية في أنماط الحياة الإفريقية الأمر الذي يساعد على القول بتوصل السود إلى اشتراكية فطرية نتيجة أحوالهم الخاصة .

إنني سيزير فقد كان رأيه أن يؤخذ لا من الماركسية فقط ، وإنما من السريالية أيضا ، وذلك بمقدار ما يخدم قضية استعادة الهوية الزنوجية ، فهما في نظره تياران فكريان طليعيان يرفضان ، كالزنوجة ، منظومة القيم الاضطهادية في الثقافة البيضاء ، ويلتقيان معها في مناهضة الاستعمار والرأسمالية . . وسيصل الأمر بسيزير إلى أن يصبح عضوا قياديا بارزا في الفرع المارتينيكي للحزب الشيوعي الفرنسي . وإذا كان هذا شأن سيزير فإن زميله سنغور سيهتم هو الآخر بالماركسية ، على أن اهتمامه هذا أتى ضمن بحثه عن إمكانيات الأخذ من جميع التيارات الفكرية التي يمكن أن تخصب المشروع الحضاري الزنوجي ، لذا (ازداد تقيمه الدراسي لماركس عمقا من خلال نشاطه السياسي . بيد أن ما يجذبه من فكر ماركس هو الأفكار والقضايا الإنسانية التي طرحها ماركس قبل ١٨٤٨ ونعني بها القضايا الأخلاقية والتحرر الاقتصادي) (٤٨).

أما الناطقون بالفرنسية فقد تم تعريفهم على الماركسية في سياق احتكاكهم بالتيارات الفكرية المتعاقبة في فرنسا ، بحيث (وجد الإفريقيون المتحدثون بالفرنسية الفرصة لمعرفة الأفكار الماركسية عن كثب خلال أيام دراستهم في باريس) (٤٧) . وهكذا تحمس الشاعر إيتين ليرو ، وهو أحد أعضاء جريدة « الطالب الأسود » للماركسية ومبادئها ، مدافعا عن استرفاد قيمها الفكرية والجمالية في الكتابة الشعرية الزنوجية ، في حين عارض تيار معين داخل هيئة « الطالب الأسود » هذا الحماس بدعوى أن الماركسية لا تبرح كونها جزءا من الثقافة البيضاء التي هي ثقافة هيمنية واضطهادية . فيما يخص

والخلاصة هي أن الزنوجة لم ترفض رفضا قاطعا الحوار مع النظرية الماركسية ، لأن كل المعطيات كانت تحت على هذا الحوار ، فمن جهة لقي كل من سنغور وسيزير وداماس وليرو في الحزب الشيوعي الفرنسي مساندا قويا لقضايا وتطلعات العالم الأسود ، كما وجدوا فيه خير مناصر لأحقية السود في الذود عن هويتهم ، ومن جهة أخرى لاحظ هؤلاء المثقفون أن الاتحاد السوفياتي يبقى أكثر انسجاما ، بالمقارنة مع الدول الغربية ، فيما يخص الموقف من المسألة الاستعمارية ، فلم يتورط السوفييات مثلا في احتلال إفريقيا ، ولم يتوانوا عن المطالبة باستقلال الأقطار الإفريقية ، وهذا ما زاد في

(٤٦) جورج بادامور : (دليل للاشتراكية الإفريقية) مجلة (الهلال) السنة ٧٣ ، العدد ١٠٧ يوليو ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

(٤٧) ب . م . لويدي : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٣٠١ .

(٤٨) ب . م . لويدي : (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

الهوية الزوجية . إنه مأزق وأي مأزق ، ولو أن سارتر يحاول التأكيد على إيجابيته ، ففي رأيه تعتبر الكتابة بلغات المضطهد نوعاً من الانتقام التاريخي ، تمارسه الزوجية داخل اللغات الغربية ، بحيث يعتمد المفكرون والمبدعون الزوج إلى تفسير قواعد هذه اللغات وتلوين صفاتها ، مما ينتج لغات هجينة يتداخل في أحشائها المعجم الغربي والمعجم الزوجي .

وإذا ما تجاوزنا هذا الرأي وجدنا قرائن عدة كلها تثبت بأن المعضلة اللغوية هي من الجذرية بكان ، ولذلك كانت بالفعل مثار جدالات عميقة وصلت إلى حد التشكيك في مصداقية الحركة الزوجية بنفسها ، (إذ يتوجه الأدباء الزوج إلى جمهور ينتمي إلى حضارة سماعية ، مستخدمين كتابة يجهلها هذا الجمهور نفسه . ويبدو لأول وهلة أن الكتابة ليست هي التي كان ينبغي على الأدباء أن يستخدموها من أجل الوصول إلى جمهورهم الأمي ، وإنما الكلمة المنطوقة)^(٥١) ، وهذا يعني (أن الأدب الإفريقي في شكله المكتوب هو نتاج للحضارة الصناعية والبورجوازية ، وهو يجر خلفه فرضيات وحجج ولغة وإيديولوجيا الحضارة الثقافية الغربية)^(٥٢) . لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن (مشكلة اللغة هي أخطر مشكلة تواجه هذا الأدب)^(٥٣) ، ومادام الأمر بهذه الكيفية نتساءل : أفلتغلب على هذا الإشكال يتحتم على الكتابة الزوجية أن تكون باللغات الإفريقية

تلميع صورة الماركسية في الكتابات الزوجية . وعلى صعيد آخر أبانت دراسات بادامور ونكروما ، التي وصلت أصدائها حتماً إلى الحلقة الباريسية ، عن تقارب ما بين الطابع المشاعي والمساواتي للحياة الإفريقية والمجتمع اللافتاوي في التصور الماركسي ، ومن هنا إلحاح الزوجية على توافر تجسيدات اشتراكية في بنية المجتمعات الإفريقية التقليدية ، الأمر الذي يجعل من الاشتراكية أحد مكونات الحضارة السوداء ، ومن ثم فإن سنغور (جعل الاشتراكية الإفريقية القضية الرئيسية في كتاباته)^(٥٤) طوال فترة الخمسينات .

إلا أن المعضلة الكبرى التي انتصبت أمام دعاسة الزوجية هي معضلة اللغة^(٥٥) ، فالمفترض أن يصل الفكر والإبداع الزوجيان إلى الإنسان الأسود ، نظراً إلى أنه معني قبل غيره بهذا الفكر وبذلك الإبداع ، أي بخطاب يحمل رسالة البحث عن هوية مشتركة لعموم السود ، لكن الواقع شيء آخر ، بل مصارق ، فالمفكرون والمبدعون الزوج إما يكتبون بالفرنسية ، أو بالإنجليزية ، أو بالإسبانية ، أو بالبرتغالية . فتحن إذن بلزاء وضع انفصامي مأزوم ، إذ يتم ذم الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، كما يتم نقد الثقافة البيضاء ، وفي نفس الوقت تتم الكتابة عن هذه الأمور بلغات البيض ، وهي لغات لا يجوز ، بأي حال من الأحوال ، تنقية ذمتها من تورطها التاريخي في تدمير

(٤٩) نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٥٠) حقا إن من أهم مشكلات الزوجية كونها تتوجه بخطابها الأدبي خاصة إلى جمهور ذي ثقافة شفهية في الأصل ، وباستثناء المهمة البسيطة التي يواجهها الشعراء والروائيون الزوج الأمريكيون ، بسبب وجود جمهور قاري ، يتركز قراء الأدب الزوجي في العواصم السياسية والاقتصادية لإفريقيا والأنتيل ، في حين تبقى أغلبية المعنيين بهذا الأدب كما مهيلاً . لكن الأمية ليست وحدها المسؤولة عن هذا المأزق ، إذ هناك عوامل أخرى تحد من انتشار ما يكتبه الأدباء السود ، ومنها ضعف حركة النشر ، وإذا أخذنا الأدب القرائني كنموذج فسوف نجد بأن نسبة مهمة منه تطبع في دكاك أو في باريس .

وقد ظهرت في الأعرام الأخيرة مراكز أخرى للطبع منها : ياوندي (المطبوعات الرئيسية) ، والزائر (المطبوعات الجامعية) ، وبامكو (المطبوعات الشعبية) ، ودكاك (المطبوعات الإفريقية الجديدة) .

(٥١) لياي كيموي : (الأدب والثقافة في إفريقيا) ترجمة : الطيب الرباعي ، مجلة (الأفلام) ص ١٢ - ع ١١ تموز ١٩٧٧ ، ص ٤٦ .

(٥٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(٥٣) علي شلش : (في الأدب الإفريقي ومشكلاته) مجلة : (الأفلام) ص ١٥ - ع ١ - تشرين الثاني ١٩٨٠ ، ص ١٢٣ .

شرق إفريقيا ، وأخذ بعض الأدباء يكتبون بلغاتهم المحلية ، كما فعل توماس مافولو الذي كتب بلغة السوتو ملحمية بعنوان « شاكاسا »^(٥٦) ، وفي نفس الاتجاه (ترجم نيريري منذ أعوام يوليوس قيصر ، ويدير بالسواحلية الآن حكومة ودولة)^(٥٧) ، و هناك كتاب سنغاليون ، منهم الروائي ، والشاعر ، وكاتب مسرحيات يصدر إنتاجهم في لغتنا الست المحلية المختلفة^(٥٨) .

وعلاوة على هذا هناك إبداعات لا تحصى كتبت بـ « الولوف » ، و « البامبارا » ، و « الكيكونغو » ، و « الأيوندو » ، و « البامليك » ، و « الثولر » ... بل حتى قطب الزنوجية سنغور كتب بعض أشعاره « بالولوف » ، و « السيرير » ، وهما لغتان محليتان في السنغال ، وبالرغم من هذه الإنجازات تظل المعضلة قائمة مثلما يظل طموح تعميم هذا المسلك بهذا فن التحقيق للعوائق التي أسلفناها .

لهذا استقر سنغور وأصحابه عند الاختيار الذي لا مناص منه مرحليا ألا وهو الكتابة باللغات الغربية ، في انتظار توفر إمكانية الكتابة باللغات الإفريقية لأن (الأدب الإفريقي بمقدوره أن يزدهر باستناده إلى اللغات الإفريقية المتعددة بوصفها لغات وطنية حقة)^(٥٩) . إن سنغور على وعي بضرورة هذا الاستناد (ويتمنى فقط أن يولد إلى جانب الأدب الإفريقي المكتوب بالفرنسية أدب باللغات الزنوجية - الإفريقية ، مثلما هو الشأن بالنسبة

العديدة ، مع ما يطرحه هذا الاختيار من مصاعب جمة ؟ وحتى تتضح جسامه هذا الاختيار يجب أن نعلم ، على سبيل التذليل ، مدى اختلاف العلماء (في تقدير عدد لغات القارة ، فمنهم من أحصاها بأكثر من ٧٠٠ لغة كسيثولي ، ومنهم من أضاف إلى الرقم ١٠٠ لغة أخرى كسليجمان ، ومنهم من خفضه إلى ٥٠٠ لغة كتيل)^(٥٤) .

ثم نتساءل ثانية : كيف يجوز للنص الشعري مثلا أن يصون إبداعيته المحتومة في حالة ما إذا كتب بلغة محلية ؟؟ ألن يضطربنا إلى ترتيبه في خانة الأدب الشعبي ؟ وبالإضافة إلى هذا ألا يحق للقارئ الغربي أن يطلع على الإبداع الزنجي ؟ وفي هذه الحالة كيف نبليغ إلى فهمه شعرا مكتوبا بإحدى اللغات الإفريقية ؟ هل يجب أن يكتب هذا الإبداع باللغات الغربية والإفريقية حتى يستجيب للجمهوريين معا ؟ لكن ما جدوى الحديث ، ضمن هذه الثنائية اللغوية ، عن هوية زنوجية متماسكة ومقنعة ؟

من المحقق (أن آداب اللغات الإفريقية (الأمازيغية ، السواحلية ، المالكاشي ، والزولسو وغيرها) تمتلك إمكانيات هائلة وأفاق إبداعية واسعة المدى ، لكن تطورها في أغلبية البلدان الإفريقية يجري في ظروف المعاشة مع الأدب القومي الذي ظهر سابقا باللغات الأوروبية)^(٥٥) ، وكأمانة في هذا الصدد (حدثت محاولات مختلفة لتدوين الأدب الإفريقي ، في

(٥٤) نفسه ، ص ١٢٠ .

(٥٥) ميخائيل كودكاكتسيف : (الشعر الإفريقي دعوة إلى الإنسان) ترجمة : عقيل يحيى حسن - مجلة : (الأفلام) ص ١٥ - ٩ - حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٤ .

(٥٦) خليل شطا : (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) ، ص ٢٠ - ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٦ .

(٥٧) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ، ص ٥٦ .

(٥٨) أمادولامين سال : (حول الهوية الثقافية ومشاكلها) ترجمة : خليل فريجات ، مجلة (الكاتب العربي) ص ٢ - ٦ - ١٩٨٣ ، ص ٤٤ .

(٥٩) ميشال سليمان : (أدب يلتهم في القارة السوداء) مجلة : (الطريق) ص ١٩ - ٤ - حزيران ١٩٦٠ ، ص ١٣ .

بالشعر الزنوجي يمثل تجربة شعرية واحدة ، فهو على العكس من هذا ، إنه مجموعة تحارب أو تيارات أو مدارس . فهناك الشعر الزنوجي الإفريقي ، وهناك الشعر الزنوجي الأمريكي ، ثم هناك الشعر الزنوجي الأنثيلي ، هذا إذا ما أخذنا المعيار الجغرافي في التصنيف والتمييز ، أما إذا ما أخذنا بالمعيار اللغوي فإننا نجد أنفسنا حيال شعر مكتوب بالفرنسية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإنجليزية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإسبانية والبرتغالية ، مما يفيد وجود معيارين في التعامل مع الشعر الزنوجي وكلاهما معمول به من لدن الباحثين في هذا الشعر ، وإن كنا نلاحظ رجحان المعيار اللغوي ، لذلك نقترح التوسط بالمعيار الأخير في تناولنا هذا عملاً بما درجت عليه معظم الدراسات الزنوجية .

سوف نستهل حديثنا إذن بالشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، باعتباره الشعر الأكثر ذيوياً بالمقارنة مع ما كتب بالإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إضافة إلى أن الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية تميزوا بخصوصية إبداعية ملفتة ، كما اقترن شعرهم بولادة الحركة الزنوجية ، إذ هم المؤسسون لركائزها ، لكن قبل أن نتناول مواصفات هذه المدرسة نورد ثلاث ملاحظات :
أ - يتركز هذا الشعر في منطقتين هما إفريقيا وجزر الأنثيل (المارتينيك ، هايتي ، الغوادولوب)^(٦٥) ، وإذا كنا نلمس توازناً في الكم الإنتاجي بين شعراء إفريقيا وشعراء الأنثيل ، فإن ما نلمسه بخصوص إفريقيا يدل على تفاوت كبير بين الأقطار الإفريقية الناطقة

للغربية في إفريقيا الشمالية^(٦٦) . على أن شاعراً ينتمي إلى الجيل الموالي لجيل سنغور ، وهو الكونغولي تشيكايا أوتامسي يقدم تحليلاً منطقياً للمعضلة اللغوية ، وهو تحليل يمتاز مناحي الجدال الذي دار بين دعاة الزنوجية . فبالنسبة إليه (إن الفرنسية تغدو بذلك الأداة المثلى للتعبير عن المتخيل ، والحلم أو المعيش)^(٦٧) ، وقبل هذا (فإن أكتب بالفرنسية لم يكن بالنسبة لي ناتجاً عن اختيار داخلي)^(٦٨) ، ثم إن القضية مفتعلة في جوهرها ، فليس المهم هو اللغة الوسيطة ، وإنما المهم هو (أن أحفظ بثوري لتراجيديات أخرى)^(٦٩) ، أي لقضايا ومشاكل أكثر جوهرية . إذن سواء أخذنا بهذه الوجهة أو تلك فإن (على الكتاب الزنوج أن يدونوا أعمالهم باللغة الفرنسية وتنتشر في فرنسا ، وإلا فإن المعجبون بأعمال سيزير في جزر المارتينيك ؟ ومن الذي كان سنغور سيخاطبه في السنيغال ؟)^(٧٠) ، ونفس الشيء يصدق على من يكتبون باللغات الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إذ عليهم أن يدونوا مرحلياً أعمالهم بهذه اللغات ، وإلا فإن يُعثر على قارئهم في نيجيريا وكوبا وأنغولا ؟ هذه أهم الإشكاليات التي تمحور حولها الخطاب الزنوجي ، هذا الخطاب الذي تبلور ضمن ملابس تاريخية وثقافية شكلت السياق العام الذي أبدع داخله الشعراء الزنوج الأفرقة - الأمريكيون شعرهم ، ولنا الآن أن نسروم هذا الشعر لنستعرض أبعده وأبرز قضايا وموضوعاته .

ومقدماً نسطر توضيحاً مفاده أنه يلزم تجنب الاعتقاد

- (٦٥) (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre-in (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983 P. 31. (٦٥)
—Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) in (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 16. (٦٦)
—Michel pierre : (Ecrire envers et contro tout) in (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 17. (٦٧)
—Ibid, P. 17. (٦٨)
(٦٩) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٠٢ . (٧٠)

(٦٥) على الرغم من أن غويانا الفرنسية لا تنتمي جغرافياً إلى الأنثيل ، بحكم وقوعها في الجزء القاري من أمريكا الجنوبية ، فإننا لا نرى مانعاً في إلحاق شعرائها بالشعر الأنثيلي ، إذ أن عامل اللغة (الفرنسية) يجعل شعراءها أقرب إلى شعراء الأنثيل منهم إلى شعراء البرازيل أو الولايات المتحدة .

تختلف في شيء عما مربنا في شعر الفيتوري ، إذ نجثم دلالة الاسترقاق راسخة في جل النصوص ، وتستحوذ على مساحة وافية منها . فكلهم صوروا فصولا من مأساة العبودية التي ما انفكت ذيولها مترسبة في ذاكرة السود ، فتخيّلوا مشاهد اصطياد أسلافهم ، واقتيادهم من الصحاري والسهوب والغابات الإفريقية ، ليشحّنوا مغلولين إلى العالم الجديد ، تحملهم سفن النحاسين البيض ، وتخيّلوا أيضا مشاهد ما بعد الوصول إلى العالم الجديد ، لما كان يوزع أسلافهم على مزارع البيض المتعطرين ، وعلى مصانعهم ومراقفهم المختلفة ، فهم من صنع رفاة أمريكا ، ومن ثم لا غرابة أن يربط هؤلاء الشعراء المعجزة المادية الأمريكية بمعاناة السود وبعذابهم التاريخي الرهيب .

ومن ناحية أخرى تراوحت دلالة الاستعمار في شعرهم بنغمة من الإدانة والاحتجاج ، فأدانوا بشاعة الاستعمار واحتجوا على الممارسات الاستغلالية للبيض في إفريقيا والأنتيل ، أما دلالة الميز العنصري فإنها لم تظهر في شعرهم بنفس إلحاح الدلائل السابقتين نظرا لحفّة الميز العنصري في المستعمرات الفرنسية قياسا إلى وطائفة الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ، حقا إن هذه الدلالة ليست غائبة تماما من الشعر المكتوب بالفرنسية إلا أنها لا تحقق نفس الزخم التعبيري الذي نجدها عليه في الشعر المكتوب بالإنجليزية .

وفي موازاة هذه الدلالات نحتوا دلالات مضادة استطاعت أن تصوغ تلك الرجة التاريخية التي عرفها العالم الأسود وهو يتوخى استعادة هويته . وهكذا أصبحت دلالة الحرية ثابتا مركزيا في شعرهم ، وصارت

بالفرنسية . فالأقطار المعروفة بغزارة الإنتاج الشعري هي السينغسال ، وساحل العاج ، والكونغو ، ومدغشقر ، بينما الأقطار الموسومة بشحها وقلة شعرائها فهي غينيا ، وجزيرة موريس ، أما الأقطار التي تبدو وكأنها تعاني نوعا من العقم الشعري فهي الغابون ، وفولتا العليا ، والتشاد .

بـ لقد عرف هذا الشعر بدايته خلال الثلاثينات عبر نصوص أو مجموعات شعرية ، لكنه سيبلغ معه الزوجية (أوجه إثر صدور أنطولوجيا الشعر الزوجي والملغاشي الجديد المكتوب بالفرنسية لصاحبها سنغور عام ١٩٤٨)^(٦٦) ، والتي يمكن عدّها (إعلانا رسميا لميلاد أدب زوجي - إفريقي باللغة الفرنسية ، أدب راديكالي في مغاييرته للأدب الفرنسي ، وبالتالي إعلانا لطلاق مع أوروبا)^(٦٧) . هذه الأنطولوجيا سيكتب مقدمتها جان بول سارتر ، وإذا كنا على علم بتحرز سارتر من التقديم لأي مؤلف كان أمكننا إدراك قيمة هذه الالتفاتة من صاحب « الوجود والعدم » باعتباره أحد أعلام الثقافة الغربية . فهي تشكل ، بدون موارد ، تعمييدا للشعر الزوجي وتعاطفا مع الزوجية وضمنا لرواج الخطاب الزوجي في المحافل الثقافية الغربية والعالمية .

جـ - لقد لقي هذا الشعر قبولا وتعاطفا دالين من طرف كتاب وشعراء فرنسيين فدافعوا عنه واعتبروه تيارا أساسيا في الشعر العالمي ، ومن هؤلاء كامو ، ومونيه ، وبيروتون ، وأراغون . . .

وإذا ما حاولنا ضبط الدلالات المشتغلة في النصوص الشعرية للذين يكتبون بالفرنسية وجدناها لا تكاد

— Almut Nordmann : (La littérature Neo-africaine) P. 24.

— Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du XXe siècle) P. 133.

(٦٦)

(٦٧)

الروح الحورية ملازمة لأكثر من نص ، فتغنوا بشورين سود في هايتي كـ «توسان لوفيرتور» ، و «الملك كريستوف» ، وأشادوا بتضاللات شورين أفاقة كـ «لوموبا» و «كينياتا» . . . كما حرصوا المجموع السوداء على أن تثور على العبودية والاستعمار . أما الإنسان فإنه ارتسم في مخيلتهم كائنًا أسود ذا ملامح متجذرة في تاريخ وهوية جديرين بالاعتبار ، أي في الحقيقة الإنسانية السوداء التي حجبتها مختلف أطوار العنف التاريخي الأبيض .

هكذا مجدوا الجسد الأسود وأعادوا إليه جدارته الجمالية والأخلاقية ، فد (سنغور يؤكد دائمًا في شعره على الجمال الأسود)^(٦٨) ، وفي معظم النصوص الشعرية يلوح الجسد الرجولي كبؤرة لطاقة ذكرورية أسطورية هي مصدر قوة السود واحتمالهم ، أما الأنثى الزنوجية فقد صارت أفروديت أو عشتار ، لها نفس بهائنها وفتنتها .

لقد صاغوا الإنسان الأسود مزارعا لا يَكُل ، وصيادا يغالِب الضواري ، وعاريا فحلا ونبيلًا يحمي عشيرته ويستهل من أجلها ، أي أنهم صاغوه إنسانًا فعالًا في محيطه الطبيعي والاجتماعي ، تأخذ تموضعاته المجالية بعدا جنسيًا تمويها دالا يصب في الطقوسية الزنوجية ، فد (الحرث ، والغرس ، والأكل ، معناه ممارسة الجنس مع الطبيعة)^(٦٩) ، و (في أسطورة دوغون جعل الإله الواحد الأرض أنثى لما خلقها ، ثم تزوج بها لتوه)^(٧٠) .

وصوروا الطقوس والأعراف ، فاستحضروا الكهان والعرافات والحكاة الجوالين بالتواريخ والحكم وسير المشاهير من السود ، ونقلوا صخب الرقص الزنوجي وشعائرية الجذبة ، كما ألغوا الفواصل بين الأحياء والموتى انسجامًا مع الفلسفة الزنوجية التي لا تفرق بين الحياة والموت ، إذ يستمر حضور الموتى عبر سلالتهم ، يشعرون روحا إلهية قدسية ، (فهؤلاء الشعراء لا يميزون بين «الموتى» و «الأحياء» ، بين «الحياة» و «الوجود» . وبالنسبة إليهم فإن الموت يموت)^(٧١) .

ثم غاصوا في أغوار الماضي فابتعثوا ذكريات الدول السوداء العظمى والجماعات العرقية ذات المآثر ، فقد نقضوا الغبار عن عظمة الممالك النوبية ، وإثيوبيا القديمة ، وأضأوا صفحات من أعجاد شعوب الزولو والبابابارا ، متحدثين عن شهامتها وعن نقائنها الأخلاقية .

وعلى مستوى الفضاء جعلوا أشعارهم منطبعة بلونية الطبيعتين الإفريقية والأنتيلية ، في سحرهما البدائي ، وفي تلقائيتها البكر ، فخالطوا بين الكشافة التخيلية للنصوص وبين كثافة غابات الأبنوس ، ثم جعلوا هذه النصوص تهدر بهدير الشلالات الجبارة ، وتتشامخ بجلال الجبال المتطاولة ، وتسرّح انسراح الامتدادات الصحراوية ، حركوا في نسيجها أنهار إفريقيا والأنتيل ونصروها بأعشاب السفانا ، وملأوها بأشكال ولغات الوحوش والطيور الاستوائية . . . هذا دون أن يغفلوا امتداح تلك الحميمة التي تشد الأسود إلى فضائه ، أو

(٦٨) الدكتور محمد عبد النبي سعودي : (فضاء إفريقيا) ، ص ٢١٢ .

(٦٩)

— Jean paul Sartre : (orpee noir) in (Anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue francaise) de leopold seder Senghor, P. 31.

— Janheinz jahn : (Muntu : l'homme africain et la culture neo-africaine) P. 116.

(٧٠)

— Ibid, P. 124.

(٧١)

بل وتطعيم اللغة الفرنسية بجمالية مستقاة من مختلف أنماط الثقافة الشفوية الزنوجية ، فوظفوا الملاحم والأساطير والأغاني والحكايات الشعبية ، وزاوجوا بين الموسيقى الشعرية الغربية وإيقاعية الموسيقى الزنوجية ، كما استعملوا التكرار ، بحيث تكثر الصيغ التكرارية ، حروفاً وكلمات وتركييب ، مما يخلق مضاعفات صوتية في النصوص . ولعل ما يميز الشعر الزنجي عموماً عن الشعر الغربي (أن الأول يجب أن يغنى أو بالأحرى أن يتلى بمصاحبة الموسيقى)^(٧٢) ، وبالرغم من الدرامية المجنحة لبعض النصوص ، فإن الغنائية هي الطابع الجوهرى لأكثريتها ، وهذا يدل على استمرار نفس الروح التي طبعت الشعر الزنجي الشفوي ، وإجمالاً فإنه (شعر يتميز بالمكر والحيلة في استعمال الألفاظ والصور والأخيلة كما أن الموسيقى الإفريقية ذات الإيقاع الخاص قد أثرت في عروضه وفي أنغامه)^(٧٣) .

لكن هذه الجمالية سوف تجر مجموعة من الانتقادات والاعتراضات ، فقد نظر إليها البعض من زاوية (أنها الوسيلة الأكثر أماناً لقبركة شعر « فولكلوري » لن تستطيه سوى المحافل التي يناقش فيها « الفن الزنجي »^(٧٤) ، بينما يرى آخرون بـ (أن جمالية الزنوجة هي قبل كل شيء جمالية غرائبية)^(٧٥) .

وفيما يتعلق بالأسماء الشعرية البارزة في هذه المدرسة فهناك في الحقيقة أسماء كثيرة إلا أن أبرزها ، على الإطلاق ، اسمان هما سنغور وسيزير .

فسنغور شاعر قبل أن يكون رجل سياسة (رئيس للسينغال من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٨٠ حيث استقال

يفعلوا التعبير عن مشاعر الحنين إلى إفريقيا الحاملة والوديعة ، وهو ما جعل سارتر يشبه هذه المشاعر بتعلق « أورفيوس » « بيوريسديسي » كسما في الأسطورة الإغريقية . وإذا كانت نصوص كثيرة قد طغى عليها حس نرجسي حيال الذات السوداء وحيال فضائلها وحضارتها فعادت الأبيض وفضاءه وحضارته فإن نصوصاً أخرى قد سيطر عليها حس غيري تحول معه الموقف الاستعدادي إلى موقف إنساني انفتاحي ليس نحو الأبيض فحسب ، بل ونحو الإنسان ككل .

تلك هي المشاغل الأساسية في الشعر الزنجي المكتوب بالفرنسية ، وبذلك استطاع هذا الشعر أن يقنع بصدق انخراطه في التجربة التاريخية لعالم في طريقه إلى استرداد هويته ، ولإشارة فإن هذا الشعر بالذات هو الذي أرغم سارتر على تبديل رأيه في الشعر عموماً . فنحن نعلم بأن سارتر سبق له أن نزع عن الشعر وظيفته الإلزامية ، بدعوى أنه أحد أنماط الكتابة المجازية التي لا تسعف ، لتميمتها ، على تبيين مقصديتها الإنسانية والاجتماعية في حين يكشف الفن الروائي ، ككتابة انسيابية أو خطية ، عن التزامه بقضايا الإنسان والمجتمع ، إلا أن سارتر سيتخلص من هذا التحليل بعد أن توصل إلى أن الرؤية الأفريقية وجه من وجوه الالتزام .

وعلى المستوى الشكلي نلاحظ بأن تبعية هذا الشعر للقواعد الشكلية في الشعر الفرنسي الكلاسيكي ، والرومانسي ، والبرناسي ، والسريالي ، لم تمنع الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية من تطعيم هذه القواعد

— Almut Nordmann : (La littérature neo-africaine) P. 21.

(٧٢)

(٧٣) لويس عوض : (الثورة والأدب) ، ص ٤٥٠ .

— Michèle pierre : (Deux generations pour une littérature) in (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 29.

(٧٤)

— Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrolgues) P. 17.

(٧٥)

وأيضاً كمتناضل في سبيل قضية الزنوج بجزيرة المارتينيك أحد الأقاليم الفرنسية فيها وراء البحار . إنه بحق الضمير الحي لإخوته والصوت الناطق بآلامهم ومطالبهم ، ومن دواوينه (مذكرة عودة إلى بلدي) ١٩٣٩ ، (الأسلحة الحارقة) ١٩٤٦ ، (شمس مبتورة الجيد) ١٩٤٨ ، (أغلال) ١٩٦٠ ، (مسح) ١٩٦١ ، (أنا الرقائقي) ١٩٨٢ ، هذا عدا كتبه ومقالاته الكثيرة^(٨١).

وتدور أشعار سيزير حول معاداة الاستعمار ، والاستغلال ، وتحقير السود ، كما تصور ماضي إفريقيا وصنائع إنسانها ، وتتغنى بالأمانى التاريخية للسود في التحرر والاعتناق . فد بالنسبة إلى سيزير يجب على الشاعر أن يجد موهبة النبي الذي لا يقول ما هو كائن فقط ، بل وما يتحتم أن يكون^(٨٢) ، ويوضح انحيازه إلى جنسه قائلاً عن نفسه وعن سنغور (إننا ناطقون بالفرنسية قبلتنا الثقافة الفرنسية ، لكن الأسلحة الحارقة نريد أن نضعها في خدمة شعوبنا)^(٨٣) . لقد أدان الرأسمالية البيضاء ونظر إلى نضالية السود كجزء من الكفاح الأمم ضد الأجهزة الرأسمالية ، وبذلك فهو يلتقي مع أطروحة سارتر المعروفة في هذا الصدد ، وبموازاة ذلك أبان سيزير عن تعلقه القوي بالقيم الزوجية رابطاً إياها بالقيم الإنسانية التي يتوجب الدفاع عنها . ولا ريب أن قصيدته المطولة (مذكرة عودة إلى بلدي) هي النموذج الذي يستوفي جماع منازعه

بمحض إرادته) ، ولعله أجدر الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية بالإمارة الشعرية ، عرف عنه أنه مكثر^(٨٤) ، إذ أصدر (أغاني السظل) ١٩٤٥ ، (القرايين السوداء) ١٩٤٨ ، (أغاني من أجل نايت) ١٩٤٩ ، (إثيوبيات) ١٩٥٦ ، (ليليات) ١٩٦١ .

وشعر سنغور يمكن عده نوعاً من التكريم للذات السوداء ولتاريخها ، إلا أنه يجسد في نفس الوقت منزعا تصالحيا مع الفكر المسيحي ومع الحضارة الغربية ، بمعنى أنه غير موقعه (من معارضة وعداء شديدين إلى هدوء وتقبل تام)^(٨٥) . على أن ما يلفت في شعر الرجل هو إحساسه الكبير بالنبات وبالليل ، الأمر الذي صيرهما رمزين دالين في نصوصه ، فهو (يقرب دائما النبات بالمرأة وبترسة إفريقيا عامة في فكرة الخصوبة والإنجاب والتفتح)^(٨٦) ، مثلما (يجعل من الليل هيكل وقاعدة لأشعاره ويؤكد ذلك مجموعته الشعرية التي تعرف بـ « ليليات »)^(٨٧) . ومن حيث التقنية الشعرية يتراوح سنغور بين كلاسيكية كلوديل وسريالية سان جون بيرس ، ولو أنه أكثر إخلاصاً للكلاسيكية ، وقد عمل على استرفاد الجمالية الزوجية فتدثر شعره من جراء هذا بكثافة شفوية ملموسة أمده بها الشعر الشعبي الزنوجي .

ويقدم سيزير ، مثله مثل سنغور ، صورة للمبدع والسياسي كتقاطعين في شخصيته ، فهو معروف كشاعر

(٧٦) من كتاباته النظرية : (ماذا يحمل الإنسان الأسود) ١٩٣٩ ، (روح الحضارة أو أوليات الثقافة الزوجية - إفريقيا) ضمن مجلة (الحضور الإفريقي) يوليو ، نوفمبر ١٩٥٦ .

(٧٧) الدكتور محمد عبد القوي سعودي : (تضاي إفريقيا) ص ٢٢١ .

(٧٨) الدكتور جوزيف جودت عثمان (مأثور) سنغور وحضارة الإنسان (مجلة «عالم الفكر» المجلد الثامن ، ع ٣ ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٧٨ .

(٧٩) حسن المنيعي : (الحرقاء في الأدب الشعبي السنغالي ، «سنغور» و «ديوب» (مجلة «آفاق» من ١ ، ع ٣ ، يونيو ، أوت ، سبتمبر ١٩٦٣ ، ص ٤٦ .

(٨٠) من بين ما كتب : (تومان لوفيرتور) ١٩٦٠ ، (أراجيديات) وتكتس (الكلام) ١٩٥٦ ، (الملك كريستوف) ١٩٦٤ ، (فصل في الكونغو) ١٩٦٥ ، (عاصفة) ١٩٦٩ .

(٨١)

— Almut Nordmann : (La littérature neo-africaine) P. 18.

— (Aime césaire, Negre rebelle) in (Le monde de dimanche) No. 11463-Dimanche 6 decembre 1981, P. 1.

(٨٢)

المستمدة من التراث الملغاشي ، وخاصة جانبها الأسطوري ، وهناك شاعر ملغاشي آخر هو فيلايان رانفو ، بيد أنه لا يرقى إلى شهرة الأولين . أما غويانا الفرنسية فإنها أهدت الشاعر ليون داماس^(٨٨) الذي ارتبط اسمه بالزنجية هو وزميله سنغور وسيزير . وفضلا عن سيزير ظهرت في المارتنيك أسماء أخرى منها جيلير كراتيان ، ولؤيتين ليرو ، بينما عرفت الغوادولوب بشاعريها كي تيروليان ، ويول نيجير . ومن هائيي نذكر أسماء كل من ليون لالو ، وجاك رومان ، وجان فرانسوا بريير ، وروني بيلانص ، وجان بابتيست ، وهي الأسماء التي اختطت للشعر الهايتي ملامحه الخاصة داخل المدرسة التي تكتب بالفرنسية . فقد أرفق هؤلاء الشعراء الذاتي بالموضوعي بحيث (إذا كان الشعر الهايتي يزخر بأغاني الحب ، فإنه وقف في جانبيين أساسيين : أولهما معانقة الشاعر للوطن الأم . وثانيهما فضح التمييز العنصري)^(٨٩) ، ومن جهة ثانية فليهم واضعوا على إحياء وتوظيف الطقوس الزنجية ، كديانة القودو ، والتبشير بها كمعتقد بديل لمسيحية الأبيض .

هذه إذن نظرة عن الشعر الزنجي المكتوب بالفرنسية وعن رموز الجيل الأول ، ذلك الجيل الذي أطلق صيحة الزنجية وأرسى لها مرتكزاتها النظرية والإبداعية . وفي الستينات ستظهر أسماء من غير الأسماء التي ذكرنا ، وستشكل جيل جديد لم يعش نفس التجربة التاريخية التي عاشها الرواد ، وهذا يعني اختلاف المناظير بين

وتصوراته ، وقد (أجمع النقاد على أن هذه القصيدة رئيسية بالنسبة إلى كل الأفارقة ورأوا فيها الظاهرة الثورية لقسم من العالم الثالث وهم الزنوج)^(٩٠) .

لقد قرأ سيزير لوتريامون ، ونوفاليس ، ورامبو ، وبروتون ، وأقام لغته الشعرية على تعقيد فني متطرف ، الشيء الذي جعل شعره الأكثر شائكية مقارنة مع باقي الشعر الزنجي المكتوب بالفرنسية . فشعره يزأج ، بذكاء ، بين التقنية الشعرية والحكاية في تراثه الزنجي وبين التقنية الشعرية السريالية ، ومع (أن سيزير يرفض دائما الانتساب رسميا إلى جماعة بروتون)^(٩١) ، فإن هذا الأخير عده في تقديمه لديوان (مذكرة عودة إلى بلدي) (طبعة بورداس ١٩٤٣) أكبر شاعر سريالي أسود^(٩٢) ، إذ أن هذا الديوان هو في الحقيقة قصيدة طويلة (فيها بدأ تجربته الطويلة التي قامت على التكنيك السريالي من أجل تشكيل اللغة الفرنسية تشكيلا جديدا)^(٩٣) . وبصفة عامة يمكن أن نقول بأن شعر سيزير يتضمن (كل هائيك العناصر الموجودة في كتابات الزنوج الكاريبيين ويغمسها في مفهوم الزنجية المتفرد)^(٩٤) .

ومن غير سنغور أعطت السينغال شاعرين آخرين هما دافيد ديوب ، وبيراجو ديوب ، مثلما أعطت مدغشقر الشاعرين الكبيرين جان جوزيف رابير يقيلو ، وجاك رابينا ناجار ، اللذين بصم الشعر الزنجي المكتوب بالفرنسية بكثير من موهبتها وبكثير من الطوايع الفنية

(٨٣) أحمد الطويل : (إبي سيزير شاعر الأصالة الزنجية والحرر الإفريقي) مجلة : (الأقلام) ص ١٣ ، ع ٧ ، نيسان ١٩٧٨ ، ص ٢٣ .
(٨٤) Jerome garcin : (Aïme Césaire, le soleil du pays natal) In (les nouvelles littéraires) semaine du 25 Novembre au 1er Decembre 1981. No. 2863, P. 42.

(٨٥) وبعد مدة سيجعل بروتون هذه الإشادة مقسمة بين سيزير والشاعر الزنجي الأمريكي المعاصر تيد جونس .

(٨٦) جيرالد مور : (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة : علي شلش ، ص ٣١ .

(٨٧) نفسه ، ص ٣١ .

(٨٨) من أهم أعماله الشعرية ديوان (الأصباغ) الصادر عن دار جاليان عام ١٩٣٧ ، إلا أن السلطات الفرنسية كانت قد صادرت يدعى معادته للغرب .

(٨٩) حسن المنيعي : (نغمة من الشعر الهايتي) مجلة : (آفاق) ص ٢ ، ع ٣ ، جوي ، أوت ، سبتمبر ١٩٦٤ - ص ٤٦ .

الجيلين ، كما يعني تباعدا ملموسا بينها على مستوى مضامين وأشكال الكتابة الشعرية . لقد كان الجيل الأول مثلاً مشغولاً بالتعبير عن قضايا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، وبتمثل ثورات السود ونضالاتهم من أجل حريتهم وجدارتهم الإنسانية ، أما الجيل الثاني فإنه عايش قضايا وانشغالات طرحتها سنوات الاستقلال ، قضايا وانشغالات من قبيل البناء المجتمعي ، والصراع الطبقي ، والتقليد والحداثة . إن هذا التحول لا يدل في نظرنا على قطيعة ما ، ولكنه يشير إلى ما يمكن اعتباره إغناء وتنوعاً لموضوعات الشعر الزنجي ، ومن أبرز أسماء الجيل الثاني روني دويستر ، لامين دياكاتي ، إدوار كليسان ، تشيكايا أوتامسي ، إدوار مونيك ، (هؤلاء الشباب الذين سيأتون لإغناء الدم الجديد والفني للزنجية) (٩٠) .

أما المدرسة التي يكتب أصحابها بالإنجليزية فهي تشمل شعراء الولايات المتحدة ، وشعراء جنوب إفريقيا ، سواء الذين يكتبون بالإنجليزية أو بالأفريكانية (لغة متصدرة عن الهولندية) ، ثم شعراء المستعمرات البريطانية في إفريقيا .

ومن الأسماء الأساسية في الشعر الزنجي الأمريكي الشاعر لانغستون هيوز ، فهو الأكثر شهرة بين رفاقه الأمريكيين بما كان له من نفوذ عليهم ، (إنه أحد الكبار بين الشعراء السود ، لأنه مبدع حقاً سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد الموضوعات) (٩١) . وقد ربطته مع سنغور وداماس علاقة حميمة ، فتعرفا على تصورات تيار « اليقظة الزنجية » الذي أسهنا القول فيه سابقاً .

وإلى جانب لانغستون هيوز نجد الشاعر كونتي كولن الذي يعد الأكثر تعلقاً بإفريقيا قياساً إلى الشعراء الزنوج الأمريكيين ، ثم هناك الشاعران ستيو لنغ براون ، وجيمس ويلدرون . إن الشعر الزنجي الأمريكي لا يكاد يختلف دلالياً في شيء عن نظيره المكتسوب بالفرنسية ، ما عدا في تركيزه على دلالات الاسترقاق والميز العنصري ، بالنظر إلى خصوصية الوضع الزنجي في الولايات المتحدة ، ولعل هذه الخصوصية هي التي جعلت (أهم الموضوعات التي يتعرض لها الشعراء الزنوج هي فقدان الحرية ، وعار الرق ، والجوع ، ومحاولات الثورة ، وبؤس الرقيق ، وعجز العهد الشائر ، والكفاح من أجل تحرير العبيد ، وهي موضوعات جوهرها سياسي (٩٢) . فالذاكرة السوداء الأمريكية لا يمكنها أن تنسى عذابات العبيد في الجنوب الأمريكي ، ومذلة الأحياء الهامشية في نيويورك وشيكاغو ، أو منع لوسي الطالبة الزنجية عن الالتحاق بجامعة ألاباما ، ومقتل القس الزنجي مارتين لوثر كينغ ، الذي تزعم حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للزنوج الأمريكيين . ولذلك سيطرت على الشعر الزنجي الأمريكي دلالات الاسترقاق والميز العنصري ، كما امتلأ هذا الشعر بإدانة الشعراء الزنوج الأمريكيين لهاتين الممارستين من حيث كونها تعبيراً عن أخلاقية همجية وتدميرية ، على أنهم لم يصلوا ، رغم الجروح والمهانات ، إلى حد الحق على البيض ، (بل لقد بلغ بعضهم الإنصاف درجة الاعتراف بما للجنس الأبيض من فضل عليهم) (٩٣) . لكنهم جنحوا في المقابل إلى

(٩٠) — Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poésie negro-africaine) in

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - ع الثاني والثالث لسنتي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، ص ٤٧٣ .

(٩١) — Lylian Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du

XXe siècle) PP 21-22.

(٩٢) — لويس عوض : (الثورة والأدب) ص ٤٥٤ .

السود قصائد ، وأن كل الناس السود إفريقيون ، وأن القصيدة المطلقة هي التجلي الأدبي لإفريقيا وشعوبها اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا وروحيا (٩٥).

وكالشعر الزنوجي الأمريكي يواجهنا الشعر الزنوجي في جنوب إفريقيا بلهجة الإدانة للميز العنصري ، لأننا لما نذكر جنوب إفريقيا فإننا نذكر إحدى قلاع البربرية المتبقية من عهود الظلام ، فضراوة حياة السود هناك تفوق كل التصورات الممكنة ، بحيث يحرمون ، وهم الأغلبية ، من حقوقهم الإنسانية ، ويمنعون ، وهم في وطنهم ، من حق الانتقال والتجول وإلى جانب هذا العامل المشترك ، نسيا ، بين الواقعيين الأمريكي والجنوب إفريقي ، هناك عامل الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية في واجهتها الانقصامية ، أي في مستواها التكنولوجي المتقدم ومنظورها التحقيري للإنسان المغاير ، ففي الولايات المتحدة أمكن لشعرائها الزنوج أن يعاينوا ما تعنيه الحضارة البيضاء ، كما استطاعوا استيعاب آلتها التدميرية عن قرب ، (وفي دولة متطورة صناعيا كجمهورية إفريقيا الجنوبية تركت عمليات التمددين المكثفة آثارها العميقة على الإدراك السياسي للأفارقة وهذا بالتالي حدد خواص التفكير الفني حيث تضافرت وتفاعلت بشكل متبادل المشكلة الإفريقية النموذجية مع وسائل كشفها الآتية من حضارة أخرى) (٩٦).

وهكذا تمحورت كل الأعمال الشعرية الزنوجية في جنوب إفريقيا ، المكتوبة بالإنجليزية والانريكانية ، حول الميز العنصري ومعاناة السود لمضاعفاته الجسدية

الإعلاء من قدر الذات السوداء ، فتساموا بوسامة الجسد الأسود ، وامتدحوا الشعر المعقد والمنفوش . ومن زاوية الشكل تركوا علامات إرثهم الزنوجي منتصبة في بنية اللغة الإنجليزية ، بحيث عملوا على تعنيفها بل تزنيجها بما امتدحوه من الأهازيج والمأثورات الزنوجية ، وبما اقترضوه من موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم ، الشيء الذي أعطى شعرهم مذاقا شائعا بين المدارس الشعرية الزنوجية . (إن شعر الزنوجية ينشر الفرح ولقد قال لوركا « إن زنوج أمريكا يمثلون هناك أكبر حساسية ودقة لأنهم يأملون ، لأنهم يغنون وكان بإمكانه أن يختصر وهو أمير الشعراء » إن الزنوج بعاطفتهم وحساستهم هم اللذة الشعاعية لأمريكا) (٩٧).

هذا وأعقب جيل « البقطة الزنوجية » جيل جديد ، كالذي حدث في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وقد ساق هذا الجيل تطور مشاغل وهموم السود في الولايات المتحدة ، فانتقل الشعر من مسامرة شعار الحقوق المدنية إلى التعبير عن تحسس الجماعة السوداء والهوية المفارقة ، أي من مرحلة الشعور بالانتماء إلى المجتمع الأمريكي إلى مرحلة الانتماء إلى الكنيسة السوداء ، ومن بين ممثلي هذا الجيل راب براون ، كارل كارتر ، جاي رايت ، لاري نيل ، ماري إيفانز .

وعلى أي ، ومهما يكن من تباين بين الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية ونظرائهم الأمريكيين فإنهم يلتقون على أكثر من صعيد ، مادام (الشيء الذي يربط بين هؤلاء الشعراء هو ذلك الوعي المذهل بأن الناس

(٩٣) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنوجي) مجلة : (الثقافة للفرية) ع ٦ - ١٩٧٢ ، ص ٤٥ .

(٩٤) أمين تبالغ : (الثقافة والشعر الزنوجي الإفريقي عناصر بقاء حضارتنا) (الثقافة الإفريقية) ، ص ٣٥٨ .

(٩٥) أحمد مرسي : (مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي) ص ٥٧ .

(٩٦) د . أنشور بومين : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة ، وإيد قارصلي - مجلة (الآداب الأجنبية) ص ١١ ، العددان ٣٨ - ٣٩ ، شتاء وربيع ١٩٨٤ .

والنفسية ، كما تمحورت أيضا حول معاداة الحضارة البيضاء وأخلاقيتها التدميرية ، وفي نفس الوقت طفحت هذه الأعمال بتطلعات السود إلى بناء جنوب إفريقيا متحررة من ربقة الميز والتهميش . وإذا علمنا مقدار القمع الذي يتعرض له الشعراء من قبل السلطات البيضاء أمكننا تقدير الوضعية الحفافة التي يكتب داخلها هؤلاء ، بحيث غالبا ما يكونون عرضة لساعات أو النفي أو الإعدام^(٩٧)، ويعتبر الشعراء دنيس بروثوس ، ومازي سي كونيبي ، وكوسموبيترس ، وبريتن بريتنباك^(٩٨) أهم وجوه الشعر الزنوجي بجنوب إفريقيا .

أما من نيجيريا فيمكن أن نذكر مجموعة من الشعراء منهم دنيس أوسادباي ، وغابرييل أوكارا ، وجون بيير كلارك ، وجوزيف كاريوكي ، ومن غانا نذكر الشاعرين ميكائيل ديانانج ، وكاير منسا . وبالطبع فإن ما يصدق على الشعر الزنوجي الأمريكي وعلى الشعر الزنوجي الجنوب إفريقي يصدق كذلك على ما أبدعه الشعراء الزنوج النيجيريون والغانيون بشرط احتسابنا للحجيات الخاصة بكل تجربة شعرية قطرية .

وفيا يتعلق بالشعر الزنوجي المكتوب بالإسبانية والبرتغالية فإنه يتمثل في النصوص الشعرية المنسوبة إلى الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي المستعمرات البرتغالية بإفريقيا (أنغولا ، الموزمبيق ، غينيا بيساو) . وتندمج هذه المدرسة في أخرى في نفس الإطار العام للشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي سواء من الناحية الشكلية ، أو من الناحية الدلالية ، ولا يبعدها عن هذا الإطار سوى ما تعلق بالاعتبارات القطرية ، وبمقتضيات الأداة اللغوية . فلقد عرفت كوبا ، كجزر الأنثيل

الأخرى ، استقدام جماعات من السود سخرت للعمل الشاق في مزارع قصب السكر التي تمتلكها الكمبرادورية الإسبانية ، وظل الاسترقاق قائما بكوبا إلى نهاية القرن الماضي . فانشحت نفسية الزنوج الكوبيين بمرارات وجدت تجسدها التعبيري في نصوص الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي مقدمتهم الشاعر جوزيه زاكارياس طاليت والشاعر نيكولا كين . وبخصوص هذا الأخير فقد عرفت عنه ميوله الشيوعية بالرغم من انتمائه إلى وسط بورجوازي ، وفي الوقت الذي انجرت فيه البورجوازية السوداء الكوبية إلى التقليد البئس لنموذج الحياة الغربية رجع كين إلى جذوره السوداء . ويدور شعره حول تصوير ظلامية عهد الاسترقاق ، وحول محن السود وآلامهم ، وحول شقاوتهم في مزارع قصب السكر ، كما يكشف شعره عن تمزق قاس للهوية ، إذ يجعلنا نشعر بالبعد الاستيعاري لهوية زنوج كوبا الذين انتزعوا من تاريخهم وثقافتهم الحقيقيين وأقمحوهم في مناخ تخريبي ، ومن الزاوية الشكلية صُمّن كين نصوصه كثيرا من الأخيلة الزنوجية ، وطبع بأسلوبه الشخصي اللغة الشعرية الإسبانية ، إلا أن الشعرية الكبيرة لكين لم تعثر على من يطورها ويغنيها ، بالنظر إلى ندرة الشعراء الزنوج الكوبيين المبدعين باللغة الإسبانية .

وعلى العكس من هذه الندرة استطاعت اللغة البرتغالية أن تفرز عددا كبيرا من الشعراء الزنوج ، ممن أصبح لهم صيت داخل الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، ومن البديهي أن نستحضر في هذا المجال اسم الشاعرين الأنغوليين ، الرئيس الأنغولي الراحل أغوستينونيتو ، وأنطونيو جاستو ، والشعراء الموزمبيقيين المعروفين كالرئيس الموزمبيقي الراحل سامورا مانجيل ،

(٩٧) نقلت إلى مقال الشاعر بيتامين مولوزي الذي أهدمته سلطات بريوريا يوم ١٨ أكتوبر ١٩٨٥ .

(٩٨) حكّم هذا الشاعر بضع سنوات سجنًا بسبب أشعاره ، وله ديوان (النار الباردة) الذي يعد من أبهى ما كتب في الشعر الزنوجي الجنوب إفريقي .

لم تنحصر إذن في الحقل الشعري ، بل كان لها حضور وكانت لها تجليات في حقول أخرى كالرواية ، والقصة القصيرة ، والمقالة ، والكتابة النظرية ، والمسرح ، والنحت ، والموسيقى والسبنا . . . وإذا أخذنا الكتابة الروائية فسنلاحظ بأنها خلفت الهيمنة التي كانت للشعر على امتداد الثلاثينات والأربعينات والخمسينات ، وابتداء من الستينات سيصبح للروائيين الزوج نفس النفوذ الذي كان للشعراء فيما قبل ، وبذلك صارت الرواية الزنوجية الحقل الأدبي الأكثر تمثيلاً للخطاب الزنوجي ، والواقع أن الأسماء أكثر من أن تحصر ، ولذلك يمكن الاقتصاد على بعضها على سبيل التلخيص^(٩٩) . فمن الروائيين السنغاليين نذكر عبدولاي سادجي ، وسمين عثمان ، والشيخ حاميدو كَانْ ، ونذكر من ساحل العاج برنار دادبي ، ومن الكونغو جان مالونغا ، ومن غينيا كامارا لاي ، ومن مالي سيدو باديان كويات ، ومن الداهومي أولب هيلي ، ومن جنوب إفريقيا بيتير أبراهامز ، وهوت شينستون . أما الروائيون المارتينيكيون فمهم جوزيف زوبيل ، وإدوار كليسان ، ومن الهايتيين جاك ستيفن أليكسي ، ونيف من غويانا الفرنسية الروائي الكبير روني ماران الذي حصل على جائزة كونكور الأدبية عام ١٩٢١ إثر صدور روايته (باتوالا) ، وقد بررت اللجنة منحه الجائزة بكونه أول روائي زنجي يتمكن من إنجاز رواية تعكس بوفاء الروح الزنوجية . وبخصوص الرواية الأمريكية نستعرض أسماء كل من شاستيرهايمز ، وريشارد رايت ، وجيمس بالدوين الذي تتميز أعماله بكتابة عنيفة متأججة ، أسلوبيا ومضمونيا ، ومنها رواية (النار في المرة القادمة) .

وفالينتا جانغالانا ، ونعيمة ديسوزا ، ومارسيلينو دوس سانتوس ، بينما اشتهر من شعراء جزر الرأس الأخضر الشاعر أونيسيمو سيلفيرا .

ومن خلال قراءتنا لنصوص شعراء المستعمرات البرتغالية نلمس مدى الأولوية التي أعطتها هؤلاء للمسألة التحريرية ، مما جعل شعرهم أقرب ما يكون إلى الشعر السياسي بمعناه النقدي ، ولعل هذا التميز راجع إلى تأخر استقلال بلدانهم بالنسبة إلى الأقطار الإفريقية الأخرى ، هذا إضافة إلى أن بلدانهم حصلت على حريتها توسلا بالكفاح المسلح ، بخلاف دول كالسنيغال وساحل العاج إذ حققنا استقلالها سلميا . وإذن كان لابد أن يجد العنف الثوري صدهاء الطبيعي في نصوص شعراء المستعمرات البرتغالية وأن يقتصر الإبداع بالأيديولوجي في هذه النصوص ، وفي شخصية بعض الشعراء (مثال الرئيس أغوستينونيتو وسامورا ماخيل) ، وبالتالي فد (ليس من باب الصدف أن تصبح قصائد أغستينونيتو « نحن عائدون » و « البناء » أغاني حربية لفصائل تحرير أنغولا)^(١٠٠) . لكن خارج دلالات الحرية والثورة التزم شعراء هذه المدرسة بتصوير بؤس السود ، وفضح آلية الاضطهاد الأبيض ، كما استعادوا ذكريات العبودية ، وإن كان الموزمبيقيون قد ركزوا أكثر على تصوير الطبيعة الخلابة لوطنهم ، وعلى معاناة المهاجرين من أبناء بلدهم إلى جنوب إفريقيا ، حيث يعملون في مناجم الذهب في ظروف لا إنسانية ، ملؤها الاستغلال والعنصرية .

إن الزنوجة كخطاب فكري شمولي كان لابد وأن تمتد آثارها إلى فعاليات ثقافية أخرى ، وأن تستحكم في بنيتها الشكلية والدلالية وفي بنيتها الرؤيوية . فالزنوجة

(٩٩) ميخائيل كود كانيسيف : (الشعر الإفريقي دمه إلى الإنسان) ترجمة : عقيل يحيى حسن - مجلة (الأقلام) ، ص ١٥ - ٩ ع - حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٨ .
(١٠٠) معظم هؤلاء الروائيين يمارس كتابة القصة القصيرة أيضاً .

الأشكال ما قبل المسرحية في تراثهم كـ « اليايك » وغنائيات « مفت » و « ساتيريات » اليوروبا والزولو وامبونجي ، وبموازاة ذلك استثمروا طقوسية القناع والرقص والإيقاع ، وجعلوا الجمهور مندجاً في الفعل المسرحي . ومن المسرحيين الزنوج المعاصرين الكاتب الجنوب إفريقي أثول فوغارد ، صاحب مسرحية (عقدة الدم) التي تعالج إشكالية الهوية في مجتمعه ، والكاتبة الغانية إيفواتيودورا سوثرلند ، صاحبة المسرحيتين (أنانس غورو) و (سوف تؤدي اليمسين) ، وهما عملاقان ينمان عن ثقافة أسطورية واسعة مؤلفتهما ، ثم الكاتب النيجيري وول سوينكا الذي ألف مسرحيات مغرقة في زنوجيتها ، ومنها (النسل القوي) و (سكان المستنقع) ، هذا دون أن ننسى إيمي سيزير في مسرحياته (مأساة الملك كريستوف) و (فصل في الكونغو) و (عاصفة) ، والمسرحي العاجي برنار دادي صاحب مسرحية (أسيميان دوثيل) .

ورغبنا من أن السينما الإفريقية فتية كسينا العالم الثالث فقد حاول السينمائيون الأفارقة وضعها في نفس الإطار الفكري والإبداعي الذي أطرت به الزنوجة مختلف الفعاليات الثقافية في العالم الأسود . فعلا إن السينما نتاج للحضارة البيضاء ، بيد أن هذه الحقيقة لم تعق توظيف تقنياتها وجمالياتها بغاية تأسيس خطاب سينمائي زنوجي يوثق ويستقرئ الواقع الأسود ، في قضايا وتحولاته وأسئلته ، لذا نحول مهرجان « أوغادوغو » السينمائي ، الذي ينعقد موسمياً ببوركينا فاسو إلى فرصة للوقوف على إنجازات السينما الإفريقية ، وعلى مدى قدرتها التعبيرية عن نفس المشاغل الوجودية التي تضغط بثقلها على الشعراء والروائيين والمسرحيين الزنوج ، وإذا كان لنا أن نعين بعض أسماء السينما الإفريقية فلنذكر السينمائي سمبين

وفي مجال المقالة والكتابة النظرية ، سبق أن أثبتنا بعض أعمال ستغور وسيزير ، إلا أننا نضيف أسماء أخرى كالزورخ السنيغالي أتاديوب صاحب أكثر من مقال وكتاب حول التاريخ والحضارة الإفريقيين ، وكذلك الكاتب النيجيري أموس توتسولا ، والكاتب والسياسي الكيني جوموكينياتا الذي ألف كتاب (عند سفح جبل كينيا) ، الذي نشرت دارماسيرو ترجمته الفرنسية ، وقد ساهم هذا الكتاب في تأسيس وعي زنوجي في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، نظراً لما تضمنته من تحليل لمسألة الاستعمار وليمكانيزم البنية القبلية في إفريقيا . وعلى غرار جوموكينياتا انشغل الرئيس الغاني الراحل قوامي نكروما بالقضايا الإفريقية ، فألف كتاباً عديدة منها (الوعوية) و (يجب على إفريقيا أن تتوحد) . على أن ألمع الكتاب الزنوج قاطبة هو المارتينيكي فرانز فانون ، ومن المعروف أنه بدأ حياته العملية كطبيب نفسي ثم انتقل من المارتينيك إلى الجزائر كطبيب متطوع في جبهة التحرير الجزائرية قبل الاستقلال ، وبعد هذه المرحلة عمل مستشاراً للزعيم الكونغولي الراحل باتريس لومومبا . ومن مؤلفاته المعروفة (جلد أسود ، أفتحة بيضاء) الذي حلل فيه أصناف المركبات النفسية لدى زنوج المارتينيك كالانفصام والعصاب ، و (المذبذبون في الأرض) الذي تناول فيه قضايا الاستعمار والثقافة والهوية في العالم الأسود وفي العالم الثالث عموماً .

وفي نفس السياق عمل المسرحيون الزنوج على أن يكون مسرحهم من صميم الثقافة الزنوجية ، أولاً عن طريق كتابة نصوص تنصب على موضوعات لها علاقة ببيتهم ، وثانياً عن طريق الاستناد على ما تتيحه هذه الثقافة من تقنيات وطرائق فرجوية ، ومن هنا استلهموا تقنية الراوي في الأدب الشعبي الإفريقي ، كما وظفوا

المذكور من أفكار وإبداعات وبالتالي مناسبات لإلفات العالم إلى الصوت الزنوجي ، إلى صوت هوية تمارس احتفالها الثقافي . كذا تركزت الأنظار على دأكار عام ١٩٦٦ وهي تحتضن المهرجان الأول للثقافة السوداء ، وعلى الجزائر عام ١٩٦٩ وهي تؤم المهرجان الثاني ، وعلى لاجوس عام ١٩٧٧ وهي تستقبل المهرجان الثالث ، وعوازة هذه الملتقيات انعقدت ملتقيات أخرى خاصة بالأدباء الأفارقة ، كملتقى باريس عام ١٩٥٦ وملتقى روما ١٩٥٩ .

وككل حركة فكرية وإبداعية مستجدة وطلعية لم يكن في وسع الزنوجة أن تمر في صمت ، وأن تضمن موقعها بين الحركات الفكرية العالمية دون إثارة ردود فعل مواكبة تتوزع بين التحمس لمبادئها وبين الاعتراض على هذه المبادئ تأسيساً على منطلقات وقناعات معينة ، لذلك نرى من المجدي التعرض لردود الفعل التي اعترضت على الزنوجة ورفضت تصوراتها المختلفة .

طبعاً (لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الهام الذي قامت به « الزنوجة » كحركة أدبية منذ الثلاثينات الأولى من هذا القرن لتحقيق الذات الإفريقية ، والتعبير عن إرادة الوحدة لدى الزنوج)^(١٠١) ، على أن تحليلها لإشكاليات العالم الأسود أنتج أطروحات مضادة حاولت أن تجد في الكتابات النظرية لسنغور التي تبتتها الحلقة الباريسية وقطاع عريض من المثقفين السود ثغرات بغاية الكشف عن تناقضات الخطاب الزنوجي وتفككه بل وميتافيزيقيته ! فسنگور يرى مثلاً (بأنه يصعب تصور كاتب زنوجي - إفريقي قد تساوره فكرة تجاهل الزنوجة أو التخلي عنها ، إذ ما قولنا في كاتب فرنسي قد يتخذ نفس الموقف من فرنسيته ؟ وفي كاتب إسباني أو أمريكي

عثمان ، والمالي سليمان سيسي ، والنيجيري عمرو كندا ، والكاميروني ديكونغي بيبا .

وانخرطت الموسيقى الزنوجية هي الأخرى في ذات الهم الثقافي الشمولي ، فعكف الفنانون السود على صياغة أصوات وإيقاعات تعكس ثلاثة تلك الموسيقى وصميميتها ، كما تعكس خلفيتها الطقوسية ، وملازمتها للسلوك اليومي في حياة الأسود ، ومن هنا جاءت فريدة الإبداع الموسيقي الزنوجي واحتكاره للذوق العالمي . لقد ألمحنا فيما سلف إلى موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم والريكي ، لكن علينا أن نلمح إلى بعض مشاهير هذه الموسيقى كمجموعة توري كوندا السينغالية ، والمغنية الجنوب إفريقية مريام ماكيبا ، والفنانين الزنوج الأمريكيين من أمثال جوناه جونز ، ولويس أرمسترونغ ، وراي براون ، ونياناسيمون .

وإذا كان هذا شأن الحقول الثقافية التي مرت بنا فيكينا ، فيما يخص النحت ، أن نشير إلى أن أصالة ما يبدهه النحاتون الزنوج هي التي أتاحت ، مثلاً ، لمنحوتات النحات الملاوي وآزي بأن تنصدر أروقة متحف الفن الحديث في نيويورك .

إن الزنوجة كحركة فكرية وإبداعية لم تكن لتكتفي بالإعلان عن نفسها عبر المكتوب النظري أو عبر الفعل الثقافي ، بل إنها سنت لنفسها تقاليد ، وخلقت قنوات ووسائل ما كان لها إلا أن تُرسَم شرعيتها وأن تجذر حضورها كميثاق يجمع بين مثقفي العالم الأسود .

وهكذا ارتبطت الزنوجة بالمواسم الثقافية وبالمهرجانات والملتقيات التي كانت مناسبات للتداول في شؤون العالم الأسود ، واستعراض ما يزخر به العالم

(٢٠١) حسن المنيعي : (نداه : نعيمة دي سوزا) (العلم الأسبوعي) س ٤ - ع ١٤٩ - الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ ، ص ٣ .

- لاتيبي بيلزاه إسبانيته ؟ لا شك أنكم ستزدرونه ؟؟ (١٠٢).

هذا الطرح ربما تبدى تعميميا ومطلقيا ، لأنه يقفز على مجموعة عناصر ومعطيات تجعل من الخطاب الزنوجي خطابا نسبيا لا يحوز إمكانية انسحابه على كافة الزوج . إن الزنوجة برأي المعارضين عليها قد ارتكبت أحد أخطائها الكبرى عندما تعاملت مع العالم الأسود ككتلة متجانسة لا تشوبها فوارق أو اختلافات ، بينما واقع الأمور يؤيد لا تجانس العالم الأسود ، فحقائق الجغرافيا والتاريخ والثقافة تتضمن تباعدات ، جوهرية أحيانا ، بين أجزاء هذا العالم ، وإذن فهو عالم متمايز بقي أكثر منه علما معيشا ولمموسا ، إذ (لا وجود لروح جوهرية سوداء . نعم إن العالم الأسود يبدي خصائص أصيلة جد ناشئة عن تاريخه وعن محيطه . إن العالم الأسود ينبع من الواقع أكثر من القياس والأخلاق ولا من الميتافيزيقا) (١٠٣).

فهل الخصائص التي تخص الأسود الذي يعيش في مجتمع متقدم تكنولوجيا كالولايات المتحدة فتشرب كيانه بفضاءات إيديولوجيا الاسترقاق والميز العنصري ، هذه الخصائص هل هي نفس ما ينطبق على الأسود الأنغولي الذي يعيش في مجتمع متخلف ، لكنه استطاع أن يخرج عمقيا ما يعنيه الاستعمار ، هل الأسود الكوبي أو المارتينيكي هو عين الأسود السنغالي أو الملغاشي ؟ إن الزنوجة (تجعل من الزوج كائنات متماثلة في أي مكان وأي زمان) (١٠٤)، وهي بذلك تغض الطرف عن فوارق واختلافات ، تلبس بأكثر من صعيد ، بين سود

إفريقيا وسود الشتات من جهة ، وحتى فيما بين السود الأفارقة ، وفيما بين سود الشتات من جهة أخرى .

أما بصدد الأطروحة السنغورية حول الانفتاح على الغرب وإنشاء حضارة ثنائية (سوداء - بيضاء) ، فإن المعارضين على الزنوجة يرون في هذه الأطروحة دليلا على انفصام ثقافي محقق ، بحيث كيف تتكلم الزنوجة عن أصالة العالم الأسود كبديل لشروط المجتمع الغربي وتسمى في نفس الوقت إلى عقد صفقة حضارية مع البيض ، وخلق تعاقد مستحيل مع قيمهم المادية ، ومن ثم فإن (حلم سنغور في تشكيل ثقافة إفريقية لائتينية مثلا لا يعبر إلا عن الواقع الملموس للتبعية السياسية والاقتصادية والمفروض حسب تعبير « فانون » هو « طلاق » الغرب) (١٠٥).

فهذا الانفتاح إن هو إلا غطاء لتعالتق تبعي مع الغرب قد تكون له عواقب أوخم حتى من الاستعمار الكلاسيكي . إن الفائدة التي ستجنيها الحضارة الغربية ستكون أكثر من فائدة الحضارة السوداء ، بفعل الطابع الهيمني للأولى ، ولهذا يبدو أن الزنوجة قد انجزت إلى نوع من التمرکز الغريب في جاذبية النموذج الحضاري الغربي دوماً وعي لتتأجج هذا التمرکز ، ومعنى هذا أننا حين نجردها من لونيته السوداء تظهر قريبة من الصُّرَعَات الفكرية التوفيقية ، لأنها ضمن هذا الموقف الانفتاحي ، تترأى مجرد خطاب إنساني مضيق سرعان ما تنكشف توفيقيته المهزورة لما تتبين تنابذ الروحية الزنوجية مع المادية الغربية .

(١٠٢) — (pour la negritude) propos recueillis par Michel pierre-in (Magazine littéraire) No. 195 Mai 1983-P. 31.

(١٠٣) جوزيف، كيرزا ديو : (مواقف واقتراحات لثقافة إفريقية حديثة) (الثقافة الإفريقية) ص ٤٠٨ .

(١٠٤) — Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrolgues) P. 45.

(١٠٥) من مداخلة عبد اللطيف المحي ضمن ندوة (الفكر في القرن العشرين) التي نظمها اتحاد كتاب المغرب - (العلم الأسبوعي) ص ٢ - ع ٥٨ - الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ ، ص ٨ .

الآوساط الثقافية الغربية منهم إلى ملايين السود المعنيين بخطابهم الفكري والإبداعي لأنهم قبل أي شيء نتاج للمشروع التنخبي الثقافي للاستعمار ، فد المثقف الإفريقي المتكون في باريس أو لندن ينتمي - بعض الأحيان - إلى وسطه الثقافي بروابط خفية أكثر منه إلى مسقط رأسه (١٠٧)، وماداموا يمثلون الشريحة المتتورة من البورجوازية الصغرى السوداء ، التي أفرزها السلسل الاستعماري ، فإن النتيجة هي أن يتوزع ولاؤهم الإيديولوجي والفكري بين الغرب وبين العالم الأسود ، وحين كان المزارعون السود في إفريقيا والأنتيل يقاسون شظف العيش ووطأة الاستغلال في حقول الموز وقصب السكر (لم يكن هؤلاء الطلبة في السينغال أو في فولتا العليا ، لم يكونوا في فورفرانس ، وإنما كانوا في باريس ، على ضفاف السين) (١٠٨).

تلك إذن أهم الاعتراضات التي وجهت بها الزنوجة ، أما إذا ودنا تحديد الجهة التي كانت أكثر مناهضة لمبادئها ، فإنها مثقفو إفريقيا الناطقة بالإنجليزية الذين كانوا (يرون فيها دعوة للرجوع إلى الوراء لا دعوة للبعث) (١٠٩)، لكن قبل بسط مرتكزات هذا الموقف يجدر بنا أن نشير مسبقا إلى أن أفكار سنغور لم تصل بسرعة إلى أولئك المثقفين بسبب العائق اللغوي ، وإذا أضفنا ازدياد الناطقين بالإنجليزية عموما لكل ما يتصل بالثقافة الفرنسية ، اتضح لنا الملابسات التي رافقت المناهضة المتحدث عنها . فهذان العاملان وقفا حائلا بين سنغور وبين (تغلغل آرائه عن الشخصية الإفريقية في إفريقيا البريطانية . ولم تصبح تعاليم سنغور مألوفة

فهل يجوز ، والحالة هذه ، الإبقاء على البعد التحرري للحركة الزنوجية ، من حيث كونها حركة استهدفت تخليص العالم الأسود من مختلف أغماط تبعيته للغرب ؟ هنا يتكفل بالإجابة أحد المعترضين وهو الشاعر الكونغولي تشيكايا أوتامسي فيقول (كثيرا ما وضع علي السؤال التالي : « هل ترون بأن كتاب الزنوجة قد ساهموا في تحرر إفريقيا ؟ » وإذ يفاجئني هذا السؤال أجيب : « من المحقق أنهم أخفقوا لأن تحرر إفريقيا تم بشكل سيء » (١١٠).

لكن إذا كان البعض قد انتقد في الزنوجة موقفها الانفتاحي ، فإن آخرين قد ركزوا على الوجه الآخر من الزنوجة ، على مناداتها بالخصوصية والأصالة ، فاعتبروا هذه المناداة شوفينية صريحة تتنافى مع واقع القرن العشرين ، بل إن الزنوجة قد انحرفت عن الخط الذي كان عليها أن تتبعه ، وذلك عندما تحولت من مستوى رد الفعل المشروع تجاه إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، إلى مستوى الموقف العصبي المتطرف ، ومن الذين أخذوا عليها هذا الموقف الشاعر الملغاشي جاك رابيسا نانجارا ، بحيث رفض ذلك الاقتران الميكانيكي بين الزنوجة واللون الأسود ، لأن الشرط اللوني قد يفضي إلى قطيعة مع المجموعات الإنسانية الأخرى .

وإضافة إلى ما سطرناه من اعتراضات ينطرح اعتراض آخر يمس هذه المرة الطابع النخبوي والثقافي للحركة الزنوجية ، فسنگور وسيزير وداماس أقرب إلى

— (Tchicaya U Tam'si) propos recueillis par Denyse de saivre-in (Recherche, pedagogie et culture) paris AV-Juin (١٠٦) 1982, P. 25.

— Stanislas Adotaevi : (Negritude et Negrologues) P. 18.

(١٠٧) مالك بن نبي : (حول الثقافة) (الثقافة الإفريقية) ص ٣٩٧ .

(١٠٨)

(١٠٩) الدكتور محمد عبد الغني سعودي . (قضايا إفريقية) ص ٢٢٤

التقدمية ، أظهروا بشكل محدود عدم تأييدهم « للتعصب الزنجي » الذي يعزل الكتاب السود عن بقية العالم^(١١١)، على أن الكثير في موقف حزقيال مفايل من الزنجية هو أنه (رفضها في زمان كانت الزنجية تيارا يخيف من لا يسبح معه)^(١١٢).

أما من نيجيريا فقد عارضها كل من الشاعر دنييس أوسادباي والكاتب المسرحي وول سوينكا ، إذ رفضا في الزنوجة ، كأغلب الناطقين بالإنجليزية ، انشدادها إلى (رؤى غزلية للمجتمعات ما قبل الاستعمارية . بينما هما يفضلان نظرة أكثر موضوعية ، وأكثر صفاء ، وأكثر بساطة إلى ذلك الماضي)^(١١٣)، وفي هذا الإطار نظم أوسادباي قصائد تقترح في النزوع الماضوي للزنوجة ، وتستهمجن نظرتها الأنثروبولوجية إلى ماضي السود ، ومن ذلك قوله :

فلنطرح بعيدا تلك التقاليد ولا نبق عليها
حتى لا نكون خير أطروفة
تلائم ذوق مؤرخ أبيض^(١١٤).

وفي المقابل يقول وول سوينكا (لا أظن أن النمر يتجول معلنا غموره)^(١١٥) وهو يقصد أن الزنوجة ، كذات وروح وممارسة ورؤية ، ليست بحاجة إلى من يُنظر لها ، ويُقعد لتجسيدها ، لأنها ببساطة معطى قائم في العالم الأسود ، وبالتالي فلا معنى لإثارة كل ذلك الضجيج النظري الذي أحدثته الحركة الزنوجية .

لدى الدول الناطقة باللغة الإنجليزية إلا الآن فقط ، بعد تنويه سيكوتوري المتكرر بأهمية الإفريقي كإنسان^(١١٦)، ويتصدر قائمة المناهضين للزنوجة في أفريقيا الناطقة بالإنجليزية الكاتب الجنوب إفريقي حزقيال مفايل ، بحيث يهتمها بالتبسيطية ، والانتقاء ، والانقسام ، وبالبعد عن القضايا الجوهرية للسود ، فهي - في نظره - لم تفعل شيئا من غير أسطرة التاريخ الزنوجي والاتجار ببلاغة فولكلورية لا تعدم زبنا مفرضين في عواصم المتروبول ، بينما السود هم أحوج ما يكونون إلى خطاب واقعي كفيل باستيعاب أسئلتهم الواقعية .

إن المهمة الأكثر إلحاحا وراهية عند حزقيال مفايل كمواطن من جنوب إفريقيا ، وهي غير السنيغال ، هي مواجهة الميز العنصري مثلا ، ومساعدة السود على استرداد إنسانيتهم ، أما التلغف بخطاب مغرق في رومانسيته ويتعامل مع الأسود ككائن هلامي أو اغترابي فلا يعتدى كونه بذخا فكريا معجوجا . والأكثر من هذا فإن حزقيال مفايل يرى بأن الزنوجة تلتقي ، بصيغة أو بأخرى ، مع شعار صيانة الثقافة السوداء المرفوع من طرف يبيض جنوب إفريقيا ، هذا الشعار الذي يستهدف إداعة وتثبيت النمط الحضاري الماضوي ، مما يسهل على البيض تأمين سيطرتهم على الجسد والعقل الأسودين ، و (من خلال هذا الوضع يبدو ذلك الشعار حاملا نفس المعنى الذي سيحمله « التعصب الزنجي » . ولهذا السبب بالذات أظهر أدباء جنوب إفريقيا ذوق الميول

(١١٠) لك. مادمو بانيكار : (الثورة في إفريقيا) ترجمة : روفائيل جريس مراجعة : محمد محمود الصياد ، ص ٧٥ .

(١١١) أ. تشيرومين : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة : وليد فارصلي - مجلة (الآداب الأجنبية) ص ١١ - ع ٣٨ - ٣٩ - شتاء ربيع ١٩٨٤ ، ص ١٢١ .

(١١٢) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٧٠ .

(١١٣) (١١٣) — (Impressions d'Afrique) propos recueillis par Michel Pierre in (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 36.

(١١٤) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١١٥) نفسه ، ص ٢٢٨ .

تفتح إنساني أكثر حيوية ، يستمد مصداقيته من المثل والتصورات الحقيقية في الثقافة الزنوجية ، وأيضا في خلق رؤية متحررة للإنسان وللحياة وللكون ، وفي تأسيس علاقات إنسانية أكثر تنظيما .

لقد كان مرادنا من استعراض مختلف ردود الفعل التي ولدتها الزنوجة الإحاطة بالآثار والمضاعفات التي تركتها لدى الإنتلجنسيا الزنوجية ، والاطلاع على ما أفرزته من جدالات ساخنة في غالب الأحيان ، غير متوخين من وراء هذا الاستعراض إعلان انحيازنا إلى جهة من الجهات ، بيد أن الحياذ إزاء مختلف الأطراف المعنية بالخطاب الزنوجي ، لا يمنعنا من صوغ أسئلتنا الخاصة ومن تعقب أجوبة مناسبة لها : (هل الزنوجة إذن حركة زائفة ومصطنعة ؟)^(١١٩) ، هل هي منزوع ثقافي استبد بالطلبة السوداء ؟ هل هي مجرد فولكلور بئيس لا علاقة له بالإشكاليات المطروحة في العالم الأسود ؟ قد تتوالد أسئلة كثيرة من هذا القبيل إلا أن الموضوعية تمنح بنا إلى القول بأن (هذا المنهج في التفكير أسهم - وما يزال - بتصيب لا يستهان به في التراث البشري)^(١٢٠) ، كيف ذلك ؟ هنا يجب أن نعود إلى مبدأ نشوء الحركة . فالزنوجة أول ما ظهرت ظهرت كحساسية مشتركة بين كافة السود ، فهي الوليد الشرعي لمجمل المخاضات التي عاشها العالم الأسود ، مروراً بتجارب الاسترقاق ، والاستعمار والميز العنصري ووصولاً إلى عهد الحرية وما طرحه من إعادة تقييم ، سواء للماضي الزنوجي ، أو للعلاقة مع

ومهما كان حجم الاعتراضات التي طالت الزنوجة وأقطابها ، فإن الموضوعية تحتم علينا القول بأن سنغور لم يكن قط مؤمنا بكمال المبادئ والأفكار التي ضمنها كتاباته النظرية ، أي أنه لم يستبعد إمكانية الاجتهاد والإضافة والتطوير ، مما سيقى الزنوجة من الوقوع في الثبات والانغلاق والوثوقية . وقد قاسمه هذا الرأي عدد من المفكرين والمبدعين الزنوج من أمثال إيمي سيزير ، وفرانز فانون ، وسمين عثمان ، ممن اقتنعوا (بأن الزنوجة بحكومة بالتطور ، بحيث تمتلك بعدا تاريخيا لا تكتفي بتجليته ولكنها واعية به)^(١٢١) .

ولعل الوعي بتاريخية الزنوجة هو الذي حدا بالجليل الثاني من المثقفين الزنوج إلى تجاوز ما اعتبر ثغرات داخل أطروحات سنغور ، إذ أن سنغور ركز ، في المقام الأول ، على إفريقيا في ظل الهيمنة الاستعمارية ، لكن (بازدياد موجة الحرية في إفريقيا قوة واندفاعا أخذت تتضح متناقضات مذهب الزنوجية يوما بعد يوم)^(١٢٢) ، وأجلى هذه التناقضات عجز الزنوجة عن استيعاب قضايا ما بعد التحرر ، هذا ما يستدعي تطويرها والانتقال بها من نظرية سلفية إلى أداة فكرية قادرة على الانخراط في قضايا الساعة بالعالم الأسود . لذا ستتلور زنوجة جديدة اختار لها دعائها المقابل الفرنسي Negritude بدلا من Negritisme وليس في باريس ، أما (مبدعها فهو ج.م. أباندا الذي طرحها وأذاعها عام ١٩٦٦ وذلك لأول مرة)^(١٢٣) ، وتتحدد مرتكزات هذه النزعة في

— Jean marie Lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :

(١١٦)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - المجلد الثاني والثالث لسنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، ص ٥٣١ .

(١١٧) جبر الدبور - أولي بير : (الشعر الحديث في إفريقيا) ترجمة : عبد الرحمن صالحي - مجلة : (الشعراء) ع ١٣ - ص ٢ - يناير ١٩٦٥ ، ص ٣٨ .

— Jean marie Lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :

(١١٨)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، ع ٢ و ٣ لسنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .

(١١٩) جبر الدبور : (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة : علي شلش ، ص ٣٩ .

(١٢٠) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنوجي) مجلة : (الثقافة المغربية) ع ٦ ، ١٩٧٢ ، ص ٣٧ .

أحد فروع الدراسة في الجامعات الأوروبية والأمريكية ؟ هل لنا أن نذكر بالنفوذ الإعلامي الضخم الذي كان للمسلسل التلفزيوني (الجنود) ، المأخوذ من رواية تحمل نفس الاسم للروائي الزوجي الأمريكي اليكس هيلي ؟ هل لنا أن ننسى التسمية التي تحملها إحدى الجامعات السوفياتية ، ألا وهي « جامعة » لوموبا للعالم الثالث ؟ ثم هل لنا أن نتغافل عن خطوة علميين زنوجيين بجائزة نوبل للسلام ، أولهما الزعيم الزوجي الأمريكي مارتن لوثر كينغ عام ١٩٦٤ ، وثانيهما القس الزوجي الجنوب إفريقي ديسموند توتو عام ١٩٨٤ ، إضافة إلى حصول المناضل الزوجي الجنوب إفريقي نلسون مانديلا على جائزة العالم الثالث لعام ١٩٨٥ .

جميع ما أوردناه يدل على المكانة التي صار يحتلها العالم الأسود في الوجدان العالمي ، وبدون الحركة الزنوجية ، ما كان لهذا العالم أن يحقق سمعته الكونية . وإذا كانت هذه الحركة قد بدأت على شكل ثروة ثقافية بين سنغور وسيزير وداماس خلال مقامهم الطلابي بباريس الثلاثينات ، إذا كانت هذه بدايتها فإنها غدت مع مرور السنين خطايا متماسكا يقود مسار السود ويفرض على الآخرين التأمل الجدي في إيقاع هذا المسار ووجهة أصحابه .

الأيض ، أو للعلاقة مع الإنسان ككل . إنها بهذا خطاب للهوية ، للمغايرة ، ولأنها كذلك فلا بد وأن تكتنفها تناقضات ومزالق من السهل التقاطها وترتيبها . إن الزنوجة ، قبل أن تكون فعالية أدبية نشطت في الحقل الشعري أساسا ، هي صوت وصدى ، ومقاربة لإشكالية المصير المادي والروحي لجميع السود ، أولنقل إنها رؤية الإنتلجنسيا الزنوجية للعالم . صحيح (أن عصرها الذهبي كان في الأربعينات والخمسينات ، أما بعد ذلك ، ومع دخول القارة عصر حررتها ، فقد بدأت في الانحسار شيئا فشيئا^(١٢١) ، مما أفقدها الكثير من حرايتها وطلبيتها ، لكن مع ذلك فهي تجاوزت كونها ملكية ثقافية للسود وحدهم وأصبحت جزءا من الثقافة الإنسانية ، بل ومن التاريخ الإنساني . فنحن حين نذكر سنغور ، ونكروما ، وفانون ، فإننا نذكر شخصيات كونية أكثر منها زنوجية ، وعندما نستحضر واقعة دخول سنغور للأكاديمية الفرنسية^(١٢٢) ، فإننا نستحضر ضمينا تحية تخص بها إحدى المؤسسات الثقافية العالمية العالم الأسود قاطبة ، وهذا شبيه ما حصل لما منح روني ماران جائزة كونكور عام ١٩٢١ عن روايته (باتوالا) ، فذلك تكريم للزنوجة قبل أن يكون تكريما لشخص الكاتب . هل لنا أن نعرف بأن الأدب الزوجي ، المكتوب بالفرنسية خاصة ، أصبح في السنوات الأخيرة



(١٢١) علي شلق : (ألوان من الأدب الإفريقي) ص ١٣ - ١٤ .

(١٢٢) التحق سنغور بالأكاديمية الفرنسية يوم ٢ يونيو ١٩٨٣ ، إذ احتل مقعد المؤرخ دول فيست هيريو ، وبذلك يعد أول زنوجي تستقبله هذه المؤسسة .

أشارات :

- هذه الدراسة تمثل فصلاً من رسالة جامعية عنوانها (النزعة الزنوجية في الشعر السوداني المعاصر : محمد مفتاح الفيثوري نموذجاً) تقدمنا بها لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب الحديث ، أشرف عليها الدكتور محمد السريغي ونوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٨٦ .
- رغباً من التماس بريتين مرتبطتين إلى عنصر الأفريقيات يعدد الباحثون واحداً من الشعراء الزنوج .
- لم نذكر حصول وول سوينكا على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٦ لأننا أنجزنا هذه الدراسة قبل حصوله عليها .

المراجع العربية :

- دنيز بولم . الحضارات الإفريقية ، ترجمة : نسيم نصر ، منشورات عويدات بيروت - باريس ، الطبعة الثانية ، غشت ١٩٧٨ .
- روجيه غارودي : حوار الحضارات ، ترجمة : الدكتور عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الأولى ، إبريل ١٩٧٨ .
- د. مادهورانيكار : الثورة في إفريقيا ، ترجمة : روفائيل جرجس ، مراجعة : محمد محمود الصياد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، إبريل ١٩٦٤ .
- جمال محمد أحمد : وجدان إفريقيا ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .
- مدثر عبد الرحيم : بين الأصالة والتجديد : تجربة الاستعمار وأنماط التحرر الثقافي في البلاد الآسيوية والإفريقية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- الدكتور محمد عبد الغني سعودي : إفريقيا ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ٣٤ ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٠ .
- ب. س. لويد : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي ، ترجمة : شوقي جلال سلسلة عالم المعرفة ، ع ٢٨ ، الكويت ، إبريل ١٩٨٠ .
- جماعة من الكتاب : الثقافة الإفريقية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٦٩ .
- جيرالد مور : سبعة أدباء من إفريقيا ، ترجمة : علي شلش ، كتاب الهلال ، ع ٣٢٨ ، يونيو ١٩٧٧ .
- علي شلش : ألوان من الأدب الإفريقي ، المكتبة الثقافية ، ع ٣٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .
- أحمد مرسي : مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي ، الموسوعة الصغيرة ، ع ٩٠ ، بغداد ، آذار ١٩٨١ .
- لويس عوض : الثورة والأدب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
- مجلة (الثقافة المغربية) ، ع ٦ ، ١٩٧٢ .
- مجلة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس) ، ع ٢ - ٣ ، ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .
- مجلة (آفاق) س ١ ، ع ٣ ، جويي - أوت - سبتمبر ١٩٦٣ .
- مجلة (آفاق) س ٢ ، ع ٣ ، جويي - أوت - سبتمبر ١٩٦٤ .
- مجلة (عالم الفكر) م ٨ ، ع ٣ ، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧ .
- مجلة (أدب) ع ٤ ، ١٩٨١ .
- مجلة (الكتاب العربي) ص ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٣ .
- مجلة (الهلال) م ٧٣ ، ع ٧ ، ١ يوليو ١٩٦٥ .
- مجلة (الطريق) س ١٩ ، ع ٤ ، حزيران ١٩٦٠ .
- مجلة (الشعر) س ٢ ، ع ١٣ ، يناير ١٩٦٥ .
- مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ، ع ٣٨ - ٣٩ ، شتاء - ربيع ١٩٨٤ .
- مجلة (الثقافة العربية) س ٩ ، ع ٨ ، أغسطس ١٩٨٢ .
- مجلة (فنون عربية) م ٢ ، س ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٢ .
- مجلة (آفاق عربية) س ٤ ، ع ١١ ، تموز ١٩٧٩ .
- مجلة (الأقلام) س ١٢ ، ع ١٠ ، تموز ١٩٧٧ .

- مجلة (الأفلام) س ١٣ ، ع ٧ ، نيسان ١٩٧٨ .
- مجلة (الأفلام) س ١٥ ، ع ١ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ .
- مجلة (الأفلام) س ١٥ ، ع ٩ ، حزيران ١٩٨٠ .
- مجلة (المعرفة) س ٢٠ ، ع ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ .
- جريدة (العلم) - الملحق الثقافي - س ٢ ، ع ٥٨ ، الرباط ، الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ .
- جريدة (العلم) - الملحق الثقافي - س ٤ ، ع ١٤٩ ، الرباط ، الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ .

المراجع الأجنبية :

- LUCIEN GOLDMANN : marxisme et sciences humaines ed gallimard, PARIS 1970.
- JANHEINZ JAHN : muntu ; l'homme africain et la culture neo-africaine, traduit de l'allemand par brian de martinor, ED DU SEUIL, PARIS 1961.
- PAULIN J. HOUN TON DJI : SUR LA "PHILOSOPHIE AFRICAINE" ED MASPERO, 1977.
- STANISLAS ADOTEVI : negritude et negrologues, COLL 10/18, PARIS 1972.
- FRANTZ FANON : peau noir, masques BLANCS, ED DU SEUIL, PARIS 1952.
- LEOPOLD SEDAR SENGHOR : anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue francaise, ED P.U.F, PARIS 1969.
- LYLIAN KESTELOOT : anthologie negro-africaine : PANORAMA CRITIQUE DES PROSATEURS, POETES ET DRAMATURGES NOIRS DU XX E SIECLE, ED MARABOUT UNIVERSITE, VERVIERS 1967.
- ALMUT NORDMANN-SEILER : la litterature neo/africaine, COLL QUE SAIS-JE ? NO. 1651, ED P.U. F, PARIS 1976.
- magazine litteraire, NO. 195, MAI 1983.
- les nouvelles litteraires, NO. 2863, DU 25 NOVEMBRE AU 1ER DECEMBRE 1981.
- recherche, pedagogie et culture, AV-JUIN 1982.
- le monde de dimanche, NO. 11463, 6 DECEMBRE 1981.



صَدْر حَدِيثًا

أهمية الموضوع :

لا يختلف المتبعون للتطورات العلمية والتقنية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين على أن العالم يشهد منذ سنوات قليلة ثورة علمية واقتصادية (فرغلي ١٩٨٨) لها أبعاد هائلة في شتى صور الحياة قد تقسم العالم الى مجموعتين : مجموعة منتجة فاعلة ومجموعة أو مجموعات هامشية تابعة (منصور ١٩٨٨) . وإذا استمرت الأمور تسير بشكلها الذي تسير عليه ، فسنصل حتما الى الدور المخطط لنا وهو أن نكون من أبرز أعضاء المجموعة الهامشية التابعة . والبديل الوحيد لذلك هو أن يأخذ علماءنا وخبرائنا وقادتنا السياسيون والاجتماعيون المبادرة لاستيعاب المتغيرات الجديدة وأن نشترك في انشاء الثورة العلمية المعاصرة ، وأن نلونها ، اذا استطعنا ، بنظرتنا وإسهاماتنا

واللغة والحاسوب أحد المحاور الأساسية ، ان لم يكن المحور الأساسي ، للثورة العلمية المعاصرة . وقد تزامنت ثورة تشومسكي في علم اللغة (تشومسكي ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) مع تطور الحاسوب في الخمسينيات والستينيات . وقد كان لعلم اللغة التوليدي انعكاسات بعيدة المدى في باقي العلوم الطبيعية والانسانية بما في ذلك علم الحاسوب .

وتمثل المعلومات المحور الاقتصادي في الثورة المعاصرة فقد تحولت السلع الاستراتيجية من المواد الخام والمصنعة الى السلع المعلوماتية (فرغلي ١٩٨٨) ، لا لقيمتها العلمية فحسب ، بل لكونها أداة الحصول على الثروة والقوة . وبدأت صناعة الأموال والاتصالات ، وتحول جزء كبير من الرأسمالية الصناعية الى الرأسمالية المعلوماتية .

اللغة العربية والحاسوب

تأليف : نبيل علي
عرض وتحليل : علي صبري فرغلي

الجامعة الأمريكية بالقاهرة

واللغة هي الشكل الطبيعي الذي يستخدمه الانسان للتعبير عن الأفكار والمعلومات وهي أيضا وسيلة الانسان لاستمرار الحضارة فهي تمكنه من نقل المعلومات وحفظها وتوارثها جيلا بعد جيل . ولهذا اعتمد التقدم في عصر المعلومات بشكل أساسي على التحام اللغة بالحاسوب . وهذا هو موضوع الكتاب الذي قدمه الى المكتبة العربية نبيل علي ، وفيه دعوة جادة مخصصة لعلماء اللغة وعلماء الحاسوب العرب أن يضعوا أيديهم معا من أجل وضع الحاسوب في خدمة الناطقين بالضاد ليتمكنوا من الاستفادة من هذه التقنية أسوة بمتكلمي اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

أهمية الكتاب :

وقد بدأ ظهور الكتب باللغة الانجليزية التي تعالج العلاقة بين اللغة والحاسوب في أوائل الخمسينيات (Weaver 1955) ، وظل الإسهام في قضية المعالجة الآلية للغة حجرا على الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وغيرهما من الدول المتقدمة ، وتركزت أبحاثهم في تطوير الحاسوب لاستخدامه في جميع مجالات الحياة ليصبح أداة طيعة تضاعف من قدرات الانسان شأنه شأن الانجازات التقنية المختلفة في الفضاء والاتصالات والطلب . . . الخ .

ويأتي كتاب اللغة العربية والحاسوب للدكتور نبيل علي أول محاولة جادة لمعالجة هذا الموضوع معالجة شاملة يطرح فيها قضية العلاقة بين اللغة العربية والحاسوب ويضعها في الاطار الصحيح في ظل ثورة المعلومات المعاصرة . وللدكتور نبيل علي فضل السبق والزيادة في هذا الموضوع .

المؤلف :

يتميز نبيل علي بأن له خبرة عملية وعلمية في مجال

اللغة والحاسوب . فقد بدأ من الواقع أي من التجربة العملية لبناء البرامج ، ولما كانت له أهداف طموحة لتطوير برامج متقدمة للتحليل اللغوي ، فسرعان ما أدرك أن تحقيق ذلك يستحيل دون دراسة علم اللغة التوليدي دراسة جادة ، فترك عمله وتفرغ لمدة عام كامل بالولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة أحدث نظريات علم اللغة على أيدي منظريها . ويشهد هذا له بالجدية والقدرة على الدخول في أغوار علم جديد وتمثل تطبيقاته الأمر الذي قد ينقص بعض علماء اللغة عندنا للأسف الشديد . كما أنه أقام أكبر مركز لأبحاث اللسانيات الحاسوبية في الوطن العربي ، واستطاع أن يكون كفاءات عربية شابة ويؤهلها علميا وعمليا لتكون طليعة المتخصصين في مجال الحاسوب واللغة العربية على وجه الخصوص .

ويمكن هذه الخلفية نبيل علي من المساهمة الابداعية في حقل علم اللغة الحاسبي . يقول نبيل علي في مقدمة كتابه :

« تعكس الدراسة تجربة المؤلف الشخصية على مدى عشرين عاما في مجال العمل التطبيقي والنظري في حقل المعلوماتيات ، ادارة ، وتصميميا وبحثا » .

الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٩١ صفحة شاملا تسعة فصول بما في ذلك المقدمة والخاتمة ، وأربعة ملاحق . ويحدد المؤلف في المقدمة الدوافع الملحة التي تقف وراء البحث في اللغة العربية والحاسوب ، ويقسمها الى طوائف تقنية كظهور الجيل الخامس من الحاسوب واختراع القارئة البصرية والتقدم التكنولوجي الهائل في السنوات الأخيرة ، ودوافع لغوية كقصور الدراسات اللغوية

بعلم وظائف الأعضاء وبالمخ البشري وعلاقة الأصوات
وذبذباتها وانتقالها وتمثيلها بعلم الطبيعة ، وعلاقة اللغة
بعلم النفس وعلاقتها بالثقافة .

ويعرض نبيل علي بعض الخصائص الكلية الموجودة
في جميع اللغات كخاصية الابداعية وما يسميه الانساق
والتماسك ويضع جدولاً (جدول ١ : ٣ صفحة ٤٦ -
٤٧) يمثل عمومية بعض الظواهر اللغوية كالحذف
والإبدال والقلب ... الخ ، وتطور اللغات بمرور
الزمن ، فاللغة كائن حي ينمو ويتطور ويشيخ ويمكن أن
يموت كاللغة اللاتينية والعبرية القديمة ولغات السكان
الأصليين لأمريكا .

وينطلق نبيل علي من هذا الوصف العام لمستويات
البحث اللغوي والخصائص العامة للغة الانسانية الى
اللغة العربية ويحدد تصوره لمنظومة اللغة العربية
ويعرض السمات المميزة للغة العربية كالتوسط بين
لغات العالم في نظام الكتابة والنظام الصوتي وفي الحالات
الاعرابية والصرف . كما تنسم اللغة العربية وحدة
الخاصية الصرفية فالعنى الدلالي للكلمات يرتبط في
اللغة العربية بالسواكن الأصلية ، وهي السواكن المكونة
للجذر ، ويشق منها مئات الكلمات . كما تتميز العربية
بالحرية النسبية لترتيب الكلمات فيمكن للفاعل أن
يتقدم على الفعل ، كما يمكن للمفعول أيضاً أن يتقدم
على الفعل ... وهكذا . وللعربية نظامها الصوتي
الخاص بعدم السماح بصامتين متاليتين في أول الكلمة
وعدم السماح بأكثر من صامتتين متاليتين في المواقع
الأخرى . وللكتابة العربية عدة نظم : كالكتابة المشكلة
والمشكلة جزئياً وغير المشكلة . كما يعرض نبيل علي
لمشكلة ثنائية الفصحى والعامية ويصفها بأنها وصلت الى
درجة مفزعة . ثم يعرض لمسار تطور العلوم بشكل

الحديثة ومشاكل تعليم وتعلم اللغة العربية ودخول
تطبيقات الحاسوب في مجالات العلوم الانسانية
والاجتماعية ، ودوافع عامة وهي حث اللغويين
والحاسوبيين العرب على بدء حوار يقضي الى تعاون ملح
وضروري لمعالجة اللغة العربية آلياً ، كما يطرح نبيل علي
الأسس والمبادئ المنهجية في تناول الموضوع وهي مفهوم
المنظمة لكل من اللغة والحاسوب ، اخضاع الحاسوب
للغة لا العكس ، الأنحاء الكلية universal grammar
وخصوصية اللغة العربية ، مقارنة العربية بالانجليزية
وثنائية التحليل والتركيب من منظور التداخل بين اللغة
والحاسوب والتركيز على الجانب التطبيقي .

ونعرض فيما يلي تلخيصاً لكل فصل من الفصول
السبعة الأساسية :

الفصل الأول : اللغة العربية من منظور الحاسوب

(صفحة ٢١ - ٨٥)

يؤكد نبيل علي في هذا الفصل أن اللغة منظومة
متسقة ، تقيد بها الضوابط وتحكمها القواعد وتخضع
للتنظيم والتقييد الدقيق وفي داخل منظومة اللغة هناك
منظومات فرعية لها قوانينها الخاصة كما لها علاقات التأثير
والتأثر بالمنظومات الأخرى لنفس اللغة . وهذه
المنظومات تمثل للغويين مستويات التحليل المختلفة ،
فاللغة يمكن تحليلها على مستويات عدة كالمستوى
الصوتي أو الصرفي أو التراكبي أو النحوي أو الدلالي أو
المقامي ، وهناك علاقة تأثير وتأثر بين هذه المستويات
المختلفة ، فالكثير من القواعد الصوتية مثلاً تؤثر في
الصرف ، كما أن الصرف يتأثر بالتراكيب ، ولا يمكن
دراسة الدلالة بمعزل عن التراكيب وهكذا ، كما يبرز
نبيل علي علاقة اللغة بالعلوم الأخرى تحت ما يسميه
بالعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة ، مثل علاقة اللغة

عام ، وينطلق من ذلك الى تطور اللسانيات ويحدد لها سبع مراحل يضعها في شكل (١ : ٣) صفحة ٧٢ .

ويطرح المؤلف في هذا الفصل أيضا مشاكل تنظير اللغة العربية ومن أهمها غياب النظرة الشاملة للغة العربية ككل ، وفقر العربية في الدراسات المقارنة والتقابلية وإغفال الفكر العربي للنظرية التوليدية وطغيان الكتابة عن الجانب الصوتي ، وقصور النظرة الى المعجم رغم أهميته القصوى في علم اللغة الحديث . وينتهي الفصل ببعض التصورات والاقتراحات التي يقدمها المؤلف لتحديث النظرة الى منظومة اللغة العربية ، من أهمها تحليل اللغة العربية في إطار النظريات اللغوية المعاصرة وتحديث أساليب تعليم وتعلم اللغة العربية والتركيز على دراسة الدلالة واستخدام الحاسوب للخدمة اللغة العربية .

الفصل الثاني : منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية (صفحة ٨٧ - ١١١)

يعدد المؤلف في هذا الفصل السمات الأساسية التي تميز تطور الحاسوب في السنوات الأخيرة منها عمومية الاستخدام ، فقد دخل الحاسوب ومازال يدخل جميع مجالات الحياة وساعد على هذا مرونته الواضحة التي تسمح بتشكله كي يفي بالمطالب المختلفة للحياة العصرية فهو في البنوك مثلا يتابع حركة الأموال الداخلة والمنصرفة بدقة بالغة ، وفي شركات الطيران يسجل أسماء المسافرين وينظم كافة المعلومات الخاصة بالرحلات والمسافرين وجهات السفر . . . الخ ، وفي الفصول الدراسية يساعد الطلاب في استيعاب ومراجعة المادة العلمية ، وفي سفن الفضاء يقوم بالعمليات الحسابية البالغة التعقيد وينسق بين كافة الأجهزة العاملة في السفينة ، ومن هذه السمات أيضا أن تطور الحاسوب

يسير في اتجاه الصغر المتناهي في الحجم مع النمو المتزايد في القدرة الحاسوبية والتخزينية للمعلومات . وينبه المؤلف الى أن الثورة الألكترونية والمعلوماتية المعاصرة تشكل تحديا قاسيا لدول العالم الثالث ، فهي تطرح إمكانات هائلة لحل مشاكل هذه الدول ، إلا أنها تهدد أيضا باتساع الفجوة القائمة فعلا بين العالم الصناعي والعالم الثالث .

ويحدد المؤلف العناصر الأربعة الأساسية في منظومة الحاسوب وهي العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . ويشرح بالتفصيل مكونات كل عنصر من هذه العناصر ، ثم يوضح اتجاهات تطور نظم الحاسوب والمعلومات ومن أهمها الانتقال من المعالجة المتلاحقة sequential processing الى المعالجة المتوازية parallel processing ولا شك أن عمل المخ الأنساني أقرب للمعالجة المتوازية التي تسمح بمعالجة أنواع مختلفة من المعلومات في آن واحد مع إمكانية الاستفادة من نتائج معالجة المعلومات الأخرى في نفس الوقت . وهناك أيضا الاتجاه الى التعامل بالرمز بدلا من الأرقام symbolic programming وتطوير لغات برمجة تقترب كثيرا من اللغات الطبيعية والتوجه لاستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي بعد الاعتماد الكلي على البرمجة الخوارزمية algorithmic programming ، كما يشير المؤلف الى التطور في وسائل تخزين المعلومات واستحداث الأقراص الضوئية بقدرتها الهائلة على تخزين المعلومات .

ثم يتناول المؤلف الى استعراض البعد العربي للحاسوب وينتقد الفكرة القائلة بوجود تصيم حاسوب عربي على مستوى العتاد hardware ، وذلك لأن العتاد يمكن أن يلبي احتياجات أي مجتمع وأي

للتحليل اللغوي والاهتمام الشديد بصورنة formalization الأنحاء ، وعلم الحاسوب وتطور الحواسيب السريع سواء من ناحية العتاد أو البرامج ولغات الترجمة ، كما يعرض المؤلف لجوانب الوفاق والخلاف بين اللغة والحاسوب ، فيستعرض أوجه التشابه البنيوي بين اللغة والحاسوب .

ويستعرض المؤلف مجالات استخدام الحاسوب كأداة اللغة وهي الاحصاء اللغوي والتحليل والتركيب اللغويان ، والفهم الأوتوماتيكي للسياق ، وتحليل النصوص ، وميكنة المعاجم ، والترجمة الآلية وتعلم اللغة بواسطة الحاسوب ، وينتهي ذلك الجزء بجدول (جدول ٣ : ٥ صفحة ١٤٨ - ١٥٢) لعلاقات الترابط المتبادل بين هذه الاستخدامات المختلفة للحاسوب كأداة للغة . ثم يحدد المؤلف أيضا مجالات استخدام اللغة كأداة للحاسوب وهي : نظم استرجاع المعلومات ، ونظم قواعد المعارف (النظم الخبيرة) ولغات البرمجة الواقية ونظم التعامل باللغة الطبيعية ومعمارية الجيل الخامس وتطبيقات الذكاء الاصطناعي . وكما فعل المؤلف في استخدامات الحاسوب كأداة للغة ، أنهى الجزء الخاص باستخدامات اللغة كأداة للحاسوب بجدول (جدول ٣ : ٦ صفحة ١٦٧ - ١٦٨) لعلاقات الترابط بين استخدامات اللغة المختلفة كأداة للحاسوب .

ويتناول المؤلف في باقي الفصل خصائص اللغة العربية وعلاقتها بالحاسوب ويعرض للمشكلة الحقيقية التي يعاني منها كل من يستخدم الحاسوب في التطبيقات العربية وهي أن الحاسوب لا يقدم لمستخدمي اللغة العربية نفس الامكانيات التي يقدمها لمستخدمي اللغات الأوروبية .

لغة ، وقد أمكن للمجتمع الياباني والروسي وغيرهما تطويع العتاد الموجود حاليا لكافة الاستخدامات الممكنة . ويرى المؤلف أن يتركز جهد العلماء العرب في تعريب ملحقات الحاسوب من طابعات وشاشات مرئية ولوحات مفاتيح ووحدات توليد وتحليل الكلام . كما يقترح تطوير نظم تشغيل ثنائية اللغة ويعدد الطرق المختلفة المستخدمة في تعريب الحاسوب سواء بالاعتماد على البرمجيات أو العتاد ، كما يناقش بقوة ضرورة تعريب لغات البرمجة ونظم قواعد المعلومات ، كما يرى المؤلف ضرورة الاستفادة من الكم الهائل من التطبيقات المتطورة الموجودة باللغة الانجليزية وتعريب بعضها ليكون متاحا للمستخدم العربي ، وتطوير وسائل الترجمة الآلية ، كما يرى ضرورة الاهتمام بالنظم الخبيرة وينتهي الفصل بعدد من التوصيات الهامة منها ادخال اللسانيات الحاسوبية في أقسام اللغات وعلوم الحاسوب وهندسته ، وانشاء معهد متخصص في بحوث تعريب المعلومات ، واستغلال شبكة القمر الصناعي العربي لنشر وعي الحاسوب والمعلومات في الوطن العربي . وينبه المؤلف الى ضرورة التنسيق على مستوى الوطن العربية في إنشاء صناعة عربية للعناصر الأساسية في عتاد الحاسوب ومتابعة مشروع الجيل الخامس للحاسوب وتشجيع جهود الترجمة الآلية .

الفصل الثالث : المعالجة الآلية لمنظومة اللغة العربية

(صفحة ١١٣ - ١٩٥)

يتحدث المؤلف في بداية هذا الفصل عن حتمية اللقاء بين اللغة والحاسوب نتيجة للالتقاء بين الثالوث المكون من نظرية المعلومات بأسسها الرياضية لقياس كمية المعلومات واستحداث أساليب متطورة لتمييز وضبط المعلومات وزيادة فاعلية استرجاعها ، وعلم اللغة الحديث بتركيزه على استحداث نماذج رياضية

ثم ينتقل الى مواضيع الخلاف بين اللغة العربية والحاسوب ويذكر منها :

- ١ - تعقد الحساسية السياقية .
- ٢ - المرونة النحوية التي تتسم بها الجمل العربية .
- ٣ - ثنائية الفصحى والعامية .
- ٤ - تعدد نظم الكتابة العربية .
- ٥ - قصور وصف اللغة العربية .
- ٦ - قصور أساليب تعليم اللغة العربية وجودها .

٧ - قصور المعاجم العربية من حيث طرق تنظيمها وتبويبها .

وعن الموقف الحاضر لتعريب الحاسوب ونظم المعلومات يتتقد المؤلف إمكانية استيعاب اللغة العربية في نطاق التقنيات المصممة أصلاً للغة الانجليزية لأن اللغتين تمثلان طرفي نقيض سواء من الناحية اللغوية أو الحاسوبية ولصعوبة العربية مقارنة بالانجليزية . ويرى المؤلف أن عمليات التعريب بشكل عام تميزت بالسطحية ، فقد ركزت على كيفية طباعة النصوص العربية وإظهارها على الشاشة ، كما تميزت بغياب الأبحاث الأساسية في علم اللغة وعدم الشمولية في تعريب المعلوماتيات .

وعدد المؤلف أوجه استخدامات الحاسوب كأداة للغة العربية ، فهو أداة احصائية ممتازة يمكن استخدامها لاحصاء الجذور العربية ، ولتكرار الكلمات والحروف والحركات والجذور الثلاثية والرابعة ، وبيان التوزيع النسبي للصيغ الصرفية والاعرابية ، ولقياس الانتظامية

ويرى المؤلف « أن الموقف يحتاج منا ، بل يوجب علينا ، اللجوء الى الاقتراض والتطويع العلميين والتقنيين الى أقصى حد ممكن ، وعلى أسس من وعينا الدقيق بخصائص لغتنا ، وفي ظل أهداف تنميتنا الاجتماعية ، وكل ما ذكرناه عن فيود الأساس الانجليزي ، ومحاولات التخلص منه ، لا يمكن أن يكون القصد من وراءه هو أن نقذف في البحر الحصاد الهائل للإنجازات العلمية والتقنية في مجال « الانجليزية » بل قصدنا به تأكيد أهمية ترشيد عمليات الاقتراض والتطويع ، وإبراز الجوانب التي يتحتم فيها البحث عن حلول جذرية لبعض مشكلات معالجة العربية آلياً » (صفحة ١٧٢) .

ثم يستعرض المؤلف أوجه الوفاق والاختلاف بين اللغة العربية والحاسوب ، ويقصد هنا سهولة المعالجة الآلية للغة العربية ، فيذكر من أوجه الاتفاق (أي ما يسهل المعالجة الآلية للغة العربية) ما يلي :

- ١ - شدة انتظام كثير من خواصها الصرفية والاعرابية والصوتية .
- ٢ - صغر حجم المعجم لتكون نواته من الجذور والصيغ الصرفية .
- ٣ - الفائض اللغوي الذي يسمح بضغط النصوص العربية .
- ٤ - شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية .
- ٥ - الانتظام الصوتي في اللغة العربية والصلة الوثيقة بين كتابتها ونطقها .

ووسائل تمييز النصوص وإبرازها ، وعناصر تنظيم كتابة النصوص ، ووسائل الاختصار . كما يقول نبيل على أن منظومة الكتابة العربية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقني ، فكل ما يكتب ينطق عادة . وهو بالتأكيد يقصد هنا الكتابة المشكّلة ، لأن الحركات العربية القصص لا تمثل في الكتابة العادية على صفحات الجرائد والمجلات ، والكتب والمطبوعات بشكل عام . وتختلف العربية عن الانجليزية في استخدامها لعلامات التشكيل للدلالة على الحركات القصص وأحرف اللين للدلالة عن الحركات الطوال . كما تكتب العربية على مستويات مختلفة ، فهي إما كاملة التشكيل ، أو جزئية التشكيل ، كما يمكن أن تكتب بدون أي تشكيل على الإطلاق . وتشابك الحروف وتعدد أشكالها حسب نوعية الحروف السابقة واللاحقة ، ولهذا تميز العربية بحساسية سياقية شديدة ، كما أنها تكتب من اليمين إلى اليسار تدخّل الأرقام من اليسار إلى اليمين . وتمثل كسل هذه الاختلافات تحديات بالنسبة إلى المعالجة الآلية للغة العربية . ويعد أن يعرض نبيل على لظاهرة التشكيل بالتفصيل ، يطرح السؤال الهام التالي : هل تفترض نظم المعالجة الآلية وجود التشكيل سلفاً ، أم يجب أن تسعى لتوليده ؟

ويؤكد نبيل على أهمية عمليات التقييس والمعايرة standardization ، ويتحقق ذلك بالاتفاق على شفرة عربية موحدة لرموز الكتابة العربية ، وتوحيد غططات لوحات المفاتيح العربية ، وتقييس الأشكال المختلفة للحروف العربية ، وتوحيد أساليب تحويل الكتابة العربية إلى كتابة صوتية ، ويضع نبيل على تصوره للاطار العام لمعالجة الكتابة العربية في شكل (٤ : ٧) والذي نورد أدناه .

الصرفية للأفعال في اللغة العربية ، كما يمكن استخدام الحاسوب في تحليل وتوليد النصوص ، وبناء المعاجم الالكترونية وفي الترجمة الآلية وفي الفهم الآلي للنصوص اللغوية ، وتعليم اللغة العربية بمعاونة الحاسوب .

ويحدد المؤلف الاطار العام لمعالجة اللغة آلياً بأنه يستند إلى وظيفتين أساسيتين : هما التوليد والتحليل .

ويعتقد المؤلف - خلافاً لما هو سائد - أن عملية التمييز أعقد من عملية التوليد ، وسنعود لهذه النقطة في تحليلنا للكتاب .

وحول نظم معالجة المعارف والمعلومات ، يحدد المؤلف أربع نقاط أساسية يختلف فيها الاطار العام لمعالجة المعرفة بالعربية عن إطار معالجتها بالانجليزية وهي :

١ - إضافة معالج التشكيل الآلي .

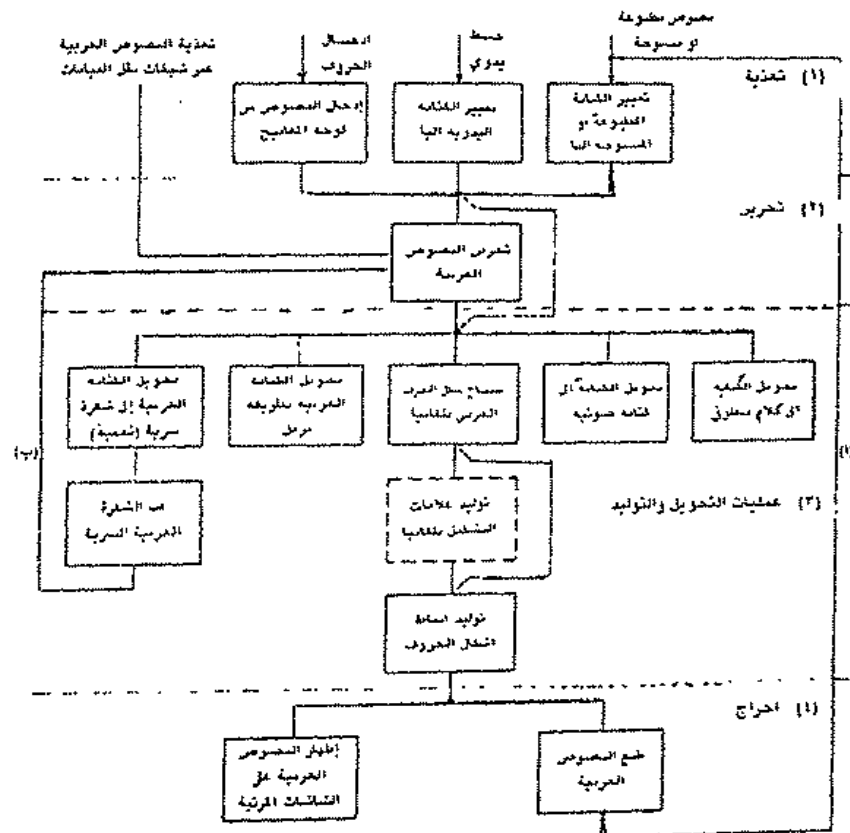
٢ - استخدام عمليتي التحليل الصرفي والنحوي في إزالة اللبس الناتج عن غياب التشكيل .

٣ - استخدام معجم الجذور والصيغ الصرفية بدلا من معجم الكلمات .

٤ - استخدام عنصر الدلالة الصرفية .

الفصل الرابع : المعالجة الآلية لمنظومة الكتابة العربية (١٩٧ - ٢٤٦)

تتكون عناصر منظومة الكتابة بشكل عام من خمسة عناصر هي : الأبجدية ، وعلامات الاملاء والترقيم ،



شكل (٧٠١) الإطار العام لمعالجة الكتابة العربية البيا

ثانياً : أن تكون صيغة الكلمة مساوية لاحدى الصيغ السليمة لهذا الجذر .

ويشير المؤلف الى إمكانية تغير الصورة السطحية للصيغة الصرفية نتيجة للعمليات الفونولوجية المختلفة كالحذف والاضافة والتضعيف والقلب المكاني ، كما ناقش الانتاجية الصرفية والعوامل التي تحكمها في اللغة العربية ومنها عوامل معجمية ، وصوتية ، ونحوية ، ودلالية ، وصرفية مما يؤكد مآذره المؤلف سابقاً عن تداخل المنظومة الصرفية مع باقي المنظومات الأخرى في اللغة ، وتوصل الى عدة عوامل يعتمد عليها اطراد الانتاجية الاشتقاقية وهي :

١ - التجرد والزيادة : تزداد انتاجية الصيغ الصرفية مع الصيغ المزيده .

٢ - طول الصيغة : تزداد إنتاجية الصيغة الصرفية مع زيادة طولها .

٣ - طول الجذر : يزيد الاطراد الاشتقاقي كلما زاد طول الجذر .

وأوضح أن تباين الانتاجية الصرفية له أبعاد هامة في تحديد وتنظيم مواد المعجم . وهناك وجهة نظر تفترض الاطراد العام وتسرى تجنب ما لا ينطبق ، وهناك من يفترض الشذوذ التام ويرى وضع جميع الكلمات في المعجم ، وهناك من يتخذ موقفاً وسطاً بين الاطراد والشذوذ فيحيل الى المعجم الشاذ فقط أما المطرد فيجري اشتقاقه بواسطة القواعد الصرفية (فرغلي ١٩٨٧) .

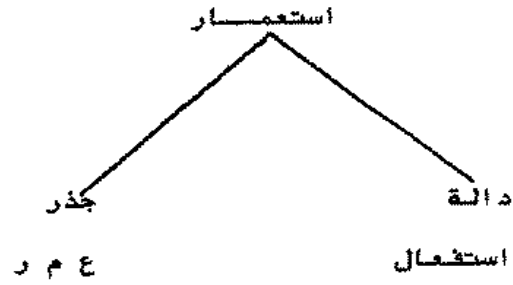
ثم يتناول المؤلف ظاهرة اللبس الصرفي الذي يؤدي بدوره الى أنواع من اللبس النحوي والدلالي ، ويرجع نبيل علي اللبس الصرفي الى الآتي :

الفصل الخامس : المعالجة الآلية لمنظومة الصرف العربي (٢٤٧ : ٣٣٢)

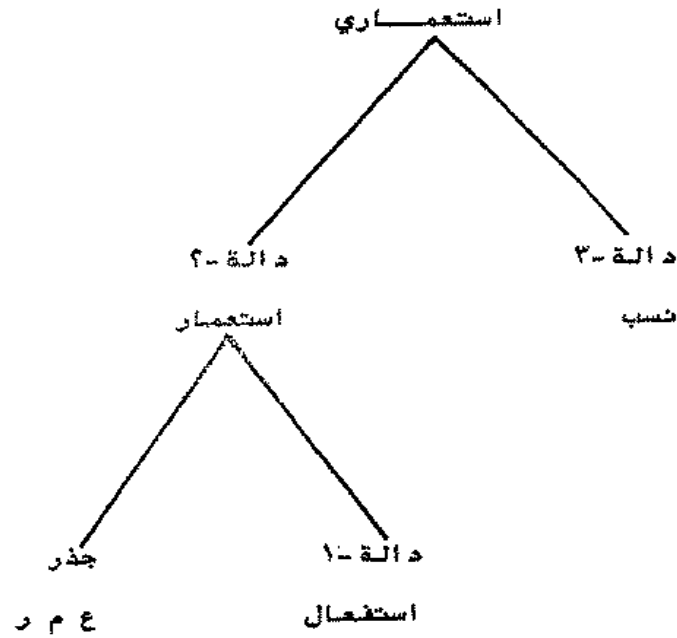
يعد هذا الفصل من أهم فصول الكتاب لأهمية الموضوع الذي يعالجه ، ويعرف نبيل علي الصرف بأنه « فرع اللسانيات الذي يتعامل مع البنية الداخلية للكلمات » ، ويتفق هذا التعريف مع سيلكيرك (Selkirk ١٩٨٢) التي تنظر الى الصرف باعتباره نحو الكلمة ، ويعرض المؤلف لعلاقة الصرف بكل من النحو والفونولوجي والدلالة ويشير أيضاً الى علاقته بالمعجم ، كما يعرض لخصائص منظومة الصرف العربي وهي : حدة الخاصية الاشتقاقية ، واطراد التصريف ، والصلة القوية بين مباني الكلمات ومعانيها ، وميل الصرف لتركيب الكلمات بالاضافة ، وانتظام بنية الكلمة العربية ، وشدة التداخل بين الصرف والفونولوجي ، كذلك الصلة القوية بين الصرف العربي والمعجم . ثم يتناول المؤلف جوانب الصرف العربي ذات الأهمية للمعالجة الآلية للغة العربية ومنها الخاصية الثلاثية حيث تمثل الجذور الثلاثية نسبة عالية من جذور اللغة العربية ، وكذلك أصل الاشتقاق الذي يقول عنه « فإن محورية الفعل المضارع في العربية ، وفي الساميات عموماً لا يحتاج الى مزيد من التأكيد » (صفحة ٢٧٦) ، كما يوضح المؤلف أنه « يميل الى اعتبار الكلمة دون غيرها أساساً للاشتقاق » (صفحة ٢٧٧) ، ويقترح صيغة رياضية للأنماط العربية في اشتقاق الكلمات من أصولها فيوضح الشكل التالي مثلاً أن كلمة استعمار تشتق من أسفل لأعلى كما هو مبين بالشكل التالي :

فلكي تكون الكلمة صحيحة هناك شرطان لابد من توافرها وهما :

أولاً : أن يكون هناك تنابع من الصوامت مساو لأحد الجذور العربية



بينما يجري اشتقاق كلمة استعماري كالآتي



شكل (١) قيود الاشتقاق

ويشرح نبيل علي المقصود بعملية التحليل الصرفي آليا ، ويعرض لبعض نماذج التحليل الصرفي الآلي كنموذج كوسكونيمي (Koskonieni 1983) ذي المستويين ، ونموذج مارتن كي (Kay 1987) ، ثم يعرض نموذج التحليل الذي وضعه المؤلف لشركة العالمية للاكترونيات ويوضح المؤلف مكونات هذا المعالج الصرفي في الشكل التالي .

يستطيع القارئ أن يرى أن هذا المعالج الصرفي يتكون من أربع معالجات فرعية متخصصة لكل منها وظيفة محددة وهي : المعالج الصرف - نحوي ، والمعالج الاشتقاقي ، والمعالج الاعرابي ، ومعالج التشكيل . كما يلاحظ أن كلا من هذه المعالجات له جانبان جانب التوليد والآخر للتحليل . وأن المكون اللغوي للبرنامج منفصل عن المعالج ؛ وهذه ميزة كبيرة تمكن من تطوير المكون اللغوي دون الحاجة لتغيير البرنامج نفسه كما أنه يسهل من هذه المهمة .

والمكون اللغوي يتكون بدوره من عدة ملفات منفصلة تحتوي على قواعد التصريف والدمج ، وجذور اللغة العربية ، والهياكل الصرفية ، والصيغ الصرفية ، وقواعد الضبط الاعرابي ، والقواعد الصرف - صوتية morphophonemic rules .

وبعد أن يعرض المؤلف طريقة عمل المعالج الصرفي ، يحدد استخدامات هذا المعالج وهي : ضغط النصوص العربية بالأسلوب الصرفي وعلى مستوى ازدواج الحروف ، واسترجاع النصوص ، وتصحيح الأخطاء الإملائية ، وتحليل النصوص صرفيا ، واستخدام قواعد بيانات النصوص الكاملة وميكنة المعجم .

١ - تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ومعانيها .

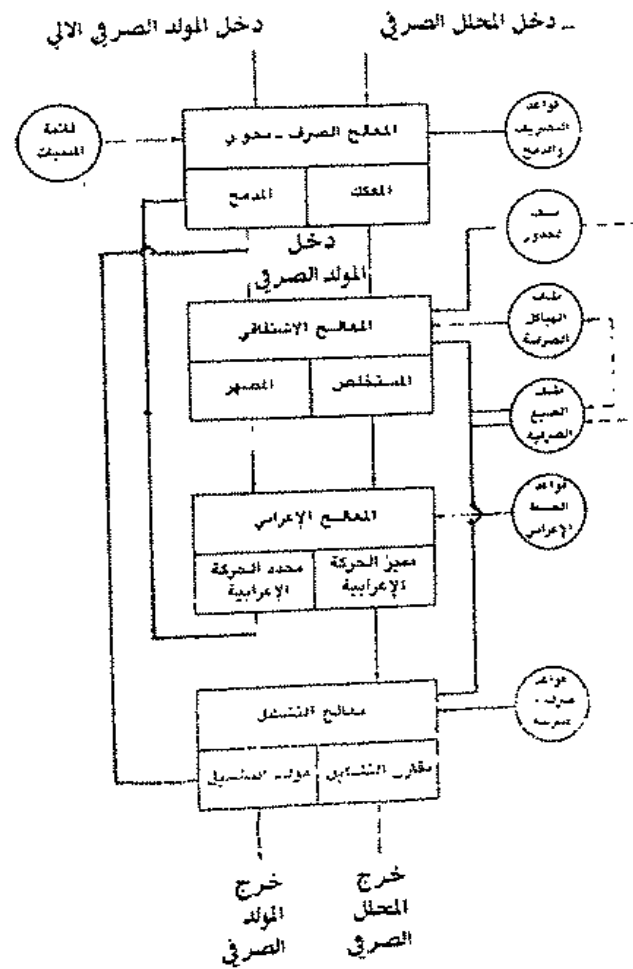
٢ - تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ووظائفها النحوية .

٣ - تعدد العلاقة بين الصيغ الصرفية وموازينها الصرفية .

٤ - اللبس الصرفي نتيجة غياب التشكيل .

وكمثال على حدة ظاهرة اللبس في اللغة العربية ، يورد نبيل علي اثني عشر احتمالا لكلمة « افهم » حين ترد بدون تشكيل .

ثم يتناول الكتاب مشاكل المعالجة الآلية للصرف العربي ومنها تعقد وتداخل عمليات الإبدال والاعلال ، وحدة اللبس الصرفي ، وعدم تأثر عناصر الكلمة بما يجاورها من عناصر فقط بل تأثرها بالعناصر التي تتقدمها أيضا ، وعدم وجود صياغة دقيقة رسمية ومتكاملة لقواعد الصرف العربي ، وعدم توفر بيانات معجمية منهجية عن الانتاجية الصرفية ، وعدم كفاية الاحصائيات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية والحالات التصريفية والاعرابية . ويتقدم المؤلف باقتراحات هامة لمعالجة الصرف آليا وأهمها : أن يكون التعامل مع النصوص العربية بأشكالها المختلفة (أي بالنصوص المشكلة وغير المشكلة) ، وأن يكون تصميم البرنامج بحيث يكون تجزئيا modular ، فيتكون من عدة آليات متخصصة تعكس الوظائف الأساسية للمنظومة الصرفية لا الخطوات الاجرائية للبرنامج ، ومراعاة التكامل بين المعالجة الصرفية والنحوية ، وأن يكون البرنامج قادرا على العمل في اتجاهي التحليل والتوليد .



وبعد عرض مكونات منظومة النحو يبدأ نبيل علي في مناقشة خصائص منظومة النحو العربي ، ويحددها في ست سمات :

١ - العلاقة العضوية بين النحو والصرف ويرى في ذلك أن الصرف العربي يغطي على النحو . فالكلمة العربية قادرة على حل السمات النحوية تصريفاً وإعراباً وتعريفاً وتنكيراً علاوة على ما يمكن أن يدمج بها من أدوات الربط والعطف والضمائر .

٢ - رتبة الكلمات في الجملة العربية ، ويرى الأخذ بالرأي القائل بتأصل الجملة الفعلية (فعل فاعل مفعول) وأن الجملة الاسمية قد تكون جملة فعلية في أصلها .

٣ - المرونة النحوية ، فالجملة العربية تتميز بمرونة ترتيب الكلمات التي تسمح بتقديم الفاعل والمفعول وبإسقاط بعض حروف الجر الملحقة بالأفعال .

٤ - التوسط النحوي ، يرى نبيل علي أن خصائص اللغة العربية تجعلها لغة وسطى بين لغات العالم ؛ فهي لا تتبع انضباط اللغة الانجليزية مثلاً في ترتيب الكلام ، ولكنها في نفس الوقت لا تسمح بالمرونة المطلقة كما في اليابانية والهنغارية ، وهي تمثل حالة وسطى في رتبة الكلمات فهي تجمع بين الجملة الاسمية والفعلية ، كما أن المطابقة فيها ليست محدودة كالانجليزية ولا هي مفرطة كالألمانية مثلاً .

٥ - ضخامة البنية العميقة ، يرى المؤلف أن العربية تتميز بضخامة بنيتها العميقة إذا ما قورنت بالانجليزية ويبرر اعتقاده بوضوح العلاقات النحوية في العربية بسبب وجود سمات ظاهرة للإعراب وكذلك لاستخدام

الفصل السادس : المعالجة الآلية لمنظومة النحو العربي (٣٣٣ - ٤١٩)

يتميز هذا الفصل بأنه يعرض لمنظومة النحو من منطلق النظريات اللغوية المعاصرة (Chomsky 1981, Gazdar et al 1982, 1986) ، (Bresnan 1982) ، (Jackendoff 1977) ، ويبدأ الفصل بشرح لبعض المفاهيم النحوية الأساسية والتي يبني عليها المؤلف فيما بعد مناقشته وعرضه التفصيلي ، ومن بين هذه المفاهيم فكرة لغة وصف للغة meta language ، وأقسام الكلام وتوصيفها باستخدام السمات (Jackendoff 1977) ، ثم ينتقل إلى العلاقات النحوية المختلفة كعلاقة الرتبة وهي التي تحكم ترتيب الكلام كسبق الجار للمجرور أو الموصوف للصفة في العربية ، والعلاقة الوظيفية النحوية كعلاقة الفاعل والمفعول ، والعلاقة الوظيفية الدلالية التي تفصل بين الفاعل النحوي والفاعل المنطقي ، ثم انتقل إلى شرح النموذج الرياضي للغة والمكون من الرباعية (رمز الجملة ، المقولات النحوية ، مفردات اللغة ، قواعد الاحلال المتحررة من السياق) . ثم ينتقل إلى المكونات الداخلية لمنظومة النحو ويرى بحثها على ثلاثة مستويات :

أولاً : عمليات التكوينات النحوية الأساسية وتضم قواعد تكوين الجمل المعقدة والبسيطة وأشباه الجمل .

ثانياً : عمليات التحوير والاحلال النحوي وتشمل قواعد الحذف والإضافة والتقديم والتأخير والاضمار .

ثالثاً : عمليات الضبط النحوي وتشمل قواعد المطابقة كاتفاق الفعل مع فاعله والصفة مع الموصوف وقواعد الضبط الاعرابي .

الضمير العائد في حالات التقديم والجمل الموصولة ،
وللمصلة الوثيقة بين المباني الصرفية ومعانيها ، واستخدام
الجملة الاسمية .

ثم يعرض الكتاب للثورة النحوية الحديثة
ويستعرض إنجازات النحو التوليدي والنظريات
النحوية التي تفرعت عنه وشرح منطلقات النظريات
النحوية المعاصرة .

ثم ينتقل الكتاب الى مناقشة النحو العربي وأزمته
ويقدم اقتراحات عديدة لتحديثه منها الانطلاق من مبدأ
النحو العام والتحليل المنهجي لعلاقة النحو بالصرف
والدلالة ، ودراسة النحو كمنظومة متكاملة وضرورة
تنوع مناهج التنظير النحوي للعربية ، واستخدام
الحاسوب في إقامة النماذج النحوية للأسراع في حركة
تحديث النحو ، وإدخال مناهج اللسانيات الرياضية
والحاسوبية والاحصائية في الجامعات والمعاهد العربية .

ويتناول باقي الفصل المعالجة الآلية للنحو العربي
ويتعرض للتحديات التي تواجهها ومنها غياب صياغة
رسمية formalism للنحو العربي ، واسقاط علامات
التشكيل في النصوص المعاصرة ، وتعدد حالات اللبس
النحوي ، وحدة ظاهرة الحذف ، وعدم تسوفر
الاحصائيات النحوية . ولمعالجة هذه التحديات يقدم
الكتاب المقترحات التالية :

١ - استغلال مظاهر المطابقة والاعراب والتضام
والترتبة للمساعدة في فك اللبس الناجم عن غياب
التشكيل .

٢ - فصل قاعدة المعرفة اللغوية عن البرمجة
الاجرائية . وقد أصبح ذلك مبدأ في جميع أنظمة المعالجة

اللغوية الحديثة ، بل حتى في برامج النظم الخبيرة
expert systems .

٣ - « تعاون » الصرف والنحو لفك اللبس الناتج
عن غياب التشكيل .

٤ - استخدام الاحصائيات النحوية والصرفية في
ترشيد عمل المعالج الآلي النحوي .

٥ - التركيز على اللغة العربية الفصحى الحديثة .

٦ - توفير وسائل التعامل مع الاخطاء واقتفاء أثر
tracing المحلل الاعرابي .

وهناك ثلاث خطوات رئيسة يجب اتباعها عند بناء
المعالج النحوي وهي :

أ - تحديد الشريحة اللغوية التي يغطيها المعالج ؛ أي
تحديد أنواع التركيبات اللغوية التي سيتعامل معها ،
وقائمة المفردات ، والصيغ الصرفية .

ب - تحديد نظام التقعيد وذلك باختيار نوع الصياغة
الرسمية للقواعد النحوية ، ويكون الاختيار هنا من بين
القواعد التحويلية ، الوظيفية ، المتحررة من السياق ،
حساسية السياق ، التوحيدية unification
Grammar . . . الخ .

ج - اختيار خوارزمية البرمجة ويمكن هنا الاختيار من
شبكات الانتقال transition network ، شبكات
الانتقال المعززة ، شبكات الانتقال المتكررة ، الاعراب
من أسفل لأعلى أو من أعلى لأسفل ، . . . الخ .

ثم يصف المؤلف المعالج النحوي الذي يقوم بتطويره
حاليا والذي يتكون من المعجم ، وقاعدة المعرفة

وما تحدثه من ذبذبات في الهواء acoustic phonetics ومن حيث آثارها السمعية وما يحدث لدى السامع ابتداء من طبلة الأذن الى تمثل معنى الإشارة الصوتية في الدماغ auditory phonetics ، كما يمكن دراسة الكلام على مستوى الفونولوجي حيث تتعامل مع القواعد المجردة التي تحكم تشابح الأصوات والتي تحدد أي تشابح من الأصوات يكون قانونيا في اللغة المعنية وأيا غير قانوني ؛ فمن المعروف مثلا أن العربية الفصحى لا تسمح بالتقاء ساكنين في أول الكلام ولا تسمح في أي مكان بأكثر من ساكنين متتاليين ، أما الانجليزية فتسمح بثلاث سواكن في أول الكلمة وأربع سواكن في آخرها ، ومع ذلك فهناك قيود فونولوجية على نوعية السواكن التي يمكن أن تتابع . كما يبحث الفونولوجي العلاقات التي تنشأ بين الأصوات المجاورة وبينها وبين العناصر اللغوية الأخرى .

والفونيم ، في رأي نيل علي ، هو العنصر الذي للظاهرة الصوتية ، ويتأخر الحرف في الكتابة إلا أن التناظر غير تام بين الحروف والفونيمات . وتكون منظومة الفونولوجي من ثلاث آليات :

١ - تنوع الفونيمات . فالأصوات اللغوية تتأثر بما يسبقها ويلحقها من أصوات وينتج عن هذا التأثير والتأثر عدة عمليات فونولوجية كالادغام والأمالة والتفخيم والترقيق والحذف والإضافة والإطالة والتقصير . . . الخ .

٢ - التقطيع الصوتي . وهو تقسيم الكلمة الطويلة الى مقطعين أو أكثر فمثلا كلمة « كتاب » تتكون من مقطعين وكلمة « كتبنا » تتكون من ثلاث مقاطع ، ولكل لغة نظامها المقطعي الذي يحدد التراكيب

النحوية ، وروتيئات البرمجة ، ثم يشرح بإيجاز الخطوات الرئيسة للنظام النحوي المقترح للغة العربية ، فهو يبدأ من التحليل الصرفي والمعجمي للكلمات الجملة الداخلة ، ثم يبدأ في تطبيق قواعد البدائل المستحيلة وذلك للتخلص من حالات اللبس الزائفة والواضحة في وقت مبكر ، يلي ذلك تطبيق قواعد النحو التكوينية لأشباه الجمل وما يعلوها من مكونات نحوية ، ثم يطبق قواعد الضبط النحوي والاعرابي ، ويربط الضمائر بما تعود اليه وذلك بمطابقة السمات النحوية والدلالية للضمير مع سمات الأسماء وأشباه الجمل الاسمية الواردة ، ثم يقوم بتطبيق قيود الانتقاء الدلالي selectional restriction rules لاستبعاد البنى النحوية التي تتنافس مع منطق دلالات الألفاظ ، وأخيرا توليد التشكيل آليا بإضافة علامات التشكيل على ساق الكلمة وعلامات الضبط الاعرابي على أواخرها .

وينتهي الفصل بعرض سريع للتطبيقات العملية لمثل هذا المعالج النحوي ومنها التصحيح الآلي للأخطاء النحوية ، والتخاطب مع قواعد البيانات باللغة العربية ، والترجمة الآلية وتعليم النحو بواسطة الحاسوب .

الفصل السابع : المعالجة الآلية للكلام العربي (٤٢١ - ٤٥٦)

الكلام فعل حي دينامي وهو الأساس في الحدث اللغوي ، والكتابة ماهي في الواقع سوى أحد أشكال تمثيل الكلام ، فالكتابة إذن تابع للكلام وليس العكس . ويمكن دراسة الكلام على مستويين : مستوى الفونيتيك phonetic level وهنا نتعامل مع طبيعة الأصوات اللغوية من حيث مغارجها وطرق نطقها articulatory phenetics ومن حيث خصائصها الطبيعية

٢ - رد حروف الكتابة الى أصلها (فمثلا رد كافة أشكال العين الى العين) .

٣ - فك الحروف العربية ذات الطابع الثنائي مثل « لا » الى عناصرها المفردة .

٤ - تحويل سلسلة الحروف المكتوبة الى سلسلة فونيمات مناظرة .

٥ - تمثيل سلسلة الفونيمات في هيئة مقاطع .

٦ - تحديد مواضع النبر بتطبيق قواعد اللغة العربية واستخدام المعالج الصرفي ، وتحديد التنغيم المناسب للجملة بعد تحليل الجملة نحويا لمعرفة ما اذا كانت استفهامية أم خبرية . . الخ .

٧ - تطبيق القواعد الفونولوجية ومعطيات النبر والتنغيم .

٨ - توليد الاشارة الصوتية الرقمية بالحصول على البارامترات .

٩ - تحويل البارامترات الرقمية بعد تعديلها الى الاشارة الصوتية المقابلة لها .

ويمثل تمثيل الكلام العملية المعاكسة أي استخلاص الفونيمات من الاشارة الكلامية وتحويلها الى مقابلها المكتوب . ويعتبر التمييز أصعب بكثير من التوليد نظرا لفيض المعطيات الضخم الذي تحمله الاشارة الكلامية ، وللتداخل الشديد بين الفونيمات المتتالية ، وتغير سرعة الكلام وغط تنغيمه من وقت لآخر لنفس المتحدث ومن متحدث لآخر . ولهذا لا تحقق برامج تمثيل الكلام حاليا نجاحا الا في مجال الكلمات المنعزلة ولعدد قليل من المتكلمين .

المسموحة في تكوين المقطع ، وتميز العربية ببساطة واطراد نظامها المقطعي .

٣ - النبر والتنغيم . ويقصد بالنبر تشديد النطق على مقاطع معينة في الكلمة ، ويوضح التنغيم قصد المتحدث وحالاته الانفعالية ، فباختلاف التنغيم يمكن لنفس الجملة أن تعبر عن الفرح أو الدهشة أو الاستنكار أو السخرية . . . الخ .

ويتناول الجزء الثاني من هذا الفصل معالجة الكلام آليا ، وهو موضوع يمثل تحديا هائلا لعدم نقاء الاشارة الكلامية واختلاط الأصوات فيها بالضجيج ، كما أنها تتغير وفقا لانفعالات وطبيعة صوت المتحدث وتأثير وتأثر كل صوت فيها فيما قبله وبعده . ولمعالجة الكلام آليا لابد من توافر العناصر التالية :

١ - تكويد coding الاشارة الكلامية وذلك بضبط معطيات الاشارة وإبراز خصائصها المميزة ، وتمثيلها بعدة بارامترات ليسهل مقارنتها ومطابقتها برمجيا .

٢ - برامج معالجة اللغة المختلفة كالمعالج الصرفي والنحوي والدلالي .

والمقصود بمعالجة الكلام آليا هو اما توليد الكلام speech synthesis أو تمثيله speech recognition . ويمكن توليد الكلام المستمر بتكوين الكلمات من وحدات أصغر كالفونيمات أو المقاطع الصوتية ، ثم صهر عناصر الكلمة الصوتية مع مراعاة القواعد الفونولوجية الخاصة باللغة . وبالنسبة للعربية ، يلخص الكتاب خطوات توليد الكلمة المنطوقة فيما يلي :

١ - ادخال النص المكتوب المراد نطقه آليا .

التحليل اللغوي ، فالمعجم اذن هو منظومة ذات كيان شبكي ، يرتبط بعلاقات خارجية متعددة ويوج داخله بشبكة كثيفة من العلاقات المتداخلة (القهري ١٩٨٥) . ويعاني المعجم العربي من أزمة حادة تلخص مظاهرها في القصور الحاد في المصطلحات العلمية ، ووجود النظرة الى تكوين الكلمات الجديدة ، والاكتفاء بتنظيم مواد المعجم على أساس الجذور والذي يفترض معرفة المستخدم بتفاصيل التحليل الصرفي والقواعد الفونولوجية الخاصة بالابدال والاعلال والحذف وغيرها ، وإهمال العلاقات المعجمية التي تربط بين الكلمات ، وعدم توافر معاجم خاصة للترادف والتضاد ، وشبه إغفال الكلمات المركبة ، وإغفال البعد التاريخي في رصد الكلمات وتطور معانيها عبر الأجيال .

ولعالجة أزمة المعجم العربي يضع نبيل علي إطاراً عاماً « لمنظومة المعجم الموسعة » نلخصه فيما يلي :

١ - تحديث المعجم بإضافة المفردات والتعابير الاصطلاحية الجديدة وحذف المهجور منها ، وتحديث العلاقات بين مفردات المعجم ، وتجميع الاحصائيات عن معدلات استخدام المفردات والتعابير الاصطلاحية داخل النصوص .

٢ - صك الألفاظ الجديدة من خلال آليات مختلفة لتكوين الكلمات كـ الاشتقاق والتشريك والمنزج والاقتراض ، منج توسيع الاشتقاق وتخفيف القيود على اقتراض المصطلحات الأجنبية واستغلال الرصيد الكبير من مفردات العربية السحيقة .

٣ - الاهتمام بدراسة عمليات الازاحة الدلالية للكشف عن أسرار تغير معاني الألفاظ سواء على مستوى الجذور أو الصيغ الصرفية .

ويرى المؤلف أن العربية تمثل حالة لغوية ملائمة للفهم الأوتوماتي للكلام المستمر والذي له تطبيقات عملية عديدة في بناء الآلات السامعة القارئة وتمييز المتكلمين والبريد الصوتي .

الفصل الثامن : ميكنة المعجم العربي (٤٥٧ - ٥٢٩)

المعجم هو القاسم المشترك لجميع مستويات التحليل اللغوي ، وقد اكتسب أهمية كبرى متزايدة في النظريات اللغوية المعاصرة (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) و (Chomsky 1981, 1982, 1984, 1986) فكثير من الظواهر اللغوية التي كان يظن أنها جزء من التراكيب أمكن تفسيرها بطريقة أفضل من خلال معطيات المعجم ومن ذلك مثلاً ظاهرة المبني للمجهول .

وتحتوي كل مادة معجمية على معطيات فونولوجية تحدد النطق الصحيح والكتابة السليمة لهذه المادة ، كما تحدد المعطيات الصرفية مقولة الكلمة وصيغتها التصريفية ونوع الاشتقاق وخصائص التصريف ، وتعطي المعلومات النحوية معلومات عن القواعد التي تحكم وجود اللفظ في الجملة وعلاقته بما يسبقه ويتلوها من الألفاظ . فإذا كان اللفظ فعلاً تبين إذا كان لازماً أو متعدياً ، وإذا كان متعدياً توضح إذا كان متعدياً لمفعول واحد أو لمفعولين ، وكذلك أنواع المكملات والملحقات ؛ وتصف المعطيات الدلالية المحملات predicates كما تحدد الأدوار الوظيفية والسمات الدلالية لموضوعات الفعل ومكملاته وموصوف الصفة وملحقاتها ؛ كما يعطي المعجم تعريفاً لمعنى الكلمة باستخدام المترادفات اللفظية أو شرح المعنى . وليس المعجم مجرد قائمة من الكلمات المنعزلة التي لا رابط بينها ، بل إنها تتشابك فيما بينها مكونة شبكة هائلة من المفاهيم والعلاقات الأساسية على كافة مستويات

المعجم حقيقية تعبر عن الاستخدام الفعلي للجماعة اللغوية وبذلك لا ينعزل المعجم عن متكلمي اللغة .

ويتهيء الفصل بعدد من التوصيات لتطوير ويمكن المعجم العربي من أهمها : ربط تطوير المعجم بتحديث نظام التقعيد للغة ، والفصل بين العربية الحديثة والعربية القديمة ، ومراعاة العامل الجغرافي في الاستخدام اللغوي ، وتلبية احتياجات جميع مستخدمي المعجم ، والانطلاق من منظور دلالي ، ووضع الأسس لتصنيف المعجمي الدقيق بوضع سمات قياسية صرفية ونحوية ودلالية للألفاظ العربية ، والاهتمام بالعلاقات بين الكلمات ، وأخيراً ينتهي الكاتب بذكر عدد من المؤسسات العربية التي تقوم بأبحاث ليكنة المعجم العربي .

الخاتمة (٥٣١ - ٥٥٠)

تناقش الخاتمة ثلاث قضايا : أولها تفسير خلو الكتاب من فصل عن المعالجة الآلية للدلالة في اللغة العربية ، وأرجع المؤلف ذلك للوضع الحالي للمعالجة الآلية للدلالة إذ أنه ما زال في مراحله الأولى ، ولقصور الدراسات الدلالية في اللغة العربية ، وحاجة المعالجة الآلية للدلالة إلى خلفية نظرية في المنطق والرياضيات وأساليب الذكاء الاصطناعي . والقضية الثانية هي العلاقة بين اللسانيات الحاسوبية وتعريب المعلومات ، ويرى هنا أولوية المعالجة اللغوية فهي التي ستقام عليها تطبيقات النظم المختلفة للمعلوماتيات . وتنتهي الخاتمة بقائمة قيمة لسبعة وتسعين بحثاً مقترحاً في كافة مجالات اللسانيات الحاسوبية ، وهي لا شك دعوة مفتوحة

٤ - جمع التعابير الاصطلاحية في العربية الحديثة وترتيبها وتحليل العلاقات البنيوية والدلالية بينها ، والتوصل إلى القيود النحوية على استخدامها ودراسة ظاهرة الاستعارة في العربية .

٥ - ترك المهجور من الجذور مثل « أب أ » ، والصيغ غير المستساغة مثل « مفعولاء » واستبعاد المفردات والتعابير الاصطلاحية المهجورة .

٦ - يواجه تنظيم المعجم على أساس الجذر عدة مشاكل : فهو لا يلائم غير المتخصصين من العامة والصغار لأنه يفترض الإلمام بالقواعد الصرفية ، ولا يسهل تحديد مصدر الاشتقاق في حالة التعدد ، ويعتمد على قدرة المستخدم على استنتاج خصائص المفردات الصرفية والنحوية ، ولهذا لا بد من إعادة تنظيم المعجم بإضافة بيانات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية ، وإعطاء تصنيف أدق لأنواع المشتقات لاجلاء اللبس ، وتوضيح خصائص التعددية واللزوم للأفعال . ويجب أن يراعى في تنظيم المعجم امكانية استخدامه على أربعة مستويات على الأقل : كقائمة مفردات للغة ، وكمصفوفة علاقات صرفية ونحوية ودلالية ، وكقاعدة بيانات ، وكقاعدة معرفة متكاملة .

٧ - بناء قاعدة نصوص لغوية ضخمة من مصادر مختلفة كالوثائق والصحف والتقارير والكتب والمسرحيات والأعلانات . . . الخ ليستخرج منها مؤشرات كمية وأمثلة واقعية للاستخدام الفعلي للمفردات ، وإحصائيات عن طول الجمل وتنوع أساليبها ، ويضمن ذلك أن تكون المعلومات الواردة في

جديدة بينما لا يجد القاريء العادي صعوبة في فهمها واستيعابها .

أولاً : منهجية العرض

تميز الكتاب بمنهجية العرض والالتزام بها في عرض كافة القضايا . وانعكس محور الكتاب وهو الثنائية « اللغة العربية والحاسوب » في كل فصل من فصول الكتاب ، حيث لكل فصل شقان : شق لغوي وشق حاسوبي . والتزم أيضاً بالبداية بالشق اللغوي في كل فصل ، متقللاً بذلك من السهل - باعتبار اللغة موضوعاً عاماً - الى الصعب . وفي تناوله للشق اللغوي ، يبدأ من المفاهيم العامة ثم ينتقل الى الخصوصيات وينتهي باللغة العربية ، وهو بهذا يضمن أن يكون لدى القاريء الخلفية العامة في اللسانيات التي تمكنه من استيعاب وتقدير مشكلات اللغة العربية ، وبالإضافة الى هذا فهو ينحو نحواً منهجياً سليماً يتفق مع النظريات اللغوية الحديثة التي تهتم بالأنحاء الكلية - universal gram- mar وتنظر الى اللغات المختلفة كمحالات خاصة من اللغة الانسانية التي تتوافر خصائصها العامة في جميع اللغات الطبيعية . ويبدأ الشق الحاسوبي في كل فصل بتحديد المنطلقات الأساسية للمعالجة الآلية ، كما يعرض في كل فصل إطاراً عاماً للمعالجة الآلية للمستوى اللغوي المطروح والتطبيقات العملية المختلفة التي تنبثق منها . وكان لهذه المنهجية والالتزام بها في كافة فصول الكتاب أثر كبير في جعل الكتاب سلس القراءة ، سهل الاستيعاب ، فهو يتدرج بالقاريء بطريقة منطقية سليمة ويتنقل باستمرار من العام الى الخاص ويربط النتائج بمقدماتها .

لعلمائنا الشبان من المتخصصين في اللسانيات أو علوم الحاسوب كي يسهموا في معالجة التحدي الذي يواجه الأمة العربية في ظل الثورة المعلوماتية المعاصرة .

تحليل وتعليق

هذا الكتاب اثره قيم للمكتبة العربية ، فهو أول كتاب عربي في اللسانيات الحاسوبية ، ويجب النظر اليه في هذا الاطار . وقد قدم المؤلف فيه عرضاً شاملاً للجوانب المختلفة في هذا المجال .

الا أن الكتابة في موضوع تخصصي كهذا أمر شائك ، فاذا وجه المؤلف حديثه الى المتخصصين فقد جمهوراً عريضاً من المثقفين التواقين الى معرفة هذا العلم الجديد والمستعدين لبذل الجهد الذهني اللازم لذلك ، واذا وجه حديثه الى المثقفين فقد العمق والالتزام العلمي وانزلق الى الضحالة والعمومية . يتخذ المؤلف قراره باختيار القاريء الذي يخاطبه قبل البدء في الكتابة حتى يحدد مستوى العرض وتناول الموضوع . ولا شك أن نبيل علي قد اختار أن يوجه كتابه للمثقفين العرب وليس الى المتخصصين ، فقد خلا الكتاب من تفصيلات النواحي الفنية المعقدة والتحليلات النظرية في علم اللغة وأساليب اللسانيات الحاسوبية . وأصبح الكتاب متعة ذهنية للقاريء المثقف ينهل منه دون صعوبة أو ملل ، ورحلة بسلا عائداً للمتخصصين في اللسانيات الحاسوبية . ويجب أن نقر بأنه ربما كان يستحيل أن تجمع المعالجة بين الشمول الذي قدم به الموضوع ودرجة عمق في تناول موضوعات الكتاب ، فقليلة هي الكتب المتخصصة التي يجد فيها المتخصص متعة ذهنية وأفكاراً

مضمون الكتاب

يرى القارئ عنوان الفصل الأول وهو « منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب » ، ويتوقع أن يرى عرضاً للغة العربية من منظور غير لغوي ، ولكنه يجد عرضاً جيداً للغة العربية ، من منظور لغوي ، فيجد عرضاً لكافة مستويات التحليل اللغوي كالتحليل الصوتي ، والصرفي والنحوي . . الخ كمكونات لمنظومة اللغة ، كما يجد عرضاً للعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة كعلاقتها بالمنظومة النفسية والاجتماعية والطبيعية . . الخ ، ثم يعرض الكتاب لخصائص المنظومة اللغوية (أي خصائص النحو الكلي) ، ثم ينتقل الى خصائص اللغة العربية ، ثم يتناول تطور اللسانيات وأخيراً يعرض لبعض مشاكل التنظير للغة العربية . والسؤال المُلح هنا « أين هي منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب في هذا ؟ » ان ما في هذا الفصل لا يخرج عما ندرسه لطلبتنا في المقرر التمهيدي لعلم اللغة وهو يمثل نظرة علماء اللغة في البحث اللغوي وفي اللغة الانسانية كظاهرة طبيعية . وقد كان من الأوفق لنيل علي أن يكون عنوان الفصل « منظومة اللغة العربية » فقط .

إلا أن طرح اللغة من منظور الحاسوب هو أمر هام في كتاب كهذا ، وإذا أردنا معالجة هذا الموضوع فيجب أن نذكر أن الحاسوب ينظر الى اللغة بعدة طرق منها :

١ - نظرية اللغة الصورية Formal language theory

اللغة عبارة عن مجموعة لا متناهية من الجمل an infinite set of sentences ، ويمكن للحاسوب أن

يتعرف على أعضاء هذه المجموعة إذا أعطي له وصف دقيق لما يجب أن تكون عليه الجملة . وهذا الوصف الدقيق الذي يتطلبه الحاسوب هو النحو . ومن هنا جاءت الرباعية التي تحدث عنها نيل علي تحت عنوان النموذج الرياضي للنحو في صفحة ٣٤١ . ويتطلب الحاسوب نحواً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ، مما يفرض على عالم اللغة أن يتعد عن العموميات في تحليله وأن يضع كافة التفصيلات التي تحكم صحة الجملة . ولكي يستطيع الحاسوب أن يبني شجرة الأعراب للجملة فينبغي أن يتكون من مجموعة من المقولات ، ورمز الجملة وعدد محدود من قواعد الانتاج production rules ومفردات اللغة . وبدون كتابة نحو اللغة بهذه الطريقة لا يستطيع الحاسوب معالجة اللغة آلياً .

٢ - اللغة كهيكل معلومات information structure . ينظر الحاسوب الى قواعد اللغة ومفرداتها كبنية معلوماتية ، فتمثل كل كلمة من كلمات اللغة في شكل شجرة معلومات تحتوي على المعلومات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية المتعلقة بهذه الكلمة ، وتحدد شجرة المعلومات هذه الكلمات والبنياں الذي يمكن هذه الكلمة أن تتحد معه مكونة شجرة معلومات على مستوى أعلى . . وهكذا حتى نصل الى مستوى الجملة . وتتطلب هذه النظرة وضع كل المعلومات اللغوية في المعجم اللغوي الآلي بما في ذلك القيود الخاصة بتكوين العبارات والجمل .

٣ - اللغة كمنظومة رياضية . يجيد الحاسوب اختبار صحة المعادلات الرياضية ، بمعنى أنه إذا أعطي مقولتين

والفكرة هنا أن جميع القواعد موجودة في شكل معادلات equations، وهي تقول بأن الجملة تتكون من أربعة مكونات: فعل ومركب اسمي (الفاعل)، ومركب اسمي آخر (المفعول به) بشرط أن يكون الفعل من النوع الذي يتطلب مركباً اسمياً من مكملاته، وإن هناك جاراً ومجروراً أيضاً، وتقول المعادلات التالية إن الفعل والفاعل يجب أن يتفقا في الجنس وأن فاعل الجملة هو المركب الاسمي الذي يلي الفعل، بينما المفعول به هو المركب الاسمي الثاني. . . ويمكن قول كل شيء عن الجملة وشروط صحتها النحوية من خلال هذه المعادلات. وهكذا ينظر الحاسوب إلى اللغة كمنظومة من المعادلات.

وفي الحقيقة هذا ما يهيم عالم اللسانيات أن يعرفه، هو يريد أن يعرف صورة النحو الذي يمكن أن يقبله الحاسوب لأن هذه الصورة تختلف عما تعود اللساني أن يكتبه وعما يقرؤه في كتب النحو العام. وكان هذا ما يجب أن يكون عليه التركيز باقضية ويكثر من الأمثلة التوضيحية بأعانة كتابة كثير من القواعد التقليدية بالصورة التي تتطلبها المعالجة الآلية.

يستطيع أن يحدد إذا كانتا متساويتين أم لا. وبالتالي فهو ينظر إلى اللغة كشبكة من علاقات المساواة. وبناء على هذا المنهج يستطيع الحاسوب تحويل جميع شجرات الاعراب إلى شكل معادلات المساواة. فإذا أردنا للحاسوب أن يحلل الجملة التالية:

شاهدت سعاد علياً في الحديقة.

وكانت شجرة الاعراب لهذه الجملة ما يلي:

فإن قواعد هذه الجملة تكتب في شكل المعادلات التالية:

جملة = (س - صفر س - ٢ س - ٣)

(س - صفر مقولة) = فعل.

(س - صفر جنس) = (س - ١ جنس).

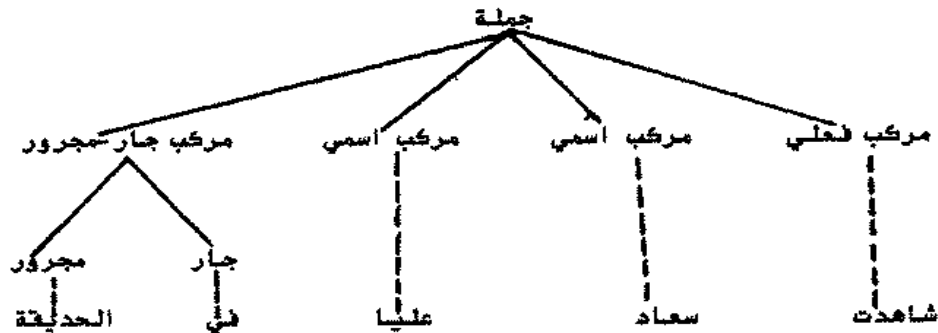
(س - صفر عدد) = (س - ١ عدد).

(س - صفر مكملات) = مركب اسمي.

(س - صفر فاعل) = س - ١.

(س - صفر مفعول) = س - ٢.

..... الخ.



ولنا نفس التعليق على الفصل الثاني من الكتاب والذي عنوانه « منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية ». فهو يحدد الاطار العام لمنظومة الحاسوب في رباعية ، هي : العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . وليس هذا الاطار هو منظور اللغة الى الحاسوب ، بل هو اطار هذه المنظومة من منظور الحاسوب ، ثم يتناول البعد العربي لكل من هذه العناصر وهو يعني تطويع هذا العنصر ليلبي احتياجات المستخدم العربي ، وهذا بالتأكيد شيء جيد . ولكن يبدو لي - وقد أكون مخطئاً - أنه قد يكون من المناسب عندما نتحدث عن الحاسوب من منظور اللغة أن نذكر كيف يمكن للغة استخدام الحاسوب لخدمة البحث اللغوي ، فالمعروف أن علماء الحاسوب واللسانيات الحاسوبية في البلدان المتقدمة استطاعوا بناء أدوات للبحث اللغوي computational tools for linguistic analysis ، وأن استخدام هذه الأدوات قد مكّن علماء اللغة من اختبار صحة نظرياتهم مما كان له أثر في اندثار بعض النظريات والتحليلات اللغوية وقيام غيرها . فقد كان للسانيات الرياضية والحاسوبية الفضل في إظهار أن النحو التحويلي لا يزيد في قوته عن آلة تورينج (ريتشي وبيترز ١٩٧٣) ، وأنه لا يمكن التوصل الى البنية العميقة من خلال البنية السطحية . وأدى هذا الى ظهور نظريات لغوية توليدية غير تحويلية ولا تعترف الا بالبنية السطحية ومن ذلك نظرية « نحو البنية العامة للجمل » Generalized Phrase Structure Grammar (GPSG) والنظرية الوظيفية المعجمية Lexical Functional Grammar (LFG) . ولكل من النظريتين برامج حاسوبية

لكتاباة الأنحاء في الصياغة الصورية لكل منهما . وقد كان للحاسوب ولا يزال أثر كبير في ظهور وتطور هذه النظريات . فما يهم عالم اللغة اذن أنه يريد أن ينظر الى الحاسوب من خلال ما يستطيع أن يقدمه للغة وللبحث اللغوي ، ولا شك أن الحاسوب يقدم إمكانيات هائلة للبحث اللغوي سواء على مستوى تقديم أدوات تقنية عالية تضاعف من فعالية عالم اللغة أو كاختبار لصحة النظريات والتحليل اللغوي ، أو كمستطلبات عملية تفرض على عالم اللغة معالجتها وحلها ، وأبسط مثال على ذلك الاهتمام الشديد هذه الأيام بعلم الدلالة لأن التقدم في هذا الفرع من اللسانيات شرط ضروري للتقدم في فهم ومعالجة اللغات الطبيعية .

توجد الى جانب ذلك بعض الأحكام غير الصحيحة في أماكن متفرقة من الكتاب مثل :

١ - يقول في حديثه عن ثنائية التحليل والتركيب « تعد عمليات التمييز بشكل عام أعقد من عمليات التوليد ، اذ تتعامل الأولى مع دخل متغير لا يمكن تحديده سلفاً ، ولا يفترض وجوب صحته لغوياً » (صفحة ١٨٧) ، والذي يتتبع أدبيات اللسانيات الحاسوبية يجد أن برامج تحليل اللغات قد سبقت بكثير البرامج التوليدية ، ربما كان ذلك لأننا في التوليد نبدأ من المعنى وننتهي الى النص ، ولما كانت الأبحاث عن طرق تمثيل المعنى في بدايتها الأولى ، فقد أثر ذلك على البرامج التوليدية . والفكرة السائدة الآن هو أنه يجب استخدام نفس التحليل اللغوي في كلا الاتجاهين ، التحليل والتوليد ، غير أن البرامج التطبيقية تتطلب أن تسمح للمستخدم بعمل أخطاء لغوية الا أن الحاسوب في رده لا

فقد ميزوا بين المجهور وغير المجهور . كما توصلوا لعدد من القواعد الصوتية المختلفة كالإبدال والاعلال ، والحذف ، والاضافة ، والادغام ، وغيرها . كما كانت الصوتيات من أول فروع علم اللغة الحديث ، وقد حققت تقدماً هائلاً ، وإذا جاز لنا أن نتحدث عن أقل الظواهر اللغوية حظاً من حيث الدراسة والبحث ، فلا شك أن أول ما يخطر ببال اللغوي هي الدلالة .

٤ - يقول المؤلف « يمكن القول أن الجمل العربية تنسم بضحالة بنيتها العميقة وذلك إذا ما قورنت بلغات أخرى مثل الانجليزية مثلاً » (صفحة ٣٥٧) . ومن الصعب تقبل فكرة ضحالة أو عمق البنية العميقة للغة ما ، فالبنية العميقة ما هي الا افتراض نظري مجرد من خلق عالم اللغة عن الدلالة التي يتوصل اليها الانسان من البنية السطحية للجمل . وتتجه معظم النظريات اللغوية المعاصرة الى نبذ فكرة البنية العميقة لأنها تعتمد بشكل رئيسي على النحور التحويلي الذي تقوم فيه القواعد التحويلية بتمثيل العلاقة بين البنية السطحية للجمل وبنيتها العميقة .

لا يمكن هذه الملاحظات البسيطة أن تقلل من قيمة وأهمية الكتاب ، فقد حفل بكم هائل من المعلومات القيمة ، وأود أن أذكر نبيل علي بما قاله في صفحة ١٣ « فإن بحثنا هذا لا يعدو أن يكون مجرد بداية ستحتاج حتماً الى التفريع والتفصيل والتعميق » ونحن في انتظار العمل القادم لنبيب علي ليكون إثراءه الثاني في علم اللسانيات الحاسوبية .

يجوز أن يأتي بجملته خاطئة نحويًا ، ومن هنا كان لا بد من أحد أمرين : إما أن يختلف النحو المستخدم في التوليد عن النحو المستخدم في التحليل ، أو أن يقوم البرنامج بارشاه بعض القواعد عند التحليل ليتجاوز الأخطاء التي يقع فيها المستخدم . والحالة الوحيدة التي تصبح فيها مقولة المؤلف هذه هي حالة التعامل مع الكلام المنطوق .

٢ - وفي صفحة ٢٠١ يقول نبيل علي « هناك لغات فونيمية ، كاللغات الانجليزية والروسية والأسبانية ، يمثل كل حرف فيها فونيميا واحداً في أغلب الأمور » وهذا مخالف للواقع ، فلم يقل أحد عن اللغة الانجليزية إطلاقاً أنها لغة فونيمية ، خذ مثلاً حرف s بالانجليزية فهو مرة ينطق « س » في كلمة sam ومرة ش كما في كلمة sure ومرة « ز » كما في كلمة dogs ومرة ج كما في كلمة pleasure . والحقيقة أن اللغة الانجليزية غير فونيمية على الإطلاق وقد كان هناك تفكير في أوائل هذا القرن لتعديل طريقة كتابتها حتى تصبح منطقية أكثر ولكن استبعد هذا الرأي لعدة أسباب .

٣ - ويقول نبيل علي في فصل المعالجة الآلية للكلام العربي ما يلي : « الكلام ، أو الصوت اللغوي ، هو بلا شك ، أكثر الظواهر اللغوية تأسلاً وتجلياً ، وهو في نفس الوقت أقلها حظاً من حيث الدراسة والبحث » ، وهذا الحكم يتنافى الحقيقة ، فقد كان لعلماء اللغة العرب القدامى فضل دراسة الكلام دراسة وافية وتوصلوا الى وصف دقيق لمخارج اللفاظ ولبعض السمات الصوتية ،

المراجع

- ١ - الفهري ، عبد القادر الفاسي . المعجم العربي : نماذج تحليلية جديدة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ .
- ٢ - فرغلي ، علي . "Three Level Morphology" ، بحث القى في ورشة عمل عن الصرف العربي ، جامعة ستانفورد ، كاليفورنيا ، ١٩٨٧ .
- ٣ - فرغلي ، علي . « الحاسب الآلي والعلوم الانسانية » في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٨ .
- ٤ - منصور ، فوزي . « استراتيجية اتباع الحاجات الاساسية كاستراتيجية تنمية » ، الحلقة النقاشية الثانية عشرة ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، ١٩٨٨ .
- 5 — Bresnan, J. (ed.) 1982. *The Mental Representation of Grammatical Relations*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 6 — Chomsky, N. (1957). *Syntactic Structure*. The Hague.
- 7 — (1965). *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 8 — Chomsky, N. 1981. *Lectures on Government and Binding*. Foris, Dordrecht.
- 9 — 1982. *Some Concepts and Consequences of the Theory of Government and Binding*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 10 — 1984. *Knowledge of Language : Its Nature, Origin and Use*. New York, Praeger.
- 11 — 1986. *Barriers*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 12 — Gazdar, G. et al. 1985. *Generalized Phrase Structure Grammar*. Cambridge, Massachusetts. MIT Press.
- 13 — Jackendoff, R. 1977. *X-Bar Syntax : A Study of Phrase Structure*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 14 — Kay, M. 1987. *Nonconcatenative Finite-State Morphology*. Presented at the *Workshop on Arabic Morphology*, Stanford University.
- 15 — Koskeniemi, K. 1983. *Two Level Morphology : A General Computational Model for Word-Form Recognition and Production*. Doctoral Dissertation, University of Helsinki.
- 16 — Selkirk, E. 1982. *The Syntax of Words*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 17 — Weaver, W. 1955. "Translation", in Locke & Booth (eds.) *Machine Translation of Languages*, New York, Technology Press of MIT and Wiley.



بعد كتاب « ليسكي » المعنون « بيروقراطية الخدمات الجماهيرية » أول كتاب رئيسي حول البيروقراطيين المتصلين بالخدمات الجماهيرية ينشر وسط اهتمام أكاديمي متنام بهذا المجال .

وتدور الدراسة حول مكان الفرد في سياق الخدمات العامة ، ويخلص المؤلف ، من دراسته ، الى أن فهم أفضل للسياسة العامة يمكن أن يتحقق ليس من خلال دراسة أنشطة وأعمال المستويات الادارية العليا ، بل عن طريق دراسة العلاقة بين من يقدم الخدمة مباشرة ومن يتلقاها .

وتستند الدراسة الراهنة الى ملاحظات جرى تسجيلها عن السلوك الجماعي لتنظيمات الخدمة العامة ، وتسعى الدراسة كذلك الى تطوير نظرية حول نشاطات بيروقراطيات الخدمات الجماهيرية كما يمارسها العاملون في تلك التنظيمات والمؤسسات .

ويرى المؤلف أن موظفي تلك المؤسسات التي تتعامل مع الجماهير ، يشغلون مركزاً دقيقاً في المجتمع الأمريكي في الوقت الراهن . وهو يعرف الموظف الذي يتعامل مباشرة مع الجمهور بأنه « بيروقراطي مستوى الشارع » على حد تعبيره ، وذلك مثل المدرسين وضباط الشرطة والاختصاصيين الاجتماعيين والقضاة والمحامين وموظفي مؤسسات الخدمات العامة ، ومن ثم فهو يشير الى الهيئات التي ينتمي اليها أعداد كبيرة من هؤلاء بوصفها « مؤسسات بيروقراطية على مستوى الشارع » على حد تعبيره ، أي مؤسسات بيروقراطية تتعامل مباشرة مع الجماهير .

ان الأساليب التي يقوم من خلالها أولئك الموظفون العاملون بتلك المؤسسات ، الخدمات والجزاءات ،

بيروقراطية الخدمات الجماهيرية

تأليف : ميشيل ليبسكي
عرض وتحليل : فريد الناصر
مدرس علم الاجتماع

ويحددون بواسطتها ضروب حياة الناس وفرصهم ،
تشكل السياق الاجتماعي والسياسي الذي يعمل الناس
من خلاله ، وتوجهه .

ويتحكم هؤلاء البيروقراطيون المتعاملون مع الجماهير
في الجدل السياسي أو الخلافات السياسية التي تدور
حول الخدمات العامة وذلك لسببين عامين ، يرجع أولهما
إلى أن الجدل والخلافات حول مجال الخدمات الحكومية
إنما تدور أساساً حول هؤلاء الموظفين العموميين من
حيث مجال عملهم ووظائفهم . أما السبب الثاني فيكمن
في أثرهم الملموس على حياة الناس فهم على سبيل المثال
الذين يشكلون - اجتماعياً - توقعات المواطن للخدمات
الحكومية ، كما يصوغون على نفس المستوى أيضاً مكانه
في المجتمع السياسي ، انهم على حد تعبير ليبسكي
« يسكون بمفاتيح بعد من أبعاد المواطنة » وهو مقتنع
تماماً بضرورة النظر إلى موظفي المستويات البيروقراطية
الدنيا هؤلاء ، ليس بوصفهم منفذي سياسة فقط ، بل
بوصفهم صناع سياسة المنظمات التي يعملون بها .

ويتسق منطق ليبسكي ، الذي يضفي أهمية بالغة
على بيروقراطي الخدمات الجماهيرية ، أو كما يطلق
عليهم في بعض الأحيان موظفي خط المواجهة الأمامية
في مؤسسات الخدمات العامة - يتسق - مع أغلبية
البحوث والدراسات في هذا المجال ، أي مجال
المؤسسات البيروقراطية .

وقد حدد بيتر بلاو (Blau, 1956) ثلاث
خصائص تشترك فيها تلك المؤسسات بوصفها
خصائص ضرورية لأدائها واستمرارها ، وهي
التخصص في الأدوار والأعمال والمهام ، ووجود قواعد

موضوعية مستقلة ذاتياً عن الأشخاص ، ووجود توجه
عام لانتجاز أهداف وغايات محددة بكفاءة وفاعلية .

ويعتمد مدى قدرة التنظيم البيروقراطي على المحافظة
على تلك الخصائص واستمراريتها على التوازن الدينامي
الذي تحرص على استمراره بالنظر إلى علاقته بالبيئة
والوسط العام الذي يوجد التنظيم في إطاره . وتحفظ
البيروقراطية باستقلالياتها وتميزها وقدرتها على تحقيق
أهدافها طالما ظلت الرقابة التنظيمية والإشراف وصنع
السياسة ، ووضعها في أيدي أصحاب الحق الشرعي في
ممارسة تلك المهام . وقد تتعارض هذه النتيجة مع حالة
التمركز البيروقراطي "Bureacratization" التي تعني
تكريس الأنشطة والقوة البيروقراطية لخدمة مصالح
المؤسسة البيروقراطية ، أو لخدمة مصالح الصفوة أو
النخبة العليا في التنظيم .

إن آثار التمركز البيروقراطي ، كما يذهب أيزنشتات
(Eisenstad) يمكن أن تحتوي على تطوير وتنظيم صارم
متعاضم regimentation لبعض مجالات الحياة
الاجتماعية ، ووضع أهداف وخدمات - المؤسسة
لصالح مصالح قوى وتوجهات مختلفة (P. 306) .

ويضرب أيزنشتات مثلاً بالحزب السياسي الذي
يمارس ضغوطاً على من يتوقع تأييدهم له ، وذلك في
محاولة لاحتكار حياتهم الخاصة والمهنية والافراد بها حتى
يجعلهم تابعين للحزب تماماً ومعتمدين عليه .

وبذلك يكون لدى الجهاز الوظيفي للحزب القوة
والنفوذ الذي يمكنهم من تغيير مسار الحزب ورسالته
الحقيقية وذلك بحكم كونهم في خط المواجهة ، فهم على
صلة مباشرة بالمؤيدين المحتملين في دائرة الحزب .

شكلاً من أشكال التقنين التي عادة ما تتجاهل الاعتبارات الانسانية للعملاء . إن ظروف العمل في هذه المؤسسات غالباً ما تضع العاملين بها في مواقف متناقضة على نحو ما يذهب اليه ليبسكي .

إن المهمة المشتركة التي تواجه بيروقراطي الخدمات الجماهيرية تتمثل في التوفيق بين مسئولياتهم غير المحدودة في اتخاذ قرارات تتعلق بمشكلات العملاء ، وقدرتهم المحدودة على حل تلك المشكلات فعلاً . ومن شأن هذا التوفيق أن يؤدي الى ممارسات تضر بمصالح العملاء ، كأن تقلل من طلبهم للخدمات في حالة تطبيق إجراءات روتينية غير ضرورية ، ووضع العقوبات أمامهم لدى طلبهم لتلك الخدمات .

وينتقل ليبسكي لمناقشة الفروق بين موظفي الخدمات الجماهيرية والمديرين فيذهب الى القول بأن « العاملين في المستوى الأدنى يتميزون بممارسات متعلقة بأعمالهم تختلف عن تلك الممارسات التي يتسم بها المديرين ، فمن مصلحة العاملين أن يقللوا من الأخطار التي يتعرضون لها وأن يقللوا من المتاعب التي يتعرضون لها في العمل وأن يزيدوا من دخلهم واشباعهم الشخصي . إن أولويات العاملين لا تهم الإدارة في جانبها الأعظم إلا بمقدار ارتباطها بالانتاجية والفاعلية . إذ يهتم المديرين بتحقيق النتائج التي تتفق مع أهداف مؤسساتهم ، (P. 18).

ويركز ليبسكي على ندرة المصادر في وسط يتطلع الى خدمات غير محدودة ، كما يركز على الافتقار الى التجديد الدقيق للمسؤولية Accountability في مؤسسات وهيئات وتنظيمات تتسم بوسائل تكنولوجية تفتقر الى

ويحتل بيروقراطيو مستوى الشارع الوضع نفسه تقريباً فمنهم صانعو القرار الذين يحتكون احتكاًكاً يومياً مباشراً مع عملاء التنظيمات والمؤسسات ، وهم يستطيعون ، من هذا الموقع ، كما يوضح ليبسكي ، أن يغيروا من المجال الشرعي والوظائف الشرعية للتنظيم وذلك من خلال تقديم « منافع وخدمات أقل » وتوقيع « جزاءات أكبر » على العملاء ، خدمات أقل مما تحدده اللوائح والتشريعات التنظيمية ، وجزاءات أكبر مما تحدده تلك اللوائح أيضاً . وهكذا فإن تأثيرهم يمتد الى بعض مجالات الحياة الاجتماعية بتغييرهم بعضاً من أهداف الخدمة وقد يتم توجيهها لصالح البيروقراطية على حساب مصالح العملاء والمصالح العامة .

وفي ضوء الخصائص الثلاث المشتركة للتنظيمات البيروقراطية التي حددها بيتر بلاو يمكن القول إن بيروقراطي مستوى الخدمات الجماهيرية الذين يتجاوزون سلطاتهم يخاطرون ويتجاوزون خاصية التوازن الدينامي من خلال فشلهم في المحافظة على خاصيتي التخصص في الأدوار والقواعد الموضوعية المستقلة .

وبحلال تحديد ليبسكي وتحليله لمشكلات هؤلاء الموظفين وظروف عملهم ، يناقش الصراع بين انفلات العاملين وتصرفهم على هواهم وبين الانساق والتنظيم الاجرائي الضروري في ضوء اعتبارات المساواة ، كما يناقش الصراع بين استقلالية العامل أو الموظف وبين المتطلبات التنظيمية للرقابة الاشرافية . لقد أعطي هؤلاء الموظفون صلاحيات واسعة للتصرف مع العملاء ومعاملاتهم وفقاً لظروف كل منهم ، في نفس الوقت الذي يتوقع منهم أن ينفذوا الاجراءات التي تتطلب

وقد كشف عن أن كافة موظفي الخدمات الجماهيرية يميلون الى تضيق نطاق الخدمات وتحديداتها ، كما يميلون الى التحكم في العملاء وفي ظروف العمل ، ويطورون وسائل سيكولوجية لاختزال التفاضلات بين الأداء الذي يتوقعونه من أنفسهم وبين حصيلته الخدمة الفعلية التي يحصل عليها عملاؤهم .

ويعتمد ليبسكي على مجموعة من المصادر التي تمكنه من تقديم وصف وتحليل ممتاز لما يجري في ظروف العمل فهو يفسر - بأسلوب متعاطف مع كل من العاملين والعملاء - الدوافع البيروقراطية الكامنة وراء مثل تلك الممارسات ، مثل توزيع الخدمات على أفضل العملاء الذين قد لا يكونون في حاجة ماسة اليها (كما هو الحال حينما تلاحق برامج الارشاد الوظيفي أولئك العملاء الذين من الممكن أن يجدوا فرص عمل دون تدخل تلك البرامج) والاقتصاد في الموارد التي يمكن تحقيق أقصى كفاءة من خلالها وذلك بممارسات مثل تحويل سلطة اتخاذ القرار للآخرين وهلم جرا ، حيث تصبح كل ممارسة من تلك الممارسات بمثابة ميكانيزم بقاء فردي وتنظيمي .

لقد أشرنا من قبل الى تعريف ليبسكي لموظفي الخدمات الجماهيرية (مستوى الشارع) بوصفهم أولئك الذين يتكون بالجمهور بصورة مباشرة أثناء قيامهم بأعمالهم والذين يتمتعون بخبرة في تلك الأعمال . وإن أردنا المقارنة فقد يكون مفيداً أن نتمعن في تعريف داويز (Downs, 1967) للبيروقراطي وذلك في دراسته المعنونة « في داخل البيروقراطية » ، فهو يعرف

الدقة ، كما تتميز بأهداف غامضة وغير محددة . كما يهتم أيضاً بالعوامل التي تسهم في خلق هوة بين العاملين والعملاء . ثم يستكشف آتخذ نتائج تلك العناصر وآثارها ، فالمحصلة سلبية بالنسبة للعملاء ، وأشكالية فيما يتصل بالرقابة التنظيمية ، أما بالنسبة لرضا العاملين عن العمل فهو محدود في أحسن الأحوال .

ويذهب ليبسكي الى أن موظفي الخدمات الجماهيرية - في تلك الظروف يفتقدون الوقت والتدريب والمعلومات التي تمكنهم من السواء بزخم الاحتياجات والمطالب المنوط بهم تحقيقها ، وإذا أضفنا الى ذلك غموض أهداف التنظيم وتضاربها بما تعكسه من خلاف سياسي ، فان قياس أداء العاملين ونتائج الخدمات تصبح مسألة نادرة ، أما العملاء فلا حول لهم ولا قوة في التحكم في الموقف ، ومن ثم تقل المنافع التي سيحصلون عليها وتكثر الجزاءات التي يقعون تحت طائلتها .

ويسمى ليبسكي الى اختيار نظريته عن التحكم في ظروف العمل ، وهو يضع في اعتباره أن موظفي الخدمات الجماهيرية يعملون في ظروف تنطوي على درجة عالية نسبياً من عدم اليقين وذلك بسبب تعقد موضوع عملهم وهو التعامل مع الناس ، والسرعة التي تتطلبها عملية اتخاذ القرارات ، وكثرة تلك القرارات ذاتها .

وينطوي اختبار هذه النظرية على تحديد ما اذا كانت النتائج السلوكية المشتركة تحدث عبر مهن جماهيرية مختلفة ومتباينة ، يمر العاملون فيها بظروف عمل متشابهة .

تدقيقها ومراجعتها اذا ما قورنت بمعظم الأعمال التنظيمية الأخرى ، وكون هذه الأعمال تجري في إطار معايير للعمل (مثل ثقة العميل) مما يقلل من الدقة في التقييم الى حد كبير .

وينطبق على موظفي الخدمات العامة ، السمة أو الخاصية الأخيرة التي طرحها « داووز » أيضاً ، والتي يذهب منها الى استحالة قياس انتاجية الموظف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إذ يذهب « ليسكي » الى أن هؤلاء الموظفين يضعون معايير يقيمون أداء العاملين وفقاً لها ، فعلى رجال الشرطة أن يقبضوا على عدد معين من المطلوبين شهرياً ، وعلى الاخصائيين الاجتماعيين أن يدرسوا عدداً معيناً من الحالات لكن كفاءة تلك المعايير فيما يتصل بالسلامة العامة أو قدرة العميل عند الاخصائيين الاجتماعيين على التغلب على المشكلات تظل منطوية على إشكاليات مثيرة للجدل .

ويكشف ليسكي وبمزيد من التوضيح « عن التعقيد السدي يكتنف تفسير مثل تلك المقاييس الأدائية والانتاجية حين يثير تساؤلات حول ما اذا كانت زيادة معدلات المقبوض عليهم تعني أداء جيداً للشرطة فيما يتصل بمجال القبض على المطلوبين أم أن ذلك هو العكس بمعنى أن ذلك يشير أيضاً الى تزايد معدلات الجريمة ومن ثم تزايد أعداد المطلوب القبض عليهم .

ومحلل ليسكي أيضاً ، التطبيقات الراهنة للمقاييس الادارية التي صممت لتأمين وتوفير وضمان المسالة والمحاسبة بين بيروقراطي الخدمات العامة ، لكنه ينتهي الى استحالة تلك المحاسبة والمسالة البيروقراطية بين

البيروقراطي بوصفه شخصاً يتسم عمله بأربع سمات أساسية على النحو التالي :

١ - أنه يعمل في تنظيم كبير .

٢ - وهو متفرغ لعمله في هذا التنظيم ويحصل من عمله هذا على النصيب الأعظم من الدخل .

٣ - تنبني السياسة التي يتبناها التنظيم ازاء العاملين بها على معيار الانجاز أو الاداء الوظيفي .

٤ - ان تقييم انتاجية أي فرد من العاملين لا يمكن أن يتم بصورة مباشرة أو غير مباشرة وعلى أسس سوقية وتجارية من خلال العمليات التبادلية الاختيارية ، دون أن يجري تقييم أداء التنظيم وفقاً للأسس ذاتها .

وبينما يفي بيروقراطي الخدمات الجماهيرية كما يعرفهم ليسكي بمتطلبات المعيارين الأولين اللذين حددتهما « داووز » ، فإن نقطة أساسية من نقاط أطروحة ليسكي تظل متمثلة في أنه من الصعوبة بمكان إجراء تقييم وأداء هذا المستوى من العاملين ، وهو يسوق أسباب هذه الصعوبة على النحو التالي :

١ - غموض الأهداف ، وذلك مثل توفير السلامة العامة أو تأهيل المواطنين تأهيلاً جيداً .

٢ - ثمة متغيرات عديدة في السلوك الانساني ، وثمة استحالة لتعيين ما يمكن أن يحدث للعامل في حالة غياب التدخل والاعتراض ، وميل موظفي الخدمات العامة الى أداء أعمال يصعب

والاختلافات الملموسة في مجالات الخدمات المختلفة .
انه يؤلف تأليفاً ذكياً بين نظرية التنظيم وعلم النفس
الاجتماعي والمنظور السياسي الراديكالي في كل مترابط
ومتناسك .

وهو لا يقدم أعذاراً عن قصور أعمال موظفي
الخدمات العامة ، ولا يحث على مساعدتهم بل يضع
مشكلة بيروقراطي الخدمات العامة في موقعها من بنية
عملهم في محاولة للكشف عن الظروف التي يمكن أن
تطور القطاع العام الذي يهدف الى الخدمات العامة
بحيث يستطيع أن يقدم خدمات أفضل لعملائه علاوة
على احترامهم وتقدير ظروفهم من ناحية ، والتعرف على
الظروف التي يمكن في ظلها توفير عناصر من العاملين
أكثر كفاءة وقدرة على تقديم الخدمات بصورة فعالة .

ورغم ذلك يخفق « ليسكي » في سد الفجوة بين
التشخيص الذي يطرحه للمشكلة والعلاج الذي
يقترحه لها ، إذ يبدو أن الفلسفة السياسية التي يتبناها
وينطلق منها هي ذلك النوع الذي ينشد تغييرات
اجتماعية واسعة وشاملة حتى يمكن التغلب على
المشكلات الهائلة التي تحوي مجالات الخدمات العامة
بوضعها الراهن . إن تشخيصه ببساطة وفي هذا الضوء -
لا يوحى بعلاج جذري على المدى القريب مع اعترافه
بالمجازفات والمخاطر الفكرية التي تنطوي عليها
محاولة صياغة طرق واتجاهات جديدة لرؤية تلك
المشكلة .

ان أبرز ما يميز دراسة ليسكي يكمن في تطلعه الى
الربط بين ضربين منفصلين من التراث الفكري

المستويات الأولى من العاملين الذين يتمتعون بدرجة
عالية من حرية التصرف فيما يتصل بالجوانب النوعية
(أي التي لا يمكن قياسها كمياً) من أعمالهم .

ويناقش « ليسكي » .. كذلك الأزمة المسالية
وانعكاسها على بيروقراطي الخدمات العامة ، ويخلص
من هذه المناقشة الى تحليل الامكانيات والوسائل الكفيلة
بزيادة فاعلية الخدمات الحيوية التي يقوم بها العاملون في
هذا المستوى « أي مستوى الشارع والجمهور » .

وثمة نتيجة هامة تترتب على تكيف العاملين في مجال
الخدمات مع المواقف المتناقضة والمتصارعة التي يجدون
أنفسهم فيها ، تمثل في تحول ما يقومون به بالفعل في
اتصالهم بعملائهم واحتكاكهم بهم ، الى سياسة
تنفيذية . إن ذلك هو ما يجري في مكاتب الرعاية العامة
وفي الفصول الدراسية ، وفي الخدمات الجماهيرية
الأخرى . ويذهب ليسكي الى أن تلك السياسة المنفذة
فعلاً ، تعكس أشكال عدم المساواة ، وغياب العدالة
والتعصب القائمة في هذا المجتمع . وبخاصة ما يتعلق
بالفقراء والأقليات .

ليس ثمة شك في أن تحليل بيروقراطية الخدمات العامة
يساعدنا في الكشف عن الملامح الشائعة والمشاركة
للتعامل مع الناس ، كما أن من شأنه أن يكشف أيضاً
عن السمات الفريدة والخاصة ، في الأوساط المهنية
المتخلفة التي تظهر فيها تلك السمات واللامح .

أن المنهج المقارن - في أساسه - الذي ينهجه ليسكي
خليق بأن يثير تساؤلات علمية هامة تدور حول الفروق

المؤسسات التعليمية للنهوض بمثل تلك الأعمال المرتبطة بالخدمات العامة والاتصال اليومي المباشر بالجماهير بما يكتنفها من ظروف معينة .

وفي الختام أرى أنه عمل ممتاز في مجال التنظيم الاجتماعي والاداري وعلم الاجتماع المهني ، وأرى أيضاً أنه لن نعطي الكتاب حقه ما لم يقرأ بتفاصيل فصوله الستة من قبل المتخصصين ، وهو عمل جدير بالقراءة .

والعلمي ، ألا وهما السياسة العامة وعلم الاجتماع المهني والتنظيمات ، كما تتميز هذه الدراسة أيضاً باحتوائها على تفاصيل مشوقة حول المشكلة التي يتصدى لها ، ومع ذلك فقد أخفقت الدراسة في طرح المشكلات والقضايا وتناولها من وجهة نظر العاملين أنفسهم كتفسيرهم للعمل وما يعنيه بالنسبة لهم على سبيل المثال . أما ما تفتقر اليه تلك الدراسة فهو بعض الاقتراحات حول التأهيل التعليمي للطلبة في

References

- Blau, P. M. (1956). **Bureaucracy in Modern Society**. New York.
- Downs, A. (1967). **Inside Bureaucracy**. Boston : Little Brown.
- Eisenstadt. S. N. (1969). Bureaucracy, bureaucratization, and debureaucratization. In A. Etzioni, **Sociological reader on complex organizations**. New York : Holt, Rinehart and Winston.
- Lipsky, M. (1980). **Street/ Level bureaucracy**. New York : Russell, Sage Foundation.

العدد التالي من المجلة
العدد الرابع - المجلد العشرون
يناير - فبراير - مارس
قسم خاص عن
العلوم الطبيعية والافسانية والاجتماعية

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

(أ) العلوم الطبيعية والإنسانية والإجتماعية

(ب) الطاقة النووية

(ج) الإعلام المعاصر

(د) الفكر العربي المعاصر

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو تجماع القول في الموضوع الذي تناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثرى ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوباً ومحموداً بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الإدارة

٥	ليرات	سوريا	٧	درهم	دولة الامارات
٤٠	فرنك	القاهرة	٦	ريال	سعودية
٣٠٠	مليار	السودان	٤	ريال	طبر
٥٠	فرنك	ليبيا	٥٠٠	فلس	بحرين
٥٠٠	بيسة	مسقط	٥,٥	ريال	يمن الشمالية
٦	دنانير	الجزائر	٤٠٠	فلس	يمن الجنوبية
٦٠٠	مايم	تونس	٤٠٠	فلس	مراكش
٧	درهم	المغرب	٥٠	ليرة	تونس
			٣٠٠	فلسا	اردن

شتركات:

بلاد العربية ٥ دنانير

بلاد الاجنبية ٦ دنانير

ل قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خاصة الصاريف
ل بنك الكويت المركزي ، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك الى :

ارة الاعلام - الاعلام اأخاري - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت

الشمس

٤٠٠ فلس



عالم الفكر

المجلد العشرون - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٩٠ م

العلم والقيم الأخلاقية

- دور المؤسسات العلمية في العلوم الطبيعية والإنسانية.
- العلم والقيم الأخلاقية.
- إنهمكار اليقنين.



«مجلة عالم الفكر» قواعد النشر بالمجلة

- (١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .
- (٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-
 - (أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .
 - (ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .
 - (ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .
 - (د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
 - (هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .
 - (و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .
- (٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام - الكويت - ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: **حمدي يوسف الرومي**
مستشارة التحرير: **دكتورة نورية صالح الرومي**

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٩٠م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص. ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية

٥	الدكتور عبدالمالك التميمي	العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية
١٣	الدكتور أحمد سعيدان	العلوم الطبيعية والإنسانية ودور المؤسسات العلمية
٤٧	الدكتور عبادة العمر	العلم والقيم الأخلاقية
٦١	الدكتور محمد عامر	انبياء اليقين
٧٧	الدكتور سواهي عبد محمد	لمحات تاريخية من الفكر التربوي في مقدمة ابن خلدون

...

شخصيات وآراء

٩٥	الدكتور إمام عبد الفتاح إمام	الفلسفة الثنائية عند زكي نجيب محمود

...

مطالعات

١٥١	الدكتور ضياء الصفيقي	لُبّة القصة في كتاب البخلاء للجاحظ

...

من الشرق والغرب

١٨٥	الدكتور مصباح أحمد الصمد	الرواية الفرنسية الجديدة

...

صدر حديثاً

٢٢٣	عرض وتحليل الدكتور أبو الجذ حرك	اوضاع العالم عام ١٩٨٧م
	تأليف: الدكتور محمد عابد الجابري	بنية العقل العربي
٢٣٩	عرض وتحليل: الدكتور عمود الذواوي	

مجلس الإدارة

- **حمدي يوسف الرومي** (رئيساً)
- **د. نورية صالح الرومي**
- **د. رشاحمود الصباح**
- **د. عبدالمالك التميمي**
- **د. علي المشوط**

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.

المحرر الضيف لمحور العدد
الأستاذ الدكتور عبدالمالك التميمي

المحرر الضيف لعدد (العلوم الطبيعية
والإنسانية والاجتماعية) هو الأستاذ الدكتور عبدالمالك
التميمي أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في قسم
التاريخ بجامعة الكويت ورئيس قسم التاريخ فيها .
له عدة كتب وأبحاث وشارك في عدة مؤتمرات عربية
ودولية .

التمهيد

تعريف :

في البداية لا بد من تعريف عام لمفهوم العلم ثم العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية حتى تتمكن من بناء الموضوعات الأخرى ونحدد مسارها . هناك عدة تعريفات أطلقت على العلم بيد أنها لم تستقر على تعريف واحد ، وأهم تعريف يمكننا الاعتماد عليه والمفترض أن يكون جامعاً مانعاً هو : إن العلم هو مجموعة المعارف والحقائق والخبرات الإنسانية ، وتشمل العلوم كلها الطبيعية والإنسانية والاجتماعية . فالعلوم الطبيعية تعنى أساساً بالمادة وتتناول العلم الطبيعي المحيط بنا بشكل عام .^(١) وتنقسم إلى قسمين علوم أساسية وعلوم تطبيقية ، فالعلوم الأساسية هي جميع العلوم الطبيعية ما عدا الهندسة ، والعلوم التطبيقية هي الهندسة بتطبيقاتها المختلفة^(٢) .

أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فهي معنية بالإنسان والتأثيرات البيئية والاجتماعية المؤثرة عليه ، وتستعين بالفكر والحقائق ، ولها مناهجها الخاصة بها .

فإذا كان تعريف العلم بمفهومه الواسع يشمل العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية فإن الحياة لا تستقيم على أحدهما ذلك يعني أنها معا جناحا الحياة ومرتبطة ارتباطاً عضوياً .

الهدف :

يهدف هذا التمهيد والدراسات المطروحة في هذا العدد من المجلة إلى إيجاد خطاب مشترك ، أو أرضية

العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية

عبدالمالك التميمي

قسم التاريخ - جامعة الكويت

(١) أحمد سليم سعيدان ، مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، نوفمبر ١٩٨٨ ، ص ١٢ ، ١٥ .

(٢) د . جاسم الحسن ود . أسامة الحولي ، ندوة العلوم الطبيعية والإنسانية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ربيع ١٩٨٩ ، جامعة الكويت ، ص ١٥٢ .

مشتركة يقف عليها أصحاب العلوم الطبيعية وأصحاب العلوم الإنسانية والاجتماعية تنهي النزاع المفتعل بين العلمين لخير الإنسان وتطوره الحضاري في الحياة .

إن تحقيق هذا الهدف أصبح مطلباً ملحاً في وقتنا الحاضر لأن الإنجازات الهائلة التي تحقّقها التطبيقات التكنولوجية المعاصرة قد خلقت جواً من الخوف على مصير البشرية من جهة وربما أوجدت انطباعاً واعتقاداً بانتهاء دور العلوم الإنسانية والاجتماعية من جهة أخرى . الأخطر هو جموح بعض جوانب الإنجازات التكنولوجية التي تجعل التفكير جدياً بأهمية الدور الذي يجب أن تلعبه العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وأن الوقت قد حان لردم الهوة بين هذه العلوم ، وما هذه الدراسات إلا معالجات جادة لقضايا تهم العلاقة بين نوعي العلوم ، والبحث في طبيعتها وفي تفاعلها لخير الإنسان والبناء على الأرض .

البعد التاريخي :

إن كثافة المعلومات وتطور البحث العلمي قد أوجدا تباعداً بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية إلى حد الانفصال بينهما ، وهذه الظاهرة حديثة . لقد كان الفيلسوف والعالم والأديب يكاد يكون شخصاً واحداً^(٣) ، وفي تاريخنا العربي الإسلامي شواهد عديدة على ذلك ، أما ما يحدث في ميادين وفروع العلوم المختلفة من ظواهر التجزئة والتخصص الدقيق فإنها رغم إيجابياتها - لأنه من الصعب على العقل البشري أن يلم بكل هذه المعارف والمعلومات والتخصصات - قد تؤدي إلى نتائج سلبية على المعرفة العلمية من جهة وعلى الإنسان وحياته من جهة أخرى .

إن هذا التطور الهائل في العلم والتطبيقات التكنولوجية قد حدث في فترة زمنية وجيزة ، وإننا نسمع ونرى إنجازات تحدث كل يوم لم تكن لتتحقق في قرون سابقة .

ففي العشرينيات من هذا القرن كانت صلتنا نحن العرب بالتكنولوجيا ضئيلة : مصابيح كهربائية نسمع عنها ولا نراها ، وأجهزة هاتف في مكاتب حكام المحافظات ، وسيارات بطيئة الحركة ، وطائرات تبعث الخوف أكثر من الدهشة . وفي الثلاثينيات طفئ المذياع على الحاكي ، وعمت المصابيح الكهربائية ، وأنشئت دور السينما ، ويكاد هذا يكون كل عهدنا بالتكنولوجيا في حينها .^(٤)

ودخلنا في الأربعينيات من هذا القرن في عصر تزايد فيه العلم والتقنيات حتى بلغ أضعاف ما بناه الإنسان على مر العصور ، وفيه انفصل العلم عن الفلسفة التي كانت بالأمر القريب تضم كل المعارف الإنسانية حتى لو ظهر شخص مثل برنارد راسل ليجمع بين الرياضيات والفلسفة في عصرنا . إن ما نعرفه عن علم العصر الحاضر يحمل جوانب لا أخلاقية بعيدة عن مبادئ فلسفية وإنسانية توجه السياسة وهنا مكنم الخطر على الحضارة الإنسانية .

(٣) د . أسامة الخولي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٤) أحمد سليم سعيديان ، المصدر السابق ص ١٥٣ .

الآثار السلبية لتطور الصناعي :

إن اعتقاد عدد من الدول المتقدمة بأن تطوير صناعة السلاح مثلا هو الذي يوفر الأمن وحماية مصالحها قد أفضى إلى تطوير خطير في أنواع معينة من الأسلحة تهدد مصير البشرية جمعاء بما فيها شعوب تلك الدول الصانعة لذلك السلاح .

ثم إن تطور التقانة في عصرنا بهذه الكيفية والكمية والسرعة له آثار جانبية خطيرة على صحة الانسان ومستقبله على الأرض فقد أصبح تلوث البيئة وتطور الصناعة أحد المشكلات الأساسية التي تواجه الانسان في عصرنا ففي الوقت الذي تتطور فيه الصناعة تبذل الجهود والأموال الكبيرة للحد من التلوث البيئي الذي أصبح مشكلة أساسية مستجدة في حياتنا ، ومصدرا لكثير من المتاعب والأمراض للبشر .

لقد شهد العالم المتقدم في النصف الثاني من القرن العشرين أمرين أفضيا إلى تغيير جوهري في الحياة . الاول ، تفجر المعرفة العلمية والقدرة التكنولوجية ، والثاني ، تفجر التكاثر السكاني* (٥) . لكن السؤال الهام هو : كيف تطور العالم المتقدم ؟ من دراسة التاريخ وتأمل تجاربه نجد أن الغرب قد تطور بسبب اعتماده على العلم والتفكير العلمي ، ولم نتطور نحن لأننا لم نفعل كما فعل ، بل لم نفعل كما فعل أسلافنا .

الروابط بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية :

يتميز كل من العلمين بالتراكمية المعرفية ، فهذا التطور الذي نراه اليوم سواء في العلوم الطبيعية أو في العلوم الإنسانية والاجتماعية ليس وليد اليوم ، وإنما هو نتاج جهد بشري مستمر مئات السنين .

وفيا يتعلق بالمنهج فمن الخطأ الاعتقاد بأن هناك منهجا واحدا في أي نوع من العلوم ، كما أنه ليس هناك علم بدون منهج ، المهم هو التفاعل والتقارب في المناهج المتبعة في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية أو بعض فروعها .

وتحصر العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية على عدم تأثير نتائج البحث العلمي بمواقف ومعتقدات الشخص الباحث ، ولكن لا تخلو المسألة على أي حال من موقف الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية .

إن الكثير من العلوم الطبيعية يعتمد على التجربة وتكرارها للحصول على النتيجة نفسها أو نتائج أخرى ، لكن ذلك غير ممكن في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، فلكل علم طبيعته وخصائصه ، وهذا لا يعني أن كلا منهما لا علاقة

(٥) أحمد سليم سعيدان ، المصدر نفسه ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٥) هناك أمور أخرى لي غاية الأهمية بالإضافة إلى تفجر المعرفة العلمية والقدرة التكنولوجية وتدمير التكاثر السكاني ، مثل تطور البحث العلمي ، وتلوث البيئة وغيرها .

له بالآخر لأن هدفهما معا خدمة الانسان والحضارة الإنسانية ولأن العلم بفروعه المختلفة يسعى لمواجهة احتياجات الإنسان الأساسية والعمل على حل المشكلات التي تواجهه سواء أكان العلم طبيعياً أم إنسانياً .^(٦)

ومهما كان اعتقاد أصحاب العلوم الطبيعية أو بعضهم بأن العلوم الإنسانية والاجتماعية تقع في نطاق الأدب وهي ثقافة عامة وليست علوماً ، وأيضاً مهما كان اعتقاد أصحاب العلوم الإنسانية والاجتماعية أو بعضهم بأن العلوم الطبيعية تتعامل مع المادة وليس مع الانسان ولم تصل الى ما وصلت لولا تطور العلوم الإنسانية فإن الحقيقة التي لا مفر منها هي وجود خطاب مشترك وأرضية مشتركة بين العلمين وبين المجتمع العلمي الطبيعي والمجتمع العلمي الإنساني والاجتماعي محوراً لمواجهة احتياجات الإنسان وحل مشكلاته .

إن التطبيقات العلمية يجب أن ترتبط بأوضاع المجتمع وهذا يتطلب تضام الجهود في هذا الميدان مع جهود العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وإذا سلمنا بأن ما يصنع من المعرفة العلمية ونائجها قضية مجتمعية إنسانية فكيف نستطيع الفصل بين التطبيقات التكنولوجية والعلوم الإنسانية ؟ إن العلم ليس كياناً مطلقاً دوافعه ذاتية بل يرتبط عضوياً بأوضاع المجتمع ، ومهما كانت الرؤية الداخلية للإنجاز العلمي فإن الرؤية الخارجية تؤكد أن التكنولوجيا نتاج تطور البحث العلمي ، وأن البحث العلمي في جميع العلوم يرتبط باحتياجات المجتمع .

التكنولوجيا المعاصرة :

إن التكنولوجيا هي الأساليب والخبرات والمعارف والتطبيقات العلمية التي يحقق بها المجتمع على مر العصور احتياجاته وهي أقدم من العلم^(٧) .

لقد وضع التطور التكنولوجي الهائل الذي جاء بعد الثورة الصناعية العالم أمام تطور جديد ، وخطر جديد ، فهناك تحول نوعي في علم الإلكترونيات الدقيقة ، وتطور هائل في أبحاث الفضاء وتطبيقاتها وأخطر من ذلك ما يجري في هندسة الجينات أو الهندسة الوراثية . فتقف أخطار الهندسة الوراثية على قدم المساواة مع فوائدها ، ويجري استخدام الأساليب الهندسية الوراثية في خلق أنواع مختلفة من البكتريا لإنتاج الهرمونات مثل الانسولين البشري ، وهورمون النمو النخامي لدى الانسان ، والانثرنرون البشري وكذلك البروتينات الفيروسية لاستخدامها في إنتاج اللقاحات فيما بعد^(٨) .

(٦) د . أسامة الخولي ، د . عبد الله العمر ، د . عبد الملك التميمي ، د . سليمان الشطي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٧) د . أسامة الخولي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الأساسية ، المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٨) د . جون ب . ديكسون ، ترجمة شعبة الترجمة باليونكو ، العلم والمشتغلون بالبحث في المجتمع الحديث ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أبريل ١٩٨٧ ، ص ٢٢٨ . انظر أيضاً د . عبد المحسن صالح ، التنبؤ العلمي ومستقبل الانسان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ديسمبر ١٩٨٤ الطبعة الثانية ص ٢٣٦ .

وهناك استخدامات أخرى لنتائج التطور التكنولوجي ، فهناك تحويل لمصانع المبيدات الحشرية إلى مصانع لإنتاج الغازات السامة ، وهناك فساد البيئة الذي يهدد البشر ، فقد بدأ الحديث عن ثقب طبقة الأوزون في الفضاء ، وانتشار سرطان الجلد ، وتأثير ارتفاع درجة الحرارة على الأرض ، وصناعة الأسلحة وغيره مما يهدد البشرية بالفناء وهو أمر في غاية الخطورة . لكن المسؤولية لا تقع على التكنولوجيا بل على استخدام نتائج التطور التكنولوجي ، كما يجب ألا ننسى الجوانب الإيجابية لتلك الاستخدامات في مواجهة الأمراض وفي تطور نواحي الحياة المختلفة^(٩) .

إن العلم وتطبيقاته التكنولوجية هو العامل الأساسي والأول الذي أعطى العالم المعاصر ما يتميز به من تغيرات سريعة ، لكن التطبيقات العسكرية للعالم هي التي فاقت كل ما عداها إلى درجة جعلت عددا متزايدا من الناس يفكرون في الأمر من مختلف الاتجاهات يتساءلون هل سيكون للنوع البشري مستقبل على كوكب الأرض إذا استمر في استخدام قدراته العلمية دون التزام بضوابطه الأخلاقية وأصبح القلق يملك عددا كبيرا من العلماء والمفكرين^(١٠) .

هذه التكنولوجيا لها سمات وسرعة تطور لم تشهدا البشرية من قبل ولنقل قد بدأت منذ الحرب العالمية الثانية . وتنسجم هذه التكنولوجيا بالتنام شديد بين العلم النظري والعلم التطبيقي ، وهذا التوجه سيؤدي إلى مزيد من التبعية لأن البون شاسع بيننا وبين الدول المتقدمة في هذا المجال .

صحيح أن العلم والتكنولوجيا يؤديان إلى إنتاج ثروات الانسانية وتعزيزها كأحد إنجازاتها لكن ذلك الجانب الايجابي لا يلغى مخاوف المفكرين والعلماء من الشطط في استخدام نتائج التطور العلمي والتكنولوجي . يقول الدكتور عبد الله العمر في هذا الصدد : « ان المسار الخطيء الذي يسير فيه العلم ناجم عن افتقار كثير من السياسيين والعلماء للابعاد الأخلاقية والإنسانية ، فالمسألة اليوم لم تعد مسألة إنجازات علمية أو تطورات تكنولوجية نستطيع أن نحققها في هذا الميدان أو ذاك من ميادين الحياة ، وانما المسألة اليوم نرجع في الأساس إلى النتائج والعواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب على استخداماتنا للعلم وتطبيقاتنا للتكنولوجيا »^(١١) .

إن القلق يسود عامة المفكرين والمتقنين حول نتائج هذه الثورة التكنولوجية المعاصرة ، فهل هي في صالح الانسان أم ستكون سببا في فناءه وتدمير حضارته ؟ ، لقد كانت الشعوب في الماضي تشعر بالسعادة عندما يكتشف علماءها إنجازا علميا أو يبدعون في مجال من مجالات حياتها ، وكان ذلك يحدث بين فترة زمنية وأخرى قد تمتد عشرات السنين ،

(٩) د . أسامة الخولي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، المصدر السابق ، ص ١٧٤

(١٠) توماس اودهامبر ، ترجمة سعد رهران ، العلم كجبر من الثقافة الإفريقية ، مجلة الثقافة العالمية ، العدد ٢٤٦ ، السنة الثامنة ، مايو ١٩٨٩ ، ص ٧ - ٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

(١١) د . عبد الله العمر ، أرض في مهب الريح ، جريدة القبس ، الكويت ١٥ / ٦ / ١٩٨٩ م العدد ٦١٤٢ .

انظر أيضا : مجموعة من الباحثين ، استراتيجية تطور العلوم والثقافة في الوطن العربي ، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، أغسطس ١٩٨٩ م ، ص ٤٦

لكننا اليوم نجد أنفسنا غير قادرين على استيعاب ومواكبة هذا الكم والنوع الهائل من نتائج التطور العلمي والتطبيقات التكنولوجية ، ويزداد خوفنا وقلقنا مع كل اكتشاف واختراع لأن الجوانب السلبية توازي الجوانب الإيجابية في استخدام منتجات الثورة التكنولوجية التي نعيشها ، هذا الوضع يفرض أن يكون هناك دور فعال للعلوم الانسانية والاجتماعية في التفاعل مع العلوم الطبيعية من جهة وفي التوعية لتجنب سلبيات التطبيقات التكنولوجية من جهة أخرى .

التطور العلمي والقرار السياسي :

يلعب القرار السياسي دورا مهما في التطور العلمي لأن أي مجال من مجالات التنمية لا يمكن أن يشهد تغييرا أساسيا إلا بقرار سياسي لكن القرار السياسي وحده لا يحقق حلم المجتمعات في النهضة لأن شروطا أخرى يجب توفرها إلى جانبه مثل الإمكانيات المتاحة والظروف الموضوعية .

لقد حرصت الدول المتقدمة أو حرصت الدول الغربية - حتى تحقق تقدمها - على إقامة المؤسسات العلمية بقرار سياسي لأنها أدركت بوعي النتائج الايجابية لمثل تلك المؤسسات في المستقبل . والطريق الصحيح في هذه المسألة هو اختيار المنهج العلمي والتخطيط من قبل السلطة السياسية وحماية ذلك الاختيار ، وتتوقف حماية هذا القرار على أصحاب العلوم الانسانية فمهمتهم التمهيد له والدعوة له وتنمية وعي الناس بأهميته ، ومن ثم الدفاع عنه .

إن وجود المؤسسات العلمية المنتجة أساس لحماية القرار السياسي في مسألة التطور العلمي ، وإن تأسيس القيم وإيجاد الفكر الفلسفي والسياسي والجمالي عنصر هام للدفاع عن المؤسسات العلمية وتأكيد وجودها ويرى البعض بأن وجود الديمقراطية شرط أساسي في التطور العلمي ، فهي تشكل ضمانة أكيدة لتوجيه التطور العلمي لخدمة المجتمع ولكنها ليست شرطا حاسما في التقدم العلمي^(١٢) .

كيف لا يساهم القرار السياسي في مسألة التطور العلمي ، ومسئولية أصحاب القرار أساسية في وضع الاستراتيجية لتطور المجتمع ومن ضمنها التطور العلمي ؟ إن حركة المجتمع لا يجب أن تتوقف لتحقيق ذلك الهدف إذا لم يكن للقرار السياسي دور في مرحلة من مراحل التاريخ . وهنا لا بد لقوى المجتمع التي تنشأ التقدم من أن تلعب دورا يساعد على خلق القرار السياسي الذي يخدم عملية التطور العلمي . ويتطلب توجه القرار السياسي لصالح هذا التطور إلى جانب ذلك كله وعي وإدراك صاحب القرار بأهمية العلم والثقافة في حياة المجتمع .

الخاتمة :

هناك علماء نظريون يستكشفون ويتقصون ، فيكشفون وينظرون ويسهمون في إغناء الفكر العالمي ، وهناك

علماء تطبيقيون يتكرونها ويبدعون ، أو يحسنون ويطورون ، وإلى جانب هؤلاء فلاسفة وكتاب يلمون بالعلوم والاتجاهات الفكرية القائمة إماما يتميزون به عن ذوي التخصص المحدود ، وكلهم أصحاب رسالة (١٣) .

لا يمكن لأي مجتمع يطمح إلى النهوض أن يستغني عن الذين يرصدون الحركات العلمية والتكنولوجية ، ويساهمون فيها ، ولا عن المفكرين والمصلحين الاجتماعيين الذين يضعون أيديهم على مواطن الضعف في المجتمع يحللون ويستقدون ويستنتجون ويقترحون ، وشعراء وفنانين يتحدثون عن الجمال واللغة ويمدون الناس بروائع نتاجهم وإبداعهم ، ومترجمين يقدمون لنا روائع الفكر العالمي . إن النهضة هي حصيلة عمل كل هؤلاء وأولئك البسطاء والناس العاديين كذلك الذين ليسوا من المفكرين ولا من العلماء ولكنهم يساهمون في صنع تاريخ البشرية ، ولهم دورهم الهام ولولاهم لما استطاع العلماء المفكرون التوصل إلى ما توصلوا إليه من إنجازات علمية .

والحقيقة أننا بحاجة إلى ثقافة علمية واسعة تعطينا من المنهجية ما يتيح لنا فرصة اللحاق بركب الحضارة المعاصرة فهذا يقتضي التخلي عن تقسيم الصفوف في المدارس إلى علمية وأدبية وإلى إشاعة مبادئ العلوم الحديثة موضوعا إجباريا على مراحل الثقافة العامة (١٤) .

سيعتمد مستقبل التطور العلمي على مدى تطور البحث العلمي وعلى الإنجازات العلمية في الحاضر ، لكن ذلك لا يعني أن ذلك التطور لا يحمل المفاجآت والمستجدات التي قد تشكل إضافة حقيقية إلى الإنجازات العلمية والتكنولوجية في الماضي والحاضر . المهم ، ونحن نفكر بالمستقبل ، أن نخطط للاستفادة من تطور التكنولوجيا من جهة وأن نعطي اهتماما خاصا للإنسان . ثم حتى تكون نتائج وأثار التطور العلمي والتكنولوجي إيجابية ينبغي مد الجسور بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ودم الفجوة بينهما .

ونستخلص من مناقشتنا لهذا الموضوع ومن الدراسات المنشورة في هذا العدد من المجلة حول العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية النتائج التالية :

- إن العلم شامل للعلوم المختلفة سواء أكانت طبيعية أم إنسانية واجتماعية .

وإن ظاهرة التباعد بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية جاءت بفعل كثافة المعلومات والتعمق في التخصص ، وأن الازمة بينها مفتعلة لأن عملية التطور في المجتمع لا يمكن أن تستغني عن أي منها .

- إن سبب تخلفنا الأساسي يرجع إلى عدم الاعتماد على العلم والتفكير العلمي في حياتنا ، وتطور الآخرون لأنهم اعتمدوا على العلم والتفكير العلمي .

(١٣) أحمد سليم سعيدان ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

- إن الروابط متينة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية وليست وليدة اليوم ، وإنما هي حصيلة التجربة التاريخية الإنسانية عبر قرون من الزمان ، ويجب ألا يحول تطور العلوم والثقافة دون تقارب هذه العلوم وتفاعلها .

- إن للتطبيقات التكنولوجية جوانب إيجابية وأخرى سلبية ، وإن مهمة العلوم الإنسانية هامة في خلق الوعي لدى الشعوب لتجنب سلبيات التطبيقات التكنولوجية .

- إن الآثار المدمرة لبعض تطبيقات التكنولوجيا ترجع الى البعد الأخلاقي المصاحب لها . وإن للقرار السياسي دورا أساسيا في مسألة التطور العلمي كما أن المؤسسات العلمية تعتمد على القرار السياسي في دعمها وتعزيز مكانتها ، لكن الوعي المجتمعي مهم في ترشيد القرار السياسي وتوجيهه لصالح التطور العلمي .

هذه هي النتائج بصورة عامة التي يمكن استخلاصها من دراسة هذا الموضوع ، ومن الدراسات التي احتواها هذا العدد من مجلة عالم الفكر .

١- توطئة :

إن عبارة (العلوم الطبيعية) إنما هي ترجمة للعبارة الإنجليزية (Natural Sciences) أو (Sciences of Nature) ، ويعنى بها العلوم التي تختص بدراسة الطبيعة التي تحيط بالإنسان من أحياء وجمادات وكل ما يتعلق بالأرض والجو والأجرام السماوية . وهذه تشمل ما يسمى العلوم الأساسية من رياضيات وفيزياء وكيمياء وعلوم أحياء (حيوانات ونباتات ، الدقيقة منها والظاهرة للعيان) ، وتشمل أيضاً الجيولوجيا وعلوم الفلك والأرصاد الجوية . وذلك ما تعني به الكليات العلمية اليوم ، أعني كليات العلوم والهندسة والطب والصيدلة والزراعة ، وما يتفرع عنها ويرتبط بها من تكنولوجيا صناعية وزراعية ، وأدوات سلم وحرب .

إنها باختصار ما يعنيه المصطلح الإنكليزي (Science) ، وهذا لا يطابق تمام المطابقة لفظة (علم) العربية ، فهذه كلمة عامة تعني كل ما يعلمه الإنسان أو يعرفه ، فالعلم في العربية يرادف المعرفة ، ويشمل فيما يشمل (العلوم الإنسانية) والشرعية ، ولكن (العلم) الذي نعنيه في السطور التالية هو ما تعنيه كلمة (Science) .

وعبارة (العلوم الإنسانية) هي ترجمة لكلمة (Humanities) أي (الإنسانيات) ، وهي ما تركز على دراسته كليات الآداب والفنون ، ويشمل عدا اللغات وآدابها : التاريخ ، وهو على الغالب ، التاريخ السياسي ، والاقتصاد ، والفلسفة والحقوق ، وينضم إليها كليات التجارة والشرعة واللاهوت .

والرياضيات ، وهي من العلوم الأساسية إنما هي فرع من فروع الكليات العلمية ، ولكن في الجامعات التي ليس فيها كليات علوم نجد الرياضيات تدرس ضمن الإنسانيات .

العلوم الطبيعية والإنسانية ودور مؤسسات إعلانية في التفاعل بينها

أحمد سعيدان

عمان - الأردن

وترجمة (Humanities) بعبارة « العلوم الإنسانية » إنما هي دليل على أن لفظة « علم » العربية لا تطابق لفظة Science التي تختص بعلوم الطبيعة ، بمعزل عن الإنسانيات .

ولكن لماذا سميت الدراسات التي تختص بها كليات الآداب بالإنسانيات ؟ إذا كانت هذه التسمية تعني ما هو من صنع الإنسان وحده أو اهتمامه - بمعزل عن الحيوان - فإن العلوم الطبيعية إنما هي انسانية أكثر من الإنسانيات ، فإذا كان الحيوان ليس له دين ولا آداب ولا لغة متقدمة ، وليس له أيضاً علم ، وإذا كانت « الإنسانيات » تعني استعراض طبائع الإنسان وسلوكه وشؤونه وآماله وآلامه ، وإبداعاته الجمالية - بمعزل عن الحيوان - فمجال الاعتراض هنا أصيق ، ذلك أن العلوم الطبيعية تعني عرض مقدرة الإنسان - بمعزل عن الحيوان - على دراسة الطبيعة واستكشاف ظواهرها وقوانينها ، ومغالبتها .

في تقديري أن كلمتي إنسانيات و Humanities مصطلحان غير موفقين ربما كان أفضل منسبها عبارة « الآداب والفنون » العربية وكلمة « Arts » الانكليزية . ولعل خير بديل عن عبارة « العلوم الإنسانية » عبارة « الآداب والفنون » .

فالمسألة المطروحة على بساط البحث في هذه الصفحات هي : ما دور المؤسسات العلمية في إقامة تفاعل بين العلم من ناحية وبين الآداب والفنون من ناحية أخرى ؟

ولكن هل ثمة هذا التفاعل ؟ أما في العالم المتقدم فهو قائم ، وأما في العالم الثالث ، بل في العالم العربي بخاصة ، فثمة برزخ بين العلم والآداب لا يبغيان . وغاية هذا البحث التخطيط لإزالة هذا البرزخ كما يتم التفاعل المنشود ويؤتي ثماره المرجوة .

٢ - التفاعل القائم في العالم المتقدم :

غني عن القول أن علوم اليوم هي صناعة غربية . صحيح أن جذورها عربية وهندية وإغريقية وبابلية وفرعونية . ولكن جذوعها وفروعها وأغصانها وأوراقها وثمارها كلها غربية . وهي متطورة آخذة في العلو والنماء ، ومفاتيح تطورها بيد الغرب ، وهي كلما ازدادت تطوراً زادت بعداً عن جذورها ، كشجرة تتركب على فروعها شتى أنواع التفاح ، فتؤتي ثماراً غير تفاحها الاصيل .

وعندما كان الغرب يتلقى علومه من الكتب العربية ، كانت لغة العلم فيه لاتينية ، وكان المتعلمون فيه هم القلة التي تتقن اللاتينية ، وأكثر هؤلاء ، بل كلهم ، رجال دين . ثم هوتبه إلى ضرورة إحياء لغاته البتية ، وجعلها لغات علم ، وفي غضون ذلك كان إبداعه الفكري الذاتي قد بدأت بواكيره ، فقامت نهضته الفكرية ، ثقافية كانت أم اجتماعية أم أدبية أم سياسية ، والعلم ركن هام من أركانها ، ولذا بنيت لغته المكتوبة بنية علمية ، ومضى تطورها مع تطور العلم .

ثم تنبه الغرب إلى الحاجة إلى وضع مصطلحات علمية خاصة مميزة عن لغة الأدب والحديث ، فاختار لهذه المصطلحات ألفاظاً لاتينية لينأى بلغة العلم الدقيقة عن أفاعيل الطبايق والجناس والكناية والتشبيه وغيرها من المحسنات اللفظية التي تزخر بها لغات الأدب والحديث . ومع ذلك ظل العلم يتطور وظلت اللغات الغربية تجاريه في تطوره ، حتى صارت الآداب الغربية الحديثة مجبولة بالعلم ، وغدا العلم الركن الرئيسي من أركانها والملمهم الأكبر في تنويع نتاجها ، شعراً كان أم قصة أم فنون رسم أم موسيقى . العلم في الغرب طابع الحياة اليومية ، يوضعه الطفل مع حليب أمه ، ويتلقاه في البيت والشارع والملاعب والمقهى والصحافة اليومية ، بله المدرسة . في الغرب نجد رجال القلم والأدب والصحافة والسياسة والتاجر في متجره ، والصانع في مصنعه ، والفلاح في مزرعته ، وسائق التوكسي ، وربة البيت - نجد كلاً من هؤلاء له من العلم المعاصر نصيب ، يتلقاه في الكتب المبسطة ، والنشرات ، والصحف ، وفي الإذاعة والتلفزة بلغات خبراء عارفين يفهمون ما يقولون . أحدث الابتكارات العلمية والتكنولوجية نجد الحديث عنها ، وعما ينتظر من أثرها ، على لسان الخاص والعام .

وليس هذا كله من أجل أن العلم نشأ مع اللغات الغربية وتطورت اللغات الغربية معه ، حتى صارت لغات علم ، بل يضاف إلى ذلك أن من قيم الحياة في العالم المتقدم أن المرء المثقف ينبغي أن يكون ملماً بما يجري في حقول العلم من مستجدات نظرية وتطبيقية ، وأهم من ذلك أن العالم المتقدم يعيش عصر صراع هو حرب حياة وموت ، أدواته النافذة ، صاحبة الغلبة المطلقة ، هي العلم .

من أجل ذلك صرنا منذ الأربعينات من هذا القرن نعيش عصر تفجر علمي رهيب ، المخفي فيه أشد هولاً من الظاهر المرئي ، ولكن العيون يقظة والأذهان متفتحة ، لا تلبث أن تكشف كل خفي وتحاربه بما هو أكثر خفاء . ليس العلم في الغرب من الكماليات ، وإنما هو كالماء والهواء والغذاء : ضرورة من ضرورات الحياة ، وركن من أركانها الهامة ، وسلاح من أسلحتها الماضية .

وبالرغم من أن العلم الغربي نما مع اللغة حتى صار من قيم الحياة الغربية الهامة - أقول بالرغم من ذلك فإن الدول الغربية المتقدمة تعمل على إقامة تفاعل أقوى بين العلم والناس والعلم والأدب والعلم والإنسانيات : فعلى الصعيد الشعبي ما إن يتم إنجاز علمي هام مما قد يكون له أثر في حياة الناس ، مثل كشف طبي أو صناعي أو زراعي ، أو ما يحسن أن تعلم به الجماهير ، حتى تنبيري وسائل الإعلام لنشره ، بأقلام خبراء علميين تربويين ، في الصحافة والإذاعة والتلفاز ، والندوات والجامعات المفتوحة ، حتى يصبح حديث الخاص والعام . ثم تصدر الكتب العلمية المبسطة تزيد البحث فيه تفصيلاً ، بطبعات شعبية رخيصة الثمن .

وفي هذه الأيام التي تضاعفت فيها كلفة الطباعة وأثمان الكتب ، حتى الشعبية منها ، فإن المكتبات العامة المنتشرة في كل مدينة تقتني منه بضع نسخ ، وتتغاضى عن قيام القراء بتصوير نسخ من المكتبات بالأفست بسعر زهيد . فالغاية هي الفائدة وليست الربح .

حتى الكتب التعليمية قد تتغافل المكتبات العامة عن قيام الطلاب باستنساخها بالأفست ، بل إن بعض الجامعات تنسخ الكتب التعليمية فصلاً فصلاً ، وتبيعها للطلاب فصولاً متتابعة ، فإذا اكتملت فصول الكتاب لدى الطالب ، أمكنه إذا شاء أن يجلبه كما يريد .

وإذا ظهر كتاب قيم بلغة أجنبية ، وتبين أنه قد يفيد الجماهير أو الطلاب أو المتخصصين ، فإنه لا يلبث أن يترجم بطبعات رخيصة وطبعات متميزة ليختار منها القارئ ما يشاء .

وقد يكون النشر سلاحاً ذا حدين ، فتظهر النشرات العلمية المفيدة إلى جانب كتب اللهو وكتب الخلاعة . فالنشر في البلاد المتقدمة حر ، والقارئ هو الذي يقرر ما يفيد وما يضره . والمربون يعرفون أن بعض الكتب قد تضر ولا تنفع ، ولكن يفضلون أن يترك الخيار للقارئ على أن يقتصر الأمر على الكتب الموجهة ، كما تبقى الكتب ذات جاذبية خاصة لدى القارئ ، فذلك خير من أن تجعل القراءة نصائح عملة مكررة ، أو أن يؤدي تحريم بعض الكتب أو حجبتها عن القراء ، إلى قراءتها خلسة ، لأن كل ممنوع ممنوع .

وعلى الصعيد العلمي المتخصص نجد في كل قسم من أقسام الكلية العلمية مختبر بحث يخصص كل ركن من أركانه لفرع من فروع البحث في القسم ، ويشغل كل ركن أستاذ ، وفريق من الأساتذة أصحاب التخصص الواحد أو التخصصات المتقاربة ، فيعملون بعد الفراغ من محاضرات اليوم في إيجاد حلول لمشكلات تعرضها المؤسسات الصناعية أو الزراعية أو التجارية القائمة في البلد أو القطر ، وتعتمد هذه المؤسسات لهم مبالغ سخية من المال يتقاضون منها أجورهم ويشترون بها ما يلزم من معدات ، ويشغلون بها من يحتاجون إليهم من عمال أو مساعدي بحث .

حتى إن ممن لا يعملون في الجامعات من المتخصصين نفراً يعملون في أوقات فراغهم خبراء أو مستشارين لدى الفعاليات القائمة . تعرفت ذات مرة على رجل يحمل درجة الدكتوراه في هندسة السيارات : كان الرجل مفتشاً في وزارة التربية والتعليم في بلده ، مهمته أن يراقب المدارس الخاصة ، ليضمن أنها تشغل أصحاب الكفاءة من المعلمين ، وتؤدي لهم رواتب مجزية ، وأن هؤلاء المعلمين يتبعون مناهج ومستويات تتفق مع ما رسمته الوزارة . ويعمل الرجل إلى جانب ذلك خبيراً مستشاراً عند شركة تصنع سيارات من ماركة معينة : فكلما صدر عن الشركة موديل جديد قدمت إليه سيارة يقودها ستة أشهر يجوب بها القطر طولاً وعرضاً ، وقودها وإصلاحها على حساب الشركة ، وهو مطالب بأن يقدم للشركة في أواخر المدة تقريراً ينطوي على ملاحظاته واعتراضاته على الموديل الجديد ، وعلى اقتراحاته التي يراها لإصلاحه . فتضم الشركة ذلك إلى ما يأتيها من الزبائن المقيمين في البلد من اقتراحات أو اعتراضات ، وتدفع بها إلى مهندسين تنفيذيين ، فيعملون ما يمكن عمله في وقت قريب بسيارة صاحبنا ثم يعيدونها إليه ليستعملها بقية الخول إلى أن يصدر الموديل الجديد من السيارات .

ولكن ماذا عن المتخصصين الذين لم يحظوا بالحصول على اعتمادات من الشركات أو وظائف لديها ؟ إن المتخصصين بشر ، فمنهم من يغريه حب المال بالانغماس في أعمال إضافية كالطبيب الذي يعمل في عيادة خاصة بعد

الفراغ من عمله الرسمي ، أو المهندس الذي ما إن يفرغ من محاضراته الجامعية حتى يذهب إلى مكتب هندسي خاص ، هؤلاء جميعاً قد يجنون أرباحاً مجزية ، ولكنهم في آخر المطاف يذهبون مع الريح ، يساهم الناس ، وقلما يذكرهم أحد .

ولكن من المتخصصين من يهون البحث والاستكشاف - فيعملون أفراداً وجماعات ، لا لمطمع ولكن بغية تأدية رسالة ما . وقد يقضون العمر كله فلا ينجزون شيئاً ، سوى إرضاء نزعاتهم الخاصة ، وقد يحصلون على اكتشاف أو اختراع يدر عليهم ما يرضيهم من سمعة ، وقد يدر عليهم أولاً يدر ، ما يرضيهم من مال . هؤلاء هم الذين يتحقق على أيديهم مجد البلد وتقدم الحضارة الإنسانية . ولكن على أيديهم أيضاً يتحقق صنع السلاح المدمر الذي يقضي في لحظة جنون على كل ماصنه الفكر الإنساني في قرون طويلة .

ما تقدم إما هو صورة موجزة للخلفية العلمية للحياة في العالم المتقدم . تلك هي الخلفية التي بني عليها العلم المعاصر المتفجر ، وعليها تبنى الآداب المعاصرة ، وما فيها من تنوع وإبداع يتمثل بما تنتج المطابع الغربية من آداب وفنون ، وما تنتج دور السينما والتلفزة من روايات ومسرحيات ومسلسلات وأشرطة فيديو ، مما نراه ونستمع به ، ثم تنقلب إلى مسارحنا ومسلسلاتنا لترى قصص الثأر والغيرة والعنف ، وما أبعد الفرق بين المستوى الحضاري المتقدم والمستوى الجاهلي المتأخر .

إن العلم الغربي يلهم الأدباء بقدر ما يلهم العلماء ، فينوعون إنجازهم ، ويزيدونه جاذبية ، مستندين إلى خلفية علمية صلبة . وهو قد يلهم غير المتخصصين بأكثر مما يلهم المتخصصين ، فمن قبل أن يتكرر العلماء سفن الفضاء وينزلوا أرض القمر ، وضع الأدباء قصصاً تصف مثل هذه السفن وتتكلم عن إنسان القمر أو المريخ باعتبارهما محض خيال . إن خيال أدباء اليوم سيجعله علم الغد حقيقة ، ويبقى خيال الأدباء في العالم المتقدم يسبق إنجاز العلماء ويلهم المتفوقين منهم . العلم هو طابع الحياة الحضارية المعاصرة .

والمواطن في العالم المتقدم يعتز بحاضره الذي يمدّه بالثقة بالنفس ، ويدفعه إلى صدق الانتفاء ، فيعمل على تحقيق أجداد تضاف إلى ما حققه الماضون ويحقق المعاصرون . أما ماضيه فينظر إليه باعتباره صفحات مطوية في سجل حياته ، إن يكن فيها بدائية قائمة وسطور معتمة ، فتلك مراحل تجاوزها ، وبقي الماضي ، بخيره وشره ، تراثاً يحافظ عليه لأن فيه جذوره ومسببات حاضره وأجداده . إن الفرق الحضاري بين ماضيه وحاضره يزيد به ثقة بالنفس وأملاً بمستقبل أفضل وتطلعاً إلى تحقيق أجداد تضيف اسمه إلى قائمة الخالدين .

ما أكبر الفرق بين فكر المواطن في العالم المتقدم ، وفكر نظيره في العالم الثالث : هذا يتطلع إلى مستقبل أكثر إشراقاً ، وهذا يحن إلى الماضي ويترجم بالحاضر ويخشى المستقبل المجهول .

٣ - حول وضع العلم في العالم العربي :

أخشى إذا أنا أفضت في وصف الصورة الهزيلة لمستوى العلم في العالم العربي ، أن أشعر بالإحباط تلك الفئة القليلة من العلماء العرب المعاصرين ، الذين حققوا إنجازات محلية قيمة في مجال الابتكار أو الاكتشاف أو التطوير . ولكن مهما يكن عدد هؤلاء - وهم قد لا يزيدون على عشرة - فإن علماً عدد أبنائه مئة مليون نسمة ، لا يكون حاله مرضياً إن لم يكن منهم مليون عالم ، منهم ألف على الأقل يساهمون في صنع الحضارة الإنسانية ، على مستوى عالمي ، ويمدون جسوراً في دنيا العرب بين العلم والإنسانيات .

إن تربتنا وأجواءنا الفكرية بحاجة إلى تطوير كبير كي تصبح صالحة لنمو العلم فيها وانتشاره .

لقد هممت بأن أقترح أن نقوم بتقليد ما يعمل في العالم المتقدم من نشر العلوم المبسطة ، وتيسير تناول الكتب ، لولا أني تذكرت أن هذا إن يُفقد في بلاد تطورت لغاتها مع تطور العلم ، وغنت معه وثما معها متلازمين ، حتى صارت تربته الفكرية العامة مهياة لقبول العلم وخلق العلماء وتشجيعهم ، فإن فائدته ستبقى محدودة لا تكفي في العالم العربي الذي قامت الحضارة المعاصرة ، وهو يغط في سبات عميق . صحيح أن النهضة الغربية قامت أول الأمر بهدي من الفكر العربي الذي بناه أجدادنا العلماء في رحاب الحضارة الإسلامية التي نسيناها ونسيناه ، وأما نحن فعندما شرعنا نهض من سباتنا الفكري ، ألفينا أننا غرباء على العالم المعاصر ، من حيث الحضارة والفكر والأجواء الفكرية ، وأما العلم المعاصر فلا نحن ساهمنا في صنعه ، ولا تربتنا الحاضرة تصلح له ، ولا لغتنا الموروثة تتسع لاستيعابه .

أكاد أتخيل قراءة يصددهم قولني هذا وهم في جويتغنى بلغتنا الجميلة ويعتز بما أنجز الأجداد ، من غير أن يتعمقوا بالدراسة حدود اللغة ولا حدود ما أنجز الأجداد . يكفي أن أذكر ، تدليلاً على ما أقول : حادثتين : أولاً أن الغرب ما إن وجد المطبعة ذات الحروف المتحركة (سنة ١٤٩٢) ، حتى شرع يطبع بها الكتب ، وينشرها في الناس ، ومنها الكتب العربية التي كان يستعملها في تعلمه وتعليمه ، أما العالم العربي فقد ظل ينسخ باليد إلى أن دخلت المطبعة العربية إلى مصر ، هدية من نابليون في حملته على مصر ، في أواخر القرن الثامن عشر ، ودخلت إلى بيروت في الوقت نفسه على يد المبشرين الغربيين . لقد طبع الغرب الكتب العربية قبل العالم العربي بثلاثمئة سنة . أليس هذا من قبيل سبات أهل الكهف !

الحادثة الثانية عن طالب لي ، ليس وحيداً فيما أصابه وما عاناه . ذهب للتخصص في أميركا في حقن علمي صناعي ، فأنبت وهو في مرحلة الدراسة أن له فكراً قادراً على الابتكار مما حدا بالمؤسسات الصناعية المحلية أن تعهد اليه بحل مشاكل صغيرة تجاهها وبخاصة في حلها جعل المشاكل تنزايد عدداً وتعقيداً ، والحلول تزداد جودة واستحساناً ، حتى إذا هو تخرج من الجامعة وجد المؤسسات تغريه بالعمل معها . ففضى هناك بعد التخرج ما يربو على ستين ، وكل الدلائل تشير إلى أنه ، عاجلاً أو آجلاً ، سيحقق إنجازاً يجلب له سمعة عالمية ، أو دخلاً يرضيه . ولكن حين الفنى إلى وطنه وأهله جعله يتغافل عن هذا الأمل ويؤثر أن يجعل فكره وجهده في خدمة بلده ، وعاد الفنى إلى بلده وأهله .

ويبحث عن عمل في مجال تخصصه ، فلم يجد سوى وظيفة ثانوية في مؤسسة يعمل فيها كل شيء ، ذي بال ، ولكن في ظل رئيس أجنبي أقل منه خبرة وتحصيلاً . ولكن إليه يعزى كل ما ينجزه الفتي من عمل . وصير الفتى إلى أن عيل صبره . فدفعه ميله إلى تحقيق الذات إلى سؤال الإدارة لماذا لا يعزى إليه فضل ما يصنعه بفكره ويديه ، فكان جواب الإدارة أنها تدرك أنه أكثر من رئيسه خبرة وتحصيلاً وعملاً ، ولكن رئيسه الأجنبي يأتي للدولة بدعم أجنبي كبير . وأحبط بيد الفتى فاستقال من عمله ، وانصرف يعمل معلماً في غير تخصصه . وقضى سبع سنوات يعلم ويتلمس عملاً يفيد به بلده بقدراته وتحصيله ، ويرضي نفسه ، سنوات في أثنائها تزوج ورزق بأولاد ، وصار مسؤولاً عن إعالتهم ، وكاد ينسى ما كان في أمريكا يؤمل ويؤمل له ، ثم هو لقي عملاً جامعياً في حقل تخصصه ففرح به ، وباشره مؤملاً أن يكون لنفسه وعلى حسابه ، في كنف الجامعة ، مختبراً صغيراً يستعيد فيه بحوثه ونشاطه الفكري . ولكن كان الفرحة بالعمل كان وقعها عليه أشد مما يحتمل ، فما لبث أن مات بالسكتة القلبية ، وهوين أطفاله يتسابقون للركوب على كتفيه . لقد برز الفتى في غير تربته ، ولما عاد إلى منبته مات كما تموت في عالمنا كل المواهب والقدرات .

إن عالمنا ، بحاله المائل أماناً ، ليس تربة صالحة لنمو العلم ، ولا جواً صالحاً ليعيش فيه العلماء .

وما السبب ؟ قصة ذلك طويلة نجملها فيما يلي :

ظهر الإسلام في غضون العصور الوسطى ، وانتهت العصور الإسلامية الزاهرة في أواخرها وأوائل العصور الحديثة . وكان العلم طوال العصور القديمة والوسطى في مرتبة ثانوية ، كأنه واحة يانعة في قلب صحراء واسعة . في العصور القديمة أتيح العلم في مصر الفرعونية وبابل ، وزاد انتعاشاً وعمقاً في بلاد اليونان التي بنت على ما تعلمته من الحضارات المصرية والبابلية صروحاً سامقة في الفلسفة والرياضيات والفلك ، وزادت عليها صروحاً في الطب والمنهج العلمي . لقد كان ما صنعه الإغريق بحق معجزة .

وفي أوائل العصور الوسطى انتقلت واحة العلم إلى بلاد الهند . ثم جاء الإسلام ، ومنذ العصور الإسلامية الأولى أخذت عيون المسلمين تتفتح على العلم ، ذلك أن القرآن الكريم جاء بآيات كثيرة تحض على التفكير والبحث والتدبر باعتبار أن ذلك استكشاف لقدرة الخالق وبديع نظامه في خلقه ، ومن ثم فهو عبادة .

وقد أخذ علماء المسلمين ما استطاعوا أن يأخذوه من علوم الإغريق والهنود ، وعليه بنوا ما أقاموه من صروح علمية خطت بالرياضيات والفلك والطب والفلاحة والفلسفة والملاحة وعلم الاجتماع خطوات واسعة أفادت منها أوروبا في بناء الحضارة العالمية الحديثة .

رغم هذا كله ظل العلم في العصور القديمة والوسطى في مرتبة ثانوية ، بالنسبة إلى الآداب والفنون وشؤون الحياة الأخرى ، وظل المتعلمون قلة ، والعلماء نادرة ، وكانت الكتب تنسخ باليد ، بالرغم من أن الطباعة عرفت في الصين قبل أن تبتكرها أوروبا ، وطبعت بها الكتب .

وكان الطابع الغالب في العصور الوسطى في الشرق والغرب دينياً ، وكان التفكير يقوم على منطق جدلي سماه العرب بحق علم الكلام ، وعلى صياغات لغوية أدبية قد تسفح حتى تصل الى حد ما سماه العرب جدلاً بيزنطياً إذ يختلف فيه المتجادلون كم عفريناً يستطيع أن يقف على رأس دبوس ! ! كان رجال الدين هم المتعلمين ، وكان منهم المعلمون ؟ وكان تعليمهم تلقيناً يلبس مسوح القداسة ويقبل بلا نقاش .

من مظاهر المعجزة الإغريقية أن الإغريق حاولوا أن يتأوا بالعلم عن مجال الدين ، فأقاموا أسس المنهج العلمي الرصين ، القائم على الاستنتاج المنطقي الرياضي والموضوعية والأمانة العلمية .

وفي العصور الإسلامية الأولى ، أعلى عليها المسلمون صرح المنهج العلمي بأن جعلوا الاختبار والمشاهدة ركناً آخر من أركانه . وقد أدركوا أن العلم صنع إنساني متطور ، شأنه شأن تفسير الآيات الدينية ، فنادوا بالألا رأي لميت ، لأن الماضين ، مهما أبدعوا ، فهم رجال ونحن رجال ، وكل زمان له أحواله ودولته ورجاله ، ومن ثم فتفسير الآيات القرآنية فتحوا له باب الاجتهاد : قالوا إن نص الآيات منزل ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما تفسيرها فينبغي أن يتغير حسب تغير المفاهيم وأحوال المجتمع ، كئيب يبقى الإسلام ملائمة أحكامه لكل زمان ومكان . ولذا أوصوا بأن يقوم على رأس كل مئة سنة مجتهد يجدد هذه الأحكام حسب مفاهيم العصر ومقتضياته ، فإن لم يقم هذا المجتهد ، وجب على المجتمعات الإسلامية أن تعمل على إيجاداه بالتربية الهادفة والرعاية الحكيمة .

أقول لو امتثل اللاحقون لهذه التوصيات والآراء لتغير مسار التاريخ الاسلامي ، وربما التاريخ العالمي بأسره ، ولكن تجرى الرياح بغير ما تشتهي السفن ، فقد حدث ما غير مواقف أهل الرأي في الإسلام من هذه الآراء والتوصيات . وكان من أوائل ما جرى تسييس الدين ، فقام الخوارج بشبه تمرد على العالم الاسلامي ، لأسباب ظاهرها اختلاف في الرأي ، وباطنها محاولة للانفصال عن المجتمع الاسلامي ، وتعددت المذاهب فقامت المذاهب السنية الأربعة وقام إلى جانبها المذهب الجعفري ومذهب الأوزاعي ، ومن قام بدعوة العودة الى الإسلام في صفائه ونقاؤه الإباضية ، واعتزل وأصل بن عطاء حلقة الحسن البصري بدعوة الحفاظ على حرية الرأي والاستقلال الفكري ، وتبع ابن عطاء جماعة تتابعت جيلاً بعد جيل ، وسموا المعتزلة ، حتى صار كل من يبحث في فلسفة يعد معتزلياً ، وصار المعتزلة يجارون بدعوى مخالفة الدين ، وصار رجال الدين يتباهون بأن تقييد الحريات الفردية يعد حفاظاً على الدين ، وأن البحث في العلم والفلسفة معرض للشبهات خشية مخالفة الدين .

في خضم هذه الدعوات أعلن المسلمون إقفال باب الاجتهاد ، خشية تعدد المذاهب ، وعمل بذلك أهل السنة في الشام ومصر ، فاحتفظوا بالمذاهب الأربعة المعروفة ومذهب الأوزاعي ، ثم انطوى هذا المذهب لأسباب سياسية ، وفي شرقي العالم الاسلامي ، وفي فارس بخاصة ، والشرق الأقصى ، بقي الشيعة على المذهب الجعفري ، ونادوا بإبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً ، ولكن قلما قام مجتهد يجدد أحكام الدين حسب مقتضيات العصر ، وإنما أوائل المسلمين على هذا المذهب ، وأظنهم ما زالوا ، يتنكرون للعلم والفلسفة باسم الدين ، وهم اليوم يقتلون ويتخطفون باسم الدين ، والدين من هذا وذاك براء .

فباسم الدين قيدت الحرية الفكرية في الإسلام ، وباسمه أعلن الفقهاء الحرب على العلماء وعلى العلم الذي كان الإسلام أقوى دعوة إليه . وكما أحرق الغلو بعض علماء أوروبا ، أحرقت في العالم الإسلامي كتب فلسفية وعلمية وحروب علماء ، وأعدم فقهاء أصحاب رأي ، بدعوى ظاهرها الحفاظ على الدين ، وباطنها التنافس على موائد الحكام والولاة .

كان هذا أحد الأسباب الداخلية لانتقال القيادة الفكرية والسياسية من العالم الإسلامي إلى العالم الغربي . الرشدية التي حاربها الفقهاء وأحرقوا كتبها ، ظل الغرب ثلاثمائة سنة يتدارسها ، حتى أخرجه من هذه الجهل والتعصب والتخلف ونير محاكم التفتيش ، إلى نور العلم والمعرفة وحرية الفكر والرأي . الغرب الذي كان المسلمون يرونه متخلفاً جاء إلى العالم الإسلامي غازياً مستعمر ، انصاع له العالم الإسلامي ، كما انصاع إلى الحكم التركي من قبل ، واستكان ينعم بسبات عميق .

ولتخلف العالم الإسلامي أسباب داخلية أخرى لعل أبرزها أن المسلمين الذين ورثوا عن سابقهم علماً غزيراً ، لم يرثوا فكرة الديمقراطية ولا نظام الحكم المتناسك مهما تباعدت الأطراف . الواقع المر الذي قد يصعب الجهر به أن مبدأ الشورى الديمقراطي لم يحسن تطبيقه المسلمون ، ولم يقيموا نظام حكم رصيناً يحفظ للدولة تماسكها ، وللمسلمين ولاهمهم . وإن يكن بعض الخلفاء والولاة قد أحسنوا الحكم والولاية ، فقد كان ذلك أمراً فردياً عابراً ، لا تقليداً متوارثاً . وفي غضون القرن التاسع عشر بدأ العالم العربي ينهض من سباته ، يغالب الاستعمار وهو متخلف فكرياً وعلمياً واجتماعياً . واقتصادياً ، بالقياس إلى العالم الغربي ، وكانت ولا تزال ماثلة في ذهنه ذكريات عصور ماجدة مضت ، وحاول أن يستعيد تلك الأعجاد ، ولكن الاستعمار الغربي كان له بالمرصاد ، يستنفذ طاقاته وإمكاناته وثروات أرضه ، ويمرّق انطلاقه . وبعد جهد وحروب دامية ، راح ضحيتها شهداء ، وانهارت قوى ، وتبددت آمال ، وضاعت أمصار ، استطاع أكثر العالم العربي أن يظفر باستقلاله . ولكنه كان منهوك القوى ، يكتفي بالتغني بأعجاد سابقة ، من غير أن يعمل على تحقيق أعجاد جديدة ، في عالم يتطور بسرعة خائفة ويتفجر فيه العلم تفجراً يسبق كل تصور ، وما هو العالم العربي اليوم يحن إلى الماضي ويتبرم بالحاضر ويخشى المستقبل ، يعتمد على الغرب ، يستورد منه ما يحتاج إليه من ملابس ومأكلات وأدوات لم يوجد وسلم وحرب ، وينظر إليه في الوقت نفسه نظرة ريبة وخوف ، يتحاشى أن يفيد من تجربته ، أو أن يتعمق النظر في أسباب نجاحه وقوته ، وفي قصة تطوره ، وهو بدل أن يتخذ من هذه القصة عبرة ومثلاً ، ينادي بالأصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، ولكنه حتى هذا الأول يتخيله مجرد شعارات تردد ومطامع تغلف بغلاف ديني صفيق ، وتنجلي أحياناً عن لعب بالنار وعنف يضر ولا ينفع . إن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام داعية قتل واغتيال ولا سبيل تهديد وإبتزاز . والطريق لاستعادة الأعجاد الماضية هو غير طريق التظاهر أو التسلق إلى الحكم بثورة أو انقلاب .

غني عن البيان أنني ، رغم تبرمي بالحاضر ، لأعتر كل الاعتزاز بما حققت أقطار عربية من انتصارات عسكرية ، وسياسية ، ومن خطوات موفقة نحو الوحدة العربية ، أمل كل مواطن شريف . إن تبرمي بالحاضر لا يستقل بحال من

الأحوال هذه الإنجازات ، ولكنه يقرع الأذن صدى لمقارنة حاضرننا الهزيل بماضينا المجيد يوم كنا خير أمة أخرجت للناس . إنه تبرم باعتمادنا على الغرب في كل شيء ، حتى في السلاح الذي به ندافع عن بلادنا ونحرس استقلالنا ؛ ومن ندافع ، ومن نحرس ، إن لم يكن عن مطامع يغذيها لغرب ويدعمها ؟

ولكن كأننا خرجنا أوكدنا نخرج عما نحن بصدد ، وهو وضع العلم والإنسانيات في العالم العربي اليوم . فرجال الإنسانيات ما يزالون يعيشون في الماضي القريب ، يوم صار الفكر والأدب مجرد شكليات جوفاء ومحسنات لفظية يحليها سجع وجرس ، ولا يدعمها فكر ، وصار الشعر مديح نفاق وارتزاق وهجاء سخف وإدعاء . إن عالم الإنسانيات في العالم العربي اليوم يعيش في أزمة فكرية ويخواء .

وليس حال العلم بأحسن من حال الإنسانيات ، أعني الآداب والفنون . فمناهج التعليم العلمي ما تزال هي التي رسمها الاستعمار ، وما طرأ عليها من تغيير إنما هو هامشي لم يمس الجذور ولم يصل إلى حد المجازاة للعلم المعاصر في تطوره ، ذلك أن أصحاب القرار ما يزالون هم رجال الإنسانيات الذين يخشون العلم وقد يعدونه كفراً ، والمرء عدو ما يجهل . لقد جعلوا بين العلم والآداب برزخاً ، يبعد كلاً منهما عن الآخر .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد فرمما كان يمضي العلم في طريق التطور والنماء ، ويمضي الأدب في طريقه القديم . ولكن ما جرى أن الجو والتربة بقيا في العالم الإسلامي بعمامة ، والعالم العربي بخاصة ، على مثل ما كانا عليه في أواخر العصور الوسطى ، تفكير تقليدي مكرر معاد ، وأقوال وشعارات جوفاء لا يسندها واقع ولا دليل ، وتربة تقبل الكلام المزوق الشكلي ، وترفض المنطق العلمي ، فصار الكلام في العالم العربي أغلبه نفاق وإدعاءات وشكليات ، وبقي العلم على هامش الحياة ، وبقي أصحاب القرار هم أهل النفاق والشكليات والكلام المبهرج المعسول . أما العلماء فمكائهم في غير التربة العربية ، وجوههم غير الجو العربي .

٤ - وما العمل ؟

أقول إن علينا ، بالإضافة إلى تيسير نشر العلم بمثل مايجرى في العالم المتقدم ، خلق الجو المناسب والتربة المناسبة لأن ينمو العلم ويشيع ، ويصبح طابع حياتنا والموجه الفعال لتفكيرنا وتصرفاتنا .

وأقول أجل ! لا يصلح آخر الأمر إلا بما صلح به أوله ، ولقد كان أوله الدعوة إلى العلم مذ نزلت أول آية على النبي الأُمي تقول « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ذلك أن العلم يقضي إلى التعرف على آلاء الله ، بالتعرف على القوانين التي تنظم الكون ، وغاية المسلم المتعلم هي أن يعمل على تطوير الحياة والمفاهيم بحيث تجاري معارف العصر وأحوال الحياة الجارية ، ومن ثم فلا رأى لميت مهما يكن مبدعاً ، لأن إبداعه يناسب زماناً غير زمان الأحياء .

والفهم الفعال لأول آية أنزلت يقتضى أن يتعلم المسلم لكي يدرك بديع صنع الله الذى خلق الكون وأبدع نظامه . وهذا يقتضى ألا يبقى مسلم أميا ولا جاهلا ، والجهل هو جهل العلم الذى به تعرف آلاء الله . ولكي يكون الحى حرا في تفكيره ، صادقا وصريحا في إبداء رأيه ، بموضوعية لا تعرف النفاق ولا تخشى من ضغط أو إحراج ، ينبغى أن يعيش الحى في جو ديمقراطي يحترم كرامته ويتحاشى تقييد حريته .

وهذه كلها مبادئ تنبثق من تعاليم الإسلام ، أيام صفاته ونقائه ، والالتزام بها التزام بالإسلام ، ومجافاتها مجافاة له . ومراعاة هذه المبادئ تضمن خلق الجو والتربة اللذين ينمو بها العلم ويثمر ، ونضمن أن نعود كما كنا خير أمة أخرجت للناس .

فما العمل كي يقوم عندئذ تفاعل بين العلوم والإنسانيات ؟ وما الدور الذى ينبغى أن تقوم به المؤسسات التعليمية كي يتم هذا التفاعل ؟

هذا الدور ينطوي في نظري وتقديرى على أمور عامة تتعلق بالتعليم بمجمله كي نضمن بقاء الجو العلمى والتربة العلمية ونقاءهما ، وعلى أمور خاصة تتعلق بموضوعات محددة ، كالعلوم والآداب والتاريخ ودروس الشريعة والدين ، ومناهج تدريسها وأهدافها .

١- الأمور العامة

ثمة مبادئ وحقائق وأفكار ينبغى أن تشيع بيننا وتجري في حياتنا كما يجري الدم في عروقنا ، كي نحقق الجو والتربة المناسبين لترسيخ العلم في العالم العربى ، من أجل أن نساير تيار الحياة المعاصرة ونمضي مع ركب المتقدمين بثقة بالنفس وعزة وكرامة ، فعالين لأمفعلين ، خلاقين لا مقلدين ولا متطفلين . من هذه المبادئ والحقائق والأفكار :

١ - أن العلم هو باني الحياة المعاصرة يمدها بسلاح السلم والحرب والجد واللهم ، وهو ملهم الشعراء والكتاب والأدباء ، يمدهم بالغذاء الفكرى ويعينهم على الابتكار والإبداع ، وعلى فهم الحاضر ومشاركة المستقبل ، وعلى التخطيط السليم لتحقيق ما يريدون وما يأملون ، بل هو الذى يعرفنا كيف نعبد الله حق عبادته ، في عالم يتراوح كالمجنون بين تقى الزاهد المتصوف وضلال الأحمق المفتون .

٢ - أن التطور هو سنة الله في هذا الكون ، كي تمضي الحياة دائما إلى الأحسن ، ويشارف الفكر ما هو أرقى وأشرف . الأفراد يولدون ويكبرون ويموتون ، وقد ينتاب الفرد أو المجموعة أو الأمة بأسرها ما ينتاب الأفراد من عجز أو هرم أو تحطم وانهباء ، ولكن الحياة ، بوجه عام ، في هذا الكون الرحيب سائرة بفضل الله إلى الأحسن .

العالم المجنون يشن الحرب ، بعض على بعض ، ولكن العلم يهدي إلى وسائل للعلاج . ومقاومة الأمراض تزيد من عمر الأحياء ، وتمكنهم من العيش بمأمن من الأمراض والأوبئة .

والعالم المجنون يهدم ويحطم ، ولكن العلم يزيد من وسائل المواصلات والاتصالات ، فيجعل البعيد قريبا ، حتى ليتخاطب الأخوان من أقصى المعمورة إلى أقصاها ، وإذا احتاج الأمر فقد يهرع أحدهما لملاقاة أخيه في غضون ساعات معدودة ، وفي غد قريب سيتخاطبان وكل منهما يرى الآخر كأنه أمامه .

التطور قائم منذ الأزل ، وماض إلى الأبد ، وقد كان هذا التطور في الماضي يجرى بطيئا ، وهو اليوم يغدو السرعة بفضل العلم ، ويقضي إلى التطوير ، أي عمل البشر في تسريع التطور ، والتطوير ضرب من العمل بإرادة الله ، إنه تطبيق العلم في سبيل العمل بإرادة الله ، فهو إذن عبادة . ونجاح عملية التطوير يقضي إلى مزيد من الثقة بالنفس ، ثقة العالم الذي طور ، والأمة التي إليها ينتمى هذا العالم ، والإنسانية جمعاء .

. . وليس التطوير شغل العلماء وحدهم ، فكل مواطن في عمله مكلف بتطوير عمله إلى الأفضل : المزارع في حقله يمكن أن يطور سنابل القمح كي تجود بعتاء أغزر وأجود ، والصانع في مصنعه يمكن أن يطور إنتاجه كي يصبح أفضل وأكثر ، حتى الشاعر والأديب والكاتب يمكن أن يعمدوا إلى تجديد في ما يصدرون ، حتى العمال ، ناهيك عن المعلمين ، يمكن أن يحسنوا عطاءهم مرة بعد مرة . إن التطوير هو نتاج التفكير العملي الموضوعي السليم ، المنزه عن الأثرة والطمع ، الهادف إلى تحسين العمل بحيث يغدو أكثر فائدة للمجتمع ، وبجارية لأحوال الحياة السريعة التغير على الدوام . فكر بثقة وتصميم ، وستجد أن التطوير يواتيك من حيث لا تحسب .

٣ - تفجر العلوم والمعارف : قدرنا أننا نعيش في عصر تتفجر فيه العلوم والمعارف بسرعة مذهلة ، وما إن تبتدع عملية جديدة ، أو تعرض فكرة جديدة ، حتى يهرع التكنولوجياون إلى استغلالها بابتكار جديد . اليوم أمكن استخراج الطاقة على درجة حرارة عادية ، وفي غد قريب ، ربما قبل أن تصل هذه الكلمات إلى القارئ ، ستقوم التكنولوجيا بابتكارات تيسر سبل الحصول على الطاقة ، على نحو قد يحدث في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بل والسياسية تطورات غير متوقعة .

وليس ما يحدثه العلم والتكنولوجيا قاصرا على مستويات التخصص العلمي ، بل هو يمتد إلى الحياة اليومية ويدهم الناس في بيوتهم ومطابخهم ، حتى ومجالى جدهم وهوهم ، الحاسوب الذي كان قبل سنوات معدودة موضوعا يتكلم عنه الجامعيون ، صار اليوم الشغل الشاغل للعمال في المصانع والمتاجر والمصارف والدوائر الحكومية . وماذا نقول عن وسائل الطباعة والتصوير والاتصالات ؟ وماذا نقول عن هذا العالم الذي غدا صغيرا يرى فيه الفتى العربي على شاشة التلفاز فتيان الشرق والغرب يتعاملون بعضهم مع بعض على غير ما يألّف ؟ كأن قيم الحياة عندهم على غير ما علمه آبائهم وأجدادهم . المواصلات والأقمار الصناعية تعمل على توحيد العالم ، سلوكا وعادات ، شتتا أم أينا .

كل هذا يضعنا أمام تحد كبير لا بد من مواجهته . ومواجهته لا تتم بمجرد كره العلم والتكنولوجيا ، بل بالانصياع لهما والتكيف حسب مقتضاها ، لأنها أمر محتوم .

والانصياع للتفجر العلمي ، والتكنولوجيا ، والتكيف حسب مقتضاها يفترضان تغيرا جذريا في مفاهيم التعلم والتعليم وواجبات القائمين عليه من معلمين وإداريين .

فالتعلم لم يعد وسيلة للحصول على عمل ينتهى عندما يبدأ العمل ، إنما هو اليوم عملية تمتد من المهد إلى اللحد . في الماضي قال فيلسوف : أنا أفكر إذن أنا موجود ، واليوم نقول : أنا أتعلم إذن أنا موجود . ولا فرق بين القولين فالتعلم يفضي إلى تطوير التفكير ، والتفكير يفضي إلى التعلم .

والتعليم لم يعد يعنى إنهاء مناهج تعليمي مقرر ، إنما هو اليوم يعلم المرء كيف يتعلم وكيف يبقى على صلة مستمرة بما يجد من ابتكارات ، كى يبقى مواكبا لتيار الحياة المتدفق .

والمعلم لم يعد الموظف الذي تخرج بشهادة تثبت أنه شذا من العلم قدرا ما ، فهو يعطيه إلى المتعلمين ، إنما هو كالتعلم ماتزال معلوماته تتزايد يوما بعد يوم ، وماتزال خبراته تتسع . وهو بالإضافة إلى ذلك صاحب مهنة وصاحب رسالة ، يكرس حياته لتبليغها ، ومن ثم فمن واجب المجتمع أن يكرمه على قدر ما يستحق . ولأنه صاحب مهنة ، فينبغى أن يعد إعدادا سليما متكاملا للقيام بمهنته ، ومن ذلك الإعداد إطلاعه على أحدث وسائل التربية وأحدث ما يستجد في علم النفس ، وإمداده السريع بالمعلومات . وهذا يقتضي ان يتوفر في المؤسسات التعليمية كل الوسائل المعلوماتية ، ماهو موجود منها ومايستجد . وهو يقتضي من المعلم أن يبقى على الدوام متعلما يعرف ما استجد ويشارف مايجد ، وكيف يراجه وتعليمه حسب ذلك . هذه تحديات قاسية تفرضها علينا الحياة الحضارية المعاصرة ، معلمين وإداريين . والإداريون ليسوا بمعزل عما يجد ويستجد . إنهم على الغالب أصحاب القرارات . وإذا كنا في الماضي قد رضينا أن يكون أصحاب القرارات في الشؤون العلمية من غير العلميين ، فليس يمكن أن يبقى الأمر على هذا المنوال ، وقد صار العلم طابع الحياة المعاصرة ، يمد الأدباء والشعراء ، كما يمد العلميين ، بالطريف والجديد والمتع والحيوي .

ويزيد التحديات صعوبة أن التفجر العلمي يرافقه تفجر في عدد السكان ، ومن ثم تزايد مستمر في أعداد الطلاب ، في المراحل الإلزامية والمراحل المتقدمة على السواء .

وإذا كنا نخطط بجد لنكون في صفوف الأمم والمجموعات المتقدمة ، فينبغى أن نتدارك ما فاتنا في أيام سباتنا من عناصر الحضارة المتطورة . وهذا يقتضي مزيدا عن تعويد الطلاب والطالبات على الحياة الرياضية ، وعلى متع الحياة من إبداعات موسيقية وفنية ، وعلى المصارعة في سبيل العيش الكريم بابتكار سبل جديدة للعمل المجدي الذي ينفع الفرد والمجتمع .

فاستيعاب العلوم المتطورة المتغيرة على الدوام ، والقيام بما ينبغى من ألعاب رياضية ، ونشاطات موسيقية وفنية ، والتخطيط لابتكار الجديد المفيد ليكون عمل المتعلم ، كل هذا يتطلب برامج تعليمية غير ما جرينا على اتباعه ، وغير ما ألفنا .

إن برامجنا الحاضرة ، مهما أجرينا عليها من تعديلات ، تبقى في أساسها ما فرضه علينا المستعمر ، وهو في أحسنه تقليد أو نسخ لبرامج المحلية حيث الجو غير الجو والتربة غير التربة ، على أن فيه ما ينص صراحه بأنه يستهدف تخريج أيدٍ عاملة ثانوية تساعد المستعمر في الأعمال التي يقتضيها حكمه للبلاد المستعمرة .

والبرامج التي يقتضيها الانتقال إلى المرحلة الحضارية المتقدمة التي نشدها لا يمكن أن تنهض بها المدرسة وحدها . إن المدرسة والبيت والمجتمع ، وكل وسائل الإعلام ينبغي أن يأخذ كل منها نصيبا موفورا لتحقيق مآلها من خلق جو وتربة يلائمان الحياة الحضارية المعاصرة ، وأجيال قادرة على التعلم والتعليم مدى الحياة .

٤ - برامج المستقبل التعليمية ، وطرق التدريس : إن تفجر المعرفة قد جعل أكثر الموضوعات العلمية التقليدية معلومات بدائية تجاوزها التطور العلمي ، أو مغلوطة أثبت أنها ليست على صواب ، ومن ثم فما تعلمه أدياؤنا من مبادئ العلوم الأساسية قد تجاوزها العصر الحاضر وجعلهم أكثر جهلا مما يظنون .

ومن المعلومات المحدثة مالا بد لكل مثقف أن يعرف شيئا عنه ، علميا كان هذا المثقف أولغويا أو مهنيا . من هذه المعلومات مبادئ الحاسوب والربوط والرادار ، ووسائل الاتصال الحديثة المتجددة . ومنها نظام المعلوماتية الذي هو مورد وطني للتنمية يضاف إلى الموارد الطبيعية . ومنها الأسس الجديدة للزراعة وماتضم من وسائل تهجين تحول البلد إلى مايربو على الاكتفاء الذاتي .

هذا بعض مما ينبغي أن يجعلنا نفكر في إجراء تعديلات جذرية على مناهج التعليم عندنا وبرامجها ، ابتداء من مراحل الحضنة وانتهاء بالتعليم العالي .

وفي صفحات تالية سنتناول أهم موضوعات التعليم ، وعندها ستعرض لبرامجها وماينبغي أن تشمل عليه . فلننظر الآن في طرق التدريس الحديثة وكيف ينبغي أن تكون .

فإذا اتفقنا على أن هدف التعليم ليس تهيئة الطالب إلى وظيفة وإنما تعليمه كيف يتعلم ودفعه لأن يمضي في تعلمه إلى نهاية الطريق ، إذا اتفقنا على ذلك ، عندها يتفق مبدأ الحفظ ومبدأ الدروس الخصوصية ، ويتفق أيضا مبدأ الإلقاء بمهمة التفهيم على كاهل الأم والأب في البيت . إن التعليم الحديث ينبغي أن يجرى على مبدأ التعلم الذاتي ، حيث يقوم المعلم بالتوجيه ويشاركه في ذلك البيت ، وفي تقديره أن التلفاز وشريط التسجيل والفيديو ، إذا أحسن استخدامها ، تعطى نتائج أفضل مما يعطيه كثير من المعلمين ، لاسيما إذا كان المتحدث في التلفاز أو شريط التسجيل حسن الصوت واضح العبارة حسن الأداء . أقول ذلك وأنا أعلم مايمكن أن يثار من اعتراضات على مبدأ التلفزة التربوية بحجة جهل المخرج والمنفذ وصانع الديكور وما إلى ذلك . إذا عمدنا إلى التلفزة التربوية وسيلة من وسائل التعليم ، فينبغي أن نحسن استخدام جميع الجنود المجهولين في هذه العملية ، أعني المخرج ورفاقه أجمعين .

وبالإضافة إلى التعليم الذاتي الفردي ، ينبغي أن يعمد المعلم إلى تشجيع العمل الجماعي ، كأن يعمل الطلاب كفريق متكامل لتحقيق غرض ما ، كجمع شتى الحشرات أو شتى الأزهار وأوراق النبات في دراسة العلوم ، أو بناء بيت ريفي أو حديقة ذات أزهار وأشجار .

والعمل في المختبر أمر ينبغي أن يتعود عليه الطالب والمعلم على السواء . وليس العمل في المختبر تعليميا فحسب ،

بل هو استكشاف حقيقي يستهدف استخدام المواد الخام المتوافرة لاكتشاف حقائق جديدة تساعد على التنمية وزيادة الإنتاج ، بحيث يستفاد من التكنولوجيا الحديثة في حدود الإمكانيات المحلية . إننا بحاجة إلى توفير الكوادر المدربة على استعمال المواد المحلية على نحو ناجح فعال . وهذا يحتاج إلى تدريب يبدأ من أول مراحل التعليم ، ويساعد على تحقيق هذه الأهداف ، بل يضمن تحقيقها قيام نظام فعال للتقييم .

والتقييم لفظة درج على استعمالها العلميون ، بمعنى تقدير القيمة ، ويعارضها بعض اللغويين بحجة أن اللفظة القاموسية هي (التقويم) وأنا أستعمل (التقييم) هنا وأعني تقدير ميول الطالب ومواهبه الطبيعية . وأتمنى لو تجعل عملية التقييم هذه الشغل الشاغل للمعلم والمعلمة منذ مرحلة الحضنة ، بحيث يجعل لكل طالب وطالبة ملف خاص يسجل فيه كل ما يلاحظ على الطالب من ظواهر قوة وضعف وحالات صحة واعتلال ، وينقل هذا الملف مع الطالب إلى جميع مراحل دراسته .

والتقييم في العالم المتقدم اليوم عمل تخصصي كثير الفروع والتشعبات ، وأتمنى لو يجعل التقييم موضوعا من المواضيع الهامة التي يتدرب عليها المعلمون والمعلمات الذين يختارون التعليم مهنة أو يختارون إليه .

وغاية التقييم هي الكشف عن الطلاب الموهوبين ، لافي العلوم أو الآداب فحسب ، بل أيضا في الفنون من موسيقى أو رسم أو نحت أو تمثيل ، وفي الرياضة من جبار أو تفوق في لعب الكرة أو ركض أو قفز . فإن لم يكن الطالب موهوبا في هذه الناحية أو تلك ، فيكفي أن يكشف التقييم في أي قطاع ينبغي أن يوضع هذا الطالب : أي القطاع الأدبي أم العلمي ، وفي التعليم الجامعي أم المهني ، أم هل ينبغي أن ينتهي تعليمه النظامي بالمرحلة الإلزامية ثم يتجه إلى حرفة أو عمالة .

وإذا كان في القطاع الأدبي ، أكون كاتباً أم مؤرخاً أم جغرافياً ، أم يكون في شعبة أخرى من شعب كلية الآداب والفنون ، أم في كلية التجارة أم الحقوق ، أم في فرع من فروع الدراسات الدينية .

وإذا كان في القطاع العلمي ، أكون في الشعبة النظرية من رياضيات أو فلك ، أم في إحدى الشعب العملية من علوم تجريبية أو هندسة أو طب أو صيدلة أو بيطرية .

وخير ما يمكن للتعليم أن يعطيه للطالب هو الكشف عن ميوله ومواهبه . فكم من مواهب وميول ضاعت هباء لانه لم يقدر لصاحبها أن يكتشفها . إن المواهب التي دفنت من قبل أن تكتشف أكثر بكثير مما اكتشف .

وإذا أحسن التقييم ونفذ ، وجرى توجيه الطلاب بمقتضاه ، وشاع لدى المعلمين والطلاب والآباء أن التعليم للتثقيف ، لا للبحث عن وظيفة ، عندها لا يبقى للامتحانات الشاملة هذه الأهمية التي تجعل منها غولا رهيبا يقصم الظهر ، وتفصل الطلاب والطالبات فريقا في الجنة وفريقا في النار .

وإذا جرى التدريب على نحو جماعي ، وعمل الطلاب فريقا ، حتى من اثنين ، لإنجاز أمر ما ، فيمكن أن يجعل التقدير بحسب ماتم إنجازه ، أو إبداعه أو ابتكاره . فالعمل الجماعي لا يجري على إعادة ماقد أنجز ، بل أيضا على اكتشاف أو ابتكار أو تطوير أو إبداع .

ولتجعل الامتحانات دورية لقياس مدى ما أنجز المعلم مع طلابه ، ومدى ما حصل الطلاب ، لا من المدرسة فحسب ، بل أيضا من المعلومات العامة التي تبثها وسائل الإعلام المختلفة بقنواتها التعليمية من كتب ونشرات وإذاعات تلفزة أو مسجلات فيديو . فإذا اكتشف تقصير في ناحية ما ، وجب المبادرة إلى إصلاحه ، فتنوّات التعليم الإعلامية والصحفية ينبغي أن تبقى فعالة كالتدريس ، والمعلم الذي اختار التعليم مهنة ورسالة ينبغي أن يحاسب ويحاسب نفسه على الدوام ، هل أخلص لمهنته وهل بلغ رسالته ، فإن وجد تقصيرا لزم أن يتلافاه .

وينطبق هذا على المعلم الجامعي كما ينطبق على مراحل ما قبل الجامعة وما بعد الشهادة الجامعية الأولى . ففي المراحل الجامعية ليس التعليم مجرد محاضرات تلقى ، إنما هو تعلم واستكشاف وبحث يقوم بها المعلمون والطلاب على السواء ، جماعات أو أفرادا .

إن عصر التفجر العلمي الذي نعيش فيه يفرض على الجامعات ، أساتذة وطلابا ، أن تقوم بالقسط الأوفى من تشغيل التكنولوجيا الحديثة ، وتعديلها بحيث تلائم الحاجات المحلية ، وتستخدم فيها المواد الخام المحلية المتوافرة . إن استغلالنا للتكنولوجيا لا يكون مجديا إن لم تعدل هذه التكنولوجيا بحيث تستخدم فيها المواد المحلية ، وتقوم بتنمية قدراتنا وزيادة إنتاجنا . بغير ذلك تغدو التكنولوجيا عندنا ظواهر مستوردة إن ثلأ بعض الأفراد زهوا وخيلاء ، فهي على الأمة بأسرها بلاء .

فعل الجامعات بخاصة والمؤسسات التعليمية بعامة أن تضع برامج تعليم ومناهج تفضي إلى الاستفادة من التكنولوجيا المستوردة . ولأننا في عالم سريع التطور يكاد يشهد في كل يوم تطورا علميا وتقنيا جديدا ، ينبغي أن يتوافر في الجامعات والمؤسسات التعليمية والإعلامية وسائل فعالة للحصول على المعلومات ونشرها . إن تحديات العصر تفرض على هذه الجامعات والمؤسسات أن يكون لديها كوادر مدربة قادرة على استيعاب كل جديد والتكيف معه وتكييفه بحيث يكون في خدمة مصالحنا المحلية وتنمية مواردنا . إن علينا أن نواكب التطور العلمي ، وهذا يقتضي أن تتوافر مرونة في مناهج التعليم ، وسهولة في الحصول على المعلومات .

إن في العالم المتقدم قدرات يخيّل إليّ أنه لم يبلغنا خبرها ، أولعلنا لم نعرها ما ينبغي من اهتمام . فثمة أسس متطورة للزراعة والاستثمار قد تحول الصحارى إلى واحات خضراء . وهناك تقنيات تنتج مواد مستحذثة كالألياف البصرية والإلكترونيات الدقيقة والليزر ، والتربة الهامشية ، وهناك علوم المواد وهندسة الوراثة ، وما أفضت إليه هذه رائج ، وما قد تفضي إليه قد يكون أروع من الخيال .

إن لم نسهم في تطوير هذا العالم المعاصر ، فلا أقل من أن نتفاعل معه على نحو يخدم مصالحنا وإن لم نفعل فأغلب ظني أن العالم المعاصر سيخلفنا وراءه ويحضي قدما لا يلوي على شيء ولا ينتظر المتقاعسين ، فالفجوة بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة تزداد كل يوم سعة ، حتى ليبدو أحيانا أن سد الثغرة لن يتم ، لولا أن مجموعات صغيرة قد استطاعت ، بالثقة بالنفس والعزم ، أن تسد ما بينها وبين الدول المتقدمة ، في غضون جيل أو جيلين ، ثم تقف بزهر واعتزاز في صفوف المتقدمين على قدم المساواة في الصناعة والإنتاج والتصدير .

٥ - تعريب التعليم : وأعني بذلك أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع المؤسسات التعليمية والإعلامية ، وفي جميع مراحل الدراسة ، ولندكر أن الدراسة والتعلم عملية مستمرة تبدأ من المهد وتنتهي بالحد . بدون ذلك لا تشيع العلوم والمعارف في العالم العربي ، ولا يتم التفاعل المنشود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، ويدونه لا يكون إبداع ، ولا يتم تعاون العاملين والمنظرين في تكييف التكنولوجيا الزراعية والصناعية والمهنية لتلائم أوضاعنا المحلية بحيث نستخدم المواد المتوافرة لدينا في سبيل التنمية وزيادة الإنتاج والانتقال من حال المستورد المعتمد على غيره إلى حال المنتج المستثمر المعتمد على قدراته ومهاراته .

وتكاد المشكلة تنحصر في التعليم الجامعي ، ذلك أن المؤسسات التعليمية في العالم العربي تعلم باللغة العربية ، ماعدا مؤسسات قليلة ذات صبغة أجنبية . وفي التعليم الجامعي تنحصر المشكلة في الكليات العلمية ، وهي وحدها التي تعلم بالإنكليزية (أو الفرنسية) وتعريب التعليم في الكليات العلمية مسألة ينقسم ذوو العلاقة في أمرها فريقين : واحد يلح على إبقاء التعليم بالإنكليزية (أو الفرنسية في البلاد المغربية) ، وواحد يدعو بحاراه إلى التعريب . ودعوى أنصار الإنكليزية والفرنسية أن كتب العلوم والنشرات والدوريات العلمية كلها بالإنكليزية (أو الفرنسية) ، وكذلك المصطلحات العلمية في حين أن العربية ليس فيها كتب علمية ولا دوريات ولا مصطلحات . ودعوى أنصار التعريب أن العربية هي لغتنا ، وأن الضرورة القومية تقضي أن يقوم العاملون في التعليم على وضع الكتب والدوريات والمصطلحات تأليفا أو ترجمة .

ولعل لكل من الفريقين ونجها من الحق ، إلا أننا في معرض الحديث عن مد (الجسور بين العلوم والآداب ، والحديث عن خلق الجو والتربية اللازمين لنمو العلم بيننا لا نملك إلا أن ننادي بالتعريب ، ويأعلى صوت ، لأن تعريب التعليم جريمة تحكم على العلم أن يبقى في العالم العربي كطير غريب نفور .

فالتعريب لاندعو إليه لأسباب قومية فحسب ، ولكن لأسباب تربوية يبدو أن أنصار التعريب يجهلونها . وأول الأسباب التربوية أن كثيرين ممن يقومون بالتعليم في بلادنا ، وبخاصة الأطباء ، لم يتعلموا بالإنكليزية فهم يجهلونها أكثر من الطلاب ، ويخفون جهلهم هذا عن الناس لأن التعليم الجامعي عندنا لا يرافقه إشراف تربوي ولو جرى بعض من الإشراف التربوي لرأينا عجباً ، لا لأن بعض المعلمين تخرجوا من جامعات تعلم بغير الإنكليزية ، بل أيضا لأن الذين تخرجوا من الجامعات الإنكليزية جهلوا أو نسوا اللغة التي تعلموا ويعلمون بها ، لأنهم في جامعاتنا لا يستعملونها إلا في غرفة الدرس . واللغة ، إن لم تكن لغة البيت ، ما أسرع ما تنسى لقلة الاستعمال ، خطأ أن يقال إنهم يعلمون بالإنكليزية ، فما عندهم إنما هو رطانة فيها من العربية العامة شيء كثير .

وجهل المعلمين بالإنكليزية يربو عليه جهل الطلاب بها ، فهم في مراحل الدراسة السابقة لم يتعلموا لغة المعلم ومن ثم فالحديث بينهم وبين أساتذتهم يجري على مايكاد يكون حوار طرشان . والأدهى والأمر أن فريقا من المعلمين لا يستوعبون المادة التي يدرسونها ، فهم يجذون في جهل الطلاب لما يقولون وأقيا يحميهم من اكتشاف أمرهم ، ولذا فهم يعارضون تعريب التعليم حماية لجهلهم .

ليس ما أقوله اتهاماً مبنياً على سوء الظن ، ولكنه حقائق أتيج لي اكتشافها لاسيما في مرحلة عهد فيها إلى طائفة من معلمي العلوم بترجمة كتب علمية معينة ، وعهد إلى بالإشراف على تنفيذ الترجمة . ولقد لقيت عجباً : معلمين لا يفهمون ما يحاضرون به الطلاب . مشكلتهم لم تكن أنهم لم يتقنوا التعبير عنه بالعربية ، ولكن أنهم لا يعرفونه بالإنكليزية ذاتها . ولقد حدا بي ذلك إلى طلب ملفات هؤلاء المعلمين الرسمية ، فاكشفت أن بعضهم درس في جامعات تعلم بغير الإنكليزية ، وبعضاً وضع في غير موضعه ، فهو درس الزراعة ويعلم البيولوجيا ، أو درس الإحصاء ويعلم علم الحاسوب ، والمسؤول عن ذلك أصحاب القرارات من الأدباء الذين يجهلون العلم بقدر ما يجهلون الصينية أو اليابانية .

وليس ما أقوله منصبا على جامعة بذاتها ، ففي كل جامعاتنا أدياء ومتسلفون وضعوا في غير مواضعهم وحاهم أن الإشراف على الإنتاج العلمي أو التعليمي ممنوع إلا حيث تلجأ الجامعة إلى محكمين ، وما أكثر ما ينقص المحكمين الموضوعية أو الإلمام بجوانب ما يحكمون فيه . وقد نجد مثل هذا في جامعات الدول المتقدمة ، ولكن هناك نجد إلى جانب الأدياء والمتسلفين نفرا ينتجون ويدعون ويكتشفون ويخترعون ويكسبون جامعاتهم سمعة طيبة وشهرة ، ومن هؤلاء المبدعين من هم من أبناء العالم الثالث ، ولكنهم آثروا أن يتابعوا بحوثهم في جوتربة تحسن استقبالها ، على أن يغمروهم في بلادهم تيار جهالة جهلاء .

أرى أن عليّ أن أستمح عذراً ذلك النفر من علمائنا الصامتين الذين آثروا أن يبقوا في أوطانهم غرباء على أن يعملوا في بلاد غريبة تستأثر بجهودهم . إنهم قلة بين كثرة من الأدياء .

إن تعليم العلوم في أكثر جامعات العالم العربي إنما هو كذبة كبيرة ، فإن يكن في المتخرجين من شذا شيئاً من العلم الصحيح ، فلأنما ذلك بجهده ، لا بفضل أحد عليه .

ولكن بدأنا القول بأنه قد يكون لدعاة التغريب وجه من الحق ، فما الحق فيما يدعون ؟

وجه الحق لدى دعاة التغريب أننا نرجمنا ومهما عربنا ، سنبقى بحاجة إلى معرفة جيدة بالإنكليزية بخاصة ، كمن يتسنى لنا الاطلاع على الدوريات العلمية وعلى ما استجد من اكتشافات واختراعات ، وكمن يتسنى لنا أيضاً أن ننشر بحوثنا المتواضعة في دوريات إنكليزية تبقينا على صلة بأهل العلم .

وهذا حق ، ولكن الوضع القائم في جامعاتنا لا يحقق هذا الغرض ، وما يحققه هو أن يعطى طلاب العلوم لي

أواخر مرحلة الدراسة الثانوية وفي المرحلة الجامعية دروسا مكثفة بلغة العلم الإنكليزية وفي المنهجية العلمية وأساليب نشر البحوث . بل قد يكون أفضل لخريج الكليات العلمية أن يعرف الإنكليزية معرفة جيدة وأن يلم إلماما بلغة حية أخرى كالفرنسية أو الألمانية أو الروسية ، كي يتسنى له الاستفادة مما يظهر في اللغات الغربية من كتب ودوريات . ومما فائدة الكتب والدوريات إن لم يكن القارئ قد استوعب مبادئ العلم الذي يقرأ بلغته التي يفهمها .

وأما أساتذة الكليات العلمية فلن يكون بإمكانهم أن يخفوا جهلهم عن الناس ، إذا هم ألقوا محاضراتهم بالعربية . وهنا تبرز أمامنا مشكلة المصطلحات العلمية . هذه مشكلة ستتضام بالتدريج كلما مضينا في تدريسنا بالعربية ، وفي أول مراحل التدريس لا غضاضة من استعمال المصطلح الإنكليزي أو الفرنسي أو سواهما ، وتفسيره بالعربية ، مع محاولة وضع مصطلح عربي مؤقت يقابله ريثما يتفق على المصطلح المناسب .

تبقى كلمة لا بد من ذكرها عن دعاة تعريب العلوم من غير العلميين ، وأعني بهم رجالات الآداب ، إنهم ينادون بأن ولاءنا لعروبتنا يقتضي أن يكون التعليم بالعربية ، وبخاصة أنه ما من أمة تعلم في بلدها بغير لغتها إلا الأمة العربية . فالفهم الأكيد لا يتم إلا إذا جرى التعلم والتعليم بلغة البيت ، والإبداع لا يتم إلا إذا جرى الفهم والكلم بلغة البيت ، ألسنا قضينا نصف قرن أو أكثر نتعلم بلغات أجنبية ، فماذا صنعنا أكثر من تغريب العلم والعلماء .

قول سليم ولكن دعاة التغريب يردون عليه بأن ولاءنا القومي يقتضي أن نفتتح جميع النوافذ للعلم الغربي ، وأن مشكلتنا الكبرى لنا تعيين عامية وفصحى ذات حدود وقيد تجمعنا إذا تكلمنا بها نفكر بقواعدها وحدودها وقبورها قبل أن نفكر بما نريد أن نقول ، وإذا تكلمنا بالعامية نكون قد جنحنا إلى إقليمية تفرق بيننا ، ذلك أن لكل قطر عربي عاميته ، بل لكل عربي عاميته ، ناهيك عن المصطلحات العلمية التي لانجدها بالعربية . ولا تملك أن نضع مقابلات لها ، ذلك أنها تتزايد على الدوام في عصرنا هذا الذي يتزايد فيه العلم بسرعة مذهلة ، ولذا فإن مجامع اللغة العربية التي تعنى بوضع مصطلحات عربية مقابل بعض المصطلحات العلمية إنما تخوض معركة خاسرة . بل لقد ذهب علمي فاشل إلى أن أعمال المجامع العربية في تعريب العلوم والمصطلحات دونكشوطية .

وفي حديثنا القادم عن تطوير اللغة العربية وتطوير تعليمها سنجد مجالا واسعا للحديث عن مجامع اللغة ، فيكفي هنا أن نتكلم عن علاقة هذه المجامع بالعلماء والعلميين والمصطلحات العلمية :

لا جدال في أن حسن النية ونبل الهدف متوافران لدى مجامعنا اللغوية ، فهي تريد أن تجعل العربية تستوعب المصطلحات العلمية ، ماوضع منها واستقر وما سيوضع ويستقر ، من أجل أن تعود العربية كما كانت في العصور الوسطى ، لغة علم . النية والهدف واضحان ، ولكن ماذا عن خطة التنفيذ ؟

يعمل في كل مجمع لجان معينة من أعضاء المجمع ومن علميين يتتبعهم باسم خبراء ، وأعضاء المجمع في اللجان منهم العلميون ومنهم اللغويون والأدباء . ويعقد هؤلاء اجتماعاتهم فيتناولون مصطلحات في مجاهم المحدد فيأخذون

بترجمتها في حدود معرفتهم ، بالاستعانة بقاموس وقواميس . ثم تجمع هذه الترجمات وتعرض على مركز تنسيق التعريب بغية اختيار ترجمة موحدة يتفق عليها المجتمعون ، ثم تنشر على المؤسسات التعليمية والجامعات ، حيث يحفظ أكثرها حبرا على ورق . أما الجامعات التي تدرس بغير العربية فلا يعينها الأمر في كثير ولا في قليل . وأما الجامعات والمؤسسات التي تدرس بالعربية فيرى من يعينهم الأمر أنها يحتفظوا بما تواضعوا عليه من مصطلحات أولا لأن المتدربين لتوحيد هذه المصطلحات ليسوا كلهم موضع ثقة ، وليسوا كلهم ممن تراسوا بوضع المصطلحات العلمية وربما كان أكثرهم من غير العلميين ، وثانيا لأن أعضاء المجامع أنفسهم الذين وضعوا المصطلحات ليسوا في نظر المختصين خيرة من يتصدى إلى هذا العمل ، لا العلميين منهم ولا غير العلميين .

ولعل هؤلاء الذين قلنا إنه يعينهم الأمر على حق ، أولا لأن توحيد المصطلحات ينبغي أن يسبقه توحيد التعليم بحيث تنتشر كتب التعليم في أرجاء العالم العربي ، ويستعملها المعلمون والمتعلمون على السواء .

وثانيا لأن أكثر أعضاء المجامع من غير العلميين ، وهؤلاء ما يزالون فكريا يعيشون في أواخر العصور الوسطى ، يعارضون التطور والتطوير ويتشبثون بما في معجمات وضعت قبل عشرة قرون ، ويجهلون مبادئ العلوم التي عمدوا إلى وضع مصطلحاتها ، فيعمدون إلى ترجمة المصطلحات الإنكليزية ، رغم شعور مكبوت بالنقص يمنعهم من قبول التعريب في بعض المصطلحات . ثم هم يجهلون أو يتجاهلون أن المصطلح العلمي سمي مصطلحا لأن العلميين تواضعوا عليه ليعطي دلالة غير دلالة القاموسية ، حتى إنهم ليحاولون تغيير مصطلحات تراثية ، فتجدهم يفضلون (مدورة) على (دائرة) - مثلا ، وهم يرفضون مصطلحات تواضع عليها العمال بحجة أنها عامية ، حتى ليكادون يقيدون العمال والعلماء على السواء .

لقد قبل الناس بكلمة حاسوب مقابلة لكلمة كمبيوتر الإنكليزية ولكن ما يزال بعض المجمعين يبدي عدم رضاه عن وزن (فاعول) ، وبعض يفضل (كميوطر) (كمطر يكمطر كمطرة) . ولو أنهم عمدوا إلى تعريب عمليات الحاسوب وأجزائه لكان أجدى بهم وأحرى . ولعل أجدى وأحرى ألا يخوض امرؤ فيها لا يعرف .

ومشكلة المجمعين أنهم نصبوا أنفسهم بأنفسهم حماة على لغة يرى العلميون أنهم يقيدها بقيود عصور بائدة ، فلا العلميون المتمرسون بتعريب المصطلحات يرضون عما يصنعون ، ولا هم يرفعون . ولذا تثار عليهم بين حين وحين تشنعات هم منها براء .

إن تعريب المصطلحات العلمية أمر لا بد منه ، ولكن ينبغي أن يمضي مع تعريب التعليم ، فعندما تأمر الأمة أو الدولة بذلك ، عندها ستزول كل المعوقات ، وسينزوي أولئك الذين يتخذون من التعريب درعا يسترون به جهلهم .

وفي معرض الحديث عن التعريب ومآسيه ، ترد على خاطري أحداث شهدتها ، ومواهب رأيتها تدفن في غياهب الجهل ، ولكنني أحاذر الكتابة عنها كيلا يظن قارئ أنني أبني أحكامي على حوادث فردية . إلا أن حادثة أرى أن أنهي بها

حديثي عن التفرغ لأنما تبين كيف يبقى العلم غريباً في عقول المتعلمين . والحديث عن عربي هو اليوم أستاذ بارز في قطر أجنبي . كان تلميذاً في مدرسة ثانوية تعلم العلوم بالإنكليزية . قال لي : ذات يوم فتحت كتاب الكيمياء لأطلع الموضوع الذي سيحدثنا عنه الأستاذ ، فجاءني عنوان لم أراه من قبل ، هو The Atmosphere . قلت في نفسي وماهي الأتموسفير هذه ، لاشك أنها كرة أتمو وماعساه يكون هذا الأتمو ؟ لا أدري ولكن أمرها سيبين من خلال البحث . ومضيت أقرأ فعلمت أن في داخل هذه الكرة أكسجين ونيوتروجين وثاني أكسيد الكربون وغازات أخرى بنسب محددة ، وأن فيها بخار ماء يزيد وينقص . ثم فاجأتني atmospheric pressure فساءلت كيف تضغط كرة الأتمو هذه ؟ وخيل إلي أنها كرة يلعب بها السباحون في الماء . وجاء الدرس ، وتكلم المعلم بطلاقة ، وخيل إلي أن كل شيء قاله كان مفهوماً عندي ، وكل سؤال سأله كان جوابه جاهزاً لدي . وفي الامتحان الأسبوعي حصلت على علامة كاملة عن كرة الأتمو . ثم انتقلنا إلى دراسة غازاتها وطرق تحضيرها ومركباتها ، وأنا أحسب أنني بلغت من العلم مبلغاً عظيماً . قال محدثي : إلى أن جاء يوم ماطر قابلتك فيه فحدثتني عن الجو ورطوبته وضغطه ، وعلاقة ذلك بالمطر ويومها عرفت منك ، من حيث لا تدري ، أن الأتموسفير هو الغلاف الجوي المحيط بالأرض ، وأن ضغطه هو الضغط الجوي ، فكأنني استيقظت من حلم عميق .

تري كم من شبابنا من يغادر المدرسة أو الجامعة . وهو في حلمه هذا العميق يحسب أنه عرف كل شيء ! .

ب - الأمور الخاصة :

١ - تعليم العلوم : من أجل أن يجري التفاعل المنشود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، لابد من تعليم العلوم للجميع ، وفي كل مراحل الدراسة . وتعليم العلوم لا يكون تلقيناً وإنما استكشافاً واكتشافاً :

ففي المراحل الأولية يشجع الطلاب على المشاهدة والاستقراء ، كتجميع أوراق الأشجار والأزهار والتميز بينها ، وتجميع الحشرات ومشاهدة أجزائها بالمجهر . ولا يستطيع كل طالب أن يحصل في بيته على مجهر ، ولكن قد تجعل المدرسة جوازها التشجيعية مجاهر ، وقد يشجع الصنّاعيون على صنع مجاهر محلية تباع بأثمان رخيصة . وبما يمكن تجميعه ودراسة الفروق المميزة له صور الحيوانات المحلية المختلفة ، المستأنسة منها والبرية ، وأنواع الحجارة المحلية : الرملية منها والكلسية والكبريتية ، والحجر الجيري والجرايت والصوان . . .

وبما يهدر التنبيه إليه أحوال الجو وتقلباتها ، والتميز بين الأصوات ، والألوان ، وبما يمكن أن يحدث من مزج الألوان بعضها ببعض ، وما يستجد من مبتكرات التكنولوجيا وتطويرها ، . .

وفي هذا كله يتنبه المعلم والمقيم إلى ما يبدو من ميل خاص لدى بعض الطلاب وتسجيله في ملفاتهم . وينبغي أن يرافق هذا كله ما ينشر ويبث ويعرض من قصص للأطفال ، فهذه ينبغي أن تكون رافداً للتعليم ولعل التعليم عن طريق اللعب واللهو يكون أدعى للبقاء في الذاكرة وأجدى من التعليم المباشر .

وبانتقال الطلاب إلى المرحلة الثانوية ينتقل معهم هذا المنهج متطوراً بحيث يشمل مبدأ سير السيارة والطائرة ، وسفن الفضاء ومبادئ علم الكمبيوتر ، والأقمار الاصطناعية وما يجرّد ويستجد من مبتكرات .

وفي أواخر المرحلة الثانوية يعلم الطلاب المنهج العلمي وطريقتي الاستنتاج والاستقراء ، وطرق البحث وتوثيق الأفكار بالمراجع والمصادر ، وطرق عرض البحث ، وخواص الموضوعية والأمانة العلمية .

ويدهي أن يرشد هذا كله ما تنشره وتبثه وتعرضه وسائل الإعلام ، مع نشر الكتب والقصاص الأجنبية ذات الخلفية العلمية مترجمة أو غير مترجمة ، بأسعار زهيدة لكيلا يكون شراؤها عبثا كبيرا على القارئ .

ويدهي أيضا أن ينبه إلى تحرى الصدق فيما يقال أو ينشر في الصحف ، وألا يصدق الشائعات إلا إذا لقي دليلا يثبت صحتها ، أو سنداً موثقاً يؤيدها . لا الشائعات ولا الأمثال الماثورة مبرأة من الخطأ .

وليس غريبا ولا مستهجنا أن نطلب من معلم العلوم المتخصص ، في المدرسة الثانوية ، أن يكون له ، كنظيره الغرب ، مختبر خاص يجري به تجاربه ، وعلى الأخص لابتكار أجهزة محلية تصلح لأن تكون وسائل تعليمية ناجحة . وليذكر معلمو العلوم في المدارس الثانوية أن المخترعين والمكتشفين والتربويين الكبار ومؤلفي الكتب في الغرب ليسوا كلهم جامعيين بل إن منهم من لم يحصل على شهادة جامعية متميزة . وإننا نتطلع إلى يوم يشار فيه بالبنان إلى معلمين في المدارس الثانوية وكليات المجتمع ابتكروا أو طوروا وسائل تعليمية ناجحة ، أو كتبوا عن مبادئ تربوية أو نفسية حديثة مبنية على خبراتهم المحلية ، أو وضعوا كتباً تعليمية متميزة .

وإذا كنا نتوقع من معلمى المدارس الثانوية وطلابها أن يبتكروا ويحددوا ، فينبغي أن نفتتح لهم النوافذ على ينابيع العلم : أولا بإطلاعهم على لغة العلم (الإنكليزية) عن طريق دراسة كتب مخصصة لذلك ، وثانيا بتزويدهم بدوريات تعطى أحدث المستجدات في العلم ، وأحدث العمليات ، وربما كانت معرفة قراءة بلغة أجنبية ثانية ذات فائدة كبيرة .

إن من الواجب أن يقر في ذهن الطالب والمعلم أن التطوير والابتكار والإبداع أمور سهلة المنال إذا صح العزم والعزيمة وكان الذهن متفتحا ، والفرد واثقا من نفسه بلا زهو ولا غرور .

وما عرفنا والفنا في حياتنا طلابا ومعلمين ، كان وما يزال يجري على أساس فردي ، يطلب من كل فرد أن ينجز عملا ، فيعمله بمفرده ، وقد يستعين بغيره ، ولكن تبقى طبيعة العمل فردية ، وهذا وضع تجاوزه الزمن ، ذلك أن أكثر مبتكرات العصر التكنولوجية ، حتى والنظرية ، إنما هي أعمال فريق من اثنين أو أكثر ، ومن المنجزات الضخمة المعقدة ما يقوم بها عشرات أو مئات أو ألوف ، فريقا متكاملا يحترم الرأي والرأي المعارض ويزن الآراء بموضوعية وبلا تعنت ولا مكابرة ، وعمل الفريق أمر ينقصنا . نحتاج إلى أن نعود أبناءنا وطلابنا عليه ، من أول مراحل الدراسة . وينبغي أن يسجل في التقييم مدى استعداد الطالب للعمل التعاوني مع فريق كبير أو صغير .

وإذا جئنا إلى المرحلة الجامعية نكون قد جئنا إلى المصانع التي تخرج العلماء والأدباء والمهندسين والحقوقيين والمحاسبين والأطباء . هنا ينبغي أن تجري دراسة الأساسيات بمحاضرات تلقى بلغة عربية سليمة ، غير متكلفة ، يعود بعدها الطلبة إلى عدة مراجع ، عربية أو غير عربية ، الأساسيات التي ينبغي أن يستوعبها كل طالب تعطى بلغته العربية

التي يفهمها ، يتبعها توسع في الموضوع ، بالرجوع إلى المراجع . ذلك أن الجامعة هي المكان الذي يتابع فيه الطالب ما تملّيه عليه ميوله وتدفعه إليه مواهبه . الطالب العادي يكتفي بالأساسيات ليأخذ درجة مقبول ، والطالب الطموح الموهوب أمامه مجال مفتوح للتزود من العلم والمعرفة ، وإشباع ميوله وإظهار مواهبه .

وفي أوائل مراحل الدراسة الجامعية ينبغي أن يكون من موضوعات الدراسة الإجبارية في جميع الكليات دراسة المنهجية العلمية وأساليب البحث وطرق توثيق المعلومات والتميز بين المراجع الموثوقة والمراجع غير الموثوقة . ومن موضوعات الدراسة الإجبارية في الكليات العلمية دراسة لغة العلم (الإنكليزية أو الفرنسية أو كليهما) لتمكين الطالب من استعمال المراجع الأجنبية بمعرفة وثقة بالنفس .

إني أحلم بأن تكون جامعات العالم العربي كأفضل الجامعات الإنكليزية والأمريكية فيها المخترعون والمبتدعون والمبدعون ، منهم من يجري تجارب زراعية لتحسين الإنتاج وزيادة المحصول ، ومنهم من يعمل في ابتكار الطاقة وترشيدها ، ومنهم الحقوقيون العالميون ، والكتاب والأدباء الذين يشارفون آفاق المستقبل ، والاقتصاديون الذين يخططون لكي يكون المستقبل أكثر رفاهية من الحاضر ، أحلم بعالم جامعي يكون فيه لكل فرد أو فريق مختبره وأجهزته بحثه ، يبحث عن حلول لمسائل ألقتها عليه المؤسسات الخاصة أو العامة ، عالم يكون من أفراد المعلمين والطلاب حملة جوائز عالمية ، تقديرية أو تشجيعية ، أصحاب إنجازات ذات سمعة عالمية ، تحسّن الحاضر وتمهد لمستقبل عالمي أفضل .

أحلام سيقول قارئتي إنها بعيدة المنال ، ولكن لماذا ؟ إذا نحن عملنا على وضع الفرد المناسب في المكان المناسب ، وعقدنا العزم على تكريس الوقت والجهد والمال من أجل صالح المجموع وصالح الإنسانية ، مع الحذر من الاستثناءات ، وتضييق الخناق على المتسلقين الأدعياء واستبعادهم ، علميين كانوا أو عمالاً أو إداريين ، إذا نحن عملنا ذلك بجرأة وإخلاص ، فلن تكون أحلامي بعيدة المنال ، إنها تحتاج إلى جيل أو جيلين بعدها تبدأ ثمار ما نعمل بالتضج .

٢ - تعليم اللغة العربية وآدابها : إذا كنا نجد أن وصول العلميين العرب إلى مستوى الأمم المتقدمة في الإنتاج العلمي والتكنولوجي مطمح بعيد المنال ، فإن وصول رجال اللغة والأدب إلى هذا المستوى في الإنتاج اللغوي والأدبي أبعد منالاً ، ذلك أن العلميين والأدباء عندنا ما يزالون ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، يعيشون فكرياً في العصور الوسطى ويتشبّهون بمواصفاتها ، إلا أن العلميين قد يكونون أحسن حالاً لأنهم اطلعوا على بعض من نتاج العصر الحاضر الفكري اطلاعاً قد يكون أرضية صالحة لقبول التطور والتطوير اللذين هما سمتا الفكر المعاصر وتيارات الحياة المعاصرة .

إن في طليعة ما ينبغي أن يرسخ في الذهن العربي ، علمياً كان أو أدبياً ، أن سنة الحياة أن كل حي يتطور ، واللغة كائن حي ، فهي تتطور ، ومن ثم ، فعربية اليوم ، ليست هي عربية الأمس ، ومعجمات الأمس لا ينبغي أن تكون قيوداً على لغة اليوم . وينبغي أن يرسخ في الذهن العربي أن التطوير نحو الأحسن والأنسب لتقلبات الحياة

وتغيراتها هو مجازة لسنة الحياة ، وكما قال علماءنا السابقون أن لا رأي لميت ، ينبغي أن نقول نحن اليوم إن من واجبتنا تطوير لغتنا وقواعدها كما طورها أسلافنا من قبل . ذلك أن اللغة ليست تراثاً نصونه وليس لها قداسة نحافظ عليها ، إنما هي كيان حي يعيش معنا فينبغي أن تتسع آفاقها باتساع آفاق معارفنا ، وإلا فستطبق اللغة عن استيعاب هذه المعارف ، وستحجر ، ونكون نحن الملمومين . وينبغي أن يكون لغويو اليوم بمعرفتهم للسانيات وقواعد لغات أخرى ، أقدر من لغويي الأمس على وضع قواعد مبسطة للعربية .

التطورات العلمية جعلت العالم الواسع صغيراً ، بضغطة زر يستطيع الشاب العربي أن يرى زميله الأوربي أو الأمريكي ينعم بحياة حرة ويتكلم بلغة واضحة سهلة ، فلن لم نبادر نحن لتطوير لغتنا بحيث يتكلم بها الشاب العربي بمثل طلاقة زميله ووضوح عبارته ، فلن يجدي نداؤنا بالتعريب ولا دعوانا بأنه ضرورة قومية .

وأعني بتطوير اللغة أولاً تطوير معاني بعض مفرداتها الحاضرة بإكسابها دلالات جديدة ليست في معجمات اللغة القديمة ، وثانياً اشتقاق صيغ جديدة ذات دلالات جديدة ، من ألفاظ قاموسية ، ثالثاً اقتباس ألفاظ جديدة من لغات شرقية أو غربية ، بلا خجل ولا حرج ولا عقد نفسية ، فكل لغة تقتبس من غيرها ، وقدما قيل إن أي لفظ غير عربي إذا استعمله العرب صار عربياً ، وما نقتبسه اليوم قد نبذله غداً ونستغني عنه ، فإن بقي واستقر فهو ذخيرة جديدة تضاف إلى ذخائر لغتنا المحبوبة ، ومما ينبغي ألا نتحرج من اقتباسه ألفاظ شاعت على السنة العامة وليس لها بالفصحى مقابل .

وإلى جانب تطوير اللغة ، يجب أن يمضي تطوير في عرض قواعدها ، ذلك أن قواعد اللغة ليست هدفاً بذاتها إلا في مرحلة التخصص الجامعي ، وهي قبل ذلك وسيلة للفهم الصحيح ، وينبغي ألا تعطى إلا بقصد الفهم والتمييز .

ففي المرحلة الابتدائية لا يستهدف تدريس العربية سوى القراءة والفهم ، ولا ينبغي أن يعطى من قواعد اللغة إلا ما يساعد على الفهم . ويضاف إلى القراءة والفهم ، في هذه المرحلة ، حفظ بعض من الآيات القرآنية وبعض من الأشعار والأناشيد . ومن المؤسف أن بعض الأشعار والأناشيد التي يرددونها أطفالنا وأحفادنا اليوم هي ما كنا نردده في أوائل هذا القرن . وموضع الأسف أن قرناً كاملاً من الزمن لم ينجب شعراء يزودون الأطفال بأشعار وأناشيد جميلة بلغة عربية فصيحة - نقول هذا ونحن نعرف أن بلداً مثل فرنسا مثلاً فيها عشرات من الشعراء والمغنين والموسيقيين ممن تخصصوا بوضع أناشيد للأطفال . أليس من شعرائنا من يجب أطفاله إلى حد وضع قصائد وأناشيد لهم ، بدل قصائد النفاق والمهجاء !

وإذا كانت غاية قواعد اللغة ، في هذه المرحلة ، هي الفهم ، فقد لا يحتاج فيها إلا إلى معرفة الفاعل والمفعول ، وحالات الرفع والنصب والجر ، وربما الجزم ، دون الحاجة إلى تعداد أنواع المنصوبات إلا حيث تقتضي القراءة أو يقتضي الحفظ وينبغي أن يرفد القراءة والفهم في المرحلة الابتدائية مطالعة لقصص عربية مصورة نحاول أن نجعلها أكثر جاذبية وإثارة من قصص الكرتون التلفزيونية . وغني عن القول أن هذه القصص ينبغي أن تكتب بلغة مبسطة ، وبسجع أو أراجيز سهل حفظها وتكرارها ، ولا حرج من أن يداخلها ، في هذه المرحلة ، قليل من الألفاظ العامية المستساغة .

وهنا أتخيل قارئاً يثور على ما أقول ، كأني نطقت كفرةً إذ حللت أن نستعمل ألفاظاً عامية فيما يطالعه الطلاب . أليس لغويونا وأدباؤنا يثرون على العامية وعلى الازدواجية في محيطنا اللغوي بدعوى أن لكل بلد عاميته ، فالعامية تفرق بيننا والفصحى توحد . جوابي على ذلك أن في كل قطر من أقطار العالم لغة كتابة (فصيحة) ولغة حديث (عامية) بل لغات حديث ، لأن لكل بلد من بلاد القطر عاميته ، حتى العربية الجاهلية كان فيها لغة خطابة ولغة حديث . وفي ألفاظ لغات الحديث العربية ما هو من صنعنا ، عاش معنا في أيام يسرنا وعسرنا ، وهناءتنا وشقاءنا ، وجدنا وهونا ، فلا ينبغي أن نحرم استعماله على أولادنا ، وهم قد عرفوه والقوه ، خشية أن يفرق بيننا . فوسائل التعليم والإعلام اليوم من سينما وراديو وتلفزيون وصحافة ، تنقل لغات الحديث العربية إلى شتى أنحاء العالم العربي ، فما استسيغ يشيع ، وما استهجن يهجر ، ولا ينبغي أن ننسى أن العربية العامية تقارب الفصحى كلما زاد التعلم وقلت الأمية ، فليست المبالغة في التخويف من العامية إلا من قبيل جعل الحبة قبة . أزيلوا الأمية تزال العامية وكفى الله المؤمنين القتال .

وفي المرحلة الثانوية ينبغي أن تستهدف دروس اللغة العربية : ١ - القراءة الصامتة السريعة مع الفهم . ٢ - التفكير . ٣ - التعبير عن الأفكار بلغة سليمة ودقيقة . هذا بالإضافة إلى تاريخ الأدب العربي ، مع الاطلاع على عيون القصاصد والكتب ، القديمة والحديثة ، الأصلية والمترجمة . وقواعد اللغة ما تزال وسيلة للفهم الصحيح ، لا هدفاً .

وربما كانت الأهداف الثلاثة الأولى جديدة على الفكر العربي ، فالقراءة في مدارسنا ما تزال ضرباً من الخطابة ، والتفكير والتعبير عن الأفكار ما يزال يطغى عليها ضرب من الشكلية يتم بالمحسنات اللفظية ، وبيرة العبارة أكثر من المضمون . ألا ترى أن مواضيع (الإنشاء) ما تزال هي هي منذ أوائل هذا القرن ؟ ألا ترى أن التفكير والابتكار والتجديد قد يحاربه المعلم ويعاقب عليه ؟

إن تعويد الطالب على الفهم عن طريق قراءة صامتة سريعة يعينه على فهم ما يقابله من قراءات مستقبلية بوقت قصير . هذا ما ينقص طلابنا ، وما نلمسه من فرق بينهم وبين زملائهم من الطلاب الأجانب ، وربما كان المعلمون أنفسهم لا يحسنون الفهم عن طريق قراءة صامتة . فلا بد من إعداد ما ينبغي من تدريب على ذلك سواء للمعلمين وللطلاب .

والتفكير والتعبير عن الفكر بعبارات واضحة أمر غير ما يجري عليه تعليم العربية ، لو كانوا يعلمون . وما يجري عليه تعليم العربية هو التعبير عن أفكار سطحية مكرورة مبتذلة بعبارات فيها محسنات لفظية على مبدأ (لبس البوصة تصبح عروسة) . تلك هي الشكلية وذلك هو السوس الذي ينخر في عظام تفكيرنا وتقديرنا للأدب ، وهو السبب فيما نعانيه من أزمة فكرية وخواء ذهني .

إن التفكير يعني مجابهة مشكلة وإعطاء حل لها أو حلول ، وذلك من قبيل تكليف طالب ، أو فريق من الطلبة ، باختيار مكان يقضون فيه رحلة مدرسية ، وتقديم خطط يبين فيه سبب تفضيل هذا المكان على غيره ، مع ما ينبغي أخذه من معدات ، والطريق الذي ينبغي أن يسلك في كل من رحلتي الذهاب والإياب . إن التفكير يعني البحث عن حل جديد أو حلول جديدة ، لمشكلة قائمة . وهذا ما يجدر أن نعود طلابنا عليه . أما التعبير السليم ففي تقديره أن المعلمين في غمرة ما يمارسون من محسنات لفظية وعبارات شكلية ، لا يعرفون قواعده وأصوله . وأول قواعد الكتابة وأصولها هي فائدة القارئ ، وليست إظهار براعة الكاتب . وفائدة القارئ تقتضي إعطاء أفكاراً جديدة بتعبيرات واضحة وألفاظ معروفة محدودة المعنى ، لا عقد فيها ولا تعقيدات فإذا كان لابد من ذكر لفظ جديد أو غير مألوف ، وليس في اللغة ما يفيد معناه ، عندها لابد من تعريف اللفظ تعريفاً واضحاً . والكتابة أنواع ، نذكر منها ما يلي :

١ - الكتابة العلمية وتشمل البحوث والدراسات العلمية ، سواء أكانت بحوثاً أم دراسات في حقول العلوم الطبيعية ، أم بحوثاً أم دراسات في حقول العلوم الإنسانية ، كالتاريخ واللسانيات واللغويات . والبحث يعني طرح فكرة جديدة وحل أو حلول جديدة لها مبنية على اكتشاف أو ابتكار قام به الباحث . وهنا تقتضي الأمانة العلمية أن يبين الباحث بوضوح تام ما قام به غيره وما جرده هو أو أجراه من تعديل أو تصحيح . أما الدراسة فلا تتضمن تمهيداً ولا تعديلاً ولا تصحيحاً لبحوث سابقة ، إنما تعني استقصاء بحوث متفرقة والتأليف بينها ، أعني جمعها في سياق متكامل .

وسواء أكانت الكتابة العلمية بحثاً أم دراسة فينبغي أن تكون سهلة العبارة ، لا التواء فيها ولا تلميح ولا مجاز ولا كناية . تلك هي العبارة العلمية . فإن كانت تنطوي على ألفاظ مستجدة أو مستحدثة فينبغي البدء بتعريف هذه الألفاظ وتعريفات واضحة .

إن الكتابة العلمية تفترض أن تعني ما تقول وأن تقول ما تعني ، بعبارات سهلة واضحة ، بلا مبالغة ، ولا تظاهر . إن الكتابة العلمية إنما هي لفائدة القارئ وحده . أما الكاتب فنصيبه من الفائدة ، الاعتراف بأنه بحث وابتكر ، أو استقصى وجمع ودرس .

ومن خصائص الكتابة العلمية الموضوعية ، وهي تعني البحث عن الحقيقة وإظهارها كاملة بصدق وأمانة ، بلا تحيز ولا تحجج على التاريخ أو على أحد أو شيء ، أنها تعني تقبل الحقيقة مهما تكن مرة .

ب - الكتابة التعليمية وتشمل ما يقدم للطلاب أو للناس من معلومات متفق عليها . وهي كالكتابة العلمية من حيث إنها تستهدف فائدة القارئ . ومن ثم فهي تكتب بلغة واضحة سهلة ، لا التواء فيها ولا مبالغة ولا تلميح ولا تظاهر . وهي تختلف عن الكتابة العلمية في أنها دراسة انتقائية تهتم بأن تعطي للقارئ المبتدئ ، وبخاصة الطالب ، ما يحفظ له ولاه وانهاء لأمته ووطنه واعترازه بها .

ج - الكتابة الصحفية وهذه لا تنطوي على بحوث ولا دراسات مستقصاة ، إنما هي إخبارية في معظمها ، يخاطبها دراسات غير جامعة وغير مستحصنة ، وهي تستهدف القراء على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية . وهنا أيضا ينبغي أن تكون الكتابة بعبارات سهلة واضحة . ولكن حيث يكون ثمة رقابة صارمة على الكتابة الصحفية ، قد يلجأ الكاتب إلى التلميح بدل التصريح أو إلى إعطاء بعض الحقيقة وترك بعضها ليستنتجها القارئ بفضته . لذا تعتبر الكتابة الصحفية دون مستوى الكتابتين العلمية والتعليمية من حيث الأداء والموثوقية .

د - الكتابة الفنية وهذه تشمل الشعر والروايات والقصص . والحكم في كل من هذه هو القارئ ، يمدح ما يعجبه ويغضى عما لا يعجبه أو يدير له ظهره ، وإنما هنا يمكن للكاتب أن يظهر براعته في المحسنات اللفظية من تشبيه أو مجاز أو تلميح ، أو معرفة بالألفاظ اللغوية المعقدة ، يذكرها ويفسر للقارئ ، إذا هو شاء . والذين يتصدون للكتابة الفنية مثلهم كممثل الشعراء الذين قيل فيهم : الشعراء في الزمان أربعة ، فواحد يجري ولا يجري معه ، وواحد يخوض وسط المعركة ، وواحد لا تشتهي أن تسمعه ، وواحد لا تستحي أن تصفحه . إلا أن أصحاب الكتابة الفنية في زماننا قد يسطون على ميدان الصحافة يشيعون فيه تظاهراتهم وادعاءاتهم ويتباهون بما يصنعون .

وليت المعلمين والطلاب على السواء يدركون أن الكتابة الفنية إنما هي للموهوبين ، عسى الأدياء والمتظاهرون يخفون أو يخشون . وفي المرحلة الثانوية ينبغي أن يكون التقييم قد ساعد الطالب على اكتشاف مواهبه وتحديد ميوله .

وفي التعليم الثانوي ينبغي تعريف الطلاب بأنواع الكتابة وميزاتها ، ومطالعة كل نوع منها ، ثم يختار كل طالب ما يراه أقرب إلى ميوله ومواهبه ، كتباً وقصائد وقصصاً مؤلفة أو مترجمة أو كتباً علمية أو تعليمية مبسطة ، أو كتابات صحفية .

وفي التعليم الثانوي ينبغي إعطاء الطلاب مزيداً من الآيات القرآنية والأمثال والحكم العربية للحفاظ والاستشهاد ، ومزيداً من الكتب العلمية المبسطة والكتب الفنية الأدبية للمطالعة ، ويراعى اختيار ما يناسب أذواقهم وفي مرحلة المراهقة ويحبهم بلغتهم . لنذكر أننا في صراع مع ما يشه التلفزيون من برامج أجنبية ، فلنحسن اختيار ما نقدمه لأبنائنا وطلابنا كي نكون في هذا الصراع غالبين منتصرين . ولا شك أن الغزل العذري أدعى للنصر في هذه المرحلة من شعر المدح الكاذب والهجاء ونقائص جرير والفرزدق .

وفي العصور الإسلامية لم يرق الشعراء بتمجيد أبطال الإسلام وتخليد فتوحاتهم . ولذلك أسباب بيته . فمعركة القادسية مثلاً كانت انتصاراً على قوم دخلوا في الإسلام ، فتمجيد أبطالها يثير ما في نفوس الذين غلبوا فيها من غل وأحقاد ناهيك عن أن بعض شعراء العصر العباسي هم من أبناء هؤلاء المغلوبين .

تلك أيام وظروف مضت . وليت شعراء اليوم يضعون من الملاحم الشعرية ما يذكرونا بأجدادنا السابقة واللاحقة ويرسخ في النفس العربية ما فيها من عزة وكرامة ، وفي الأمة العربية ما يحفظ وحدتها وتماسكها ، مهما اختلفت السياسات والأهواء . عندها ستكون ملاحم هؤلاء في طليعة ما يعني به أبنائنا وأحفادنا مما يبث العزة في النفوس ، ويزيد الولاء للأمة والوطن رسوخاً ، والاحتفاظ بالأخلاق والقيم العربية ثباتاً .

أكتب هذا كله ، وفي بالي مثل يقول : فاقد الشيء لا يعطيه ، ومعلمو العربية فاقدون لكثير من هذا الذي تتطلبه من أبنائنا . فهل يعطون ما هم فاقدون . أم هل نحيلهم إلى الاستيداع وتبدأ الكرة من جديد !

ومنذ أواسط المرحلة الثانوية نرجو أن يأخذ التقييم الموضوعي النزبه مجراه الطبيعي بلا استثناءات ، فيصنف الطلاب علميين وتكنولوجيين أو أدباء وحقوقيين أو اقتصاديين وسياسيين أو حرفيين وعمالا ، ثم يوجه هؤلاء الوجهة التي تناسبهم وتتمشى مع ما يجري في عصرنا من تحديات تكنولوجية .

ومهما يكن من أمر ، فعلماء الغد العرب ينبغي أن يكونوا أكثر اطلاعاً على الأدب العربي واللغة العربية من علمي اليوم ، وأدباء الغد العرب وشعراؤه وفنانونه ينبغي أن يكونوا أكثر إلماماً بعلوم العصر وتغيراتها ، وأقل جهلاً لها ونفوراً منها من أمثالهم المعاصرين .

وتاريخ الأدب العربي أتمنى لو يتخذ ، في العهد الجديد الذي نتطلع إليه ، مساراً آخر يتبع الشعر الوجداني والغنائي أكثر مما يتبع شعر النفاق والارتزاق ، ويضع مقاييس لتقدير جودة الشعر على قدر ما فيه من شعر إنساني ، أو وصف لتزعات النفس البشرية ، أو اعتزاز بالقيم العربية ، بدل المقاييس الشكلية المجمدة التي تشتمل على براعة الاستهلاك وما يسمى (المعاني الكثيرة في البيت الواحد) وما إلى ذلك مما يمكن أن يوصف به كل بيت من الشعر وكل قصيدة ، ولعل تتبع الوجدانيات والغنائيات ينقلنا من وحدة البيت الشعري إلى وحدة الفكرة أو القصيدة ، ومن المقاييس الشكلية إلى المقاييس الفكرية والشعورية . فذلك أجدى وأحرى .

أما قواعد اللغة ، التي قلنا إنها ما تزال وسيلة للفهم والتمييز والتعبير السليم ، لا هدفاً بذاتها ، فليت لغويي العهد القادم يكونون بما عرفوه من لسانيات ولغويات ، أقدر من سيبويه والكسائي على فهم عربية اليوم وعربية المستقبل . فإذا سلمنا أن اللغة قابلة للتطور فلماذا لا نسلم أيضاً بأن قواعدنا أيضاً تتطور ، ويمكن أن تتطور ، أو أن تتطور طريقة عرض هذه القواعد ، بحيث تبقى أداة للفهم السليم والتعبير السليم ، هدفاً غير ذي مردود ؟

إني أعلم أن رجال الإنسانيات العرب الذين نموا وترعرعوا على الشكلية حتى ألفوها ستثور ثائرتهم على كثير مما قلت وكثير مما سأقول . ولكنها كلمة إن لم تقل اليوم ونحن أمام الآداب العالمية في موقف التحدي والصراع ، ستقال غداً

بلهجة أقسى وأشد ونحن في موقف المهزوم ، ولغتنا تندحر أمام أعيننا إذ يفضل أبناؤنا وأحفادنا عليها لغات أخرى أجنبية أيسر تناولا وأكثر ملاءمة للعصر الذي يعيشون فيه .

وإذا نجحنا في تطوير تعليم العربية في المرحلتين الابتدائية والثانوية بحيث تمضي مع العلوم والتكنولوجيا على وثام وانسجام ، فلا شك في أن موضوعات الكليات الإنسانية سيلحق بها التطور في المراحل الجامعية ، إذا كان الأساس صلبا متينا فلا شك أن ما يبني عليه سيكون آمنا سليما .

تبقى كلمة لا بد من قولها مهما تكن قاسية على التقليديين الذين يرون في كل ما ورثنا عن آباءنا قداسة ينبغي أن نصونها . كلمتي هذه هي أننا في عصر الحاسوب وما سيليه من مفاجآت في وسائل الكتابة والطباعة ، لا بد من أن تطور كتابتنا بحيث تكون بحروف منفصلة ، صائتة وساكنة ، ومعها حروف مستجدة تقوم مقام الحركات من ضم وفتح وكسر وتنوين وتسكين . أكفر ما أقول ؟ هل كفر الحجاج بن يوسف الثقفي عندما قضى بإدخال النقط والحركات على الحروف العربية التي كتب بها أصحاب رسول الله ﷺ ؟ مرة أخرى أقول إن التطوير هو سنة كل ذي حياة وقدرة ، وما لا يتطور فسيموت .

٣ - تعليم الجغرافيا والتاريخ

ليس عجيباً بأننا نتباهى بأننا دعاة وحدة ، ومع ذلك ما نزال نعمل في تعليم الجغرافيا والتاريخ حسب مناهج وبرايمج وضعها الاستعمار . والتاريخ والجغرافيا يقعان على الحدود الفاصلة بين الطبيعيات والإنسانيات ، فعن طريقهما يجري بعض التفاعل المنشود .

لقد قسم الاستعمار العالم العربي إلى أقطار وجعل كل قطر يدرس جغرافيته الخاصة ، في خضم دراسته لجغرافية العالم ، حتى ليخرج الطالب العراقي ، مثلاً ، من المدرسة الثانوية وهو يكاد يعرف عن جغرافية إنكلترا أكثر مما يعرف عن جغرافية العراق ، ويكاد يعرف عن جغرافية أمريكا اللاتينية أكثر مما يعرف عن جغرافية العالم العربي .

إن واجبنا في العهد الجديد الذي نتطلع إليه أن نبني برامجتنا الجغرافية على أساس أن المطلوب في المدرسة هو جغرافية العالم العربي ، ابتداء بالدراسة القطرية ، على أن تكون الدراسة تعليمية وميدانية تعتمد على زيارات موسعة للعالم العربي ، تعرف طلابه بعضهم ببعض ، وتعرف طلاب كل قطر بالأقطار العربية الأخرى .

أما جغرافية باقي العالم فيبنى تعليمها على أساس من معرفة موسعة بالعالم العربي ، وقد يشترك التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى مع المدرسة في نقل العلوم الجغرافية إلى جماهير الشعب العربي .

وغني عن البيان أن في برامج دراسة الجغرافيا موضوعات فلكية ومناخية وتجارية ، وهذه تقوم بها المدرسة على أساس من المعرفة الموسعة بجغرافية العالم العربي وإمكانية تكامله الاقتصادي .

إن برامج الجغرافية الإقليمية في أي قطر عربي يجب أن تبدأ بجغرافية ذلك القطر ، تليها جغرافية الأقطار العربية المجاورة ، فجغرافية العالم العربي بأسره ، فالعالم الإسلامي ، فالبلاد الأخرى ذات العلاقات الاقتصادية مع الأقطار العربية ، فسائر العالم .

والجغرافيا من الموضوعات التي يمكن أن تعتمد على إنجازات الطلاب الفردية ، كأن يقال لكل طالب أو مجموعة من الطلاب تنوي زيارة بلد ما أن تقدم تقريراً عن طبيعة هذا البلد ، وأهله ، ومناخه ، وصادراته ، وما فيه من مزايا خاصة . والجغرافيا يمكن أن تعاون في تعليمها كتب المطالعة التي تعطى للطلاب وللأهالي .

ومشكلة التاريخ الإسلامي والعربي أعقد وأجدر بالمبادرة ، فقد كاد الاستعمار يحذفه من برامج التاريخ العالمي إذ أعطاه قسماً صغيراً من الوقت في خضم التاريخ القديم وتاريخ ما سماه بالعصور المظلمة ، ويعني به التاريخ الوسيط الذي فيه بزغ فجر الاسلام وانبعثت الحضارة العربية الإسلامية التي صارت فيما بعد الدافع الأقوى والمثال والنموذج لهذه الحضارة الأوربية وما يسمى بالعصور الحديثة .

وفي غضون تساؤلنا : هل نحن عرب أولاً أم مسلمون ؟ وتساؤلنا : أندرس تاريخ العالم العربي أم العالم الإسلامي ، يقوم المسلمون الذين انشقوا عن العالم العربي بكتابة التاريخ العربي الإسلامي باعتباره بعضاً من تاريخهم . فمن الروس من ادعوا أنهم هم حفظة الإسلام بدليل أن البخاري صاحب الصحيح هو من أهل بخاري السوفيتية ، وإيران تقوم بوضع تاريخ للحضارة الإسلامية ، باعتبار أن أكثر علماء الإسلام إيرانيون ، ومثلها تركيا التي تدعي أن علماء الإسلام ، سواء منهم من ظهر في إيران أو في بلد هو اليوم سوفييتي ، كلهم أتراك لأن الفرس ما هم إلا بطن من بطون العنصر التركي .

ففي خضم هذه الاتجاهات والادعاءات أين نقف نحن العرب ، مسلمين وغير مسلمين ؟ الجواب نحن كلنا عرب ، في اليسر والعسر ، في اللغة والأرض ، في الآمال والآلام ، في التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل ، فواجبنا أن نقف بحزم لهذه التحديات ، ولنتكتب تاريخ الإسلام باعتباره تاريخاً بدأ بالعرب وبهم نهض ، وتاريخ العرب باعتباره تاريخاً جعله الإسلام عالمياً وأكسبه صفة الحضارة الإنسانية .

من هذا المنطلق لا بد من أن نرسم برامج التاريخ في مدارسنا باعتبارها تاريخ العرب والإسلام ، ولنجعل النواة لدراسة تاريخ العالم . وفي رأبي أننا ينبغي أن نجعل القسم السياسي منه عاماً إجمالاً موجزاً وأن نركز على ناحيتين ما

نزال لا نوليها ما ينبغي من اهتمام : أولاها تاريخ الفتح الإسلامية وحياة قادتها ومعاملاتهم لجنودهم وللأمم التي تستسلم لهم . والثانية هي تاريخ الحضارة الإسلامية ، بدءاً بالعلوم والفنون وانتهاء بما أعطته هذه الحضارة للغرب مما جعله يقوم بنهضته ويبدأ فجر العصور الحديثة .

ولنجعل تاريخ العرب والإسلام في المراحل الابتدائية والثانوية مدعاة لاعتزاز العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، بأمته وتاريخهم وحضارتهم ، وضمناً لزيادة ولائهم لوطنهم وتعلقهم به والتضحية من أجله ، وجمعاً لأعز القيم والمثل والأخلاق العربية التي تجمع بيننا وتعمل على توحيدنا .

فإذا جئنا إلى ما بعد المرحلة الثانوية فينبغي أن نستعرض تاريخنا ، وعلى الأخص السياسي والعقائدي ، بموضوعية الطبيب الذي يبحث في تاريخ مريضه الصحي للكشف عن أسباب مرضه وعوارضه وسبل علاجه . وفي تاريخنا السياسي أخطاء كثيرة نشأتنا على تقبلها والتغاضي عنها ، رغم أنها لم تعالج في الماضي ، وما تزال آثارها باقية إلى اليوم . ومنها أحكام وإجراءات كان الذوق العام في الماضي يقبلها ، وهي اليوم مرفوضة مستهجنة ، يرفضها الذوق العام ويستنكرها قانون حقوق الإنسان ، ولكننا ، جرياً على عادة موروثه متواترة ، ما تزال نردها باعتزاز ومباهاة ، ولعلها سبب في تفشي عادة الثأر بيننا ، والميل إلى العنف والانتقام والشماتة في صفوفنا ، بدل العفو عند المقدرة والتراحم . فإذا بان أن أخطاء الماضي فينبغي مناقشتها بصراحة وموضوعية وإعداد ما ينبغي من عدة لحو آثارها من نفوسنا . من أمثلة ذلك قتل الحاكم لخصمه بدس السم له ، وإجبار الناس على مبايعة شخص يعينه ، ثم خله ومبايعة آخر ، ومنها تردد خطب فيها إذلال للعرب واستهانة بهم ، كخطبة الحجاج في أهل العراق ، وخطبة زياد ابن أبيه . وثمة أخطاء أخرى كثيرة ليس أقلها كشف ابن ماجد لفاسكودي جاما عن أسرار الملاحة العربية التي كانت سبيلاً لبده الغلبة الغربية على العالمين الإسلامي والشرقي .

٤ - الدروس الدينية

وأعني بها دروس الديانة الإسلامية والديانة المسيحية . ففي معرض البحث عن إقامة تفاعل بين الطبعيات والإنسانيات ، لا بد من حديث عن تطوير المفاهيم الدينية بمثل ما تقدم من تطوير المفاهيم الأدبية واللغوية . فالواقع الذي لا يجوز أن نخطئه العين ، أن مفاهيمنا الدينية ، مسلمين ومسيحيين ، ما تزال كما كانت عليه في العصور الوسطى ، بدليل ما نشاهد من طائفية يعاني منها لبنان الجريح اليوم ، وتعاني منها أقطار عربية أخرى أحياناً . إن الطائفية لا تتماشى مع تيارات الحياة المعاصرة التي تترك لكل فرد حقه في العبادة على طريقته ، وتجعل قيمة الفرد بقدر ما يقدم للمجموع من جهد ، سواء أكان هذا المجموع على دينه أم لم يكن . في العالم المتقدم الذي يحيا الحياة المعاصرة قلما يسأل المرء إلى أي دين أو أي طائفة دينية ينتمي .

والتحدث في الدين وتطوير مفاهيمه أمر حساس كثير المحاذير ، وإذ أَدْعُو إلى تطوير المفاهيم الدينية لدى العرب المسلمين والمسيحيين بحيث تجاري علوم العصر وتحاربه ، أفضل أن أحصر تفاصيل دعوتي في العالم العربي الإسلامي أولاً لأنني على صلة أوثق به ، وثانياً لأن العالم العربي المسيحي يجد الدليل والنموذج والمثال في الغرب المسيحي الذي طُلِقَ الطائفية من وقت بعيد ، ونادى ، كما ينادي البابا في الفاتيكان اليوم ، بأن الدين لله والوطن للجميع .

وإذ أتكلم عن تطوير المفاهيم الدينية لدى العرب المسلمين ، أؤكد للمتشددين أنني ، إن شاء الله ، مؤمن صادق بالإيمان ، أدعو الله سراً وجهراً صباح ومساءً ، أن يعينني على أن أعبد حق عبادته ، وإني أعتر كل الاعتزاز بأنني مسلم وأدعو الله أن يميتني على الإسلام . ولكنني أعلم أن العلم الذي جعله الله فريضة لكي نهتدي إلى آلائه ونقف جيلاً بعد جيل على بديع خلقه - هذا العلم قد طور ويطور حياة اليوم على نحو يبدو معه الدين الإسلامي الحنيف اليوم كأنه ، كاللغة العربية ، متجمد لا يستطيع أن يلحق بتيار الحياة الصائب . والمسؤول عن ذلك ليس الدين الإسلامي الذي كان وما يزال أقوى دعوة لمتابعة العلم ، وإنما المسؤول أولئك الذين قضوا بمنع الاجتهاد في الماضي ، وأحفادهم اليوم الذين يقضون بمعارضة التطوير بحجة أن أحكام الله منزلة خالدة . نعم إن أحكام الله منزلة خالدة لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ولكن مفاهيم الناس ، والناس بشر . هذه الأحكام تتغير بتغير أحكام الزمان والمكان . وما أدعو إليه هو القبول بتطوير المفاهيم الدينية ، برحابة صدر ، بحيث تتلاءم مع تطور الحياة الإنسانية التي يحكمها اليوم ويتحكم بها العلم والتكنولوجيا . وما أنا أقدم مثلين لا أرى المجال يتسع لأكثر منها .

أولاً : تحريم الرق

كان الرق سنة الحياة في العالمين القديم والوسيط . وعندما دعا الإسلام لتحريمه كانت تلك أول دعوة لذلك ، وقد سبقت أوانها بقرون . ولأن الرق كان في أيام الدعوة الإسلامية سنة متبعة ، فقد ظهر في الناس من عارضها حتى قال الفاروق عمر رضي الله عنه متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وأراد الإسلام أن يأخذ بتحريم الرق على مراحل ، بدءاً بمنع استرقاق المسلمين . إلا أن المسلمين ما لبثوا أن تغاضوا عن الدعوة الإسلامية ، مجارين بذلك تيار الحياة العام ، فاسترقوا الناس مسلمين وغير مسلمين . ولقد حكم في مصر ، زهاء مئتي سنة ، عماليك بدأوا حياتهم أرقاء يجرسون جنوداً وضباطاً مجارين . ولقد عاشوا وماتوا أرقاء بالرغم من أنهم خدموا الإسلام والمسلمين خدمة كبرى إذ صدوا عن ديار الإسلام الحملات الصليبية من الغرب وحملات المغول من الشرق ، حيناً لم تقدر حتى الخلافة الإسلامية في بغداد أن تصمد لهذه الحملات . من هؤلاء المماليك الذين حكموا مصر ، كافور الإخشيدي الذي قال فيه المتنبي ما قال مما هو معروف مشهور يردده الخاص والعام دون أن يرعوا حرمة أو يراعوا حصانة .

وفي أواخر العصور الإسلامية قامت في أوروبا دعوة لتحريم الرق ، عارضتها الكنيسة أول الأمر ، ثم كانت الكنيسة أكثر حكمة من العالم الإسلامي فقبلت بالدعوة ، في حين بقي العالم الإسلامي يبيع الرق ويسترق الناس لبييعهم للغربيين الذين أخذوهم لتعمير العالم الجديد .

ولقد لقي المستعمر الغربي في ذلك سبيلاً لغزو إفريقيا واستعمارها بدعوى تخليصها من المسلمين الذين يسترثون أهلها . وعندما نال السودان استقلاله في أواسط هذا القرن كان في الكتب التي يستعملها المبشرون في جنوب السودان كتاب يبدأ بصورة لجنوبي وقد ربطه شمالي مسلم من عرقوه ليستعبده .

والآن وقد غدا الرق أمراً مستكراً ، ألم يحن الوقت لأن نقول إن الإسلام أطلق أول دعوة لمنع الرق ، وأن ملك اليمين (أي الرقيق إنما يعني ما كان قائماً ، وقد زال الآن ، فزال كل ما يتعلق بملك اليمين ؟) .

ألا ترى كيف تتغير القيم والمفاهيم ! ألا تعلم أن نظام السراي هدم البيت الإسلامي السعيد وفرق بين الإخوة والأشقاء وبعثر الدم العربي شرقاً وغرباً وفي جميع الأرجاء !

ثانياً : وضع المرأة

لا جدال في أن الإسلام أطلق دعوة صارخة لتحسين وضع المرأة . صحيح أنه أباح الزواج حتى بأربع عند الضرورة وحسب شروط ، لا سيما وأن المرأة كانت في وضع تحتاج فيه إلى عائل يعولها ويحميها . وإذا ذكرنا أن القانون الفرنسي كان حتى القرن الثامن عشر يقضي بأنه إذا اعتدت امرأة على جاريتها فألحقت بها أذى ، يحاكم ولي أمرها ولا تحاكم هي لأنها قاصرة لا تميز الصالح من الطالح ، شأنها في ذلك شأن الدابة إذا عاثت في أرض فساداً يغرّم صاحبها ولا تغرم الدابة . إذا ذكرنا ذلك أدركنا أن ما عمله الإسلام إنما كان رفعا لشأن المرأة قبل الأوان . لذا ما لبث المسلمون أن حولوا الأمر إلى إذلال للمرأة واستهانة بكرامتها تتمثل اليوم في أمر بيت الطاعة ، وفي منع المرأة من السفر إلا بموافقة الزوج ، حتى وإن كان غائباً أو هجر ، وفي أمر يمين الطلاق ، وأن يطلق رجل زوجة ليتزوج بأخرى ، إذ لا يباح له أكثر من أربع زوجات في وقت واحد ، وأن يطلق رجل زوجة لأمر لا ناقة لها فيه ولا حمل ، ذلك أنه حلف أن يطلقها إن خسر الرهان ، وقد خسر .

إن وضع المرأة المسلمة في العالم الإسلامي مشين ، والمتشددون يتشبثون به ويخلقون له المبررات بحجة أن فتاوي قديمة أباحتها . فإذا قلنا كما قال المسلمون الأولون ألا رأي لمت ، وجب أن نقدم نحن الأحياء رأينا بأن الحياة الزوجية إنما هي اتفاقية شركة بين طرفين لكل منهما حقوق وعليه واجبات فإن أخل أي من الطرفين بواجباته أو تجاوز حقوقه ، لزم تخريبه ، وقد يقتضي الأمر فسخ الشركة وإلغاء الاتفاقية ، حسب شروط يقتضي بها قاضٍ .

يمثل هذا يتحسن وضع المرأة المسلمة ، وقد يقتضي الأمر أن يجعل أمر الزوجية تابعاً للأحوال الشخصية ولا علاقة له بالمحاكم الشرعية .

كلمة أخيرة أنهي بها كلامي بأن أحاطب الأدباء الذين يستنكرون العلم ويكفرون العلماء فأقول إن علم اليوم يقيم على وجود الله أدلة لم تخطر لهم على بال . المسيحية تقول : في البدء كانت الكلمة ، والإسلام يقول : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ . وقبل أن يكون ثمة مكان ولا زمان أراد الله لهذا الكون أن يكون فقال له كن فكان وحدث انفجار عظيم . وعلماء اليوم يسمعون بأجهزتهم الحديثة الحساسة أصواتاً . . . وراء عالم الأجرام السماوية فيفسرونها بأنها ما انطلق من الكون وهريتكون ويقدرّون أن ذلك كان قبل اثني عشر ألف مليون سنة . ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون ﴾ صدق الله العظيم .

السؤال الذي ما تنفك يتواتر على أذهان الناس في العقود الأخيرة من هذا القرن يتعلق بمسؤوليات العلماء والباحثين تجاه المجتمع والحياة بصورة عامة . فهل تترك الحرية التامة للعلماء لإجراء تجاربهم وأبحاثهم دونما قيد أم أن طريق العلم بات يحتاج إلى قواعد تضبط مساره وتحدد وجهته ؟ ثم ما هي مسؤولية العلماء والباحثين تجاه مجتمعاتهم بصورة خاصة وتجاه البشرية ومستقبل الحياة بصورة عامة ؟

لقد تباينت الأجوبة عن هذا السؤال وتعددت حوله على نحو يؤكد خطورة المتعطف الهام الذي أشرفت الإنسانية على اجتيازه بفضل الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية المتطورة . فهناك من يقول إن الحرية عنصر هام من عناصر الابتكار ، وإن العلم لم يبلغ مرحلة متطورة جدا كالتى نعيشها اليوم إلا بفضل الحرية التى اتسم بها البحث العلمي وتطبيقاته . وهناك في جانب آخر من يقول إنه إذا كان من المسلم به ضمان حرية البحث والابتكار للعلماء والباحثين فإن ذلك يجب أن يقترن بمسؤولية أكبر من جانب العلماء والمبتكرين أنفسهم ، إذ شتان بين باحث أو عالم يجرى أبحاثه وتطبيقاته كيفما شاء أو بإيعاز من جهات رسمية لا تضع في اعتبارها مصلحة الإنسان وبين باحث آخر يلتزم أبعدا أخلاقية في إجراء تجاربه وتطبيق نظرياته . والفرق بين عالم لا مسؤول وعالم ملتزم ومسؤول كالفرق بين آلة ميكانيكية تؤدي عملها بلا إحساس أو شعور وإنسان يؤدي واجبه بوحى من الاخلاق الرفيعة والمسؤولية تجاه الآخرين .

العلم والقيم الأخلاقية

عبد الله المر

لنأخذ الانجازات الهندسية والتطبيقات العملية التى يقوم بها المهندسون engineers كمثال من الأمثلة نضربه هنا لعلنا نحيط أكثر وأكثر بجوانب الموضوع الذى نعالجه ، فهناك من العاملين في هذا الميدان من

يرى بأن مهمة الهندسة يجب أن تنحصر في الجوانب التقنية المحضة وفي الغايات التي نضعها ابتداء لأجل التوصل إلى أهداف واضحة ومحددة في ميدان التطبيق ذاته . وفي طرف آخر نرى جماعة أخرى من المهندسين يرون أهمية توسيع ميادين البحث في الهندسة ومجالات تطبيقاتها العملية على نحو تظهر فيه ملامح المسؤولية والالتزام في كافة مراحل البحث والتطبيق ، وإن كان الخلاف ما يزال قائماً حول كيفية تحقيق هذا الاتساع المأمول وأي الأدوات التي يمكن استخدامها في هذا السبيل .

وعلى الرغم من التطورات والنجاحات العظيمة التي حققتها التطبيقات الهندسية في ميادين كثيرة ، وهي التي تم بفضلها إعادة تشكيل العالم المعاصر ، فإن عقول الأفراد ما فتئت تقيم حواجز شكلية أو تتصور وجود اختلافات بين الأهداف التي يسعى إليها العلماء من جهة وبين نظيراتها عند المهندسين التطبيقيين من جهة ثانية . فمهمة العلماء - من الناحية الشكلية المحضة وبحسب التصور التقليدي للفواصل بين النظرية والتطبيق - مهمة نظرية في الأساس في حين أن مهمة المهندسين تطبيقية في الأصل . أو بعبارة أخرى نقول بأن التصور التقليدي للمسألة يرى بأن :

« وظيفة العالم هي البحث في الظواهر الطبيعية والسعي وراء فهمها وجمع معلومات علمية في حد ذاتها ، بينما عمل المهندس هو استخدام تلك المعلومات - بأكثر الطرق فاعلية وتأثيراً - في ابتكار أجهزة وأنظمة لازمة لرفاهية الإنسان . . . وتقدمه »^(١)

بيد أن التطورات التي جددت على علم الهندسة في الآونة الأخيرة وعلى ميادين التطبيق قلبت المفهوم التقليدي للعلم باعتباره نظرياً وللهندسة باعتبارها تطبيقية محضة . فالنمو المطرد الذي طرأ في العقود الأخيرة على ميادين البحوث والصناعة والمؤسسات التعليمية عمل على تقريب مهمة المهندسين من وظائف العلماء ، وأزال كثيراً من الغموض الذي كان عالقاً في الأذهان حول أهدافهم المشتركة في حياتنا الحديثة . فلقد صار المهندس يعتمد على نظريات العلماء المحدثين في تصوره وتنفيذه لآلة بالغة الدقة والتعقيد ، بل صار المهندس نفسه يجري دراسات وأبحاثاً مستفيضة ، يقوم بها مختاراً وإرادة ذاتية خالصة ، وذلك بفضل نظريات بسيطة وتصورات محددة يستمدّها من زملائه العلماء . فليس غريباً - إذن - أن نشهد في الآونة الأخيرة منجزات تكنولوجية عظيمة جاءت نتيجة تعاون مشترك جمع بين المهندسين والعلماء في عمل مشر ومفيد .

ولكن على الرغم من أن الفجوة التقليدية بين العلم والهندسة ضاقت إلى حد كبير فإن هناك فجوة من نوع آخر ظلت قائمة . فليست المشكلة اليوم في ابتعاد كل من العلم والهندسة عن بعضهما ، كلا وليست المشكلة تكمن في انعدام قنوات اتصال تربط بين العلماء والمهندسين من جهة وبقية قطاعات المجتمع من جهة ثانية ، وإنما المشكلة تظهر في انعدام التناسب بين الآمال الإنسانية العظيمة والواقع المرير الذي يعيشه الأفراد بالفعل . إن المشكلة - بمعنى

(١) Eric A. Walker., Engineers and the Nation's Future, in Approaching the Benign Environment Ed. by: Taylor Littleton, Frderick Muller Limited, London, 1973, P. 82.

آخر - تكمن في الضجوة القائمة بين ما يمكن للتطبيقات الهندسية أن توفره للإنسانية من ناحية وبين ما يجنيه أفراد المجتمع من فوائد نتيجة تقدم هذا العلم من جهة ثانية . فلقد استطاع الغرب أن يصنع المعجزات على صعيد العلم والتكنولوجيا ، ولكن هل واكب كل ذلك التطور العلمي تطور مماثل على صعيد الأخلاق وسعي الى توطيد العلاقات بين البشر ؟ وهل كانت كل تلك الإنجازات خلوا من المنغصات ، وهل استطاع العلم نفسه أن يقضي على بعض المشاكل الناجمة عن استغلاله من قبل الإنسان ؟ فما أكثر ما يشعر الانسان بالفخر والثقة العظيمة عندما يكشف جديدا أو حين يبتكر أداة متطورة ولكنه غالبا ما يشيح بوجهه عن بعض المضاعلات الهامة التي تنجم عن كل ذلك . فما إن تلفت انتباهنا بين حين وآخر مشكلة الاختناقات المرورية عبر الطرق السريعة مثلا ، أو استنشاق بعض الأبخرة الضارة أو الهواء الملوث بالغازات السامة حتى يسارع بعض العلماء إلى التقليل من خطر كل ذلك ويحاولون تبرير المخاطر بحجة أنها الضرورية التي يجب أن ندفعها في سبيل التقدم .

ولكن الحقيقة هي أن الكثيرين كانوا عاجزين عن فعل أي شيء من شأنه أن يقضي - أو على الأقل يخفف - من المشاكل الناجمة عن الاستغلال البشع للعلم . فإذا فعل الناس إزاء بعض المشاكل الخطيرة التي تنجم عن الاندفاع السريع نحو التصنيع من غير اعتبار للمخاطر التي قد تنشأ عن ذلك ؟ ثم ماذا فعل الناس إزاء مقولة خاطئة تحثهم على طلب العلم لأجل الشهرة أو المال أو سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان ؟ وهل يمكن أن يكون هناك بالفعل علم مفيد لا يأخذ في اعتباره أبعادا إنسانية وأخلاقية هامة ؟ إذ ما فائدة علم لا يجد طريقه الى التطبيق لأجل سعادة الانسان أو التخفيف من معاناة البشر ؟ وهل كان لكثير من المخاطر والمآسي أن تحدث لولا أن كثيرا من العلماء حصروا أنشطتهم في النتائج العملية للعلم دون اعتبار لأية أبعاد أخلاقية أو إنسانية ؟

انظر الى موقف بعض العلماء الأمريكيين ومدى ابتعادهم عن مجريات الأحداث المصيرية في عالمنا المعاصر . ذلك أنه ما إن جاءت الحرب العالمية الثانية وظن بعض العلماء الأمريكيين أن الحرب يمكن كسبها حتى سرت بينهم فكرة مفادها أن حياة الولايات المتحدة مرهونة بصناعة السلاح وتطويره . فتمت بناء على ذلك - وعلى نحو لم يسبق له مثيل - تعبئة الموارد الطبيعية والمواهب البشرية من أجل هذا الغرض ، وصارت المؤسسات العلمية تتبارى في هذا الميدان وأضحى العلماء يتسابقون في مضمار الأسلحة والدمار . غير أن الاستخدام الواسع للأسلحة المتطورة ، وعلى رأسها القنبلة النووية ، أعطى الناس دروسا هامة لا يمكن تناسيها . فلم يعد إدراكنا واضحا للصلة الوثيقة التي تربط بين النظرية والتطبيق فحسب ، وإنما تعدى الأمر ذلك الى إدراك للتقصير الخطير في ميادين هامة من دراسة وبحث الجوانب الإنسانية في مسيرة العلم والتكنولوجيا . إذ لما كانت الدولة هي الممول الرئيسي لأنشطة البحث العلمي إبان الحرب العالمية الثانية ، ونظرا لما شاع بين الناس من أن بقاء الولايات المتحدة مرتبط بالإبقاء على أنماط الصناعة وأشكال الإنتاج التي كانت سائدة آنذاك ، فإن الدولة نفسها ظلت - بعد الحرب - تقوم بالدور نفسه الذي كانت تقوم به أثناءها . بعبارة أخرى نقول إن المهمة التي كانت تقوم بها حكومة الولايات المتحدة في ميدان البحث والتطوير العلمي في زمن الحرب ظلت هي ذاتها مهمة الدولة في زمن السلم .

ولقد بلغ الاستحسان لهذا التوجه في مسيرة العلم أقصى مداه عندما وجد صدى محبا في نفوس الرأي العام

أيضا . فلقد انساق الناس - ولو لفترة قصيرة نسبيا - وراء وهم يصور لهم ازدهار الصناعة والاقتصاد بمعزل عن الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية . ومن الأمور التي عملت على تعزيز هذا الوهم في نفوس الأمريكيين أن حكومة الولايات المتحدة رصدت في فترة من الفترات ميزانية ضخمة للبحث العلمي تفوق ما رصدته مجتمعات الأرض كلها لهذا الغرض . والتفاته إلى البحوث التي أجريت في ميدان العلم تظهر كيف أن عددها ارتفع بشكل مذهل وكيف أن هناك ارتفاعا في عدد الحاصلين على جوائز نوبل في ميادين البحث العلمي الدقيق . ففي الفترة ما بين ١٩٥١ - ١٩٦٩ نجد أن الأمريكيين الحاصلين على جوائز نوبل في ميادين العلم الدقيق بلغ عددهم أربعين ، وهذا العدد يفوق عدد الحاصلين عليها من أية دولة أخرى . بل إن الولايات المتحدة استأثرت في عام ١٩٦٨ بكافة جوائز نوبل في ميادين الفيزياء والكيمياء والطب والفسولوجيا .

أما النتيجة التي نجمت عن ذلك المسار الذي اختبطته الولايات المتحدة للعلم فهي أنها احتلت - إبان العقود الأخيرة من هذا القرن - مكان الصدارة في ميادين البحث العلمي والتطور التكنولوجي . كذلك سعت بعض المؤسسات الصناعية إلى إنشاء مختبرات ومراكز أبحاث تستهدف تقديم خدمات للحكومة وذلك إلى جانب سعيها إلى إنتاج مصنوعات ترضى المستهلك . بيد أنه إذا كان من المؤكد أن بعض المؤسسات الصناعية قد ربحت كثيرا من وراء التوجه الذي ارتأته الحكومة الأمريكية للعلم فإنه من الأهمية بمكان أيضا التشديد على المخاطر والتحديات التي حتمت على الناس - فيما بعد - أن ينظروا باهتمام بالغ إلى بعض النتائج السلبية للبحث العلمي .

« فكثير من رجال الكونغرس وغيرهم من المسؤولين المدنيين بدأوا يتساءلون ما إذا كانت المبالغ الهائلة من الأموال العامة التي يتم ضخها للأبحاث الأساسية تعطي أكلها بالفعل في ميادين التقدم . . . ففي كثير من المجالات يبدو أن العلم يتراكم بسرعة وإلى حد لا يمكن الاستفادة منه بفعالية من غير جهد حصيف يستهدف توظيفه في صالح الإنسانية »^(١)

من هنا جاء تساؤل البعض عن أهمية كل البحوث والدراسات العلمية التي تملأ المكتبات ما لم ينتفع الناس جميعا بجهود العلماء والباحثين . ويبدو أن جزءا كبيرا من اللوم يقع على عاتق العلماء والمتخصصين الذين انصرفوا عن الحاجات الحقيقية للناس وأغمضوا أعينهم عن المشكلات الخطيرة التي تنجم عن ممارسة العلم دون أي اعتبار آخر على الإطلاق .

وإذا كان من المؤكد أن العلماء حققوا في يومنا هذا نجاحات كبيرة في ميادين العلم الدقيق فإن الإخفاق كان كبيرا أيضا عندما اندفع العلماء في مسيرة العلم التقليدية من غير اعتبار لاختلاف الظروف وتغير الزمان وتباين الحاجات .

ثورة في البيولوجيا :

انظر الى الارتباط القائم بين الأخلاق والتطورات البيولوجية المعاصرة نجد فيه دليلاً على ما قلناه آنفاً . . . فالتقدم الهائل الذي نشهده في أبحاث الجينات « وتصنيع الكائنات » - إن صح هذا التعبير - يجعلنا في حيرة من أمرنا . ففي كل يوم نكتشف جديداً ، بل إن النجاحات العظيمة التي يحققها العلم في هذا الميدان بسرعة عجيبة أسقطت الحد الفاصل بين ما يمكن أن نفعله اليوم ونقدر عليه في لحظتنا الحاضرة وبين ما نأمل أن نفعله في الغد . خذ مسألة الانجاب مثلاً نجد أن القضايا التي كانت تقلق البيولوجيين بالأمس لم تعد تستأثر بانتباههم أو ربما أصبحوا لا يعطونها أولوية في أبحاثهم الحاضرة ، إذ شتان بين وسائل كان يستحدثها العلم لتحديد النسل والحد من الانجاب عند منتصف القرن الحالي - على سبيل المثال - وبين تكنولوجيا متطورة تمكنتنا من التحكم بالخصائص الوراثية للجنين في يومنا هذا .

ثم إن الانجازات العظيمة في ميدان البيولوجيا والهندسة الوراثية لم يعد أثرها مقتصر على « تصنيع الكائنات » أو تشكيل الخصائص الوراثية للبشر وإنما تعدى الأمر ذلك ليشمل أحاسيسنا الذاتية وجوانب فطرتنا التي جبلنا عليها^(٣) . فيما قولك مثلاً في أن قضايا الحمل والانجاب لم تعد مرهونة بعمليات التلقيح التقليدية وذلك لأن التقنيات الحديثة في حفظ البويضة مثلاً أو نقلها وزرعها في أرحام من تشاء من النساء قد يسرت لنا خيارات كثيرة وفتحت لنا الباب على مصراعيه أمام بدائل لم تخطر على بال أحد حتى عهد قريب . قد يتمكن الإنسان في المستقبل القريب من أن يخلق « نسخاً » مماثلة تماماً بفضل تقنية متطورة تتيح له تلقيح بويضة الأنثى بخلية جسدية وليست جنسية . أما التشوهات الفطرية والأمراض والعاهات فإنه بالإمكان القضاء عليها - أو التخفيف من أثرها السيء على الأقل - وذلك عن طريق التحكم بالجينات . إذ لما كانت الأمراض الوراثية أو العاهات تنجم عن خلل يصيب الجينات نفسها فإن إصلاح الخلل في الجينات قبل ولادة الجنين من شأنه القضاء على تلك الأمراض والعاهات^(٤) .

غير أن العلم والتكنولوجيا المتطورين صاروا يطرحان على الساحة في العقود الأخيرة مشكلات أخلاقية تثير الاهتمام وتستحق التمعن . فعلى قدر ما يضيفان إلى حصيلة المعرفة عندنا ويزيدان من قدرتنا على التحكم بالأشياء ويتيحان لنا خيارات جديدة على الدوام نجدهما يثيران أيضاً قضايا جديدة تدور حول ما هو صواب وما هو خطأ ، ما هو خير وما هو شر وهكذا . . . أما المعايير التي تحدد صواب الأمور أو خطأها ، خيرها أم شرها ، فإنها صارت تنبع من حاجات الإنسان الفعلية لا من مصادر تقليدية بالضرورة . ففي عصر العلم المتفجر هذا وفي زمن التكنولوجيا المتطورة والمعقدة صار محك الأخلاق يقترب شيئاً فشيئاً من واقع الحال القائم بالفعل وليس من مثاليات مفارقة ، أو قل إن المحك صار يدور حول ما هو إنساني ومعقول بدلاً مما هو مثالي ومأثور .

(٣) Joseph Fletcher, The Ethics of Genetic Control, Anchor Books, New York, 1974, PP. XIII-XIV.

(٤) من أفضل الكتب التي تتناول الثورة البيولوجية وأبعادها بأسلوب سهل وبسيط كتاب للدكتور عبدالمحسن صالح بعنوان « التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان » ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

والحق أنه ما كان لمفاهيمنا الأخلاقية أن تتغير وتتحوّل لولا أننا نعيش بالفعل عصرا متغيرا يتسم بإيقاع التحول فيه بالسرعة الكبيرة . حقا إن الانسانية عاشت منذ عهد قريب ولا تزال تعيش ثورات في ميادين العلم المختلفة كالثورة التي حققها الانسان في ميادين الذرة والالكترونيات وغزو الفضاء ولكن البيولوجيا هي طابع الثورة العلمية في يومنا هذا . ولا يعني ذلك - بطبيعة الحال - أن إنجازات علمية هامة في ميادين العلم المختلفة قد توقفت أو قلت وإنما الذي نعنيه هو أن ميدان الثورة البيولوجية اليوم أصبح يستقطب اهتمام العلماء والباحثين والمثقفين ورجال الدين أكثر من غيره . فبعد الحرب العالمية الأولى وما صاحبها من ثورات في العشرينات ، كان محور الاهتمام في قضايا الأخلاق يدور في ميدان العلوم الاجتماعية ، ثم حدث بعد ذلك تحول في الاهتمام دار حول العلوم السلوكية وقضايا علم النفس . وما إن جاءت الحرب العالمية الثانية وما تبعها من استخدام للذرة حتى صار هناك تحول جديد في قضايا الأخلاق حتمه العلم الفيزيائي ، وأما اليوم فأننا نواجه تحولا جديدا في الاهتمام بقضايا الأخلاق تفرضه علينا إنجازات الثورة البيولوجية . بل الأكثر من ذلك هو أن كشفنا لأسرار النواة في الذرة - بالرغم من كونه حدثا عظيما بكل المقاييس - لم يطرح أسئلة أخلاقية ملحة ولم يثر معضلات حادة في ميدان القيم كالتي نعيشها اليوم في ضوء اكتشافاتنا العظيمة لأسرار الخلية الحية .

ولكن انظر - بشكل أدق وأكثر تفصيلا - الى رأى ث . دويجانسكي حول الأبعاد الأخلاقية والإنسانية للثورة البيولوجية حين يقول : إن الانجازات العظيمة في مجال العلوم البيولوجية عملت بالفعل على تعميق فهمنا للعوامل التي تتحكم بمسيرة التطور وخاصة تلك العمليات التي لها أثرها الهام في تطور الجنس البشري . فالتناس يعلمون الآن أن بعض أشكال التكنولوجيا المتطورة في مجال الطب والعلوم البيولوجية متوافرة بالفعل ويمكن استغلالها في التحكم بالجينات ، كما أن هناك الكثير من الآلات والتكنولوجيا المعقدة التي سيجلبها لنا المستقبل مما يتيح لنا مجالا أكبر للتحكم بالجينات على نطاق أوسع . ناهيك بعد هذا عن أن الوسائل التي بين أيدينا الآن يمكن تطويرها إلى حد بعيد . فإذا ما كتب للانسان أن يفتح مجالات جديدة أوسع في علم البيولوجيا ويقع على سر التطور فإنه يستطيع بعد ذلك أن يزيد من سرعة العملية التطورية أو أن يعدل فيها كيفما شاء . ومن هنا رأى دويجانسكي أن المسألة لا تقتصر على كونها مسألة بيولوجية بحتة بل هي الى جانب ذلك مسألة اجتماعية وأخلاقية على حد سواء . وليس أدل على أن للقضية جوانب أخرى من أن نستعيد بذاكرتنا ما حدث لعلم تحسين السلالات eugenics من فشل ذريع آبان الربع الأخير من القرن التاسع عشر وطلائع القرن العشرين عندما ركز العلماء على الجانب البيولوجي وأهملوا كل ما عداه من جوانب أخرى لها أهميتها . وهل يخفى على المرء أن العملية كلها كانت تستهدف الارتقاء بشأن الانسان أولا وقبل كل شيء ، ومن هنا تتضح - بكل جلاء - أهمية معرفة العوامل التي تجعل من إنسان المستقبل إنسانا أفضل . فإدامت المسألة تتعلق بتحسين الانسان والارتقاء بشأنه ، فأي غرابة في أن تكون للمسألة جوانب أخلاقية واجتماعية وفلسفية ؟ إن الغرابة - بمعنى آخر - تكمن في حصرنا أنفسنا في نطاق ضيق كما في قولنا مثلا إن المسألة بيولوجية محضة . ومن هنا يرى كثير من المفكرين أن على بعض علماء البيولوجيا مراجعة أنفسهم مرارا وتكرارا وأن لا يُصّبوا أنفسهم حكاما يتحكمون بكل شيء أو يظنون أنهم قد عرفوا كل الجوانب التي تنفع البشر وترفع من شأنهم . ويحق للانسان اليوم أن يعتر بقيام مجموعة من الأفراد والمؤسسات الأهلية والحكومية التي تستهدف بحث أخلاقيات العلم

ومحاولة كشف الجوانب الاجتماعية التي طالما أهملها العلماء عن قصد أو ربما عن جهل بها وبأهميتها في هذا الشأن . ولعله من قبيل الحديث المعاد ان نقول بأن السؤال الهام الذي يطرحه بعض العلماء المهتمين والمؤسسات المسؤولة عن المضامين الاجتماعية والأخلاقية للعلم هو : ماذا ستكون عليه حياة الانسان في ضوء التطور البيولوجي المعاصر ، أو الثورة البيولوجية على وجه أصح ، وهل ستجلب له حياة المستقبل مزيدا من القوة والسعادة أم عكس ذلك ؟ وإن تكن الاهتمامات الاجتماعية والأخلاقية والفلسفية التي نوليها للإنجازات البيولوجية في مجال الوراثة حديثة العهد نسبيا إلا أن التيار ما انفك يزداد شدة حتى بات المرء يرى نفسه إزاء صراعات فكرية ومذاهب مختلفة تتصل بالبحث العلمي ومضامينه . فهناك تيار يدعو أصحابه إلى رفع كل قيد على العلم وأبحاثه ونتائج ، وهناك في الطرف الآخر تيار ثان يدعو إلى فرض قيود على العلم بل وتحريم كل أبحاث تتعلق بتطوير أو تعديل الخصائص الوراثية للبشر ، وهناك إلى جانب هذين التيارين المتطرفين تيارات أخرى تتراوح درجات تأييدها أو معارضتها لهذا الطرف أو ذاك .

وبما أننا لا نهدف من وراء البحث في هذا الميدان إلى تقصي كل صغيرة وكبيرة في التيارات الفكرية المتصارعة حول الثورة البيولوجية وجوانبها الأخلاقية فلا أقل والحالة هذه من ذكر شيء حول هذا الأمر ورسم معالم الطريق الرئيسية على أقل تقدير .

نقول بادئ ذي بدء إن حياة الانسان أمر مقدس لدى الغالبية العظمى من فلاسفة الأخلاق . غير أن وجهات نظرهم تظل متباينة حول أي مرحلة من مراحل التطور في حياة الانسان تنجسد تلك القداسة كاملة . هل تراها تظهر عند ولادة الانسان مثلا ، أم عندما يقوم بحركات حيوية إرادية ، أم أن القداسة لحياته تبدأ بمجرد تلقيح الحيوانات المنوية للبويضة ، أم غير ذلك من مراحل التطور التي تعقب الولادة وهكذا ؟ والحق أنه من الضروري أن نسأل أسئلة كهذه ونحاول تحديد مفاهيمنا للأفكار إذا عرفنا أن كل ذلك يتصل اتصالا مباشرا بمشكلات اجتماعية وأخلاقية كثيرة كمشكلة إجراء التجارب على بويضات المرأة أو على الجنين . فبعض الناس مثلا يرون أن الحياة تبدأ لحظة إخصاب الحيوانات المنوية للبويضة zygote وهذه نظرة يؤيدها علم البيولوجيا بوجه خاص باعتبار أن الخصائص الوراثية للفرد genetic endowment تتحدد منذ تلك اللحظة . ومن هنا ترانا نطرح السؤال التالي مثلا : هل الإجهاض أمر مسوغ أم جريمة ؟ بل ترانا نسأل من جديد إذا ما سرنا على هذا المنوال عما إذا كان التلقيح الخارجي in vitro - أي تلقيح الحيوانات المنوية للبويضة من غير اتصال جنسي بين ذكر وإناث - أمراً مباحاً أم محظوراً ، أو ربما نسأل عما إذا كان ذلك يمكن تبريره أخلاقياً أم أنه فعل محجوج ومكروه . ذلك أنه لما كانت الأجنة الصغيرة التي نجري عليها تجاربنا قد يكون مصيرها مجارى الأوساخ ، شأنها في ذلك شأن القاذورات والنفايات ، فإن الاختلاف في وجهات النظر قد طرأ أو تفاعل لدرجة أن الأمر لم يعد محصوراً في إطار علم البيولوجيا - كما قلنا - بل إن علم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم القانون وربما غيرها من العلوم دخلت حلبة الصراع وصار كل منها يدلي بدلوه في تلك الأمور العسيرة . ولعل هذا هو السبب في أن التقدم العلمي والإنجازات التكنولوجية العظيمة ، سواء تلك التي نعمل على تطويرها أم تلك التي نأمل تحقيقها في المستقبل ، لم تعد منطقة بالعلم وحده بل إن هناك من الضغوط الخارجية والأمور الهامة ما يجب أخذها بعين الاعتبار في هذا الشأن . فهل نعجب بعد هذا أن يشك بفعالية تجارب تصنيع الحياة cloning من خلايا جسدية ، لا لأن العلم أثبت فشلها ، ولا لأن العلم لم يعد يحمل في طياته

جديدا في المستقبل ، وإنما لأنه يستحيل إهمال العوامل والجوانب الأخرى التي لا نشك بأن لها دخلا كبيرا في إباحة تجاربنا أو تحريمها .

فما قولك مثلا إنه متى نجحت تجارب تصنيع الانسان من خلايا جسدية فإن ذلك من شأنه أن يعطينا أفرادا متطابقين كل التطابق في كل شيء ، وهذا بدوره يطرح تساؤلا خطيرا حول هوية الانسان وشخصيته . فكل فرد يتمتع من بين البشر جميعا بهوية خاصة تميزه وحده ، ولكن ماذا يبقى من هويته اذا كان هناك من بين البشر آلاف يماثلونه في كل شيء ؟ غير أن بعض علماء البيولوجيا لا يعتقدون بأهمية هذا الاعتراض الأخير على صنع بشر متطابقين ، فهم يرون أن الطبيعة كثيرا ما فعلت ذلك في حالة التوائم المتأثلة وهم التوائم الذين ينحدرون من بويضة واحدة . بل الأكثر من هذا هو أنهم يرون مثل هذا التطابق بين مجموعة من البشر مبعث فخر واعتزاز لكل من يتم تصنيعه بهذه الوسيلة المتطورة وذلك لأن الخلايا الجسدية التي يتم بها تصنيع الحياة تستخلص من أفراد يتميزون بصفات وراثية مرغوبة . ولما كان الأمر كذلك ، فإنه من الأولى بالناس الذين ينشأون عن هذا الطريق أن يكونوا فحين نظرا لأنهم بالفعل من أصحاب الحظ السعيد بفضل الخصائص الوراثية التي يملكونها . بل لقد رأى بعض العلماء المؤيدين لتجارب تصنيع البشر بأن هوية الأفراد لا تحددها عوامل بيولوجية محضة . نعم ان الوراثة تلعب دورا هاما - في نظرهم - ولكن أثر البيئة ، أيا كانت ، لا يقل عن أثر العوامل البيولوجية أبدا ، فلا سبيل الى قيام تطابق تام بين أفراد أو عائلة البشر المصنوعين clone الآ في أضيق الحدود - كما يرون - وذلك لأن كلاً منهم سيخبر في حياته مواقف محددة خاصة به وستحيط به ظروف تختلف إلى حد بعيد عن ظروف أي فرد آخر من أفراد عائلته ، وعلى ذلك فإن هويته ستكون على أرجح احتمال هوية فريدة خاصة به وحده .

أما عن المشكلة التي تدور حول قيام هوية خاصة بالإنسان ومتى تظهر تلك الهوية فإن اختيار مرحلة محددة يعتمد عليها الناس على أنها هي المرحلة الحاسمة في هذا الموضوع يرجع في الأساس الى الناس أنفسهم والمشرعين . ومن هنا كان اختلاف الرأي بين المجتمعات حول هذا الرأي ، وما يتعلق بقضية الإجهاض ومشروعيتها مثلا . ففي استطاعة العلماء تقسيم مسيرة الحمل والولادة وما بعدها الى مراحل مختلفة ، فنقول مثلا بأن هناك مرحلة للانقسامات الميوتيكية meiotic divisions ومرحلة للاخصاب fertilization ومرحلة الزرع أو البذر implantation ومرحلة الإنعاش أو الإحياء animation ومرحلة الولادة ثم مرحلة نطق الكلام الى آخره ولكن من الصعب أن نقول في أي المراحل تلك تقوم هوية الانسان على وجه التحديد . . وعلى ذلك فإنه من المتعذر - إن لم يكن من المستحيل - القول بأن للمرأة في مراحل تطوره الجنيني المبكر حقوقا معينة أو أن هناك تشريعات - أيا كانت طبيعتها - تختص به آنذاك . ولعل رغبة بعض الناس في تحديد مرحلة مبكرة من تطور الجنين يكسبونه فيها شرعية محددة وحقوقا خاصة ترجع الى إيمانهم - بحكم عقيدتهم الدينية - بأن الروح تنزل في الجسد ، فإذا الذي لم يكن من قبل حياة قد أضحي بالروح حياة بالفعل ، أو قل بأن الذي لم يكن قبل هبوط الروح إنسانا قد أسس بعد هبوطها إنسانا يجب على القانون أن يحميه ويحفظه . ومهما يكن الأمر فإن هذه معتقدات لادخل للعلم فيها ، بل كل ما يمكن أن يطرح في العلم هو أن تطور الجنين لا يحدث فجأة وإنما يتم على مراحل . فالبويضة - ملقحة كانت أو غير ملقحة - تنطوي على امكانية أو

قدرة على اظهار انسان لنا في آخر الأمر متى توافرت ظروف محددة . بعبارة فلسفية أخرى نقول بأن ماكان انسانا بالقوة يصبح على مر الزمن ويتوالى المراحل انسانا بالفعل ، وتطور المراحل على هذا النحو أشبه مايكون بسيرة تاريخية أو بقطعة موسيقية . فكيف أننا لا نقدر أن نقول بأن مقطعا منها هو القطعة الموسيقية بعينها ، كذلك لانقدر ان نقول بأن هوية الانسان أصبحت قائمة في هذه اللحظة أو تلك . ويجب أن لايسرح بنا الخيال فنظن انه طالما كان للقطعة الموسيقية بداية فان هوية الانسان تكون مع بداية تكونه مثلا إذ أننا بذلك نعود من جديد الى السؤال الذي انطلقنا منه أصلا وهو : لماذا نصرّ مثلا أن تكون هوية الانسان قائمة في هذه المرحلة دون تلك ؟ وما ان نرجع من جديد الى موضوع حديثنا عن الإجهاض حتى نرى بأن المشكلة لم تزل معقدة الى حد بعيد . فتقسيمنا لعملية الحمل الى مراحل وإباحتنا لعمليات الاجهاض في المرحلة الاولى منها ، مثلا ، لايعنى بالضرورة اننا قد نخطئنا كل مايعترض سبيلنا من عقبات كبار . اذ قد يعترض معترض هنا بأنه مادامت المرحلة الاولى من الحمل مرحلة نعتز بها ونقر بقيامها ، كاعترافنا بالمرحلة الثانية والثالثة وإقرارنا بهما ، فما الذي يسوغ إجراء الاجهاض في المرحلة الاولى وتحرجه في المرحلة الثانية أو الثالثة مثلا ؟ بل على افتراض اننا أبهنا عمليات الاجهاض في المرحلة الاولى مثلا فما الذي يمنع تحت ظروف معينة من إجراء الاجهاض في المرحلة الثالثة ، وهل يعتبر امر كهذا سلوكا يعاقب عليه القانون ؟

الاعتدال المطلوب والحكمة واجبة

الواضح اذن هو أن من أبرز الصفات التي اتصفت بها المعرفة عموما أنها تحرر الانسان وتجعله مسؤولا على حد سواء . والواضح ايضا إنه في الوقت الذي يشعر الانسان فيه بغبطة عظيمة كلما تقدمت وسائل المعرفة والبحث العلمي نراه في الآن نفسه في حيرة وقلق متزايدين . وما اكتشاف نظرية التطور الا شاهد واحد على ما نقول . إذ أن مرد الحيرة هنا هو السؤال التالي : هل يساير الناس مسيرة التطور كيفما شاء لها أن تشكلنا أم أن الانسان ملزم بتحديد مسار التطور وتشكيل المسيرة نفسها كيفما شاء هو ؟

نعم لربما أقام الانسان بنوكا للحيوانات المنوية لأجل أن يستغلها متى أراد وعلى النحو الذي يبغي ، بل ربما يستطيع الانسان أن يخطو بعد ذلك خطوة أبعد حين يعمل على تطبيق برنامج الحياة المصنعة cloning والهندسة البشرية بالفعل . نقول إنه ربما استطاع العلماء تحقيق كل ذلك ظنا منهم أنهم يعرفون مايتفع البشر على وجه التحديد ويتصورون أن النتائج لن تكون خطرة أو غريبة للآمال . ولكن يجب أن نعلم بأن العلماء طرف واحد فقط في حلبة الصراع الكبير ، وإن هناك في طرف آخر من يرفض إخضاع البشر «وتصنيعهم» كما لو كانوا مادة جامدة . فهناك طائفة من الناس وجماعة من العلماء وكذلك بعض المؤسسات العلمية ترى أن صنع إنسان في المعمل والعبث بخصائصه الوراثية إنما هي أعمال أقل مايقال فيها إنها لا أخلاقية . ومهما يكن الأمر حول معضلات كهذه واختلاف الرأي حولها فان الأمر الهام الذي يجب استبعاده هنا هو أن نظن بأن احكامنا كلية ومطلقة أو أن آراءنا غير قابلة للنقاش أو التعديل^(١) .

Theodosius Dobzhansky., Living With the Biological Evolution, in Man and the Biological Revolution Ed. by: (١) Robert H. Haynes, Canada, 1976, PP. 39-44

هل هناك حياد مطلق في العلم ؟

هناك ، الى جانب ما عرضنا له آنفا ، جانب آخر لمشكلة ارتباط العلم بالأخلاق يتعلق بحياد العلم . ولقد بدأ التعديل يطرأ على هذا التصور للعلم بمحاولات من جانب الاتحاد السوفيتي لتوجيهه وجهة خاصة به . فبعد الثورة الروسية بعشر سنوات جرت محاولات لاكتساب العلم طابع الايديولوجيا السائدة والحاكمة هناك وذلك على نحو تكون لنا فيه «فيزياء اشتراكية» و«بيولوجيا اشتراكية» وما الى ذلك . فلم يكن مهما عند رواد هذا التوجه الجديد للعلم في الاتحاد السوفيتي ما ينطوي عليه العلم نفسه من منطق داخلي خاص به بقدر ما كان يهمهم أن يصبح العلم اشتراكيا ويختلفا عن العلم الذي يشيع في الدول الرأسمالية . ويبدو أن الاختلاف في وجهات النظر حول حياد العلم إبان الثلاثينات والاربعينات لهذا القرن قد انتهى بالفعل بمجيء ت . د . ليسنكو الى مركز المسؤولية في الاتحاد السوفيتي ومحاولاته توجيه الأبحاث العلمية في طريق يخدم الايديولوجية السياسية ويخضع لها . فمن الجدير بالذكر أن العلم في الاتحاد السوفيتي اصيب بنكسة عظيمة بسبب التحكم والتوجيه اللذين مارسهما الحزب الشيوعي في ميادين العلم والأبحاث وخاصة في حقل البيولوجيا^(١) .

ونخطيء اذ نظن أن الحياد في العلم كان هدفا للنقد العنيف من جانب تيار الفكر السياسي اليساري فقط وانما كان للتيار اليميني ايضا نصيبه في النقد والهجوم على ذاك الحياد . فلقد بدأ الحديث يتردد ، منذ النشأة الاولى للايديولوجية النازية في المانيا ، عن «علم آري» رفيع وآخر لا آري وضع . ولقد كان من نتيجة هذا التوجه اليميني المتطرف في السياسة أن أصبحت نظرية النسبية محل هجوم لمجرد أن صاحبها «اليهودي» لا ينتمي بالطبع الى «الجنس الآري» الرفيع . وهناك ايضا نظريات علمية أخرى كانت هدفا للنقد والتسفيه والتشكيك من جانب اليمين واليسار معا نظرا لعدم مساهمتها للمفهوم الآري عند النازيين أو للتوجه الايديولوجي عند الاشتراكيين .

على أن حدة النقد أو الهجوم على النظريات العلمية من جانب كل من النازيين والاشتراكيين كانت مختلفة في النتائج على الأقل . ففي الوقت الذي اتخذت فيه معارضة النازيين للعلم منحى عنيفا تمثل في طرد جماعة من العلماء اليهود من الجامعات أو اضطهادهم في مراكز البحث العلمي أو في قتل السجناء في معسكرات الاعتقال نجد أن المعارضة في الاتحاد السوفيتي كانت اقل حدة بعض الشيء . ذلك أن الاثر السيء لتوجيه العلم من جانب الماركسيين المتشددين قد اقتصر - في الغالب - على تخلف عام وخطير أصاب علم الجينات بصورة خاصة .

أما في بريطانيا ، فقد ظهرت في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية أصوات تطالب بتسخير العلم لصالح الانسان وذلك بفضل تعاطف بعض العلماء والمفكرين هناك مع التوجهات الاشتراكية . ولعله من المفيد هنا أن نذكر

(١) Steven Rose and Hilary Rose, The Myth of the Neutrality of Science, in *The Biological Revolution* Ed. by: Watson Fuller, Anchor Books, U.S.A., 1971, PP. 283-287.

حول المحاولات التي قام بها الاتحاد السوفيتي من أجل توجيه العلم والبحث العلمي وجهة خاصة تتناسب مع الايديولوجية الاشتراكية راجع كتاب : Science At the Cross Roads, Frank Cass and Co. Ltd., Second edition, London, 1971.

بأن أفكار المصلحين والعلماء الماركسيين كانت تحمل في ثناياها تفاؤلا وبشريات توحى بإمكانية استغلال العلم لخدمة الإنسان وتحرير البشر من كثير من المنغصات اذا ما أمكن التخطيط للعلم تخطيطا عقلانيا . ولكن كانت هناك أيضا جماعة أخرى من العلماء البريطانيين تنادى بالحرية المطلقة للعلم وتطالب بالإبقاء على المنطق الداخلي له .

على انه ما ان اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية وتم تجنيد العلماء وتسخيرهم في ميادين البحث التي تخدم ظروف الحرب ومتطلباتها حتى أصبح الحوار حول وجهة العلم عقيا . فحتى أكثر العلماء الألمان انسانية وتعقلا وحكمة في توجيهه وجد نفسه فجأة ينساق وراء تيار الحرب أو يستسلم لظرف فرض عليه فرضا . ولقد حدث مثل ذلك في بريطانيا أيضا حيث تم تجنيد العلماء والباحثين لخدمة الحرب ومن أجل البحث في الاغراض العسكرية . أما في الولايات المتحدة فإن اضخم تسخير للطاقات البشرية والمادية في الميدان العسكري تمثل فيما يعرف بـ «مشروع مانهاتن» ، وهو المشروع الذي أسفر في النهاية عن صنع القنابل النووية .

صحيح أن العاملين في ذلك المشروع ، ومن بينهم اينشتين نفسه وروبرت أبنهايم ، كانوا يتمتعون بأخلاق رفيعة ويتطلعات انسانية ، ولكن الذي يهنا هنا هو أن الرئيس الأميركي روزفلت هو الذي وافق على المشروع الخطير وأن العمل في المشروع قد تم بتمويل من الحكومة الأميركية ، وهذا ما يطرح أساسا بفكرة الحياد في العلم . اما النتيجة فإنها واضحة تماما في المأساة التي لحقت باليابان حين ضربت هيروشيما ونجازاكي بقنبلتين ذريتين .

اما لماذا سعى علماء كبار الى العمل في ذلك المشروع فان السبب يرجع الى اعتقادهم بأن هتلر كان ماضيا في طريقه لانتاج قنبلة نووية ، ولما كان هناك تخوف - عند اينشتين وغيره من الفيزيائيين - من امتلاك طاغية كهتلر لقنبلة ذرية سارع أولئك العلماء الى الطلب من الولايات المتحدة بالسلاح لهم بإجراء التجارب لأجل التوصل الى صنع قنبلة نووية قبل أن يتوصل اليها هتلر . ولما اتضح فيما بعد أن هتلر لم يكن في طريقه للحصول على القنبلة ، وكذلك لما ظهر ان القنبلتين اللتين ألقيتا على هيروشيما ونجازاكي كانتا من صنع اميركي شعر الفيزيائيون العاملون في «مشروع مانهاتن» بتأنيب الضمير وأدركوا الأبعاد الخطيرة للأبحاث والتجارب التي قاموا بها في ذلك المشروع الرهيب .

أما وقد حدثت المأساة اليابانية فان العلماء سعوا الى تبني فكرة من شأنها ضمان حرية البحث وتقديم العلم في الفيزياء من جهة وتخليص ضمائرهم من الذنب الذي شعروا به نتيجة المأساة من جهة أخرى . فلما كان منهم الا أن راحوا يفرقون بين الفيزياء ونتائجها ، أي بين العلم الفيزيائي من حيث هو علم محايد ، كما تصوروا آنذاك ، وبين النتائج أو حصيلة التطبيقات الخاصة بذلك العلم . ولقد ازداد التمسك بهذه التفرقة في ضوء المسار الذي فرض على العلم في كثير من الاحيان . ذلك انه كلما جد جديد على مسرح العلم وثبت أنه لا يخدم الانسان ازداد العلماء تمسكا بالتفريق الذي أقاموه بين العلم ونتائجه .

وماذا عسى أن يفعل العلماء غير اصطناع مثل ذلك التفريق ومحاولة التخلص من المأزق الذي وجدوا أنفسهم

فيه ؟ لقد دأبوا على التأكيد بأن تقدم البشرية مرهون بتقدم العلم بإطلاق يد البحث فيه ولكنهم سرعان مالاذوا بالقرار الى مختبراتهم وابتدعوا لنا تفرقة مصطنعة بين العلم ونتائجه وذلك بعدما ظهر للعيان خطر المسار الذى فرض على العلم ومساوئ التطبيقات التى نجمت عنه .

أما أكبر دليل على ضعف سمة الحياد في العلم المعاصر فانه يتمثل في الضغوط التى تحيط به في يومنا هذا . فالمسار الذى يتخذه العلم يعنى - في الاصل - أن الخيار كان متاحا للسير به في هذا الطريق دون ذاك ، ولكن جعل العلم يتخذ طريقا محددًا يعنى أن هناك جهة ماأرادت للعلم أن يسير في وجهة دون أخرى . فالمسألة اذن ليست في أن مسار العلم حتمي أو انه يستحيل وضع حد له وذلك لان هذا أمر ممكن تماما من خلال رصد ميزانية للبحث العلمي أو حجبتها عنه ، ولكن المسألة هنا هي أن من يسخر ميزانية مالية لاجل العلم لايمكن أن يكون خاليا من الاعتبارات الايديولوجية مثلا أو القيم الخاصة أو التفضيلات الذاتية التى يريد للعلم أن يحققها مقابل المال الذى ينفق . ومن الواضح ايضا أن اختيار شيء دون آخر يعنى تفضيلنا للشيء الذى نمختاره على كل ماسواه . وعلى ذلك فان العلم الذى يسعى ايضا الى تحقيق مآلناحاز اليه يعتبر منحازا بدوره .

فاذا سأل سائل هنا عن السر وراء قبول المختبرات العلمية ومراكز الابحاث تمويلات من الخارج فان الجواب هو أن الابحاث العلمية باهظة التكاليف وأن استمرارية العمل العلمي لا يكتب لها النجاح مالم يتوفر المال اللازم لها أصلا .

وايا ماكان الامر فان عامل التمويل والانفاق على البحث العلمي هو جانب واحد فقط من الموضوع - أى من موضوع الحياد في العلم - وهو عامل خارجي يتمثل في الضغوط التى تفرض على وجهة العلم وطبيعته من الخارج . ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر داخل يتمثل في مسؤولية العلماء والباحثين إزاء التطورات المستقبلية في ميادين العلم وأثرها على تقدم الإنسان أو تأخره .

يتناول الدكتور فؤاد زكريا هذا الجانب بالبحث في كتاب له بعنوان «التفكير العلمي» فيرى اولا أن أهمية العلم منذ مطلع القرن العشرين فاقت أهمية جوانب كثيرة في حياتنا منذ القديم وحتى يومنا هذا . ولا تقتصر أهمية العلم - في نظره - على تجاوزه روعة المنجزات الانسانية في الفنون والآداب وذلك الى الحد الذى أصبح فيه محور الحياة في هذا العصر وفي كل عصر ، بل إن أهميته تكمن ايضا في كونه مصيريا ويعتمد عليه بقاء البشرية وازدهارها أو تردى الانسان وفناؤه .

ولما كانت الامال المعقودة على العلم كبيرة في القضاء على بعض المشكلات الهامة التى تواجه الإنسان في حياتنا المعاصرة مثل نقص الغذاء وتزايد عدد السكان ، وتلوث البيئة ، ونقص الموارد الطبيعية ، وخطر التحكم بخصائص الانسان الوراثية فيما يضر الإنسان نفسه ، ومشكلة التسلح ، فان العلماء يتحملون جانبًا من المسؤولية في تسخير العلم لخدمة البشر . وتتمثل مسؤولية العالم في جملة من العناصر الأخلاقية التى تعكسها شخصيته مثل الموضوعية

وماتنضمه من روح نقدية ونزاهة وحياد . ولكن يجب أن ننتبه الى أن حياد العالم في تقييمه للأمور يجب ألا يعنى ابتعادا من جانبه عن مشكلات الحياة ، وذلك لان عدم اتخاذ موقف من الاحداث تترتب عليه مساوئ كثيرة وخطيرة .

«ذلك لأن صفة الحياد هذه يمكن ، من زاوية معينة ، أن تكون موضوعا للاتهام والإدانة ، ولا تكون على الدوام صفة مرغوبة في العلم . ويحدث ذلك حين يعنى الحياد عدم الاكتراث أو تباعد الفكر والمشاعر ، بحيث يستمر العالم في عمله بغض النظر عما يمكن أن يترتب عليه من خير أو شر . وفي هذه الحالة يكون كل ما يهدف اليه العالم هو مواصلة البحث العلمي ، والتغلب على التحدي الذى تواجهه به صعوبة ما ، والسعي الى بلوغ أقصى النتائج الممكنة للعمل الذى بدأ يشغل به ، أى أن المضي في البحث العلمي يصبح غاية في ذاتها ، بغض النظر عن أية غاية أخلاقية أو لاهلاقية يمكن أن يخدمها هذا البحث . مثل هذا الموقف يعد بدوره «حيادا» ، ولكنه حياد يتضمن في داخله نتائج خطيرة من الوجهة الاخلاقية .»^(٧)

ليس بالعلم وحده يحيا الإنسان :

الخلاصة - إذن - هي أن أكبر دليل على أهمية العلم في حياتنا المعاصرة وعلى ضرورة اكتسابه أبعاداً أخلاقية وإنسانية هو هذا الاهتمام المتزايد - على المستوى الرسمي والشعبي ، وكذلك عند المتخصصين والمثقفين - بالعلم ونتائجه . فهناك اهتمام من جانب الناس العاديين بقضايا العلم ومشكلاته وهم الذين لم يكن يهمهم شيء من هذا في الماضي ، وهناك ايضا اهتمام من بعض العلماء بقضايا الإنسان والأبعاد الاخلاقية للعلم الذى يمارسونه وهم الذين لم يكن لهم ايضا اهتمام بكل هذا منذ مدة طويلة .

فمشكلات الإنسان وقضايا العلم في عالمنا المعاصر لا يمكن أن تترك دونما بحث دقيق أو حلول أكيدة نظرا لأن حياة البشر أنفسهم صارت اليوم في كفة الميزان . نعم ، لعل هناك من يقول بأن العلم كقيل يحل مشاكله الخاصة به والناجمة عنه وذلك من خلال دعم أكبر له وإنفاق أكثر عليه ، لكن هؤلاء ينسون أن المشكلات المترتبة على الممارسة اللامسؤولة للبحث العلمي أمر قائم بالفعل وهي بمثابة كابوس مرعب ينكد على الإنسان حياته ويعكر عليه صفو تفكيره . أما الآمال التى يعلقها الباحثون - الذين يطالبون بالمزيد من الحرية والدعم للبحث العلمي - على العلم فانها مازالت مجرد أحلام ووعود لا يمكن الجزم بحتمية تحقيقها في المستقبل القريب أو البعيد .

هذا من ناحية ، وأما من ناحية ثانية فإن المبدأ الذى يجب أن يقوم عليه العلم والبحث العلمي هو إمكانية استفادة البشر كلهم دونما استثناء من هذا الجهد الانساني ومن غير ما أعراض جانبية أو نتائج عكسية تستدعي جهودا

(٧) د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص. ٢٩٨ - ٢٩٩.

علمية أكبر من أجل حلها . فمن غير المعقول أن نترك مسيرة البحث العلمي تمضي في سبيلها دونما حكمة أو روية أو تخطيط ودراسة لكافة الاحتمالات السلبية ثم نجد أنفسنا بعد حين متورطين في مشكلات لم نحسب لها حسابا . وهل حقا هناك ما يبرر إتلاف مساحات شاسعة من النباتات الخضراء والغابات التي تعمل على امتصاص ثاني اوكسيد الكربون من الجو وتزويدنا بالاكسجين في المقابل ، أقول هل هناك ما يبرر كل ذلك من أجل إقامة مشاريع اقتصادية تستهدف الريح التجاري بالدرجة الاولى ؟ وهل يغيب عن بالنا أن إتلاف النباتات والغابات الخضراء من شأنه زيادة نسبة ثاني اوكسيد الكربون في الجو ومن ثم ارتفاع درجة حرارة الارض نظرا لان هذا الغاز يحول دون ارتداد الحرارة الأرضية الى طبقات الجو العليا ، الامر الذي يتسبب في إحداث ظاهرة «البيت الزجاجي» لبيئة الارض . ومن المعروف أن خطر ظاهرة «البيت الزجاجي» هذه لا يقتصر على تهديده حياة الانسان نتيجة الحرارة المرتفعة التي لن يتحملها الجسم بمرور الزمن ، ولا في تغيير نمط البيئة الايكولوجية أو دورات المناخ الاعتيادية وانما يمتد الاثر السيء لهذه الظاهرة الى إذابة جبال هائلة من الجليد في القطب الشمالي مثلا مما يؤدي الى ارتفاع منسوب البحار والمحيطات والانهار ومن ثم غرق مدن بكاملها واختفائها من على وجه الارض .

وماذا عسى أن نقول غير ذلك في خطر ظاهرة أخرى نجمت عن استخداماتنا اللامسؤولة للمواد الفلوروكاربونية التي تلتهم طبقة الاوزون في الجو - وهي غلاف فضائي - يحمي الحياة على الارض من الإشعاعات الكونية الضارة للبيئة والإنسان ومن أهمها الاشعة فوق البنفسجية قصيرة المدى ومتوسطة المدى المسببة للعديد من أشكال سرطان الجلد^(٨) .

ونحن لا نريد هنا أيضا أن نأخذ بما يدعو اليه المتشائمون الذين يحثون على استبعاد العلم من حياتنا أو الذين يقللون من أهميته ويشككون في قدرته على إسعاد البشر ، وانما يجب أن نصر على استمرارية العلم ، والبحث العلمي بشرط أن يقرن كل ذلك بأبعاد أخلاقية وإنسانية في المقام الأول والأخير .



(٨) تحت رعاية الأمم المتحدة ، تم في السادس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٧ التوقيع ، في مونتريال بكندا ، على أول معاهدة دولية تستهدف التخفيف من نسبة التلوث . وقد حدث هام في حد ذاته رجب به الباحثون المهتمون بشؤون البيئة وهائل له المطالبون بالمحافظة عليها . فلأول مرة يشهد عالمنا المعاصر اهتماما كبيرا من جانب السياسيين بقضايا البيئة ومشكلات التلوث التي تهدد الحياة على وجه الأرض .

أما المشكلة المحورية التي أثارت انتباه العلماء والسياسيين والمثقفين وغيرهم الى الحد الذي دفع بالمسؤولين الى الاجتهاد في مونتريال والتوقيع على تلك المعاهدة التاريخية فإنها لم تكن مشكلة خاصة بالأمطار الحمضية التي تدمر الغابات مثلا ولا مشكلة تتعلق باستشاق الانسان للهواء المشبع بالرماس من عوادم السيارات أو غير ذلك من مشكلات حطرت على بيئة الانسان وحياته ، أقول إن المشكلة المحورية في ذلك الاجتهاد لم تكن تدور حول مثل هذه المشكلات وانما كانت تدور حول المحافظة على طبقة الاوزون في الجو .

حول هذه المشكلة المركبة ذات الخطورة البالغة ، راجع كتاب :

John Gribbin The Hole in the Sky, Corgi Books, Great Britain, 1988.

كذلك راجع الكتاب الذي أعدته اللجنة العالمية للبيئة والتنمية وهو بعنوان :

مستقبلنا المشترك : ترجمة . محمد كامل عارف ، مراجعة د . علي حسين حجاج ، سلسلة عالم المعرفة (١٤٢) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٩ .

مقدمة :

يرى بعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية أو فلسفتها أن على هذه العلوم أن تنسج على منوال العلوم الطبيعية ، أو ما يسمى بالعلوم المنضبطة . وهم يربطون هذا بقضية استخدام الرياضيات كأداة ، كما يربطونه بقضية اليقين .

ولما كان من المتعارف عليه أن الرياضيات هي قلعة اليقين ، فقد يكون من المفيد أن يتعرف المشتغلون بالعلوم الإنسانية على ما آلت إليه قضية اليقين في الرياضيات ، حتى يقرروا لأنفسهم ما إذا كان من المجدي أن يجعلوا (أو يستمروا في جعل) بلوغ اليقين أحد أهدافهم .

وهذا المقال يركز على عرض وشرح النتائج التي نشرها كورت جودل Kurt Godel عام ١٩٣١ والتي تبين - فيما تبين - أنه لا يمكن (ولن يمكن) الاطمئنان إلى خلو كثير من النظريات الأساسية في الرياضيات من التناقضات المنطقية . ويربط المقال بين هذه النتائج وقضايا ميكنة الحقائق ، ثم يقدم ويناقش بعض الأفكار الفلسفية المتعلقة بهذه الأمور .

نظرة تاريخية :

مرت الرياضيات في تاريخها بأزمات استوجبت إعادة النظر في الأسس التي تقوم عليها ، ولعل أولى هذه الأزمات تلك التي شهدتها الهندسة في عصر الفيثاغوريين منذ حوالي أربعة وعشرين قرناً .

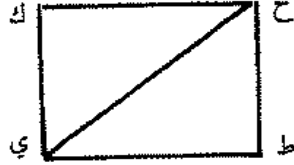
كان الفيثاغوريون يأخذون بـ « المسلمة » التالية ، ويقيمون براهين هندستهم عليها . لكل قطعتين مستقيمتين $\overline{AB}$ ، $\overline{CD}$ توجد قطعة مستقيمة $\overline{HO}$

انتهاء اليقين *
هل يمكن ميكنة الحقائق؟

محمد عامر

(*) هذا المقال مهيء إلى السيد الأستاذ الدكتور/ مصطفى سريغ تحية لجهوده في فسط العلوم الإنسانية ، وبمناسبة تجاور سيادته من الستين .

بحيث تكون كل من $\overline{AB}$ ، $\overline{CD}$ من مضاعفات $\overline{DE}$. أي أننا إذا أخذنا $\overline{DE}$ كوحدة لقياس الطول، كان كل من طول $\overline{AB}$ وطول $\overline{CD}$ عدداً صحيحاً. وكانت هذه «المسلمة» متفقة مع عقيدة الفيثاغوريين الكونية التي تجعل الأعداد الصحيحة أساس كل شيء. لكنهم - لبالغ أسفهم - اكتشفوا أن هذه «المسلمة» غير صحيحة. فقد استطاعوا إثبات أنه إذا كان $\angle C$ π مربعاً وكانت القطعة $\overline{AB}$ هي الضلع $\overline{CH}$ ، والقطعة $\overline{CD}$ هي القطر $\overline{CI}$ ، لما وجدت قطعة $\overline{DE}$ تحقق الشروط المطلوبة. فزرع هذا عقيدتهم كلها وليس هندستهم فقط.



وقد ظلت الهندسة في أزمة إلى أن وضع يودوكس (٤٠٨ - ٣٥٥ ق.م) تعريفه للتناسب. فدخلت بذلك الهندسة عصرًا جديداً، هو العصر الذي تسمى هندسته بالهندسة الأقليدية، إذ أنها قد انتقلت إلينا من خلال كتاب أقليدس الشهير «المبادئ».

لتفتر الآن ٢٣٠٠ سنة من الزمان لنصل إلى الأزمة التي شهدتها الرياضيات مع دورة القرن التاسع عشر، والتي كانت نتائج جودل من تداعياتها. ولنوفر على القارئ مؤونة الدخول في تفاصيل فنية قد لا يستسيغها، نكتفي بالقول بأن هذه الأزمة بلغت من العنف حداً استوجب إعادة النظر ليس في الرياضيات ذاتها فقط، بل أيضاً في المنطق الذي تقوم عليه الرياضيات، وفي اللغة التي تصاغ من خلالها الرياضيات.

وكمهيد لعرض نتائج جودل سنناقش فيما يلي بعض المشكلات المنطقية، ومن خلالها ستعرض لبعض القضايا اللغوية. وسنحاول تجنب أو تبسيط الأمور الفنية قدر الإمكان. وعلى كل فنحن ندعو القارئ إلى عدم التهيّب من هذه الأمور الفنية، كما ندعوه إلى عدم التهيّب من التعامل مع الرموز القليلة التي سنضطر إلى استخدامها.

الصدق :

الصدق عكس الكذب، وكل منها صفة من صفات الجُمْل، أو بالأحرى بعض الجمل، فالجمل الإنشائية لا توصف بالصدق ولا بالكذب. لكننا نود أن يكون بالامكان وصف كل جملة خبرية (ذات معنى) بالصدق أو بالكذب، وليس بالاثنين معاً. هنا تقابلنا عقبة كاداء، يمكن تجسيدها في الجملة التالية :

هذه الجملة كاذبة

فيذا ما افترضنا أن الجملة المكتوبة على السطر السابق صادقة خلصنا إلى أنها كاذبة، والعكس بالعكس.

لأسباب كهذه اصطنع المناطق لغات رمزية تبلغ من الضعف حداً لا يسمح بأن نصوغ فيها جملة تكذب نفسها. وفي نفس الوقت تكون على قدر من القوة يكفي لأن نصوغ فيها نظريات رياضية (أو علمية، بصفة عامة) هامة.

كيف نتعامل مع اللغات الرمزية من حيث الصدق والكذب ؟ لننظر في المثال التالي ، الذي سنصوغه صياغة نصف رمزية تخفيفاً على القارىء .

لكل س ، توجد ص ، بحيث (س = ص + ص)

هل الجملة السابقة صادقة ؟ الجواب يتوقف على الإطار الذي نفسرها فيه . فإذا كان الإطار هو الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، ٣ ، . . . معروفاً عليها الجمع ، كان الجواب بالنفي لأننا لو أخذنا ٣ كقيمة س ، لما وجدنا عدداً طبيعياً ص بحيث (٣ = ص + ص) . أما إذا كان الإطار هو الأعداد الكسرية معروفاً عليها الجمع ، فإن الجواب يكون بالإيجاب . لأنه إذا كانت س عدداً كسرياً ، فإن $\frac{س}{٢}$ عدد كسري أيضاً . ولذا فما علينا إلا أن نأخذ $\frac{س}{٢}$ كقيمة ص لنجد (س = $\frac{س}{٢}$ + $\frac{س}{٢}$ = ص + ص) .

وعلى هذا فصدق الجملة أو كذبها لا يتوقف عليها وحدها ، وإنما يتوقف - بصفة عامة - على إطار التفسير أيضاً . والجملة الصادقة في جميع الأطر تسمى جملاً صادقة منطقياً ، وتلك الكاذبة في جميع الأطر تسمى جملاً كاذبة منطقياً .

البرهان :

فكرة إقامة البراهين على مسلمات فكرة قديمة ، ترجع إلى عصر إقليدس ، على الأقل . أما الجديدها فهو ألا تنتقل من خطوة في البرهان إلى خطوة أخرى إلا على أساس قواعد محددة سلفاً تسمى قواعد الاستنتاج . هذه القواعد ليست اختيارية تماماً ، بل يراعى في اختيارها أن تسمح بانسياب الصدق . أي أنه إذا كانت إحدى القواعد تنقلنا من عدة جمل (تسمى المقدمات) إلى جملة (تسمى التالية) ، فإن التالية تكون صادقة في كل إطار تصدق فيه جميع المقدمات . أيضاً يراعى في اختيار قواعد الاستنتاج أن تكون واضحة ، بحيث يسهل تبين مواضع تطبيقها ، كما يسهل تطبيقها نفسه ، بل إن كلا من هذا وذاك يجب أن يكون بالامكان إجراؤه بطريقة ميكانيكية .

وكمثال على قاعدة استنتاج يسهل أن نرى أنها تتمتع بكل الصفات السابقة ، نذكر قاعدة الفصل وهي :

من (أ ← ب) ، أ ينتج ب

حيث كل من أ ، ب جملة ، أما السهم « ← » فهو يعني الاستلزام . المقدمات هنا هي أ ، (أ ← ب) ، أما التالية فهي ب .

بالاستعانة بقواعد الاستنتاج ، يمكن أن نعرف البرهان على أنه متتابعة منتهية^(١) من الجمل ، كل منها مسلمة ، أو يمكن استنتاجها - من جمل سابقة عليها في المتتابعة - بإحدى قواعد الاستنتاج . الجملة الأخيرة في المتتابعة تسمى مبرهنة ، والمتتابعة تسمى برهانها .

(١) في هذا المقال سنستخدم الكلمتين « منتهية » و « عدد » بمعنى واحد ، هو ليس لانهائية .

هل ثمة شروط على المسلمات ؟ بصفة عامة لا ، لكننا نود في كثير من الأحيان أن يكون من السهل التعرف عليها ، بل أن يكون بالإمكان أن نتعرف عليها بطريقة ميكانيكية . أي نريد أن تكون هناك ماكينة (كمبيوتر مثلا) إذا ما أعطيناها أية جملة من أجل لغتنا الرمزية قالت لنا - خلال فترة محدودة من الزمن - ما إذا كانت هذه الجملة مسلمة أم لا . وواضح أن هذا الشرط يكون مستوفى دائماً إذا ما كان عدد المسلمات منتهياً . لأنه ما على الماكينة في هذه الحال إلا أن تقارن الجملة المعطاة بالمسلمة الأولى ، فإن كانت هي ، وقفت مجيبة بالإيجاب وإن لم تكن هي ، انتقلت إلى المقارنة بالمسلمة الثانية ، وهكذا . فإن لم تكن الجملة أيّاً من المسلمات ، توقفت الماكينة مجيبة بالنفي .

سنقول لمجموعة من المسلمات إنها فعالة إذا كان بالإمكان التعرف عليها ميكانيكياً . وبناء على الفقرة السابقة تكون كل مجموعة منتهية من المسلمات فعالة . هل توجد مجموعة من المسلمات لانهاية وفعالة في ذات الوقت ؟ نعم ، ببساطة نخذ مجموعة المسلمات على أنها المجموعة المكونة من كل الجمل . لكن هل توجد مجموعة غير فعالة ؟ هذا ما سنعود إليه فيما بعد .

واضح أنه إذا ما اخترنا مسلماتنا بحيث تكون جميعها صادقة منطقياً ، كانت مبرهناتنا جميعها صادقة منطقياً كذلك . ماذا عن العكس ؟ هل يمكن اختيار مسلمات وقواعد استنتاج بحيث تكون كل الجمل الصادقة منطقياً مبرهنات ؟ نعم ، ببساطة اعتبر كل جملة صادقة منطقياً مسلمة ، وفي هذه الحال يمكن حتى الاستغناء عن قواعد الاستنتاج تماماً ، ويصير كل برهان مكوناً من جملة واحدة . لكن ماذا إذا ما اشترطنا في مسلماتنا أن تكون فعالة ؟

نالت هذه المشكلة قدراً كبيراً من اهتمام المناطقة . ويمكن القول بأنها قد حلت حلاً إيجابياً بالنسبة للغات الرمزية التي تعيننا هنا . أي أمكن التوصل إلى مسلمات فعالة (سنسميها المسلمات المنطقية) وقواعد استنتاج بحيث تكون كل المبرهنات جملاً صادقة منطقياً ، والعكس بالعكس .

النظريات :

بالاستعانة بالمفاهيم والتعريفات السابقة ، يمكن إزالة كثير من الغموض الذي يكتنف مفهوم « النظرية » . فكلما ألحقنا بالمسلمات المنطقية مجموعة من المسلمات (سنسميها مسلمات إضافية) نتجت لنا مجموعة من المبرهنات التي تختلف - بصفة عامة - باختلاف المسلمات الإضافية الملحقة . مجموعة المبرهنات هذه تسمى نظرية ، على وجه التحديد النظرية المولدة بالمسلمات الإضافية .

قد يكون من المفيد أن نذكر على سبيل المثال ، نظرية الهندسة الاقليدية . من مبرهنات هذه النظرية الجملة القائلة بأن مجموع زوايا المثلث مائة وثمانون درجة . نحتاج لبرهان هذه الجملة المسلمات الإضافية الخاصة بالهندسة الاقليدية ، فهي لا يمكن برهنتها انطلاقاً من المسلمات المنطقية فقط . بل إننا إذا استبدلنا بمسلمات الهندسة الاقليدية مسلمات إحدى الهندسات اللاإقليدية ، أمكننا البرهان على أن مجموع زوايا المثلث تختلف عن مائة وثمانين درجة . بالرغم من أن الأساس المنطقي هو هو ، أي نفس المسلمات المنطقية ونفس قواعد الاستنتاج .

وحتى لا يحدث أي لبس ، نود أن نوضح أن أية جملة يمكن أن تختار كمسلمة إضافية . أي أننا لا نشترط في المسلمات الإضافية أن تكون واضحة بذاتها أو أي شيء من هذا القبيل . فالمسلمات الإضافية هي إذن أقرب إلى الفروض منها إلى المفهوم القديم للمسلمات .

هذا لا يعني أن المسلمات تختار اعتباطاً . فهناك عوامل علمية وتاريخية وجمالية وغير ذلك تؤثر في الاختيار . وليس هنا مجال تفصيل هذا الأمر . ولذا فإننا سنكتفي بالحديث الموجز عن اعتبارين نحاول عادة أن نراعيهما في اختيار المسلمات الإضافية هما : الاتساق والفعالية .

يقال لنظرية (أو لمجموعة المسلمات الإضافية التي تولدها) أنها متسقة إذا لم يكن من بين مبرهناتها جملتان إحداهما تتناقى مع الأخرى . ويمكننا إدراك خطورة قضية الاتساق إذا ما عرفنا أن المناطقة قد أثبتوا (الاثبات سهل ، لكننا لن نثقل به على القارئ هنا) أن النظرية غير المتسقة تشمل مبرهناتها جميع الجمل . أي أنه في حال عدم الاتساق يمكن برهان كل جملة كما يمكن برهان نفي كل جملة ، وبذا تفقد النظرية جدواها .

الفعالية ، عرفناها من قبل . وأهمية أن تكون النظرية ذات مسلمات إضافية فعالة تكمن في أنه إن لم يكن الأمر كذلك فسيتمتع التعريف على هذه المسلمات . بمعنى أننا إذا أعطينا جملة فقد لا نتمكن من الحكم على ما إذا كانت هذه الجملة إحدى المسلمات الإضافية أم لا .

هناك أيضاً ميزة هامة أخرى . لنفرض أن لدينا مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية . إذا أعطينا أية متتابعة منتهية من الجمل فإنه سيكون بإمكاننا أن نعرف بالنسبة إلى كل جملة منها ما إذا كانت مسلمة (منطقية أو إضافية) ، أو يمكن استنتاجها - من جمل سابقة عليها في المتابعة . بإحدى قواعد الاستنتاج ، أولاً هذا ولا ذاك . ويمكن أن يجري كل هذا بطريقة ميكانيكية .

وعلى هذا فبالنسبة إلى أية نظرية ذات مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية ، تتحول عملية الحكم على ما إذا كانت متتابعة منتهية ما من الجمل برهاناً أم لا إلى عملية ميكانيكية بسيطة ، بعد أن كانت عملية ذات أبعاد عقلية ونفسية عميقة .

الاستئالة :

مادام الاتساق وتوافر مسلمات إضافية فعالة ، من الصفات الهامة للنظريات ، فمن الطبيعي أن نسأل بالنسبة إلى نظرية رياضية ما ، إذا ما كانت تتمتع بهاتين الصفتين .

وهذا ما فعله جودل بالنسبة إلى نظرية الأعداد . والمقصود بالأعداد هنا هي الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، ٣ ، والذي أهل هذه النظرية لأن تكون موضع عناية جودل هو أنها نظرية محورية في الرياضيات وفي المعرفة البشرية بصفة عامة ، وأن لها أهمية تاريخية فائقة ، وأنها بسيطة بالمقارنة بكثير غيرها من النظريات .

ما المقصود بالضبط بنظرية الأعداد ؟ اتخذ جودل لنفسه لغة رمزية (لن نثقل على القارئ بتفصيلاتها) يمكنه أن يتحدث بها عن الأعداد وجمعها وضربها . وكما بينا في حديثنا عن الصدق (انظر عاليه) ، فإن صدق أو كذب جمل هذه اللغة يتوقف على الاطار الذي نفسرها فيه . والاطار الطبيعي للتفسير في حالتنا هذه هو الأعداد الطبيعية معروفاً عليها الجمع والضرب . سنسمي هذا الإطار ، لإطار الطبيعي .

مجموعة الجمل الصادقة في الإطار الطبيعي تكون نظرية ، سنرمز إليها بالرمز $\mathcal{N}$ ، وهي ما سنعتبره - في هذا المقال - نظرية الأعداد ، وأيضاً مجموعة الحقائق المتعلقة بالأعداد .

هل يمكن توليد $\mathcal{N}$ من مجموعة من المسلمات الإضافية ؟ نعم ، ببساطة اجعل $\mathcal{N}$ كلها مجموعة المسلمات الإضافية . لكن ماذا عن الفعالية ؟ هل توجد مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية بحيث تكون $\mathcal{N}$ هي النظرية المولدة بها ؟ هذا هو السؤال الأول الذي طرحه جودل^(٢).

لم يبدأ جودل محاولة الاجابة من فراغ . فقد كان لديه بالفعل مسلمات نظرية الأعداد التي تنسب إلى الرياضي الايطالي بيانو (يقال أن الأصوب أن تنسب إلى الرياضي الألماني ديديكند) . أعاد جودل صياغة هذه المسلمات في لغته الرمزية ، وانطلق منها كمجموعة من المسلمات الإضافية . سنرمز إلى هذه المجموعة من المسلمات الإضافية بالرمز $\mathcal{M}$ ، وإلى النظرية المولدة بها بالرمز $\mathcal{B}$.

يمكن بسهولة إثبات أن كل مسلمة في المجموعة $\mathcal{M}$ صادقة في الإطار الطبيعي ، وبالتالي فإن كل مبرهنة في $\mathcal{B}$ صادقة بدورها في الإطار الطبيعي . وعلى هذا فالنظرية $\mathcal{B}$ هي جزء من النظرية $\mathcal{N}$.

يمكن بسهولة أيضاً إثبات أن المجموعة $\mathcal{M}$ فعالة . ومن ثم فإن النظرية $\mathcal{B}$ مولدة بمجموعة فعالة من المسلمات . وعلى هذا فإذا كانت $(\mathcal{N} = \mathcal{B})$ فإن إجابة عن سؤال جودل الأول ستكون بالإيجاب .

هل $(\mathcal{N} = \mathcal{B})$ ؟ هذا هو سؤال جودل الثاني . أما سؤال جودل الثالث فهو : ماذا عن اتساق $\mathcal{B}$ ؟

إذا كانت الإجابة عن السؤال الثاني بالإيجاب ، فإن قضية اتساق $\mathcal{N}$ ستكون هي نفسها قضية اتساق $\mathcal{B}$. أما إذا كانت الإجابة بالنفي ، فإن اتساق $\mathcal{N}$ يستلزم اتساق $\mathcal{B}$ والعكس قد لا يكون صحيحاً . أما لماذا اهتم جودل باتساق $\mathcal{B}$ دون $\mathcal{N}$ ، فهذا ما سيتضح فيما بعد .

(٢) ما فعله هنا ليس بالضبط ما فعله جودل ، فلنسمح لأنفسنا بالاستفادة من التطورات التي جرت بعد عام ١٩٣١ ، كما أننا نبسط الأمور كثيراً ، بهذا القارىء عن التعميدات الفنية .

الجميل والأعداد :

من قديم طَوَّر الناس ما يسمى بحساب الجمل . وهو - عند العرب المشاركة - عقد تناظر بين حروف الهجاء تبعاً لترتيبها الوارد في أبجد هوز . . . وبين الأعداد . فالأحرف التسعة الأولى للأحاد ، والتي تليها للعشرات ، والتي تليها للمئات ، والحرف الأخير « غ » ، للألف . وبذا تدل كل كلمة على عدد ، هو مجموع الأعداد التي تناظر حروفها . وتدل كل جملة على عدد ، هو مجموع الأعداد التي تدل عليها كلماتها . فمثلاً « في الشمس » تدل على ٨٠١ . ولذا فعندما سئل أحد الظرفاء عن تاريخ موت السلطان برقوق ، أجاب : في الشمس (انظر المعجم الكبير - حرف الهمزة - إصدار مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٠ - ص ٢٣) .

ويبدو أن جودل قد استفاد من هذه الأفكار ، فتناظر بين رموز لغته وبين بعض الأعداد ، بطريقة ليس هنا مجال شرح تفصيلاتها . سمحت هذه الطريقة لجودل أن يناظر أيضاً بين الجمل وبين بعض الأعداد ، وأيضاً بين المتابعات المنتهية من الجمل وبين بعض الأعداد . لكن تركيز جودل لم يكن على أن الجمل تدل على أعداد ، بل على أن بعض الأعداد تدل على رموز ، أو على جمل ، أو على متابعات منتهية من الجمل . وبذا صار بإمكانه أن يجبر عن الجمل ، بأن يجبر عن الأعداد التي تدل عليها . فمثلاً نجح جودل في أن يصوغ في لغته الرمزية جملة تقول « أ ، ك كذا وكذا وكذا » ، بحيث يكون تفسير هذه الجملة في الإطار الطبيعي هو أن أ عدد يدل على جملة ، و ك عدد يدل على متتابعة منتهية من الجمل ، هي برهان للجملة التي يدل عليها العدد أ ، انطلاقاً من مجموعة المسلمات الإضافية ^٨ .

أكثر من ذلك ، استطاع جودل أن يصوغ جملة - تفسيرها في الإطار الطبيعي هو :

لا يوجد برهان للجملة - انطلاقاً
من مجموعة المسلمات الإضافية ^٨

أي أن الجملة - تحدثت عن نفسها بطريقة تذكرنا بالجملة التي تكذب نفسها ، التي تحدثنا عنها من قبل .

النتائج :

هل الجملة - صادقة في الإطار الطبيعي ، وهل هي بالتالي إحدى مبرهنات النظرية ^٨ ؟ هل هي إحدى مبرهنات النظرية ^٨ ب ؟

لنبحث الأمر . لنفرض أن - إحدى مبرهنات ^٨ ب . إذن - إحدى مبرهنات ^٨ ، لأن ^٨ ب جزء من ^٨ . أيضاً ، فرضنا أن - إحدى مبرهنات ^٨ ب ، يعني أنه يوجد برهان للجملة - انطلاقاً من مجموعة المسلمات الإضافية ^٨ . من هذا نرى أن - كاذبة في الإطار الطبيعي . ومن ثم فإن - (التي سنرمزها إلى نفي -) صادقة في الإطار الطبيعي ، وبالتالي فإن - إحدى مبرهنات ^٨ . وعلى هذا فإن النظرية ^٨ غير متسقة لأن كلا من - ، ونفيها - ، من بين مبرهنات ^٨ .

ملخص ما سبق هو :

إذا كانت $\mathcal{H}$ إحدى مبرهنات $\mathcal{B}$ ، فإن $\mathcal{H}$ غير متسقة .

وبأخذ عكس النقيض - كما يقول المناطقة - نخلص إلى أن :

إذا كانت $\mathcal{H}$ متسقة ، فإن $\mathcal{H}$ ليست إحدى مبرهنات $\mathcal{B}$.

لنفرض الآن أن $\mathcal{H}$ متسقة . إذن $\mathcal{H}$ ليست إحدى مبرهنات $\mathcal{B}$. وهذا يعني أنه لا يوجد برهان للجملته $\mathcal{H}$ انطلاقاً من مجموعة المسلمات الإضافية $\mathcal{M}$. من هذا نرى أن $\mathcal{H}$ صادقة في الاطار الطبيعي ، وبالتالي فإن $\mathcal{H}$ إحدى مبرهنات $\mathcal{B}$. بإضافة هذا إلى النتيجة السابقة نصل إلى أنه :

إذا كانت $\mathcal{H}$ متسقة ، فإن $\mathcal{H}$ إحدى

مبرهنات $\mathcal{B}$ ، لكنها ليست إحدى مبرهنات $\mathcal{B}$.

وعلى هذا فإن $\mathcal{H}$ تختلف عن $\mathcal{B}$. وبذا نكون قد أجبتنا عن سؤال جودل الثاني بالنفي ، بفرض أن $\mathcal{H}$

متسقة .

ما سبق لا يكفي للإجابة عن السؤال الأول بالنفي هو الآخر . حقاً إننا نعرف الآن أن $\mathcal{H}$ لا تولد $\mathcal{B}$ (بفرض أن الأخيرة متسقة) ، لكن أليس من الممكن تقوية $\mathcal{M}$ ، بإضافة $\mathcal{H}$ أو غيرها إليها ، بحيث يكفي الناتج لتوليد $\mathcal{B}$ ؟ لاحظ أننا هنا لا نبحث عن أية مجموعة مولدة للنظرية $\mathcal{B}$ ، وإنما نبحث عن مجموعة فعالة تفي بالغرض . لكننا نستطيع أن نفعل مع أية مجموعة فعالة - تشمل $\mathcal{M}$ ، وتشتمل عليها $\mathcal{H}$ - ما فعلناه مع $\mathcal{M}$ ، لنثبت أنها لا تولد $\mathcal{B}$ (بفرض أن الأخيرة متسقة) . ومن هذا يمكن أن نستنتج :

إذا كانت $\mathcal{H}$ متسقة ، فإنه لا يمكن توليدها

بأية مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية .

وبذا نكون قد أجبتنا عن سؤال جودل الأول بالنفي هو الآخر ! (بفرض أن $\mathcal{H}$ متسقة) .



هذه النتيجة الخطيرة ، التي تعني أننا لا نستطيع - عملياً - أن نقيم النظرية $\mathcal{B}$ على مسلمات ، جديدة بأن نتوقف عندها قليلاً . هل المشكلة في المنطق ، أي في المسلمات المنطقية وقواعد الاستنتاج ، وبالتالي فإذا قوينا المنطق فقد حل المشكلة أم أن المشكلة في اللغة الرمزية التي اختارها جودل ، وبالتالي فعل المشكلة قد يكمن في تغيير اللغة ؟ أم ماذا ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة ، علينا أن نتعامل مع مفهوم جديد ، هو « فعالية التولد » . سنقول لمجموعة من الجمل إنها فعالة التولد ، إذا كان بالإمكان توليدها بطريقة ميكانيكية . أي إذا كانت هناك آلة (كمبيوتر مثلاً) تولدها واحدة فواحدة . وبالرغم من أن عملية التولد قد تستمر إلى مالا نهاية ، فإن كل جملة يجب أن تظهر بعد فترة زمنية محدودة ،

طالت أم قصرت . وذلك مثل عملية العد ، فهي لا تنتهي أبداً ، لكن كل عدد سيأتي دوره في الظهور بعد فترة زمنية محدودة .

من السهل أن نرى أن كل مجموعة فعالة ، لا بد وأن تكون فعالة التولد ، ذلك لأنه يمكن التعرف عليها ميكانيكياً ، والآلة التي تتعرف عليها ، يمكنها بتعديل بسيط - أن تولدها فيما علينا إلا أن ندخل جل اللغة كلها إلى الآلة واحدة فواحدة . ونجعل للآلة فتحتين تخرج من أولهما الجمل التي تتعرف عليها الآلة على أنها من مجموعتنا ، وتخرج من الثانية بقية الجمل . وبذا تولد الآلة - بما يخرج من فتحتها الأولى - جل المجموعة واحدة واحدة .

بالمثل يمكن إثبات أن أية نظرية مولدة بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية ، لا بد أن تكون فعالة التولد . ذلك لأنه توجد - في هذه الحال - آلة بإمكانها التعرف على البراهين . فما عليك إذن إلا أن تدخل إلى هذه الآلة جميع المتابعات المنتهية من الجمل ، واحدة فواحدة . اجعل للآلة فتحتين ، واطلب منها ، إذا ما تعرفت على متابعة على أنها برهان ، أن تخرج الجملة الأخيرة (أي المبرهنة) من أولى الفتحتين . أما بقية الجمل فتخرج من الفتحة الثانية . وبذا تولد الآلة - بما يخرج من فتحتها الأولى - مبرهنات النظرية واحدة واحدة .

يمكن أيضاً إثبات أن عكس المقولة السابقة صحيح ، أي أن أية نظرية فعالة التولد ، لا بد وأن يكون بالإمكان توليدها بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية . وعلى هذا فيمكننا إعادة صياغة سؤال جودل الأول كالتالي :

هل $\mathcal{N}$ فعالة التولد ؟

هذا السؤال المعدل يكافئ السؤال الأول ، لكنه سؤال في « ميكنة » الحقائق ، وليس - كالسؤال الأول - في المنطق .

إعادة الصياغة لن تؤثر في الإجابة . وبالتالي فالإجابة عن السؤال المعدل هي أيضاً بالنفي (بفرض أن $\mathcal{N}$ متسقة) . لكن الصياغة المعدلة تساعدنا على التعرف على أبعاد الموقف بطريقة أفضل . لقد سألنا آنفاً إذا ما كانت المشكلة في المنطق ، أم في اللغة ، أم ماذا ؟ لنفرض أن اللغة باقية كما هي ، وأن $\mathcal{N}$ متسقة . تغيير المنطق (المسلمات المنطقية وقواعد الاستنتاج) لن يغير من $\mathcal{N}$ شيئاً ، لأن الذي يحدد جل $\mathcal{N}$ ليس البرهان الذي يتوقف على المنطق ، وإنما الصدق الذي لا يتوقف إلا على اللغة وإطار التفسير ، وعلى هذا فإن $\mathcal{N}$ ستبقى كما هي ، وعلى وجه التحديد ستبقى غير فعالة التولد ، مهما غيرنا المنطق . ومن ثم فالحل الوحيد للمشكلة هو أن نغير المنطق بما يسمح لمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية أن تولد نظرية غير فعالة التولد . وهذا ممكن إذا ما تنازلنا عن شرط الفعالية في مجموعة المسلمات المنطقية أو عن شرط إمكان التعامل مع قواعد الاستنتاج بطريقة ميكانيكية . لكن لا هذا ولا ذاك مرغوب فيه . فالتنازل عن الشرط الأول يعني أننا قد لا نتمكن من التعرف على مسلمتنا المنطقية ، والتنازل عن الشرط الثاني يعني أننا قد لا نعرف متى أو كيف نطبق قواعد الاستنتاج .

بقي أن ننظر في تغيير اللغة . وهذا طبعاً ممكن ، وسيأتي بنتيجة سريعة ، إذ أن ⁸ تغيير بتغير اللغة . غير أنه إذا كانت اللغة الجديدة على نفس مستوى اللغة القديمة ، أو أقوى (أي أقدر على التعبير) ، فإن ⁸ الجديدة لن تكون فعالة التولد ، وبالتالي ستبقى المشكلة كما هي ، إن لم تزد تعقيداً . أما إذا كانت اللغة الجديدة أضعف من اللغة القديمة ، فإن ⁸ قد تصير فعالة التولد ، أو حتى فعالة ، وبذا تكون مشكلتنا محلولة بالنسبة إلى هذه اللغات الضعيفة . فعل سبيل المثال إذا ما أضعفنا لغتنا بما لا يسمح لها بالحديث عن ضرب الأعداد ، أي أن اللغة الجديدة ستكون قادرة على الحديث عن الأعداد وجمعها ، لكن ليس ضربها ، فإن ⁸ ستصير فعالة ، وليست فقط فعالة التولد .

القارئ اليقظ لابد وأن يكون قد لاحظ أننا في طيات تحليلنا السابق قد عالجنا سؤالاً كنا قد تركناه مفتوحاً حين طرحناه . ألا وهو : هل توجد مجموعة غير فعالة ؟ إذ أن ⁸ (في اللغة الأصلية) ليست فقط غير فعالة ، وإنما أيضاً غير فعالة التولد (بفرض أنها متسقة) .



كتمهيد لبحث قضية اتساق ب (السؤال الثالث) نود أن نوضح أن التحليل الذي أجراه جودل في معرض معالجته لسؤاله الثاني كان أعمق من تحليلنا ، وأنه يتعامله مع التركيب الداخلي الدقيق للجملة $\mathcal{C}$ قد استطاع أن يصل إلى النتيجة الأقوى التالية :

إذا كانت ⁸ متسقة ، فإن $\mathcal{C}$ ليست إحدى مبرهناتها (*) .

بطريقة مشابهة لتلك التي جرت بها صياغة الجملة $\mathcal{C}$ ، يمكن صياغة جملة $\mathcal{D}$ تفسرها في الإطار الطبيعي هو :

⁸ $\mathcal{D}$ متسقة .

وبذا يكون تفسير الجملة ($\mathcal{D} \leftarrow \mathcal{C}$) في الإطار الطبيعي هو (*) على وجه التحديد . وقد أوضح جودل أن اثبات (*) يمكن تقليده في اللغة الرمزية لتصل إلى أن :

($\mathcal{D} \leftarrow \mathcal{C}$) إحدى مبرهنات ⁸ .

فإذا كانت :

$\mathcal{D}$ إحدى مبرهنات ⁸ .

فإننا تصل بقاعدة الفصل إلى أن :

$\mathcal{C}$ إحدى مبرهنات ⁸ .

وهذا يتعارض مع اتساق ⁸ ، كما تبين (*) . من هذا نخلص إلى النتيجة الهامة الآتية :

إذا كانت ⁸ متسقة ، فإن $\mathcal{C}$ ليست إحدى مبرهناتها .

وبالنظر إلى تفسير د في الإطار الطبيعي ، فإن هذا يعني أنه إذا كانت B^8 متسقة ، فإنه لا يمكن إثبات ذلك بالطرق المستخدمة لإثبات مبرهنات B^8 .

من الطبيعي أن نسأل ماذا يحدث إذا ما أضفنا د إلى B^8 ؟ نحصل على نظرية أقوى ، يمكننا فيها إثبات أن B^8 متسقة . لكن ما فعلناه مع B^8 يمكن تكراره مع النظرية الجديدة ، وبالتالي لا يمكن إثبات أن النظرية الجديدة متسقة (بفرض أنها كذلك) بالطرق المستخدمة لإثبات مبرهناتها . وهكذا فالمشكلة تظل علينا برأسها من جديد ، ولكن في ظروف أعقد . ونفس الشيء يسري على أية تقوية للنظرية B^8 ، مادام يمكن توليدها بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية .

وعلى هذا فلا يمكننا الاطمئنان إلى اتساق B^8 ، ولا إلى اتساق كثير غيرها من النظريات الأساسية في الرياضيات ، إذ أن اثبات هذا الاتساق يتطلب نظرية لا يقل شكنا في اتساقها عن شكنا في اتساق النظرية الأصلية نفسها .

أرجو أن يكون قد اتضح الآن لماذا اهتم جودل بقضية اتساق B^8 . أما عن لماذا لم يعرض قضية اتساق B^8 نفس الاهتمام ، فلعل ذلك لأنه كان مهتماً بالنتائج السلبية ، أي بتوضيح أن قضية الاتساق تنطوي على مشكلة وبالتالي فمن الواجب أن يتعامل مع النظرية الأضعف ، أي B^8 . ومادامنا غير متيقنين من اتساق B^8 ، فإننا - من باب أولى - لن نكون متيقنين من اتساق B^8 .

خاتمة :

تبين لنا النتائج السابقة بعض حدود المعرفة . وقضية حدود المعرفة مبحث فلسفي قديم . والجديد هو أن يسهم العلم في علاجها ، وإن كان اسهامه في تبيان بعض الحدود الأخرى ، التي شغل بأمرها الفلاسفة منذ زمن طويل ، ليس بنفس القدر من الجدة .

فبتطور النظرية الذرية على أسس علمية مقبولة خلال القرن التاسع عشر ، أسهم العلم في الإجابة عن سؤال فلسفي قديم متعلق بحدود إمكان تقسيم المادة . وقد تجدد هذا الاسهام - الذي لم يكن أبدا كلمة أخيرة - خلال القرن العشرين بفعل نظريات تركيب الذرة من جسيمات أولية ، ونظريات تركيب بعض الجسيمات الأولية مما يسمى بالكوارك ، ونظريات تحول المادة إلى طاقة ، وظهور الأخيرة على شكل كمات .

وقد بينت لنا نظرية النسبية (عام ١٩٠٥) حداً آخر ، هو حد السرعة . فإذا كانت سرعة أحد جسيمين بالنسبة للآخر أقل من سرعة الضوء في الفراغ في لحظة ما ، فلا يمكن أن تزيد عليها أبداً ، أي أن سرعة الضوء في الفراغ (حوالي ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية) هي حد السرعة .

هل لنا إذن أن نقول إننا نعرف النظرية فعالة التولد ، إذا ما عرفنا آلة تولدها ؟ هذه مسألة فيها نظر . ويدور عما يساعد على حلها أن نأخذ بأن المعرفة مفهوم مركب ، وبدلاً من أن نسأل ، هل نعرف ؟ أو ، هل يمكن أن نعرف ؟ نسأل إلى أية درجة نعرف ؟ أو ، إلى أية درجة يمكن أن نعرف ؟ إذا ما قبلنا هذا ، فإن التحليل السابق (وهو الآن يحتاج إلى شيء من التعديل الذي سنتركه للقارىء) يميز لنا أن نقول إنه ليس بإمكاننا أن نعرف النظريات فعالة التولد (التي ليست فعالة) بنفس الدرجة التي يمكننا أن نعرف بها النظريات الفعالة . أي أن هناك حدوداً للمعرفة !

لكن هل توجد نظرية فعالة التولد ، لكنها ليست فعالة ؟ نعم ، وأول نظرية عرف عنها هذا هي النظرية ⁸ (بفرض أنها متسقة) . وعلى هذا فالمشكلة تبدأ من ⁸ ، لكن مشكلة ⁸ أكبر ، لأن ⁸ (بفرض اتساقها) ليست حتى فعالة التولد . ولذا فإن درجة معرفتنا بالنظرية ⁸ لا يمكن أن تصل حتى إلى الدرجة التي يمكن أن تصل إليها معرفتنا بالنظرية ⁸ . فمثلاً نحن نعرف للنظرية ⁸ مجموعة (فعالة) من المسلمات الإضافية التي تولدها ، وهذا مالا يمكننا أن نعرفه للنظرية ⁸ .

وكما أسلفنا فإن من أوجه قصور معرفتنا بالنظرية ⁸ ، أننا لن نعرف طريقة عامة (أي لن نتوصل إلى آلة) نستطيع عن طريقها أن نحكم على كل جملة إذا ما كانت في ⁸ أم لا . إن وجه القصور هذا قائم (بل أنه أكثر شدة ، إن جاز التعبير) بالنسبة للنظرية ⁸ . وبهذا المعنى نقول إننا لا يمكننا معرفة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد (أي كل الجمل الواقعة في ⁸) .

أصابت هذه النتيجة البعض بشيء من خيبة الأمل . لكنها لا تخلو من جانب مشوق . فهي تزيد من التحدي ، وبالتالي تزيد من استشارة المهتم . فالنتيجة لا تقول إن هناك جملة بعينها غير قابلة لأن نحكم عليها . إنها تقول فقط إنه لا توجد طريقة واحدة صالحة للحكم على كل الجمل . وبالتالي علينا دائماً أن نبتكر طرقاً جديدة . وهذا خليق بأن يرضي غرور الرياضيين ، إذ أن الحاجة إلى ابتكاراتهم لن تنتهي ، ولن يمكن الاستعاضة عنهم بآلة ، أو بكمبيوتر أبداً .

لقد راود الرياضيين أمل بأن تكون مسلمات بيانو (المشار إليها آنفاً) كافية لبرهنة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد . فبدد جودل هذا الأمل بنتيجته العبقريّة . لكنه لم يتركنا حائرين بعد أن أخرجنا من نعيم الجهل (وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم !) . إذ أنه بإثباته أن حد تقع في ⁸ ولا تقع في ⁸ ، فتح لنا الطريق كي نحصل على نظرية أقوى بإضافة حد (أو غيرها من الجمل التي تقع في ⁸ ولا تقع في ⁸) إلى المسلمات الإضافية التي تقوم عليها ⁸ . وهكذا يمكننا أن نحصل على نظريات أقوى وأقوى (تقوم كل منها على مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية) دون أن نصل إلى ⁸ أبداً . أي أن دائرة الضوء تتسع وتتسع ، لكنها لن تضيء كل الحقائق أبداً . أيضاً ، فتح لنا جودل بنتيجته هذه طرقاً أخرى ، لكن المجال لا يسمح لنا باصطحاب القارىء إلى جولة فيها .



لنتنقل الآن إلى نتيجة جدول الثانية القائلة بأنه إذا كانت B^8 متسقة ، فإنه لا يمكن إثبات ذلك بالطرق المستخدمة لإثبات مبرهنات B^8 . هذه النتيجة لا تعني أن B^8 ليست متسقة ، كما أنها لا تعني أن B^8 متسقة . فهي تترك الباب مفتوحاً لهذا وذاك . كل ما نستطيع أن نبينه عليها هو أنه إذا كانت B^8 متسقة ، فإننا لن نستطيع معرفة هذا بطريقة نظمت إليها .

زادت هذه النتيجة من شكوك أصحاب الاتجاهين الحدسي والبنائي (وهما اتجاهان في الرياضيات وفلسفتها ازدهرا في بدايات هذا القرن استجابة للأزمة التي شهدتها الرياضيات مع دورة القرن التاسع عشر) في سلامة الرياضيات التقليدية . وشجعتهم على الاستمرار في جهودهم لإقامة رياضيات جديدة أكثر جدارة بالثقة ، لكنها - حتى الآن - أقل فائدة في التطبيق .

أما الغالبية الساحقة من الرياضيين ومستخدمي الرياضيات ، فتسير أمورهم سيراً عادياً فهم ليسوا بحاجة إلى اليقين حتى يستمروا في بحثهم ودرسهم وتدريسهم وتطبيقاتهم . والتعامل مع النظرية B^8 مستمر ، والبحث فيها وحوها جار . لكن أحداً لن يذهل إذا ما اكتشف فيها تناقضاً غداً . حقاً إن هذا سيكون حدثاً عظيماً ، وسيدخل الرياضيات في أزمة جديدة . لكن المأمول أن تكون - كسابقاتها - أزمة نمو ، لا أزمة انهيار .



هل نتيجة جدول ، التي زعزعت اليقين في الرياضيات ، نتيجة يقينية ؟ لقد توصل إليها جدول بنفس الأساليب ، وعلى نفس الأسس ، التي هي الآن موضع شك . إذن فالنتيجة نفسها موضع شك . أي أن الشك الذي توصلنا إليه هو في حد ذاته أمر مشكوك فيه . ولذا فاستعادة اليقين أمر وارد ، وإن كان ليس متوقفاً إلا من خلال تغير جذري في مفاهيمنا الرياضية . والمقصود هنا ، هو استعادة اليقين بمعظم الرياضيات التقليدية ، وليس بالرياضيات الحدسية أو البنائية (انظر عاليه) ، التي لم يدع أحد - حتى الآن - بأنها موضع شك .



ما شأن كل هذا بمعرفة الكون ؟ لعل هذا هو أكثر ما يعني المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبيولوجية والإنسانية ، وفلسفاتهما . لنلاحظ أولاً أن كون الإطار الطبيعي (الذي يضم كل الأعداد الطبيعية) لانهائي قد لعب دوراً لا غنى عنه في ظهور المشكلات السابقة . ولو لم يكن الأمر كذلك ، أي لو كان الإطار الطبيعي محدوداً ، ما نشأت هذه المشكلات . بل وما كان هناك فرق بين الرياضيات التقليدية والرياضيات الحدسية والبنائية . وعلى هذا فعلاقة نتائج جدول بمعرفة الكون تتوقف على ما إذا كان الكون لانهائياً . وفي نقاشنا التالي لعلاقة المواقف الثلاثة الممكنة من قضية لانهائية الكون بنتائج جدول ومشكلة المعرفة ، سنفهم « الكون » بالمعنى الواسع الذي يسمح باعتبار الظواهر الإنسانية ظواهر كونية . أيضاً ، ما نقوله عن الكون يمكن أن يقال عن أي جزء من أجزائه ، أو أي جانب من جوانبه .

(١) الكون لانهائي :

إذا كان الكون لانهائياً ، في أي وجه من وجوهه ، فالتوقع أن يكون أعقد من الإطار الطبيعي (أي الأعداد

الطبيعية مع الجمع والضرب) ، وبالتالي فمن المتوقع أن تسري عليه نتائج جودل . أي أن مجموعة الحقائق الكونية لا يمكن استنتاجها من مجموعة فعالة من المسلمات ، وأنه لا يمكن الاطمئنان إلى اتساق أية نظرية كونية قوية .

(٢) الكون محدود :

المقصود هنا أن يكون الكون محدوداً من جميع الوجوه . أي أن يكون مكوناً من عدد محدود من الأشياء ، لكل منها عدد محدود من الصفات ، وتدخل في بعضها البعض في عدد محدود من العلاقات الثنائية ، كما تدخل مع بعضها البعض في عدد محدود من العلاقات الثلاثية ، وهكذا ، على أن يكون عدد كل العلاقات محدوداً . وأيضاً أن يكون محدوداً في الزمان ، بمعنى أنه لا يمر إلا بعدد محدود من الأطوار ، ثم يثبت أو ينتهي أو يعيد الكرة .

في هذه الحال نتائج جودل غير واردة بالنسبة إلى الكون . ومجموعة الحقائق الكونية لن يكون من الممكن فقط استنتاجها من مجموعة فعالة من المسلمات ، بل ستكون هي نفسها مجموعة فعالة . ولن تكون هناك مشكلة في إثبات اتساق النظرية المكونة من الحقائق الكونية كلها . والتوصل إلى هذه النظرية أمر وارد نظرياً ، غير أن هذا شيء ، والتوصل إليها فعلاً شيء آخر . وحتى إذا توصلنا إليها فعلاً ، فقد يتعذر علينا التأكد من هذا .

ورغم أن المجال لا يسمح بالخوض في مزيد من التفاصيل ، فقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن مشكلة الاستقراء التي أثارها ديفيد هيوم سيكون من السهل حلها في حالتنا هذه . إذ أن عدد كل ما لدينا من أشياء محدود ، وبالتالي فمن الممكن أن يكون الاستقراء دائماً استقراء كاملاً .

(٣) الكون آخذ في الاتساع :

المقصود أن يكون الكون - حتى كل لحظة - محدوداً بالمعنى الوارد في (٢) ، لكن الحدود متحركة ، كلها أو بعضها . كأن يكون عدد الأشياء التي يتكون منها الكون اليوم مليوناً ، ويصير غداً مليوناً وألفاً ، وهكذا .

وفي هذه الحال ، يبدو أن الرياضيات الحديثة أو البنائية ستكون كافية لدراسة الكون ، ويكون استخدامنا الحالي للرياضيات التقليدية نوعاً من الاستسهال . أي أن لنا أن نختار بين رياضيات أصعب في التعامل ، لكنها أجدر بالثقة ، وبين رياضيات أسهل في التعامل ، لكنها تعاني من كل المشكلات التي أوضحها جودل(*) .

(*) لكن ما رأى علماء الكون في قصة لانهايته ؟ الإجابة عن هذا السؤال خارج نطاق هذا المقال ، ويمكن للقارئ أن يرجع فيها إلى المرجع رقم (٦) ، حيث سجد الزيد من المراجع .

المراجع

- (1) Godel Kurt; **On Formally Undecidable Propositions of Principia Mathematica and Related Systems**; Basic Books Inc. New York, 1962.
- (2) Hofstadter, Douglas R.; Godel, Escher, Bach: **An Eternal Golden Braid**, Vintage Books, New York, 1980.
- (3) Kleene, Stephen Cole; **Mathematical Logic**; John Wiley and Sons, Inc. New York, 1967.
- (4) Mendelson, Elliott; **Introduction to Mathematical Logic**; D. Van Nostrand Company, Inc. Princeton, New Jersey, 1964.
- (5) Nagel, Ernest and Newman, James R.; **Godel's Proof**; New York University Press, 1964.
- (6) Sagan, Carl; **Cosmos**; Random House, New York, 1980.
- (7) Taraki, Alfred; The Concept of Truth In Formalized Languages; In; **Logic, Semantics, Metamathematics**; By the same author, Oxford At The Clarendon Press, 1956.
- (8) ———; Truth and Proof; **Scientific American**, June 1969. Also, republished in: **Fundamental Problems In Philosophy**; Edited by Oswald Hanfling; Basil Black-well In Associations with The Open University Press, 1972.

المراجع (١) ترجمة للبحث الأصلي لجودل ، مصحوبة بمقدمة مبسطة .

المراجع (٣) ، (٤) ، (٧) مكتوبة للمتخصصين . المرجع (٧) بحث له أهمية تاريخية فيما يتعلق بقضية الصدق . والمراجع (٣) ، (٤) كتابان جامعان يغطي كل منهما : اللغات الرمزية ، البرهان ، الصدق ، نتائج جودل .

المراجع (٢) ، (٥) ، (٦) ، (٨) مكتوبة لغير المتخصصين . وكلها - عدا (٦) - تستعرض وتناقش نتائج جودل . المرجع (٢) يربطها بالرسم والموسيقى ، والمراجع (٨) يركز أكثر على قضيتي الصدق والبرهان . أما المرجع (٦) فيبحث في الكون وفهمنا له .

تناول كثير من الكتاب والمؤلفين ، تراث ابن خلدون ، بالدراسة والتحليل ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، حتى اليوم . وقد انصبت أغلب دراساتهم ، حول ما جاء في « مقدمته » التي ضمّنها ، خلاصة أفكاره وتجاريه في التاريخ^(١) ومظاهر العمران والاجتماع^(٢) والفلسفة^(٣) والاقتصاد والسياسة^(٤) والأخلاق والعدالة وفلسفة الحكم والقضاء^(٥) ، إلى جانب مظاهر التحضر والبداءة والعلوم الدينية^(٦) وعلوم القرآن والحديث والسنة والفقه والشرعية والتفسير والتصوف وعلم الكلام والمنطق وعلوم اللغة العربية ، الأدب والنظم والنثر^(٧) ، فضلاً عن العلوم العقلية أو النظرية (الدخيلة) . فكتب عنه المؤرخون ، وعدّوه واضعاً لأسس كتابة التاريخ في الإسلام ، فقد أفاض في تفصيل الأحداث التاريخية في مختلف الفترات والعصور وذلك في كتابه الموسوم « العبر وديوان المبتدأ والخبر »^(٨) الذي يُعدّ من التراث الخالد في تسجيل أحداث التاريخ الإسلامي ، والظاهر أن ابن خلدون استهدف من كتابه هذا أن يكون ميداناً لتطبيق الأسس والأفكار التي جاء بها في مقدمته ، فيما يتعلق بكتابة التاريخ وتدوينه .

لمحات تاريخية من الفكر التربوي في مقدمة ابن خلدون

سواي عبد محمد

أستاذ مساعد - جامعة البصرة

(١) وهو كتاب وضعه في موضوعات في التاريخ والاجتماع والفلسفة والعلوم والصنائع وغيرها بصورة غابلية ونقدية ، وقد هدف أن يكون « مقدمة » لكتابه العام في التاريخ والعبر وديوان المبتدأ والخبر .

(٢) النظر للاستزادة ، بارتولد شبولر B.Spuler ، بحثه ، « ابن خلدون المؤرخ » ، Ibn Khaldoun The Historian ، بالانكليزية ، النشر في كتاب « أعمال مهران ابن خلدون » القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٦ .

(٣) راجع بحوث « أعمال مهران ابن خلدون » عن ابن خلدون ، مؤسس علم الاجتماع ، ص ٢٩ - ١١٩ .

(٤) م . ن . « ابن خلدون الفيلسوف » ص ١٢٣ - ١٦٢ .

(٥) م . ن . « عن آراء ابن خلدون في الاقتصاد والسياسة » ص ١٦٥ - ٢٥٢ .

(٦) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٧٩) ص ٢٧٣ ، ٣٨٣ .

(٧) كتاب « أعمال مهران ابن خلدون » عن « ابن خلدون والدين » ص ٣٥٩ - ٤٢١ .

(٨) م . ن . « ابن خلدون والأدب » ص ٤٧٣ - ٤٨٧ .

(٩) كتاب في التاريخ العام ، مرتب حسب السنين ، استعرض فيه الأحداث منذ قيام الخلافة حتى عصره ، وهناك اختلاف بين المؤرخين والكتاب فيما إذا كانت الآراء التي جاء بها في « مقدمته » وخصوصاً فيما يتعلق بكتابة التاريخ ، قد طبّقها بصورة مثالية في كتابه ٢١١

ومهما يكن من أمر ، فقد اختطّ ابن خلدون في مقدمته ، طريق الأصالة وأبان في تحليل العوارض التي تعترض الطبيعة البشرية في اجتماعها خلال مسيرتها التاريخية ، وربط بين أحداث المجتمع وخصائصه ومظاهره ، كما لم يغفل القول ، باعتبار التاريخ من أهم العلوم التي يلزم أن يدرسها الناس فقال « إن فن التاريخ الذي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقوال ويتسارى في فهمه العلماء والجهال »^(١٠).

على أن بعض نقاد التاريخ ومحلّيه أوضحوا أن ابن خلدون لم يكن موفقاً كثيراً « في التطبيق العملي للأسس التي وضعها في كتابة التاريخ وخصوصاً فيما يتعلق بتعريفه للتاريخ بأنه « علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتماع الانساني » ولذلك ينبغي للمؤرخ أن يعلل الحوادث ويربط بعضها ببعض وأن يميّز الأخبار الصادقة من غيرها وأن يعمد إلى الترجيح بين الأسباب ، إلى جانب ذلك حرص ابن خلدون ، أن يتناول التاريخ ، فوصف التطور في البيئة الاجتماعية سياسياً من حيث العلاقات والأحوال السياسية ، وعسكرياً من حيث تنظيم الجيوش وإثارة الحروب ، واقتصادياً فيما يتعلق بالتجارة والزراعة والصنائع ، وعلمياً فيما يخص الحركة الفكرية والعلمية ، فضلاً عن ذلك ينبغي أن يضمّ التاريخ أحداث الحركات الاجتماعية العامة أو الدينية أو الاقتصادية أو الفكرية . ويخلص ابن خلدون إلى القول ، إنه من أجل ذلك ، وجب أن يكون المؤرخ ملماً بعلوم كثيرة ، فإذا كان لا يعرف إلا رواية الأخبار كان هذا قاصاً وليس مؤرخاً ، وفي كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لم يكن ابن خلدون إلا رواية للأخبار ، على حدّ زعم هؤلاء المؤرخين والاختصاصيين وكتاب التاريخ .

ووضع عنه علماء الاجتماع المحدثون دراسات مستفيضة ، وجعلوه راداً لعلم الاجتماع ، وقرروا ما جاء في مقدمته وهو على قدر عظيم من الأهمية للبحوث والدراسات في حقل علم الاجتماع ، وخصوصاً في موضوعات العمران البشري وتفسير الظواهر الاجتماعية المتجانسة في طبيعتها ، لاحتوائه على بحوث في « المورفولوجيا الاجتماعية » أو علم البنية الاجتماعية ، التي تتصل بدراسة البيئة والجنس والظواهر الجغرافية ، ويلقي ضوءاً على ذلك بقوله « ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة »^(١١) كما احتوى هذا الكتاب على بحوث في أصول المدينيات القديمة وبحوث في السكان ومسائل الهجرة وما تتطلبه من تخطيط المدن وقيام الأمصار ، إلى جانب الدراسات في النظم العمرانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفلسفية والظواهر التربوية والأخلاقية والجمالية واللغوية والدينية وشؤون المعرفة والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه . لقد تناول أثناء دراسته هذه الظواهر ، شرحاً مستفيضاً مما يسهل علينا الاستنتاج أن ابن خلدون ، « كان له فضل السبق في الوصول إلى ما اصطلاح العلماء المحدثون على تسميته بعلم الوظائف الاجتماعية »^(١٢).

(١٠) المقدمة (طبعة البيان) ص ٧

(١١) المقدمة ، ص ٢٧٠

(١٢) د . مصطفى الحشاش ، المدخل إلى علم الاجتماع (القاهرة - ١٩٦٥) ج ٢ ، ص ٣ - ٣١ ، ويقول إن ابن خلدون لم يقتصر في دراسته هذه الظواهر من الناحية الوظيفية ، ولكنه كان يدرس مراحل تطورها ، أي أنه كان يجمع في دراسته بين الناحيتين « الاستاتيكية والديناميكية » .

ويصح القول إن ابن خلدون ليس فيلسوفاً اجتماعياً فحسب ، وإنما هو « عالم اجتماعي وواضع علم الاجتماع على أسسه الذي لم يسبقه إليه أحد ، ويذهب الدكتور عمر فروخ إلى القول إن ابن خلدون ، سبق علماء الاجتماع الغربيين المحدثين والمعاصرين في وضع بعض النظريات الاجتماعية وعدد من قوانين العمران التي استخرجها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ويخلص إلى القول إنه لما أطلّ القرن التاسع عشر الميلادي واستبحر علم الاجتماع في أوروبا وأمريكا ، أدرك علماء العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة القوانين الشاملة وبعد النظر الثاقب فيها بسطه ابن خلدون في مقدمته^(١٣) .

غير أن الظواهر التربوية ، احتلت مكاناً مهماً في كتابه « المقدمة » فهو لم يهمل الكلام عن ضرورتها وأسسها ومشكلاتها ، بل أكد على أن « العلم والتعليم من ضرورات العمران البشري وجودها فيه أمر طبيعي »^(١٤) و « أن تعليم العلم صناعة ، تختلف طرق المعلمين فيها باختلاف زمنهم وبلادهم »^(١٥) والظاهر أن تأكيده على أن تربية الأطفال والكبار في الأمصار الإسلامية خلال عصره تختلف باختلاف كل مصر منها ، يجعل من هذه الظواهر التربوية ، أعرافاً تتخذ شكل أنظمة قائمة ومحددة بذاتها ، ولعل هذا التأكيد جاء نتيجة لمشاهداته في البلدان التي عرفها وعاش فيها . كما استعان في كل ما كتب عن النواحي التربوية بضرب أمثلة حيّة وملموسة عن واقعها مما لا يجعل لأرائه أن تتخذ أسلوب نظرية مبنية على الخيال ، بل نتيجة سعيه وتجاربه ، وهي على وجه العموم سليمة ومعقولة وخصوصاً فيما يتعلق بالربط الذي أحكمه بين التربية والحضارة ، فهذا يدل على شدة ملاحظته وعمق تفكيره^(١٦) .

إن التقويم الذي بدأ به ابن خلدون في تحليل الإطار التربوي في العالم الإسلامي ، كان يتطرق من تعاليم القرآن الكريم ، باعتباره الأساس الذي تبنى عليه المعارف التي يكتسبها الكبار والصغار وخصوصاً العلوم الدينية وعلوم العربية ، وهو يؤكد بهذا المعنى ، على تعليم الصغار ، إذ يعزو ذلك إلى أن التعليم في الصغر هو أشد رسوخاً في الذهن « وهو أصل لما بعده ، لأنه السابق للقلب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال من يبنى عليه »^(١٧) .

ويخصص ابن خلدون فصلاً عن امتحان التعليم بجعله من جملة الصنائع التي تتطلب الخلق والإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله ، ولهذا جعل السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين في جميع البلدان وفي كل الأوقات فلكل معلم من هؤلاء المعلمين ، طرقه وأساليبه الخاصة به في تدريس كل علم من العلوم وتعليمه ، ولذلك فإن هذه الطرق ، بحسب رأيه ، لا تدخل ضمن العلوم التي يراد تدريسها ، وإلا فسوف تكون لهم طريقة واحدة يهرون عليها ، وهذا غير ممكن ، ويضرب ابن خلدون مثلاً عن تعليم علم الكلام وأصول الفقه وعلوم العربية فيبين الاختلافات في تعليمها^(١٨) .

(١٣) تاريخ الفكر العربي حتى إمام ابن خلدون (دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٨٣) ص ٦٩٥

(١٤) المقدمة ، ص ٤٣٠

(١٥) م . ن . ، ص ٤٣٠

(١٦) فتحة سليمان ، بحوث أعمال مهرجان ابن خلدون ، بحثها « الاتجاهات التربوية في مقدمة ابن خلدون » ، ص ١٦٩

(١٧) المقدمة ، ص ٥٣٧

(١٨) م . ن . ، ص ٤٣٠

ويربط صاحب المقدمة بين مظاهر العمران والتحضّر وقوة الكيانات السياسية من جهة ، وبين سند التعليم للعلوم والفنون من جهة ثانية ، فيذكر أن ذلك له من التأثير بحيث كاد ينقطع ، في عصره ، سند التعليم عن أهل المغرب وذلك باختلال عمرانهم وتناقص دوله ، فنقصت الصنائع وأحس الناس بفقدانها ، أما القيروان وقرطبة اللتان كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، فقد استبحر عمرانها ، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ، مما أدى إلى رسوخ التعليم فيهما لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خربتا وزالت دولتهما ، انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً في عهد دولة الموحدين وخصوصاً « في بداية قيامها في مراكش » ، ولكن مع ذلك لم ترسخ الحضارة في مراكش وذلك لبداءة الموحدين وخشونتهم مما تسبب في ارتحال عدد من العلماء والفقهاء والمدرسين والمعلمين إلى المشرق الإسلامي ، فحلّقوا علوماً وتلقوا تعليماً حسناً ، كما ارتحل عدد منهم إلى مصر ، ولدى رجوعهم إلى تونس تركوا تأثيراتهم بحسب أساليبهم وطرقهم في التعليم^(١٩).

ويتحدث ابن خلدون عن ظهور التعليم في الأمصار الإسلامية ، بنظمه وأساليبه التي كانت تقوم على العلم والتنظيم الصحيح ، ويستنتج أنه لما كان التعليم « صناعياً » فلا نجده في القرى والأمصار غير المتشدنة لفقدان الصنائع في أهل البدو ، ولابد لذلك من الرحلة في طلبه إلى « الأمصار المستبحرة » في تعليم العلم ، مثل بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، فقد زخرت فيها بحار العلم وتفتتت في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون ، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ويمضي هذا المؤرخ ليؤكد قوله إن مصر على عهده استبحرت فيها العلوم والتعليم وأصبحت القاهرة مركزاً علمياً مشعاً لاستحكام حضارتها منذ مئات السنين ، فظهرت فيها الصنائع وتعليم العلم ، ويرجع ذلك على حد قوله إلى عامل تاريخي ، هو سعي الملوك والأمراء منذ أكثر من مائتي سنة وتحديداً من أيام صلاح الدين الأيوبي ، إلى الاستكثار من بناء المدارس والزوايا والرُبط وجعل الأوقاف المُلغلة عليها ، فكثر طلبة العلم والمعلمون بارتفاع أجورهم وجراياتهم وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها ، ويؤكد أن في هذا المسمى الذي تبذله الدولة يكمن ترسيخها وتوطدها وتدعم أسس بنائها السياسي والاجتماعي وذلك « أن الملوك والأمراء ، كانوا يحشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته »^(٢٠).

والظاهر أنه ، خلال الفترة التي عاش فيها ابن خلدون أو التي سبقت عصره بقليل ، كانت طرق تعليم الأطفال وتربيتهم المتعلقة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ليست متشابهة في جميع بلدان العالم الإسلامي ، بل تختلف من بلاد إلى أخرى وذلك تبعاً لئزعة المريين والمعلمين واتجاهاتهم وميولهم ، وقد ظهرت من جراء هذه الطرق المختلفة ، ملكات غير متشابهة . وتفهم من معرض كلامه ذلك « واختلقت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات »^(٢١) ، ففي بلاد المغرب العربي الإسلامي كانوا يقتصرون على القرآن الكريم

(١٩) المقدمة ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٢٠) المقدمة ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

(٢١) م . د . . ص ٢٣٨ .

فيأخذون في كتابته ورسم حروفه أثناء دراسته ، واستعراض جميع ما يحتويه من كلام الله تعالى بحسب ما يكتبه أو يقرأه حملته ، أي حفاظه ، وبعبارة أوضح ، تجري دراسته قراءة وكتابة ، فتقوم التربية على أساس آياته ومضمونها واستيعاد الحديث أو الفقه أو الشعر أو أي من كلام العرب ، كما يجري الاجتهاد بعدم الخلط في التقويم بسواه في شيء ، من مجالس التعليم ، وهذا على حد قوله « غالباً ما يؤدي الانصراف إلى حذق القرآن وإتقانه إلى الانقطاع عن العلوم الأخرى والابتعاد عن معرفتها والإلمام بها » ، كما يوضح أن هذا هو مذهب أهل الأمصار في المغرب ومن تبعهم من القرى في تربية أبنائهم وتعليمهم منذ صغرهم حتى بلوغهم سن الشيخوخة ، ويضيف أنه حتى الكبار يرجعون بعد فترة من أعمارهم إلى دراسة القرآن فيصحبون أحسن من سواهم في كتابته ورسم حروفه وقراءته وحفظه والإلمام به^(٢٢) .

أما الأندلسيون فيقول عنهم ابن خلدون ، إن النظام التربوي الذي كانوا يسيرون عليه ، هو تعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم ، القرآن كما هو بدون استنباط أو استنتاج أو تفسير ، غير أنه يستدرك فيقول إنهم جعلوا القرآن الأصل في التعليم والتربية ومنبعاً للعلوم ، فيجمعون إلى جانب دراسته في الغالب رواية الشعر وإنشاء الرسائل والأخذ بعلوم العربية وقوانينها وحفظها وإجادة الخط والكتابة ، ويجري ذلك على الأطفال حتى بلوغهم سن الرشد والشيخوخة فيكون المتعلم قد وقف على علوم العربية والشعر ومعرفة الخط وأصوله كما يتعلق بأذيان العلوم المتصلة بالقرآن مثل علم القراءات والتفسير فضلاً عن الحديث والفقه والسنة ، وربما الفلسفة والمنطق ، فيما إذا كان هناك سند للأخذ بهذه العلوم ومقدرة واستعداد على تعلمها وفهمها من قبل المعلمين ، لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم^(٢٣) .

ويذهب ابن خلدون إلى القول ، إن طريقة الأفارقة وخصوصاً في تونس أقرب إلى طريقة الأندلسيين في تعليم أطفالهم وتربيتهم التي كانت تقوم على القرآن الكريم ، وغالباً ما كانوا يجمعون معه الحديث ، فقد درس أصوله وتلقن بعض قوانين العلوم وأفكارها ثم يمضي في قوله « إن عنايتهم بالقرآن واستظهار الوردان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه »^(٢٤) . ويتبع تعلم القرآن والحديث ، على حد قوله ، تعلم الخط ورسم حروف القرآن .

وينقل ابن خلدون ، عما كان يستخدم في المشرق الإسلامي ، من طرق تربوية وكيف أن المشاركة ، كانوا يجمعون في تعليم مختلف أصناف المعرفة ، فقد بلغه أن عنايتهم كانت تنجبه إلى دراسة القرآن وصحف العلم ، وهي الكتب والمصنفات والرسائل الخاصة بالعلوم العقلية والعقلية ، وما تنطوي عليها من أسس وقوانين وخصوصاً ما يتعلق بالأشخاص الكبار ، ويحتمل جداً أن تكون دراسة القرآن الكريم فقط للأطفال والناشئين والشباب .

والظاهر أن تعليم الخط والكتابة وضبط أساليبيها وأصنافها في بلاد المشرق الإسلامي كانت مفصولة عن تعليم القرآن الكريم والعلوم الأخرى ، فيشير ابن خلدون إلى أنهم كانوا « لا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط

(٢٢) م . د . ، ص ٥٣٨

(٢٣) المقدمة ، ص ٥٣٨

(٢٤) م . د . ، ص ٥٣٨

عندهم ، قانون ومعلمون له على انفراد^(٢٥) . لذلك فانهم كانوا يكتبون في الألواح لتعلمي سائر الصنائع من الصبيان في مكاتبهم بخط « قاصر عن الإجابة »^(٢٦) ومن أراد تعلم الخط وإجادته ، سواء من الأطفال أو من في سن الرشد أو من الكبار ، فعليه أن ينصرف بعد إتقان صنعة أو علومه إلى ذلك فيطلبه من أهل صنعة^(٢٧) . أما في مصر التي وصفها المؤرخ بأنها ، مهد للحضارة لرسو المدنية فيها من قديم الأزل ولاهتمام أهلها بالعلم والتعليم ، فيلاحظ تقدم العلوم فيها لأنها « موفورة وعمرانها متصل » وسند التعليم بها قائم^(٢٨) و « ان التقدم في العلوم وسائر الصنائع فيها بالغ »^(٢٩) .

ويعود هذا المؤرخ إلى القول فيما أفاد هؤلاء جميعاً من هذه الطرق والأساليب التربوية في التعليم والدراسة أو فيما كان سبباً في قصورهم عن علوم ومعارف أخرى ، فيذكر أن اقتصار أهل افريقية والمغرب عموماً على القرآن نشأ عنه قصور في اللغة وعلومها ، ويعزو ابن خلدون السبب في ذلك إلى أن دراسة القرآن لا تنشأ عنها في الغالب ملكة لغوية لأن البشر على حد قوله « مصروفون عن الإتيان بمثل آيات القرآن ، لذلك فهم مصروفون عن الاستعمال على أساليبه والافتداء به أو الخدو على منواله مما يجعلهم يفتقدون أية ملكة من غير أساليبه ، كما يحصل حتى لأولئك من أصحاب الملكات في اللغة العربية ، الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام لانصرافهم التام إلى القرآن وأساليبه^(٣٠) .

ولا يصح مجازاة ابن خلدون فيما ذهب إليه بهذا الصدد ، من أن دراسة القرآن ، ينشأ عنها قصور في ملكات اللغة فالمعروف أن القرآن يقوم لغة الدارس ويزيدها بياناً وفصاحة في استعمال المقدرات اللغوية واستخداماتها المختلفة ويهذب العبارات ويمنحها قوة في التعبير ويغنيها بفيض من التركيبات اللغوية المفيدة لما يحتويه من استعمالات مختلفة من الأساليب والطرق البيانية ، فيكسبها الأصالة .

غير أن صاحب المقدمة يميل إلى الاعتقاد أن أهل افريقية « أخف من أهل المغرب » أي انهم أكثر ملكة في اللغة ومعرفة بقوانينها وأصولها وذلك لأنهم كانوا يجمعون في تعليمهم للقرآن ، عبارات العلوم التي كانوا يتعلمونها معه ، مثل الحديث والفقه ، فتنشأ لديهم قدرات (أي ملكات) على شيء من التصرف^(٣١) والإتيان بعبارات وأساليب مشابهة لعباراتها وأساليبيها ، ولكن مع ذلك فإنهم ، كما يقول ، كانوا يقصرون في ملكاتهم البلاغية .

ومن ناحية أخرى ذكر ابن خلدون ، أن تفنن الأندلسيين وابتداعهم طرقاً في التعليم تقوم على الإكثار من رواية الشعر والاشتغال فيه ، ومن أدب الرسائل والإنشاء ودراسة العربية وعلومها وفنونها منذ الصغر ، جعلهم يقصرون في

(٢٥) م . د . ، ص ٥٣٩

(٢٦) المقدمة ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩

(٢٧) م . د . ، ص ٥٣٩

(٢٨) م . د . ، ص ٥٣٩

(٢٩) ٣٠٣ - م . د . ، ص ٥٣٩

(٣٠) ربما يقصرون ابن خلدون ، الملكات ، أنها قوى مستقلة بعضها عن البعض الآخر يمكن أن تشغل بالتدريب والإفادة منها في كل مجال .

(٣١) المقدمة ، ص ٥٣٩

العلوم الدينية المتصلة بدراسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها^(٣٢). ويستشهد المؤرخ برأي القاضي أبي بكر بن عربي^(٣٣) في وجوب تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو الحال بالنسبة إلى اتجاه الأندلسيين ، لأن الشعر ، ديوان العرب فينبغي تقديمه ، ثم ينتقل إلى الحساب فيتمرن على تحليل نمازيته وقوانينه ومسائله وبعد ذلك يعرج على درس القرآن والعلوم المتصلة به ، ومن ثم تؤخذ علوم أصول الدين والفقه والجندل والحديث . وقد استحسن ابن خلدون طريقة أبي بكر بن عربي التي ختمها بالنهي عن تعليم الناشئة علمين سوية إلا إذا كان المتعلم يمتلك قدرات على تعلمها ، وأظهر بعض النشاط والرغبة فيها^(٣٤) غير أنه أبدى تحفظه من النتيجة التي قد تؤدي إلى حرمان الناشئة من دراسة القرآن لغرض التبرك والثواب واعتقاد البعض من خشية تعرض الأطفال الذين يجرمون من دراسته إلى إصابتهم بالجنون وأن أمر الأطفال مرهون بأوليائهم الذين كانوا يتولون رعايتهم منهم فينقادون لحكمهم ، لذلك فإن أغلب الأطفال يصرفون إلى دراسة القرآن فيحرمون من تلقي العلمين اللذين يرغبانها ، ولكن لو أن الأطفال استمروا فعلا في تلقيها لتحقيق مبدأ القاضي أبي بكر بن عربي ولأصبح من الضروري أن يطبق في بلاد المغرب والمشرق على السواء^(٣٥).

ويعقد ابن خلدون فصلا « مهيأ » عن واحدة من المسائل التربوية المهمة في مقدمته ، ليس فقط في الفترة التي عاشها بل تبرز أهميتها في الوقت الحاضر ، وتعلق باستعمال الشدة في تعليم الناشئة من الأطفال ، فيقرر أن الطرق التربوية والتعليمية التي تنسم بالشدة والقسوة تجاه المتعلمين مضرة بهم ، ويعمل ذلك بسبب أن التطرف في التعليم وجعله وسيلة للقطع من قبل المعلمين الذين يفتقرون إلى طرق وأساليب مرنة تقوم على التفهم والإدراك الصحيح لمتطلبات تربية الأطفال وتعليمهم . إن ذلك بالتأكيد يلحق ضرراً بعملية التعليم ، لأن من كانت تربيته ، كما يقول ، بالعسف والقهر من المتعلمين أطفالاً أو غيرهم لا يستطيع الاستجابة لتلقي العلم ويفتقد النشاط ويخيم عليه الكسل الأمر الذي يؤدي به إلى سلوك طريق الكذب والخبث والتظاهر بغير ما في ضميره خوفاً مما يلحق به من الأذى على أيدي هؤلاء المعلمين وكذلك يتعلم المكر والخديعة ، فتصبح لديه عادة وخلقاً ، وبذلك تفسد المعاني الإنسانية من حيث علاقاته بالمجتمع ومدى استجابته لاكتساب عادات جيدة مثل الحمية وإمكانية الدفاع عن نفسه ومنزله ليصبح عيلاً على غيره فتتقصر همته عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل التي تحدد غاياتها ومدى إنسانيتها فيعود في أسفل السافلين^(٣٦).

ويحدد هذا المؤرخ ما يجب على المعلم في صدد استعمال الشدة تجاه المتعلمين من الأطفال والناشئة ، أنه ينبغي على المعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدأ عليها في التأديب ، وقد نقل من كتاب محمد بن أبي زيد الذي كان قد

(٣٢) م . ن . د . ص ٥٤٠

(٣٣) وهو محي الدين ابن بكر محمد بن علي بن عربي المتوفي ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م قرأ القرآن والحديث ودرس اللغة على يد أحد تلاميذ ابن حزم الأندلسي ثم انصرف إلى دراسة كتب التصوف بعد أن انه هذا الاتجاه . انظر ترجمته في : النباهي ، تاريخ طبعة الأندلس ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .

(٣٤) المقدمة ، ص ٥٤٠

(٣٥) م . ن . د . ص ٥٤١

(٣٦) المقدمة ، ص ٥٤١

صنّفه في حكم المعلمين والمتعلمين^(٣٧)، أنه لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم « إلا إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً »^(٣٨).

ولعل من المفيد أن نستعرض ما جاء به ابن خلدون حول وصايا الخليفة هارون الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين ، فقد استحسنها كأفضل مذاهب التعليم فخاطبه « يا أحمراً إن الخليفة دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه فصير يدك عليه مبسوطه وطاعته لك واجبة ، وأن تقف منه كما أوصاك الخليفة به ، بتدريسه القرآن وتعريفه بالتاريخ والسنين ورواية الشعر ، وأرشدته إلى الكلام وضروراته وكيف يبدأ به وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخله بتعظيم الرجال والقواد من العلماء والساسة إذا دخلوا مجلسه ، كما أوصاه بإفادته في كل ساعة تمر عليه ، فائدة لا تحزنه فتميت ذهنه ، وأن لا يمن في مسامحته ليترك لديه فراغاً من الوقت يلهيه عن واجباته » وأخيراً « طلب منه أن يقوم ما استطاع إلى ذلك بالقرب والملاينة » فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة^(٣٩).

ويكتب ابن خلدون بشيء من التوضيح عن مسألة تربوية وتعليمية أخرى لها أهميتها في الفكر التربوي المعاصر ، وهي اختصار الطرق والأساليب التعليمية في العلوم وأبواب المعرفة بتدوين البرامج المختصرة في كل علم ، فقد يشمل الاختصار على حصر القوانين والأدلة بالفاظ قليلة وبمعان كثيرة . وقد أظهر المؤرخ أن هذا التضييق في الكلام عن العلم أو الفن أو الأدب غلّ بالبلاغة أولاً وعسر على الفهم أيضاً ، كما أنه يفسد التعليم ، وفيه إخلال بالتحصيل ، ويستدل عليه بسوء التعليم ، فالتعلم عليه أن يتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بترجم المعاني وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، ويخلص ابن خلدون إلى القول ، إن المختصرات في العلوم المعدّة للناشئة وللمتعلمين تفقد أهم. الملكات النافعة وتقطعهم عن تحصيلها^(٤٠).

وأفضل الطرق لتلقين العلوم والمعارف للناشئة الذين يتجاوزون المراحل الأولى على رأي ابن خلدون ، هي ما كانت تقدم لهم تدريجياً شيئاً فشيئاً ، وأن يراعي فيها استعدادات الطلبة لقبول ما يرد عليهم . والظاهر أن هذه الطرق التي يشير إليها تتلخص في ثلاث مراحل أو تكرارات « ففي البداية تقدم لهم مسائل عامة من كل باب من أبواب العلم تتعلق بأصوله وأساسه ، ويعنى في شرحها على سبيل الإجمال ، وفي هذه المرحلة يكتسب المتعلم ملكة جزئية وضعيفة في ذلك العلم ، غير أنها تعمل على تهيئة لفهم العلم وإدراك قوانينه ، وفي المرحلة الثانية ، تقدم الشروح الواضحة بصورة مفصلة ، وتذكر أوجه التشابه والاختلاف فتتحسن ملكته . أما المرحلة الأخيرة فتقوم على التفتيش عن المسائل والقوانين

(٣٧) لا يشير لنا مظهر على هذا الكتاب في الوقت الحاضر ، كما أننا لم نجد معلومات من مصنفه محمد بن أبي زيد في المصادر المتوفرة الآن ، ويبدو أن هذا الكتاب الذي نقل عنه ابن خلدون معلوماته المتعلقة بحكايات مؤدبي الصبيان ومقربهم وشيوخهم كان قد صنّفه محمد بن أبي زيد خصيصاً لهذا الغرض شرح فيه طرقهم وأساليبهم وللأسف لا هذا المصنف مفقود الآن

٣٨١ - القلمة - ص ٥٤١

٣٩١ - ص ٥٤١

٤٠١ - القلمة - ص ٥٣٢ - ٥٣٣

المعقدة والمهمة والمغلقة ، فتوضح بشيء من التفصيل والاهتمام حتى يتهي المتعلم من استيعاب هذا العلم ومتطلباته^(٤١) .

وهناك بعض الطلبة والمتعلمين ، كما أفاد ابن خلدون ، الذين يختصرون هذه المراحل في أقل من ذلك أي للفترة المستغرقة في أخذ العلوم ، للحصول على ملكات في بعض العلوم ، بحسب ما يتيسر لهم من إمكانيات وما تقدم لهم من تسهيلات^(٤٢) ، والمقصود بالإمكانيات هنا على الأرجح ، القدرة على الاستيعاب لأفكار العلوم المطروحة ، كما يرمي بالتسهيلات تناولها بطرق تعليمية مبسطة ومفهومة وواضحة تساعد على هذا الاستيعاب وتفتح له الأبواب مشرعة .

ويُلقي ابن خلدون اللوم على كثير من المعلمين في عصره بجهلهم الطرق التربوية في التعليم ، إذ يقدمون للطلبة كثيراً من المسائل والقوانين المعقدة والمقفلة ويطالبونهم في حلها ويحسبون ذلك مراناً لهم متجاهلين استعداداتهم للتقبل والفهم ، لذلك ينبغي على المعلمين أن لا يزيدوا على طلابهم ومتعلميهم ويثقلوا عليهم بمواد العلم إلا بحسب طاقاتهم وعلى نسبة قبولهم سواء أكانوا مبتدئين أم في المراحل المنتهية وأن لا يجمعوا لهم بين مسائل وقوانين مختلفة وأن يقتصروا لهم على علم من العلوم حتى يتقنوه ، ثم يخلص إلى القول إن من المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علماً معاً ، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منها ، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منها إلى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان^(٤٣) .

وعلى أية حال فالتعليم عند ابن خلدون صناعة خاصة غايتها إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين وليس من واجبها ، بهذا المعنى ، حمل المتعلمين على حفظ فروع العلم ودفعهم إليه ، ولذلك فهو يسعى لكي يضع للتعليم منهجين ، على المعلمين والمتعلمين أن يطبقاه في وقت واحد وهما منهج التوسع في العلوم والمعرفة ، نظرياً وعملياً ، والآخر منهج التدرج من الأسهل إلى الأقل سهولة فتلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا^(٤٤) .

ويوجه ابن خلدون الأنظار إلى مسألة تربوية مهمة في تلقي العلم فيشير إلى دور المحاور والمناظرة والمفاوضة في التعليم ، فيذكر أن الطرق التربوية الصحيحة لا تقوم على أساس التأكيد على كثرة حفظ مباحث العلم واستظهارها لأن « الملكة العلمية » لا تحصل إلا « بالمحاورة والمناظرة والمفاوضة » في موضوعات العلم « لأنها ستولد ملكة التصرف » و « ملكة استنباط الفروع من الأصول » ويقدم هذا المؤرخ آراءه عن أيسر الطرق التربوية للحصول على « ملكة العلم »

(٤١) م . ن . ، ص ٥٣٣ - ٥٣٦

(٤٢) المقدمة ، ص ٥٣٣

(٤٣) م . ن . ، ص ٥٣٤

(٤٤) م . ن . ، ص ٥٣٣

وذلك من خلال إطلاق اللسان بالحوار والمناقشة في المسائل العلمية لأن « فتق اللسان بالمحاور والمناظرة في المسائل العلمية يقرب شأنها ويحصل مرامها »^(٤٥). ولا ريب أنك ستجد في طلبه العلم الذين يتهيبون من الاشتراك في النقاشات التي تجري في المناظرات العلمية ويفضلون السكوت وينصرفون إلى الحفظ والاستظهار جموداً في أفكارهم وضيقاً في أفقهم ، وينطبق ذلك حتى على أولئك الذين يحسبون أنهم وضعوا أساساً للكتائب العلمية ، الاطلاع والقراءة والحفظ فإنك ستجد أن لديهم قصوراً في علمهم ، ويظهر ذلك واضحاً أثناء حواراتهم أو مناظراتهم أو قيامهم بالتعليم ، ويمزوا ابن خلدون هذا القصور إلى « رداءة طريقة التعليم وانقطاع سنده » على الرغم من أن حفظهم هو أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به^(٤٦).

نخلص من هذا الرأي الذي يقدمه ابن خلدون ، أنه ينبغي على المعلمين والمدرسين ، أن يدركوا حقيقة تتعلق بجوهر عملهم التربوي التعليمي ، وهو القدرة على مناقشة المسائل العلمية والفكرية واستيعاب الأفكار والآراء التي تقوم عليها المناظرات العلمية والأدبية والفنية ، وكذلك معرفة إدارة هذه المناقشات وتوجيهها توجيهاً يخدم العملية التعليمية ، والمعلم سيواجه طلبة متباينين الاتجاهات والمنطلقات الفكرية والثقافية والعلمية فعليه أن يتدبر طروحاتهم ويناقشها ويفاوضها بكثير من السداد والعمق .

ولدى ابن خلدون تفسير عن تعدد المناهج وكثرتها وتشعب مفرداتها مما يؤدي إلى التيه وعدم الدقة في ضبطها ، والمقصود على رأي ابن خلدون بعبارة « أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم ، اختلاف الاصطلاحات في التعاليم »^(٤٧) هو تعدد المناهج وتشعب اصطلاحاتها ، والظاهر أنه لاحظ في عصره ، طرقاً عدة لتعليم الفقه والشروحات الفقهية مثلاً . منها : الطريقة القيروانية والطريقة القرطبية والطريقة البغدادية والطريقة المصرية وطرق المتأخرين وهذه يتبعها الكثير من التفرعات والأساليب والأنماط في تلقي الأصول والفروع في الفقه وشروحاته وتفسيراته ، لذلك فإن المتعلم مطالب باستحضارها جميعاً وتمييز ما بينها ، ولو اقتصر المعلمون والمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر ذلك بكثير ، وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً . ويواصل صاحب المقدمة ضارباً المثل من علم العربية وخصوصاً من كتاب سيويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين وجميع ما كتب في ذلك ثم يتساءل كيف يطالب به المتعلم^(٤٨).

أما مسألة التحصيل العلمي وما ينطوي عليه من طرق وأساليب تربوية فيفصلها بقوله ، إن العلوم المتعارفة على صنفين ، العلوم المقصودة بالذات مثل التفسير والحديث وعلم الكلام وعلوم الطبيعيات والفلسفة ، والعلوم المساعدة

(٤٥) المقدمة ، ص ٤٣١

(٤٦) م . د . ، ص ٤٣٤

(٤٧) المقدمة ، ص ٥٣١

(٤٨) م . د . ، ص ٥٣٢

التي تشكل وسيلة آلية للعلوم الأولى مثل علوم العربية والحساب والمنطق ، فإذا أريد تحصيل العلوم المقصودة فينبغي دراستها والتوسع فيها واستكشاف الأدلة والبراهين في أصولها وتفرعاتها واستبعاد العلوم المساعدة عن التمهيد الدقيق والدراسة المستوعبة وذلك « لأنها آلة للعلوم المقصودة بذاتها ، فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً » مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطورها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها^(٤٩) . ويذهب المؤرخ بعيداً في التفصيلات حول صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه فيقول ، إن المتأخرين أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد ، فهي مضرّة على حد قوله بالتعلمين على الإطلاق لأن اهتمام المعلمين بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها ، لهذا يجب على المعلمين كما يقول ، أن لا يستبحروا بشأن العلوم الآلية (المساعدة) وينهبوا المتعلم على الغرض منها ويقضوا به عنده^(٥٠) .

ويمكن القول ، باطمئنان ، إن ما ذهب إليه ابن خلدون في هذا الصدد ، يجعل مسألة التحصيل العلمي وحيدة الجانب ، فالعلوم ينبغي أن تؤخذ بصورة متوازنة ومتكافئة ، فإذا أريد تحصيل العلوم التاريخية مثلاً فلا بد حينئذ من تعلم وسائلها وهي اللغة ، وإتقانها وضبطها من حيث التوصل إلى تحليلات دقيقة (توضيحها اللغة توضيحاً) « كافياً » ، وكذلك إذا فعلنا مع العلوم الطبيعية والفلسفة فإن اللغة تظل تعين على ترسم الطريق الصحيح لإتقان هذه العلوم وتطبع صورة جليلة في ذهن المتعلم عنها ، ويبدو ذلك واضحاً في جهود كثير من طلبة العلم الذين أصبحوا فيما بعد علماء ومفكرين في الحقول العلمية التي تخصصوا فيها على أيام ابن خلدون أو على أيام المتقدمين عليه أو المتأخرين عنه .

ولعل ابن خلدون وهو المحلل لبعض أفكار عصره ، يشير إلى ما كان يجري من فصل غير مقصود بين علوم الشرعيات والطبيعيات والفلسفة وبين علوم العربية والحساب والمنطق عند ما يراد السعي للتحصيل العلمي في صنف من أصناف العلوم الأولى ، وهو الأسلوب التقليدي المتبع في تلك الفترة ، غير أن هذا المحلل لا يدرك صواباً حين يقرر أن علوم العربية والمنطق وما سواها من العلوم المساعدة « لا حاجة بها في العلوم المقصودة ، فهي من نوع اللغو »^(٥١) .

ولم تكن المدارس على عهد ابن خلدون هي المراكز الوحيدة للتعليم والتعلم بل إن المعلم أو المدرس الذي يجد في نفسه الكفاءة لمزاولة المهنة ، يستطيع أن يزاولها بحرية في المكان الذي يختاره وعلى الطريقة التي يرتئها من غير أن يتقيد بقيد حكومي أو سلطاني ، غير القيود التي يقررها ويفرضها العرف والعادة^(٥٢) . وكان له أن يفعل ذلك في المساجد أيضاً . « وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم ورثه والجلوس لذلك في المساجد »^(٥٣) . ويبيّن أن المساجد صنفان ،

(٤٩) م . د . ، ص ٥٣٦ - ٥٣٧

(٥٠) المقدمة ، ص ٥٣٧

(٥١) م . د . ، ص ٥٣٧

(٥٢) ساطع الحميري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٣

(٥٣) المقدمة ، ص ٢٢٠

المساجد العظيمة الكثيرة الغاشية والمعدة للصلوات العامة المشهوددة وأخرى خاصة يقوم أو بمحلة وليست للصلوات العامة ، الأولى ترجع الى الخليفة أو الوزير أو القاضي ، والمساجد الخاصة ترجع الى الناس المجاورين لها ، فإذا أراد المدرس أن يزاول مهنته في المساجد العظيمة ، فلا بد من استئذان الخليفة أو الوزير أو القاضي ، أما إذا أراد أن يزاولها في الصف الثاني « فلا يتوقف ذلك على إذن »^(٥٤) . ويقرر ابن خلدون أن المدرسين في العالم الاسلامي لا يتصدون للمسائل التي لا تدخل في اختصاصاتهم أو التي لا يستطيعون الإيفاء بموضوعاتها أو ما يدخل في تفصيلاتها ودقائقها ، فيشير الى أنه « ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل »^(٥٥) .

غير أن ابن خلدون يذكر أن مهنة التعليم تدخل في نطاق المصالح العامة فهي تخضع لمراقبة المحتسب الذي تقوم وظيفته على موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد يأخذ « على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضريهم للصبيان المتعلمين »^(٥٦) كما أن أصحاب الخير من الأغنياء من السلاطين والأمراء والتجار وغيرهم ، كانوا يشيّدون بعض البنايات المختصة للتدريس ويربطون لها الأوقاف المغلّة للجرابة على معلميها ومتعلميها ، فيقول إنهم كانوا « يستكثرون من بناء المدارس والإعانة لطلاب العلم بالجرابة من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم »^(٥٧) ويبدو أن صلاحية التعليم وتحديدده في تلك المدارس كانت تتعين وفق الشروط التي يضعها الواقفون من أولئك الأغنياء .

ويعكس لنا ابن خلدون صورة فيها بعض الوضوح عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها المعلمون والمدرسون في عصره وأن مهنة التعليم كانت ضمن مهن الضعفاء ، فقد ذهب الى القول « إن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية ، والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم »^(٥٨) .

أما أثر المشرق الإسلامي في نشر العلم في بلاد المغرب والأندلس فيوضحه بقوله ، إن أغلب الذين تلقوا تعليمهم على يد المعلمين المشاركة كانوا يهتمون « بالحفظ » ويعجزون عن التصرف في المعرفة مع أن الهدف هو الحصول على الملكة العلمية ، أي فهم روحه العامة والوقوف على دقائقه والمقدرة على إبداء الرأي فيه^(٥٩) ، ثم يقدم لنا معلومات تفيد في الاطلاع على تاريخ التربية في بعض البلاد الإسلامية والمدد التي كان يقضيها الطلبة والمتعلمون في الحصول على العلوم ودراساتها وإتقانها ، فيشير الى أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس في المغرب لإتمام دراستهم ، هي ست عشرة سنة ، فيها هي في تونس خمس سنين . ويقول إن هذه المدة التي يمضيها الطلبة في المدارس هي أقل ما يتأتى لطلاب العلم للحصول على مبتغاه من الملكة العلمية ، ويعلل طول المدة في المغرب عنها في البلاد الإسلامية الأخرى ، بسبب

(٥٤) م . ن . ص ٢٢٠

(٥٥) م . ن . ص ٢٢٠

(٥٦) م . ن . ص ٢٢٥

(٥٧) المقدمة ، ص ٤٣٥ ، ٣٧

(٥٨) م . ن . ص ٢٩

(٥٩) د . هيد الطيف الطياوي ، محاضرات في تاريخ العرب والاسلام - ج ١ (دار الاندلس بيروت - ١٩٦٣) ص ١٠٣

صعوبتها ، نتيجة لقلّة الجودة في التعليم وانعدام الطرق والوسائل التعليمية القائمة على أساس صحيح ومفيد ، كما يعزو هذا المؤرخ ، انقطاع سند التعليم في « الأمصار العظيمة » التي هي بغداد والبصرة والكوفة - وكانت معادن العلم - إلى الخراب الذي شاع فيها وعدم اتصال العمران الموفور واتصال السند فيه . هذا الخراب الذي تعرض له العراق في الفترات التي يشير إليها^(٦٠) .

وفي موضوع تنوع الثقافات في بلدان إسلامية مختلفة وما يحنيه طلبة العلم من هذا التنوع يذكر ابن خلدون أن « الرحلة في طلب العلوم مزيد كمال في التعليم^(٦١) » وأن الاحتمال في أرجاء العالم الإسلامي وخصوصاً المشرق الإسلامي ينوّر العقل ويكسب العلم ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الناس يكتسبون معارفهم وعلومهم بطرق مختلفة بين بلاد

وأخرى فمنهم من يحصلها علماً وتعليماً وإلقاءً ومنهم عن طريق المحاكاة والتلقين بالمباشرة ، فالتعلمون يختلفون في التلقي إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين ، أشد استحكاماً « وأقوى رسوخاً » ، فللقاء أهل العلم في بلاد متباينة ، يفيد في تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيه ، فالرحلة على حد قوله لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المعلمين وأرباب العلم ومباشرة الرجال^(٦٢) .

كما يتطرق صاحب المقدمة إلى الطريقة المثلى ، بل يعدّها الفضلى في تعلم اللغة العربية وإتقانها ، بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ ، فمن كان يروم تعلم اللسان العربي فلا بد له من أن يتقن ما يحفظه ، وعندئذ تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ، ويقول إنه على مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما . والسبب في ارتقاء الملكة الحاصلة في العربية ، يعود إلى ارتقاء المحفوظ في طبقة من الكلام ، لأن المرء يحاول أن ينسج على منوالها فتتوهم ملكاته بتغذيتها وذلك لأن النفس البشرية ، وإن كانت في نوعيتها واحدة ، تختلف في البشر من حيث قوة الإدراكات وضعفها أو اختلافها^(٦٣) وهي تتأثر إلى حد كبير بما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيّفها من الخارج إذ يتم وجودها فتخرج صورتها من القوة إلى الفعل . ويزعم ابن خلدون أن هذه الملكات التي تحصل عليها النفس فيما يتعلق باللغة العربية ، إنما تأتي بالتدريج ، فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة تتم بالإسجاع والترسيل ، والعلمية بمخالطة العلوم ، والإدراكات والأبحاث والمناظرات ، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول^(٦٤) ، ولعل ابن خلدون لا يؤكد هنا على الشاعرية

(٦٠) المقدمة ، ص ٤٣٢

(٦١) المقدمة ، ص ٥٤١

(٦٢) م . ن . ، ص ٥٤١

(٦٣) وقد أصبح ذلك مبدأ من مبادئ التربية الحديثة يقوم على معرفة مدى الاستعداد في اكتساب المهارات والمعارف (انظر للاستزادة حول ما يسميه العلماء الآن) الفترات والقبليات والعوامل العقلية ، وهي ما تعرف بالملكات والإدراكات ، تتشعب بالتدريب والآفة وتنوع البيئات . د . فاخر خال ، أصول علم النفس وتطبيقاته (دار العلم

للعلوم ، بيروت ، ط ٣ - ١٩٧٨) ص ٣٢٣ - ٣٣٣ .

(٦٤) المقدمة ، ص ٥٧٨ .

الفطرية التي تصنع الشعراء ، بل يبرر القول إن الملكة الشعرية التي تحصل بحفظ الشعر ، تخلق النظامين وكذلك الحال بالنسبة للكتاب والعلماء والفقهاء .

ويزيدنا ابن خلدون بياناً عن إمكان فهم اللغة التي كان يستخدمها الفقهاء فيما يأتي على ألسنتهم من أساليب خاصة بغيرهم ، فقال إنها ليست من أساليب كلام العرب^(٦٥) ، أما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك ، أي أنهم اتخذوا ما درج عليه العرب في لغتهم ، وذلك لأنهم اختاروا ما يحفظونه ، وأنهم يخاطبون كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقاءهم الجيد من الكلام^(٦٦) . وابن خلدون في هذا الصدد يتبني القول ، في أن لغة العلم ليست كلغة الأدب والشعر ، فمفردة الفقيه وعباراته التي يسوقها وهو في علومه الفقهية أو في الكتابة أو الشعر هي نفسها وتتميز عن لغة

الأديب والشاعر . ولذلك يرى ابن خلدون فيما يبدو ، أن المتعلمين ينبغي أن يتفهموا الأساليب التي يتميز بها الفقيه أو الأديب بغية إدراك المعنى وإتقان التعلم .

وعلى ابن خلدون انصراف طلبة العلم إلى دراسة الفقه^(٦٧) والتبحر فيه والتعمق في التخصص بأنه يفقد هؤلاء المتعلمين السيطرة على أساليب كلام العرب ، بسبب أن الفقيه ينحو إلى استخراج الأحكام من الأدلة على اختلاف النصوص ، فبعضها ظاهر وبعضها يحتاج إلى الترجيح ، فيبعد المتعلمين ، الذين أصبحوا فقهاء ، عن ملكات اللغة بأساليب الكتاب والشعراء الذين اختاروا ما يجب عليهم حفظه مما درج عليه العرب في لغتهم ، وهذه المخالطة لكلام العرب وأساليبهم في الكتابة والترسل إلى جانب الانتقاء الجيد من الكلام ، يجعلهم يختلفون في أسلوبهم إذ تشيع فيهم روح البلاغة .

ويعقد ابن خلدون فصلاً مهماً آخر عن تعلم العلوم العقلية وتكوين الملكات فيها ، فيقول ، إن هذه العلوم موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة ، وقد أطلق عليها علوم الفلسفة والحكمة وهي تشتمل على أربعة علوم ، الأول ، علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ ، فائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق من الكائنات بمتبهي فكره . والثاني : العلم الطبيعي ، وهو يهتم في النظر بالمحسوسات من الأجسام التي تتكون من عناصر المعادن أو النبات أو الحيوان أو الأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات . أما الثالث فيسمى العلم الإلهي ، وهو فلسفة ما وراء الطبيعة ، يهتم في النظر في

(٦٥) قال خلدون ، أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن عثمان وهو كاتب في دولة بني مرين ، وهي إحدى الدول التي خلفت دولة الموحدين في المغرب ، قال ذكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شبيب كاتب السلطان أبي الحسن ، وكان المقدم في البصر باللسان لعمده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسها له .
لم أدر حسين وقصفت بها الأطلال مسا الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البداية هذا شعر فقيه ، فقلت له . ومن أين لك ذلك ؟ فقال . من قوله ما الفرق ، إذ هي من عبارات الفقهاء . (المقدمة ٢ ص ٥٧٩) .
(٦٦) المقدمة . ص ٥٧٨ .

(٦٧) الفقه هو معرفة الأحكام المتعلقة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة الأدلة من أعمال المكلفين بالوجوب والحذر والتدب والكراهية والاباحة (م . ن . ، ص ٤٤٥)

الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ، كما ينظر في الوجود المطلق . والرابع ويشتمل على أربعة علوم وتسمى « التعاليم » أولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق ، وعلم الإرتباطيقي ، وهو ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ومعرفة خواصه من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف ، وثالثها علم الموسيقى ، وهو معرفة نسب الأصوات والتغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ، أما رابعها فهو علم الهيئة ، وهو تعيين الأشكال للأفلاك ، وحصر أوضاعها وتعددتها لكل كوكب من النجوم السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها سواء الثابتة منها أو المتحركة أو المتحيرة . ومن فروع العلوم الطبيعية علم الطب ، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ، ومن فروع علم الهيئة علم الأزياج وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك^(٦٨) .

ويخلص ابن خلدون إلى القول إن المسلمين بدأوا يتشوقون إلى الاطلاع على هذه العلوم ويدرسونها ويتفتنون فيها^(٦٩) وخصوصاً العلوم الحكمية ، فقد ازدادوا حرصاً على الظفر بها وانتساختها بالخط العربي وعكف عليها النظار من

المسلمين وحذقوا فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيراً من آراء علماء اليونان ، فنبغ من طلبة المسلمين من شهر في جميع البلاد الإسلامية ، إذ اختص هؤلاء بالشهرة في علومهم وذكرهم وكانت لكل عالم إسلامي متبحر في الفلسفة والعلوم من هؤلاء العلماء ، طرقه وأساليبه في الاطلاع والأخذ والاستخراج والتفنن ، وكذلك في إيلاغها ونشرها وتدريسها لتلاميذهم وللطلبة من أهل العلم الذين يقدون من البلاد التي يذكرها مثل العراق وخراسان ومصر والمغرب والأندلس ، حتى ينتهي إلى القول . « إن هذه العلوم أسواقها نافقة ورسومها هناك متوفرة وطلبها متكثرة »^(٧٠) .

وأخيراً يلقي ابن خلدون الضوء على مسألة أكثر أهمية في الفكر التربوي العربي الإسلامي ، وذلك منذ عصر النهضة في الإسلام (القرن الرابع الهجري) حتى أيامه بداية القرن التاسع الهجري وربما تنسحب أهميتها في الوقت الحاضر ، وهي استخدام العربية في تلقين العلوم والمعارف والانصراف إليها وتعلمها ، فالعربية لها اصطلاحاتها ومسمياتها ، وهي تختلف عما جاء عن هذه العلوم في لغات الأقوام الأخرى وخصوصاً اليونانية . إن العربية تحكم التعبير في أفكار العلوم العقلية وتعطيها صورة الحيك والتثيت والتفتيح^(٧١) . ويوضح ابن خلدون بهذا الخصوص ، أن أهل صناعة العربية ومعلميها الأندلسيين في العلوم أقرب إلى تحصيل القدرات والإمكانات على هذا الحيك والتثيت والتفتيح من سواهم معلمي العلوم من أهل صناعة العربية في البلاد الإسلامية الأخرى ، وذلك لقيامهم بها على شواهد العرب في تراكيب طرق تعليمهم وأساليبهم ، فيسبق إلى المبتدئين والتعلم هذه العلوم والفنون ، كثير من الملكة العلمية أثناء

(٦٨) المقدمة ، ص ٤٧٩

(٦٩) م . د . ، ص ٤٨٠

(٧٠) م . د . ، ص ٥٦٠

(٧١) م . د . ، ص ٥٦١

تفهم التعليم فتقطع النفس لها وتستعد الى تحصيلها وقبولها . وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم من أهل المشرق ، فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر في تراكييب كلام العرب في العلوم . والمتعلم على حد قوله ، أحسن ما تفهده الملكة العلمية في اللسان هو المران مثل الصغر وأن يأخذ ، بعد أن يشب ، تلك القوانين التي هي وسائل للتعليم المتخذة لإتقان العلوم والتوفر على اصطلاحاتها ، وليس كما يفعل بعض المتعلمين لإدراك العلوم ، بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المتوال الذي نسجوا عليه تراكييبهم فينسجج هو عليه ويتنزل بذلك من نشأ معهم ويخالط عباراتهم في كلامهم ولكن ليس في لغتهم وأساليبهم ، ويقول كذلك ، إن تلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحثاً وبعدها عن ثمرتها وتعلمها^(٧٢) .

وهكذا يقدم ابن خلدون ، عرضاً مهماً في تاريخ التربية والتعليم في العالم الإسلامي خلال عصره ، وفي طرق التنعيم وأساليب التلقي للعلوم الدينية ، والعقلية ، يدعمه بآرائه في كثير من المسائل التربوية ويوضح معالجتها بسداد وإدراك ، حتى أننا يمكن أن نعد الكثير مما أدلى به في هذا الخصوص ، فانه اتجاهات تربوية متميزة تحظى باهتمام علماء التربية والنفس في الوقت الحاضر وتستجيب للنظريات والقوانين والأسس والأفكار التربوية والتعليمية الحديثة والمعاصرة .

بعض الكتب التي يمكن الرجوع إليها في معرفة ابن خلدون

أ - اللغة العربية :

- ١ - مقدمة ابن خلدون ، مطبعة الكشاف ، بيروت (وعنها نقلت النصوص المذكورة في هذا البحث) .
- ٢ - أعمال مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ (منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية . بحوث نخبية من الاختصاصيين والمهتمين في التاريخ والاجتماع والفلسفة) .
- ٣ - ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ .
- ٤ - ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٦١ .
- ٥ - محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكري ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٦ - د . علي عبد الواحد وافي ، ابن خلدون ، مكتبة نهضة مصر .
- ٧ - د . علي الوردي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ، معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٨ - مهرجان ابن خلدون ، الرياض ، دار الكتاب ، دار البيضاء ، ١٩٦٢ .
- ٩ - د . علي عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الاولى ، لجنة البيان العربي ، ١٩٥٧ .
- ١٠ - ابن خلدون ، قائمة مؤلفاته وبعض المراجع التي كتبت عنه لمناسبة المهرجان العلمي الذي نظمه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ١١ - د . علي عبد الواحد وافي ، ابن خلدون منشيء علم الاجتماع ، القاهرة - مكتبة نهضة مصر .
- ١٢ - د . احمد محمد الوفي ، مع ابن خلدون ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٢ .
- ١٣ - محمود الملاح ، دقائق وحقائق من مقدمة ابن خلدون ، بغداد ، ١٩٥٥ .
- ١٤ - د . طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ .
- ١٥ - د . عمر فروخ ، كلمة في ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، ١٩٥١ .
- ١٦ - ابن خلدون ، لباب المحصل في اصول الدين (نشره الاب لوسيانو روبيو ، تطوان ، دار الطباعة المغربية ، ١٩٥٢) .
- ١٧ - ابن خلدون ، شفاء السائل لتهديب السائل . عارضه باصوله محمد بن تاوريت السطنجي ، استنبول، منشورات كلية الآداب، ١٩٥٧ ، نشره الاب اغناطيوس خليفة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٦ .
- ١٨ - مهرجان ابن خلدون . (أيار ١٩٦٢) نظمه كلية الآداب بجامعة محمد الخامس - الدار البيضاء (دار الكتاب) .
- ١٩ - الاب يوحنا قمير ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٤٧ .
- ٢٠ - رضوان ابراهيم ، المختار من كتاب مقدمة ابن خلدون ، من منشورات وزارة الثقافة والأرشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٢١ - د . عبد الرحمن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٢٢ - د . عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨١ .
- ٢٣ - د . محمد جابر العابدي ، فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة في التاريخ الإسلامي ، دار الطليعة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٢ .
- ٢٤ - محمود عبد المولى ، ابن خلدون وعلوم المجتمع ، تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٦ .
- ٢٥ - جوشون بوتول ، ابن خلدون ، فلسفة اجتماعية ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، ١٩٦٤ .
- ٢٦ - عمارة بن علي اليميني ، ابن خلدون . (المختصر المنقول من كتاب العبر لابن خلدون وهو كتاب تاريخ اليمن) باللغتين العربية والانجليزية ، لندن ، مطبعة كلبرت - ١٣٠٩ هـ .

ب - الاجنبية

1. Berque (Jacques) : La Connaissance au temps d'Ibn Khaldoun. (Contributions a la sociologie de la connaissance) : Chaiers du Laboratoire de sociologie de la Connaissance. 1st ed., anthropas Paris, 1967.
2. Bouthoul (G) : Ibn Khaldoun, Sa Philosophie Sociale Paris, 1930.
3. Hussein (T) : Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn Khaldoun. Paris, 1917.
4. Lacoste (Y) : Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire, Passe da tiers-monde. F. Maspero, Paris, 1960.
5. LaHbabi (M.A.) : Ibn Khaldoun. ed. sechers, Paris, 1968.
6. Nassar (N) : La pensee vealiste d'Ibn Khaldoun, P.U.F. Paris, 1967.
7. Schemidt, Nahaniel, Ibn Khaldoun Historian, Sociologist, and philosophen (New York : Columbia University Press, 1930).

تمهيد :

في ظني أن معظم الأخطاء التي وقع فيها كل من أراد أن يقيم فكر زكي نجيب محمود ، إنما يرجع إلى سبب رئيسي واحد هو عدم متابعة تطوره الفكري والاكتفاء بالنظر إليه من خلال الوضعية المنطقية وحدها ، ومن ثم اعتباره : « صاحب مدرسة فلسفية ينابر على إراثها وتدعيمها منذ سنوات في إخلاص ودأب وأناة . . »^(١) . وما دما قد حكمنا عليه بأنه صاحب مدرسة فمن الطبيعي أن تعارضه « المدارس الأخرى » سواء أكانت يسارية كالماركسية أو يمينية كالسلفية المتزمتة . وأن ينظر إليه أصحاب اليمين وأصحاب اليسار جميعاً ، وكأنه لم يفعل شيئاً سوى نشر الدعوة التي يقوم عليها مذهبه ، وتثبيت دعائمها ، على نحو ما يفعلون هم أنفسهم : « حتى استطاع أن ينمي حوله تياراً فكرياً مستمداً من أصول هذه الفلسفة وأن يدعمه بالمقالات والمحاضرات والكتب »^(٢) . ومن هنا كان نقد الوضعية المنطقية يعني ، في الحال ، نقداً لزكي نجيب محمود ، حتى وإن اعترف فريق من أصحاب هذا النقد أنه أنشأ مدرسة خاصة في داخل المدرسة الوضعية المنطقية^(٣) . أو اعترف غيرهم أن الدور الذي لعبه زكي نجيب محمود في ثقافتنا يختلف عما تقوم به الوضعية المنطقية في بلاد أخرى كإنجلترا أو أمريكا وغيرها من البلدان المتقدمة التي لا يمكن أن نقول إن هذه الفلسفة تقوم فيها بعملية تنويرية . أما عندنا . . « فقد كان التصدي للخرافات الغيبية بالنقد شرطاً لكل نقد في بلادنا فيها بدأت علاقات العالم القديم تسير في الاضمحلال (وقام فيها زكي نجيب محمود بدور بارز) فألحقت سهام نقده ضرراً فادحاً بالقيم الرجعية . . فضلاً عن أنه لم يتهاون طوال

الفلسفة الشائنية عند
زكي نجيب محمود

إمام عبد الفتاح إمام

كلية الآداب - جامعة الكويت

(١) محمود أمين العالم و معارك فكرية ، ص ١٤ دار الهلال عام ١٩٧٠ ط ٢

(٢) المرجع نفسه ، في الصفحة نفسها .

(٣) د . د . يحيى هويدى ، الفلسفة الوضعية المنطقية في الميزان ص ٣٠ - ٣١ - مكتبة النهضة ١٩٧٢ .

فترة ليست بالقصيرة مع الكهانة الجاهلة في الكثير من المسائل العلمية ، ووجهت إليه أحجار الاتهامات الطائشة ، بخلاف الحال مع ممثلي الوضعية المنطقية في شروط اجتماعية مختلفة . . .^(٤) .

ومع ذلك كله فقد أصبح من المألوف أن تصادفك في مجال الدراسات التي تتصدى لبحث الفلسفة في العالم العربي « كليشيهات » أقرب إلى المسلمات بأن الرجل يحمل لواء الوضعية المنطقية فحسب ، وأنه أكبر داعية لها ، وهذا هو كل دوره في حياتنا الثقافية . . . من المؤكد أن زكي نجيب محمود هو أبرز ممثل لهذا التيار في الوطن العربي . . .^(٥) . وكان المسألة أصبحت بدئية لا تحتاج إلى شرح أو تفسير فقد صدر الحكم وانتهى الأمر بأنه يمثل الوضعية المنطقية وحامل اختتامها ووكيل أعمالها لا أكثر ولا أقل ! فإذا ما كتبت عنه أطروحة أكاديمية فإنها تستهدف دراسة « الوضعية المحدثة وفلسفة زكي نجيب محمود »^(٦) . إذ أنه : « إلى هذا الاتجاه الفكري تقدم الدكتور زكي نجيب محمود بطلب انتساب ، وأصبح مثله في الفكر العربي . . . »^(٧) وعلى هذا النحو يسير معظم الكتاب على اختلاف مذاهبهم ، واتجاهاتهم الفكرية ، لا نستثني من ذلك أولئك الذين لم يدركوا الفرق بين الوضعية المنطقية والمذهب الوضعي الفرنسي الذي وضعه أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) في

منتصف القرن الماضي فخلطوا بينها على نحوين من جهل فاضح ثم اتهموا مفكرنا بأنه على صلة « بالاستعمار الغربي » مثله مثل طه حسين وعلى عبدالرزاق ومن لُف لفها^(٨) .

والخلاصة أن كل ما يعلمه نقادنا - للأسف الشديد عن زكي نجيب محمود عندما يرد ذكر اسمه - أنه صاحب « خرافة الميتافيزيقا » التي صدرت عام ١٩٥٣ أي منذ ما يقرب من نصف قرن - أما زكي نجيب محمود الميتافيزيقي الذي كتب في بداية الأربعينيات بحثاً عن حرية الإرادة أخذ فيه بنظرية الجبر السذائي Self-Determination وهي نظرية ميتافيزيقية في صميمها^(٩) - فهم لا يعلمون عنه شيئاً ، لأنهم لم يشغلوا أنفسهم بدراسة الجوانب المختلفة لتطوره الروحي - إنهم يعرفون جيداً زكي نجيب محمود « صاحب المنطق الوضعي » الذي صدر عام ١٩٥١ - أما زكي نجيب محمود المفكر التنويري الذي كتب منذ « الشرق الفنان » عام ١٩٦٠ ما يقرب من عشرين كتاباً تدور كلها حول بحث الفكر العربي وتجديده فإنهم لا يعلمون عنه شيئاً - وما حاجتهم إلى مثل هذه المعرفة ، وقد حبسوا فكره في قوالب محددة واضحة وسهلة هي قوالب الوضعية المنطقية على نحو ما يفهمها أصحابها في إنجلترا والولايات المتحدة !^(١٠) وفي استطاعتهم بعد ذلك أن

(٤) إبراهيم تقي في تقديمه القيم لكتاب « نقد العقل الوضعي » ص ١٨ من تأليف د . عاطف أحمد أصدرته دار الطليعة في بيروت عام ١٩٨٠ .

(٥) د . أحمد ماضي « الوضعية المحدثة والتحليل المنطقي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر » ص ١٧١ بحث في « الفلسفة في الوطن العربي المعاصر » بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول أصدرها مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت عام ١٩٨٥ .

(٦) رسالة ماجستير للدكتور أحمد ماضي - وأظهر فصلاً بنفس العنوان في رسالته لدرجة الدكتوراه - وقارن بحثه السالف الذكر ص ١٧٢ .

(٧) الدكتور عاطف أحمد « نقد العقل الوضعي : دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي نجيب محمود » ص ٣ ع دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ - وعنوان الكتاب يدل في الحال هل منظور الكاتب - رغم وجود ومصادر جيدة في تقديم الأستاذ إبراهيم تقي لهذا الكتاب .

(٨) الدكتور محمد البهي « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » وقد خصص فيه فصلاً لمناقشة الدكتور زكي بعنوان « الدين خرافة » ص ٢٩١ دار الفكر بيروت ١٩٧٠ .

(٩) قارن مثلاً ما يقوله هيرمان راند (من أن هذا الحل لمشكلة حرية الإرادة الذي يوحّد بين الإرادة وبين الجبر الذائي في هوية واحدة هو الحل الكلاسيكي الذي يقول به المثاليون ويرفضه الطبيعيون .

J.H.Randall: Philosophy: An Introduction P. 237, Barnes & Noble, N. Y. 1942

وتوجد جذوره عند أرسطو

وبإبعادها إلى الثقافة العربية - لكنه لم يفعل بل كانت معظم الرسائل الأكاديمية التي أشرف عليها إبان أستاذه بالجامعة - تدور حول موضوعات فكرية لا علاقة لها بالوضعية المنطقية^(١٣) ! . وهذا يدل على أن اهتمامه بهذا المذهب كان لأسباب تنويرية في المقام الأول ، فهو من المذاهب التي شنت حرباً لا هوادة فيها على الخرافة ، وهو من أقرب المذاهب إلى العلم والتفكير العلمي ، وهو في النهاية منفتح - لا يتقيد ، بمضمون معين .

ولعل سوء الفهم الواسع لفكر هذا الرجل - وما ترتب عليه من نظرات ضيقة بعدت تماماً عن تقديره تقديراً سليماً - هو الذي اضطره إلى أن يعلن أكثر من مرة توضيحاً لموقفه للذين لم يفهموا الدور الذي يريد للوضعية المنطقية أن تقوم به فيقول : « لقد كنت لسنوات طوال مخطئاً بين غطشين لأنني كنت بدوري أتعصب لتيار فلسفي معين على ظن مني بأن الأخذ به يقتضي رفض التيارات الأخرى ، لكنني اليوم - مع إيماني السابق بأولوية فلسفة التحليل على ما عدها من الفلسفات عصرنا - أؤمن كذلك بأن الأمر بين هذه الاتجاهات الفلسفية إنما هو أمر تكامل في نهاية الشوط »^(١٤) . لم يقرأ أصحاب الأحكام المنسرة السابقة عبارة كهذه ، وهي ليست بالقطع تبرؤاً من المذهب الوضعي المنطقي - أو التجريبية العلمية كما يحول له أن يسميها - أو تنصلاً منه وإنما هو إعلان بأن المسألة ليست تعصباً للمذهب ، إنه تصريح ضمني بأنه استفاد من هذا المذهب ، وأنه وظفه « لصالح الفكر التنويري »^(١٥) ،

ينبالوا عليها نقداً وتجريحاً مستخدمين انتقاد الماركسيين الانجليز على وجه الخصوص ! وكأنه لا فارق بين ما فعله مفكرنا وما فعله كارناب آير وغيرهما !

ولو أن الرجل أراد أن يكون مدرسة ، كما يزعم هؤلاء النقاد ، تنشر مبادئ الوضعية المنطقية ، وترجم نصوصها وتروج أفكارها لوجد عشرات من تلاميذه على استعداد تام للقيام بمثل هذا الدور منذ زمن بعيد^(١٦) لا سيما وأن كل من تلمذ على يديه لم يستطع أن يفلت من سيطرته القوية على عقول الشباب منذ اللحظة التي بدأ فيها التدريس بالجامعة . فهذا واحد من ألمع مفكرينا يصف تأثيره عليه عندما كان تلميذاً له في أواخر الأربعينات فيقول : « الحق أن أصدق وصف ينطبق على التأثير العميق الذي تركه أستاذنا في تلاميذه هو ذلك الذي أطلقه الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط على التغيير الذي أحدثته في عقله كتابات فيلسوف إنجلترا الأكبر : ديفيد هيوم وذلك حين قال : لقد أيقظني هيوم من سبات اليقين الجازم الذي لا يتشكك في شيء . ولقد كان هذا بعينه هو ما أحدثته محاضرات الدكتور زكي في عقولنا ، ونحن في منتصف تعليمنا الجامعي . . »^(١٧) . معنى ذلك أن أثره في تلاميذه كان قوياً وعارماً : « فمن وراء مظهره الهسائي وصوته الخفيض إعصار مدمر . . »^(١٨) وتلك شهادة يعلنها تلاميذه في كل مكان فلو أنه أراد أن يكون مدرسة ، كما يقول أصحاب النقد المتسرع ، لوجد من تلاميذه من يؤلف ومن يترجم ، ومن ينقل الوضعية المنطقية بشئ زواياها

(١٠) قارن مثلاً : « زكي نجيب محمود كما عرفته » - في الكتاب التذكاري الذي أصدره قسم الفلسفة بجامعة الكويت ص ٥٧ .

(١١) د . فؤاد زكريا في تقديمه للكتاب التذكاري الذي أصدره قسم الفلسفة بأدب الكويت تحية للدكتور زكي في عيد ميلاده الثمانين - انظر ص ٣ .

(١٢) المرجع السابق .

(١٣) كانت رسالة كاتب هذه السطور عن « المذبح الجبل عند هيجل » - رسالة د . محمود زيدان عن « وليم جيمس » - ورسالة فرحات عمر عن « القانون العلمي » ، والمرحوم الدكتور حمزى إسلام عن « جون لوك » ، ود . أحمد فؤاد كامل عن « ليبنتز » . . الخ الخ

(١٤) « هموم المتقنين » - ص ٤٥ - ٤٦ (صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٨١) .

(١٥) قارن : قصة عقل - ص ٩٢ و ص ٩٤ . الخ .

مفكرينا التنويريين الذين قاموا بهذه النهضة منذ أوائل القرن الماضي وحتى يومنا الراهن . . . ١. ومن ثمّ فلا مندوحة لنا عن القيام بعرض سريع لمسار نهضتنا التي بدأت مع الحملة الفرنسية الى أن نصل إلى « زكي نجيب محمود » المفكر والأديب لتتعرف على إسهاماته في هذه النهضة .

مسار النهضة :

إذا كان المؤرخون الغربيون يحددون النهضة الأوربية بسقوط القسطنطينية عام ١٩٥٣ على يد الأتراك العثمانيين ، بعد أن فتحها محمد الثاني الملقب بمحمد الفتح - فإننا نستطيع أن نحدد « نهضتنا العربية » بغزو الغرب - هذه المرة للشرق على يد نابليون بونابرت وسقوط الاسكندرية عام ١٧٩٨ أو قبيل فاتحة القرن التاسع عشر بستين^(١٨). منذ ذلك التاريخ بدأ عصر نهضتنا الذي لازلنا نعيشه حتى يومنا الراهن دون أن نتجاوزه إلى ما يمكن أن نسميه في تاريخنا « بالعصر الحديث » . غير أن هذه الفترة الطويلة - التي طالت أكثر مما كان ينبغي لها ، لم تكن كلها مسطحة واحداً متصلاً - بل كانت متدرجة في مستويات ثلاثة كل منها يرتفع على سابقة بدرجة ، كالعصارة الإسلامية حين كانت تجعل الطابق الثاني من البناء أوسع رقعة من الطابق الأول ، ثم تجعل الطابق الثالث أوسع رقعة بدوره من الطابق الثاني ، فبرغم ما بين الطوابق الثلاثة المتعاقبة من استمرارية تجعلها عمارة واحدة كانت بينها فروق في السعة كل منها أوسع من سابقة^(١٩).

وأنه تجاوزه بعد أن تطور فكره وصلته التجارب : « علمتني خبرة السنين - بين ما علمتني - أن من أخطر مزالق الفكر أن أقيد نفسي في حدود إطار مذهبي ، تقيداً يجعلني أرجع في كل أموري إلى مبادئ مذهب معين ، فما وجدته متفقاً مع تلك المبادئ قبلته ، وما لم يتفق معها رفضته ، وذلك لأن الخبرة علمتني أن تيار الحياة أغزر جداً من أن يلزم به مذهب واحد بعدد قليل من المبادئ والقواعد ، ولذلك كان من التطور الطبيعي في حياتي الفكرية - دون أن أتعهد شيئاً عن تخطيط وتسيير - أن أجديني قد اتخذت لنفسي في اتجاهات الفلسفة المعاصرة إتحافاً هو في حقيقته « منهج للتفكير » ، لا « مذهب » يورط نفسه في مضمون فكري بذاته ، فكنت كمن وضع في يده ميزاناً يزن به ما يشاء ، دون أن يملأ يديه بمادة معينة لا بد أن تكون هي وحدها موضع الوزن والتقدير . . . »^(٢٠).

لم تكن الوضعية المنطقية ، إذن ، سوى مرحلة في فكر زكي نجيب محمود ، توقف عندها قليلاً ، وتأملها طويلاً ، ودرسها بعمق كيما يستفيد منها في هدف أعلى هو المهمة التنويرية التي يقوم بها^(٢١). ومن ثمّ فإننا نسيء فهمه أولاً ، ونظلمه ثانياً ، ونغفل الدور الكبير الذي قام به ثالثاً ، إذا ما توقفنا عند هذه المرحلة ، أو حكمنا على دوره من خلالها فحسب ، بل إن على الباحث الجاد ، إذا أراد أن يكون منصفاً لهذا المفكر ، أن يتتبع تطوره الروحي محاولاً أن يضعه في مكانه الصحيح من خارطة النهضة الثقافية العربية ، وبين كبار

(١٦) مجتمع جديد أو الكارثة ص ٢١٦ .

(١٧) وفي جميع الحالات يصعب أن نقول عنه أنه « كان داعية إلى الوضعية المنطقية التي تدر نفسه لشرحها وتفصيلها وتبسيطها . وأنه أمضى معظم حياته داعياً إلى الوضعية المنطقية وإلى عقلانية عربية جديدة ، وأنه نجح في تأسيس مدرسة وضعية منطقية عربية واسعة الانتشار . . . » الموسوعة الفلسفية العربية - المجلد الثاني ص ١٣ بيروت عام ١٩٨٩ .

(١٨) لاحظ أن هذه النهضة العربية لم تبدأ في الوطن العربي كله دفعة واحدة وفي وقت واحد - وذلك كانت الحال أيضاً في النهضة الأوربية ، إذ بدأت أولاً في إيطاليا ، ومنها انتشرت إلى فرنسا وأسبانيا وألمانيا - الخ - بل ربما كان في استطاعتنا أن نقول إن بعض الأنظار العربية لم تبدأ في الخروج من العصور الوسطى إلا منذ سنوات قليلة .

(١٩) مجتمع جديد أو الكارثة ص ٩٢ .

القبض . . .» (٢٢)؛ وقل مثل ذلك بالنسبة لبلاد الشام ، إذ يذكر « بورنج » أنه لم يكن في دمشق أو حلب بائع كتب واحد (٢٣) . حتى إن الحكومة المصرية تخشى تعليم الرياضة والطبيعة ونستفتي شيخ الأزهر « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالحساب والهندسة » ١٩ فيجيب الشيخ في حذر « يجوز مع بيان النفع من تعلمها » كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها ولم يكونوا من غترعيعها وذوي التفوق فيها» (٢٤) . على هذا النحو كان الوطن العربي منعزلاً منعزلاً على علوم العصور الوسطى يحفظ بعض الكتب ويحبرها ويكتفي بتقديم شرح على متن أو حاشية على شرح أ ولم يكن بينه وبين الشعوب الأوربية اتصال في جوانب الثقافة أو الصناعة أو نظم الحكم - الخ حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر تحمل معها صورا جديدة وأفكاراً وقيماً جديدة ، فأسهمت في كسر الحاجز الذي بناه العثمانيون من الخرافات والشعوذة حول عقول الشرقيين (٢٥) . ومن المصادفات الغريبة أن ينسحب الجيش الفرنسي في ١٥ أكتوبر عام ١٨٠١ - وهو نفس اليوم الذي ولد فيه رفاة الطهطاوي رائد النهضة الحديثة !

كان رفاة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) هو باذر البذور في المرحلة الاولى ، وهي البذور التي أخذت تنبت نباتها حتى استنفدت طاقاتها فجاءت خافتها ثورة عراقية - والبذور التي بذرها إنما هي فكرة الحرية في صورة الجنينية الاولى ، وهذه الفكرة هي المعيار الدقيق

وكان كل مستوى من تلك المستويات الثلاثة في مسار نهضتنا ينتهي بثورة تنقلنا إلى المستوى الأعلى ، لكن تلك الثورة كانت تحمي نتيجة لازمة للمخاض الفكري السابق عليها ، فتورة عرابي هي نهاية المرحلة الاولى ، وثورة ١٩١٩ هي نهاية المرحلة الثانية ، وثورة ١٩٥٢ هي نهاية المرحلة الثالثة .

فما هي هذه المستويات الثلاثة ؟ وكيف كان مسار نهضتنا منذ بدأت حتى الآن ١٩ وأين يوضع فكر زكي نجيب محمود في هذا المسار ١٩

المستوى الأول :

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر كان العالم الإسلامي عامة ، والوطن العربي خاصة يعيش : « ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقر مذمق » على حد تعبير أحمد أمين (٢٦) . ولقد وصف مسيو « قولني Volney » السائح الفرنسي الذي زار مصر والشام - هذه البلاد في آخر القرن الثامن عشر بقوله : « إن الجهل في هذه البلاد عام وشامل مثلها مثل سائر البلاد التركية يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية من أدب وعلم وفن ، والصناعات فيها في أبسط حالاتها ، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد مَنْ يصلحها إلا أن يكون أجنبياً » (٢٧) . ويتحدث غيره عن السذجين بلغوا من العلم مرتبة القراءة والكتابة فيقول : « إن مصر حين وليها محمد علي لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة ، باستثناء الكتبة من

(٢٠) - أحمد أمين « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » ص ٦ مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٩ ط ٤ .

(٢١) المرجع نفسه .

(٢٢) د . حسين فوزي التجار « رفاة الطهطاوي » ص ٣٩ (اعلام العرب - القاهرة) ويرى د . محمد عمارة في تعليقه على هذه الأرقام أنها تتحدث عن القاهرة فحسب إذ لم يكن هناك احصاء لاسيا بالنسبة لمن تعلموا القراءة في الكتاب في الريف - انظر كتابه « رفاة الطهطاوي : رائد التنوير في العصر الحديث » ص ٩ حاشية ١ .

(٢٣) - المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢٤) - أحمد أمين « زعماء الإصلاح » ص ٧ .

(٢٥) - د . محمد عمارة : « رفاة الطهطاوي » ص ١٣ .

لقياس درجات صعودنا فكلما ازدادت الحرية عمقاً ، ازداد ارتفاعنا على طريق النهضة درجة بعد درجة (٢٦) . ويكتب الطهطاوي في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » فصلاً بعنوان : « في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية » - أي في الحرية العامة والمساواة بين أبناء المجتمع - وهو يُقسّم هذه الحرية خمسة أقسام : طبيعية في المأكسل والمشرب ، وسلوكية في إطار الأخلاق ، ودينية تكفل حرية العقيدة ، ومدنية تُنظّم التعامل بين الناس ، وسياسية وهو أن تكفل الدولة للمواطن الحريات السابقة .

فالحرية السياسية لم تكن تعني عنده مشاركة الشعب في الحكم فذاك أمل بعيد المثال ! على أن هذه الحريات تتضمن « المساواة » فهي تنصرف إلى جميع المواطنين على حد سواء ، لم يفرق بين رجل وامرأة ، ومن ثمّ يمكن اعتباره أول من دعا إلى حرية المرأة دعوة انتهت إلى ذروتها عند قاسم أمين . كما أنه كان أول مَنْ بشرَ بالديمقراطية السياسية التي صاغها فيما بعد أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) بل كان الطهطاوي بمثابة الصيحة الأولى « نحو الإصلاح الزراعي » بالمعنى الاشتراكي الذي نفهمه اليوم ، عندما كتب فصلاً عنوائه « مطلب في تقسيم الأرض بين مالكيها وزراعيها » : « ينحرف فيه باللائمة على مُلاك الأرض الذين لا يعطون الأهالي إلا بقدر الخدمة والعمل ، وعلى مقدار ما تسمح به نفوسهم في مقابل المشقة ! » (٢٧) .

وفي نفس هذه المرحلة ظهر جمال الدين الأفغاني

(١٨٣٩ - ١٨٩٧) ليجد التربة المصرية قد أصبحت صالحة للثورة بفضل التنوير الذي أحدثه الطهطاوي بتعاليمه : « لقد جَرَّب الأفغاني أن يذّر بذوراً في فارس والاستانة ، فلم تنبت ثم جَسَّهسا في مصر فأثبتت . . » (٢٨) . ثماني سنوات قضاهما الأفغاني في مصر (من مارس ١٨٧١ حتى أغسطس ١٨٧٩) كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقي ، لأنه كان يدفن في الأرض بذوراً تنهياً في الحفاء للنهـاء ، وتستعد للظهور ثم الإزهار فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها » (٢٩) .

والأفغاني ، إلى جانب اهتمامه بفكرة « الحرية » يهتم أيضاً بفكرة صاحبها منذ بداية النهضة حتى الآن وأعني بها « الأحكام إلى العقل » فيؤلف رسالة في الرد على الدهريين (أو الماديين) يحتكم في كل خطوة من خطوات السير إلى ما ظنّ أنه حجة عقلية فهو مثلاً يحاول البرهنة على أن نظرية التطور تقوم على الصدفة على حين أن نظام الكون نظام مدبر ، ولا يجوز عند العقل أن تلد المصادفات العمياء مثل هذا النظام المحكم ، كما أن نظرية التطور تجعل اللامتناهي ينتج عن المتناهي ، وهو مالا يجوز عند العقل . . . الخ (٣٠) .

لكن الأفغاني ، وإن يكن قد اضطلع بدوره على الضوء الذي ألقاه رفاة الطهطاوي من قبله ، فقد ارتفع بفكرة الحرية على المستوى الأول نفسه ، عندما نقل الولاء للحاكم الذي افترضه الطهطاوي ليجعله ولاء للشعب (٣١) .

(٢٦) - مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٣ .

(٢٧) - مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٤ .

(٢٨) - أحمد أمين : زهاء الإصلاح ص ٦٨ .

(٢٩) - المرجع السابق .

(٣٠) - من زاوية فلسفية ص ١٠ .

(٣١) - مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٤ .

بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر الى الله في علمه .
والطريق الثاني تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة
حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . . . (٣٥) .

وعلى المسرح ظهر من العمالقة قاسم أمين (١٨٦٥ -
١٩٠٨) بدعوته الى تحرير النصف المستعبد من الأمة
أعني المستعبد مرتين : فهو أولاً مستعبد من الرجل ثم هو
والرجل مستعبدان للمستعمر ! كما ظهر مصطفى كامل
(١٨٧٤ - ١٩٠٨) بزعامته السياسية التي اتجهت نحو
تحرير البلاد من المستعمر . وأحد لطفي السيد (١٨٧٢ -
١٩٦٣) وإصراره على أن تُقيد الحكومة سلطانها ،
بحيث لا تسيطر الا على ما تدعو الضرورة الى سيطرتها
عليه وهي ثلاثة : الجيش ، والشرطة ، والقضاء . وفيما
عدا ذلك من المرافق والمنافع فالولاية للأفراد والمجاميع
الحرّة ! وكان من أبرز مبادئ الحركة الليبرالية التي قادها
لطفي السيد مبدأ : أن تكون السيادة للقانون لا
للأشخاص وأن يحكم الحاكم بإرادة الشعب لصالح
الجمهور كله لا لصالح طبقة معينة أو فرد بذاته ، ثم
مبدأ أن تكون مصر للمصريين ، ولكنه هذه المرة أوسع
معنى مما كان عليه في شعار الثورة العربية : لأن معناه
هذه المرة أن تستقل مصر عن الأتراك مع استقلالها عن
الإنجليز . وكان من مبادئه أيضاً أن حرية الوطن لا
تتحقق إلا إذا تحققت حرية المواطن ، على أن حرية
المواطن لا تتحقق الا في ظل حرية سياسية يكون معناها
أن يشترك كل فرد في حكومة بلاده اشتراكاً تاماً كاملاً ،
وهذا هو معنى ما نسميه سلطة الأمة ! وهنا نلاحظ الوثبة
الهائلة التي انتقلنا بها من المعنى الضيق للحرية السياسية
كما فهمها السطهطاوي الى معناها كما حدده لطفي

وهكذا اشتدت الإرهاصات الفكرية في المرحلة
الأولى حتى تمخضت أخيراً عن ثورة عرابي التي
كانت أول ثورة رفعت شعار مصر للمصريين ، وإن
كانت قد اكتفت بإزالة الحرمان عن المصري دون أن
تشكك في حقوق الفئات الأخرى الدخيلة من أتراك
وجراكسة ! (٣٦) .

المستوى الثاني :-

انتهت ثورة عرابي بدخول المستعمر البريطاني مصر
عام ١٨٨٢ لتبدأ المرحلة الثانية في مسار نهضتنا الحديثة
- وهنا يظهر على المسرح عمالقة يشدون الأبصار
والأسماع : الامام محمد عبده (١٨٤٩ -
١٩٠٥) (٣٧) . يناضل ليحرر حياتنا الدينية مما علّقَ
بها من خرافة ، ولينجوعقول الناس من ظلمة الجهل ،
غير أن أهم ما عني به هو توضيح العقائد الأساسية في
الاسلام توضيحاً يُبين استنادها الى منطق العقل فتراه في
كتابه « الاسلام والنصرانية » يفضل القول في الأصول
التي يقوم عليها الاسلام ، ويجعل الأصل الأول لهذا
الدين هو « النظر العقلي » يقول « أول أساس وضع عليه
الاسلام هو النظر العقلي ، والنظر عنده هو وسيلة
الايان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة ،
وقاضاك الى العقل ، ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن
الى سلطنته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يشور
عليه ؟ ! » (٣٨) . أما الاصل الثاني للاسلام فهو
« تقديم العقل على ظاهري الشرع عند التعارض ، فقد
اتفق أهل الملة الاسلامية على أنه إذا تعارض العقل
والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل
طريقان : طريق التسليم بصحة النقل مع الاعتراف

(٣٦) - المرجع نفسه .

(٣٧) - تشاء ترتيبات القدر أن يموت الامام محمد عبده في نفس العام الذي يولد فيه زكي نجيب محمود حتى لا تنقطع حلقات التتبع فإذا مات رائد ظهر في أثره رائد جديد !

(٣٨) - محمد عبده « الاسلام والنصرانية » ص ٥١ مكتبة محمد صبيح عام ١٩٥٤ .

(٣٩) - المرجع السابق ص ٥٢ .

ذكر جان جاك روسو ، وفولتير ، وراسين وموليير ودوركايم . . الخ . ثم التقت الجمعيتين في تحرير جريدة أسبوعية اسمها « السفور » تدافع عن آراء قاسم أمين في تحرير المرأة وتدعو إليها (٣٨) .

غير أن هذه المرحلة تشهد أبعاداً جديداً لفكرتي « الحرية » و « العقل » لم تطرأ للسابقين على خاطر . فهي هو عباس العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) يدعو إلى تحرير الشعر والفن بصفة عامة ، ويتهي إلى نظريته الشهيرة التي تذهب إلى « أن الجمال والحرية وجهان لحقيقة واحدة » ، في الوقت نفسه فكرة التحرر تشمل الموسيقى فهي هو سيد درويش (١٨٩٣ - ١٩٢٣) يعمل على تحرير الموسيقى من صيغتها القديمة التي كانت تستهدف الطرب لتصبح تصويراً أو تعبيراً لما يتردد في صدور الناس بكل فئاتهم . وهذا طلعت حرب (١٨٦٧ - ١٩٤٢) يدعو للتحرير الاقتصادي بإنشائه لبنك مصر وشركاته ، وهنا علي عبد الرزاق يجر مفهوم الحكومة الإسلامي من تقليد الخلافة ويصدر كتابه الشهير « الاسلام وأصول الحكم » عام ١٩٢٥ يعلن في آخر فقراته أن « الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون . ويرى من كل ما هياؤا حولها من رغبة ورهبة ومن عزة وقوة . ان هذه الخطط السياسية لا شأن للدين بها ، وإنما تركها لنا لنترجع فيها إلى أحكام العقل ، ونحارب الأمم وقواعد السياسة » (٣٩) .

كذلك كان طه حسين فيما كتب داعياً إلى الفكرتين معا « الحرية » و « العقل » ، أو قل إنه كان يدعو إلى الحرية الفكرية بالتزام المنهج العقلي الصرف ، حتى في

السيد . هذا كله فضلاً عما سعى إليه لطفي السيد من تطوير التعليم الذي أراد له أن يكون تنمية للحرية الفكرية بعد أن كان منحصراً في إعداد الموظفين للحكومة ، وكذلك أيد لطفي السيد دعوة قاسم أمين في حرية المرأة . لكنه هنا أيضاً قفز بالمعنى المقصود عالياً ، فبعد أن كانت حرية المرأة عند قاسم أمين تعني أن تكشف المرأة عن وجهها برفع الحجاب ، أصبحت عند لطفي السيد تعني حق المرأة في التعليم حقاً مساوياً لحق الرجل فيه . وتخفضت هذه الإرهاصات الفكرية عن ثورة ١٩١٩ التي انتقلنا بها درجة أعلى (٣٦) .

المستوى الثالث :

على الرغم من أن زكي نجيب محمود ولد في المرحلة السابقة ١٩٠٥ فان تكوينه العقلي أولاً ، ثم إنتاجه الفكري بعد ذلك ، كان ولا يزال ، داخل هذا المستوى الثالث ، فهو في مرحلة التكوين في عشرينات القرن وثلاثيناته . يُقبل إقبالاً شديداً على متابعة الحياة الثقافية متابعة كادت ألا تترك كتاباً أو مقالة مما كان يكتبه أعلام الحركة الفكرية والأدبية في مصر لا سيما في الفكرتين الرئيسيتين « فكرة الحرية » من ناحية ، و « فكرة العقل » من ناحية أخرى (٣٧) .

ولقد كانت حياته الثقافية في هذين العقدين نشطة ، فيذكر أحمد أمين مثلاً في كتابه « حياتي » أنه كانت هناك مدارس الأصدقاء من ذوي الثقافة الانجليزية يكثر فيها الحديث عن شكسبير وديكنز ، وماكولي ، وشو ، وه . ج . ويلز . . الخ وجمعية أخرى من أصدقاء من ذوي الثقافة الفرنسية يكثر فيها

(٣٦) - مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٦

(٣٧) - قصة عقل ص ١٦ .

(٣٨) - أحمد أمين ، حياتي ، ص ١٧٢ - ١٧٣ دار الكتاب العرب بيروت ١٩٧١ ط٢

(٣٩) - علي عبد الرزاق ، الاسلام وأصول الحكم ، ص ١٨٢ . المؤسسة العربية للدراسات - نشرة مع وثائق المحاكمة د . محمد عمارة .

« بين السماء والأرض » . . الخ . . والحق أنه هو نفسه يجسد ، بما له من إمكانات في مجالات شتى ، هذه الثنائية يقول : « إنني بمثابة عدة أشخاص في جلد واحد ، فهناك مَنْ تحرفه العاطفة ولا يقوى على إلجامها ، ولكن هناك الى جانبه مَنْ يوجهه إليه اللوم ويحاول أن يشكمه حتى يقيد فيه الحركة التي تقذف به الى الهاوية ، على أن هذا الشد والجذب في داخل النفس بين عاطفة تشتعل وعقل يزيد اشتعالها لا يمنع أن ينعم الإنسان بلحظات هادئة تتصالح فيها العاطفة والعقل فيسيران معا في اتجاه واحد . . » (٤٣) .

علينا الآن أن نبدأ من البداية لنعرف قصة هذه الثنائيات ومحاولة التصالح التي حاول أن يقوم بها مفكرنا الكبير ناظراً إليها على أنها « قطب الرمح » في نهضتنا الثقافية الحديثة .

ثنائيات كثيرة وجذورها واحدة :

للثنائية الفلسفية صور شتى : منها النظرة الثنائية الى العالم التي تستهدف تفسيره بمظورين مختلفين : وتلك هي الثنائية الاستمولوجية . ومنها القول بوجود جوهرين متميزين في عالم الواقع . وتلك هي الثنائية الميتافيزيقية : ثنائية الله والعالم ، المادة والروح ، وما يتفرع عنها من ثنائية بين الجسم والذهن . . الخ . كما أننا نستطيع كذلك أن نقول إن هناك ثنائية ثقافية أو حضارية تتمثل في القول بوجود ثقافتين مختلفتين ، لكل منها خصائص معينة تتميز بها عن الثقافة الأخرى .

غير أن هذه الصور المختلفة من « الثنائية » ليست منفصلة أو متباعدة على نحو ما تبدو لأول وهلة ، إذ أننا

البحوث التي قد تبدو غير خاضعة لذلك المنهج فهي هو يقول « أريد أن أصطنع في الأدب ، هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثته ديكرت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية في هذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما . (٤٠) . وهنا أحد أمين (١٨٨٧ - ١٩٥٤) ولجنة التأليف والترجمة والنشر بما رفعته من مصابيح يرى الناس على أضوائها ثقافة الإقدمين والمحدثين (٤١) .

وأخيراً نصل إلى زكي نجيب محمود الذي يكمل بإنتاجه الغزير وفكره القوي الواضح ، وتحليلاته العقلية لكثير من المفاهيم والأفكار السائدة - هذه الحركة التنويرية الكبرى التي بدأت في القرن الماضي وامتدت حتى يومنا الراهن - وهو نفسه يلخص دعوته في عناصر رئيسية تجمع الأفكار التنويرية السابقة وتزيد عليها يقول - « أنا أدعو بكل قوتي الى أن نزيد من اهتمامنا « بالعلم » حتى ولو جاء ذلك على حساب الجانب الوجداني وأدعو الى الأخذ بأسس الحضارة العصرية وما يتبعها من ثقافة ، ثم أدعو الى البحث عن صيغة تصون لنا هويتنا دون أن يضيع منا العيش في عصرنا . . تلك خطوط واضحة أدت عليها كل ما بذلته من جهود . . » (٤٢) . وسوف نرى بعد قليل كيف أنه يلخص في أعماقه مسار النهضة السابقة كلها ، وكيف أنه يقدم مشروعاً حضارياً يضم كثرة من الثنائيات - هي التي ظهرت في نهضتنا الثقافية طوال قرن ونصف : ثنائية بين « العقل والوجدان » ، ثنائية بين « المادة والروح » ،

(٤٠) - « في الشعر الجاهل » ص ١١ مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٢٦ ثم بعد ذلك في الألب الجاهل ص ٦٩ مجلد ٥ من المؤلفات الكاملة .

(٤١) - مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٦ - ٦٧ .

(٤٢) - قصة عقل ص ٨ .

(٤٣) - المرجع نفسه ص ٦ .

مثلا نستطيع أن نستخلص من النظرة الثنائية الى الكون - وهي الثنائية الميتافيزيقية أو الانطولوجية نظرية خاصة في تحليل المعرفة^(٤٤) . كما أننا قد نجد أن خصائص الثنائية الثقافية مرتبطة في كل حضارة بنظرة خاصة الى الواقع وتحليل معين للمعرفة^(٤٥) .

وفي استطاعتنا أن نقول إن « زكي نجيب محمود » المفكر والأديب يُجسّد في شخصه وفي إنتاجه الفكري هذه الثنائيات جميعا التي تعبر أدق تعبير عن مشكلاتنا الفكرية والثقافية منذ بداية عصر النهضة العربية في القرن الماضي كما سبق أن ذكرنا وحتى يومنا الراهن . ولم تكن الفلسفة العربية التي اقترحها في « تجديد الفكر العربي » بما فيها من ثنائيات بين السماء والأرض ، أو بين الله والانسان ، أو بين العقل والوجدان . . الخ إلّا تلخيصاً للثنائية التي يعيشها مجتمعنا العربي وخبرها مفكرنا الكبير منذ بداية نضجه العقلي . ولعل المشكلات التي تثيرها هذه الثنائية وما تسببه من حيرة وقلق كانت من بين الدوافع التي دفعته الى « الوضعية المنطقية » ، فلم تكن اللحظة النادرة التي تحدث عنها في ربيع عام ١٩٤٦ أو أحس فيها بما يشبه اللمحة الذهبية ، تتوقد لتضيء له الطريق - سوى عثور على حل لمشكلة الثنائيات التي وجدها في ثقافة مجتمعة ، بل أحس بها في أعماقه ، ومن ثمّ فليس غريباً أن يصف هذا الموقف الفلسفي الجديد الذي فرق له بين مجال الوجدان - ومجال العقل - بهذه العبارات ذات الدلالة الواضحة : « لقد أراد لي توفيق الله » ، منذ بدأت حياتي العقلية المنتجة أن أقع على طريق من طرق التفكير الفلسفي ، رأيته كأنما خلّقت له وخلّقت لي ، ثم رأيته

وكأنه أنسب ما أقدمه في عالم الفكر لأمتي ، لأنه إذا كان الغموض والخلط بين المعاني أحد الأمراض العقلية التي أصابت أمتي ، فتلك الطريقة من طرق التفكير هي من أنجح وسائل العلاج ، وأما تلك الطريقة فهي أننا إذا كنا في مجال العلم « فلا بد أن يجيء القول الذي نقوله مما يطابق الواقع عند التطبيق . . أما مجالات القول الأخرى فلنكل مجال منها معياره الخاص . . »^(٤٦) . وعلينا أن ننتبه جيداً الى أمثال هذه العبارات الهامة التي تدلّ أولاً على أنه كان يعاني من مشكلة الثنائية بين مجالي العلم والوجدان ، وأنه كان يعتقد أن الخلط بينهما ، بله الخلط بين المعاني والافكار والمفاهيم مرض يسود ثقافتنا ، وأنه وصل الى الوضعية المنطقية بوصفها حلاً منطقياً لما تعانيه هذه الثقافة من اضطراب ومشكلات لا سيما في تفرقة هذه الفلسفة الأساسية بين هذين المجالين الرئيسيين من مجالات القول ، ولهذا فأننا كثيراً ما نجد يعبر عنها كما لو كان يعرفها من قبل ! فهذا الموقف الفلسفي الجديد الذي عثر عليه في لحظة نادرة من ربيع ١٩٤٦ كان على حدّ تعبيره : « كأنما هو ثوب فُصّل على طبيعة تفكيري تفصيلاً جعل الرداء على قد المرتدي ، بل اني شعرت في اللحظة نفسها بأنه اذا كانت الثقافة العربية بحاجة الى ضوابط تُصلح لها طريق السير ، فتلك الضوابط تكمن ها هنا . . »^(٤٧) . ونحن نستشف من هذه العبارات أنه كان يعاني بالفعل مشكلات ثقافية هي تلك الثنائيات التي سوف نتحدث عنها بعد قليل وأن فكره كان يتجه في مجرى معين قبل أن يتعرف على الوضعية المنطقية فلما عرفها شعر أنها جاءت ملائمة تماماً لمجسرى هذا التفكير !

(٤٤) - تجديد الفكر العربي ص ٢٨١ .

(٤٥) - في « الشرق والغرب » عرض لخصائص هذه الثنائية الثقافية وسوف نعود الى هذا الموضوع .

(٤٦) - « قيم من التراث » ص ١١٧ - ١١٨ .

(٤٧) - قصة عقل ص ٩٢ .

واللا معقول في تراثنا الفكري « و » ثقافتنا في مواجهة العصر «^(٥٠) أقول لم تكن هذه النظرة « جديدة إلا في وضوح معالمها ، وتحديد خطوطها الرئيسية ، على نحو محدود متميز - ولهذا فقد كان على حق تماماً في قوله : إن هذا البناء الفكري الجديد جاء ليكمل ، لا لينقص ، ما أنجزه خلال الخمسينات من تحديد لمنهج التفكير العلمي «^(٥١) .

ذلك لأن بذور هذه الثنائية كانت قائمة في أعماق وجوده متغلغلة في تفكيره طوال حياته على نحو متوازن بين العقل والوجدان ، وهويرجو أن يحدث هذا التوازن في ثقافتنا العربية ، ونحن عندما نقول إنه يجسد في شخصه هذه الثنائية المتوازنة والمرجوة لمجتمعنا ، فإننا نقصد المعنى الحرفي لهذه العبارة ، فهو عندما أراد ، مثلاً ، أن يكتب سيرته الذاتية لم يجد أمامه مقرأً من تصويرها في قالب « ثنائي واضح » فيكتب كتابين منفصلين : « قصة نفس » يحكي أعماق الجانب الذاتي الباطني غير المرئي ، ثم « قصة عقل » الذي يروي تطوره العقلي في فترة تزيد على ستين عاماً ! وإنك لتلمس هنا وهناك ، داخل كل كتاب من هذين الكتابين ، ضرباً واضحاً من الثنائية لا سيما ثنائية « العقل والوجدان » « ثنائية العالم والفنان » . . . وهو عندما يريد ، مثلاً آخر ، أن يتصور نفسه من الداخل في « قصة نفسي » يختار لها شخصيتين رئيسيتين تمثلان هذه الثنائية بوضوح كامل : شخصية الأحدث « رياض عطا » صاحب الوجدان الملتهب ، وشخصية « إبراهيم الخولي » صاحب العقل الواضح والأسلوب العلمي «^(٥٢) . ويدور حوار أحياناً - يتقلب

ثنائية العقل والوجدان سمة أساسية في حضارة الشرق ، وهي كذلك عند مفكرنا ، ولهذا كان زكي نجيب محمود في أعماقه ، وفي حياته ، وفكره ، كأنما هو التجسيد الحي « للشرق الفنان » الذي يجمع بين النظرة الذاتية المباشرة إلى الوجود التي تجعله خطرة من خطرات النفس أو نبضة من نبضات القلب . وهي نظرة الروحاني المتصوف والشاعر والفنان . . . وبين نظرة العالم الذي يقيم بينه وبين الكائنات حاجزاً من قوانينه ونظرياته «^(٥٣) . لكن هذا الشق الثاني غير موجود الآن وتلك هي مشكلة الشرق « الأوسط » وتلك هي مشكلة الثنائية في الثقافة العربية التي عاناها مفكرنا منذ مطلع نضجه العقلي ، ولم يستطع أن يوفق بينها فكيف يجتمع العقل والوجدان في تصور نظري عام . . . ؟ ثم جاءت الوضعية المنطقية لتعطيه تفرقة بين مجالين كان يستشعرهما بداخله ، فكأنما أعطته الإطار النظري الذي كان يبحث عنه ، وأن كانت استفادته من هذا المذهب لم تعد الخطوط العريضة التي تُعينه على حل مشكلاته ، ومشكلات أمته الفكرية ، من حيث هو « منهج » دون أن يتقيد بحرفيته كمذهب أو يورط نفسه في مضمون فكري بعينه « : فكنتُ كمن يضع في يده ميزاناً يزن به الأشياء ، دون أن يملأ يديه بمادة معينة لا بد أن تكون هي وحدها موضع الوزن والتقدير . . . «^(٥٤) .

وعلى ذلك فإن النظرة الثنائية التي لخصها في كتابه « الشرق الفنان » عام ١٩٦٠ ووصفها بأنها كانت بمثابة حجر الزاوية في بناء فكري جديد ظهرت معالمه الكبرى خلال السبعينيات في « تحديد الفكر العربي » و « المعقول

(٥٨) - « الشرق الفنان » ص ٧ - ٨ .

(٥٩) - مجتمع جديد أو الكارثة ص ٢٤٦ .

(٥٠) - قصة عقل ص ١٧٦ .

(٥١) - المرجع نفسه في الصفحة نفسها .

(٥٢) - قصة نفس ص ٢١٦ .

الى صراع أحيانا أخرى - بين هاتين الشخصيتين بحثنا عن الكيفية التي يمكن بواسطتها التوفيق بين « العقل والوجدان » بحيث يكون هناك إنسجام أو توازن بين هذين الجانبين فلا يطفئ جانب على جانب - يقول الثاني للأول توضيحاً لموقفه : « لست أقل منك حرصاً على مشاعر الإنسان وآماله ومثله العليا . هذه المشاعر والآمال والمثل التي زعمت لي في خطابك الأخير أنني سأثر بمذهبي نحو هدمها . كل ما هنالك من أمر في هذا الصدد هو أنني أفرق بين لغة العقل ولغة الشعور ، فمن لا يريد أن يتحدث عما يقع في حسه مما يتاح للآخرين أن يراجعوه فيه بحواسهم فهو لا يريد أن يتحدث بلغة العقل . وليس في ذلك رفع ولا خفض للغة المشاعر ، بل الأمر أمر تفرقة بين نوعين مختلفين من الكلام . فإذا كان المجال مجال علم فلا يجوز للشعور أن يتسلل الى سياق الحديث بالفاظه الدالة على وجدان ، أما إذا كان المجال مجال أدب وفن فليختر ما يشاء من لفظ ليشير في سامعه المشاعر التي يقصد الى إثارتها فيه . . . فلنعط ما للعقل للعقل وما للشعور للشعور » (٥٣) .

مباديين القول كالمشعر ، وغيره من ضروب التعبير الفني ، فلها شروط أخرى خاصة بها يعرفها المشتغلون بتلك المباديين (٥٤) . ومن ثم فلا يجوز أن يكون هناك خلط بين فلسفة ودين ، وبين عقل وإيمان ، بين منطق وفن . . الخ . وهذا هو الموقف الذي أرادته لأبناء أمته أن يستخلصوه من تراثهم - شكلاً لا مضموناً - وهو ألا يجعلوا بين العقل والإيمان تعارضاً ، بل أن يجعلوا بينهما تعاوناً للوصول الى هدف واحد ، فلكل من الأداتين قسطها من الفهم وتنظيم السلوك (٥٥) . فيكون موقفنا كمن استكثر أن يترك العقل وحده حكماً في الميدان فقالوا : نجعل للإيمان قسطاً وللعقل قسطاً . . (٥٦) فهو إذا كان « عقلانياً » متحمساً للعقل على نحو ظاهر فذلك لأن هذا الجانب ناقص في ثقافتنا ، لكن ذلك لا يعني أنه يحمل ذلك الجانب الآخر أعني جانب الخيال والوجدان يقول : « مَنْ يقرأ لي فيراني متلفعاً بمنطق العقل رائحاً وغادياً ، قد لا يعلم أن لي خيالاً يشتغل لأتفه المؤثرات اشتعالاً يكتسح أمامه كل ما يعترض طريقه من قوى النفس الأخرى . . » (٥٧)

- البدايات الأولى للثنائية الاستمولوجية :

يحدثنا في قصة عقل أنه كان في العشرينات من عمره ، وبعد تخرجه مباشرة ، صاحب لمحة صوفية : « نزع إليها صاحبنا منذ فراغه من دراسته ، وأخذت تعاوده حيناً بعد حين وامتدت معه أعواماً جاوزت أعدادها عشرة » (٥٨) . لكنها لم تنته بعد هذه الأعوام العشرة ، كما قد توحي هذه العبارة ، وإنما أعيد تشكيلها

ولعلك تلمح في هذه الوقفة الفلسفية الأثر الواضح الذي تركته الوضعية المنطقية في طريقة تفكيره : فهناك شروط ينبغي مراعاتها في أية جملة يريد لها صاحبها أن تكون ذات معنى مفهوم عن الطبيعة الخارجية ، أو أي جزء محدد من تلك الطبيعة ، وذلك مجال واحد من مجالات الكلام ألا وهو المجال العلمي . أما ما عداه من

(٥٣) - قصة نفس ص ١٨٢ .

(٥٤) - قصة عقل ص ١٠٨ ولتارن مقدمة الطبعة الثانية من « موقف من الميتافيزيقا »

(٥٥) - تجديد الفكر العربي ص ١٣٦ .

(٥٦) - المرجع نفسه ص ١٧١ .

(٥٧) - من الحرية المحدث .

(٥٨) - قصة عقل ص ٢٠ .

الأعوام نفسها (الأعوام التي سيطرت فيها النظرة الصوفية) كانت تغلب عليه النظرة العلمية الصارمة التي لم تكن تريد له أن يأذن لشيء في الوجود كله أن يفلت من قبضة العلم ، لا يستثني من ذلك القيم الخلقية نفسها وما نسميه بالمثل العليا . . « (٦٢) » .

وهذه الثنائية الاستمولوجية التي عانى منها في صدر الشباب هي التي لخصها بوضوح شديد في « الشرق الفنان » فيها بعد ورأى أن جانباً منها وهو « النظرة الصوفية » يمثل خاصية أساسية في نظرة الشرق الأقصى إلى العالم ، في حين أن الجانب الآخر وهو « النظرة العلمية » يمثل الخاصية الأساسية للفكر الغربي . أما ثقافتنا العربية فهي تحاول - أو ينبغي لها أن تحاول - الجمع بينهما يقول : « هما إذن ، نظرتان ينظر الإنسان بأي منهما إلى نفسه وإلى العالم ، أو ينظر بكلتيهما : بهذه مرة وبذلك مرة أخرى . ذلك أن الإنسان إذ يقف إزاء الحقيقة الخارجية ، فلما أن ينظر إليها خلال ذاته فيشبهها بنفسه تشبيهاً يدمج الطرفين في كائن واحد ، وتلك هي وقفة الفنان أو المتصوف ومن لفّ لفها . ولما أن ينظر إليها ، وكأنه متفرج يتابع ما يجري أمامه على مسرح الحوادث فيصفه وصفاً يصلح لنفسه ولغيره من الناس على حد سواء ، وتلك هي نظرة العالم ومن يجري مجراه في التفكير . وثالث الفروض أن يجمع بين النظرتين ليفرق بين أمرين ، فإن كان موضوع النظر وجداناً ينبض به قلبه إزاء الكون نظر إليه بالنظرة الأولى ، فكان فناناً أو متصوفاً ، وإن كان موضوع النظر ظواهر الأشياء الخارجية نظر إليه بالنظرة الثانية فكان عالماً أو ذا نزعة علمية . . والنظرة الأولى هي طابع الشرق الأقصى

لتتحول إلى نظرة الفنان التي تحدث عنها فيما بعد ووصفها بأنها سمة الشرق الصوفي (٥٩) . في هذه الأعوام الأولى نجد أمامنا شاباً يؤمن « بوحدة الوجود » ، ويكتب عنها مقالاً لينشره سلامه موسى في « المجلة الجديدة » ويكون الدافع إلى كتابة المقال « رؤية ذاتية إلى الوجود » سوف يتحدث عنها بعد ذلك « في الشرق الصوفي » - فهو يسير وحده بين الحقول في الربيع ، ويقف طويلاً أمام ماشية ألقيت أمامها أعواد الذرة لتعلم فتدور في ذهنه صور متلاحقة لألوان من الوجود يعتمد بعضها على بعض ويتحول بعضها إلى بعض ، نبات يتغذى من عناصر الأرض وحيوان يتغذى من النبات ، وإنسان يتغذى من لحم الحيوان تغذية تسري في دماائه وفي أعصابه ، فإذا هو يخرج غذاءه ذاك علماً وفلسفة وشعراً ، وتملؤه هذه الفكرة فيعود ليكتب مقالة عن « وحدة الوجود » (٦٠) وعندما تدور الأيام متقلبة به بين سبل الفكر ، فإنه يظل مُبْقِيّاً في أعماقه على فكرة « وحدة الوجود » التي تعاوده بين الحين والحين ، ولعل أجمل ما كتبه فيها بعد ذلك مقال بعنوان « درس في التصوف » نشر في عدد خاص من الرسالة في ٣ مارس ١٩٤١ - وهو عبارة عن حوار بين أستاذ متصوف مؤمن بوحدة الوجود وتلميذه الشاب الذي يظهر في أول الدرس عابساً نافرأ مما يقوله الأستاذ ، ولقد لخص هذا المقال في قصة عقل (٦١) .

غير أن هذه النظرة الصوفية التي تجلّت في كثير من المقالات ، والتي كانت تعاوده حيناً بعد حين ، وامتدت معه أعواماً طويلة (والواقع أنها مازالت موجودة حتى هذه اللحظة) - لم تكن قائمة بذاتها ، بل صاحبها نظرة علمية صارمة ، يقول عن نفسه إنه : « خلال تلك

(٥٩) الشرق الفنان ص ١٧

(٦٠) قصة عقل ص ١٨

(٦١) ص ١٩ - ٢٠

(٦٢) قصة عقل ص ٢٠

والثانية هي طابع الغرب^(٦٣). وأما تألف النظريتين فهو مميز تميزت به ثقافة الشرق الأوسط في عصور ازدهارها ، عندما بلغت حضارتها أوجها^(٦٤). انظر إلى العالم من داخل تكن فناً ، أو انظر إليه من ظاهره تكن من رجال التجربة والعلم . انظر إليه وجوداً واحداً حياً تكن من أصحاب الخيال البديع المنشئ والخلاق ، أو انظر إليه كثرة من ظواهر يصحب بعضها بعضاً ، أو يعقب بعضها بعضاً ، تكن من أصحاب النظر العقلي الذي يستدل النتائج وقيم الحجج والبراهين ، ذلك بطبيعة الحال ، بل ينبغي لك أن أردت لنفسك تكاملاً الجانبيين ، أن تجمع بين النظريتين فتصبح الفنان حيناً ، والعالم حيناً . ولقد اجتمع الطرفان : العقل والوجدان ، في ثقافة الشرق الأوسط - وهو في قمة مجده - على نحو من التوازن الذي ربما لم يتحقق بالدرجة نفسها في أية ثقافة أخرى . والمشكلة في هذه الثقافة الآن أن كفة الوجدان طاغية ، فليس ثمة توازن وإذا قلنا ثقافة الشرق الأوسط فإنما يعنيها منها الثقافة العربية بصفة خاصة^(٦٥) . وهي ثقافة يجسدها مفكرنا الكبير على نحو صارخ ، ولهذا فلم تكن مصادفة ، كما يقول هو نفسه : « حين أنشئ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أو وجد نفسه عضواً في لجنتين من لجانه : لجنة الفلسفة ولجنة الشعر . كما وقع عليّ اختيار وزارة الثقافة - في الوقت نفسه تقريباً ، عضواً في لجنة تفرغ الفنانين

والأدباء ، وعضواً في لجنة المقتنيات الفنية ، ولبتت عضواً في تلك اللجان التي جمعت بين الفلسفة والآداب والفن ما يقرب من عشرة أعوام أو زيد عليها . . »^(٦٦) كما أنه ينال التقدير مرتين : مرة جائزة الدولة للفلسفة ، وأخرى جائزة الدولة للآداب^(٦٧) . وفي مقالات الأهرام امتزجت الشخصيتان على حد تعبيره ، في هوية واحدة : فالفكر ذو أعماق وأبعاد ، والانفعال الوجداني ذو حرارة ونبض^(٦٨) . لكن ذلك كله لا يعني أن تشخيصه للثنائية المميزة للثقافة العربية - إنما هو « إسقاط » لا أكثر ولا أقل ! فسوف نتبين فيما بعد كيف برزت هذه الثنائية واضحة في الحضارة الإسلامية ، وسوف نلتقي بكثير من الأمثلة التي تؤيد هذه القضية ، فثنائية « العقل والوجدان » - سمة تميزت بها ثقافتنا في عصور ازدهارها ، فلما مالت هذه الحضارة إلى الانحدار حدث الخلل بين الكفتين فرجحت كفة العاطفة والوجدان على نحو صارخ ، ومهمتنا أن نعيد التوازن إلى ما كان عليه أيام الازدهار بأن نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله^(٦٩) .

ثنائية أنطولوجية :

إذا كانت التفاعلية الفلسفية هي في صميمها حفر تحت أرض الواقع الفكري ، لعننا نصل إلى الجذور الدفينة التي ينبثق عنها هذا السواقع - فقد قام

(٦٣) الشرق الفنان من ١٠٩ - ١١٠

(٦٤) انظر هذه الأحكام العامة أن أمة الفكر في الهند وفارس والصين . . الخ - كانت تغلب عليهم النظرة الصولية ، ومن ثم كانت السمة الغالبة في ثقافة الشرق الأقصى - على حين أن الاستدلال العقل كان يغلب على أمة الفكر في الغرب ابتداء من ثقافة اليونان القديمة . . الخ . لكن لا يقصد بذلك بالطبع ، أن كل حابر سبيل في الشرق الأقصى كان صولياً ، وأنه لم يكن بينهم التاجر الذي يحسب المكسب والخسارة . ولعل مثل ذلك في ثقافة الغرب .

(٦٥) قصة عقل من ١٧٨ - ١٧٩ .

(٦٦) قصة عقل من ١٧٨ - ١٧٩ .

(٦٧) المرجع نفسه من ١٧٤ .

(٦٨) قصة نفس من ٢٤٢ .

(٦٩) المرجع السابق من ٢٤١ .

والمادة ، العقل والجسم ، المطلق والمتغير ، الأزلي والحادث ، أو قل هما السماء والأرض إن جاز هذا التعبير^(٧٢).

ومعنى ذلك أن ثنائيتنا الانطولوجية من نوع فريد ، صحيح أنها تشطر الوجود شطرين كما فعلت الثنائية الميتافيزيقية على مر التاريخ ، لكنها تختلف عن المذاهب الثنائية في : « أنها لا تسوي بين الشطرين : بل تجعل للشطرين الروحاني الأولوية على الشطر المادي ، فهو الذي أوجده وهو الذي يسيره ، وهو الذي يحدد له الأهداف ... »^(٧٣).

قد يقال : وماذا كانت ثنائية أفلاطون إن لم تكن هي بعينها ما نسميه « بالثنائية الفريدة » الخاصة بنا ... ألم يشطر أفلاطون الوجود إلى وجود معقول ووجود محسوس ، وجعل الثاني معتمداً على الأول إن لم يكن مجرد « ظل » له يتصف بالتغير والحادث والعرضية ... الخ في حين يتسم الأول بالأزلية والروحية ؟ ألم تجعل الأولوية للمطلق المجرد على الأفراد والجزئيات ؟ . ويحجب الدكتور زكي نجيب بقوله : « إذا قيل إن الفلسفة الأفلاطونية ، وما جرى مجراها كانت ضرباً من الثنائية التي تجعل الأولوية للمطلق المجرد على الأفراد والجزئيات - قلنا : نعم ! ولكن أفلاطون قد بلغ في ذلك

فيلسوفنا^(٧٤) ، بهذا الحفر في الحياة الثقافية المعاصرة ليرتد بها إلى منابتها فتكون هذه المنابت هي ما يمكن أن نسميه بالفلسفة العربية المعاصرة - « وتدور عجلة الزمن مع صاحبنا ، وإذا هو أمام قضية عقلية خاصة بالرؤية العامة التي ينظر بها الإنسان إلى هذا العالم وطبيعته ، وعلى الرؤية التي يختارها الإنسان وينظر إلى العالم على أساسها تتوقف نتائج فرعية لا حصر لعددتها ، فماذا تكون تلك الرؤية التي يختارها ... ؟ رأى صاحبنا أن أقرب ما يمدنا بالرؤية الملائمة لنا هو الافتراض الذي يرى أن الروح والعقل ليسا أموراً من مادة ، وأن المادة الخسائصة لا هي من روح ولا هي من عقل ، وأن الإنسان قد اجتمع فيه الجانبان الروح والعقل من جهة والجسم من جهة أخرى ... »^(٧٥) تلك هي الثنائية الاستمولوجية الأساسية عند زكي نجيب محمود ، لكنها سوف تؤدي في الحال إلى ثنائية أنطولوجية يرى أنها كامنة في أعماق ضمائرنا جميعاً : « أحسب أن لو تعمقنا ضمائرنا لوجدنا هناك مبدأ راسخاً عنه ينبعث - وما تزال تنبعث - سائر أحكامنا في مختلف الميادين ، وهو مبدأ لو عرضته على الناس في لغة واضحة صريحة ، لما وجدت منهم أحداً يمتنع أو يعارض وأعني به مبدأ الثنائية التي تشطر الوجود شطرين لا يكونان من رتبة واحدة ، ولا وجه للمساواة بينهما هما الخالق والمخلوق ، الروح

(٧٠) عندما أصدر قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الكويت كتاباً تذكاريًا عن أساتذتنا الكبار بلوغه الثمانين جعل عنوانه « الدكتور زكي نجيب محمود : فيلسوف وأديب وعلماء . مطابع الوطن عام ١٩٨٧ » وكتب أحد الزملاء معترضاً على صفتين في هذا العنوان هما « الفيلسوف » و « المعلم » وألقى أن لكلمة فيلسوف معنى مختلف ، ونحن نستخدمها هنا بنفس المعنى الذي أطلقت به على مفكرى عصر التنوير : « لقد أطلق على جماعة التنوير في فرنسا كلمة فلاسفة Philosophes وهكذا أصبح فولتير ، وديفرو ، وكوندورسيه ، وهولباخ ونظائرهم يسمون بالكلمة الفرنسية فلاسفة Philosophes تحيزاً لهم عن الفلاسفة السلفيين Philosophers إلى أصحاب المذاهب التسلي System كالأفلاطون وأرسطو لأنها وكأنها وهيكل حديثاً - قارن مثلاً :

The Encyclopedia of Philosophy, Vol. II, P. 519 Macmillan 1967 أما كلمة « معلم » فقد ظن الزميل أنها مقصورة على أرسطو ، والصحيح أن أرسطو يلقب « بالمعلم الأول » كما يلقب الفارابي « بالمعلم الثاني » ... الخ ويمكن أن يطلق لقب « معلم » على أي مفكر تنويري لما بالك يرجل كان « معلماً » طوال حياته . ١٩٠ قارن مايقوله أساتذتنا عن نفسه ... « معلم أنا مهنة وفطرة معا ، فلو لم تسر في ظروف حيال نفع مهنة التعليم لاخترت بطبيعتي أن أكون معلماً ، فلست أحب لي هذه الدنيا الطويلة المربضة شيئاً أكثر من حبي للمعرفة وشرحها وتوضيحها ونشرها ، وذلك هو التعليم ... » فيم من التراث ص ١٦٥ .

(٧١) « رؤية إسلامية » ص ١٣ - ١٤

(٧٢) « تجديد الفكر العربي » ص ٢٧٤

(٧٣) « تجديد الفكر العربي » ص ٢٧٥

حداً ألقى معه وجود الأفراد الجزئية وجوداً حقيقياً بما في ذلك أفراد الانسان أنفسهم ، فليس للفرد الإنساني الواحد من حقيقة عنده إلا بمقدار ما يشارك في الإنسانية بمعناها المجرد . ولا أظن أن مثل هذا الالغاء لحقائق الأفراد متفق مع عقيدتنا التي تلقى على أفراد الناس نبعات خلقية عما يعملون أفراداً ، لا أنواعاً وجماعات ، فهذا معناه اعترافنا الصريح بالوجود الحقيقي لهؤلاء الأفراد في حياتهم الدنيا ، وفي حياتهم الآخرة على حد سواء . . . وإذن فالنظرة الثنائية التي تناسبنا هي نظرة متميزة فريدة تجعل الكائن الإلهي الواحد المطلق في جبهة ، وتجعل الأفسراد الجزئية في جبهة أخرى . . . (٧٤).

ومعنى ذلك أننا سنجد أنفسنا أمام ثنائية أنطولوجية تتفق مع الثنائية الأبيستولوجية السابقة ، لأنه لو كان هناك ضربان من الوجود : وجود « مطلق » ووجود « حادث » - لكان لابد من وجود طريقين للمعرفة : وإني لأسأل - على أساس نظرتنا الثنائية المقترحة - لماذا لا يكون للمعرفة نطاقان لكل منهما وسيلة خاصة به ؟ فإذا كان الأمر أمر الحقيقة المطلقة جاءتنا المعرفة عن طريق ، وإذا كان الأمر أمر الطبيعة وكائناتها جاءت المعرفة عن طريق آخر ولا يجوز لأي من النطاقين أن يزاحم في وسائله . ولكم نشبت معارك بين أناس أرادوا تطبيق وسيلة العالم الأول على العالم الثاني ، أو وسيلة العالم الثاني على العالم الأول ، فكانوا يعانون من هذا الخلط شرساً مما يعاني من تشتت وسيلة ولبس وعموض . . . (٧٥).

وسوف يتفرع عن ذلك بسطبيعة الحال ثنائية « المنهج » ، بحيث نجعل لدراسة ظواهر الطبيعة - أعني العلوم الطبيعية - منهجاً خاصاً ذا شروط معينة ، ولما يتصل بالحقيقة المطلقة منهجاً آخر . أما منهج العلوم الطبيعية فيقوم على مشاهدة الحواس وإجراء التجارب وعلى سلامة التطبيق ، فلا يعنيها من الدنيا إلا ظواهرها ، بحيث لا يجوز لأنظارنا عندئذ أن تنفذ إلى ما وراء تلك الظواهر . لأنها بالنسبة للعلوم ليس لها وراء ، فهي الظواهر وحدها . . . أما منهج منا وراء الوقائع الصماء من حقائق كالتقييم الخلقية مثلاً فذلك شيء آخر ، قد لا نلجأ فيه إلى مشاهدة الحواس ، وإلى التجارب العابرة بقدر ما نلجأ فيه إلى إدراك البصيرة أو إلى إملاء الوحي ، أو إلى ما يسري بين الناس من عرف وتقاليده . . . (٧٦).

ثنائية ثقافية أو حضارية :

إذا كانت الثنائيات السابقة - إبيستولوجية أو أنطولوجية - تمثل نظرة معرفية إلى العالم ، وفهياً خاصاً لطبيعة الوجود الذي نعيش فيه ، وكانت ، من ثم ، ترتبط بنظرة الإنسان الفرد إلى هذا الوجود ، فإن الثنائية الثقافية أو الحضارية تعكس مشكلة المجتمع العربي الحضارية منذ خروجه من العصور الوسطى وحتى اللحظة الراهنة . ومن هنا تحولت هذه الثنائية إلى مشكلة تؤرق مفكرنا الكبير - كما تؤرق كل مفكر تنويري ، على مستوى الوطن العربي كله - وهي تتلخص في محاولة الإجابة عن هذا السؤال : « كيف السبيل إلى ثقافة نعيشها اليوم ، بحيث تجتمع فيها

(٧٤) المرجع السابق ص ٢٧٦

(٧٥) تجديد الفكر العربي ص ٢٨٢

(٧٦) تجديد الفكر العربي ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - تكن يصعب في الواقع أن نقول أننا نأخذ الحقائق المطلقة من العرف والتقاليد اللهم إلا إذا كان المقصود هنا « المبادئ الأخلاقية » الدائمة التي تجسد في هذه العادات كالوقار والاحلاس والشجاعة الخ والتي يُعبر عنها كل مجتمع بطريقته الخاصة مع أنها واحدة ودائمة .

الذي يكون مسلماً يؤدي فرائض الدين ويقوم بأركانه ثم « يسعى إلى قوة العلم في أحدث صوره ، يسعى إليه من أبوابه ، ومن نوافذه ، ومن كل ثقب ابرة يوصله إلى تلك القوة . . »^(٨٢) . وكانت هذه المشكلة هي السؤال الكبير الذي طرحه أستاذنا في مقدمة كتابه « تجديد الفكر العربي » - كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نقلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نقلت منها . . ؟ إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل في تجاوز بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول : هذا شكسبير قائم إلى جوار أبي العلاء - فكيف إذن يكون الطريق ؟ كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسعة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة^(٨٣) ؟ وفي استطاعتنا أن نقول إن جهوده لا في « تجديد الفكر العربي » ولا في « المعقول واللامعقول » - وحدها بل في كل ما كتبه قبل ذلك وما كتبه بعد ذلك . إنما استهدفت الإجابة عن هذا السؤال الكبير الذي فرض نفسه علينا طوال أمد ليس بقريب^(٨٤) ، فقد فرضت هذه المشكلة نفسها على مثقفي العالم العربي منذ اللحظة التي شعر فيها هؤلاء بوجود ثقافة ذات طابع عالمي تحتاج الجو الفكري للبلاد العربية ، ويتعين تجديد علاقاتها بالثقافة الموروثة عن الأسلاف^(٨٥) . وأن شئنا تحديداً أكثر قلنا إنها المشكلة التي أصبحت تمثل قطب الرمح في نهضتنا الحديثة منذ

ثقافتنا الموروثة مع ثقافة العصر الذي نحياه ، شريطة ألا يأتي هذا الاجتماع بين الثقافتين تجاوزاً بين متنافرين ، بل يأتي تضافراً تنسج فيه خيوط الموروث مع خيوط العصر نسج اللحمة والسدى^(٨٦) .

تلك هي المعضلة التي تتحدى المثقف العربي في زماننا ولا يدري حتى هذه الساعة كيف يحلها^(٨٧) . ولهذا يسعى مفكرنا إلى الوصول إلى حل يؤدي بمصر خاصة ، وبالوطن العربي عامة ، إلى بحث جديد نواكب به العصر وفكره وحضارته دون أن نفقد هويتنا التاريخية^(٨٨) . ولهذا تراه يصف هذه المشكلة بأنها أم المشكلات في حياتنا الثقافية : « لست أتردد لحظة حين أقرر بأن أم المشكلات الثقافية الراهنة هي محاولة الكشف عن صيغة لحياتنا الفكرية والعملية ، تجمع لنا في طيها طرفين ، إذ تحافظ لنا على خصائصنا العربية الأصيلة ، وفي الوقت نفسه تفتح لنا الأبواب على مصاريحها لنستقبل في رحابة صدر أسس الحضارة العصرية كما يحياها اليوم روادها . . »^(٨٩) . وهو يطلق عليها أحياناً اسم « مشكلة الأصالة والمعاصرة » - وربما كان هو أول من استخدم هذين المصطلحين - ويصف قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معاشتنا لعصرنا بأنها كانت أهم ما تعرض له من اهتمامات بالتفكير والكتابة إذا ما استعرض حياته الفكرية من أولها إلى آخرها . .^(٩٠) . فهذه القضية التي تشغله - قضية الدمج بين الأصالة والمعاصرة - هي التي سوف تشكل لنا « المسلم الجديد »

(٧٧) المعقول واللامعقول ص ٧

(٧٨) هموم الطففين ص ١٣

(٧٩) قصة نفس ص ٢٠٢

(٨٠) ثقافتنا في مواجهة العصر ص ٥٤

(٨١) قصة حفل ص ٢٢٢

(٨٢) من الحرية إلى الحديث ص ٨٥

(٨٣) « تجديد الفكر العربي » ص ٦

(٨٤) المرجع نفسه ص ١٠

(٨٥) د . فؤاد زكريا « تجديد الفكر العربي في الميزان » ص ٩٩ من الكتاب التذكاري السالف الذكر مطابع دار الوطن بالكويت عام ١٩٨٧ .

جاءت الحملة الفرنسية على مصر ووصلت شواطئ الاسكندرية عام ١٧٩٨ - أي قبيل فاتحة القرن التاسع عشر بستين - وكان مع الحملة جماعة من العلماء الفرنسيين المتخصصين في ميادين علمية مختلفة ، فكان مما صنعه أولئك العلماء أن استدعوا علماء الأزهر الشريف - جماعة بعد جماعة ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة ، من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفوهم صفاً مشتكبي الأيدي جأراً مع جاره ، ثم يسون الواقف في أول الصف بسلك مكهرب ، فتسري رعدة الكهرباء في جميعهم ، فأما هم فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضحك ! ولقد تحدث يوماً أن اغتاز من تلك الألعب الصبائية أحد الشيوخ فقال لهم ما معناه : هل في علمكم الجديد ما يجعل إنساناً موجوداً هنا وموجوداً في بلاد الغرب في وقت واحد ؟ فرد فأجابوا بقولهم أن ليس في علومهم ذلك لأنه محال ، فرد هو قائلاً : لكن ذلك ممكن في علومنا الروحية^(٨٦).

وكان هذه الحادثة التاريخية قد رسمت بوضوح ناصع حجم المشكلة الثقافية التي نعانيها : حدودها وأبعادها . كما كشفت عن ثلاثة حلول مازال لها أنصارها حتى هذه الساعة : فريق استمر - كالشيخ الذي أسلفنا ذكره - يرفض ثقافة الغرب مكتفياً بأن يملا أوعيته من كتب التراث فكان أصيلاً لكنه غير معاصر إذ أنه غرض النظر عن العصر بكل ما يضطرب به من قضايا ومشكلات فكرية ، ومع هذه الجماعة تذهب عامة الناس من غير المثقفين ، وفريق آخر - وإن كان قلة قليلة - لم يجد بأساً في أن تمحو صفحاتنا محواً لنملاها بثقافة العصر وحده كما هي معروفة في مصادرها ، بغير تحريف ولا تعديل ، وهكذا كان هذا الفريق معاصراً يعيش

قضايا العصر لكنه غير أصيل لا يرتبط بجذوره الثقافية الأولى . بقي فريق ثالث اهتم بترائه اهتماماً واضحاً ثم راح يطرح فكر العصر بعض التطويع فاستكان له ولو إلى حين ، وفي رحاب هذا الفريق تقع الكثرة الغالبة من أعلام الأدب والفكر في تاريخنا الحديث : محمد عبده ، ولطفي السيد ، والعقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم وزكي نجيب محمود . . الخ وغيرهم مما يزدان بهم مسار نهضتنا ، كما سبق أن ذكرنا بالتفصيل - على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم - لم يرفضوا العصر ، لكنهم حاولوا أن يصوغوه في قوالب الثقافة العربية الأصيلة ، مع تفاوت بينهم في درجة النجاح ومع هؤلاء القادة يذهب معظم المثقفين^(٨٧).

ولقد ركز هذا الفريق الثالث في حركته الشاملة التي استهدفت النهوض بالحياة الثقافية العربية لكي تواكب العصر من ناحية وترتبط بهويتنا التاريخية من ناحية أخرى - ركز خلاصة دعوته في فكرتين أساسيتين هما « الحرية » و « التعقل » ، وهما في الواقع وجهان لحقيقة واحدة أما الحرية فلا تكون إلا من قيد ، والقيد الذي كان قسائماً عندئذ ، بل القيد الذي أخذ يزداد صلابة على مر القرون التي سادها الحكم التركي هو قيد الجهل والخرافة في فهم الناس للظواهر والأحداث ، وهو أيضاً قيد النص المنقول الذي يفرض نفسه على الدارسين فرضاً بحيث لا يكون أمام هؤلاء الدارسين من منافذ الفكر المستقل إلا أن يعلقوا على النص بشروح ، ثم على الشروح بشروح . . وهلم جراً . وهي نفسها الحالة التي جاءت النهضة الأوروبية لتجدها جائئة على عقول الدارسين - فكان التخلص منها والخروج عليها هو نفسه معنى النهضة ولها .

(٨٦) « عن الحرية لحدث » ص ١٤٢

(٨٧) فلان مثلاً : « لقاءنا في مواجهة العصر » ، ص ١٥ وما بعدها .

الخرافة ، كما تكفل « تعقيل » السير إلى الهدف الذي تريده ، ومن هنا جاء اهتمام مفكرنا الكبير بالعلم ومنهجه ، والتصدي بكل جهد ممكن لإشاعة التفكير العلمي في كل ما يتعلق بالطبيعة وظواهرها ، ولعل كنه الأكاديمية كلها ليست سوى لبنت في هذا الصرح ، هكذا كانت أهداف « خرافة الميتافيزيقا » ، و « نحو فلسفة علمية » ، و « المنطق الوضعي » ، بجزئيه ، الذي أعلن خطته في مقدمته بكل وضوح « أنا مؤمن بالعلم ، كافر بهذا اللغو الذي لا يجدي على أصحابه ، ولا على الناس شيئاً ، وعندى أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه . . » (٨٩) .

كان اهتمامه بالعلوم المختلفة نتيجة منطقية لاهتمامه « بالحرية والعقل » معاً - وهما الدعامتان الأساسيتان لنهضتنا الحديثة - وهو بذلك إنما يكمل الشوط الطويل الذي قطعه المفكرون التنويريون منذ عصر رفاعة الطهطاوي حتى الآن .

إسهامات خاصة :

إذا ما تساءلنا عن الإسهامات الخاصة التي قدمها زكي نجيب محمود في سبيل نهضتنا الثقافية - كان الجواب : إنها كثيرة ، لقد أكمل في بعضها الدعوة إلى المفاهيم التي كانت تتبلور في مسار النهضة السابق ، ولا سيما فكري « الحرية » ، و « العقل » . لكنه ما هنا كان أكثر تحديداً ، ولهذا فأننا نراه لا يكتفي باستخدام هاتين الفكرتين أو الدعوة إليهما ، وإنما يأخذ نفسه بتحديد كل لفظ يريد أن يستخدمه ويطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك « فهو يتشدد في الشروط المفروضة على المتكلم الجاد

وأما « التعقيل » فهو أن نجعل احتكامنا إلى العقل دون النزوة والهوى - وإذا قلنا « العقل » فقد قلنا أحد أمرين ، أو الأمرين معاً ، فإما أن يستند الإنسان في أحكامه إلى شواهد الحس والتجربة ، وذلك إذا كان موضوع البحث ظاهرة خارجية من ظواهر الطبيعة والمجتمع ، أو أن يستند الإنسان في أحكامه إلى سلامة الاستدلال في استخراج تلك الأحكام من مقدماتها ، وذلك حين يكون موضوع البحث فكرة نظرية ، وقد يجتمع الطريقتان معاً في بحث واحد بعينه ، فنجمع شواهد من تجاربنا أولاً ، ثم نكوّن فكرة نظرية نستدل منها إلى ما يسعنا من نتائج - وذلك هو سبيل العقل (٨٨) .

على أن الفكرتين - فكرة الحرية وفكرة التعقيل - مكملتان إحداها للأخرى ، لأنك إذا تحررت من قيود الجهل والوهم والخرافة ، كنت بمثابة من قطع من الطريق نصفه السلبي ، وبقي عليه أن يقطع النصف الآخر بعمل إيجابي يؤديه ، كالسجين تخرجه من محبسه ، فلا يكون هذا وحده كافياً لرسم الطريق الذي يسلكه بعد ذلك ، وكذلك التحرر من خرافة قد يقع في خرافة أخرى ، ولهذا كان لابد لتكملة الطريق على الوجه الصحيح أن تكون أمام المتحرر بعد تحرره خطة مرسومة يهتدي بها ، وما تلك الخطة الهادية إلا خطة « العقل » في طريق سيره ، ومعنى ذلك أن النهضة الثقافية التي جاءت بالدعوة إلى الحرية والتعقيل قد كفلت أماننا سواء السبيل بنصفها السلبي والايجابي معاً . . !

ولا شك أن العلوم المختلفة من طبيعة وكيمياء وطب وهندسة وغيرها ، من شأنها أن تكفل « التحرر » من

(٨٨) من زاوية فلسفية ص ٦ وأيضاً « فلسفة وفن » ص ٣ - ٤ وانظر أيضاً « قصور دلبات » ص ١١١ - ١٥٩

(٨٩) « المنطق الوضعي » الجزء الأول - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥١ .

إذا نطق بعبارة أراد بها انتقال فكرة من رأسه إلى رؤوس الآخرين (٩٠) .

وإذا كانت الدعوة إلى الدقة في تحديد المعاني هي أهم المأموم التي حملها هذا المفكر طوال ما يزيد على نصف قرن ، فقد كان يشعر أن من أوجب واجباته على نفسه أن يتوخى هو مثل هذه الدقة التي يدعو إليها الناس (٩١) .

ولهذا ليس ثمة ما يدهشنا عندما نجد في بداية حديثه عن الحرية يتساءل « ما المقصود بالحرية » ؟ . تلك الكلمة التي ترددت على أقلام الكتاب والسنة الخطباء والمتحدثين منذ أواخر القرن الماضي . . . ثم يروح يضرب بموضع التشريع في هذه الفكرة ليستخرج معانيها المختلفة التي أخذت تزداد مع الأيام اتساعاً وعمقاً ، فقد بدأت وهي تتضمن المساواة بين المواطنين « بحيث يكون للمواطنين حق الشورى في أمور بلادهم ، ثم إذا جاء المستعمر البريطاني تحول معنى « الحرية السياسية » ليصبح تحرراً من المستعمر ، وظلت هذه القضية هي الشغل الشاغل إلى أن عبت بها النفوس فتفجرت ثورة ١٩١٩ ، فأخذ معنى الحرية يتعمق فلم يعد فقط التحرر من المستعمر بل أصبحنا نتحدث عن « حرية الاقتصاد الوطني » ، و « حرية المرأة » ، وحرية الفنان والأديب . . الخ وهكذا أخذ تيار الحريات يتصاعد قوة وتنوعاً إلى أن جاءت ثورة ١٩٥٢ ، ففتحت أبواباً واسعة لحريات اجتماعية : تحرر الفلاح من تسلط صاحب الأرض ، وتحرر العامل من تحكم صاحب العمل . . الخ (٩٢) .

لكن أحداً ، طوال هذا التاريخ ، لم يضع « هذه الحريات » على مائدة التشريع ، وإنما ترك التحليل العقلي لركي نجيب محمود المنطقي ، لينظر نظرة فاحصة مدققة في تلك الحريات بكل فروعها ليكشف لنا عن حقيقة لها خطرها ، وهي أن أهدافنا السابقة من تلك الحريات كانت تنحصر في الجانب السلبي وحده بمعنى أن تكون المطالبة القومية مقصورة على « التحرر » من قيود تكبلها في هذا الميدان أو ذاك : كالتحرر من الاحتلال البريطاني ، وتحرر المرأة من طغيان الرجل وتحرر العامل الزراعي من استبداد مالك الأرض ، وتحرر العامل الصناعي من تحكم صاحب رأس المال ، وتحكم كذا من كيت . . وعبارة أخرى أوشكت كل جهودنا المبذولة طلباً للحرية أن تنحصر في تحطيم الأغلال والقيود ، وهو أمر واجب ومطلوب ، غير أن التحرر ليس سوى جانب واحد فقط من الحرية هو « الجانب السلبي » - إنه في حقيقته لا يزيد على أن يفتح باب السجن لينطلق السجين حراً ، أي أنه لم يعد مغلول الحركة مقيد الخطى . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ماذا يصنع « ليحيا » ؟ .

ها هنا تبدأ الحرية بمعناها الإيجابي الذي لا بد فيه من « قدرة » الإنسان على أداء عمل ، ولا قدرة في أي ميدان إلا لمن عرف حقيقة ذلك الميدان وما يتعلق به - إننا نريد « حرية الذين يعملون » (٩٣) .

وهكذا ربط مفكرنا ربطاً وثيقاً بين الحرية بمعناها الإيجابي ، وقدرة الإنسان على أداء عمل معين « يعرف » كيف يقوم به ، فالجانب الإيجابي من الحرية والمعرفة

(٩٠) من مقدمة الطبعة الأولى لكتابه « موقف من الميتافيزيقا » ط ٢ عام ١٩٨٣ دار الشروق .

(٩١) « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ١٩٣ .

(٩٢) - قيم من التراث ص ٢٢١ .

(٩٣) هذا عنوان مقاله عن الحرية وتطبيقاتها في كتابه « قيم من التراث » .

خصائص يمكن تحديدها وتمييزها ، والفعل ضرب من النشاط يعالج به الانسان الأشياء على وجه معين^(٩٥) .
وإذا كان العقل فعلاً فأننا نستطيع تحديده على النحو التالي : « العقل حركة انتقالية تبدأ سيرها من شواهد وبيانات ومقدمات ، وينتهي عند نتيجة تتولد مما بدأ منه . فليس عقلاً ذلك الذي يدرك ما يدركه بلمحة مباشرة أو بلمعة (كما يقولون) لأن أمثال هذه الإدراكات المباشرة لها أساء أخرى ، وطبائع أخرى . أما العقل فادراكه غير مباشر لأنه قدرة استدلالية ، ومعنى ذلك أنه يتضمن قيام طرفين : طرف بدأ منه ، وطرف آخر هو النتيجة التي تنتهي إليها . »^(٩٦) .
والعقل حر في إختيار الطرف الأول الذي يبدأ منه ، ولكنه إذا ما حدد لنفسه نقطة البدء لم تعد له بعد ذلك حرية النتائج ، لأن هذه النتائج تلزم بالضرورة عن نقطة الابتداء^(٩٧) .

« على أن للعقل طريقين اثنين ، لا ثالث لهما ، يلتزم منهما هذا الطريق أو ذاك ، بحسب الموضوع الذي يفكر فيه ، أما أحدهما فهو الطريق الذي يجعل نقطة ابتدائه كلمات بعينها ، أما الآخر فهو الطريق الذي يجعل نقطة ابتدائه معطيات تعطاها حواسنا الظاهرة . »^(٩٨) . في الحالة الأولى يجد العقل أمامه عبارة مركبة من كلمات أو رموز الرياضيات ، فيصعب عليها عمله الفكري . وليس أمامه إلا أن يستخرج من تلك العبارة مضامينها التي تكمن في مفهومات رموزها . إن العقل في هذه الحالة لا يتبع بفكرة من عنده ، بل مهمته أن يفض الأغلفة التي تستر المعاني داخل رموزها ، فكما أنك إذا وضعت في

وجهان لعملة واحدة . إنَّ الطفل الذي يظفر بقلم وورقة بعد بكاء عنيد « حر » في أن يخط بالقلم ما يشاء . والفنان « حر » في إقامة بنائه اللوني على اللوحة ، لكن ما أبعد الفرق بين حرية وحرية ! لقد أزيلت الموانع التي كانت تحول دون حصول الطفل على ورقة وقلم ، فلما بلغ مراده كان حراً ، وانطلقت تلك الحرية المجنونة « تشبُّط » الحطوط على الورق بلا هدف . وأما الفنان العارف بأسرار فنه ، فقد استطاع بحريته « المقيدة » بقواعد الفن وأصوله أن يُبدع ما قد يضاف إلى كنوز الجمال . واذن فالتحرر هو الجانب السليبي من الحرية ، أما الجانب الايجابي فهو يرتبط بالعلم والمعرفة ، ومن هنا كان حق الحرية بمعناها الايجابي المنتج مقصوراً على أولئك الذين يعلمون !

أما الفكرة الثانية - « فكرة العقل » - فقد وقف مفكرنا عندها طويلاً لما لها من أهمية في بناء حياتنا الثقافية : « فإذا كانت الحرية في جانبها السليبي تعني « التحرر » من القيود ، فإنها في جانبها الايجابي تعني البناء ، وذلك يحتاج إلى خطة مرسومة يبتدى بها مَنْ تحرر من القيود ، وهذه الخطة الهادفة هي التي يرسمها « العقل » . »^(٩٩) فما هو هذا العقل ؟ . مهما اختلفت تعريفات الناس للفظ « عقل » فإنهم في عصرنا الراهن على الأقل متفقون على إبعاد معنى لا يجوز أبداً أن ينصرف إليه مفكر واحد وهو المعنى الذي يتصور أن ثمة في عالم الكائنات كائناً مستقلاً بذاته قائماً برأسه اسمه « عقل » ، كما يشير اسم « هملايا » « مثلاً » إلى جبل معلوم . بل إن العقل اسم يطلق على فعل من نمط ذي

(٩٤) في مفترق الطرق ص ٣٢٠

(٩٥) تحديد الفكر العربي ص ٣٠٩

(٩٦) - « عن الحرية أتحدث » - ص ٢٠

(٩٧) - المرجع نفسه في الصفحة نفسها .

(٩٨) في مفترق الطرق ص ٣٢١

طاحونة الغلال قمحاً ، لم يخرج لك إلا دقيق القمح ، وإذا وضعت في عصارة الخضر والفاكهة عنباً لم يخرج لك منه إلا عصير العنب ، كذلك الحال في تركيبات اللفظ أو الرمز تكمن فيها معان ثم يأتي التفكير العقلي ليستخرج تلك الكوامن فيأخذ ما يريد ويرفض ما لا حاجة لنا به ، والتفكير الرياضي كله هو من هذا القبيل ، (٩٩) وذلك أول الطريقين ، أما الطريق الثاني فهو حين لا يكون ما بين أيدينا إلا مركبات من ألفاظ ورموز ، بل « معطيات » تلقى حواسنا من مصادرها . وفي هذه الحالة يكون طريق العقل مختلفاً عن طريقه في الحالة الأولى ، ذلك لأن عمله هنا هو محاولة الكشف عن الروابط القائمة بين مجموعة الأشياء التي رأيناها أو سمعناها أو أدركناها بأية حاسة أخرى من حواسنا ، فافرض مثلاً أن السماء تمطر ، فكل الذي نراه قطرات ماء ، ثم نبدأ في الكشف عن الصلة بين هذه القطرات وبقيّة المحسوسات ، كأن نرى العلاقة بينها وبين درجة الحرارة ، وبينها وبين درجة الرطوبة ، وبينها وبين درجة ضغط الهواء ، وبينها وبين اتجاه الرياح . . الخ فإذا كشفنا عن تلك الروابط كنا أمام ما يفسر المطر تفسيراً عقلياً (٩٩) . .

العقل إذن فاعلية تبدأ من بداية معينة : تعتصر الرموز إذا كانت البداية فكرة رياضية لتقول إنها تنتج كذا وكذا ، أو تبدأ من وقائع حسية فتربط بينها وبين وقائع أخرى لتستخرج لنا ما نسميه بالقوانين .

ويستحيل على العملية العقلية - كائنة ما كانت مادتها - أن تتحرك قيد شعرة إلا إذا كانت بين أيدينا « نقطة الابتداء » التي منها نسير ، وقد تكون نقطة الابتداء هذه « وقائع » ، وقد تكون « فروضاً » - فإن كانت الأولى كانت العملية العقلية من الضرب السائد في علوم الطبيعة ، وإذا كانت الثانية كانت من الضرب السائد في علوم الرياضة ، ولا ثالث لذين الضربين في عمليات الفكر ، فمهما تنوعت موضوعات البحث ، ألفتها - بعد شيء من التحليل - إما منتمية إلى النوع الذي يبني على الحقائق الواقعة ، وإما منتمية إلى النوع الذي يبني على الفروض (١٠١) .

وهكذا نصل إلى ثنائية « المبدأ » أو ثنائية نقطة البداية (١٠٢) : التي قد نبدأ فيها من وقائع الطبيعة ، وهو ما تفعله مجموعة العلوم الطبيعية ، كما ذكرنا ، وقد نبدأ من « فروض » كالرياضة : فتكون مبادئ مختارة ليس فيها إلزام لأحد من غير أصحابها فقد يفرض الرياضي أن المكان مستو ثم يبني النتائج على فرضه هذا ، أو قد يفرض أن المكان كُرّي ثم يستنتج ، أو أن المكان أسطواني - وهكذا (١٠٣) .

غير أنه إذا كانت الرياضة هي المثل الكلاسيكي للبداية التي تبدأ من فروض ، أو مبادئ مختارة ، فإن الديانات المختلفة مثل آخر للنسقات الفكرية التي بُني على « مبادئ » ، فكل منها يضع كتابه أمامه « مبدأ » يسير منه ويستنتج ، بحيث تكون الأحكام الفقهية في

(٩٩) في مفرق الطرق ص ٣٢٢

(١٠٠) المرجع نفسه ص ٣٢٣

(١٠١) - في مفرق الطرق ص ٣٢٣

(١٠٢) - كلمة « مبدأ » هنا ليست لها أية دلالة أخلاقية لأن المقصود اشتغالها اللغوي من حيث هي نقطة « ابتداء » .

(١٠٣) - تجديد الفكر العربي ص ١٩٣ .

ضربنا مثلين للمبادئ المفروضة نختارها ليبدأ منها العقل سيره ، هما « العلوم الرياضية » و « البناءات الدينية » - ونستطيع أن نسوق مثلاً ثالثاً من الفكر السياسي ، فها هنا كذلك نجد النظرية السياسية تبدأ من « مبدأ » معين تقيم عليها بناءها كله ، نأخذ مثلاً فيلسوفين انجليزين هما « هوبز » و « لوك » الأول يقيم

(١٠٦) - محمد عبد الفكر العربي : ص ١٩٦

العقل ، إذن ، فاعلية أو نشاط نسيره من أ الى ب ، وقد تكون « أ » معطيات الحس ، و « ب » هي القوانين أو أدوات الربط بين الظواهر الطبيعية ، وذلك هو طريق العلم الطبيعي ، وقد تكون « أ » بداية مفترضة هي الرموز الرياضية أو هي « النصوص الدينية » أو « النظريات السياسية » ، أو المبادئ النظرية في المذاهب الفلسفية المختلفة . الخ ويكون أساس المفاضلة بينها هو مدى نفعها لحياة الانسان .

غير أننا إذا نظرنا هذه الفاعلية « العقلية » الى أمور الحياة وثقافة معاً ، كنا كمن يسأل عند كل موضوع مطروح : هل الخطوة الفلانية إذا خطوناها بلغنا الأهداف ؟ ! وهذه النظرة تستتبع صفات فرعية كثيرة تنتج عنها كما تنتج الثمرات من شجراتها ، وهذه الصفات تشكل ما نسميه « بالنظرة العقلية » أو الوقفة العاقلة . ويمكن تلخيصها فيما يلي :-

١ - أولى هذه الصفات - وهي نفسها نتائج نابعة من ذلك المبدأ العقلاني أن تتحدد الاشياء بنسبها الصحيحة بعضها من بعض ، فيبدو الكبير كبيراً كما هو والثافه تافهاً كما هو ، فقد تهتم الدولة المتحضرة بمسألة علمية تريد لها أن تستقر في أذهان الناس ، ولكنها تتغاضى عن توافه السلوك التي ربما اختارها هذا الرجل أو ذاك .

٢ - ومن النتائج التي تترتب على الوقفة العاقلة أيضاً إيثار الأجل على العاجل إذ كان في العاجل خير قليل قد يعقبه شر كثير ، أو كان في الأجل خير كثير قد يسبقه شيء من ألم التضحية .

٣ - ومن أبرز جوانب النظرة العقلية ، وأكثرها أهمية بالنسبة لنا ، أن تُردّ الظواهر الى أسبابها الطبيعية ، فلا يفسر المرض ، مثلاً ، الا بالجراثيم التي أحدثته ، ولا يعلل سقوط المطر إلا بظروف المناخ ، وهكذا . ويترب على هذا الربط السببي الصحيح أن تلتصق بالاشياء أسبابها الطبيعية كذلك . فإذا أردنا غللاً زرعنا لنحصدها ، وإذا أردنا قتلاً حملنا له السلاح بمران واقتدار^(١٠٧) . ومن هنا كان السحر ، مثلاً ، هو الضد المباشر للنظرة العقلية . إنه انه « اللا معقول » ذلك لأن السحر يعلل الأحداث بغير أسبابها الطبيعية ، فإذا كانت علة المطر الطبيعية ، مثلاً ، هي مقدار ما يتكثف في الهواء من بخار الماء جعلها الساحر ورقة يكتب عليها أحرفاً يختارها أو عبارات يزعم لها القدرة على إنزال المطر ، وإذا كانت علة الشفاء من مرض معين هو أن تزال الجراثيم التي تحدثه كانت هذه العلة عند الساحر « عفريتاً » سكن الجسد العليل ، والشفاء من المرض إنما يكون بطرد هذا العفريت بأقوال تقال ، وبخور يعطر جو المكان ، ويظهره من الكائنات الشيطانية العابثة بأجساد الناس . . وهكذا^(١٠٨) .

٤ - والنظرة العقلية تنظر الى الواقع كما هو لتحوره الى واقع جديد إذا أرادت ، دون أن تقيم بينها وبين الواقع حائلاً تنسجه الأوهام ، ثم سرعان ما تنسى أنه أوهام ، فإذا كان البدائي يخلق لنفسه الخرافة لينظر بمنظارها الى واقع الدنيا ، فإن المتحضر هو الذي يواجه تلك الوقائع كما تبدو لبصره وسمعه .

٥ - على أن أبرز ما تتميز به النظرة العقلية الى الكون هو حب الانسان للمعرفة حيث يلتم بأسرار البيت الذي

(١٠٧) - « المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري » ص ٤٣٧

(١٠٨) - « لثافتنا في مواجهة العصر » ص ١٩٨ - ١٩٩ وانظر أيضاً « أزمة التطور الحضاري » ص ٢١ - ٢٢

في ظلها ، والأمل في جيل جديد أراء على الطريق الى
اللاعقلية العلمية وضيائها . (١١١) .

على أننا لا نستطيع أن نغادر هذا الجزء الهام ، مع
مافيه من جوانب عقلية قيمة - قبل أن نشير الى مسألة قد
تختلف فيها مع أستاذنا الكبير وهي « المفاضلة » بين
المذاهب الفلسفية على أساس نفعها ، ذلك لأن كلمة
« النفع » منذ البداية كلمة غامضة وتثير أسئلة كثيرة : ما
هو المذهب « النافع » وبأي معنى ؟ ومتى يكون كذلك ؟
ألا يمكن أن يكون المذهب « غير نافع » الآن ثم يتضح
أنه « نافع » بعد عشرات السنين ؟ ألم يجد فلاسفة
النهضة ، مثلاً ، أفكاراً نافعة عند فلاسفة اليونان . ؟ !

ثم ألا يجوز لنا أن نقدر المذاهب الفلسفية من منظور
غير المنظور النفعي ؟ ألم يستعرض أرسطو ، مثلاً ، في
كتابه « الميتافيزيقا » الفلاسفة السابقين عليه من
طاليس حتى أفلاطون ناقداً كل فيلسوف على حده من
منظور عقلي لا علاقه له بالمنفعة ؟ !

ثم ألا يمكن أن يكون « نقد » فلسفة ما ، أو تقيد
مذهب معين لا يعني سوى أن المبدأ الذي يتركز عليه قد
أصبح عاملاً مساعداً ، أو عنصراً مسلسلاً في الفلسفة
التي تليها ، وهكذا تسير المذاهب الفلسفية يعقب
بعضها بعضاً في تطور جذلي تندثر قشرتها الخارجية ،
ويبقى مبدؤها ليصبح عنصراً مكوناً في مذهب
أعلى . ؟ (١١٢)

ألم يقل هيجل إن « الفلسفة » كل متصل تدفعه
ضرورة داخلية ، فكل فلسفة كانت ولا تزال ضرورية ،

هو ساكنه ، فالعقلاني في نظريته ذو فهم نحو معرفة
الحقائق والطبائع والعلل ، ولا يصده عن ذلك شيء من
التحريم الذي يفرضه البدائيون على أنفسهم .

أيمكن غريباً بعد ذلك أن نقول أن « سلطان العقل
هو مدار القياس لدرجة الحضارة ؟ فقل لي كم عقلت
أمة في تدبير أمورها ، أقل لك كم صعدت في مدارج
التحضر . (١٠٩) . فالعقلانية في وجهة النظر هي التي
تراها ماثلة في كل حضارة مهما اختلف لونها ، ولا تراها
في أي جماعة بدائية مهما تعددت بعد ذلك صفاتها ،
فلربما اتجهت النظرة العقلية نحو الأخطار المجردة تنظمها
وتنسقها في ترتيب هرمي يضع الأهم منها فوق
الأخص ، كما حدث عند اليونان الأقدمين أوروبياً إتجهت
نحو تحليل ما نزل به الوحي من تشريع ، كما حدث
للعرب الأولين ، أو إتجهت نحو ظواهر الطبيعة
تستخرج قوانينها النظرية كما حدث لأوروبا في عصورها
الحديثة ، أو إتجهت نحو تجسيد تلك القوانين العلمية
النظرية في أجهزة يديرها الإنسان أو تدير نفسها بنفسها
كما يحدث لعصرنا القائم (١١٠) .

على ضوء هذا الذي أسلفناه نستدير الى عصرنا
وحضارته ، إنه ليس بدعاً يشد من القاعدة التي سارت
عليها العصور ، فالحضارة فيه ما زالت قائمة على نفس
الأساس الذي قامت عليه حضارات السالفين والأساس
هو « العقل » . . . ونسأل بعد ذلك أين تقف الأمة
العربية اليوم من المسيرة الحضارية ؟ . . . « وأجيب
بجواب يختلط فيه قليل من الأسى وكثير من الأمل
- الأسى للهوة اللاعقلية العميقة التي لا تزال تتخبط

(١٠٩) - المرجع نفسه ص ١٩٩ - و « أزمة التطور الحضاري » ص ٢٢

(١١٠) - ثقافتنا في مواجهة العصر ص ١٩٦ - و « أزمة التطور الحضاري » ص ٢١

(١١١) - المرجع نفسه ص ٢٠٣

(١١٢) - Hegel: Science of Logic vol. II p. 914 Eng. Trans Log W. Johnston- Allen & Unwin 1951.

وبالتالي فليس منها ما اختفى وزال ، وإنما تجددها عناصر إيجابية في كل واحد . . . وآخر فلسفة هي نتيجة لجميع الفلسفات السابقة . . . » (١١٣) فلا يكون ، في هذه الحالة ، ثمة « مفاضلة » بين المذاهب الفلسفية التي تشبه الشجرة مع ثمرها ، ولم يكن في استطاعة أي مذهب أن يرى النور ما لم تتقدمه المذاهب السابقة كلها !

مشكلة الأصالة والمعاصرة :

كانت قضية الجمع بين الأصالة الثقافية التي تضرب بجذورها الى المقومات الأولية التي جعلت من العربي عربيا ، وبين المعاصرة التي تجعله جزءا من زماننا بنشاطه الفكري لا بمجرد وجوده الجسدي - هي قطب الرحى و« أم المشكلات » - كما سبق أن ذكرنا - في حياة مفكرنا الكبير حتى إنه يقول عنها إنها أصبحت القضية التي يصح أن نقول حيالها قوله هاملت في أزمنة النفس : « أن أكون أو ألا أكون : ذلك هو السؤال » (١١٤) . فإذا كان موضع الإشكال عند أسلافنا هو طريقة اللقاء بين أحكام الشريعة ومنطق العقل ، فقد أصبح موضع الإشكال عندنا اليوم هو طريقة اللقاء بين العلم والانسان (١١٥) . أو بمعنى آخر طريقة اللقاء بين « العقل والوجدان » (١١٦) . والصيغة التي يقترحها مفكرنا الكبير كحل لمشكلة « الأصالة والمعاصرة » هي الصيغة التي تجمع بين « العقل والوجدان » بحيث يكون واضحا لدينا أن مجال العقل يشمل جميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية . . . الخ التي تحتاج الى تفسير « علمي » بالمعنى الواسع لهذه الكلمة - وهو المعنى الذي يسوّى بين

البشر أجمعين ويكون هناك إمكان لعرض خطوات السير عليهم خطوة خطوة حتى نصل من نقطة الابتداء الى النتيجة التي تنتهي اليها . أما مجال الوجدان فهو مجال الفن والشعور بصفة عامة وهو مجال يتميز بأنه « ذات » خاص بالفرد ، وليس عاما مشتركا بين الناس ، ففي بدائع الفن نجد أن لكل فنان طابعه الفردي الخاص الذي يستمد من حياته الباطنية التي لا يشاركه فيها إنسان آخر . وعلى ذلك فإن علينا أن ندرك أنه في مقدمة الإصلاح ، اذا أردنا اصلاحا ، أن نربي الأجيال الجديدة على وقفة أخرى يفرق لنفسه فيها تفرقة واضحة بين ماهو عام فيحيله الى العقل وأدواته ، وما هو خاص فلا بأس عندئذ في الركون الى لغة الشعور (١١٧) . فإذا ما تساءلنا : لماذا انقضت على مصر منذ بدأت نهضتها الحديثة حتى الان مائة وخمسون سنة على الأقل ، ومع ذلك لانستطيع أن ندعى بأنها تشربت من ثقافة العصر الجديد ما كنا نتمنى لها أن تتشربه ؟ ! لماذا أصبح المتعلمون في مصر يعدون بعشرات الملايين ، ومع ذلك فإن نفورهم من رؤية الحياة بنظرة علمية تلتزم منطق العقل لا يقل عن نفور أجدادهم الذين غمرتهم موجة الظلام إبان القرون الثلاثة السابقة على بدء النهضة الحديثة . . ؟ ! إذا طرحنا أسئلة كهذه ، وجدنا لها جوابا واحدا هو : نقص في تربية العقل وإسراف في إشعال الوجدان (١١٨) . كما لو أن شيئا في تركيبنا الثقافي يوسوس لنا دائما بأن العقل وحده لا يكفي سنداً للانسان في حياته ، وأن ظواهر كثيرة تحدث متحدية العقل أن يفسر حدوثها بمنطق العلم ، فلا يسع العقل إزاءها الا

(١١٣) - Hegel: The History of Philosophy Vol. I. p. 37 Trans by H.S. Haldane. - (١١٤) قصة عقل ص ٢٢٢

(١١٥) تجديد الفكر العربي ص ٢٧١

(١١٦) قصة عقل ص ١٨٩

(١١٧) قصة عقل ص ١٢١

(١١٨) المرجع نفسه ص ١٢٢

عادات جديدة ، في تلك الحياة ، ومعناه إحلال قيم جديدة محل قيم قديمة ، أخذه الهلع ، لأنه في عمق نفسه لا يريد عن قيمه الموروثة بديلا . وهكذا تقع في أزمة حضارية من طراز نادر لأننا في الحقيقة بشابة من مجيأ ثقافتين متعارضتين في وقت واحد : أحدهما خارج النفس والأخرى مدسوسة في حناياها لا تريم ، فتري حضارة العصر في البيوت والشوارع والأسواق ، بينما تحس حضارة الماضي رابضة خلف الضلوع^(١٢٠) .

والواقع أن علينا أن نسلم بضرورة اللجوء الى العقل والى العلم الذى هو في حقيقته تجسيد للعقل في رسم السبل الناجحة . ولا يكفى أن نفاخر سائر الدنيا بأننا أصحاب قلوب عامرة بوجدانها لا فرق في ذلك بين أن يكون الموضوع المعروض للمعالجة عما تنفع أولا تنفع فيه القلوب ووجدانها : « ومن ثم كانت دعوى التى ما فتئت أكررها بوجود التفرقة الواضحة بين مجالين مجال لا يصلح له الا العقل بكل رصانته وبروده ، ومجال آخر من حق المشاعر أن تشتعل فيه ماشاءت لها حرارتها »^(١٢١) علينا أن نبدل ذلك الرأى الشائع فينا الآن والذى يقول إن العقل وعلومه - وهو لب العصر الذى نعيش فيه - عدو للوجدان ومشاعره ، ولما كانت الكثرة الكاثرة منا نصيرة للوجدان فسحقا للعقل ومناهجه^(١٢٢) . كلا ليس العقل نقيضا للوجدان وإنما لكل مجاله الخاص ، والمشكلة الأساسية عندنا تكمن في خلطنا بين المجالين أو عدم وعينا بالحدود الدقيقة لكل منهما .

وإذا كان من الباحثين من يرى أن « زواج » الأصالة والمعاصرة - أو الصيغة المقترحة للجمع بين العقل والوجدان - أمنية مستحيلة التحقيق ، أو هي فكر

أن يقف عاجزا ، ومثل هذا الشعور بعجز العقل وقصور العلم ، يملكنا بدرجة قل أن نجد لها نظيرا في شعوب أخرى وعلى الرغم من يقينى بأهمية الجانب الوجدان في حياتنا فلطالما أحسست بواجبى في الاعلاء من شأن العقل - والعقل يتبعه قيام العلم ومناهجه - حتى لو ذهبت في ذلك الاعلاء الى حد المبالغة ، لأحدث نوعا من التوازن في حياتنا بين عقل ووجدان ، إذ التوازن بينهما مفقود^(١٢٣) .

إن المشكلة الحقيقية التى نصادفها في حياتنا العملية ليست في قبول صيغة « العقل والوجدان » - وإنما في بيان مجالها من ناحية ، وما يستتبعه الأخذ بهما في دنيانا الواقعية من ناحية أخرى : سل من شئت هل تحب أن تتابع العصر في عقلانيته وتقنياته ؟ يجيبك في استعلاء بأن العقلانية وما يترتب عليها هي جزء من ميراثنا الأصيل ، لكن قل له إنها في عصرنا تستتبع عدة أمور : منها ألا تلقى بزمامك الى العاطفة أيا كان نوعها ، ومنها أن يتولى العمل من يحسن أدائه ، لا من ينتمى الى أصحاب الجاه بأواصر القرى ، ومنها أن يكون الارتكاز كله على الواقع المادى الصارم ، ومنها أن نصطنع في حياتنا نظرة علمانية تجعل محورها هنا على هذه الأرض ، قبل أن يكون هناك في عالم آخر . قل له هذا ، بأخذه الفزع ، لأنه عندما أعلن أنه من أنصار النظرية العقلية ، لم يكن قد تحيل لنفسه أنها نظرة تلد كل هذا النسل العجيب ، فهو عقلانى بالاسم ، لا بالمضمون والنتائج ، انه يقلل من العصر تقنياته ، لأنه يريد كسائر عباد الله - أن ينعم بالسيارة والطيارة وأجهزة التدفئة والتبريد ، لكن إذا علم أن إدخال هذه الآلات في حياتنا معناه إدخال

(١٢٠) قصة عقل من ١٢٢

(١٢١) لقاءات في مواجهة العصر من ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(١٢٢) قصة عقل من ١٤٠ - ١٤١

(١٢٣) قصة عقل من ٢٣١

بالتنقي فحسب ، فان مفكرنا الكبير يعتقد أنها قد تحققت بالفعل في تراثنا القديم ، وأن لها أمثلة كثيرة في فكرنا الحديث أيضا - وبالتالي فهي ممكنة التحقق ، بل لا بد من تحققها في فكرنا المعاصر .

لقد ألفت الناس قبل ظهور الاسلام ضربين من الحضارة ومن الثقافة ، اختلفا فيما بينهما الى حد التنافر ، بل الى حد الدخول في حروب مستمرة ، وهاتان الحضارتان هما حضارة الفرس وثقافتهم من جهة ، وحضارة اليونان وثقافتهم من جهة أخرى ، المحور في الحالة الأولى هو « الوجدان » - أو هو « الاملاء » إملاء القلب أو الوحي أو الحدس - يفرض على الانسان طريقة فكره ونمط سلوكه . والمحور في الحالة الثانية هو عقل الانسان يقيم له الحجة على الباطل فيرفضه ، ويسوق له البرهان على الحق فيرتضيه . . . وكان الظن هو ألا سبيل الى لقاء بين « شرق » متمثلا في فارس ، و « غرب » متمثلا في اليونان ، ثم جاء الاسلام في أوائل القرن السابع الميلادي ، ومع فتوحاته انهدمت الفواصل بين الثقافتين ، أو قل انها اندمجت في خطوة أولى على طريق المواطن العالمي ، وكان ذلك الدمج الباهر هو الذي أخرج الى العالم تلك الصيغة الحضارية الثقافية الاسلامية الجديدة التي ألفت في مركب واحد : صوفية الفرس وعقلانية اليونان . وهذه الطبيعة الثالثة الجديدة قد جمعت بين إدراك الحدس الصوفي وإدراك العقل الاستدلالي بحيث احتملت الحياة الثقافية الاسلامية أن يظهر فيها أعظم المتصوفة وأعظم مناهضة العقل في آن معا (١٢٣) .

ورسائل مفكرنا الكبير « لماذا استطاعت ثقافة

المسلمين أن تنقل في عصر المأمون ، بصفة خاصة ، ما نقلته من فلسفة اليونان وعلومهم الى اللغة العربية ، ولم ينقلها أهل الهند أو أهل الصين الى لغتهم ؟ ! ويجب : إن العلة لم تكن في لغة تستطيع ولغة أخرى لا تستطيع ، بل العلة هي أن ثقافة تتقبل منطق العقل (الى جانب الوجدان) وتهضمه ، وثقافة أخرى لا تتقبله ولا تهضمه (١٢٤) . كان القرآن الكريم هو كتاب المسلمين (والدين لا يلجأ في أية جهة يظهر فيها الى الاستدلال العقل) وإنما هو يأتي برسالة موحاة من الله أو غير موحاة مثل أنبياء الشرق الأقصى فيتقبل الناس فحوى هذه الرسالة فإذا بها دين وعقيدة ، فهو إذن لمحة قلب ، أو نبضة وجدان أو « حدس » بالمصطلح الفلسفي أو هو إدراك مباشر (١٢٥) .

إنه إيمان لا يستند الى برهان ولا يراد له أن يستند الى برهان ، لأن الانسان لا يريد برهانا على صدق وجدانه ، أو صحة شعوره يشعر به مباشرة في طوية نفسه : إذا كنت جائعا وأشعر بالجوع فلست أريد البرهان من أحد على أني جائع أو على أني أحب - تلك حالات وجدانية داخلية يقبلها صاحبها قبولاً مباشراً ، لا هو يريد لنفسه أن يبرهن على صدقها ، ولا هو متوقع من سواه أن يبرهن له عليها . وهذه الرؤية المباشرة التي لا وسيط فيها لا تقتصر على الدين فحسب ، وإنما هي مجال كل ما ينتج الوجدان من فن وأدب وتصوف . . الخ .

لكن على أساس هذا الدين الجديد قامت علوم عقلية - فإذا كان الدين ليس علما ولا هو يحتوى على علم لأنه في صميمه رسالة أخلاقية - فإن من أعظم ما يفسد به الدين الاسلامي هو أنه حث الناس على أن يعملوا

(١٢٣) عموم المتفقين ص ٨٢ - ٨٣

(١٢٤) المرجع نفسه ص ٨٤

(١٢٥) قد لا يوافق البعض على ذلك على اعتبار أن التشريع الذي يراد منه أن يحكم الانسان في كل زمان ومكان ، وبالتالي فهو يستحيل أن يكون « لمحة قلب » أو « نبضة وجدان » .

يستهدفه بهذا الجهد ؟ ! فهم القرآن فهما سلبيا . ولتلاحظ هذه الوقفة نفسها ، برجل يبحث في اللغة بحثا علميا ليفهم دينه . ولنتنظر في هذه الوقفة فقط ، ونتخيلها فماذا نجد ؟ ! نجد أمامنا رجلا عالما اذا شئت ، متدينا اذا شئت ، لأن كليهما في « دمج واحد » ، بل انه حين أراد العلم انما اراده من أجل الدين . وهذا الوجود ذو الوجهين المتكاملين هو جمع للنمطين السابقين في نمط واحد^(١٢٦) .

تلك هي الصيغة المقترحة لحل ثنائية الثقافة التي نعيشها الآن وفي استطاعتنا أن نضرب أمثلة أخرى كثيرة على وجود هذه الصيغة في ثقافتنا القديمة أعني الجمع بين « العقل » و « الوجدان » بين ثقافة اليونان وثقافة الفرس في ثقافة جديدة خلد مثلا « علوم الدين » - وهي بناء علمي أقيم لخدمة الدين : الفقه مثلا ، نحن أمام نص قرآني ، وبمجموعة أحاديث نبوية وتريد أن تستخرج الأحكام الشرعية - وهي ليست ظاهرة كلها لكل انسان - وانما الظاهر منها قليل ، والباقي يحتاج الى عقل وعلم يستخلص من الآيات الكريمة ماقد كمن فيها من أحكام شرعية فهي أذن عملية عقلية - وعلينا مرة أخرى أن نمنع النظر في « فقيه » يقوم بهذا الدور لنجد أنه إنسان متدين وعالم في آن معا . وليست المسألة هنا مجرد تجاوز العنصرين وانما العنصران متشابهان لأن أحدهما جاء ليخدم الآخر ، فإذا هما كيان واحد ، فكأنما نجد النمطين السابقين في نمط واحد^(١٢٧) .

خذ مثلا ثالثا « علم الكلام » الذي سمي كذلك لأنه نشاط عقلي ينصب على تحليل « كلام » الله الذي هو القرآن الكريم . فالله « واحد » ، لكن هذه الذات

عقولهم ليكتشفوا قوانين الكون ، وبمجرد نزول القرآن لم يكذب يضي ثلاثة أرباع القرن بعد الرسالة حتى ظهرت حركة عقلية جديدة ، ففي المناخ الذي نزلت فيه الرسالة المحمدية كان الايمان مشتتلا في القلوب ، وتلك هي الخطوة الأولى ، عندما تؤخذ الرسالة الجديدة مأخذ التصديق الذي يؤمن فحسب ، ثم تأت الخطوة الثانية ، وهو أن يصب أصحاب التحليلات العقلية تحليلاتهم على ذلك الذي كان موضع إيمان في الخطوة السابقة .

في القرن الثاني الهجري ظهرت مجموعة من المفكرين صممت على أن تفهم القرآن الكريم حق فهمه ، كيف ؟ ! كان من المنطقي أن يبدأوا بدراسة اللغة العربية نفسها لتجتمع لهم أدوات الفهم الصحيح . فلم يريدوا الوقوف من اللغة موقف المتذوق وكفى ، بل أرادوا أن يجعلوها دراسة علمية بأدق ما يكون المنهج العلمي . ولم تكن قواعد اللغة قد استخلصت وجمعت حتى ذلك الحين ، فانصرفوا الى استخلاصها وجمعها . وهنا تشعب الباحثون الى شعبتين الأولى مقرها البصرة ، والثانية مقرها الكوفة . ومن ثم فأول مانجده من أنشطة عقلية هي هذه الدراسات اللغوية التي رأيناها في مدرسة « الخليل بن أحمد » وتلميذه سيويه في البصرة ، والكسائي في مدينة الكوفة - وكذلك ما بذلته المدرستان في استخراج الأسس التي لا بد من الكشف عنها لكي تفهم اللغة العربية على أساس علمي صحيح . ولنلاحظ جيدا أن هذا الجهد يبذل لأول مرة في التاريخ ، فلم يحدث أن تصدى عالم قبل ذلك لاستخراج قواعد اللغة أو عروض الشعر أو الاشتقاق ، فوضع الخليل بن أحمد المعجم الأول عندما جمع المفردات من أفواه الناس لأول مرة ، فما الذي كان

(١٢٦) موم الملقين ص ٨٥ - ٩١ - وقارن الحوار الذي أجراه الزميل الدكتور صلاح قنصوه مع الدكتور زكي ل مجلة المستقبل العرب .

(١٢٧) المرجع نفسه

الواحدة لها صفات كثيرة من علم وإرادة وقدرة ورحمة . فهل تعدد الصفات في الذات الواحدة لا يعطيها شيئاً من التعدد ؟ ! نحن نؤمن « بالواحد » لكننا نحتاج الى عملية عقلية تبين لنا كيف أن تعدد الصفات لا يتناقض مع الواحدية المطلقة . . الخ . لكن انظر مرة ثالثة الى القائمين بهذه العملية العقلية وحاول أن ترى جوهر الرجل منهم ماهو ؟ انه دمج للنمطين في غط واحد فهو دين وعقل معا . وقل مثل ذلك في الفلاسفة المسلمين : فمن هو الفيلسوف المسلم ؟ هو رجل أراد أن يقرأ نتائج العقل اليوناني بلغة الشريعة ، أو أن يقرأ الشريعة بلغة العقل ، وعنوان كتاب ابن رشد فيه الكفاية : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » حلل رجلاً كهذا نجد أنه أراد أن يدمج العقل اليوناني مع الشريعة الاسلامية في كيان واحد (١٢٨) .

إذا كانت هذه الأمثلة - وغيرها كثير - تنصدر التاريخ الذي ازدهرت فيه الحضارة الاسلامية - أيكون من الصعب أن نوفق من جديد الى الدمج بين « العقل » و « الوجدان » ؟ ! يصعب علينا أن نرتبط عن طريق العقل بعصرنا الذي هو جوهر العلم ، ونرتبط بماضينا عن طريق الوجدان الذي هو بطبيعته لا يتقدم ؟ ! فالنص الديني « يبقى كما هو ، في حين تتقدم علوم الدين أو علوم اللغة لأنها نشاط عقلي ، كما أن كلمة « التقدم » قد تكون بغير معنى في الآداب والفنون » فقد لا يستطيع شاعر من شعرائنا اليوم أن يجاري امرئ القيس وقد لا يستطيع أحد من رواة الحكايات في يومنا أن يقترب من الذروة الأدبية التي بلغتها ألف ليلة وليلة ، لا ، إن التقدم لا يكون إلا في معرفتنا العلمية (أو

العقلية) أما ما هو خاص بالوجدان ، فلا تقدم فيه ، فلا أظن أن الأم العصرية الشكل تبكي فقيدها على نحو أكمل من بكاء الأمهات بالأمس ، ولا أن يغني عاشق في عشق حبيبته بأكثر مما غنى قيس في عشق ليلاه . . . (١٢٩) .

وفي ظني أن هذه الفكرة تحل مشكلة الجماعات الدينية التي تدعونا الى أن نعود الى الماضي بوصفه أزهي عصور الاسلام - وذلك يكون ممكنًا بالنسبة للمسائل الوجدانية التي لا تتقدم : نقاء القلب ، وإخلاص السريرة وحلاوة الايمان . . كذلك ماضي الماضي من فن أو أدب - أما العلوم والمعارف بجمع أنواعها فلا بد أن تكون هي علوم العصر لأنها مجال « العقل » وهو وحده الذي يتقدم .

فإذا تساءلنا : « من الذي أراه ياترى يجسد لنا بشخصه المتعين ذلك الضرب من اللقاء بين تراثنا ومنتجات عصرنا في دنيا الفكر ؟ ! إن أول من يرد الى خاطري كلما ألقيت على نفسي هذا السؤال هو : طه حسين ، فالى جانب مؤلفاته ذات القيمة الكبرى ، أرى في شخصه ماهو أهم منها فيما نحن الآن بصدد الحديث فيه ، وأعني بذلك طريقتة في الجمع بين موروثنا وروح عصرنا ، أما موروثنا فلا أظن أحداً يجادل في سعة إلمامه بذلك الموروث إلماماً فيه الدقة وفيه الفهم ، وأما روح العصر فظواهر في منهجه وفي رؤيته وفي تصوره . . . (١٣٠) . وأسوق مثالا آخر لرجل جمع في شخصه الحسنيين وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق فهو الآخر يلم بالموروث إلماماً يجعل ذلك الموروث على أطراف أصابعه ، وهو في الوقت نفسه يحيط بأهم مادار في عقول علماء الغرب في ميدان تخصصه (١٣١) .

(١٢٨) المرجع السابق

(١٢٩) نقائنا في مواجهة العصر ص ٢٠١

(١٣٠) عن الحرية أحدث ص ١٩٢

(١٣١) نقائنا في مواجهة العصر ص ٢٠٦ - ٢٠٧

القسم الأول : مجال التحليل العقلي

يمكن إن تقول ان زكي نجيب محمود قدم الكثير لمجال العقل ابتداء من محاولاته لتحديد مفهوم العقل « نفسه - كما سبق أن أشرنا - مبنيا على مجالات استخدامه ، الى محاولته إشاعة النظرة العقلية على نحو ما حددها في النقاط الخمس السابقة . لكن هناك جانباً بالغ الأهمية هو استخدامه للفاعلية العقلية أو النشاط العقلي في تحديد وتحليل كثير من المفاهيم الشائعة والقراء الضوئية عليها ، وهي مهمة شاقة في مجتمع اعتاد أن يرسل القول على عواهنه ويستخدم الفكرة الغامضة لمجرد أنها موجودة ، أو لأنها تثير وجدانه ، مع أن الحياة الفكرية بمعنى من أدق معانيها هي تحديد الفواصل بين المعاني المتداخلة ، أو المتشابهة : ولك أن تحكم على أمة بدرجتها في مدارج الحياة الفكرية بمقدار ما استطاع أبنائها تحديد المعاني التي يتداولونها . (١٣٤) . وهذا هو الدور الذي تقوم به : « الفاعلية الفلسفية » فمما توصف به الفاعلية الفلسفية ، أحيانا أنها محاولة لتوضيح المفاهيم التي تقع عند الناس بين الجهل التام والعلم التام ، يعنى أنها مفاهيم يتداولها الناس وهم على بعض العلم بها ، فلاهم يجهلون بها كل الجهل ، ولاهم يعلمونها كل العلم فتتناولها الفلسفة بالتحليل والتوضيح لعلها تبلغ من معانيها مبلغ التحديد الدقيق الحاسم ، فهذه المفاهيم التي تقع عند الناس وسطا بين الغموض والوضوح هي أشبه بمدينة تراها على مبعده فترى يروا عمدا في الأفق (١٣٥) .

وهكذا قل في كثير جدا من المفاهيم والأفكار التي تتداولها في مجرى حياتنا الفكرية ، بل في مجرى حياتنا

والحق أننا نستطيع أن نطبق الفكرة نفسها على جميع أعلام نهضتنا الثقافية الحديثة ابتداء من رفاعة الطهطاوى حتى زكي نجيب محمود نفسه ، فكل واحد من هؤلاء المفكرين الأعلام كان أصيلا من حيث إلمامه بالتراث لكن كان أيضا معاصرا عندما وقف على ثقافة العصر ولهذا جاء فكره مركبا من الاثنين معا . اننا لا نريد للثقافتنا أن تفنى في ثقافة غيرنا بحيث نجعل منهم نموذجاً لنا نتحدث به ، وانما نريد أن ينحصر تفردنا الثقافي في تلك الجوانب التي تميز الشعوب ، والتي هي في الوقت نفسه ليست مقياس التقدم الحضارى - هو جانب العقل - وأعني بها جوانب القصيدة والفن (١٣٦) .

والخلاصة أنه ليس من المحتم أن يكون إما الحياة كلها للعلم ومنهجه الاستقرائى وإما الحياة كلها للانضواء تحت مبادئ مقبولة سلفا - فليس من المستحيل أن نحيا في ساحة من قسمين لكل منهما منهجه الذى يلائمه : فقسم للعلوم وما يتفرع عنها من صناعات ، ويكون له منهجه القائم على تقصى الوقائع قبل صياغة القوانين ، وقسم آخر لحياة الوجدان والقيم الخلقية والجمالية وفيها يكون السير مهتديا بمبادئ مسبقة (١٣٧) .

وفي استطاعتنا أن نقول ان زكي نجيب محمود نفسه مثل حى متعين لهذه الصيغة التي يقترحها لحل مشكلتنا الثقافية - صيغة الدمج بين « العقل » و « الوجدان » - ولهذا فإن من السطحي أن نسأل الآن : ما هي الإسهامات التي قدمها هذا المفكر في كل مجال من هذين المجالين .

(١٣٢) لقاقتنا في مواجهة العصر ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١٣٣) قيم من التراث ص ١٩ .

(١٣٤) قيم من التراث ص ١٥٢ .

(١٣٥) هموم المتطفين ص ٦٦ .

المجموعة الأولى : أفكار سياسية

(أ) - المثقف الثوري : في الستينات ظهر تعبير « المثقف الثوري » وشاع على أقلام الكتاب وكان على مفكرنا الكبير أن يطرح على نفسه هذا السؤال « متى يكون المثقف مثقفاً وكفى ، ومتى يكون مثقفاً وثورياً معاً ؟ ! » ويجب من خلال منظورين « لاسراء والمعراج » . أما الأول فهو حديث للرسول ﷺ أورده ابن عربي يقول فيه « ما ابتلى أحد من الأنبياء بمثل ما ابتليت به » . مشيراً بذلك الى رجوعه من حالة الرؤية ، « رؤية الحق » الى دنيا الناس ليخاطب فيهم من ضل ليهديه سواء السبيل . والمنظور الثاني : حديث لواحد من الصوفية يقول « صعد محمد النبي العربي الى السموات العلى ، ثم رجع الى الأرض ، قسماً برى لو بلغت هذا المقام لما عدت أبداً . . » ونحن هنا أمام شطرين مختلفين من الوعي : الأول تتميز به حالة النبوة ، والآخر حالة المتصوف الذى يشاهد « الحق » ويتمنى ألا يعود الى الناس ، فإذا عاد كانت عودته غير ذات نفع كبير لأنه سيحصر نفسه في ذاته متشياً بما قد شاهد (١٣٩) . وهذا نحن أمام رجلين : رجل يرى الحق فتكفيه الرؤية ، ورجل يرى الحق فلا يستريح له جنب حتى يغير الحياة وفق مآرائى ، ولست أرى ما يمنع من التوسع في التطبيق بحيث نجعلها تفرقة بين المثقف الذى ينعم بثقافته ثم لا يغير من مجرى الحياة شيئاً . والمثقف الذى لا ينعم بثقافته الا إذا استخدمها أداة لتغيير الحياة من حوله . وفي هذه الحالة الثانية يكون المثقف مثقفاً واثراً معاً . . « (١٤٠) » .

العملية ، والتي نشعر أن الحياة ، فكرية أو عملية متعلّدة ، يدونها ومع ذلك فعلمنا بها لا يكاد يتعدى علمنا بأن الأفق البعيد مدينة كبيرة . وما هنا يكون عمل الفلاسفة أن تدوننا من تلك المفاهيم لنراها في تفصيلاتها ودقائقها . والعجيب أن يهتمك الناس نتيجة لهذا التحليل بأنك تعقد البسيط وتصعب السهل ، حين جاءهم الفيلسوف بتحليل يفكك لهم أوصال المفاهيم التي يتداولونها فثاروا في وجهه كأنهم كانوا يجدون النعمة في الفهم المبهم ، ويخشون أن يفسد تحليل الفلاسفة عليهم ما كانوا به ينعمون (١٣٦) .

كانت طريقتة أن يمسك بعدسة مكبرة تكشف للقرّاء عناصر الفكرة التي هي مدار الحديث ، فذلك وحده كفى أن يزيل ضباب الغموض الذى يكتنف المفاهيم المحورية التي عليها تدور ثقافتنا (١٣٧) . فالتوضيح معناه تحليل المفهوم الغامض لاستخراج العناصر الداخلة في تكوينه لكى نفهمه ، تماماً مثل أى عملية كيميائية فلكى تفهم الماء أو الهواء ، أو قطعة الفحم ، أو ماشئت ، فهما علميا عليك بتحليلها في المعامل ، وكذلك التحليل العقلى للأفكار الغامضة عليك أن تحللها تحليلاً عقلياً لكى تكشف عناصرها ومكوناتها التي دخلت في تكوينها (١٣٨) .

وإذا أردنا أن نقدم نماذج لهذه الأفكار التي قام أستاذنا الكبير بتحليلها لوجدنا أنها كثيرة كثيرة لافتة للنظر ، ولهذا فلا مندوحة لنا عن تقسيمها الى مجموعات ثم نقدم من كل مجموعة أمثلة قليلة .

(١٣٦) المرجع نفسه .

(١٣٧) قصة عقل ص ١٣٣

(١٣٨) من حوار أميراء الزميل د . صلاح قصصه مع مفكرنا لمجلة المستطيل العربى - مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٨٨

(١٣٩) في حياتنا العقلية ص ١٤٢ - ١٤٣

(١٤٠) المرجع نفسه ص ١٤٤

رغبة ولا عاطفة أجدى على الانسان من عقله (١٤٣) .
« ومثلنا الثاني للمثقف الثوري هو أفلاطون : ارتسمت في ذهنه صورة عقلية للدولة المثل كيف تكون بحيث تهيء دولة قائمة على دهامة العدل » وأخذ في معاورة « الجمهورية » بفصل القول في صورة هذه الدولة العادلة . . . ولو اكتفى أفلاطون بهذه الصورة لعددها « مثقفاً » يرى الفكرة ويحللها فيستريح ويستريح ، لكنه كان مثقفاً ثورياً وهو يلتبس طريق التنفيذ لفكرته التي ارتآها عند تلميذه ديونيسيوس الشاب الذي آل اليه الحكم في سراقوصه بجزيرة صقلية . . (١٤٤) . كذلك كان الغزالي في تاريخ الفكر الاسلامي هو خير الأمثلة التي تُضرب للمفكر الثوري لأنه غير بفكره حياته وحياة الناس من بعده لعدة قرون . . . وفي حياتنا الفكرية الحديثة يقوم « جمال الدين الأفغاني » بدور سقراط : يجادل ويناقش ويخلق التلاميذ والأتباع ويشعل الروح ويوقظ النفوس . . كذلك كان تلميذه « محمد عبده » يدرس ليصلح ويبني وينشيء ويعلم ويربي ولم يكن « مثقفاً » وكفى بل كان « مثقفاً ثورياً » . وقل مثل هذا في قاسم أمين ولطفي السيد ، الأول يكتب ليغير نصف الشعب « المرأة » ، والثاني ليؤصل حياة سياسية على أصول ديمقراطية .

وهكذا يسير بك في تحليله العقلي لمفهوم ظهر في حياتنا الثقافية الى آفاق لم تكن في الحسبان . بل لم يتصور من استخدموا هذا المفهوم أنه يمكن أن ينسل هذا النسل كله !

لكن ذلك يحتاج الى تحديد أكثر : فصفاً و الثورية « حين تضاف الى المثقف أكثر انطباقاً على ميدان العلوم الانسانية منها على ميدان العلوم الطبيعية : فلا يجوز أن يقال عن عالم الرياضيات الذي درسها وطبقها في بناء الجسور انه مثقف ثوري لأنه طبق ماتعلم . كلا ! فالفرقة مقصورة على أصحاب الثقافة الانسانية ، لأنها هي التي تشمل القيم ، والقيم هي التي يصيها التغيير حين يقال ان ثورة قامت فغيرت وجه الحياة (١٤٥) .

لكن هذا التحديد لا يزال غير كاف ، لأن الذي يغير وجه الحياة قد يغيرها الى الوراء لا دافعاً بها الى الأمام ، في حين أن الثورية تضاف الى المثقف الذي يدفع بالحياة الى الأمام في مقابل « الرجعية » لمن يريد أن يرد الحياة الى الوراء . غير أن الصدقة تحتم علينا أن نفهم معنى « الأمام » و « الوراء » لأنها لا تكون مفهومة الا بالنسبة لهدف معلوم ، وهكذا نستطيع أن نحدد « المثقف الثوري » تحديداً أكثر دقة بقولنا انه من أدرك مثلاً جديدة للنحية الانسانية ، وحاول تغيير الحياة وفقاً لها ، شريطة أن يحىء هذا التغيير في الاتجاه الذي يسير فيه التاريخ بحيث تتسع الرقعة البشرية التي تتمتع بما كان مقصوراً على القلة من جوانب القوة والحرية والعلم وسائر أوجه الكمال (١٤٦) .

والطريف أنه يجعل من سقراط النموذج الأول « للمثقف الثوري » لأنه لا يستريح ولا يطمئن ، حتى يحمل الناس على قبول ما ارتسم في ذهنه من وجوب أن يكون زمام الأمور كلها لمبادئ العقل : فلا نزوة ولا

(١٤١) في حياتنا العقلية ص ١٤٥

(١٤٢) المرجع نفسه ص ١٤٦

(١٤٣) في حياتنا العقلية ص ١٥١

(١٤٤) المرجع نفسه ص ١٥٢

(ب) إرادة التغيير

لم يكن زكي نجيب محمود في يوم من الأيام منتبهاً الى حزب سياسي معين ، ولكنه كان يتخذ على حد تعبيره « موقفاً سقراطياً » هو أن يكون صاحب رأي مستقل . من حقه إبداء الرأي وتوجيه النقد لكثير من أوضاع مجتمعه ، دون أن يلتزم بأفكار حزب معين أو بموقف « أيديولوجي خاص » . ولقد أمده هذا « الموقف المستقل » بحرية الحركة في نقد وتحليل أي مفهوم يظهر على مسرح حياتنا الثقافية أو السياسية دون أن يجد في هذا التحليل حرجاً ولا غضاضة ولهذا تراه قابلاً في قلمه ممسكاً بموضع التحليل يتلقف كل ما يظهر من أفكار ومفاهيم ليبدأ عمله ! لا يهيم بعد ذلك المصدر الذي أطلق الفكرة - رئيس الجمهورية أو جمهور الناس في الشارع - فبعد حرب السويس تحدث الرئيس جمال عبد الناصر في إحدى خطبه داعياً الى « إرادة التغيير » التي نحن أحوج ما نكون إليها ، ويتلقفها مفكرنا الكبير ويضعها تحت عدسته المكبرة فاذا بهذا التعبير يتحول الى تحصيل حاصل ! فهما مترادفان ! « إرادة التغيير » كلمتان صيغتتا على صورة المضاف والمضاف اليه كما نقول : قراءة الكتب أو « رؤية الشمس » . . وهما معاً تكوينان أحد المبادئ التي نستهدفها في بناء حياتنا الجديدة ، وهما من ذلك الضرب من المفاهيم التي يكون الناس منها على درجة وسطى بين « الجاهل والعلم » ، ومن ذا لا يستخدم كلمة « إرادة » وكلمة « تغيير » في حديثه الجاري وهو على بعض العلم بما تعني هذه الكلمة أو تلك ؟ . . (١٤٥) .

وينتهي من تحليله الى أنه لا انفصال بين الإرادة والعمل ، حتى ليصبح من اللغوان نقول عن إنسان أن له « إرادة » لكنها لا تجهد العمل الذي تؤديه ، والا كنت كمن يقول إنه يأكل ولا طعام أو يشرب ولا ماء !

الإرادة هي نفسها العمل الذي يحقق الهدف ويزيل ما قد يحول دون تحقيقه شريطة أن يكون الهدف هو هدفك أنت ، والا كنت آلة مسخرة في يد صاحب الهدف ، انك في العمل الارادي أنت الأمر والمأمور ، إنك وأنت تعمل العمل الذي تسعى به الى تحقيق أهدافك فأنت عندئذ بجميع سلوكك تجسّد للإرادة وتنفيذها . . (١٤٦) .

وهكذا نجد أن قولك « إرادة التغيير » لا يزيد شيئاً عن قولك « الإرادة » . لأن هذه لا تكون بغير فعل ، ولا فعل بدون تغيير ، فسواء أكان التغيير الحادث ضئيلاً أم جسيماً فهو تغيير ، لأنك لا تفعل الفعل في خلاء ، بل لتحرك به شيئاً فتغير مكانه . وباختصار كل إرادة فعل ، وكل فعل حركة وتغيير ! ومن ثم فلا ينبغي أن نتحدث عن « إرادة التغيير » بل عما نريد تغييره ، أو الهدف الذي من أجل تحقيقه تغير ما تغير ، وهو يقترح أن يتجه التغيير الى المعايير والقيم التي تسود حياتنا ويضرب لها مثلاً بالتوحيد بين العام والخاص « فنحن بما ورثناه من تقليد اجتماعي أحرص ما نكون على « الملك الخاص » ، وأشد ما نكون اهتماماً « للملك العام » كما هي الحال في العناية الواجبة بالابن والعناية الواجبة بالمواطن البعيد . والعناية بتنظيف الدار من الداخل

(١٤٥) في حياتنا العقلية ص ٦٧

(١٤٦) المرجع نفسه ص ٦٩

١ - أبناء القرية في تمسكهم بأخلاق الريف الزراعي يعدون أنفسهم أسرة واحدة أو كالأُسرة الواحدة ، ومن هنا كان مصدر صلاتهم ، لكن من هنا أيضاً كان مصدر التخلف الحضاري عندهم ، ذلك لأن الشعور الأسري هو في الأساس مصدر « المحسوبة » . فيكفي صاحب الحكم أن يعلم أن بينه وبين فلان تلك العلاقة الوثيقة ليجعله « محسوباً » عليه مما يلزمه إلزاماً خلقياً أن يسأله ولو بغير حق ، وهي مساندة غالباً ما يبيح ثمنها أن يدين المحسوب لولي نعمته بالولاء . . . وهكذا تظهر النتائج الفاضلة . ١

٢ - العلاقة بين أفراد القرية قائمة على ما تقضيه روابط الدم - أعني روابط القرى - وكثيراً ما يكون ذلك على حساب المصلحة القومية التي تتجاوز القرية وأبنائها ، فالحضارة الصناعية أدت إلى أن تجمع ألوف العمال في مصنع واحد ، بل ويسكنون عادة في حي واحد ، مما أدى إلى علاقات اجتماعية من نوع جديد هي العلاقات التي تتمثل في التقابات وسرعان ما يصيب الهدف المشترك لا خدمة أسرة واحدة ، بل خدمة حرفة صناعية معينة ، وخدمة القائمين بها . وهنا تتغير معاني طائفة كبيرة من الألفاظ الخلقية كالعدل والكرامة والتعاون (١٥١) .

٣ - إذا كان في الدعوة إلى أخلاق القرية رومانسية تشيع الخيال ، فإن فيها الكثير من جوانب القصور :

والعناية بتنظيف الطريق العام ، بين المال الذي تملكه والمال الذي تملكه الدولة ، بين العيادة الخاصة يديرها الطبيب الذي يستغلها ، والمستشفى العام يديره الطبيب نفسه - ولكنه يديره باسم الدولة (١٤٧) . وقل مثل ذلك في محاي « الجاه » و « الصدارة في المجتمع » والزهو بعدم الخضوع للقانون . . الخ (١٤٨) .

(ج) أخلاق القرية

وعندما تحدث الرئيس السادات عن أخلاق القرية (١٤٩) زاعماً أنها الأخلاق المثلى ، وأنه يريد أن يعود بالمجتمع إلى مثل هذه « الأخلاق الرفيعة » - تصدى مفكرنا الكبير لتحليل الفهم الغريب لأخلاق القرية . وكان مما قاله « إن أخلاق القرية هي الأخلاق التي أفرزتها الحضارة الزراعية الرفيعة ، وبمقدار ما نريد المحافظة على شيء من هذه الحضارة تكون الحكمة في المحافظة على أخلاقها . غير أن الاتجاه العام الذي يسود عصرنا هو تحويل القرية إلى مدينة لا تحويل المدينة إلى قرية ، فالأقرب إلى التصور أن يتحول الفلاح إلى عامل زراعي بكل ما تحمله كلمة عامل الآن من حقوق في الأجور والتأمينات والانتماء النقابي وغير ذلك . لقد جاءت قيم الحضارة الصناعية لتبقى وتسود وليس لنا عن ذلك عيب (١٥٠) .

ثم يستطرد أستاذنا الكبير فيعدد « مساوئ » أخلاق القرية التي يشيد بها السيد رئيس الجمهورية :

(١٤٧) في حياتنا العقلية ص ٧٤

(١٤٨) المرجع نفسه ص ٧٥

(١٤٩) وكذلك إذا تحدث رئيس الجمهورية الحالى عن « الصحوة » كتب مفكرنا الكبير « نريدنا صحوة واعية » قارن تحليله لهذه الفكرة في كتابه « عن الحرية » ص ٢٩١ وما بعدها

(١٥٠) أفكار ومواقف ص ٢٦٩

(١٥١) المرجع نفسه ص ٢٧١

والاجتماع والسياسة . . فضلاً عن مضمون الأدب دون الشكل ، ومضمون الفن التشكيلي وشكله معاً عند مَنْ يطالبون الفنان بأن يحمل فنه رسالة في الاقتصاد والاجتماع^(١٥٥) .

(هـ) الطاغية :

لست أرى أن أنهي هذا القسم بأفكاره ومفاهيمه السياسية قبل أن أتحدث بسرعة عن تحليل مفكرنا الكبير لمولد الطاغية كيف يكون ؟ ! فهو يراقب عصفوراً جاء يلتهم حبات أرز وضعت في وعاء في الشرفة الخارجية للمنزل ، فما أن حطَّ العصفور على مقربة قريبة من الأرز حتى أخذ يلتفت بحركة سريعة هنا وهنا قبل أن يقدم على التقاط الحب كأنما أراد أن يستوثق من غيبة الرقيب حتى إذا اطمئن بعض الشيء خطا خطوتين في حذر شديد وأصبحت حبات الأرز على ملقطة منه ، لكنه مع ذلك تريت لحظة وراح من جديد يلتفت يمنة ويسرة فلما لم يجد ما ينذر بالخطر التقط حبة واحدة بلقطة سريعة ثم سكن لحظة وعاد يلتفت فلما لم يجد الا الهدوء والأمان انكب على الأرز يلتهم منه ما يملا حوصيلته وطار^(١٥٦) .

وهو هنا يصور لنا كيف يبدأ المعتدي بالخذر والخوف حتى اذا ما أمن مغية الاعتداء ملأته الشجاعة ، فاقبل على العدوان بكل قدرته وهو مطمئن آمن أو قل إنه كالمطمئن الآمن لا يحول شيء بينه وبين السير في الشوط الى آخر المدى . أن سكوت صاحب الحق المنهوب

ليس فيها مثلاً مكان لدقة الزمن باعتبارها فضيلة ، فأدق ما تعرفه أن يقال صبح ، ضحى ، عصر ، وغروب ، ولذلك يضيق ابن القرية عندما تطالبه بتسويق يلتزم الساعة والدقيقة . فإذا عرفنا أن دقة الزمن من الركائز الأساسية في الحضارة الصناعية القائمة ، علمنا أن أخلاق القرية لم تعد تسعف مَنْ أراد المشاركة في حضارة هذا العصر^(١٥٧) .

(د) يمين الفكر ويساره

ومن المفاهيم الغامضة التي استخدمت بدلالات سياسية أيضاً « اليمين واليسار » فهما كلمتان تستعملان على نطاق واسع للتفرقة بين الأفكار والمواقف والأشخاص : فهذه الفكرة من اليمين وتلك من اليسار ، وكذلك هذا الموقف وذلك ، وهذا الرجل وذلك . وكثيراً ما يوصف من وضع في زمرة اليمين بالرجعية واللاعلمية ، لأن اليسار وحده هو التقدمي والعلمي ، وليس الأمر من قلة الشأن بحيث نتركه يمضي بغير تحديد . . .^(١٥٨) .

وينتهي من تحليله هذين المفهومين الى نتيجة : « أراها محتومة حتماً وهي أن ليس هناك فواصل فارقة في ميدان الفلسفة بين يمين ويسار ، وكذلك لست أعتقد أنه يسطوف لأحد يسأل أي يكون في « العلم » يمين ويسار . . .^(١٥٩) » .

لكن هذه التفرقة تكون واضحة في مجال الاقتصاد

(١٥٧) أفكار ومواقف ص ٢٧١

(١٥٨) في حياتنا المعاصرة ص ٨٩

(١٥٩) المرجع نفسه ص ٩٤

(١٥٥) المرجع نفسه ص ١٠٠

(١٥٦) أفكار ومواقف ص ١٦٥

المسألة عند هذا الحد لسان الأمر ، لكنه يتقلب « متطرفاً » إذا هو أراد أن يحمل الآخرين بالقوة - كائنه ما كانت صور القوة على مشاركته فيما يعتقد (١٥٨) .

وينتهي مفكرنا الكبير من تحليله لمفهوم التطرف الى أن هناك أربع خصائص للمتطرف في مجال الدين أو في أي مجال غير الدين هي : -

أولاً : سمة أساسية للمتطرف وهي سمة تؤخذ عليه أن يقوم بأرهاب الآخرين لأرغامهم على قبول ما يدعوا اليه هو وزمهرته ، وفي ذلك الارهاب يسكن جوهر التطرف ، فليست المسألة أنه يختار لنفسه وجهة نظري الأفكار والمواقف من خلالها ، وإنما المسألة أنه يريد أن يُرغم الآخرين بالقوة على الأخذ بها . فقد كانت وجهة نظر « الخوارج » مثلاً خالياً عما يؤخذ عليهم ، ومع ذلك فقد نفرت منهم الأمة الإسلامية ، لماذا . . . ؟ كانت العلة في تطرفهم هي اللجوء الى القسوة العنيفة إرهاباً لكل من وقعت عليه أيديهم حتى يوافق على وجهة نظرهم ، وإذا لم يفعل قتلوه بأسفطع صور القتل وأبشعها ، مع أنهم كانوا لا ينقطعون عن عبادة الله لحظة واحدة . ويدمبون الصلاة حتى لقد كانوا يعرفون بما كانت تقترح به جباههم من السجود على حصياء الأرض العارية (١٥٩) .

ثانياً : إذا كان اتخاذ الارهاب وسيلة لأرغام الخصوم هو العلامة الحاسمة التي تميز المتطرف عن سواه ، كان محالاً أن يلجأ اليه إنسان قوي واثق بنفسه وعقيدته وإنما

سرعان ما يجعل الناهب صاحب حق في الاعتداء : « والقاعدة التي أريد أن أضعها بين يديك هي أنه حيثما فرط إنسان في حقه ظهر لذلك الحق طاغية يستبد به (١٥٧) » .

المجموعة الثانية : مفاهيم دينية

(أ) التطرف الديني ؛

في تحليله لهذا المفهوم مثال واضح لارتباط التحليل عنده بما يظهر في حياتنا الثقافية أولاً بأول من مفاهيم وأفكار ، فهو يستخدم الفاعلية الفلسفية فيما يظهر على سطح هذه الحياة من أفكار أياً كان لونها ، فعندما بدأ الناس يتحدثون عن « التطرف الديني » كتب في الحال « متطرف تحت المجهر » ، يحاول أن يسأل مع الناس عن معنى هذا التعبير وتكون الاجابة عنده على النحو التالي :

ان علينا باديء ذي بدء أن نفرق بين طرفين : « الدين » كما هو قائم في الكتب السماوية من ناحية ، « والتشدين » بذلك الدين من جهة أخرى ، فبينما الكتاب واحد فان المتدينين به كثيرون ، وليس هو من الأمور الشاذة في طبيعة الناس أن يختلفوا في طريقة فهمهم لنص واحد قرأوه . وهذا ما حدث للمسلمين ، فهم متفقون على الكتاب الكريم لكنهم مختلفون في فهمهم لبعض آياته ، ومن هنا نشأت المذاهب المتعددة ، ومن ثم يكون معنى التطرف أن يأخذ المسلم بطريقة معينة في الفهم ، أو بمذهب معين ، ثم يعلن أنه هو وحده الصحيح ، وقد أخطأ الآخرون ، ولو وقفت

(١٥٧) المرجع نفسه ص ١٦٨

(١٥٨) رؤية اسلامية ، ص ٢٦٤ .

(١٥٩) - رؤية اسلامية ص ٢٦٥ .

نراه غداً متطرفاً في رؤية شيوعية ، أو العكس ، مع أن الاسلام والشيوعية ضدان لا يلتقيان (١٦٢) .

(ب) فلسفة الشهادة :

ماذا تعني شهادة : « لا إله إلا الله » التي هي أصل ثابت في حياتنا الدينية والثقافية ؟ ! هي من الشجرة العقلية بمثابة الجذع وجذوره ثم تنبت الغصون وتنمو وتورق فهي شهادة تدل - من بين ما تدل عليه - على ثلاثة أركان دفعة واحدة تكفي وحدها لاقامة هيكل ثقافي كامل لو كسونه لحماً لأصبح حياة فكرية تحمل طابعاً يميزها عن كثير مما عداها ، فهي تدل على ذات آلهية مشهورة ، وذات إنسانية شاهدة ، ومجموعة من أفراد الناس تتم الشهادة في حضورهم : -

(١) - أول ركن تدل عليه الشهادة ، وجود الذات الإلهية ، التي تشهد أن ليس ثمة من آلهة سواها ، ثم نجد لهذه الذات صفات كثيرة تتوحد في نسق واحد ، هي ما نطلق عليه أسماء الله الحسنى ، وهذه المجموعة من الصفات هي لله على نحو مطلق ، وهي كذلك للإنسان على نحو نسبي ، أي أن المسلم لا بد أن يعمل على أن يكون في حياته عالماً فريداً قديراً مهيمناً عزيزاً جباراً . . الخ والا كانت شهادته باللفظ دون المعنى .

(٢) - أما الركن الثاني الذي تتضمنه الشهادة فهو وجود الذات الانسانية الشاهدة ولا بد من الوقوف المتأمل عند « الذات الانسانية » هذه لنرى متى يتحقق وجودها وكيف ؟ ! إنه مهمل يكن من أمر التشابه

يلجأ إليه من به ضعف في أي صورة من صوره - لماذا ؟ ! لأن الإنسان إذا أحس في نفسه ضعفاً تملكه الخوف من أن يطغى عليه أصحاب المواقف الأخرى وكأي خائف آخر ترى المتطرف هلما جزوعاً يسرع الى أقرب أداة للفتك بخصمه اذا استطاع قبل أن تسح الفرصة أمام ذلك الخصم (١٦٣) .

ثالثاً : لا يتطرف بالمعنى السابق الا من حل صلى كتيبه رأساً فارغاً وخاوياً اللهم إلا أضغاثاً دفع بها الى ذلك الرأس عن فهم أو عن غير فهم . وذلك لسببين :

الأول : أن تكون الأفكار التي شحن بها رأسه غير علمية لأن الفكرة العلمية مقطوع بصوابها ،

الثاني : أن ما يمتلئ به رأس المتطرف ، مادام لا يمت الى العلم بصله ، لا بد أن يكون فيه الخصائص المضادة للعلم ، ومنها « حرارة الانفعال » وغموض المعنى واحتمال أن تتعدد فيه وجهات النظر (١٦٤) .

رابعاً : السمة الأخيرة أن المتطرف ، في الواقع ، حالة من حالات التكوين النفسي ، ولا نقول إنه وجهة نظر إلا من باب التساهل ، وإنما هو في حقيقته الدفينة « حالة نفسية » - تجعل صاحبها على إستعداد لأن يتطرف وكفى ! فليس المهم هو الموضوع الذي يتطرف فيه ، بل المهم في تكوينه هو أن يتطرف للتطرف في حد ذاته ، ومن هنا رأينا أمثلة كثيرة لمتطرفين يقفزون بين يوم وليلة من تطرف في فكرة الى تطرف في الفكرة التي تناقضها ، فنراه اليوم متطرفاً في رؤية إسلامية معينة ثم

(١٦٣) - المرجع نفسه ص ٢٦٦

(١٦٤) - رؤية إسلامية ص ٢٦٨ .

(١٦٥) - أفكار ومواقف ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

لكن ماذا نعني بكلمة « الضمير » ؟ ! نعني بها ما استخلصناه لأنفسنا مما وعيناه وعشناه : إما من خبراتنا المباشرة أو مما علمنا إياه آباؤنا وعلمونا « فأضمرناه » في نفوسنا لنحمله معنا أينما توجهنا ، فنكون بمثابة مَنْ يحمل معه دليلاً هادياً يرشده الى سواء السبيل اذا ما أشكل عليه الأمر^(١٦٥) .

فما هو المبدأ الذي يستخلصه المسلم من أحدية الله ويضمّره في صدره ليكون مرجعه في مسلك حياته ؟ ! كيف نحول عقيدة « التوحيد » بالتربية الى « ضمير » يكون به المسلم مسلماً فيما يدع وفيما يختار ؟ ! هذا المبدأ هو أن يختار الفعل الذي يتسق مع غيره في بناء شخصية موحدة . فالتوحيد الإسلامي هو في أعماقه تناسق في حياة الانسان الأخلاقية ، بمعنى أن تنظم مجموعة القيم الروحية في ترتيب معين يبين أيها أولى من أيها إذا ما تعارضت في موقف معين ، ومن ثم فعقيدة المسلم إذا ما رسخت في صدره ضميراً يهديه الى جادة الطريق ، ضمنت له ألا تتعدد معايير الأخلاقية ، فمقياس أمام ولي الأمر ومقياس آخر أمام الناس ومقياس ثالث يقيمه حين يخلو لنفسه ! إننا إذا استطعنا تربية هذا « الضمير الديني » عند أبنائنا وبناتنا كان ذلك دعماً تحميهم من أن يذل صغيروهم لكبيرهم أو أن يذل فقيرهم لغنيهم أو أن يذل محكوم لحاكم^(١٦٦) .

(٤) مفاهيم متفرقة :

هناك مفاهيم دينية كثيرة تعرض لها مفكرنا بالتحليل والتشريح ، من ذلك مثلاً التفرقة بين « الفكر

والتجانس بين أفراد البشر فلن يكون الفرد الانساني « ذاتاً » ، الا اذا بقيت له بقية يختلف بها عن جميع مَنْ عداه ، وهي بقية لها كل الأهمية والخطورة لأنها هي التي تحدد هويته ، وهي التي نعدّها مسئولة أمام الله والناس وهذا الجانب الفريد من كيان الانسان هو الذي « يشهد » ألا إله إلا الله^(١٦٣) .

(٣) - يبقى الركن الثالث المتضمن في « الشهادة » أعني به وجود الآخرين الذي هو ركن أساسي في حياة هذا الانسان ، ولك أن تقدر الفرق الشاسع بين إنسان يتصرف كما لو لم يكن في الدنيا إنسان سواه ، وآخر يضع في اعتباره عند كل خطوة يخطوها ، وكل فعل يؤديه أن هناك آخرين اعترف بهم ضمناً حين شهد ألا إله إلا الله ، وهكذا تنشأ لنا عن أصل واحد ضروب ثلاثة : الحقيقة الدينية ، والفردية الانسانية ، وروابط المجتمع^(١٦٤) .

(ح) الضمير الديني :

الغاية التي يجب أن نستهدفها من التربية الدينية هي إيجاد ذلك الضرب من الوجدان الديني الذي من شأنه أن يهدي صاحبه كلياً جدُّ موقف في الطريق - الى اختيار السلوك الذي يعينه على تكامل شخصيته تكاملاً ينم عن « وحدانية تلك الشخصية » لأن ما يحقق إسلام المسلم هو في المقام الأول ، أن يجسد في شخصه رسالة الاسلام - و « التوحيد » من تلك الرسالة هو في صميم الصميم .

(١٦٣) - أفكار ومواقف ص ٢٥٩ .

(١٦٤) - المرجع نفسه ص ٢٦١ .

(١٦٥) - قيم من التراث ص ١٠١ - ١٠١ .

(١٦٦) - المرجع نفسه ص ١٠٣ - ١٠٥ .

الاسلامي « من ناحية ، « وفكر المسلمين » من ناحية أخرى ، فلكي يكون الفكر إسلامياً لا بد أن يكون منصّباً على مسائل متصلة بعقيدة الاسلام وشريعته . منها مثل وجود « الله » وصفاته كالتوحيدية ، والعدل والقدرة والعلم . . الخ كذلك فكرة الإمامة ، خلق القرآن . . الخ الخ . هذا هو الفكر الإسلامي الذي ينصب على موضوعات متعلقة بالعقيدة . إلا أن المسلمين كان منهم علماء ذوو فكر إنساني عام لا يتقيد بصفة - تقصره على ديانة دون ديانة أخرى - وها هنا نرى للمسلمين فكراً في شتى نواحي العلم والمعرفة مما لا يختص بالعقيدة والشرعة وليس فيه من الاسلاميّة إلا إسلام صاحبه مثل عالم الرياضة ، وعالم الفلك ، وعالم الكيمياء والبصريات والطبيب والمهندس بل ونستطيع أن نضيف أنواعاً أخرى مثل كتاب الرحلات ، ونقد الأدب ، وعلم الحيوان والنبات . . الخ كل ذلك ضروب من العلم والمعرفة قام بها مسلمون حتى أصبحت جزءاً هاماً فيما نسميه بالتراث العربي - إلا أنه لا يندرج فيما نسميه بالفكر الإسلامي . . (١٦٨) .

ومن المفاهيم الدينية التي عالجها أيضاً « الدين » و « التدين » و « علوم الدين » ، عندما رأى خلطاً في رؤية الناس لها حتى أهل التخصص منهم « فالدين قائم في نصوصه المحددة . . ثم يأتي الطرفان الآخران : مَنْ يؤمنون بذلك الدين وهم مَنْ يصفونهم « بالتدين » ثم علوم الدين التي تقام على النصوص كما سبق أن رأينا . فعلم الدين لا هو « الدين » ولا هو « التدين » إنما هو

فاعلية عقلية تقوم على الدين . ولقد لبث الإسلام « ديناً » للمؤمنين « يتدينون » عبادته وتعاليمه قبل أن يظهر الفقهاء ليقوموا عليه العلم بمنهج التفكير العلمي . وعندما نزلت الآية الكريمة : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ - « كان قد كمل دين الاسلام ودخل الناس أفواجاً ولم يكن قد كُتِبَ بعد سطر واحد في أي علم من علوم الدين ، مما يقطع بأن الدين نفسه شيء ، والمتدينون به شيء ثان ، والعلوم التي تقوم عليه شيء ثالث » (١٦٩) .

ولك أن تقرّ مقال « الشيطان الأخرس » لترى كيف كان يتصدى مفكرنا للمفاهيم الدينية الخاطئة بالتحليل والتفنيد فور ظهورها في الصحف اليومية - فلو نشر واحد من أئمة الدين في جريدة الأهرام « أن رجال الشرعة قادرون على أن يقولوا كلمتهم في كل شيء » - يكون تحليل مفكرنا « لو كان الأمر كما قال القائل لوجب منذ الغد أن تغلق الجامعات جميعاً ومراكز البحث وغيرها مما يريد أن يبلغ شيئاً من الحق لا يبقى إلا على كلية الشرعة لأنها تعلمنا « كل شيء » . . ا . . » (١٧٠) .

المجموعة الثالثة : مفاهيم قومية وأفكار وطنية

(أ) العروبة

في اعتقادي أن مفكرنا الكبير كان متحمساً لجعل « العروبة » مفهوماً ثقافياً ، وليس فكرة سياسية ، فقد كتب يقول : « ليست عروبة العربي قراراً سياسياً تصدره مؤتمرات القمم أو مؤتمرات السفوح والوديان . . بل هي مركب ثقافي يعيشه في حياته اليومية ولا يستطيع العربي نفسه أن ينسلخ عنه إذا أراد . . وأن يعيده إليه إذا أراد . . لا . . ليست عروبة العربي

(١٦٧) - في تحليل الثقافة العربية ص ٤٥٨ وما بعدها .

(١٦٨) - المرجع السابق ص ٤٦٦

(١٦٩) - فهم من التراث ص ١٥٢

(١٧٠) - أفكار ومواقف ص ١٧٩ - ١٨٠ .

ثالثاً : وثلاثة الخصائص إيمان العربي بأن الحضارة الصحيحة إنما تُدار على محور الأخلاق فليس المهم فيمن هذبت الحضارة أن يكون قوياً بسلحه ولا قادراً بماله ، بل المهم هو أن يقوم التعامل بين الإنسان وربه ، والإنسان والإنسان على أنماط رسمتها السماء لأهل الأرض . ومن هنا كان جوهر العروبة الاعتقاد بأن الخالق يشاء وبأمر والمخلوق يطيع بغير سؤال !

رابعاً : ليس عند العربي مقابلة بين واقع ومثال ، بل بين « واقع » و « واقع » فكلمة مثال العربية تعني كائناً ماثلاً أمامنا نراه ونلمسه . وأما كلمة « واقع » فهي تعني « الوقوع » الذي هو الهبوط والسقوط . ومن هنا كان العربي يقصر نظرته على دنيا الكائنات الفعلية يوازن بين بعضها وبعضها الآخر وهي بأجمعها « واقع » سواء في ذلك ما هو أدنى وما هو أعلى !

لكن علينا أن نلاحظ أن تحديد تلك الخصائص لا ينفي أن نحاول تغيير ما نريد تغييره منها ، لقد أردنا فقط أن نقول « ان عروبة العربي هي وجوده الثقافي المتميز - فهي لا تمنح بقرار كما قد يتوهم الواهمون ! » (١٧٣) .

(ب) الشخصية المصرية

لا تناقض بين عروبة العربي من جهة وبمميزاته الإقليمية من جهة أخرى ، فالمصري مصري وعربي معاً ، كما يكون السوداني سودانياً وعربياً ، والعراقي عراقياً وعربياً في آن . . فليس على هذه الأرض إنسان واحد وحداني الانتهاء ، وإنما الأمر في هذا يشبه الدوائر التي تتدرج اتساعاً (١٧٤) . وإذا صح ذلك فما هي أهم الخصائص المميزة للذات المصرية . . ؟

قميصاً يلبسه إذا شاء ويخلعه إذا شاء ، بل هي خصائص تسوشك أن تبلغ منه ما يبلغه لسون الجلد والعينين . . « (١٧١) . فما هي هذه الخصائص :

أولاً : أولى خصائص العروبة لغتها على أنه لا يكفي في هذا الجانب بأن تكون لغة الكلام والكتابة عربية ، فالأوروبي الدارس للغة العربية قد يتكلمها ويكتبها ومع ذلك لا تدرجه في العروبة ابناً من أبنائها . . إذ المهم هنا هو اللغات العقلية أو الإدراكية العميقة التي تكمن في كيان العربي ، فتميل به إلى اكتساب الصفات المتمثلة في اللغة العربية . فمن خصائص اللغة العربية مثلاً أنك إذا عرفت الأصل الثلاثي عرفت كيف تفجر منه شجرة المشتقات على كثرة فروعها ، فإذا عرفت كلمة « كتب » فجرت منها كاتب وكتاب وكتابة ومكتوب . . الخ فكأنها القبيلة أو العشيرة بتعدد أفرادها لكن هؤلاء الأفراد ينتمون إلى رأس واحد . .

ثانياً : ثانية الخصائص ميل العربي إلى القفز السريع من الأفراد الجزئية إلى تجريدتها وتعميمها في أنواع وأجناس ، فهو لا يسمه هذا الطائر المعين بل يكفي أن يعرف الطائر في عمومته من حيث هو نوع . . إن العربي في تكوينه العقلي لا يعبأ كثيراً بالأفراد أو المفردات ، وإنما يريد « الخلاصة » العامة المجردة ليسهل حملها معه وهو مسافر في الفلاة على ظهور الأبل ! ولقد بلغ ميل الشاعر العربي إلى التجريد حداً جعله إذا تغزل في امرأة لا يقصد امرأة بعينها ، بل إن غزله منصب على « نوع » المرأة بأسره ، وكذلك إذا وصف جواداً أو بعيراً أو ما شئت (١٧٢) .

(١٧١) - هموم الملقين ص ١٢١ - والنظر أيضاً لخصائص أخرى للشخصية العربية « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٥٤ وما بعدها - وأيضاً « في مفرق الطرق » ص ٣٦٠ وما بعدها .

(١٧٢) - هموم الملقين ص ١٢٣ - ١٢٤ وأيضاً « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٦٤ .

(١٧٣) - هموم الملقين ص ١٢٧ - وأيضاً « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٦٥ .

(١٧٤) - هموم الملقين ص ١٢٠ .

أهمها عمق الشعور الديني ، ويتبعه عند المصري اتساع النطاق الذي يتعامل فيه مع « الغيب » ، أما بالايمان الرشيد أحياناً ، وإما يتهاويم الخرافة أحياناً أخرى (١٧٥) .

ثم نحيء بعد ذلك خاصية انتمائه الأسري . وهو انتفاء لا يقف معه عند حدود « الأسرة النوواة » كما يصفها كثير من كتّاب الغرب اليوم بمعنى الوالدين والأخوة ، بل يوسع المصري من حدود الأسرة التي يشتد به الانتفاء إليها لتشمل كذلك أبناء العمومة والخزولة ومن يتصل بهم (١٧٦) .

ثم يتميز المصري كذلك بحبه لأرضه ليس فقط من حيث هي أرض يزرعها ، بل من حيث هي كذلك أرض يتصل بها ولادة ونشأة وذوي قرى . . . ولقد تفرع عند المصري من عمق إيمانه الديني وقوة انتمائه لأرضه وأصله ، حب يشبه الحب الصوفي للعمل الذي يؤديه ، زراعة كانت أو صناعة ، وأعني بالحب بالصوفي هنا حباً للشئ في ذاته ولذاته لا للأجر الذي يترتب عليه (١٧٧) .

ثم يلخص مفكرنا مفتاح الشخصية المصرية في عبارة موجزة هي « المصري صانع عابد » يتعامل مع هذه الدنيا وكائناتها بحواسه وجوارحه ، ويتعامل مع الغيب بقلبه وإيمانه ، هو واقعي في الحالة الأولى صوفي في الحالة الثانية ، هو مادي في أحد جوانبه روحاني الجانب الآخر . وكأن مفكرنا يريد أن يقول أن شخصية المصري مثال حديث للصيغة التي اقترحها حلا لمشكلتنا الثقافية المعاصرة وأعني بها صيغة الجمع بين « العقل

والوجدان » ، ولقد ساعده على هذا الجمع بين الجانبين في شخصية واحدة متكاملة أنه نموذج فريد يجمع في صيغة حضارية واحدة خصائص فلاح الأرض وبدواة الصحراء وجمع المدينة (١٧٨) .

لكن أين يأتري نجد ذلك المصري الذي هو « صانع وعابد » في آن معاً ؟ يجيب « أنك تراه فيما صنعت يده ، تراه في كل مسألة قُذت من الصخر العتي بأزميل عبقرى جبار ، وارتفعت برأسها نحو السماء ، وكأنها كلمة دعاء في صلاة . ! إنك تراه في اختاتون يشهد أن الله واحد وراء كثرة الظواهر على الأرض في السماء ! إنك تراه في راهب الدير الذي يزرع ويعبد الله في حياة واحدة ، أنك تراه في المساجد ومآذنها ، التي لا تدري وأنت شاخص ببصرك إليها في روعة بناائها ، أهي صلاة تجسدت في عمارة أم هي عمارة ذابت في صلاة (١٧٩) . .

(أ) الولاء للوطن

عندما شاهد في التلفزيون جماعة من الشباب تهتف بالفداء بأرواحها ودمائها « ولاء » لهذا أو ذاك - شعر أن في هذه الصورة شيئاً يشير القلق ويتطلب التصحيح (١٨٠) . فيكتب على لسان سقراط : « إن الولاء لا يكون لشخص ، وإلا فماذا لو غاب هذا الذي أعلنت له إخلاصك ؟ أتصبح بغير إخلاص لأحد ؟ ! إن الولاء الصحيح يا أصدقائي لا يكون لشخص بقدر ما يكون لقضية معينة أو لفكرة أو لعقيدة دينية ، أو غير ذلك مما يحيا من أجله الإنسان ويشعر ألا حياة له بغيره . . . » (١٨١) . ثم يحلل معنى الولاء ليجد أنه في

(١٧٥) - في مفترق الطرق ص ٣٧٤ .

(١٧٦) - المرجع نفسه ص ٣٧٥ .

(١٧٧) - المرجع نفسه في الصفحة نفسها .

(١٧٨) - في مفترق الطرق ص ٣٧٥ .

(١٧٩) - المرجع نفسه ص ٣٨٦ .

(١٨٠) - قيم من التراث ص ٣٨٥ .

(١٨١) - قيم من التراث ص ٣٨٩ .

بل يكفي أن نقول أنه كان يتلف ما يظهر في حياتنا الاجتماعية من أفكار وقيم ليقوم بتسريحه بنفس الفاعلية العقلية التي قدمنا لها فيما سبق مجموعة من الأمثلة . ولقد كتب عما أسماه « بالردة في عالم المرأة » ورسم لها صورة في غاية الأهمية ، ذهب فيها إلى أن « أبشع جوانب الردة في حياة المرأة اليوم ليس هو أنها تريد أن تتعلم إلى آخر المدى فيمنعها أحد ، وليس أنها تريد أن تعمل بما تعلمته فيمنعها أحد . . . وإنما الجانب البشع من تلك الردة هو أن المرأة اليوم تريد أن تجعل من نفسها ويمحض اختيارها حريماً يتحجب وراء الجدران أو يتستر وراء حجب ويراقع ، وكأنها القريسة السهلة تخشى أن تتخطفها الصقور ، أما أن تحصن نفسها بقسوة السروح ، وبالشعور ، بكرامتها إنسانة واعية مستتيرة ، فذلك زمن أوشك على الزوال مع ذهاب رائدات الجيل الماضي . ألا ما أبعد الفرق في حياة المرأة المصرية بين الليلة والبارحة ، ففي بارحتها ألقت بحجابها في مياه البحر عند شواطئ الاسكندرية^(١٨٥) إيماناً بدخولها عصر النور ، وأما في ليلتها هذه فباختيارها تطلب من شياطين الظلام أن ينسجوا لها حجاباً يرد عنها ضوء النهار . . . »^(١٨٦) .

(ب) الرأي العام

ولعل من أجل التحليلات التي قام بها في الميدان الاجتماعي تحليله لفكرة « الرأي العام » الذي وصفه بأنه « الإله الزائف الجديد » وقال عنه أنه « ذو وجهين » وهو بوجه منها لا عيب فيه إذا نزعته عنه شوكة التأليه ، ولكنه بوجهه الآخر الذي يتسلح فيه بتلك الشوكة

حقيقته يتضمن أساس الأخلاق كلها . . أما سر الولاء فهو أن الفرد يشعر عن عمق وجدانه أنه لا يستطيع العيش وحده فريداً في هذا الكون الفسيح ويريد أن يجد « آخر » يتحد معه ليوسع من وجوده ، فإذا وجد هذا « الآخر » تمسك به وأخلص له ، ومن هنا كان الولاء ضرورة حيوية لكل ما من شأنه أن يجعل وجودنا أغزر معنى وأوسع نطاقاً^(١٨٧) . « فالولاء يكون لله لأنه مالك يوم الدين ، والولاء يكون للوطن الذي يغيره بنعدم أهم أركان الهوية في هذه الدنيا ، والولاء يكون لأي مجموعة تمثل فكرة لها دوام ، وأنتهي إليها عضواً فيها عاملاً مع غيري على تحقيق هذه الفكرة . . . »^(١٨٨) . وهكذا تندمج الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الإنسانية كلها . . الخ .

لكن ماذا نحن صانعون إذا تعارض ولاء وولاء ، كان يتعارض في موقف معين ولاء فرد لأسرته وولاءه لأمته ؟ الجواب : أن نختار الطريق الذي يتيح للفرد تكاملاً في شخصيته بدرجة أعلى ، فهل يكون انساناً أكمل إذا هو انتمى إلى أسرة قوية وأمة ضعيفة ، أو إذا انتمى إلى أسرة ضعيفة وأمة قوية ؟ الإجابة تكاد تدل على نفسها وهي أن البديل الثاني أفضل وأكمل وأسمى ، ومن هنا لك أن تسأل نفسك : أهو الولاء والتضحية بدمائنا وأرواحنا لمصري أم لمصر^(١٨٩) ؟

المجموعة الرابعة :

(أ) وضع المرأة

لا تريد أن نسهب طويلاً في أمر المفاهيم الاجتماعية

(١٨٢) - قيم من التراث ص ٣٨٩ .

(١٨٣) - قيم من التراث ص ٣٩٠ .

(١٨٤) - المرجع نفسه ص ٣٩٢ .

(١٨٥) الإشارة هنا إلى حادثة مشهورة في تاريخ الحركة النسائية المصرية ، لمختصها أن مدى شعراوى عند عودتها من رحلة لها في الخارج ، وكان ذلك عقب ثورة ١٩١٩ - ذهب

محتشد كبير من النساء لاستقبالها في ميناء الاسكندرية ولوحث لمن الزعيمة ، وهي على ظهر السفينة ، ثم ألقت برقعها في البحر قبل نزولها إلى الشاطئ

(١٨٦) في مفترق الطرق ص ١٣٩ وما بعدها وانظر في وضع المرأة أيضاً : وإذا المرأة سلت في الكتاب نفسه ص ٨٥ وما بعدها

الرهبة ينقلب إلى طاغية يسحق فردية الأفراد سحقاً ليحيلهم إلى أشباح وظلال : « فقد يحدث أن نرى العالم من علمائنا قديراً في علمه وهو في ميدانه ، لكنه ما أن يفرغ واجبه إزاء تخصصه العلمي حتى يسرع الخطى ليتخرط مع الرأي العام فيما هو غارق فيه من تهاويم قد تبلغ أحياناً كثيرة حد الخرافة » (١٨٧).

ويقند مفكرنا « عمومية » الرأي العام بقوله : « إن وجود فرد واحد لا يرى الرأي الذي هو عام ينفي عن الرأي العام عموميته ، وحتى لو كان من حق الرأي العام أن يضبط بقوته العددية في اتخاذ القرارات ، وفي انسحاب النواب الذين ينوبون عنه - وهو حق للناس لا شك فيه - فليس له الحق نفسه في منع الآراء والأفكار التي لا تعجب جمهوره » (١٨٨). إن الذي يربط أفراد الجمهور بعضهم ببعض في تكوين رأي عام ، يغلب أن يكون هو « الانفعال » ، لا « العقل » فالانفعال ينتقل من فرد إلى فرد بالعدوى ، أما الفكرة العقلية فينقلها صاحبها إلى متلقيها بالإقناع ، والإقناع بحكم طبيعته عملية فردية وليست عملية جماعية (١٨٩).

(جـ) العلمانية

من المفاهيم التي شاعت في مجتمعاتنا أيضاً ، وتعرض لها مفكرنا بالتحليل العقلي ، مفهوم « العلمانية » ، وهو يرى أنه ينطق بفتح العين لا كسرهما ، وأنه في هذا التحريف في النطق يكمن معظم الخلط ، ولهذا يكتب مقالا عنوانه ، « عين - فتحة - عا » . ليشد انتباه القارئ إلى أن الكلمة لا تنسب إلى « العلم » بل إلى « العالم » - وأنها جاءت بهذا المعنى من اللغات الأوربية

بعد أن خرجت أوروبا من العصور الوسطى حيث أقام رجال الدين من حياة الرهبان مثلاً أعلى ، فالزهد في الدنيا ، لا الإقبال عليها ، هو ما ينبغي للإنسان الكامل أن يهتدي به ، وذلك لأن عقيدتهم تسمح لهم بأن يفصلوا بين الأرض والسماء ، بين الدنيا والآخرة ، في الأولى تكون السيادة لقيصر وفي الثانية يكون الأمر لله .

فما لنا نحن بهذا كله وليس في عقيدتنا ما يدعونا إلى إهمال هذا العالم . ١٩٠ بل العكس هو الصحيح ، فقد أمرنا بأن نحتفل بالدنيا وكأننا نعيش فيها أبداً ، وأن نعمل للآخرة كأننا منتقلون إليها غداً ! « تلك هي العلمانية التي لم تكن تحتاج منا إلا أن نفتح لها العين فإذا هي جزء من حياتنا ، ومقوم جوهري من مقومات تاريخنا في فترات عزه ومجده ، فمن الذي يحاربه أولئك الذين ركبوا جيادهم ، وحلوا قسيهم ورماسهم ليقاتلوا « العلمانية » حتى يقتلوها . ١٩٠ » (١٩٠). لكن إذا كانت مقاومة من يقاوم العلمانية بفتح عينها مصيبة أعظم فيمن يقاومونها بكسر العين ، لأن عينها إذا كسرت كانت الإشارة عندئذ إلى العلم وعلى الحياة التي تقيمها العلوم : « فهل يرضيكم - أيها السادة - أن نزرع أرضنا بغير علم ، وأن ندير مصانعنا بغير علم ، وأن ننشئ مدارسنا وجامعاتنا بغير العلم ، وأن نعد عدتنا العسكرية بغير العلم ١٩ هل يرضيكم أيها السادة أن تمنحوا أسماء العلماء من تاريخنا فلا يكون فيهم بعد اليوم جابر بن حيان ولا الخوارزمي ولا ابن الهيثم ولا ابن النفيس ١٩ وإذا رأيتم في هؤلاء موضع « فخر لنا فلماذا لا تريدون لأحفادهم المعاصرين أن يعيدوا سيرتهم الأولى ١٩ » (١٩١).

(١٨٧) مقال « أمور شرية من نوع جديد » ١٩ ، في كتابه « رؤية إسلامية » ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(١٨٨) المرجع نفسه ص ٣١٠ - وقد بلغ الغباء ببعض النقاد حدا جعلهم يتصورون أن الرجل يدعو إلى رأي عام « معين » ١١ وأنه بذلك يتناقض ١١ وهكذا تكون قد غابت عنهم الفكرة من أساسها وهي ألا يتحول «الرأي العام» إلى قول يلتزمه حقوق الأفراد في التعبير عن رأيهم .

(١٨٩) - رؤية إسلامية ص ٣١١ .

(١٩٠) - من الحرية أحدث ص ١٨٨ .

(١٩١) - المرجع نفسه ص ١٨٩ .

الأدب وكتابة المقال الأدبي وسوف تعرض لرايه هذا بعد قليل مع نماذج من المقالات الأدبية عنده . لكننا نريد الآن أن نفرق بين الأدب بوصفه ممثلاً لجانب « الوجدان » ، والعلم بوصفه معبراً عن « العقل » ، فأين يختلفان وكيف يلتقيان ؟ !

أولاً : الأدب والعلم

كثيراً ما عقد مفكرنا مقارنات مطولة بين الأدب والعلم لكي يفرق بينهما من ناحية ، ولكي يهاجم من ناحية أخرى أصحاب « الأدب العلمي » مبنياً أنهم يخلطون بين أمرين لا يجوز الخلط بينهما . ذلك لأننا نجد أنفسنا ، في حالة الأدب والعلم ، أمام ضريين من الكلام يختلف أحدهما عن الآخر أتم الاختلاف ويستحيل أن يتحول اليه ، كما يستحيل أن تتطور الأغنام وتصبح أبقاراً ، لا لأن الأدب متميز عن العلم بجمال أسلوبه ، مع جواز اتحادهما في مادة القول ، بل لأن الاختلاف أعم من ذلك بكثير بالعبارة العلمية من طراز والعبارة الأدبية من طراز آخر ولئن يستطيع جمال الأسلوب أن يعبر ما بينهما من فجوة واسعة صحيحة (٢٠١) .

ونحن هنا إنما نعود بطريقة أخرى الى ثنائية « العقل والوجدان » وإلى ثنائية المجالين المختلفين من مجالات

ويمكن أن نسوق ، فضلاً عن هذه المجموعات التي ذكرناها ، أمثلة تفوق الحصر لأفكار ومفاهيم قام مفكرنا الكبير بوضعها على مائدة التشريح العقلي منها فكرة « التراث » (١٩٣) و « الثقافة » (١٩٣) ، والفرق بين « الفرد والمواطن والانسان » (١٩٤) . ومعنى التكنولوجيا (١٩٥) ، « والقيم الثلاث : الحق والخير والجمال » (١٩٦) وارتباطها بأوجه الحياة الواعية للإنسان وهي « الإدراك والسلوك والوجدان » . وعن معنى « الهوية » في مقاله : « نافخ النار » (١٩٧) . وعن معنى « الفكر وحريته » ، و « وحدة التفكير » ، و « رجل الفكر ومشكلاته » (١٩٨) . و « العقل الحر » ، و « أزمة العقل » ، و « سلطان العقل » ، ومعنى « الروحانية » (١٩٩) . وعن معنى الديمقراطية (٢٠٠) . الخ لكن تكفيها هذه القطرات من هذا البحر الزاخر لننتقل إلى جانب آخر هو « الوجدان » لنسوق كلمة سريعة عما قدمه لدنيا الأدب .

القسم الثاني : مجال الوجدان

يتمثل الجانب الوجداني عند مفكرنا في الفن بصفة عامة ، والأدب بوجه خاص ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن زكي نجيب محمود هو واحد من أبرع كتّاب المقالة الأدبية في أدبنا المعاصر ، وهو صاحب رأي خاص في نقد

(١٩٢) - بالنسبة لفكرة التراث قارن مثلاً : أن تجعل التراث كنزاً نحن نحاسبه ؟ ١ في كتابه : تحديث الثقافة العربية ، ص ٢٩٦ وما بعدها . وأيضاً : التراث أول الطريق ، عن الحرية أحدث ص ١٠٣ وما بعدها .

(١٩٣) - قارن : سؤال من الثقافة وجوابه ، في كتابه : قيم من التراث ، ص ٣٢٥ . وثقافة الغد في كتابه هموم المثقفين ص ٢٠٠ وما بعدها . و يوم الثقافة العربية ، في كتابه عن الحرية أحدث ص ٤١٥ وثقافة السكون وثقافة الحركة . في كتابه : في مفترق الطرق ، ص ٢٢٠ وما بعدها . و خصوصية الثقافة . واللغة ملقى الثنائيات في كتابه ، و تحديث الثقافة العربية ، . الخ الخ .

(١٩٤) - في حياتنا العقلية ص ١٢٨ وما بعدها .

(١٩٥) - النظر مقالة : هذه اللمعة المسحورة : في كتابه مجتمع جديد أو المكارثة ص ٢٢١ وما بعدها .

(١٩٦) - مقال : قيمة القيم ، في كتابه من : زاوية فلسفة ، ص ١٢١ وما بعدها .

(١٩٧) - النظر مقال : نافخ النار ، الأهرام ١٣ أكتوبر ١٩٨٧ .

(١٩٨) - قارن هذه المقالات في كتابه : في حياتنا العقلية ، .

(١٩٩) - قارن هذه المقالات في كتابه : في مفترق الطرق ، و : ثقافتنا في مواجهة العصر ، .

(٢٠٠) - هموم المثقفين ص ١١٦ .

(٢٠١) - قصور ولباب ص ١٠٧ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة عام ١٩٥٧ .

القول ينبغي علينا أن نفرق بينهما بدقة وعناية فالعلم تعميم والفن تخصيص ، العلم تجميع والأدب تفريد . العلم يلاحظ الأشياء والنظائر ليستخلص منها أوجه الشبه فيصوغها في قانون واحد ينظمها ، والفن يلاحظ جزئية واحدة يقف عندها . العلم يستبعد نفس الخصائص التي يستقيها الفن ، فالخصائص الفريدة التي تميز فلانا من الناس دون سائر الأفراد هي التي يستقيها الفنان ليحللها ويصورها ، وهي نفسها التي يستبعدها العالم لأنها ليست مشتركة بين سائر أفراد النوع الإنساني . يقول عالم النبات عن الزهر ما ينطبق على الزهر كله ما دام منتبهاً إلى فصيلة واحدة . أما الفنان فيقف عند زهرة واحدة في لحظة زمنية واحدة يلقفها من تيار حوادثها الدافق قبل أن تمضي إلى غير عودة فيصورها رسماً أو أودياً أو ما شاءت له مادته التي يستخدمها وسيلة لاثبات ما يريد أن يثبته (٢٠٢) .

وفي استطاعتنا أن نقول ذلك بصدد كل ما يعالجه الفن بشئ صنوفه ، وعلى أساس هذا المعيار تستطيع أن تقيم « النقد الأدبي » هب أنك بصدد قصيدة نظمها شاعر عن الحب ، فانظر إلى أي حد قد تفردت العاطفة التي يعبر عنها بحيث أصبحت كأنها وحدها قائماً بذاته ، لا تشاركها لحظة أخرى من لحظات الحب - لا أقول عند سائر المحبين - بل عند هذا المحب نفسه ، فلا يكفي أن يتحدث عن « الحب » بصفة عامة لتقول إنه أجاد ، لأن الحب بصفة عامة من حيث هو عاطفة يشترك فيها أفراد البشر أجمعون بدرجات متفاوتة - هو من شأن علم النفس لا من شأن الفنان ، فعالم النفس هو الذي يتحدث عن هذه العاطفة « بصفة عامة » ، أو أنه يتكلم عنها كما تبدو آثارها عند هذا الفرد من الناس ، وهذا وذاك ، في كل زمان ومكان . هذا التعميم في الأحكام

يكون علماً ولا يكون فناً ولا أدباً . أما الفنان أو الأديب فهو ينظر إلى حالاته النفسية في حبه ليلقف منها حالة واحدة ، ثم يبرز هذه الحالة الواحدة العابرة ، وهو بذلك يصور لنا مثلاً يتكرر في سائر الحالات ، ولا حالاته هو الشخصية دع عنك حالات الآخرين ! إن المحب لا يشعر بعاطفة الحب على لون واحد وبغمة واحدة ، وأصدقاء واحدة ، وأثر واحد ، بل نراه أزاء حبيبته الآن بما لم يكنه بالأمس وما لن يكونه غداً ، ومع ذلك فهي كلها مواقف من حبه ، فلا يكفي أن يقول « إني أحب » ، أو « في جحيم أو نعيم من الحب » ليكون أديباً بل يشتم أن يخصص لنا خيوط العناصر النفسية التي جعلت حبه جحيماً أو نعيماً . ولو أجاد الملاحظة ، وأجاد الوصف ، لعلم أن شبكة هذه الخيوط محال أن تلتقي على صورة واحدة في لحظتين متباعدتين (٢٠٣) .

الواقع أن مجرى العواطف والمشاعر عند الإنسان قريبة مما كان يصف به الفيلسوف اليوناني « هيراقليطس » الكون كله - تيار متدفق ، كل شيء فيه تتغير حالاته تغيراً دائماً دائماً . ويحاول « العالم » أن يتلمس وسط هذه التيارات الدافقة من الحوادث أطرافات تتكرر على غرار واحد ، فإن وجد جعله قانوناً ثم راح يقيس الأبعاد المكانية والزمانية في ذلك الأطرافات لينتهي إلى صيغة قانون فيه دقة كمية . . أما الأديب أو الفنان ، فشأن آخر : إنه لا يتلمس أطرافاً في الحوادث ، بل تستوقفه حادثة واحدة ، أو حالة واحدة فيثبتها على اللوحة رسماً أو يثبتها باللفظ أدباً ، أو في أنغام الألحان موسيقى .

وليست كل حالة جزئية في صلاحيتها للفن على حد سواء مع سائر الحالات ، بل إن الفنان الحق ليقع على الجزئيات ذات الدلالة ، أي الجزئيات التي تكون أكثر

(٢٠٢) قصور ولياب من ١٠٨

(٢٠٣) المراجع السابق من ١٠٩

وكل عاطفة إنسانية أخرى ، فماذا يريد أصحاب الأدب العلمي أن نصنع بالعواطف إذا هممنا بكتابة الأدب ؟

ثانياً : النقد الأدبي

هناك مدارس كثيرة في النقد الأدبي يحسن أن نسوق عنها كلمة لتعرف أين يقف مفكرنا من هذه المدارس^(٢٠٥) . فافترض أن أمامنا ديوان شعر أخرجه المطابع وراح النقاد يعالجونه كل على طريقته الخاصة ، فكم زاوية للنظر يمكن أن ننظر منها إلى هذا الديوان ؟ .

١ - هناك الزاوية التي ينظر منها الناقد إلى الديوان المنقود ، نظرة يحاول بها أن يتفحص بعصره خلال الشعر الذي يقرؤه إلى « نفس » الشاعر الذي أنشأ الديوان ما طبعته ؟ أم هي نفس مرحلة متفائلة ؟ أم هي مكتئبة متشائمة ؟ أم هي كيت ؟ فالناقد في هذه الوقفة يتخذ الشعر « وسيلة » لغاية يهتم بها ، وليس الشعر هنا غاية في ذاته بل هو عند ناقد من هذا الطراز وسيلة للكشف عن نفسية صاحبه ، وبعبارة أجلى وأوضح ، المهم عند الناقد هنا هو « علم النفس » لا « الشعر » ، ومن أمثلة ذلك وقفة العقاد في كتابه « ابن الرومي من شعره » . . . وقد تسمى هذا الاتجاه في نقد الأدب والفن بالاتجاه « النفسي » ويمكن أن نقول إن « فرويد » وهو يقرأ مسرحية « أوديب » لسوفوكليس كان ناقدًا أدبيًا من هذا الطراز .

٢ - وهناك زاوية أخرى للنظر إلى الديوان المنقود ، وهي شبيهة بالزاوية الأولى في كون الناقد يتخذ من الشعر الذي بين يديه « وسيلة » لغاية تثير اهتمامه في المقام الأول ، وكل الفرق بين الرؤيتين أنه بينما الناقد في الحالة الأولى يبحث من خلال الشعر عن « نفسية »

إيماء عند القاريء أو الرائي ، فكاتب القصة أو المسرحية ، مثلاً ، لا يجيد فناً إذا راح يسرد التفاصيل عن شخصياته سرداً بغير تمييز . بل صحيح الفن هو الاختيار الموفق ، فأبي التفاصيل في حياة هذا الشخص الذي أصوره أهدي إلى حقيقة شخصه ومسر نفسه ، وكنه وجوده ؟ . سل نفسك ما سر الجودة الفنية في هذه الشخصيات الأدبية : هاملت ، الملك لير ، دون كيشوت - وغيرهم ؟ تجد أنه اختيار التفاصيل التي يجربها الأديب كلاماً وسلوكاً بحيث يتكون له في النهاية شخص متكامل فريد ، فهو لا يرسم الإنسان بصفة عامة وإلا كان عالماً ، بل يرسم « هاملت » أو « لير » فرداً واحداً ذا طابع متميز يستحيل أن يتكرر له في الوجود مثال يطابقه كل المطابقة^(٢٠٦)

سبيل العلم ، إذن ، وسبيل الأدب مختلفان ولن يتطور هذا إلى ذاك أبداً ، ولنا نريد أن نتبع شتى الفروق التي تباعد بينهما وتباين ، لكننا نريد أن نضيف خاصية هامة أخيرة وهي أن الأدب بمقدار ما يكون الكلام فيه وصفاً للواقع والحقائق الخارجية بمقدار ما يبعد عن الكمال الفني . إن الصور الفوتوغرافية تصور الحقيقة الواقعية تصويراً أميناً ، ولذلك لم تكن فناً بالمعنى الذي نقصده ، أنك كثيراً ما تقف أمام صورة رسمها « بيكاسو » أو « ما تيس » فلا تدري ماذا أراد المصور أن يصور ، لأنه لم يرد قط أن يصور شيئاً خارجياً عن ذاته ، فهذا الخليط اللوني قد تردد في خياله كما تردد الأنغام في أذن الموسيقي ، فرسمها على لوحته لتجنيء موسيقى للعين في أنغام من ضوء .

إن الآلام والأفراح لا تكون إلا داخل نفوس أصحابها ، وكذلك يكون الحب وتكون الكراهية ،

(٢٠٤) قصور ولباب ص ١١٣

(٢٠٥) قارن كتابه « في فلسفة النقد » ص ٢٢٠ وما بعدها وكذلك « قصور ولباب » ص ١١٨ .

الشاعر نرى النقد في الحالة الثانية يبحث خلال الشعر عن « الحالة الاجتماعية » التي كانت تحيط بذلك الشاعر ، فكأنما شعر الشاعر هنا هو بمثابة وثيقة تاريخية لصورة من صور الحياة الاجتماعية ، ويمكن اعتبار كتاب طه حسين عن المتنبي مثلاً لهذا الاتجاه الاجتماعي في النقد .

٣ - وهناك ، ثالثاً ، زاوية أخرى للنظر يبحث الناقد منها لا عن « نفسية » الشاعر ولا عن « الحساسة الاجتماعية » التي أحاطت به ، بل يبحث في نفسه هو - نفس الناقد - عن وقع هذا الشعر فيها ، فماذا ترك في جوانحه من أثر ؟ هل خرج من قراءة الديوان وهو على وعي بالغايات العليا التي استهدفها الكون ؟ هل خرج من قراءته راضياً عن نفسه أو ساخطاً عليها ؟ ثم يسطر الناقد وصفاً لطوية نفسه ، والأغلب أن يجيء هذا الوصف وكأنه في ذاته « أدب » بني على أدب ويمكن تسمية هذا الاتجاه في النقد « بالاتجاه التأثري » . (٢٠٦) .

٤ - هناك وقفة أخيرة - وربما تسبق منطقياً - جميع المواقف السابقة ، فقبل أن يقف الناقد من الشعر المنقود وقفة نفسية أو اجتماعية أو تأثرية ، كان عليه أولاً يتأكد أن الذي بين يديه « شعر » يستحق المعالجة بهذا الطريقة أو تلك - ومن هنا فإن الناقد عليه في رأي مفكرنا - وتلك هي وجهة نظره في النقد - أن يفحص الشعر نفسه أي أن ينصب النقد الأدبي على الأثر الأدبي ذاته أو منحصر في النص ذاته ، فأمام الناقد ترقيم على صفحات من كتاب ومهمته أن يحلل هذه التشكيلات اللفظية التي انتشرت أمامه على صفحات الكتاب - أي النص ولا شيء غير

النص - فالكلمات المرقومة على الصفحات هي موضوع النقد ، وتحليلها وتشريحها وفحصها من جميع وجوهها هو مهمة الناقد - بالأثر الأدبي لا ينبغي أن يعتمد في فهمه على شيء وسواه . « إنني لا أكون ناقدًا أدبيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذا ما اتخذت الأثر الأدبي نافذة أنظر من خلالها إلى شيء سواها ، كأن أنظر إلى البيئة والظروف الاجتماعية والسياسية التي هي قائمة وراء الأثر المدروس ، إذ لو فعلت لكنت القطعة الأدبية التي أمامي بمثابة الوثيقة التاريخية لا أكثر ولا أقل - ولا أصل من الأثر الأولى نافذة أنظر منها إلى دخيلة نفسه - أو دخيلة نفس الناقد إذ لو فعلت لكنت أشبه بعالم النفس يحلل لمريضه أحلامه وردود أفعاله وخسائره ومشاعره . . . الناقد لا هو عالم اجتماع ولا سياسة ولا عالم نفس ولا طبيعة - وإنما هو ناقد أدبي غايته دراسة قطعة أدبية يختارها للدراسة » (٢٠٧) . وتلك وجهة نظر في النقد يدافع عنها كثيرون عندما يذهبون إلى أنه « لا بد من اتخاذ العمل الفني ذاته محوراً لكل ما يقال في ميدان النقد وأساساً لكل تدقيق ، فالاستطراد في الكلام عن شخصية الفنان ، أو وقائع حياته أو ظروف مجتمعه دون أن تربط بين ما تقوله وبين العمل الفني ذاته - لا تعدوان تكون استطرادات ذات قيمة تاريخية أو نفسية أو اجتماعية ، ولكنها ليست نقداً بالمعنى الصحيح . . (٢٠٨) . على أن النقد الأدبي يدخل في مجالات أشد تعقيداً كما تفعل النبوة مثلاً » - مما يجاوز هذا التحديدات العامة التي وضعها أستاذنا ولذا سنكتفي بهذه الفكرة لننتقل إلى أدب المقال .

ثالثاً : - أدب المقال

قلنا إن زكي نجيب محمود يكاد يكون من أبرع كتاب

(٢٠٦) قصود ولبيب من ١١٩ - ١٢٠ مكتبة الانجلو عام ١٩٥٧

(٢٠٧) فلسفة النقد من ٢٢٢ - ٢٢٣ دار الشروق ط ٣ عام ٨٣

(٢٠٨) . - فؤاد دكريريا من مقدمته لترجمة كتاب « النقد القوي » تأليف جيروم ستولنيتز من هـ - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة عام ١٩٨١ ط ٢ .

الى الأنين الخافت منها الى العويل والصراخ « فان التمسست في مقالة الأديب نقمة على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها ، وان افتقدت في مقال الأديب هذا اللون من الفكاهة الخلوة المستساغة فلم تصبه ، فاعلم أن المقالة ليست من الأدب الرفيع ، في كثير ولا قليل ، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة » (٢١٠) .

٣ - الشرط الثالث أن تعبر المقالة الأدبية عن ضرب من السمرين الكاتب والقارئ فهو صديق يحدث صديقه عن حادثة شهدتها في الترام ، ملاحظة هنا أو هناك مما يقع عليه البصر - بحيث لا يكون القارئ أمام « مُعَلِّم » يعنفه ، ولا أمام واعظ يحط بغيره يميل صلفاً وتيهاً بورعه وتقواه ، ولا مؤدب يصطنع الوقار حين يصب في أذن سامعه الحكمة صبا ثقيلا . ومن هنا فلا بد أن يشعر القارئ ، وهو يقرأ المقالة الأدبية أنه ضيف استقبله الكاتب في حديثه ليمتعه بحلول الحديث ولهذا لا بد أن يكون أسلوبها عذبا سلسا دافقا بلا زخرفة !

أما من حيث المضمون فان كاتب المقالة الأدبية على أصح صورها هو الذي تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة ابتداء ، ثم يسلم نفسه الى أحلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون له أثر فوري في استدعائها عن عمد وقصد وتدبير . ومن هنا فلا يجوز أن تبحث المقالة الأدبية في موضوع مجرد كان تبحث فضل النظام الديمقراطي أو معنى الجمال أو قاعدة في علم النفس أو أصول التربية . بل لا بد أن تُعبر عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر الى نفوس قرائه - أما الموضوعات الاقتصادية أو السياسية أو العقلية ، فلها أنواع أخرى من المقالات الخاصة

« المقالة الأدبية » ، في أدبنا المعاصر ، ولقد كان له تصور خاص لهذا اللون من الأدب تأثر فيه بأدباء المقال الإنجليز بصفه خاصة ، لكن إهتمامهم بهذا الطراز من الفنون الأدبية جاء مسائراً لا إهتمام أدباء عصره بالمقال « قاديان قصير النفس » تكفيه المقالة الواحدة ليفرغ في أنهرها القليلة كل ما يتأجج به صدره من عاطفة وما يخلج به رأسه من فكر : فان غضب أديبنا من نقص يلمحه في بناء الجماعة أو أخلاق الفرد ، فزع الى المقالة يصب فيها ثورة غضبه . وان افتتن أديبنا بمجال الطبيعة الخلاب لجأ الى المقالة يبت فيها ما أحس من عجب وإعجاب . (٢١١) « فاللقام عندنا ملاذ الأديب ، بصفه عامة ، باستثناء قلة قليلة عمدت الى القصة أو المسرحية - الخ ولا بأس أن يلجأ الأديب الى المقال اذا سار على قواعد الأدب الصحيح فما هي ؟ .

هناك ثلاثة شروط للمقال الأدبي من حيث الشكل :

١ - أول شرط للمقال الأدبي أن يكون له « فورم Form » أي شكل أو صورة معينة يضع فيها الأديب فكرته فهو لا يسرد تحليلاته كما يفعل رجل المنطق ، أعني أن الانتقال لا يكون بحيث تأتي الفكرة الثانية عن طريق الاستدلال من الفكرة الأولى حتى نصل الى النتائج - بل الأديب محكوم بتداعي المعاني بحيث لا يكون لها ضابط من نظام ، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم فقد نجح على شكل « حلم » يرى فيه الأديب نفسه مرة في القاهرة وأخرى في أوروبا بل وفي أماكن لا رابط بينها سوى ما يريد أن يثيره في نفس قارئه من وجدان .

٢ - الشرط الثاني أن يصدر المقال عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع على شرط أن يجيء السخط في نغمة هادئة خفيفة هي أقرب

(٢١٩) جنة العبيط ص ٧ دار الشرق ط ٢ عام ١٩٨٢

(٢١٠) جنة العبيط ص ٩ دار الشرق ط ٢ عام ١٩٨٢

بالدراسة الأكاديمية تقربها من البحوث بقدر ما تبعدها عن « المقال الأدبي » الذي يميل فيه الأديب الحق إلى أن يخذع القارئ كي يعمى في القراءة وكأنه هو يسري عن نفسه المكروية عناد اليوم ، وهو كلما قرأ تسلل إلى نفسه ما شاع في سطور المقالة من نكتة خفيفة وسخرية هادئة . وقد يعجب القارئ : كيف يمكن أن يكون في النفوس البشرية مثل هذه اللغات واللمحات ؟ ولكنه لن يلبث حتى يتبين أن هذا الذي عجب منه إنما هو جزء من نفسه أو نفوس أصدقائه ، فيضجره أن يكون على هذا النحو السخيف فيكون هذا الضجر منه أول خطوات الإصلاح المنشود (٢١١) .

رابعاً : نماذج من أدب المقال

علينا الآن أن نستعرض بعضاً من المقالات الأدبية لنرى كيف كان يطبق الشروط السابقة ويتقيد بها فيما كتب من مقالات أدبية كان يطلق عليها هو نفسه اسم القنابل المتفجرة لأنه أراد لها أن تنسف جزءاً من ألف جزءاً من الاطار الثقافي العتيق الذي كنا وما نزال نعيش فيه يقول : « صوّرتُ في إطسار أدبي - في أوائل الخمسينات ما انطبعت به نفسي حينئذ من فوضى القيم في حياتنا ، بحيث انقلبت أعلاها على أسفلها فيعاقب المحسن ويكافأ المسيء ، وربما أكون قد أسرفت في القسوة ، لكنها قسوة المواطن يحب وطنه ، ويثيرة أن يراه قد تنكب عن جادة الطريق . . (٢١٢) » .

سوف أسوق أمثلة قليلة « للمقالة الأدبية » وأن كان علينا أن نضع في ذهننا ملاحظتين : الأولى أن المقالات التي كتبها زكي نجيب محمود وهي تبلغ المئات ليست

كلها مقالات أدبية تنطبق عليها الشروط السابقة ، بل فيها المقالات التي تعالج « أفكساراً » أو « مفاهيم اجتماعية » وتقوم بتحليلها تحليلاً عقلياً مستخدمة الفاعلية الفلسفية على نحو ما أشرنا من قبل . والملاحظة الثانية أن المقالة الأدبية يصعب تلخيصها لأن المهم في القطعة الأدبية إنما هو الأثر الذي يخرج به القارئ ، ولهذا لا بد أن يقرأها في مكانها وكما عرضها صاحبها ، لكننا سوف نسوق نماذج قليلة على النحو التالي :

١ - بيضة الفيل :

من أمتع المقالات الأدبية التي كتبها أستاذنا الكبير مقالة بعنوان « بيضة الفيل » يسخر فيها من المناقشات « البيزنطية » التي تجتهد بين بعض الناس في موضوعات في غاية التفاهة من ناحية ، ثم هي تخلق مشكلات من عدم من ناحية أخرى . يبدأ المقال على النحو التالي : « قال الشيخ : الفيلة تلد ولا تبيض . والمشكلة المراد حلها هي هذه : لو كانت الفيلة تبيض فماذا يكون لون بيضها ؟ (٢١٣) » . لاحظ أن أول سطر في المقال يقرر حقيقة علمية واقعة هي « أن الفيلة تلد ولا تبيض » لكننا اعتدنا أن نخلق مشكلات من عدم : فافترض أنها تبيض فماذا يكون لون بيضها ؟ يستمر المقال فيقول : « في الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء : يقول عمارة بن الحارث ابن عمارة تكون بيضاء . واستدل على صحة قوله بدليل من القياس ودليل من اللغة (٢١٤) . أما دليل القياس فهو أن كافة مخلوقات الله التي تبيض بيضها

(٢١١) جنة الميعاد ص ١٣

(٢١٢) قصة عقل ص ١٨

(٢١٣) قصة عقل ص ١٨

(٢١٤) جنة الميعاد ص ٢٧

يريد الكاتب أن يفتح عين القارئ عليه وهو بعدنا من مشكلات العصر فيقول إنه حدثت رجفة عنيفة « وزلزلت الأرض زلزالها ، وقال الشيخ مالها ؟ . فقيل : يا مولانا قبلت ذرية ، في لمحة تقضي على الأصل والذرية . فمجب الشيخ أن كان في الدنيا علم غير علمه ! » (٢١٥) .

ب - جنة العبيط :

وفي استطاعتك أن تقول الشيء نفسه عن مقالة « جنة العبيط » التي تعالج فكر العصر الوسيط الفج الذي ما زلنا نعيش فيه فضلاً عن عادته الاجتماعية البالية وبدأ المقال : « أما العبيط فهو أنا ، وأما جنتي فهي أحلام نسجتها على مر الأعوام عريشة ظليلة ، تهب فيها النسائم علية بليلة ، فإذا ما خطورت عنها خطوة إلى يمين أو شمال أو أمام أو وراء ، ولفحتني الشمس بوقدتها الكاوية ، عدت إلى جنتي أنعم فيها بعزلي ، كأنما أنا الصقر الهرم تغفو عيناه فيتوهم أن بغاث الطير تحشاه ، ويفتح عينيه ، فإذا بغاث الطير تغرى جناحيه ، ويعود فيغفو لينعم في غفوته بحلاوة غفلته . . الخ » لاحظ السجع الواضح ذا الدلالة .

ج - نفوس فقيرة :

من أمتع المقالات التي تهزك هزاً عنيفاً مقاله عن « النفوس الفقيرة » الذي يبدأ بتصوير الأنواع المختلفة للفقر :

« الفقر صورته شتى . . .

أبيض ، وليس في طبيعة الفيل ما يدل على أنه لوباض أخذت بيضته لوناً آخر غير البياض . . أما دليل اللغة فهو أن البيضة مشتقة من البياض ، وإذن فالبياض أصل والبيضة فرع منه . . وأخيراً تساءل عمارة : ما حكم الشرع في بيضه الفيل ، أيحل أكلها للمسلمين أم يحرم عليهم ؟ وهنا أجاب بدقته المعهودة أن بيضة الفيل حلال أكلها بشرط ، حرام بشرط . . « على هذا النحو الجميل يصور الأديب مشكلاتنا الثقافية التي نخلقها من لا شيء . وهو يندع القارئ بأن يذكر أسياء العلماء كما لو كانوا من التراث فعلاً ليشرح القارئ أن مناقشاتنا لا تزال هي نفسها مناقشات العصور الوسطى . انظر مثلاً إلى المقال يستمر جاداً مع أنه يسخر سخرة مريرة . . « وتصدى معصرة بن المنزر لتنفيذ ما قال عمارة بن الحارث في بيضة الفيل من حيث لونها ، فقال عن دليل القياس الذي ساقه عمارة . . إنه ليس صحيحاً أن كافة الحيوان الذي يبيض لونه أبيض ، فيبيض البط فيه خضرة خفيفة ، وبيض الدجاج في بعضه حمرة خفيفة ، ومن الطير ما يبيض أرقط ، ومنه ما يبيض أزرق . . أما دليل اللغة فهو استنتاج معكوس ومغلوط في آن معاً . . الخ » وكان من بين تلاميذ ابن الحارث تلميذ نجيب فتصدى للرد على نقد معصرة فقال انه زل زلة ما كان ينبغي أن يقع في مثلها رجل مثله وهو شيخ المنطقة في زمانه . . « وتستمر المحاور - وهذا هو « الفورم » أي الشكل الذي اتخذته المقال - بأسلوب ساخر لا ذع عن إهدار القدرات العقلية في مناقشات لا معنى لها لأنها تتناول موضوعات نخترعها من ناحية وهي أتفه من أن تكون موضوعاً لحوار من ناحية أخرى ويختتم المقال بما

منها اليباب القفر الذي تلهب رماله بسوقدة الشمس ، حتى لتقلب حبات الرمل على سطحه جمرات من نار . . .

ومنها الصخر الأجرد الذي صلد عوده وتصلبت أطرافه ، فلا يتفجر جوفه عن قطرة أو نبته

ومنها الساء لا تجود بالغيث ، تيبس الأرض من تحتها وتشقق ، ويجف الزرع ويموت وتشخص الأبصار إليها ضارعة ، وتصعد الدعوات إليها مسترحة ، لكنها كالحة مصفرة الوجه لا تجود . .

ومنها الوردة تذبل وتذوى ، طار عنها الشذى وجف من عرقها الماء . . ومنها الجدول غيض مائه ، تعبته ماشياً على قدميك فترن أصداً خطاك بين صخور لخلائه وفراغه . . ومنها الجيوب تخلو من المال . . .

لكن لا اليباب القفر الذي تلهب رماله بسوقدة الشمس ، ولا الصخر الأجرد الذي صلد صدره ولا الساء اليابسة ولا الوردة الذابلة ، ولا الجدول غيض مائه ولا الجيوب الخالية من المال ، بمسئلة أن تعب عن الفقر بأبلغ مما تعب عنه النفوس الفقيرة .

فقيرة هي تلك النفوس التي يعيش أصحابها فيما نعيش فيه ولا تتأثر ، كأنما تنظر العين ولا ترى ، وتسمع الأذن ولا تسمع ، وكأنما قُذِّ القلب من صوان . . صاحب النفس الفقيرة كالمذيع التالف ، فيه المفساتيح والصمامات والأسلاك ، لكن الهواء من حوله يعج بموجات الصوت وهو أبكم لا يلتقط ولا يذيع . . فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواء ، فتمتد إلى

خارجها لتقتني ما يسد لها هذا الخواء . فتتصيد أناساً آخرين لتخضعهم لسلطانها . أنها علامة لا تخطيء في تمييز أصحاب النفوس الفقيرة من سواهم ، فحينما وجدت طاغية - صغيراً كان أو كبيراً - فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه ، أن المكتفي بنفسه لا يطغى فقيرة هي النفس التي لا تستطيع أن تقف موقف سواها ، لترى ما ترى وتحس ما تحس . . فقيرة هي تلك النفوس التي لا يستطيع أصحابها أن ينظروا من وراء الأشخاص إلى حيث ظروفهم ، ولو قد فعلوا لاشتد بهم التسامح واتسع فيهم العفو والمغفرة .

فقيرة هي تلك النفوس التي تبطش بالأشياء والأحياء ببطش الصبيان ، فقيرة - يا أبا العلاء - هي تلك النفوس التي لا تخفف الوطء ، لأنها لا تدري أن أديم الأرض هو من هذه الأجساد . . (٢١٦) » .

د - الكوميديا الأرضية :

وهو في مقال عنوانه « الكوميديا الأرضية » يتخيل أن دانتي « قد بُعث حياً وأنه كتب هذه القصيدة الجديدة التي اتخذ فيها أيضاً من أستاذه القديم « فرجيل » دليلاً وهادياً ، ويصور أستاذنا بسخرية مريرة كيف وجد دانتي في الجحيم كل مَنْ فعل خيراً أو قال صدقاً - لأنه أراد أن يصور القيم المقلوبة في مجتمعنا - فماذا وجد الشاعر في أول حلقة من حلقات الجحيم « ها هنا وجد عبدة المبادئ الذين أنهكوا قواهم وأضاعوا حيواتهم في سبيل مبادئهم . . ولهذا فقد حق عليهم الحرمان من نعيم الفردوس ! » وماذا وجد في الحلقة الثانية من الجحيم

(٢١٦) د - والثورة على الأبواب - من ٧٥ - ٨٢ من طبعة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤ وقد أعاد نشرها في دار الشروق بعنوان « الكوميديا الأرضية » .

على فكر زكي نجيب محمود من منظور الوضعية المنطقية وحدها ، وأن كل مَنْ يأخذ بهذا المنظور ، فإنه يكشف عن خطأ أساسي أو قصور شديد لأنه لم يتبع التطور الروحي لهذا المفكر أو أنه اكتفى بالتوقف عند مرحلة واحدة من مراحل تطوره .

(٢) ان زكي نجيب محمود مفكر تنويري يقوم بمواصلة المهمة التنويرية التي بدأها رفاة الطهطاوي وسار فيها أعلام نهضتنا الحديثة . فهو يستكمل الطريق نفسه الذي سار فيه رواد كبار من أمثال محمد عبده ، ولطفي السيد وطه حسين والعقاد وغيرهم من الذين جمعوا بين الثقافة العربية الأصيلة والفكر المعاصر في دمج واحد . ومن هنا قدم مفكرنا صيغة ثنائية هي « العقل والوجدان » والفرقة بين هذين المجالين حلاً لمشكلتنا الثقافية ، وقد عرض هذه الصيغة في « الشرق الفنان » وجسدها هو نفسه بحياته ومؤلفاته .

(٣) في هذه الصيغة الثنائية « العقل والوجدان » حرص على خلق طريقة عقلية جديدة يحلل بها المثقف العربي لنفسه ولمجتمعه ، إذا أراد ، مفاهيمه وأفكاره بأن يفكها الى مكوناتها الأصلية ليلقي عليها الضوء ، فلا نستخدم مفاهيم غامضة يمكن أن تكون عتبة أكثر مما تكون دافعاً للتطور . ثم قدم لنا نماذج من اهتماماته الأدبية لا سيما « المقال الأدبي » الذي يهدف الى إثارة الوجدان عند القارئ .

فأي منهج نطبقه في الحالات التي يتداخل فيها اللا متناهي مع المتناهي ويتصل به ؟ (١٧) .

« أولئك الذين شغلهم في الدنيا عقولهم عن إشباع شهوات أجسادهم . . . » أما في الحلقة الثالثة فقد أعدّ العقاب لمن عَفَّ فلم يلحف في السؤال عن حقه لدى أصحاب السلطان . وفي الحلقة الرابعة جماعة كانت تشغل نفسها بالأصلاح فتفسد على غيرهم نِعاسهم وأحلامهم . أما الحلقة الخامسة فقد خُصّصت لمن أخذ زمانه بالدقة فلا يؤخر موعداً ولا يؤجل عملاً الى غد . . . وهكذا نجد في كل حلقة من الجحيم « أفاضل الناس » حتى الحلقة العاشرة نجد فيها مَنْ لم يتشفعوا بشفيح أو يتوسطوا بوسيط وعملوا في صمت . وفي استطاعتك أن تقول إنَّ خصائص المقالة الأدبية بارزة في كثير جداً من المقالات التي كتبها في كتبه المتقدمة : « جنة العبيط » ، و « الثورة على الأبواب » ، و « شروق من الغرب » حيث تغلب النغمة الأدبية ولك أن تقرأ فيها « ظلم » و « خيسوط العنكبوت » ، و « عروس المواد » ، و « الكراهية الصامتة » ، و « عند السفح » . . الخ وفي كتبه المتأخرة « رؤية إسلامية » ، « عن الحرية أتحدث » و « تحديث الثقافة العربية » . . مقالات « أستاذ يحلم » ، و « ذبابة تعقبها » ، و « نافخ النار » . . وغيرها كثير .

خاتمة :

بعد هذه الرحلة الطويلة التي قطعناها في فكر زكي نجيب محمود علينا أن نقف في هذه الخاتمة لتأمل مجموعة من الملاحظات أهمها ما يأتي : -

(١) لقد حاول هذا البحث تأكيد القضية التي أثارها في البداية وهي أننا نخطيء كثيراً عندما نحكم .

(٤) نستطيع أن نقول أيضاً إن « فكرة الثنائية » - لا سيما الانطولوجية - غير مستقرة عند مفكرنا الكبير فهو أحياناً يرى أنها ثنائية لا تسوّى بين الشطرين بل تجعل للشطر الروحاني الأولوية. على الشطر المادي فهو الذي أوجده ، وهو الذي يُسَيِّره ويحدد له الأهداف (٢١٨) . - وواضح أننا هنا أمام واحدة ؟ ! إذ يمكن أن يُرد الشطر المادي الى الروحاني ! ثم يقول في أحيان أخرى « إنها نظرة تجمع بين الثنائية والكثرة ، ثنائية بالنسبة الى الله الخالق والكون المخلوق والكثرة بالنسبة لأفراد الناس الداخلين في حدود هذا الكون المخلوق . . (٢١٩) » ثم هو يميل - بصراحة ووضوح - في مقالاته الأخيرة في جريدة الأهرام الى الوحدانية « ولك أن تقرأ مجموعة المقالات التي كتبها بعنوان « من إشعاعات التوحيد . . (٢٢٠) » .

(٥) يقترح الأستاذنا الكبير صيغة « العقل والوجدان » حلاً لمشكلة « الأصالة والمعاصرة » وإن قلنا أن هذه الصيغة هي المفتاح « السحري » لحل مشكلتنا الثقافية فسوف نصطدم بكثرة من المشكلات ، منها مثلاً ان ثنائية « العقل والوجدان » زوجان مختلفان من المقابلات يختلفان أتم الاختلاف من الأصالة والمعاصرة ! فهل نقول إن المعاصرة هي العقل والأصالة هي الوجدان ؟ ! في هذه الحالة نكون قد حكمنا على التراث كله بأنه أشبه بالعمل الفني الذي لا نستطيع

التعامل معه الا بوجداننا - مع أننا كثيراً ما نعود إليه بوصفه يشتمل على نماذج كثيرة من ثنائية « العقل والوجدان » معاً !

ثم ألا نستطيع أن نقول أن في المعاصرة عقلاً ووجداناً ، وفي الأصالة عقلاً ووجداناً ؟ ! وفي العقل أصالة ومعاصرة ، وفي الوجدان أصالة ومعاصرة ؟ ! ألا يجعلنا ذلك ننتهي الى أن مشكلة الأصالة والمعاصرة ربما كانت « شبه مشكلة » أو « مشكلة زائفة » ، لأن المثقف العربي الحقيقي هو في الوقت نفسه أصيل ومعاصر معاً ؟ !

(٦) لكن أياً ما كانت الانتقادات التي توجه الى هذه الفلسفة الثنائية ، فسوف يبقى لهذا الرجل أنه حمل مشعل التنوير ما يقرب من ستين عاماً يضفي به العقول والقلوب معاً في مؤلفاته ومحاضراته وأحاديثه ولقاءاته . . وأنه كان مفكراً عربياً مخلصاً في عروبه ووطنيته كما يقول واحد من أشد معارضيه : « كتابات زكي نجيب محمود ترفض الاستعمار والاحتكار والارهاب بالفكر والسياسة ، إنه يريد الآلات المتقدمة والتكنولوجيا الراقية ، ولا يريد أن يستجلب معها إستعماراً ولا احتكاراً ، بل لقد شارك الناس زمناً في الاستماع الى أغنيات الاشتراكية ولم يرفضها ، كما دعا الى حرية إجتماعية وإلى إنصاف العمال والفلاحين وهو يقدم بشخصه نموذجاً نادراً للمفكر الحر . . (٢٢١) » .



(٢١٨) تحديد الفكر العربي ص ٢٧٥

(٢١٩) المرجع نفسه

(٢٢٠) جريدة الأهرام ٢٤ / ١ / ٨٩ وكذلك ٣١ / ١ / ١٩٨٩

(٢٢١) من تقديم الأستاذ إبراهيم فتحى لكتاب « نقد العقل الوضعي : دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي نجيب محمود » ص ١٧ - ١٨ - دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ .

« مراجع البحث »

أولاً : مؤلفات الدكتور زكي نجيب محمود

- (١) زكي نجيب محمود « في تجديد الثقافة العربية - دار الشروق عام ١٩٨٧
- (٢) زكي نجيب محمود « رؤية إسلامية - دار الشروق عام ١٩٨٧
- (٣) زكي نجيب محمود « عن الحرية المحدث » - دار الشروق عام ١٩٨٦
- (٤) زكي نجيب محمود « في مفترق الطرق » - دار الشروق عام ١٩٨٥
- (٥) زكي نجيب محمود « قيم من التراث » - دار الشروق عام ١٩٨٤
- (٦) زكي نجيب محمود « قصة نفس » - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨٣
- (٧) زكي نجيب محمود « قصة عقل - دار الشروق عام ١٩٨٣
- (٨) زكي نجيب محمود « أفكار ومواقف » - دار الشروق عام ١٩٨٣
- (٩) زكي نجيب محمود « تجديد الفكر العربي » - دار الشروق عام ١٩٨٢
- (١٠) زكي نجيب محمود « هذا العصر وثقافته » - دار الشروق عام ١٩٨٢
- (١١) زكي نجيب محمود « من زاوية فلسفية » - دار الشروق عام ١٩٨٢
- (١٢) زكي نجيب محمود « مجتمع جديد أو الكارثة » - دار الشروق عام ١٩٨٣
- (١٣) زكي نجيب محمود « جنة العبيط » - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨٢
- (١٤) زكي نجيب محمود « في حياتنا العقلية » - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨١
- (١٥) زكي نجيب محمود « هموم المثقفين » - دار الشروق - ط ٢ عام ١٩٨١
- (١٦) زكي نجيب محمود « المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري » - دار الشروق - ط ٣ عام ١٩٨١
- (١٧) زكي نجيب محمود « مع الشسراء » - دار الشروق عام ١٩٧٨
- (١٨) زكي نجيب محمود « أرض الأحلام » - دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٧٧
- (١٩) زكي نجيب محمود « ثقافتنا في مواجهة العصر » - دار الشروق عام ١٩٧٦
- (٢٠) زكي نجيب محمود « الشرق الفئان » - العدد رقم ٢ في سلسلة المكتبة الثقافية - دار القلم - القاهرة عام ١٩٦٠
- (٢١) زكي نجيب محمود « المنطق الوضعي » - ج ١ ، ج ٢ - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٧
- (٢٢) زكي نجيب محمود « نحو فلسفة علمية » - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٨
- (٢٣) زكي نجيب محمود « قشور ولباب » - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٨
- (٢٤) زكي نجيب محمود « والثورة على الأبواب » - مكتبة الانجلو عام ١٩٥٤
- (٢٥) زكي نجيب محمود « شروق من الغرب » - مكتبة الانجلو عام ١٩٥١
- (٢٦) زكي نجيب محمود « خرافة الميتافيزيقا » - النهضة المصرية عام ١٩٥٣
- (٢٧) مجموعة مقالات الأهرام - لعام ١٩٨٧ بعنوان « بدور وجدور » .
- (٢٨) مجموعة مقالات - الأهرام - لعام ٨٨ - بعنوان « عربي بين ثقافتين » .

ثانياً : مراجع عامة :

- (١) أحمد أمين « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » - مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٩
- (٢) أحمد أمين « حياتي » - دار الكتاب العربي بيروت عام ١٩٧١
- (٣) د. أحمد ماضي « الوضعية المحدثة والتحليل المنطقي » - ضمن بحوث الفلسفة في الوطن العربي المعاصر - بحوث المؤتمر الأول أصدرها مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت عام ١٩٨٥
- (٤) د. حسن فوزي النجار « رفاة الطهطاوي » - سلسلة أعلام العرب - عدد ٥٣ - القاهرة .
- (٥) جورج ستولنيتز « النقد الفني » - ترجمة د. فؤاد زكريا - الهيئة المصرية - القاهرة عام ١٩٨١
- (٦) الإمام محمد عبده « الإسلام والتصيرية » - مكتبة صبيح عام ١٩٥٤
- (٧) د. محمد البهي « الفكر الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » - دار الفكر - بيروت - ١٩٧٠ .
- (٨) د. محمد عمارة « رفاة الطهطاوي » - رائد التنوير الحديث - أعلام عدد ٣ - القاهرة ١٩٨٤ .
- (٩) محمود أمين العالم « معارك فكرية » - دار الهلال - ط ٢ - ١٩٧٠ .
- (١٠) طه حسين « في الشعر الجاهلي » - مطبعة دار الكتب المصرية - عام ١٩٢٩ وفي طبعته الثانية « في الأدب الجاهلي » - ضمن المجلد الخامس من المؤلفات العامة التي نشرت في دار الكتاب اللبناني - عام ١٩٧٤ .
- (١١) د. عاطف احمد « نقد العقل الوضعي » - دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي نجيب محمود » - دار الطليعة - بيروت - عام ١٩٨٠ .
- (١٢) علي عبد الرزاق « الإسلام وأصول الحكم » - المؤسسة العربية للدراسات - نشرة د. محمد عمارة مع وثائق المحاكمة .
- (١٣) د. يحيى هويدي « الفلسفة الوضعية في الميزان » - مكتبة النهضة المصرية - عام ١٩٧٢ .
- (١٤) « أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي - بحوث ندوة الكويت في أبريل - عام ١٩٧٤ - مطابع دار السياسة بالكويت .
- (١٥) « الدكتور زكي نجيب محمود » - فيلسوفاً وأديباً ومعلماً » - الكتاب التذكاري الذي أصدره قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الكويت - عام ١٩٨٧ - مطابع الوطن .



مقدمة : ..

في معرض الحديث عن القصة في الأدب العربي الحديث ، يذهب كثير من الباحثين الى أنها نشأت متأثرة بالقصة الغربية ، منذ بداية القرن العشرين حين نشر محمد حسين هيكل روايته (زينب) وأصدر محمد تيمور مجموعته القصصية الوحيدة (ما تراه العيون) متأثرين بالقصاصين الفرنسيين وانها - أي القصة العربية الحديثة - منبثقة الجذور عما يحمله التراث العربي من قصص وحكايات . وتعصب قسم منهم فأنكر وجود القصة في التراث العربي القديم كأحمد أمين في (فجر الإسلام) والعقاد في (الفصول) وتوفيق الحكيم في (زهرة العمر) الذين يرون أن العرب لم يعرفوا القصة إلا في عصور متأخرة كالعصر العباسي . ومنهم من بحث عن القصة بمواصفاتها الفنية الحديثة ، فوجد أن ما يحمله التراث لا يرقى إلى المستوى الفني للقصة الحديثة لذا أدار ظهره للتراث . يقول يحيى حقي : « وحلت الرياح التي تهب من أوروبا بذرة غربية على المجتمع العربي ، بذرة القصة . . . وعلى ضوء المقارنة بين البذرة القادمة وبين ما هو موجود باليد أحسن الأدباء أن الفرق بين الاثنين كبير فالموجود في اليد لا يخرج عن بعض السير ، وقصص ألف ليلة وليلة ، ومقامات لم تدرس إلا باعتبارها وثائق لغوية غرقت في تحف النحو والبديع ، عناصر ضئيلة من قوام القصة بوصفها لشخصية خيالية ، أو ضبطها في موقف معين لا يخلو من الفكاهة أحياناً كما في مقامات الحريري ، هي فتات في تنقصه الوحدة » (١) .

غير أن التراث بما يحمله من أخبار ونوادر وسير وحكايات وقصص قصيرة وطويلة ، المترجم منه ككليلة ودمنة والأصيل كالمقامات ، الشعبي منه كالسيرة الهلالية

فنية القصة في كتاب التبخل والاحتياط

ضياء الصديقي

(١) يحيى حقي ، فجر القصة المصرية ، ص ٢١ .

وألّف ليلة وليلة ، والرسمي كالأخبار والحكايات والنوادر ، يمثل مرحلة طفولة ونشأة وتطور هذا الفن .

إن من يعد إلى التراث في عصوره المختلفة يجد أنواعاً كثيرة من القصص بل ويلحظ تطوراً ونضجاً إلى حد ما في فنية هذه القصص ، فمن حكايات بسيطة ونوادر صغيرة متناثرة تلعب فيها الأساطير والخرافات دوراً كبيراً مثل الغول والعنقاء وحكايات الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، إلى أنواع مختلفة من القصص في العصر الإسلامي والأموي والعباسي من قصص دينية هدفها العظة والعبرة ، إلى قصص اجتماعية تصور طبقات المجتمع المختلفة ، إلى قصص عاطفية مستوحاة من سير الشعراء العذريين ، إلى قصص رمزية كقصص الصوفية ، إلى قصص فلسفية ومثلها الحي في قصة ابن طفيل (حي بن يقظان) . بل إن التراث العربي عرف أنواعاً من الأشكال الفنية ، كالقصة - الخبر التي تجمع بين التاريخ والفن مع حرص قائلها على تتبع مصدرها وكأنها وقعت فعلاً ، والقصة - النادرة والتي تكون أقصر من حيث الحجم وتدور حول مغزى محدد كنفذ وضع معين أو السخرية منه أو عظة إنسانية ، وأبطالها عادة ما يكونون من السطرفاء أو السكارى أو البخلاء أو المغفلين . وعرف التراث أيضاً قصص الحيوان التي تتصرف فيها أبطالها من الحيوانات وتتحدث كالناس مع احتفاظها بسماتها الحيوانية وكلها تهدف إلى مغزى أخلاقي ، كما عرف التراث المجموعات القصصية التي تسدرج تحت موضوع واحد قلما نجد مثيلاً له في

المجموعات القصصية الحديثة مثل كتاب البخلاء للجاحظ والفرج بعد الشدة للتونجي ومصارع العشاق لابن السراج فإن لم ترتبط القصص بموضوع واحد أو جودوا لها رباطاً فنياً آخر كما نجد ذلك في ألف ليلة وليلة في قصة الملك شهریار المعروفة الذي يقتل عروساً كل ليلة انتقاماً لامرأته التي خانتها حتى تحتال عليه شهرزاد بأن تبدأ كل ليلة قصة لا تتمها الا في اليوم التالي . وعرف التراث السير الشعبية كالسيرة الهلالية وسيرة عنترة . والسيرة قالب فني يجمع بين المجموعة القصصية والرواية ، إذ أن قصص السير الشعبية يجمعها بطل واحد هو بطل السيرة . وهناك قالب قصصي آخر عرفه التراث وهو المقامات التي تقترب في بعض قصصها من فن القصة القصيرة . ولا نود أن نطيل أكثر في تعداد أنواع وأشكال القصة التراثية في هذه المقدمة بقدر ما نريد أن نؤكد أن موضوع القصة في التراث - مهما اختلفت مستوياتها الفنية - موضوع لا يمكن إنكاره . أضف إلى ذلك أن القصة الغربية في نشأتها وبداياتها تأثرت - من بين ما تأثرت به - بحكايات وقصص وسير التراث العربي وذلك عن طريق الترجمة في عهد مبكر إلى الإسبانية أولاً ومنها إلى اللاتينية ، فقد ترجم كتاب كليلة ودمنة - على سبيل المثال - إلى الإسبانية في القرن الثالث عشر الميلادي (٢) .

وتذكر الدكتور سهير القلماوي في بحثها القيم :
(أثر العرب والإسلام في الفن القصصي في النهضة الأوروبية) أن أهم ما عرفه العرب من هذه الفنون

(٢) انظر يوسف الشاروني - القصة القصيرة - ص ٤٧ ، والطاهر أحمد مكي ، القصة القصيرة ص ٤٦ . وقد ذكر الشاروني أن النص الأصلي العربي لكليلة ودمنة ترجم إلى الإسبانية مباشرة منذ عام ١٢٦١ كما أن الحايمة تودد من مجموعة ألف ليلة وليلة قد ترجمت إلى الإسبانية والبرتغالية بدءاً من (عام ١٥٢٤) ، وقد بلغ من شعبية هذه الحكاية وفيرها في الأدب الأسباني أن عمد إلى نقلها إلى خشبة المسرح الكاتب الأسباني (لوبي دي ليغا) تحت عنوان (الجارية تيودور) ، انظر الشاروني ص ٤٧ - ٤٩ . بينما يرى الطاهر مكي أن كتاب (كليلة ودمنة) عرف طريقه إلى أوروبا عن طريق اللغة الأسبانية عام (١٢٥١) ، وأن أول ما عرف من قصص (ألف ليلة وليلة) قصة (الستينديا) التي وصلت أوروبا عن طريق ترجمة يونانية عن السريانية التي ترجمتها عن العربية أواخر القرن الحادي عشر ، وهناك ترجمة أخرى إلى الإسبانية عام (١٢٣٥) انظر الطاهر مكي ص ٤٦ - ٤٧

أما كتاب البخلاء للجاحظ - موضوع الدراسة - فهو نموذج متقدم للقصة التراثية سواء في شكله الفني الذي يضم مجموعة من القصص ترتبط بموضوع واحد وهو البخل ، أو في بناء القصص نفسها وبمميزاتها الفنية التي تقترب في بعض جوانبها من فنية القصة الحديثة وهذا ما سنعرضه في الصفحات التالية :

الكاتب : (١)

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . قمة من القمم الثقافية الشاخنة في تراثنا العربي الإسلامي ، وشخصية موسوعية فذة ، وأديب عقلي واقعي ، اهتم بقضايا عصره فكان صورة حقيقية للعصر العباسي بوجوهه المختلفة دينياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، وعلمياً ، وثقافياً ، وأدبياً .

ليس لدينا معلومات عن طقولة الجاحظ سوى أنه نشأ في البصرة - مسقط رأسه - يتيماً من أسرة فقيرة ليس له غير أمه ، وأنه كان يبيع الخبز والسماك بسبحان - أحد نهيرات البصرة - كما ورد في معجم الأدباء (٢) . غير أن فقره لم يمنعه من الاختلاف إلى الكتائب ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، وبعض الأشعار ، وشيئاً من النحو والفقه والحساب . وهناك قصة يوردها الجاحظ في كتاب (الحيوان) تشير إلى اختلاقه إلى الكتاب ، وتشير أيضاً إلى الصورة العقلية للجاحظ الصبي يقول :

القصصية العربية هو فن المقامة الذي انتقل إلى الإسبانية عن طريق الأندلس ويتضح تأثيرها في فن من فنون الأدب القصصي الإسباني يسمى (البيكارسية) وهي قصص الشطارة ، والشاطر أو (البيكار) أشبه ما يكون ببطل المقامة . بل إننا نجد في قصص الحب ومغامرات فرسان القرون الوسطى في أوروبا ، في بطولتهم ومثالياتهم وأخلاقهم ووفائهم في حبهم والتغلب على الصعوبات التي يواجهونها في سبيل الحب تشابهاً مع مغامرات عترة وسيف بن ذي يزن ، والذي « شد من أزر نزعة الفروسية هذه ما عرفته أوروبا من ثقافة العرب وآدابهم منذ القرون الوسطى ، فتأثرت في أدها بما أدركته من مكانة المرأة في الأدب العربي » (٣) .

وتتفق أفاقيص الايطالي (بوكاتشيو) المعروفة باسم الليالي العشر (النديكاميرون) في شكلها الفني مع كليله ودمنة وألف ليلة وليلة في أنها قصة تجمع في داخلها مجموعة من القصص . والأمثلة على هذا التأثير كثيرة ليس بما ثبت علمياً من خلال الدراسات المقارنة فحسب بل بشهادة قصاصي أوروبا وروائييها ومؤرخيها (٤) .

وفي الحديث عن القصة في التراث لا بد من الإشارة قبل كل شيء إلى القصة في القرآن والتي لا نعدّها من قصص التراث إلا ضمن سياقها التاريخي ، إذ تقف القصة القرآنية كنموذج متفرد في بنائها الفني المتميز الذي يخدم هدفها الأول وهو العبرة والعظة : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك) (٥) .

(٣) محمد حنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص ٥٠١ .

(٤) انظر علي شلش ، في عالم القصة ، ص ١٩٥ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

(٦) في تعريفنا للجاحظ آثرنا الإشارة إلى بعض ملامح شخصيته وتكوينه وبيئته وعلاقاته ومؤلفاته بما يعيد موضوعنا الأساسي وهو القصة في الجلاء ، وليس الإحاطة الشاملة بالجاحظ الذي كتب فيه الكثير من المؤلفات .

(٧) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(وأنا - حفظك الله تعالى - رأيت كلباً مرة في الحي ونحن في الكتاب ، فعرض له صبي يسمى مهدياً من أولاد القضاة ، وهو قائم يحولوحة فعرض وجهه فنقع نيتته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده ، فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدة وترك مقلته صحيحة ، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه ، وبقي الغلام مبهوئاً قائماً لا ينبس ، وأسكنه الفزع وبقي طائر القلب ، ثم خيط ذلك الموضع ، ورأته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتاب ، وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينبج الى أن يرى ، ولا هراً ، ولا دعا جاء ، حتى اذا رآه صاح : ردوه ! ولا بال جروا ولا علقا ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير . ولم أجد أحداً من تلك المشايخ ، يشك أنهم لم يروا كلباً قط أكلب ولا أفسد طبعاً منه . فهذا الذي عاينت (٨) .

هذه الحادثة التي عرضها الجاحظ نقلاً عن صورة تصويرها في طفولته تبين قوة ملاحظته ودقة تصويره ، وتشير الى عين لاقطة حساسة وذاكرة واعية حتى لا يفوته شيء مما يجري أمامه ، « وفي قوة تكفل لها البقاء في (خزانة الصور العقلية) ذلك العهد السطويل المختلف » (٩) . وإن قوة الملاحظة ودقة التصوير عنصر ستلمحه في قصص البخلاء فيما سيأتي ذكره .

هذا الصبي اليتيم الفقير الدميم الشكل عوّضه الله بذهن صاف وذكاء حاد وميل نحو التعلم ، فبدأ رحلته في طلب العلم ، وراح يختلف بعد أن شب عوده إلى

حلقات المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، ويتردد على سوق البصرة الثقافي المربد الخصب ، ويجالس علماء البصرة المشهورين من اللغويين والنحويين والفقهاء والمتكلمين ، ويعكف على الكتب في شتى فنون المعرفة يلتمسها التهاماً . نقل ابن النديم في الفهرست عن أبي هفان قوله : « ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم : الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسحق القاضي ، فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين السوراقين . وبيت فيها للقراءة والنظر » (١٠) . ومن بين الخلفات التي استهوت الجاحظ ، ووجد في نفسه ميلاً لها هي حلقات المتكلمين بشكل عام وحلقات المعتزلة بشكل خاص التي أثرت فيه تأثيراً مباشراً فاعتنق مذهبها ، إذ وجد فيه ما يرضي نوازعه العقلية . ويقف إبراهيم النظام - من أئمة المعتزلة المشهورين كأكثر الشخصيات التي اتصل بها الجاحظ تأثيراً عليه حتى ليعد مصدراً من مصادر ثقافته ، والجاحظ كثير الإشادة بأستاذته ومكانته ، وبالمعتزلة وأثرهم . يقول في كتاب الحيوان : (لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل : وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) هلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنجى لهم سبباً وفتح لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشماتتهم النعمة) (١١) . ويبدو أن النظام هو الذي غرس في نفسه فكرة الثقافة الموسوعية - كما يرى الدكتور شوقي ضيف - فإن ما رواه عنه في كتاب الحيوان يدل على أنه كان

(٨) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٤

(٩) طه الحارثي - الجاحظ ، ص ٩٣

(١٠) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٦٩

(١١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ج ١ ، ص ٢٠٩

الاستشهادات المبعثرة في كتبه . أما القصاصون الرصحاء فقد أسهموا ولا ريب في تكوينه الديني (١٣) .

واجتماعياً شهدت البصرة أقواماً مختلفي الأجناس والأعراف والانتفاء والولاء دينياً ومياسياً وحضارياً وثقافياً واجتماعياً . عاش فيها العربي الأصيل والمستعرب ، وعاش فيها الموالي من كل جنس ولون : الفارسي والهندي ، والرومي ، والسندي ... وغيرهم ، ومنهم المسلمون من عرب وغير عرب على اختلاف مذاهبهم : السني والشيعة والخارجي والمعتزلي والقدري والمرجئ والظاهر والباطني ، إضافة إلى غير المسلمين من أهل الذمة وأصحاب الديانات الأخرى . وضمت البصرة طبقات اجتماعية مختلفة من المتنفذين أصحاب السلطة والأثرياء كالتجار والملاكين ، ومتوسطي الحال كموظفي الدولة والمعلمين وأئمة المساجد ، ثم طبقة الفقراء والمذقعين . هذه البيئة الثرية الخصبة - التي عاش فيها الجاحظ ما يقرب من أربعين سنة من حياته قبل أن ينتقل إلى بغداد في خلافة المأمون - هي التي شكلت وعي الجاحظ وأثرت بعمق في كل مؤلفاته . وإذا كانت بغداد التي أقام فيها الجاحظ بعد سنوات من خلافة المأمون قد شهدت ولادة معظم مؤلفاته ، فقد ظلت البصرة تزوده بالموضوعات . إن مؤلفاته هي حصيلة ثقافته ومعارفه البصرية (١٤) .

وكتاب (البعلاء) - موضوع الدراسة - صورة من صور المجتمع البصري ، ومن خلاله يشير إلى طبقة الأثرياء والسياسة فيها . غير أن أثر البصرة على الجاحظ لم يقتصر على استمداد موضوعاته منها ، بل إنها طبعت

مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهذا طول تفكيره في آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كونت له فرقة سميت (الجاحظية) (١٥) . بيئة المتكلمين - والمعتزلة على وجه الخصوص - هي التي طبعت الجاحظ بطابع الجدول والمناظرة التي عرف بها رده على الزنادقة والشعوبيين ، وهي التي صبغت كتاباته بالصيغة الكلامية ، ولونت أدبه باللون العقلي في كل مؤلفاته الجدية منها والهزلية . على أن بيئة المعتزلة جزء من بيئة أكبر كان لها أثرها العميق في تكوين شخصية الجاحظ وثقافته ووعيه ، وهي بيئة البصرة . البصرة التي أكمل فيها الجاحظ ثقافته الموسوعية ومعارفه المتنوعة ، كانت مركز إشعاع حضاري لا تضاهيها مدينة أخرى في ذلك العهد باستثناء الكوفة التي كانت مع البصرة قطبي الثقافة الإسلامية والعربية في تلك الفترة ، والموطن الأول للعلم والفلسفة والأدب ، والمصدر الخصب للحياة الزاخرة التي حفلت بها بغداد في نهاية القرن الثاني . شهد الجاحظ في البصرة حركة علمية مزدهرة ، ونشاطاً ثقافياً متنوعاً ، وعلماء أعلاماً في تخصصاتهم ، من مجاميع اللغويين والنحويين والخباريين والشعراء ، إلى الفلاسفة والمتكلمين من كل الفرق الإسلامية وغير الإسلامية ، إلى المتخصصين في العلوم الطبيعية كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء ، إلى حلقات الفقهاء والمفسرين ورواة الحديث والوعاظ والقصاصين . ولعل حلقة القصاصين - بنوعيهما الرصحاء منهم كالحسن البصري ، والظرفاء - من بين الحلقات الثقافية التي استهوت الجاحظ وأثرت عليه ، فقد زاد هؤلاء القصاص الظرفاء في تجاربه الإنسانية كما تدل على ذلك

(١٢) شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص ٨٩ .

(١٣) شارل بللا ، الجاحظ ص ١٦٤ ، وقد عقد بللا في كتابه فصلاً عن القصاصين والوعاظ ص ١٥٦ - ١٦٤ .

(١٤) انظر طه الحاجر ، الجاحظ ، ص ٧٨ . وشارل بللا ، الجاحظ ، ص ١٧ .

جعلها واضحة في علمه وأدبه . لقد مثل الجاحظ في كتاباته تشعب الحركة الفكرية ، وانطلاق العلوم ، واتساع الآفاق ، والبحث العلمي المؤسس على التجربة والعقل ، فخاض في أبواب شتى وموضوعات متنوعة . كتب في الاجتماع والسياسة والأخلاق والتربية والتعليم والطبيعة والعقائد ، وكتب في اللغة والأدب والبلاغة والنقد ، وكتب عن المجتمع وطبقاته المختلفة من العلماء والأدباء وكتاب السدواوين والمعلمين والتجار والفقراء والبخلاء والموالي واللصوص والمكدين والنساء والجواري والرقائق ، صوراً متعددة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية رسمها بلغة نثرية أدبية ، في كل مؤلفاته^(١٥) .

وإذا كان الجاحظ قد خاض في كل تلك الموضوعات بشخصيته الموسوعية الفذة ، وبعقلية العلمية وبنزعة النقدية المستندة إلى التجربة والعقل ، فإنه طبع مؤلفاته ، بطابع الفن والأدب . واستطاع أن يزاوج بين نزعة الأدبية وصفته العلمية مما خلّف شكلاً من أشكال التعبير الأدبي الذي يمتاز برهافة الحس وخصوبة الخيال وقوة الملاحظة ، وقدرة على التغلغل في دقائق الموجودات واستشفاف الحركات النفسية المختلفة ، إضافة إلى عبارات طيبة ، وصور حية نابضة ، وأسلوب لفظي يتسم بالبساطة والدقة والجمال . حتى أصبح أستاذ العصر يروق الكبير والصغير والعالم والجاهل ، إذ كان كل إنسان يجد فيه ما يطلبه من تنوع يبعد عن السأم ،

بطابعها العقلي ، فقد كانت السمة الغالبة على الثقافة البصرية في ذلك العهد هي العقلانية والنظرة الواقعية ، وميل العلماء إلى تحكيم العقل والمنطق في احتجاجاتهم ومؤلفاتهم ، ونزوعهم نحو الجدل العقلي ، حتى صار الجدل سمة من سمات المجتمع البصري . فقد عد النويري في كتابه (نهاية الأرب) تسعة أجناس ، لكل جنس خاصته العقلية أو الخلقية منها أن البصري لا يخلو من جدل^(١٥) . ولعل بيئة البصرة الثقافية كانت من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار النثر العربي ومضاهاته للنشر . ذلك أن العصر لم يكن عصر خيال واندفاع ، وإنما كان عصر روية وتفكير عقلي . ومصدر هذا إنما هو الحركة العلمية الواسعة والنشاط المعرفي المتنوع والتيارات الفكرية المتصارعة التي شهدتها البصرة ، مما دعت الناس إلى أن يفكروا . وكان النثر هو اللسان الذي يعبر عن هذا كله ، فقد أصبح فناً تؤدي فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها^(١٦) .

وعن طريق القراءة والمطالعة والاختلاف إلى حلقات العلم المتنوعة استطاع الجاحظ أن يكون ذا ثقافة واسعة تجعل منه دائرة معارف حية ، فقد حمل في عقله جميع معارف عصره في الأدب والدين والعلم والفلسفة . وعاش الجاحظ عصره وزمانه وكان له دور في مجتمعه ، ومن هنا جاء تفرد وامتياز . وإذا كان عصره قد تميز بحرية الفكر ، فإنه تمكن من تصوير هذه الحرية ، مما

(١٥) عنه الجاحظي ، الجاحظ ، ص ٤١ . وقد عقد الجاحظي في كتابه (الجاحظ حياته وآثاره) فصلاً طويلاً فيها تحدث فيه عن العلاقة بين البصرة والكوفة ، ونقاط التقارب والتباين بين الديرين ، ليصل إلى أن البصرة تمثل الطابع العقلي ، والكوفة تمثل الطابع الباطني أو السري . . . ومن هنا كانت البصرة مهد الاعتزال وبلد المعتزلة ، والكوفة مهد التشيع وبلد الرافضة . انظر مقدمة الكتاب (البصرة وخصائص العقلية البصرية) الصفحات ١٥ - ٣٥ . وكذلك أشار المستشرق الفرنسي شارل بللا إلى نفس الحقيقة في كتابه (الجاحظ) ص ٣٥٤ .

(١٦) سيد حامد التليج ، رحلة التراث العربي ، ص ٦١ .

(١٧) ترك الجاحظ مؤلفات كثيرة جداً ، قيل إنها أربت على الثلاثمائة والستين كتاباً ، منها على سبيل المثال : البيان والتبيين ، الحيوان ، البخلاء ، النساء ، البلدان ، اللصوص ، رسالة الترييح والتدوير ، رسالة الجدل والمزول ، رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ، الزرع والتخل ، وغيرها . وقد ذكر الجاحظ بعض مؤلفاته في مقدمة كتاب (الخيول) - كما عده ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) عدداً كبيراً منها .

البخل موضوع من المواضيع الإنسانية ، وصفة من الصفات المذمومة التي يتسم بها بعض الناس . وقد تناول موضوع البخل كتاب عرب قبل الجاحظ ويعدّه ، كما تناولته الكتاب الإغريق القدماء ، والكتاب الغربيون . أما البخل عند الجاحظ فلا يفصل عن البيئة المادية التي كان يعيش فيها ، ونعني بها البصرة ، المدينة الثرية الغنية مادياً ، والتي انتقلت من منطقة بدوية قاسية تحاذي الصحراء إلى مدينة حضارية تكدست فيها الأموال الوفيرة لموقعها التجاري الهام ، إلى جانب رخص المستوى المعيشي فيها . « وقد أجل البعقوبي القول في خطورة البصرة من الناحية التجارية في قوله : والبصرة كانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها » (٢٠) . والجاحظ نفسه يضرب مثلاً على رخص الأسعار في البصرة فيقول : (ولو أن رجلاً ابتنى داراً يتممها ويكملها ببغداد أو بالكوفة أو بالأهواز أو في موضع من هذه المواضع ، فبلغت نفقتها مائة ألف درهم ، فإن البصري إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفاً . لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين والأجر والأجذاع والساج والخشب والحديد والصناع ، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما لا يمكن في غيرها) (٢١) . هذه البيئة الثرية الرخيصة أوجدت طبقة ثرية مترفة من التجار وكبار الملاكين ، تمتلك المال وتحكم التجارة ، ومعظمهم كانوا من الموالي شذتهم الحركة التجارية الواسعة في البصرة فشكّلوا الطبقة البصرية البرجوازية كما يسميهم شارل بللا ، ويرى « أن البخل الذي أنشأ عليه الجاحظ كتاب البخلاء كان صفة بارزة

وتصوير أخلاق العصر وفئات الناس وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية في أسلوب واضح ، مما أوجد صلة بين الناس وبين ما مثله لهم .

فالمعارف الاجتماعية التي اتسع فيها الجاحظ ، اتاحت لنزعه الأدبية أن تتخذ من الحياة الاجتماعية الواقعية موضوعاً لها ، « فأتيج للأدب العربي هذا النوع من الأدب الموضوعي ، الذي لا تطفئ عليه الذات طغياناً كبيراً » (١٨) . ذلك هو الجاحظ الذي يتمثل فيه النموذج الحي للأدب ذي الأسلوب المتميز ، والمنهج الواضح ، والرؤيا الاجتماعية ، والنظرة الموضوعية .

كتاب البخلاء (١٩) :

يعد كتاب البخلاء من أمتع كتب الجاحظ التي وصلتنا ، جمع فيه مجموعة كبيرة من أخبار ونوادر البخلاء ، وحلل نفسياتهم تحليلاً دقيقاً في شكل فني يقترب من فن القصة ، بل إنه حافظ على وحدة الموضوع بقدر كبير ، مبتعداً عن ميزة من أهم مميزات كتاباته الأخرى ، وهي ميزة الاستطراد والخروج من الموضوع الرئيس إلى مواضيع مختلفة ، واستطاع أن يجعل (البخل) موضوعاً أدبياً خالصاً ، وممتعاً فنيّاً راقياً ، ولوناً من ألوان الفكاهة المخلفة بثوب قصصي ، جاعلاً كل شخصياته وصوره ومواقفه وأحداثه في خدمة الموضوع . وقبل أن نتناول الشكل الفني في قصص البخلاء ، نود أن نشير إلى موضوع الكتاب ، وهدف الجاحظ منه ، ومحتوياته .

(١٨) سيد حامد التسيج ، رحلة التراث العربي ص ٦٢ .
(١٩) حقق كتاب البخلاء مرات عديدة ، وطبع طبعات مختلفة . فقد حقق لأول مرة المستشرق البولندي (فان فلورن) ونشره عام ١٩٠٠ . كما حقق أحد المؤامري وهي الجاهل عام ١٩٣٨ . ثم حققته لجنة من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق . وحققه طه الحاجري عام ١٩٤٨ وطبعه عدة مرات . وحققه فوزي عطوي ونشره في بيروت عام ١٩٦٩ . إضافة إلى مجموعة من الطبعات المختلفة غير أننا اعتمدنا في هذه الدراسة على كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .
(٢٠) طه الحاجري ، الجاحظ ص ٣٨ .
(٢١) كتاب الأوطان والبلدان ، للجاحظ ، مخطوطة المتحف البريطاني ورقة ١٩٩ نقلت عن طه الحاجري ، الجاحظ ، ص ٣٩ .

للطبقة البصرية البرجوازية التي أثرت بفضل اقتصادها المفرط» (٢٢).

إن حركة تجميع رأس المال في هذا العصر ، والثراء الفاحش لهذه الطبقة ، والنقلة المفاجئة في حياة المجتمع المادية كان له دوره في تغيير المفاهيم والقيم والعلاقات الاجتماعية . فبدأت تبرز ظواهر جديدة في العصر العباسي ، منها ما سُمته د. وديعة النجم (الوعي المالي) وهو إحساس الفرد بقيمته بسبب ما يمتلك من مال (٢٣) . وبدأت تختلف المقاييس بالنسبة لسكان الحاضرة وتحل علاقات جديدة مكان العلاقات القبلية ، فلم تعد علاقة الدم والنسب هي التي تقرر كثيراً من معاملات الناس ، بل قد يكون للمال أهمية أكبر . وبخلاء الجاحظ يؤكدون هذه الحقيقة ، يقول أحدهم : (لا يقال لرجل بخيل الا وهو ذو مال) (٢٤) ويقول آخر : (إن المال محروس عليه ، ومطلوب في قعر البحار وفي رؤوس الجبال وفي ذغل الغياض ، ومطلوب في الوعورة كما يطلب في السهولة . . .) (٢٥) .

هذه الطبقة الغنية - طبقة التجار والأثرياء - التي حققت بغناها ذاتها وصورت مثلها ونظرتها إلى الحياة ، كانت بطبيعتها أكثر الناس تقديراً للمال ، وأشدهم مغالاة به ، وحرصاً عليه مع اختلاف أفرادها في هذا . وقد ساعد الجو الفكري المذهبي على التعبير عن هذا الحرص مذهبياً ، ويعرض كتاب البخلاء مفهومهم للمال ، ويكشف عن مذهبهم الاقتصادي القائم على (الجمع والتمنع) كما يقول الجاحظ (٢٦) . غير أن مفهوم

البخل والحرص الشديد على المال الذي اتصفت به هذه الطبقة يناقض مفهوم الكرم عند العرب ، والعرب معروفون بطبيعتهم السمحة وميلهم الفطري إلى الجود والكرم ، لذا أثار البخل دهشتهم واشمئزازهم وبالتالي حقدهم على البخل والبخلاء . وقد عقد الجاحظ في الكتاب فصلاً عن علم العرب في الطعام مشيراً إلى صفة الكرم التي يتصف بها العرب ، وكان الجاحظ أراد بهذا أن يعقد مقارنة بين البخل والكرم ، ناقداً الأول كصفة ذميمة ومادحاً الثاني كصفة حميدة .

لكن هل كان الجاحظ يهدف - في البخلاء - إلى الرد على الشعبية التي كانت تأخذ على العرب إسرافهم وتبذيرهم وأطعمتهم الجافة الخشنة ؟ كما كان موقفه منهم في (البيان والتبيين) ورده على مزاعمهم في أن الخطابة ليست ميزة يتفرد بها العرب دون سواهم ، وأن الفرس أخطب من العرب ، من خلال ما عرضه في الكتاب من صورة واضحة للبلاغة العربية . « إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كي يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويشربوا إلى رشدهم » (٢٧) . لا سيما وأن المعتزلة ومنهم الجاحظ وغيرهم ، كالكاتب السني المحافظ ابن قتيبة وقفوا يدافعون بقوة عن العروبة والإسلام ويردون على الشعبيين والزنادقة اتهاماتهم الباطلة .

يبدو هذا الهدف مقبولاً في البخلاء بشكل عام فهو - على الأقل - ينسجم مع موقفه الأخرى تجاه الشعبيين

(٢٢) شارل بولا ، الجاحظ ، ص ٣٤٨ .

(٢٣) وديعة النجم ، الجاحظ والحاضرة العباسية ، ص ١٥٥ .

(٢٤) البخلاء ، ص ٦٢ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢٧) شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص ٩٨ .

نفسياتهم ، وكاشفاً عن طبائعهم الدخالية بحسبه الاجتماعي ونزعتة الفنية . والجاحظ من أكثر الأدباء اهتماماً بمجتمعه ، فقد صوّره بكل إيجابياته وسلبياته من خلال استعراض طبقاته المختلفة وظواهره المتعددة . ثم إن الجاحظ جمع شخصيات البخلاء وأحاديثهم وحاورهم في بخلهم بسخريته المعهودة ، ضاحكاً معهم ولهم ، فكانت أمثلة للبخل ونماذج للفكاهة . وثالثاً : ما أورده الجاحظ عن طعام العرب وكرمهم جاء في فصل ألحق في نهاية الكتاب تحت عنوان (أطراف من علم العرب في الطعام) بعد أن أكمل الجاحظ سرد حكايات ونوادر وقصص البخلاء من جهة ، ثم ما تحدث به الجاحظ عن طعام العرب وجودهم يؤكد ذمه لصفة البخل ، ونقده لطبيعة البخلاء ومذهبهم ، وما استشهاد بالرسول الكريم ﷺ من أنه (لم يضع درهماً على درهم ولا لبنه على لبنه ، وملك جزيرة العرب فقبض الصدقات ، وجبت له الأموال ما بين عذار العراق الى شحر عُمّان ، الى أقصى خاليف اليمن ، ثم توفي وعليه دين ، ودرعه مرهونة)^(٣١) إلا رد على طبيعتهم في الحرص الشديد وتخزين الأموال .

وأخيراً وإن كنا لا نعدم تلك التلميحات والإشارات - في كتاب البخلاء - الى موقف الشعوبية في هذا الجانب ، ولكن الجاحظ كان مخلصاً لموضوعه الفني في حكايات وقصص البخلاء أكثر من تركيزه على إبراز هذا الجانب .

في بقية مؤلفاته ، بل هو يشير في البخلاء صراحة إلى ما تأخذه الشعوبية على العرب من خشونة العيش . يقول الجاحظ : « والشعوبية والأزاد مردية »^(٢٨) المبعوضون لآل النبي ﷺ وأصحابه ممن فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالاسلام ، تزيد في جشوبة عيشهم^(*) ، وخشونة ملابسهم ، وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيشهم^(*) . وهم من أحسن الأمم حالاً مع الغيث ، وأسوئهم حالاً إذا خفت السحاب^(٢٩) . غير أن الرد على الشعوبية ومطاعنهم على العرب لم يكن هو الهدف الرئيسي في البخلاء ، ولا نذهب إلى ما ذهب اليه جميل جبر في أن الذي استدعى الجاحظ لكتابة البخلاء هو حقدّه الشخصي عليهم من جهة ، وحملته على الشعوبية من جهة أخرى^(٣٠) . والذي يدعونا الى ذلك أولاً : أن الجاحظ صوّر لنا البخلاء من كل جنس وصف ، فمنهم الموالي الشعوبيون كسهل بن هارون ، ومنهم الموالي غير الشعوبيين ، ومنهم العرب الاقحاح كالأصمعي ، ومنهم الفقراء ، ومنهم الأذكيا ومنهم السذج البسطاء ، ومنهم حتى من المعتزلة أنفسهم ، وكسل هؤلاء تجمعهم صفة واحدة هي البخل .

يعني هذا أنه كان ينتقد البخل كطبيعة من طبائع النفس الإنسانية من جهة ، وكظاهرة أبرزتها ظروف عصره حتى أصبحت مذهباً يدافع البخلاء عنه ويجادلون فيه من جهة أخرى . وثانياً : أراد الجاحظ أن يعطينا صورة من صور المجتمع العباسي بشكل عام ، والمجتمع البصري بشكل خاص ، واصفاً هذه الطبقة وصفاً دقيقاً ، محللاً

(٢٨) الأزاد مردية : تسمية فارسية للاستقراطية الإيرانية ، تسمية يقتخر بها أنصار الشعوبية ويتحدون بها العرب والترات العرب . انظر ترجمتها في كتاب البخلاء - تحقيق طه

الحاجري ، ص ٤٢٦ - ٤٢٩ .

(*) جشوبة عيشهم : خشونته .

(*) رفاغة : سعة العيش ورفاهته .

(٢٩) البخلاء ، ص ٢٢٨ .

(٣٠) جميل جبر ، الجاحظ ومجتمع عصره ، ص ٣١ .

(٣١) البخلاء ، ص ١٥٧ .

ويعد فقد اعتمد الجاحظ في عرض قصص البخلاء على التحليل النفسي الاجتماعي لنفسية البخلاء ، ملاحظاً سلوكهم وتصرفاتهم في مختلف المواقف ، مركزاً على إبراز اهتماماتهم وعلاقاتهم بالآخرين ، متعرضاً لنظرياتهم في البخل ، ناقلاً حواراتهم ونصائحهم ووصاياهم بكل دقة وتفصيل وواقعية وبأسلوب فني ساخر فكاهي . إن كتاب البخلاء شكل من أشكال (أدب الطبايع) الذي يعتمد على الملاحظة الدقيقة ، والتحليل النفسي والبعد الاجتماعي ، والجاحظ من أكثر الأدباء اهتماماً بأدب الطبايع ، ويعد شارل بللا ذلك مزيجاً من مزاي الجاحظ - وليست أقلها - إدخاله نوعاً جديداً وهو تصوير أخلاق الناس ، والمجتمع الإسلامي في حياته العادية (٣٢) .

ينبغي ونحن نتحدث عن كتاب الجاحظ أن نشير إلى بعض من تناولوا موضوع البخل والبخلاء في مؤلفاتهم من الكتاب العرب والأوربيين ، وهو ما يعطي بخلاء الجاحظ قيمة حقيقية وتقديراً مقبولاً . فالجاحظ ليس أول من تناول موضوع البخل وليس آخرهم ، فقد أشار هو نفسه في (البخلاء) إلى بعض الأساء التي تناولت حكايات البخلاء وأخبارهم ، مثل أبو عبد الرحمن الشوري ، وسهل بن هارون ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبي الحسن المدائني (٣٣) ، كما ذكرها ابن النديم في الفهرست أيضاً . غير أنها كانت كتابات إخبارية لا فنية فيها ، وتعرض صوراً من الحياة الماضية دون الحياة الحاضرة ولكنها مع ذلك كانت مما لفت الجاحظ إلى هذا الموضوع - كما يرى طه الحاجري - ونبه نزعة الفنية إلى

اقتحامه والإبداع فيه ، فكان كتاب البخلاء الذي ارتفع فيه عن الأسلوب الإخباري إلى الأسلوب الفني (٣٤) . على أن الأدب العربي القديم لم يخلُ من موضوع البخل والبخلاء ، فالشعر العربي حافل بما يشير إلى تبدل هذه الظاهرة لانتفاها مع ما عرف عن العرب من جود وسخاء ، ووجدت أيضاً في بعض الكتب النثرية مثل المقامات ، وبعض النوادر والأخبار الواردة في ألف ليلة وليلة ، والمؤلفات الجامعة مثل (العقد الفريد) لابن عبد ربّه ، و (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي ، و (عيون الأخبار) لابن قتيبة ، و (محاضرات الأدباء) للراغب الأصفهاني ، و (المستطرف) للأبشيهي . غير أن معظم الذين تناولوا موضوع البخل بعد الجاحظ تأثروا بكتاب الجاحظ (البخلاء) وساروا على منواله سواء في موضوعه أو أسلوبه أو طريقة معالجته أو لغته أو حواره أو سخرته . ومن هذه الآثار - على سبيل المثال لا الحصر - رسالة أبي حيان التوحيدي وهو من أشد تلاميذ الجاحظ تأثراً وإعجاباً بأستاذه - ساقها مساق السخرية والتندر بأبي العباس أحمد بن ثوبة الكاتب ، والتي تعد صورة من أروع صور الفن التصويري الساخر وتبين بوضوح تلمذة أبي حيان للجاحظ وتأثره به في ذلك الاتجاه (٣٥) . وهناك أيضاً الحكاية التي وضعها أبو علي الحافمي - من رجال القرن الرابع - على أستاذه علي بن هارون ، وصفها الحصري بأنها طويلة في نحو أربع مجلدات ، التزم في كتابتها وصناعتها نفس المنهج الفني الذي « استطاع الجاحظ أن يجعله منهجاً مقررأ ، وقناً من الفنون الأدبية معتبرأ » (٣٦) . وأخيراً فإن الهمداني في مقاماته قد استفاد

(٣٢) شارل بللا ، الجاحظ ، ص ٣٠٢ .

(٣٣) البخلاء ، الصفحات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٨ .

(٣٤) البخلاء ، مقدمة الحاجري ، ص ٣٢ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٣٦) المصدر السابق .

فيه صوراً من الحياة العربية كما أراد الجاحظ ذلك في البخلاء .

أما بالنسبة للكتاب الغربيين فقد عالجوا موضوع البخل على أساس الوحدة الروائية الطويلة (قصة أو مسرحية) . منها ما ورد في الأدب الإغريقي قبل الميلاد مثل مسرحية (أريستوفان Aristophane) المسماة (بلوتس Ploutos) سنة ٣٨٨ ق.م والتي ظهرت فيها أول شخصية للبخيل في الأدب ، وهي شخصية (كرمييل Chremyle) . وهناك شخصية البخيل (أكلليون Eucleon) بطل مسرحية (قدر الذهب) التي كتبها (بلوت Plaute) حوالي ١٩٥ ق.م ، وغيرها من الأعمال المسرحية اليونانية الكثيرة ، التي حفلت بشخصية البخيل وبظاهرة البخل . ومنها ما ظهر في الأدب الأوربي في العصور الوسطى والحديثة مثل مسرحية (البخيل) لموليير ، حيث يقف بطله (هارباجون) كأشهر بخيل في الأدب الأوربي ، وفي مسرحية (يهودي مألطة) ١٦٣٠ (لكريستوفر مالرو C. Marlow) حيث نجد فيها نموذجاً جديداً للبخل (بارياس) وكأنه يمهد للنموذج (شيلوك) لشكسبير في مسرحية (تاجر البندقية) ١٦٩٥ ، وغيرها من المسرحيات الكثيرة . حتى نصل إلى القرن التاسع عشر حيث تعرضت القصة التاريخية للبخل في قصة (ايفنهر) سنة ١٨١٨ للكاتب الإنجليزي (والتر سكوت) . وفي (الفارس البخيل) ١٨٣٠ للكاتب الروسي بوشكين نجد صورة للبخل الجشع القاسي الذي لا يعرف إلا جمع الثروة مستبشاً كل شيء في هذا السبيل . وفي قصة (أوجيني وجيرانديه) ١٨٣٣ للكاتب الفرنسي

من قصص بخلاء الجاحظ ، بل إن في شخصية بطل المقامات ملامح كثيرة من خالد بن يزيد أو (خالويه المكدي) إحدى شخصيات بخلاء الجاحظ ، وهذا الصدد يقول شارل بللا : إن « المستشرق آدم متر قد لاحظ ذلك عند ما قال : إن طريق الجاحظ يعود إلى الهمداني مارا بالأحنف الكعبري شاعر المكدين الكبير ، فهو بذلك قد تناول الموضوع الذي أوجده الجاحظ في فصله الذي عقده عن خالويه ، فخلق بذلك نموذج شخصية أضفى عليها الهمداني شكلاً جديداً » (٣٧) .

على أن تأثير الجاحظ وكتابه البخلاء ظل قوياً ممتداً على الأدباء العرب حتى العصر الحديث ، فطه حسين على سبيل المثال من أكثر الأدباء المحدثين تأثراً بالجاحظ وأسلوبه ، وهو شديد الإشادة بفكر الجاحظ وعقله وأسلوبه وسخريته وطريقته في الحوار والجدل ، « وليس ثمة من ينكر إعجاب طه حسين الكبير بالجاحظ وتقليده إياه في تناوله للموضوعات الاجتماعية والأدبية ، بل إن السخرية المرة الكامنة وراء الكلمات والألفاظ التي يكشف عنها التأمل الدقيق في كتابات طه حسين موردها كتاب البخلاء للجاحظ » (٣٨) . وتوفيق الحكيم نموذج آخر - لا يخفي إعجابه بكتابات الجاحظ وكتابه البخلاء بشكل خاص ، فهو يرى أن الجاحظ قد أنشأ فناً جديداً بالنثر أقرب إلى فن الكاريكاتير بالرسم قبل وجوده في القرن السادس عشر عند رابليه في كتاب (الأحلام المضحكة) وإيراسم في كتابه (تمجيد الحمافة) فهو من أسبق الكتاب إلى التصوير الكاريكاتيري (٣٩) . وكتاب البخلاء هو أحد الكتب التي جعلت الحكيم يفكر في كتابه (أشعب أمير الطفيليين) الذي حرص أن يرسم

(٣٧) شارل بللا ، الجاحظ ، ص ٧٧ .

(٣٨) سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، ص ١٢٢ .

(٣٩) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، ص ٣١ .

(بنزك) يعرض من خلال شخصية الأب (جرانديه) صورة نفسية للبهخل . وهناك إضافة لما ذكرنا عدد كبير من المسرحيات والروايات الإغريقية تناولت موضوع البهخل مما لا يسمح لنا المجال هنا بإحصائها^(٤٠) .

بقي هناك نقطة أخيرة نود الإشارة إليها قبل تصفح حكايات البخلاء وقصصهم ، نطرحها على شكل تساؤلات وهي : إذا كان الجاحظ يمتاز في كتاباته بشكل عام وفي بخلائه بشكل خاص بميزة الواقعية والموضوعية والتزام الحياء فيما ينقل عن الواقع من أخبار وحكايات وصور ، فهل كان الجاحظ مجرد ناقل حرفي عن الواقع ؟ وهل كانت الشخصيات بأشكالها وتصرفاتها وحوارها ولغتها وأحداثها صورة طبق الأصل لما هم عليه في الواقع ؟ أم أنه كان يعمل خياله ويكذ ذهنه فيما ينقل ؟ هذه التساؤلات هي قضية الكاتب الواقعي بين واقعه وفنه ؛ بين واقع يتخذ مادة لموضوعاته وبين فن لا يريد له الإسفاف . أما الجاحظ في بخلائه فقد كان حرصاً على نقل صور من الواقع بكل أمانة وموضوعية ودقة فهو ينقل نواذر وحكايات مستقاة من بيئته البصرية ، ويصرح بكل أمانة ببعض أساء أبطال قصصه التي لا يرى ضرراً من ذكرها ويخفي بعضها الآخر إكراماً لأصحابها أو خوفاً كما جاء في المقدمة^(٤١) . بل ويذهب بعد من ذلك حين يؤكد أنه ينقل كلام البخلاء كما هو في الواقع إمعاناً بالموضوعية ، يقول (وإن وجدتم لنا أو كلاماً غير معرب ونقطاً معدولاً عن جهته فاعلموا أننا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب)^(٤٢) . ومع ذلك ينقل الجاحظ قصصه وشخصياته من الواقع دون

انتقاء واختيار وتشذيب ، كان يتدخل فيما ينقل من الواقع ، تدخل الفنان الواقعي الواعي لفنه . لم يخلق الجاحظ شخصيات من خياله كأغلب شخصيات القصص الخيالية ، بل هي شخصيات حقيقية عاش معها وعاشها ، ولم يخلق المواقف التي زج بها شخصياته من خياله ، بل هي أحداث وقعت لهم بالفعل ، ولم يلصق بهم أفكاراً غريبة عليهم ، بل هي أفكارهم ونظرتهم إلى الحياة وطريقتهم ومنهجهم فيها . لكن يبقى للجاحظ فضيلة حسن اختيار الشخصيات وحسن اختيار الأحداث والحوار والمواقف وإدخالها بقالب فني قصصي شيق ، دون أن يجردهم من الحياة فتبدو شخصيات خيالية بعيدة عن الواقع ، إنه حرص الكاتب الواقعي على فنه من الاسفاف والابتذال . لم يكتب سهل بن هارون رسالته المذكورة في البخلاء بل كتبها الجاحظ على لسانه لكنها لم تخرج عما يؤمن به سهل بن هارون ، ولم يتحدث الكندي بنفس المنطق الذي نجده في البخلاء ، لكن الجاحظ لم يخرج بعلاقات الكندي مع مستأجره عما ورد في رسالته وهكذا في بقية القصص والحكايات . ان الشكل الفني الذي صب فيه الجاحظ حكايات بخلائه هو قالب جاحظي ، وكما يقول احمد العوامري وعلى الجارم (الديباجة دياباجته)^(٤٣) ، هذا العنصر الفني هو العنصر السائد في الكتاب سواء في انتقاء الأحداث أو في رسم الشخصيات ، أو في إدارة الحوار :

غير أن هذا المنحى الفني الذي اتبعه الجاحظ في وضع الأحاديث وتوليدها قد يثير بعض المتزمتين ، والجاحظ

٤٠- في موضوع سهل بن زكاد نرى جرح مع بخلاء الجاحظ لغاروق سعد . وحلة التراث العربي للدكتور سيد حامد الساج ، الجاحظ لشارل بللا ، الجاحظ والخاصرة

عبدية الدكتور وديعة نجم

٤١- بخلاء . ص ٩

٤٢- العنصر الساج . ص ٩٠

٤٣- بخلاء - تحقيق أحمد العوامري وعلى الجارم . ص ٦

من أهله ورسالة الكندي الى مستأجر بيته ورسالة أبي العاص ورثاً ابن التوام عليه وحديث خالد بن يزيد . أما القسم الثالث فقد أورد الجاحظ فيه أطرافاً من علم العرب في الطعام ، متعرضاً للطعام عند العرب وأنواعه وولاتهم ومناسباتهم وما يتماذحون به في هذا الباب ، مستشهداً بجملة من النصوص مستقاة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة والسلف الصالح ونصوص من الشعر والنثر العربي . والذي يهمننا في دراستنا للشكل الفني في كتاب البخلاء هو القسم الأول ، وهو مجموعة من القصص الواقعية الساخرة تتضح فيها مواصفات كثيرة من فن القصة من خلال التصوير الدقيق للمشاهد والشخصيات والتحليل الفني للشخصيات والحوار المتنوع المحكم ، والهزل والسخرية المتقاة بعناية ، واللغة البسيطة المفعمة بالحياة المتأثرة بالمجتمع والمستمدة من الحياة ، ومثل الجاحظ الدقيق لتجارب الآخرين المختلفة ، مع ابتعاده عن مسرح القصة ، إضافة الى عنصر التشويق والمفاجأة وغيرها من العناصر الفنية في قصص البخلاء والتي سنوردها مفصلة بعد أن نحلل بعضاً من قصصه .

في قصة (زبيدة بن حميد) - وهو صيرفي كبير من أثرياء البصرة أشهر البخلاء^(٤٦) - يمهّد الجاحظ للتعريف بهذا البخيل قبل أن يزجّه في الموقف الرئيسي في القصة ، فيروي لنا بعضاً من سلوكه وتصرفاته إزاء الآخرين ، راسماً بذلك أبعاد هذه الشخصية كي لا يفاجأ القاريء بطريقة تصرفها في الموقف الذي تواجهه . يحدثنا الجاحظ عن (زبيدة) أنه استلف من يقال كان على باب داره درهمين وقيراطاً وبعد ستة أشهر

نفسه كان يعي ذلك ويدرك أنه قد يتهم بالكذب والتزوير على الواقع لهذا تحدث في مقدمة البخلاء عن التوليد فقال : (ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جين ، والهيثم بن مطهر ، وعيزيد ، وابن أحر ، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون ، ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها الى صالح بن حنين ، والى بعض البغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة ، فإن الفاتر شر من البارد)^(٤٤) . وما ذلك الوضع والتوليد إلا نزعة الجاحظ الفنية التي تدفعه الى استبطان النوازع النفسية المختلفة ، وتصوير الخلجات الذهنية بأسلوب فني جميل ، « ليس بالترقير العلمي الجاف ولا السرد الواقعي المجرد ، وإنما هو تصوير حي يقرؤه القاريء فلا يكاد يحس أنه يقرأ كلاماً بل يغمره شعور بأنه يشهد صورة من الحياة النابضة ، كما تتمثل في هؤلاء الأشخاص الذين يتكلم الجاحظ بلسانهم ، على ما هو معروف عنهم ، واشتهروا به عند خلطائهم »^(٤٥) . ان واقعية الجاحظ تكمن في تلك الصور التي يختارها من الواقع ثم يجعلها تنبض بالحياة من خلال عرضها بأسلوب طبيعي جميل أشبه شيء بهذه الحياة نفسها .

القصة في كتاب البخلاء :

يمكن تقسيم كتاب البخلاء الى ثلاثة أقسام : قسم يحتوي على مجموعة من النوادر والحكايات والقصص عن البخلاء وهو القسم الأكبر من الكتاب ، وقسم ثان يحتوي على مجموعة من الرسائل والنصائح المتبادلة بين البخلاء كرسالة سهل بن هارون على من غاب مذهبه

(٤٤) البخلاء ، ص ٧ . أما الحارث بن جين ، والهيثم بن مطهر ، وعيزيد ، ولهم من أممحاب النوادر المشهورين . أما صالح بن حنين فكان مصحكاً سحيفاً بارداً البادرة ، أما ابن النواء فهو أحد زعماء الرافضة . انظر ترجمتهم في البخلاء . تحقيق طه الحاجري - الصفحات ٢٦١ - ٢٦٤ .

(٤٥) البخلاء ، مقدمة طه الحاجري ، ص ٤٢ .

(٤٦) انظر ترجمة (زبيدة بن حميد) في البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ص ٢٩٨ .

من ثمّة في رد الدين دفع للبقال ناقصاً (فيراطاً وثلاث حبات شعير) فاعتاظ البقال وذكره بأنه غني بملك آلاف من الدراهم ، ويرد الدين ناقصاً ، بينما هو - (البقال) - الذي يعيش بكذبه وتعبه قد صنع به معروفاً حين سدد عنه في غيبته مبلغاً كان مطلوباً . فقال زبيدة : (يا مجنون أسففتي في الصيف فقضيتك في الشتاء وثلاث شعيرات شتوية ندية ، أرزن من أربع شعيرات صيفية . وما أشك أن معك فضلاً) (٤٧) . هذا جانب من جوانب الشخصية . وهو بعد تنطلق منه الشخصية في تعاملها مع الآخرين . ثم يكشف لنا الجاحظ بعداً آخر في تعامل (زبيدة) مع غلمانها ، فهو يضرهم بحجة أنهم يأكلون (الجوارشن) وهو دواء مخصص للهم . ويستنكر صديق له هذا الضرب المبرح فيسأل رئيس الغلمان عن حقيقة الضرب فيفاجأ به يتلوى من الجوع وأنه لا حاجة به إلى ما يهضم (ولا يحتاج إلى الجوارشن ، ونحن الذين إنما نسمع بالشيع سماعاً من أفواه الناس . ما نصنع بالجوارشن) (٤٨) . وجانب ثالث يكشفه الجاحظ أيضاً في تعامل (زبيدة) مع زواره حين يشتد على غلمانها أمامهم بتصفية الماء وتبريده وتزيمه . فقال له أحد الزوار : (مرتزميز الخبز وتكبيره فان الطعام قبل الشرب) (٤٩) . وبهذا الشكل متكامل الجاحظ تقديم شخصيته المحورية (زبيدة بن حميد) كيف أنه يبخل في الطعام ، ولا يرد الدين إلا ناقصاً ومتأخراً ، وكيف يضرب غلمانها بخلاً وظلماً ، حتى يصل الجاحظ إلى الحدث الرئيسي الذي يواجهه

(زبيدة) وراح يلاحظه من بعيد : (وسكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقاً له قميصاً ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات . وعلم أن ذلك من هفوات السكر . فمضى من ساعته إلى منزله ، فجعله برنكناً لامرأته . فلما أصبح ، سأل عن القميص ، وتفقده . فقيل له إنك قد كسوته فلاناً . فبعث إليه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فاني أكره ألا يكون لي حد ، وأن يوجه الناس هذا مني على السكر ، فردّه علي حتى أهيه لك صاحياً عن طيب نفس ، فاني أكره أن يذهب شيء من مالي باطلاً . فلما رآه صمم أقبل عليه فقال : يا هناء ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : أي والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جيّته لأمرائي . وقد زدت في الكمين وحذفت المقادير فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذ . فقال نعم آخذه ، لأنه يصلح لأمرائي كما يصلح لأمرائك . قال : فانه عند الصباغ . قال : فهاته . قال : ليس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع ، قال : بأبي وأمي رسول الله ﷺ - حيث يقول : جمع الشر كله في بيت ، وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر) (٥٠) .

هذه الحكاية تقترب إلى حد بعيد من القصة وتحمل عناصرها الفنية ، فنحن هنا إزاء حادثة وموقف وحوار ، بل بداية ووسط ونهاية أو ما يسمى في فن القصة بلحظة

٢٧٠. الجلاء . ص ٢٥

٢٨٠. المصدر السابق . ص ٣٩

٢٩٠. المصدر السابق

٣٠٠. المصدر السابق

٣١٠. الموت . ما يموله من الرجوع بعد أن يصح من السكر

مرتكب . جوع من شيب

بجده . بريح

جيّته : جعلت له جيّاً . وأجيب ما يفتح من أهل الصدر .

مقاهيم القميص : ما يرد منه أولاً .

الطائف ، ولم يأمن المستقفي . فقال : لودققت الباب على أبي مازن ، فبت عنده في أدنى بيت أو في دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنني شيئاً ، حتى إذا اتصدع عمود الصبح خرجت في أوائل المدلجين . فدق عليه الباب دق مدل ودق من يخاف أن يدركه الطائف أو يقفوه المستقفي ، وفي قلبه عز الكفاية والثقة بأسقاط المؤنة . فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل سريعاً . فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت . فلما رآه جبل واجماً لا يحير كلمة ، قال له : إني خفت معرفة الطائف وعجلة المستقفي فملت اليك لأبيت عندك . فتسأكر أبو مازن ، وأراه أن وجوه إنما كان بسبب السكر . فخلع جوارحه وجبل لسانه ، وقال : سكران والله ، أنا والله سكران . قال له جبل : كن كيف شئت . نحن في أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتاج إلى سطح فأغم عيالك بالحر ، ولست أحتاج إلى الخاف فأكلفك أن تؤثرني بالدثار . وأنا كما ترى ثمل من الشراب ، شبعان من الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب الناس رجلاً . وإنما أريد أن تدعني أغفي في دهليزك إغفاءة واحدة ، ثم أقوم في أوائل المبكرين . قال أبا مازن : وأرخى عينيه وفكبه لسانه ، ثم قال : - سكران ، والله ، أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله إن أفهم ما تقول .

ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك أن عذره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر حتى على هذه الحيلة (٥٢) . (٥٣) . في هذه القصة شخصيتان وحوار ،

التنوير ، وأما شخصيتان رئيسيتان تتصارعان . أما الشخصيات الأخرى كالبقال والصديق ورئيس الغلمان فهي شخصيات ثانوية أضفت على الشخصية الرئيسية أبعاداً تخدم الموضوع الرئيسي ، والكاتب لا يزوج نفسه في هذا الصراع بل يرقبه ويصوره من بعيد ويعكس الحوار الدائر بين الشخصيتين أفكار كل شخصية ونوازعها وطموحها ومشاعرها ، ولكل شخصية قدرة على التصرف والتحليل . والجاحظ يتعد هنا عن كل استطراد أو شرح أو تفصيل أو تعقيب ، كما أنه استغنى عن كثير من الجزئيات والتفصيلات إلا ما يخدم الموقف الرئيسي ويكشف الشخصية من الداخل ، دون تدخل من الكاتب لأنه وعد بعدم التدخل سواء بالتعليق أو بالرفض أو بالإنحياز . « وإن كنا نلاحظ أنه في النهاية وعندما يش زبيدة بن حميد الصيرفي نسب ما أسماء بالشر إلى السكر . الشر في نظره هو الكرم ، لأن البخل هو الخير الوحيد المأمون عند البخلاء . وإذا كان ثمة نقيصة في سلوكه فأنما تكمن في إقدامه هذه المرة على إكرام نديبه بإهدائه ذلك القميص » (٥١) . إن تجسيد الموقف الأساسي في هذه القصة لم يأت اعتباراً فقد مهدت له اللوحات التي سبقت الإشارة إليها .

وفي قصة أخرى بطلاها (أبو مازن وجبل الغمر) يرسم الجاحظ صورة لتصرف البخيل في المواقف المفاجئة ، لذا نقلنا - دون تمهيد - إلى الموقف مباشرة .
تقول القصة : -

(وكان جبل خرج ليلاً من موضع كان فيه ، فخاف

(٥١) سيد حامد الساج ، رحلة التراث العربي ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٥٢) الطائف : هو الذي يطوف بالمدينة ليلاً بأمر الحاكم ليقتل أحوالها .

المستقفي : هو الذي يقف للأثر للسلب .

المدلجين : الساترين آخر الليل .

ألطف النظر : أنعم النظر .

(٥٣) البخلاء ، ص ٣٩ .

دق مدل : أي دق وألق من منزله عند من يدق عليه

تسأكر : تظاهر بالسكر .

جوارحه : أعضائه .

إن أفهم : ما أفهم

تقول القصة :

(ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر ، وذلك : أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤنته . ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي ليت أتي قد رأيتك بمرو ، حتى أكافئك ، لقديم إحسانك ، وما تجدد لي من البر في كل قدمة . فأما ههنا فقد أغناك الله عني . قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية ، فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب ، مكان المروزي هنالك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ، ليحيط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقلته وموضع أنسه . فلما وجده قاعداً في أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال العراقي في نفسه : لعل إنكاره إياي لمكان القناع فرمى بقناعه ، وابتدأ مساءلته ، فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، ووجد مساءلته ، فوجده أشد ما كان إنكاراً . قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة . وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك (٥٤) .

في هذه القصة مقدمة سردية توضح علاقة الرجلين ، وإكرام العراقي لزميله المروزي ، ودعاء الثاني برد جميل الأول لو رآه بمرو . ويقع الحدث ويتقابل الرجلان في مرو ويسقط في يد المروزي فيدعي الانكار ، وهي حيلة من حيل البخلاء الكثيرة التي أوردها الجاحظ في الكتاب . يستغني الكاتب عن الحوار مستخدماً أداة

ووحيتها نظر وبداية ونهاية . وفيها تصوير نفسي لشاعر شخصية (جبل الغمر) الذي يخاف العس والنصوص ويبحث عن مأوى بيت فيه . ثم رد الفعل على الشخصية الثانية (أبو مازن) الذي تجسد في صنّاع البلاء والسذاجة والمبالغة في السكر كحيلة من حيل البخيل للتهرب من المواقف المحرجة التي يقع فيها . وقد اعتمد الجاحظ في تصوير رد الفصل وانعكاساته على أبي مازن على الرسم الكاريكاتيري للشخصية : (أرخى عينيه ، وفكّيه ، ولسانه) الشكل الخارجي المضحك وهو لون من ألوان الضحك الذي يزخر به كتاب البخلاء .

إضافة الى وحدة الشخصية ووحدة الحدث ، ووحدة الأثر من عناصر القصة الفنية والتي تحققت في هذه القصة ، فإن للموقف إطاراً زمانياً حددتهما الجاحظ في البداية : (خرج ليلاً من موضع كان فيه) بمعنى وحدة الزمان والمكان التي لها اثر بلا شك في تحديد الموقف وربط القصة بالواقع .

قدم الجاحظ أجناً متنوعة من البخلاء . ونخص بخلاء مرو بعدد من الحكايات والقصص عن أهلها وبخلهم الشديد الذي يراه الجاحظ طبيعة جبلوا عنيتها .

يقول : (إن البخل طبع منهم وفي أعراقهم وعينهم) (٥٣) . ومن هذه القصص قصة (المروزي والعراقي) التي جاءت بعد مجموعة من الحكايات عن بخل أهل هذه المدينة ، مما أعطى القارئ صورة واضحة جلية عن بخلاء مرو .

٥٣ . المصدر السابق . ص ١٤

٥٤ . المصدر السابق . ص ٢٢

الحوار بينه وبين الجاحظ . يسأله الجاحظ بتعجب في أنه يطعم الطعام وينفق عليه المال ويجوده رغبة منه بالذكر والشكر ، ولكن طعامه لا يكفي عدد الآكلين على مائدته فينقلب المدح ذماً ويطلبه بزيادة الخبز فإن (بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللوم شكراً وذلك الذم مدحاً)^(٥٦) . ويرر ابن أبي المؤمل ذلك بأن كثرة الطعام على المائدة تقلل الشهية وتغلقها ، ويرى أن ما يصنعه يدل على سخاء النفس بالماكول . أما ضيوفه فما بين طيب الخلق كريم يقدر الدعوة لذاتها بغض النظر عن الطعام المقدم وكميته فلا يذمه ، وأما السيء الخلق فانه لائم ذام في الحالين : كثرة الطعام وقلته . ويواصل الجاحظ أسئلته ، ويواصل البخيل المدعي تبريراته ، حتى إذا شعر أنه حوصر بالأسئلة كشف عن طبعه المتأصل فيه .

(فإن الخبز إذا كثر على الخوان فالفاضل مما يأكلون لا يسلم من التلطيخ والتغمير . والجحرذقة الغمرة ، والرقاقة المتلطيخة ، لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحي أيضاً من إعادتها . فيذهب ذلك الفضل باطلا ، والله لا يحب الباطل)^(٥٧) . رغم ذلك بصّر الجاحظ على أن يجد له سبيلاً في تكثير الخبز على المائدة ، فيقترح البخيل طريقة للحل وهي أن يجعل الزيادة من الخبز في طبق قريب من تناول اليد (فلا يحتاج أحد مع قربه منه إلى أن يدعو به ويكون قربه من يده كثرة على مائدته)^(٥٨) . ولكن حين يحضر وقت الغداء بأمر غلامه أن يحضر من الخبز غمام عدد الرؤوس ، فيرى الجاحظ أن كل المناقشة كانت هباء . وينهي البخيل مناقشته بقوله : (لا أعلم إلا تسرك السطعام البتة أهون علينا من هذه

أخرى للكشف عن الشخصيتين المتناقضتين : الكريم والبخيل من خلال الدخول إلى مخيلة العراقي وإصراره على تعريف نفسه . ويستخدم الجاحظ هنا عنصر التشويق ، إذ أن القارئ يريد أن يعرف بعد كل حركة يقوم بها العراقي من خلط قناعه ثم عمامته ثم قلنسوته وانعكاس ذلك على المروزي . وعنصر التشويق وإن كان ضئيلاً في قصص البخلاء إلا أن الجاحظ يجيد توظيفه حين يستخدمه « فهو يرسم المواقف ويؤخر الحلول حتى يعلق القارئ به »^(٥٩) . وتقع المفاجأة في النهاية بعد ما أدرك المروزي إصرار زميله العراقي في عبارة واحدة تبين كذب ادعاء المروزي الذي كان يدعيه في بداية القصة : (لو خرجت من جلدك لم أعرفك) .

ويحتل (محمد بن أبي المؤمل) وهو أحد البخلاء البصريين - مساحة طيبة من الكتاب ، والجاحظ نفسه يعرفه عن قرب - فيها يبدو - إذ يحكي عنه مباشرة ، بل هو الشخصية المحاورة لابن أبي المؤمل فيما يرويه من قصص عنه . وقد أراد الجاحظ من قصص هذا البخيل أن يعطي صورة عن بعض البخلاء الذين يدعون الكرم ويدعون الناس إلى مواثبهم رغبة منهم في الثناء والشكر . وكأن الجاحظ أراد أن يقول إن البخيل يدرك في قرارة نفسه أن البخل صفة مذمومة تثير كراهية الناس للبخيل مهما حاول تبرير هذه الصفة وإلباسها لباساً منطقياً مقنعاً ، وسماها تسميات مختلفة : اقتصاداً مرة وإصلاحاً مرة أخرى . ومحمد بن أبي المؤمل نموذج لهذا النوع من البخلاء فهو يحاول أن يظهر بمظهر الكريم بدعوة الناس إلى مائدته ، غير أن مائدته ما كانت لتشبع ضيوفه . القصة الأولى من قصص هذا البخيل تقوم على

(٥٥) محاضرات الموسم الثقافي ، ص ٢٣٠ .

(٥٦) البخلاء ، ص ٩٤ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

التشويق والتكثيف وتركيز الضوء في تصوير الشخصية من الداخل .

وفي قصة الداردريشي يقدم الجاحظ - قبل أن يحكي لنا قصته مع أخيه - لوحة صغيرة تدل على حرص هذا البخيل وخوفه على ماله من الضياع وذلك حينما سأل سائل انتهره فلما أنكر جاره عليه انتهاره للسائل قال له : (كل هؤلاء لو قدروا على داري هدموها ، وعلى حياتي لنزعوها . أنا لو طاعتهم فأعطيتهم كل ما سألوني ، كنت قد صرت مثلهم منذ زمان . فكيف تظن بغضي يكون لمن أرادني على هذا)^(٦٢) . هذه إذن هي الشخصية التي سيعرض لنا الجاحظ قصته مع أخيه : شخصية البخيل الخائف من الفقر . وبعدها تبدأ القصة بمقدمة وصفية موجزة نتعرف بها على أخ الداردريشي الذي لا يختلف عن أخيه في البخل وهو شريكه في تجارته . ثم يأتي الحدث الرئيسي الذي أثار حفيظة الداردريشي على أخيه ، وهو الحدث الذي بنيت القصة عليه . فقد وضع هذا الأخ في يوم جمعة طبقاً من الرطب يقدر بدانقين أمام أصدقائه وهم على بابهم فدعاهم إلى الأكل ، فلما حضر الداردريشي لم يسلم ولم يتكلم حتى دخل الدار مما أثار تعجب أخيه واستنكار أصحابه ، وزاد تعجب الأخ وحيرته واستنكار أصحابه أن تكرر التصرف من أخيه لجمعتين متتاليتين حين تكرر وضع طبق الرطب أمام الأصدقاء . فكتب الداردريشي إلى أخيه يقول : (يا أخي كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف . ولست آمن أن يخرج ولدي ولدك إلى مكروه . وهاننا أموال باسمي ولك

خصوصية)^(٦٣) . هذه القصة يلعب فيها الحوار دوراً كبيراً في الكشف عن الشخصية وتحليل دوافعها العميقة وسبكها ومشاعرها ، بل إن الحوار في هذه القصة - ونلاحظ شديد العناية بالحوار - جعل البخيل يكشف عن طبيعته بشكل ساحر حين أعيتة الخيلة . والجاحظ يسرد بعد هذه القصة مجموعة من القصص والحكايات عن البخيل نفسه ومحاولاته في ستر ادعائه الكرم بالخيلة ، كان يسقي ضيوفه ماء أو شرباً يقلل من شهيتهم مدعياً أنه يقتل الديدان ويفتح الشهية وغيرها من الخيل .

أما القصة الأخيرة من قصص (ابن أبي المؤمل) حين اشترى شبوطة وهي من أطيب الأسماك وجعلها لنفسه واستعد لانتقامها ، فدخل عليه الجاحظ ومعه السدري وهو أحد الشعراء المغمورين زمن الجاحظ فكانت المفاجأة العظيمة على البخيل . . . (فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف ، ورأى الختم المقضي ورأى قصعة الظهور ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتل بالتنين)^(٦٤) . فشمر السدري عن ساعده ونزل تقطيعاً وتمزيقاً وانتقاماً في السمكة ، والبخيل ينظر إليه وهو يغلي في داخله حتى إنه لم يتحمل الموقف فمرض أو كما يصفه الجاحظ . (فخبت نفسه ، فما زال يقيء ويسلح . ثم ركبته الحمى)^(٦٥) . هذه القصة تصلح أن تكون لوحده قصة فنية مستقلة لما فيها من وحدة الموضوع ووحدة الهدف بل إنها بلغت الغاية في التصوير النفسي لبخيل وسلوكه وهو يرى طعامه الطيب الذي أعده نفسه ينتهم من قبل الآخرين . إضافة إلى عنصر

٦٢ - المصدر السابق - ص ٩٧

٦٣ - المصدر السابق - ص ١٠٠

٦٤ - المصدر السابق - ص ١٠١

٦٥ - المصدر السابق - ص ١٠٢

الذي يشد القارئ من بداية القصة حتى تتكشف الأمور ، وفيها يسلط الجاحظ الضوء على الحدث الذي ينمو حتى يصل الذروة حين يطلب الأخ فسح شراسته مع أخيه مدعياً أسباباً ليست هي السبب الرئيسي ، ثم تتعقد الأمور في حيرة الأخ الذي راح يتأكد من دعاوى أخيه . وأخيراً نصل إلى نهاية القصة أو لحظة التنوير فيكشف الأخ عن السبب الحقيقي مصراً على فسح الشركة . بمعنى آخر كان في القصة بداية ووسط ونهاية ، والحدث فيها مرتبط بحبكة فنية متقنة . إن قصة الدارديشي تغدو - مع شيء بسيط من التعديل - قصة قصيرة من وحدة الهدف ، ووحدة الانطباع أو الأثر ، والتركيز والتكثيف في السرد والحوار دون حشو أو إطالة حتى أننا لا نجد فيها جملة واحدة لا تخدم الموضوع الأساسي . وبعد ، فهذه نماذج متفرقة متقنة من قصص البخلاء التي تحقق فيها الكثير من عناصر في القصة ، عرضناها على سبيل المثال لا الحصر ، وهناك قصص أخرى تشابه في فنياتها مع ما عرضناه من نماذج كقصة أبي سعيد المدائني البخيل الراض للذل والمهانة ، وقصة أحمد الخاركي البخيل النفاق الذي يدعي ما ليس فيه ، وقصة معاذة العنبرية وما صنعت في أضحية أهديت لها ، وقصة قاسم التمار الفضولي النهم وغيرها . إضافة إلى مجموعة رسائل ونصائح البخلاء التي لا تدخل ضمن نطاق القصة . ولعل الجاحظ كان يعي ذلك فيما وضعه من تسميات ثانوية داخل الكتاب ، فكان يستخدم كلمة (قصة) حين يشعر أن ما يورده هو قصة ، ويقول في المقدمة : (وأما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادير أحاديث البخلاء ، فأوجدك ذلك في قصصهم - إن شاء الله تعالى - مفرقاً وفي احتجاجهم مجعلاً) (٦٥) . بينما يستخدم كلمة (رسالة) كرسالة سهل بن هارون ،

شطرها ، وأموال باسمك ولي شطرها . وصامت في منزلي وصامت في منزلك ، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض . وإن طرقتنا أمر الله ، ركدت الحرب بين هؤلاء الفتنية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة . فالسراي أن نتقدم اليوم فيما يحسم عنهم هذا السبب (٦٣) . فاستغرب الأخ لهجة أخيه وهاله الأمر وجمع ولده وأهله واستجوبهم أن كانوا قد أساءوا لأخيه فوجدتهم براء عما يدعيه أخوه ، وظل يناشد أخاه أن يخبره بسذنبه وأنه على استعداد أن يجعله وكيلاً لكل هذه الضياع . فلما طال عليه الأمر وبلغ منه الجهد كشف الدارديشي عن السبب الحقيقي وهو حادثة أطباق الرطب ، ويكشف الجاحظ من خلال حوار الأخوين بخل الدارديشي وحرصه وقلقه من الفقر وضياع الأموال بالتبذير ، ذلك القلق النفسي الذي يسيطر عليه ويحلي عليه كل تصرفاته وسلوكه ، فطبق الرطب بجنون إلى فرش البسط أمام الدار ، ويتبعه الماء البارد وتجمع الناس حوله مما يزيد في طمعهم فيه ، فيتحول الطبق إلى أطباق ، ثم يصير ذلك في سائر أيام الأسبوع ، ويتنقل الرطب إلى غداء ، والغداء إلى عشاء ، ثم إلى كساء ، وهكذا تتطور وجوه الصرف حتى يعود البخيل الشري فقيراً . فقال أخوه : جعلت فداك تريد أن لا آكل فضلاً على غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلمتهم أبداً) . قال (إياك أن تخطيء مرتين : مرة في إطماعهم فيك ، ومرة في اكتساب عداوتهم . اخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه . وتسلم تسلم) (٦٤) .

هذه قصة يتجلى فيها بوضوح الكثير من عناصر القصة القصيرة ففيها حدث ، وشخصيات تتصارع ، وفيها تحديد للزمان والمكان ، وفيها عنصر التشويق

(٦٣) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٥ .

المثال ومالم نعرضه مما يعجج به كتاب البخلاء سنحاول أن
نتبين المميزات الفنية في هذه القصص .

المميزات الفنية

١ - الوصف والتصوير :

لعل أول ما يلفت النظر في قصص البخلاء هو عنصر
الوصف والتصوير ، والجاحظ له قدرة على الوصف
والتصوير الخارجي للحدث والشخصية أو الداخلي في
انعكاس الموقف على الشخصية المحورية في تصرفاتها
وتعبيراتها . ولعل عنصر التصوير هو من أكثر العناصر
سيادة في الأدب الذي يصور الطبائع ، ذلك أن الوصف
والتصوير والحوار « وسائل يستخدمها الكاتب في تحليل
شخصية البطل وتصوير مزاجه وطبيعته واستجاباته
ومظاهر سلوكه . حتى نصل - من ذلك - إلى (العقدة)
الأصلية التي تلتف حولها شخصيته في الأعماق السحيقة
من (اللا شعور) »^(٦٩) . وقد أجاد الجاحظ في توظيف
هذا العنصر بمستويات مختلفة حسبما يستدعيه الموقف ،
فأحياناً يقتصر تقديم الشخصية أو الحدث من خلال
الوصف العادي كما في تقديم شخصية قاسم التمار . .
(وكان قاسم شديد الأكل شديد الخبط ، قذر
المؤكلة . وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل
الناس على طعام نفسه)^(٧٠) . وأحياناً يبلغ التصوير حد
الرسم الكاريكاتيري للشخصية كما في صورة علي
الاسواري على الطعام وهي من الصور التي حرص
الجاحظ فيها على تحريك الشخصية تحريكاً مضحكاً
نابضاً بالحركة . يقول الجاحظ : (وكان إذا أكل ذهب
عقله وجمحت عينه ، وسكر وبدر وأنهر ، وتردد

أو (حديث) كحديث خالد بن يزيد ، حين يكون ما
يورده هو مجموعة من النصائح والأقوال . ويطلق عبارة
(طرف شقي) على مجموعة من النوادر البسيطة الساخرة
لبعض البخلاء . ولم يكتف الجاحظ بهذا بل كان يفسر
بعض ما يرد في قصص وطرف وأحاديث بخلائه بعد
الانتهاء من سردها ، ويورده تحت كلمة (تفسير) مثل
(تفسير كلام أبي فاتك) الذي ورد في كلامه بعض
التسميات التي تطلق على الأكلين ، مثل (النشال)
الذي يتناول من القدر ويأكل قبل التضيغ ،
(المصاص) الذي يمص جوف قصبة العظم بعد
استخراج لحمه مستأثراً به دون أصحابه ، وغيرها من
التسميات^(٦٦) . وقد لا يخصص عنواناً ثانوياً بل يفسر
مباشرة بعد انتهاء القصة ما جاء فيها من المصطلحات
التي قد لا تكون معروفة حتى للكثيرين من أهل زمانه ،
كالتسميات التي تطلق على أنواع المكدين مثل
(المخطراتي ، والقرسي ، والكاشاني ، والمزبدي
وغیرها)^(٦٧) . وقد جاء هذا التفسير بعد أن روى
حديث خالد بن يزيد عن الكدية وجمع المال ، لأن خالد
هذا كان مكدياً اتبع أساليب مختلفة لجمع المال فأنرى ،
وكان يدعى (خالويه المكدي) . ثم يختم الجاحظ
شرحه وتفسيره بتأكيده على أن هناك أنواعاً أخرى من
المكدين . لكنه حرصاً منه على أمانة النقل يشرح ما جاء
فقط في حديث خالويه . يقول الجاحظ : (هذا تفسير
ما ذكر خالويه فقط . وهم أضعاف ما ذكرنا في العدد .
وإن يكن يجوز أن نتكلف شيئاً ليس من الكتاب في
شيء)^(٦٨) .

ويعد فمن خلال ما عرضناه من قصص على سبيل

٦٦ . نظر البخلاء ، تفسير كلام أبي فاتك (الصفحات ٧٩ - ٧٧ - ٧٨) .

٦٧ . نظر البخلاء الصفحات ٥١ - ٥٢ - ٥٣ .

٦٨ . البخلاء ، ص ٥٣ .

٦٩ . محاضرات لوسم لفظي . ص ٢٣٠ .

٧٠ . البخلاء ، ص ١٩٩ .

ومن الجدير بالذكر أن عنصر الوصف والتصوير الذي أجاد الجاحظ استخدامه في قصص البخلاء كما رأينا - بما يتمتع به من دقة الملاحظة وقوة التصوير وخصوصية الخيال الذي يمدّه بالتفاصيل الدقيقة والملاحظات الصغيرة - يبقى وصفاً حياً ، لا يلجأ فيه إلى التشبيهات والاستعارات إلا بالقدر الطبيعي الذي يعينه على توصيل الصورة ، إذ قد تجنب الاستعارات والتشبيهات بالكتاب إلى صورة أخرى غير التي يريد إقرارها في خيلة الكاتب . ولأن الجاحظ حريص في قصص البخلاء - على النقل الواقعي الموضوعي من جهة ولأنه فنان يعي - من جهة أخرى - أدواته الفنية ، يدرك تماماً أن ذلك الجزء الخفي في المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية يصعب نقلها إلى الأبحر عن طريق الكلمات مهما بلغ الأديب من المهارة في وصفها وتصويرها ، لذا نراه يقول في نهاية إحدى قصصه : (وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينيك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كتفه . وعلى حدوده وحقائقه) (٧٤) . إن أسلوب الجاحظ في الوصف والتصوير هو جانب من جوانب ميزة الواقعية الغالبة في أدبه كله .

٢ - الشخصيات :

صوّر الجاحظ في كتابه ما يقرب من ستين شخصية من شخصيات البخلاء ، يختلفون في منزلتهم الاجتماعية والثقافية وقدراتهم العقلية وأخلاقهم وسلوكهم واهتماماتهم وتوجهاتهم ، كالبخيل المتقف والبخيل الساذج والبخيل الثري ، والبخيل الفقير ، والبخيل العالم ، والبخيل الأديب ، والبخيل

وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه وما يعتري الطعام منه صرت لا أذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقي . ولم يفجأني قط وأنا أكل ثمراً إلا استغف سقاً ، وحساه حسواً ، وزاد به زدواً . ولا وجده كنتزاً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنها ويقفلها من الأرض . ثم لا يزال ينهشها طويلاً وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها جميعاً (٧١) .

وأحياناً يأتي الحدث في صورة وصفية نابضة بالحياة وكأننا نشاهد الحدث ممثلاً أمامنا في فيلم سينمائي ، كما في حادثة الشيخ الأهوازي الذي كان يأكل طعامه على ظهر السفينة وليس معه غير رجل واحد - هو راوي القصة فطلب الشيخ من الراوي أن يصرف عينه عن الطعام لأنه يخاف الحسد . قال الراوي : (فوثبت عليه ، فقبضت على لحيته اليسرى ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى . فمازلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي . ثم تحول إلى مكائي . فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل عليّ فقال : (قد أخبرتك أن عينك مألحة وإنك ستصيبني بعين) (٧٢) .

ويتخذ الجاحظ التصوير أداة لاستشفاف الحركات النفسية للبخيل واستبطان الأحاسيس واستكشاف طبيعة البخيل من خلال مظهره الخارجي وسلوكه وتصرفاته إزاء المواقف المختلفة . والجاحظ « مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبيين الحركات الشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلة بينهما وبين الحركات والسمات الظاهرة ، من كلمة عابرة ، أو إشارة طائفة أو لفظة سريعة معجلة » (٧٣) .

(٧١) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٧٢) البخلاء ، ص ١٤٨ .

(٧٣) البخلاء مقدمة الجاحظي ، ص ٥٠ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

لخصوي . والبخيل النهم ، والبخيل الشيخ ، والبخيل المرأة ، والبخيل الفتى ... بعبارة أخرى صور الجاحظ لخبيل الإنسان .

هذه الشخصيات التي صورها الجاحظ في الواقع شخصيات حقيقية عاشت زمن الجاحظ ، منهم شخصيات مشهورة في التاريخ مثل سهل بن هارون الكاتب ، وثعامة بن أشرس المعتزلي ، ومنهم المعروفون في زمنه وميسته مثل المدائني التاجر ، وخالويه المكدي ، وأبي عيينه المغنم ، ومنهم من المغمورين مثل قاسم شمار الفضولي ، والسندري الشاعر ، وأحمد الخاركي الشفاح .

وقد كان الجاحظ شديد الحرص أن يوفر لشخصياته من المعلومات والمعارف والحجج ما يساعدهم على الإقناع . على أنه يراعي ظروف كل شخصية ، بل ويجعل الشخصية تستند في محاولة لتبرير سلوكها - إلى أسباب منطقية توهم الآخرين بمقوليتها ، مثل رد علي لأسواني حين عيب عليه استلاب اللقمة من يد الأمير . فقال : (لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذلك ولكننا أهونا أيدينا معاً ، فوقع يدي في مقدم شحمة . ووقع يده في مؤخر الشحمة ، معاً . وشحم منبس بالأمعاء . فلما رقعنا أيدينا معاً ، كنت أسرع حركة وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتصال احسن بانحس وانجوهر بالجواهر) (٧٥) . ومثل هذه الصور كثيرة في قصص البخلاء . وهي بلا شك تدل على سرعة الكلامية للجاحظ نفسه . على أن الجاحظ

كان يراعي ظروف كل شخصية لأن الشخصيات التي اختارها تحترف عدداً من الحرف والمهن المختلفة ، كالتاجر ، والملاك ، والكاتب ، والمعلم والمكدي واللص ، فكان يورد على ألسنتهم من المصطلحات والتعابير التي تنبئ بمهنتهم وثقافتهم وإن لم تشر إلى حرفة بعضهم صراحة .

وقد استخدم الجاحظ في تقديم شخصياته أساليب مختلفة : منها أن يعتمد على تقديم البخيل بطريقة الوصف قبل أن يسرد قصصه وطرائفه ، كاشفاً عن بعض أبعاد الشخصية مثل قصة أبي سعيد المدائني . . (كان أبو سعيد المدائني إماماً في البخل عندنا في البصرة . وكان من كبار المعنيين ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، شديد العارضة ، حاضر الحجة ، بعيد الروية) (٧٦) . ومنها أن يجهل للتعريف بالشخصية قبل أن يروي الحدث الرئيسي في القصة بلوحة أو لوحتين يسرد فيها بعض تصرفات الشخصية ، « وكأنما ليوحي ببعض الأبعاد النفسية حتى لا يفاجأ القارئ بما قد لا يتصوره عقله من تصرف هذا البخيل » (٧٧) ، كما صنع في قصة (زبيدة بن حميد) و (الدارديشي) المار ذكرهما . وأحياناً نرى الشخصية داخل الحدث مباشرة دون تعريف أو تمهيد ، ومن خلال الأحداث والحوار نستكشف الأبعاد السلوكية والأخلاقية للشخصية ، مثل قصة (أبي عبدالله المروزي) التي تبدأ بالحدث مباشرة على هذا النحو (دخل أبو عبدالله المروزي على شيخ من أهل خراسان ، وإذا هو قد استصبح في مسرحة خزف ، من هذه الخزفية الخضراء ، فقال الشيخ : لا يجيء والله منك صالح أبداً ...) (٧٨) .

١٥ - قصص السابق - ص ٦٩

١٦ - قصص السابق - ص ١٣٦

١٧ - سيرة الجاحظ - راحة ثروت لعمري - ص ٩٥

١٨ - بخلاء - ص ٢٠

من البخلاء يصل إلى حقيقة إنسانية تفرد بها شخصية البخيل الإنسان مهما اختلفت بيئته وثقافته ومنزله الاجتماعية ، وهي أن البخيل منغلق على نفسه يتباه بالخوف والقلق ، الخوف من الناس وسوء الظن بهم ، والخوف من الفقر وضيق أمواله ، والخوف من المستقبل وما يجنبه له ، والخوف من الموت جوعاً . فالخراسان يصل به الخوف بالآخرين أن يسيء الظن بأقرب الناس له ، حين رد على زميله ورفيق سفره الذي ألح عليه أن يأكل في قصعة واحدة أثناء السفر - ففي الاجتماع بركة - قال له : (يا عبد الله معك رغيف ومعي رغيف ولولا أنك تريد الشر ما كان حرصك على مؤاكلتي . تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل الطبق واحداً ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه)^(٧٩) . والدارمدي الذي مر ذكره يخاف أن يعطي الشحاذين حسنة لتلا تنهي أمواله - وهو الثري - فيعود شحاذاً مثلهم^(٨٠) . والحزامي لا يتبخر بقميص جديد مخافة أن يسود دخان العود بياض قميصه ، (فإن اتسخ فأتى بالبخور ، لم يرض بالتبخر واستقصاء ما في العود من القثار حتى يدعو يدهن فيمسح به صدره وبطنه وداخل إزاره . ثم يتبخر ليكون أعلق للبخور)^(٨١) . وأحمد بن خلف الذي يتغذى ويتعشى في بيوت أصحابه ولم يدعهم يوماً إلى داره فلما لاموه دعاهم مرة ، وبعد أن أنهوا طعامهم سألهم : (أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامي ؟ قالوا : ما نشك أنك حين كنت والطعام ملكك - أغنى وأيسر . قال : فأنا الساعة أقرب إلى الفقر ، أم تلك الساعة ؟ قالوا : بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر . قال : فمن يلومني على دعوة قوم قريوني من الفقر وساعدوني من

أما الشخصية المحورية في معظم قصص الجلاء فانها تأخذ مساحة أكبر ، والجاحظ يسلط عليها الضوء كله حتى لتختفي الشخصيات الثانوية الأخرى في الظل ، وكأنها اتخذت لتظهر الشخصية الرئيسية ، وتعين على إبراز سلوكها ، وتساعد على تطوير بعض المشاهد وتوجيه الأنظار إلى الشخصية المحورية ، « ولعل الجاحظ كان يدرك بسلامة إحساسه الفني الحدود التي يجب أن تقف عندها أدوار هذه الشخصيات في تصوير الأبطال »^(٧٩) . مثل الشخصيات الثانوية في قصة (زبيدة بن حميد) الأنفة الذكر ، وهي الصديق والبقال ورئيس الغلمان الذين استخدمهم الجاحظ ليضفوا على الشخصية الرئيسية أبعاداً تخدم الفكرة الأساسية للقصة ، وحين تحقق ذلك انتهى دورهم واختفوا . أما الجاحظ نفسه وهو مبدع العمل وراوي القصص فقد كان حريصاً على الابتعاد عن مسرح القصة ، غتفياً في الشخصيات التي يصورها وينطقها ، ولا نجد له صورة مفردة في الكتاب إلا في قصص شارك شخصياتها أدوار البطولة فيها ، وحتى في مثل هذه المواقف كان يدرك أنه أداة لظهور الشخصية الرئيسية وبالتالي كان يفعل بنفسه ما يفعل بالشخصيات الثانوية الأخرى . أما في القصص التي يتخذ فيها دور الراوي ، فكان يترك شخصياته تتحرك وتتصرف وتتصارع وتتحدث بحرية دون أن يتدخل في تحريكها أو يعلل عليها حوارها ، أو يحصي عليها سكناتها ، بل كانت الشخصية تتحرك بشكل منطقي ضمن إطار الموقف العام .

غير أن الجاحظ من خلال عرضه للنماذج المختلفة

(٧٩) محاضرات الموسم الثقافي ، ص ٢٤٣ .

(٨٠) الجلاء ، ص ١٩ .

(٨١) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(٨٢) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

كقوله : (كان أبو الهذيل أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً ، وأسهلهم سهولة)^(٨٦) . ويقول عن أبي سعيد المدائني : (كان أبو سعيد هذا ، مع بخله ، أشد الناس نفساً وأحاهم أنفاً)^(٨٧) . إن موقف الجاحظ من البخلاء جزء من موقفه من الحياة التي أحبها ، ومن الناس الذين انشغل بقضاياهم في أدبه .

٣ - اللغة والحسار :

اهتم الجاحظ بالحوار اهتماماً كبيراً ، واتخذ أداة للكشف عن نفوس شخصياته وتوجهاتهم وتحليل دوافعهم العميقة ، وتصوير أخلاقهم ومشاعرهم وإحساسهم ، وطريقة تفكيرهم . وتأتي بعض القصص حواراً كلها وفيه تكمن قوة النادرة كما في قصة الأصمعي مع جلسائه^(٨٨) .

ويلعب الحوار دوراً كبيراً في تطوير الأحداث ورسم المواقف واتجاهاتها في بعض القصص . يقول الجاحظ في إحدى قصصه (كان أبو الهذيل أهدي إلى موسى دجاجة . وكانت دجاجة التي أهداها دون ما كان يتخذ لموس ، ولكنه بكرمه وحسن خلقه أظهر التعجب من سمتها وطيب لحمها)^(٨٩) . هذه الحادثة استتبت موقفاً نفسياً خاصاً من موسى فهو يبدي التعجب من سمن الدجاجة واكتناز لحمها لكنه يخفي في نفسه أنها لم تكن شيئاً ، ثم يأتي الحوار كله ليلعب بهذا الوتر النفسي حتى المشهد الأخير . بل إن الجاحظ أحياناً يتقمص انفعال بسطه إذا سكر وتلعثم في حوار أو أدعى الجنون

الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر ، كنت من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد ؟)^(٩٠) . والأمثلة على خوف البخيل وقلقه النفسي كثيرة في الكتاب ، ولعل أغرب مسوق للخوف ، خوف سليمان الكثري من الضحك ، فلما عوتب في قلة الضحك وشدة القطوب قال : (إن الذي يمنعني من الضحك أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل إذا ضحك وطابت نفسه)^(٩١) . هذه الحقيقة الإنسانية في تحليل شخصية البخيل قد وصل إليها معظم الذين كتبوا في تصوير البخلاء وتحليل نفسياتهم من الكتاب العرب والغربيين . فيخيل مولير على سبيل المثال يخاف على أمواله حتى من أولاده ، متصوراً أنهم سيخونونه ويصبحون أعداء له .

وأخيراً ما موقف الجاحظ الإنساني من بخلائه ؟ إنه رغم رفضه لمنطقهم وسلوكهم ، وتصويره لسليبياتهم وشدة بخلهم ، إلا أنه لم يبخسهم ، ولم يعطنا - كقراء إحساساً ببخسهم والحقد عليهم ، بل على العكس كان الجاحظ حانياً عليهم ، متعاطفاً معهم ، يضحك لهم ويناقشهم ويستمتع إلى حجبهم ، ويتركهم يعبرون عن ذواتهم وموقفهم من الحياة بحرية كاملة ، وكان يجمع لهم صفات الخير التي يعرفها فيهم لتبرز لنا النفس الإنسانية بجانبيها المضيء والمظلم . لقد كانت شخصيات ظريفة ، استطاع الجاحظ أن « يجيها إلينا لأنه هو نفسه أحبها »^(٩٢) . بل إنه كثيراً ما كان يمدح بخيله صراحة رغم ما يستهجنه من حرصه وتقديره ،

(٨٣) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٨٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٨٥) محاضرات الرسم الثنائي ، ص ٢٤٢ .

(٨٦) البخلاء ، ص ١٣٥ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨٩) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

من آثار فرقه المعتزلة التي يقف الجاحظ علماً من اعلامها . ان بيئة المعتزلة كان لها أثر كبير في صقل مواهب الجاحظ الفنية في الحوار لما عرف عنهم من قوة المجادلة ، لهذا نجد معظم البخلاء أصحاب منطق وجدل ، يدافعون عن مذهبهم في البخل كما يدافع المتكلمون عن عقيدتهم ، ويجادلون من يعيب عليهم تقديرهم ، كما يجادل المعتزلة أصحاب الفرق الأخرى . ويتضح الجدل والمنطق من السطور الأولى لمقدمة الكتاب حين يذكر الجاحظ منطق البخلاء . . . (ولم سمّوا البخل إصلاحاً ، والشح اقتصاداً ولم حاموا على المنع ونسبوه إلى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع . . . ولم احتجوا - مع شدة عقولهم - لما أجمعت الأمة على تقييده) (٩٢) .

ففي رسالة الكندي إلى المستأجر بيته يطالبه فيه بزيادة الإيجار لزيادة عدد الساكنين في الدار ، نجد الفكرة الفلسفية الدقيقة ، والحوار العميق وتوليد المعاني ، وترتيب الأفكار ، واختيار الكلمات بدقة ، والأسلوب المقتنع ، والإيمان القوي بنظرية الجدل ودفاع قوي عنها ، بل استطاع الكندي أن يجعل الساكن متهماً ، جانياً ، حقوداً ، لصاً ، محتالاً ، يتوسل بشتى الطرق والوسائل غير الحميدة لاستغلال الدار (٩٣) . هذا المثال من بين أمثله عديدة تؤكد قدرة الجاحظ على التوليد والتخريج وتقديم الأسباب والعلل واستخلاص النتائج ، بل إنه يدل بوضوح على أن الجاحظ عايش البخلاء طويلاً وعرف الدوافع إلى بخلهم وأدرك الأبعاد النفسية لذلك . على أن المسألة « لا تقف عند حد ثقافة الجاحظ ، ومعرفة باللغة والمنطق ، والفلسفة والجدل .

فاضطرب في حديثه ، فهو يحكي حالة السكران أو المجنون كما في قصة أبي مازن وجبل الغمر الأنفة الذكر .

والحوار عند الجاحظ شديد الصلة بالحياة والمجتمع ، يراعي فيه ثقافة الشخصية ومنزلتها الاجتماعية ، لذا اختلف مستوى الحوار باختلاف مستوى الشخصية . ولأن الجاحظ كان واقعياً في اختيار نماذجه من الحياة فقد أعطى لكل شخصية حوارها ولغتها كما هو في الواقع ، لذا يترك اللفظ العامي أو الكلام غير المعرب كما هو اعتقاداً منه بأن الإعراب قد لا يتسق مع الموقف أو الشخصية ، أو أنه لا يستقيم مع محاولة تصوير الواقع بمحذافيه ، ويرى أن التقعر والتعقيد اللغوي قد ييغض هذا الباب ويخرجه عن حده ، ويدفع بالقراء إلى النفور . أما حينما تكون الشخصية من اللغويين والمتكلمين والمفلسفين يكون حديثه بكلام معرب ، وهو يقرر ذلك في الكتاب ، فيقول : (وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا إننا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب ييغض هذا الباب ويخرجه عن حده . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاطلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون ، وأشباهه) (٩٤) . فالأصمعي - مثلاً - صور الجاحظ لنا حواراً تصويراً حياً نكاد نشم منه رائحة البادية . بينما يستخدم حتى الألفاظ الفارسية في حوار الشيخ المروزي مع زميله العراقي ويتسرحه إلى العربية (٩٥) .

ويمتاز الجاحظ في حواراته بالجدل ، والجدل سمة رئيسية في نثره ، فهو يحاكم عقله دائماً ، وما ذاك إلا أثر

(٩٠) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٩١) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٩٣) انظر قصة الكندي في البخلاء ص ٨١ - ٩٣ .

الاهتمام بانتقاء الكلمة والابتعاد عن المبتذل والوحشي من الألفاظ في نفس الوقت ، وهو وإن لم يتحرج عن إيراد الألفاظ العامية على السنة العوام من البخلاء ، والألفاظ الغريبة على السنة المتعاقلين من البخلاء كما يسميهم ، كجزء من موضوعيته في نقل حديث الآخرين ، إلا أنه يقول في البيان والتبيين : (وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى)^(٩٧).

٤ - السخرية :

عنصر بارز من عناصر كتابات الجاحظ ومن أكثرها شيوعاً ، فقد كان مطبوعاً على الظرف والفكاهة ، ميالاً إلى التفاؤل ، يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح ، وكان لطيف المعشر ، حلو الحديث ، مرح النفس ، متهلل الخاطر ، سريع البديهة ، سريع النكتة ، ويمتاز كتاب البخلاء بشكل خاص بالسخرية المشوثة في كل قصة من قصصه ، وكل صورة من صورته .

والجاحظ في بخلائه يدعو دعوة صريحة إلى الضحك والمزاح والفكاهة ويدافع عنها ، فخصص جزءاً من المقدمة تحدث فيه عن المزاح وعرض لوجوه النظر المختلفة ، وقارن بينه وبين البكاء . وقد حدد فيه فلسفته الخاصة للضحك ، ومواقفه ومدى حاجة الإنسان إليه ، حتى ليصبح ضرورة من ضرورات حياته . يقول الجاحظ : (وللضحك موضع وله

إنها أبعد من ذلك . خبرة معمقة ببسواطن النفس البشرية ، وما يعمل في داخلها من صراعات . وبأن السلوك الذي يسلكه الإنسان ليس إلا بلورة لمحصلة مجموعة من التجارب والخبرات وخاتمة لمطاف طويل ارتضاه لنفسه^(٩٨) . وإذا كان الجاحظ قد استطاع أن يعرض حجج البخلاء ومنطقهم بالجد مرة ، وبالسخرية المبطنة مرة أخرى وبالسخرية الصريحة مرة ثالثة ، وبلغه طيعة ، وعبارات رشيقة مشوقة في معظم قصصه ، إلا أن بيئته الفكرية طبعته من ناحية أخرى بطابعها حتى ليصعب عليه أحياناً التخلص من تأثيرها في تفكيره وتعبيره ، فانقلب الحوار في بعض قصصه إلى مناظرة كلامية مما قد يسيء إلى صفة الكاتب الفنية ، مثل قصة الحزامي في تفضيل اسم (عبدالله البخيل)^(٩٩).

أما لغة الجاحظ في البخلاء فهي لا تنفصل عن لغته في كتاباته الأخرى والتي تتميز بالجزالة والعدوبة في التعبير ، ودقة اختيار الألفاظ ، والابتعاد عن التكلف والتعقيد ، والتصنع في السجع والتزويق اللفظي ، إضافة إلى حسن انتقاء العبارات وجملها ، والتوازن الدقيق بين العبارات مما يمنحه تعادلاً صوتياً ، وبحق ضرورياً من الإيقاع . ويرى الدكتور طه الحاجري أن ذخيرة الجاحظ اللغوية الضخمة أدت إلى الإسهاب وترجيح المعنى ، وقد لا يروق هذا لبعض الناس ، غير أنه يرجعها إلى « طبيعة الجاحظ الفنية المعنوية بالجمال ومظاهره المختلفة . والجمال اللفظي - إن صح أن يكون هناك جمال لفظي بحث - من أقوى عناصر الأدب ، وهذه المزاجية اللفظية ليست إلا مظهراً من مظاهر هذا الجمال اللفظي »^(١٠٠) . والجاحظ نفسه يؤكد على

(٩٤) سيد حامد السراج ، رحلة التراث العربي ، ص ١١٣ .

(٩٥) البخلاء ، ص ٦٢ .

(٩٦) البخلاء ، مقدمة طه الحاجري ، ص ٢٧ .

(٩٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإني رأيت الأسماع تحمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورت الغفلة^(٩٨). وفي هذا ملمح نفسي ، فهو يخشى على القارئ الملل إذا ما استمر يحدته في موضوع واحد ، لذا جاء حرصه على التنوع في موضوعاته . إن موضوع التنوع أو مزج الجذد بالهزل منهج سار عليه الجاحظ في معظم مؤلفاته حتى ليعده المستشرق الفرنسي شارل بللا (ميزة جاحظية مهمة)^(٩٩) . وهو يؤكد في كتابه القيم (البيان والتبيين) وفي رسائله الهزلية (التريخ والتدوير) . بل إن نزعة التنوع ترافقه حتى في كتاب البخلاء وهو أكثر مؤلفاته سخرية وإضحاكاً ، فنراه يبدأ الكتاب برسالة طويلة لسهل بن هارون في دفاعه عن نظريته في البخل ، وهو دفاع مليء بالجدية والاستشهادات من النصوص القديمة لكتاب مثقف جاد ، تأخذ ثماني صفحات من الكتاب ، ينتقل بعدها إلى مجموعة من النوادر والطرف لبخلاء خراسان ، ويتبعها بقصص أهل البصرة من المسجدين ثم يأتي بقصة بطلها بخيل واحد هو (زبيدة بن حميد) وهكذا يظل ينتقل من قصة إلى مجموعة من النوادر إلى أحاديث متنوعة إلى تجربة أحد البخلاء في الكدية ، وغيرها من الموضوعات المتنوعة .

على أن السخرية في كتاب الجاحظ لها دلالة أخرى إضافة إلى الإضحاك والإمتاع ، إنها لون من ألوان النقد ، فالجاحظ ناقد بطبعه ، غير أن لين جانبه وحبه

مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما أحد وقصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً . فالناس لم يعيوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك صار المزح جدّاً والضحك وقاراً^(٩٨) . ويعتمد في دفاعه عن الضحك على القرآن الكريم ، فيورد الآية الكريمة ﴿ وانه هو أضحك وأبكى . وانه هو أمات وأحيى ﴾ ويعقب عليها بأن الله وضع (الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح)^(٩٩) . ويستمر في دفاعه عن الضحك في أن العرب تسمي أولادها بالضحك وببسم وبتلق وتطلق ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والسلف الصالح قد ضحكوا ومزحوا ، وأن العرب إذا مدحوا قالوا : هو ضحكك السن وبسم العشيات ، وهش إلى الضيف . بل إن الجاحظ يحدد الهدف في الكتاب في ثلاثة أشياء : (تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة . وأنت في ضحكك منه ان شئت ، وفي لهو إذا مللت الجذد)^(١٠٠) . إن دعوة الجاحظ في البخلاء إلى الضحك هو جزء من نظريته العامة إلى النادرة والدعابة التي استخدمها في كتاباته الجدية كما استخدمها في كتاباته الهزلية . فهو يرى أن العقل يتعب من الجد ويحتاج إلى الترويح ، وحرصاً منه على ربط القارئ بكتبه عمد إلى الانتقال من الجذد إلى الهزل ومن الهزل إلى الجذد مما أكسب كتاباته ميزة الاستطراء . يقول الجاحظ في كتاب الحيوان (قد عزمت - والله الموفق - أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب

(٩٨) البخلاء ، ص ٧ .

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٦ .

(١٠٠) المصدر السابق ، ص ٥ .

(١٠١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ج ٣ ، ص ٧ .

(١٠٢) شارل بللا ، الجاحظ ، ص ٣٨٤ .

للحياة والناس جعله يتعد عن طريق الجسد الصارم في النقد . فكانت السخرية في يده أداة نقدية مؤثرة فعالة لكل المظاهر السلبية في المجتمع والجوانب المظلمة في النفس الانسانية ، والجاحظ نفسه يعي تأثير هذه الأداة وفعاليتها ، فهو لم يرفض نظرة البخل للحياة صراحة ولكن السخرية اللاذعة التي صور فيها منطقهم كانت مرآة عاكسة لمعبرهم وخطأ نظريتهم . غير أن هناك نقطة جديدة بالتنويه ، وهي أن سخرية الجاحظ ومزاحه ودعاباته ، وميله الفطري إلى الضحك ، ليست سخرية مبتذلة هدفها التهريج والضحك على الناس ، بمعنى آخر ليس هدفها الضحك للضحك لذاته ، بل هي سخرية أديب مفكر عقلي ، تمتاز بالموازنة بين الإمتاع والترويح عن النفس والفائدة في نفس الوقت ، إنها سخرية ذكية راقية تنفي الأذواق وترهف الأحاسيس . ومن هنا كان لا يرضى عن المبالغة في السخرية وخروجها عن حد المعقول ، فرفض السخرية في قصة البخل الذي يتأذى بجبنه عنده بالمسح عليها بالخبز ، فلما مات كان ابنه أكثر بخلا منه ، فكان يشير إلى قطعة الجبن من بعيد دون أن يمسه . يقول الجاحظ : (ولا يسعجيني هذا الحرف الأخير لأن الإفراط لا غاية له . وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكسبون فيهم مثله) (١٠٣) . أما السخرية في كتاب البخل فقد حوى كل ما للضحك من وجوه ، ففيه مضحك الشكل ، ومضحك الحركة ، ومضحك الكلمة ، إضافة إلى كون البخل بحد ذاته مدعاة للسخرية ، فهو يدخل في باب مضحك الطباع . « ولو قيد هنري برجسون أو هيرت

سينسر أو دوجا أو شاييرو ممن درسوا الفكاهة والضحك قراءة كتاب البخل ، لوجدنا كتاباتهم عن الضحك والمضحك تزخر باستشهادات منه » (١٠٤) . أما مضحك الشكل فنجد في شكل البخل وملابسه ووجهه حين يأكل فتجحف عينيه ويغيب وحيه كصورة علي الأسواري على الأكل ، ويبدو مضحك الشكل في وجه البخل حين يحل ضيف على مائدته فهو ينظر إلى يدي ضيفه ، فتتحرك عيناه معها بآلية في صعودهما وهبوطهما من وإلى الخوان . وليس أصناف الأكولين الذين صنفهم أبو فائق كاللحم والمصاص وغيرهما إلا من طائفة مضحكي الأشكال ، وقميص ليلي الناعطة صورة أخرى لمضحك الشكل ، (فإنها مازالت ترفع قميصاً لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع ، وذهب القميص الأول) (١٠٥) . أما مضحك الحركات فيظهر في الصور النابضة بالحياة والحركة التي يرسمها الجاحظ للبخل في موقف من المواقف كصورة الشيخ الخراساني الذي لم يدع رفيقه للاكل وهما على ظهر السفينة فتعرض للضرب (١٠٦) . وصورة اسماعيل بن غزوان الذي سهر عنده المكّي ، ولما غلبه النوم رمى له اسماعيل بمخدة لينام عليها . قال المكّي : (فمتعني من النوم إنكاري للموضع ، ويس فراشي ، وظن إني قد نمت ، فجاء قليلاً قليلاً حتى سل المخدة من تحت رأسي . فلما رأيته قد مضى بها ضحككت وقلت : قد كنت عن هذا غنياً ، قال : إنما جئت لاسوى رأسك ، قلت : إني لم أكلمك حتى ولّيت بها ، قال كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة في يدي تسيت ما جئت له) (١٠٧) .

(١٠٣) البخل ، ص ١٣٢ .

(١٠٤) فاروق سعد ، مع بخله الجاحظ ، ص ٩٧ .

(١٠٥) البخل ، ص ٣٧ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(١٠٧) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

رجل وسلم عليه دعاه إلى الطعام ، فلما هم الرجل انتفض الخراساني ليمتنعه من مشاركته طعامه^(١٠٨).

٥ - الواقعية :

يُسم الجاحظ في كتاباته عموماً بالواقعية التي تتضح في انتقاء موضوعاته ومعالجتها ، وفي تصوير البيئات والطبقات المختلفة ، وفي دقة ألفاظه واختيارها بحيث تلائم ما يصفه أو يصوره ، وفي الابتعاد عن التشبيهات والاستعارات إلا ما جاء عفواً الخاطر ، وفي ملاحظاته الدقيقة ، وفي منهجيته الموضوعية ، وفي إيمانه بالتجربة العلمية والتطبيق العقلي مستعيناً بالعقل والحواس والتجربة كما يتضح في كتابه (الحيوان) وفي رفضه كثيراً من خرافات الناس ومعتقداتهم الخاطئة في العديد من رسائله . وليتته العلمية والثقافية بشكل عام ، وبيته المعتزلة بشكل خاص ، أثرها على اتجاهه العقلي وموضوعيته .

وفي كتاب البخلاء تأخذ الواقعية شكلاً واضحاً من خلال ربط القصص بالواقع المعاشي ، أو ما يسمى في النقد الحديث بالصدق الفني وهو أن « يجري التفاعل بين الأبطال والأحداث كما يجري في منطق الحياة الواقعية ، حتى يشعر القارئ أن الكاتب لا يخادعه ولا يشطّ به ولا يؤخره عن محيط الحياة »^(١٠٩). ويتضح هذا الربط في رسم الشخصيات وتصوير الأحداث ، وإدارة الحوار ودقة التفاصيل والوصف السري ، وتحديد الزمان والمكان . فالشخصيات التي يختارها الجاحظ شخصيات معروفة في بيته ذكر أسماء بعضها وأخفى بعضها الآخر إكراماً أو خوفاً كما يقول في المقدمة^(١١٠).

أما مضحك الكلمات ، فيزخر به احتجاج البخلاء وأحاديثهم ومراسلاتهم ، التي يوردها الجاحظ بجدية مبسطة بسخرية مرة وبسخرية سافرة مرة أخرى مراعيًا ظروف المتكلم . وكثيراً ما يحملنا على الاعتقاد بمعقولية دفاعهم وتبريراتهم المضحكة وحججهم الساخرة . فالكاتب سهل بن هارون يستحسن ترقيع الثوب لأن (ترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر)^(١٠٨). والثوري ينصح بأكل الباقل بقشوره ، (فإن الباقل يقول : من أكلني بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي أكله . فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم ، وأكلنا لما جعل أكلنا لكم ؟)^(١٠٩). ونموذج ثالث من العبارات المضحكة ترد على لسان أبي قطبة - أحد البخلاء السذج ، يقول (إياكم والفساء في ثيابكم التي تخرجون فيها ، وفي لحفكم التي تنامون فيها ، فإن الفساء يدرّ السقميل . . إني والله ما أقول إلا بعلم)^(١١٠). وتبلغ السخرية قمته حين تجتمع الوجوه الثلاثة للإضحاك : معاً ، كما في قصة (أبو مازن وجبل الغمر) التي استشهدنا بها سابقاً ، حيث يتجلى فيها مضحك الشكل في رعب جبل الغمر ، ومضحك الحركات في تصرفات أبي مازن ، ومضحك الكلمات في الحوار الدائر بينهما . وهذه الصورة نجدها في كل القصص التي تتضمن شخصيات تتصارع وأحداثاً تنمو فتتعدد ثم تنحل ، كقصة (زبيدة بن حميد) ، وقصة (العراقي والمروزي) البار ذكرهما ، وقصة الشيخ الخراساني الذي كان يأكل وحده في بستان فلما مر به

(١٠٨) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(١٠٩) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(١١١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١١٢) محاضرات الموسم الثقافي ، ص ٢٢٢ .

(١١٣) البخلاء ، ص ٧ .

ومن الأسماء من سمع عنها وعرف أخبارها فنقلها عن سمع منه ، ومنها من عايشها واتصل بها فكان يبدي رأيه فيها ، كقوله عن أحد البخلاء : (وأبو عبدالله هذا كان من أطيب الخلق ، وأملحهم بخيلاً وأشهرهم رياء)^(١١٤) . ومن هنا فقد صوّرها بواقعية متناهية لا تخرجها عن حدودها المعقولة ، فكانت الشخصية كما هي في تصرفها ، وسلوكها ، وعلاقاتها ، وحوارها وأحاديثها ، بل كان حريصاً أن تظل حكاياته وقصصه مرتبطة بالحياة فلا تخرج عما هو متعارف عليه بين الناس . لذا رفض بعض الحكايات التي رآها قد خرجت عن حدود المعقول . يقول الجاحظ بعد أن روى حكاية الابن البخيل الذي كان أكثر بخيلاً من أبيه : (ولا يعجبني هذا الحرف الأخير ، لأن الإفراط لا غاية له . وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله)^(١١٥) . وتبدو موضوعية الجاحظ إزاء شخصياته في أنه صوّرها بجوانبهم المختلفة ، في خيرهم وشرهم ، في جلدتهم وهزلهم ، في حبهم وبغضهم ، في وداعتهم وعنفهم ، في طيبتهم وسذاجتهم ، في حبشهم ونجابتهم . إنها شخصيات إنسانية نابضة بالحياة ، مرتبطة بالواقع بكل ما تحمله النفس الإنسانية من إيجابيات وسلبيات . وارتباطاً بموضوع الواقعية في البخلاء يأتي تركيز الجاحظ على رسم الصور بكل دقائقها وتفصيلها ، يصل في بعض القصص إلى حد التعداد التجهيزي ، لدرجة أننا نشعر

« وكأننا أمام نص إخراج مسرحي أو سيناريو سينمائي »^(١١٦) . مثل صورة الشيخ الخراساني ، (إذا كان في غداة كل جمعة حمل معه منديلاً فيه جردقتان ، وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها اثنان ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال)^(١١٧) . وأحياناً يركز الجاحظ على الحركة فيصفها بكل جزئياتها ، كصورة الأكل على الطعام وحركة يده وعينه وفمه وتعابير وجهه . مثل صورة علي الأسواري على الطعام^(١١٨) . ويدخل في هذا الباب تصوير العادات والتقاليد في عصره ، كتجهيز العروس في قصة مريم الصانع التي زوجت ابنتها (فحلّتها الذهب والفضة وكستها المروي والوشي والقزّ والخزّ وعلقت المعصر ، ودقت الطيب ، وعظمت أمرها في عين الختن ، ورفعت قدرها عند الأحماء)^(١١٩) . أو ما كان من بلال بن أبي بردة الذي خاف من الجذام فوصفوا له الاستنقا بالسم^(١٢٠) ، وغيرها من العادات والأعراف والتقاليد . إضافة إلى الإسهاب في وصف الآلات والأدوات المسادية ، وتسميات الأطعمة والأشربة وأنواعها في عصره ، كما ورد في حديث أبي فاثك مثلاً^(١٢١) .

أما على صعيد حوار البخلاء وأحاديثهم ، فلكل شخصية ألفاظها وتعابيرها ومنطقها وصيغها المطابقة لما هي عليه في الحياة ، فالتكلم يتحدث ويناقش بكلام

(١١٤) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(١١٥) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(١١٦) فاروق سعد ، مع بخلاء الجاحظ ، ص ٤٧ .

(١١٧) البخلاء ، ص ٢٤ .

(١١٨) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(١١٩) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(١٢٠) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(١٢١) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة الطغام ، فأياك وأن تستعمل فيها الاعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن السلي أريدت له ، ويذهب استسمايتهم إيساها واستملاهم لها (١٢٤). وإضافة لذلك فهو لا يتخرج من نقل الكلام الأعجمي بلغته ويترجمه كما في قصة العراقي والمروزي الآفة الذكر (١٢٥).

وهكذا تطل الواقعة في كل صورة من صور كتاب البخلاء ، وكل شخصية من شخصياته ، وبنادرة من نواذرهم ، وحديثاً من أحاديثهم ، وحواراً من حواراتهم ، حتى ليحس القارئ أنه يعرف تلك الشخصيات حق المعرفة ، فقد رآها وعاش معها وسمع حوارها ، بل واشترك معها في نوادرها . إنها نماذج حقيقية تعيش في كل زمان وفي كل مكان .

٦ - الإطار الزماني والمكاني :

إن تحديد الزمان والمكان عنصر من عناصر القصة ، وله دور في ربط القصة بالواقع من جهة ، كما أنه يساعد - من جهة أخرى - على فهم سلوك الشخصية وتصرفاتها ، ويساهم في تفسير الكثير من الأحداث . أما في كتاب البخلاء فينقسم هذا العنصر إلى قسمين : عام وخاص . فالإطار الزماني العام هو العصر الذي عاش فيه الجاحظ . أما الخاص فقد يجدد الجاحظ وقت وقوع الحادثة في بعض القصص ، كأن تدور الحادثة في الليل مثل (المرازمة الذين اشتركوا في شراء

المتكلمين ، والقاضي ترد على لسانه التعابير الفقهية ، والتاجر يستعمل الألفاظ المتداولة في السوق ، والمكدي يستعمل الألفاظ التي يستعملها المكدون ، واللص يستعمل تعابير اللصوص . . . وهكذا مع بقية الشخصيات . فخالويه المكدي مثلاً يتحدث عن تجربته في الكدية فيقول : (سل عني صعاليك الجليل ، وزوافيل الشام ، وزط الأجاس ، ورؤوس الأكراد ، ومردة الاعراب وفستاك نهر بط ، ولصوص القفص . . . كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة) (١٢٦). وقد ذهب الجاحظ أكثر من ذلك حين أباح لنفسه رواية اللحن والخطأ في النادرة إذا ورد كذلك في كلام قائلها ، مراعيًا وضع المتكلم ومناسبة الكلام ، وفي ذلك يقول في البخلاء : (وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنًا أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الاعراب يغيض هذا الباب ويخرجه عن حده . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء) (١٢٧). والجاحظ يذهب هذا المذهب في كل مؤلفاته إمعاناً منه بالواقعية في نقل الأخبار وسرد الحكايات والنوادر ، وله في ذلك نظرة ، إذ يرى أن تدخل الكاتب في تغيير الكلام المنقول يبعده عن الواقع من جهة ، ويفقد القارئ المتعة فيه من جهة أخرى . يقول في (البيان والتبيين) : (ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الاعراب فأياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها خارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كثير . وكذلك

(١٢٢) المصدر السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(١٢٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(١٢٥) البخلاء ، ص ٢٢ .

مصباح^(١٢٦) . أو قد تقع الحادثة عند الظهر مثلاً (الشيخ الخراساني الذي يتغدى في البستان بعد صلاة الجمعة)^(١٢٧) أو قد تقع في الغروب مثل (ساذبة بلال بن بردة وقت الإفطار في رمضان)^(١٢٨)
وغيرها من الأوقات . أما الإطار المكاني العام فهو البعد الجغرافي المتمثل بمدينة (البصرة أو بغداد ، أو خراسان ، أو واسط ، أو مرو . . .) . أما الخاص فيشير إليه الجاحظ في بعض القصص مثل (اجتماع المسجدين في مسجد البصرة)^(١٢٩) ، أو حادثة (الشيخ الأهوازي وهو مسافر في جعفرية - مركب نهري)^(١٣٠) ، وحكاية (زقاق السديس في مجلس السوالي داود أبي داود)^(١٣١) ، أو اجتماع (الجاحظ والنظام وعمر بن نبوي في ظل حائط)^(١٣٢) . وغيرها من الأماكن . غير أن الجاحظ لم يعمل كثيراً على تحديد الإطار الزمني والمكاني الخاص ، لأن الذي كان يعنيه أكثر المواقف وتصرف الشخصيات تجاهها ، هادفاً من كل ذلك إلى

توضيح طبيعة شخصية البخيل في مواقف متعددة . ومع ذلك فإن استخدام الجاحظ لإطار الزمان والمكان الخاص - على قلته - يدل على وعي الجاحظ بقيمة هذا العنصر ، فهو يستخدمه حين يشعر أنه يضيف شيئاً ما للقصة ، ففي قصة (جبل الغمر وأبي مازن) التي مر ذكرها على سبيل المثال ، حيث يطرق (جبل) باب أبي مازن ، وكان الوقت في ساعة متأخرة من الليل ، والأزقة مظلمة ، والعسس يلقون الطرقات . فتحدد الزمان هنا له دوره في تفسير هلع (جبل الغمر)^(١٣٣) .
وبعد فهذا هو كتاب البخلاء ، وتلك هي حكاياتهم وقصصهم . كتاب من الكتب التراثية الخالدة الذي لا يزال يعيش بنماذجه الحية وصوره المشرقة ومواقفه الساخرة ، في قالب قصصي شيق ممتع ، ولازال يتمتع بالحياة رغم مرور أكثر من اثني عشر قرناً على وضعه ، ولازال يمثل سادة غنية لكتاب القصة والمسرح ، ولرسامي الكاريكاتير .



(١٢٦) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١٢٨) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(١٣٠) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١٣١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(١٣٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(١٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

المصادر والمراجع

- (١) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، مكتبة الآداب ، بدون تاريخ .
- (٢) الجاحظ ، البهلاء تحقيق طه الحنجري ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .
- (٣) — ، البهلاء ، تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٩ .
- (٤) — ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الحانجي ، القاهرة .
- (٥) — ، الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- (٦) جميل جبر ، الجاحظ ومجتمع عصره ، المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٥٨ .
- (٧) حسن السندوي ، أدب الجاحظ ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٣١ .
- (٨) د. سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤ .
- (٩) شارل بللا ، الجاحظ ، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، دمشق ١٩٨٥ .
- (١٠) شفيق جبيري ، الجاحظ - معلم العقل والأدب ، ١٩٣٢ .
- (١١) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف - القاهرة .
- (١٢) طه الحنجري ، الجاحظ - حياته وآثاره ، الطبعة الثانية ، دار المعارف - القاهرة .
- (١٣) د. الطاهر أحمد مكي ، القصة القصيرة - دراسة ومختارات ، الطبعة الثانية ، دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨ .
- (١٤) علي شلش ، في عالم القصة ، الطبعة الأولى ، مطبوعات الشعب ، القاهرة ١٩٧٨ .
- (١٥) فاروق سعد ، مع بهلاء الجاحظ ، الطبعة الرابعة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٣ .
- (١٦) محاضرات الموسم الثقافي (١٩٦٣ - ١٩٦٤) الجزء السابع ، مطبعة الوزارة ، دمشق ١٩٦٤ (فن القصة في كتاب البهلاء للمجاهد) ، د. عبدالكريم الأشتر ، ص ٢١٩ - ٢٥٢ .
- (١٧) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ .

- (١٨) ابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة - بيروت . بدون تاريخ .
- (١٩) د. وديعة طه النجم ، الجاحظ والحاضرة العباسية ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٥ .
- (٢٠) ياقوت الحموي ، معجم الأدياء ، طبعة دار المأمون .
- (٢١) يحيى حقي ، فجر القصة المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٥ .
- (٢٢) يوسف الشاروني ، القصة القصيرة - نظرياً وتطبيقياً ، كتاب الهلال - العدد ٣١٦ ، القاهرة - ١٩٧٧ .

(تمت بحمد الله)



من الشرق والغرب

أطلقت تسمية «الرواية الجديدة» في فرنسا على موجة من روايات مختلفة . دفقت في منتصف الخمسينيات من هذا القرن وأثارت ، ولا تزال ، عاصفة من الدراسات والمقالات والابحاث بين مؤيد ومعارض وناقد . ولقد حاز أحد روادها ، كلود سيمون ، على جائزة نوبل للادب عن عام ١٩٨٥ بينما لم تكد تمر سنة بين ١٩٥٤ و ١٩٧٠ إلا ونال عمل منها أو أكثر جائزة أدبية .

اهتم النقاد كثيرا بهذه الظاهرة منذ نشأتها وأخذوا يتسابقون في تحديد أطرها ووضع برامج ومخططات . وحتى تسميات . لها . لم يجد بعضهم فيها أكثر من «روايات بيضاء» خالية من المعنى ، «روايات فراغ» يؤلفها كتاب قابعون في «صومعة منتصف الليل» ، منقطعون عن العالم وهمومه .^(١) ورأى بعض معارضيهما الآخرين أنها «مدرسة النظر» . بمعنى أن رواياتها تصور برودة وجفاف بعض الأشياء والأماكن والتصرفات العادية ، دون أي تدخل عاطفي أو فكري من قبل الكاتب .^(٢) وذهب آخرون الى تسميتها «أدب الملل» ، تلك التسمية التي يجعلها جان بولوك ميشال عنوانا لأحد فصول كتابه «المضارع» والذي يخصصه لمهاجمة ذلك التيار الأدبي .^(٣) أما المضارع فهو ، برأي الناقد ، «زمن الفعل الذي لا يعبر إلا عن الوجود ، ولكنه خالٍ من أي معنى أو دلالة» .^(٤)

تلك كانت آراء بعض المعارضين . أما مؤيدو «الرواية الحديثة» فيرون فيها «أدب الطليعة» و «مدرسة التغيير» وأحد أبرز تيارات تحديث الرواية بعد ركود طغى عليها منذ أواخر القرن التاسع عشر وبعد

الرواية الفرنسية الجديدة وتقنيات التجديد

* مصباح احمد الصمد

* استاذ مساعد في كلية الآداب والعلوم الانسانية . الجامعة اللبنانية - طرابلس

- ١

- ٢

- ٣

٤ - نفس المصدر . ص ٥٤ .

Ludovic Janvier, Une parole exigeante, p. 23

Pierre de Bois deffre. La Cafetière est sur la table, p. 15-18

Jean-Bloch Michel, Le Présent de l'indicatif.

ويكتب في النقد ، في حين اختط ميشال بوتور طريقا آخر متعدد الأوجه وغزير الانتاج .

من جهة اخرى ، فلقد نشأ تيار جديد حول جان ريكاردو ومجلة «تل كل» Telquel دعا نفسه تميزا «الرواية الجديدة الحديثة» (Neo- nouveau roman) أمام كل هذا التنوع والتباين يكون من الصعب ، إذا لم نقل من شبه المستحيل ، إعطاء تعريف محدد لهذا التيار الأدبي ، بل أكثر من ذلك ، فإن هؤلاء الكتاب يرفضون جميعا الاعتراف بوجود مدرسة مؤطرة ومنهجية . ولكن ذلك لا يمنع من وجود قواسم مشتركة ومبطلقات مقاربة . يقول ميشال بوتور :

«من وجهة نظر تاريخية ، أصبح لتعبير «الرواية الحديثة» معنى واضح نوعا ما : فهو يدل على مجموعة روائيين أصبحوا فجأة معروفين أكثر حوالي العام ١٩٥٦ . هؤلاء الكتاب ، المختلفون جداً ، كانت بينهم بالتأكيد نقاط مشتركة ، وليس من قبيل الصدفة أبداً أن تكون أعمالهم قد ظهرت من دار نشر واحدة . ولكن هذا التقارب لم يسمح أبداً بتشكيل مذهب أدبي موحد» . (١٧)

تلك «النقاط المشتركة» التي يتكلم عنها بوتور وغيره من كتاب الرواية الحديثة ، يحددها آلان روب - غرييه في إحدى مقالاته (١٨) ، ونلخصها كما يلي :

اجتذاب وسائل الاعلام المثوية والمسموعة لنسبة كبيرة من القراء . لقد هلّل لها واستبشر بها كثير من النقاد والأدباء من أمثال جان بول سارتر (١٩) ورولان بارت (٢٠) وجان روسيه (٢١) وغيرهم في فرنسا ، أو آخرون خارجها ، منهم مورتسون بول ليفيت (٢٢) وجون ستوروك (٢٣) في امريكا وكلاوس نيتزر (٢٤) وكورت ويلهلم (٢٥) في ألمانيا ، وكثيرون غيرهم في بلدان مختلفة .

ولكن ماهي «الرواية الجديدة» وفيما تكمن حدائتها ؟

١ - محاولة تعريف

تقول «محاولة» لأن كتاب هذا التيار لا يشكلون مدرسة أدبية متأسكة ومحددة النظرية والمنهجية والقوانين والأهداف بالرغم من المعرفة الوثيقة والصدقة التي تجمع بين أغلب القائلين عليه . فلقد ابتدأت رواياتها بالظهور عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية مع الغشاش (Le Tricheur) لكلود سيمون . و «الثرثار» للويس رينيه ديلافور سنة ١٩٤٦ ، ثم توالى غزيرة بين ١٩٥٢ و ١٩٦٠ لتتشعب اتجاهاتها بعد ذلك ، حيث أخذ البعض يكتبون مع استمرارهم في ميدان الرواية ، أعمالاً مسرحية أو شعرية ، كما فعل كلود سيمون وروبير بينجيه ، وكلود اوليه وهوبير اكوان ، وأضاف آلان روب غرييه الإخراج السينمائي الى نشاطه الأدبي . بينما كان جان ريكاردو يؤرخ لهذه الحركة .

(١٧) cf. Madeleine Chapsal, Les Ecrivains en personne, Ed. juillard, 1960

(١٨) Roland Barthes, Essais critiques. Ed. Seuil, 1964

(١٩) Jean Rousset, "Trois romans de la mémoire" cahiers internationaux du symbolisme, no 9-10, 1962

(٢٠) Morton Paul Levitt, From a new point of view, Ann Arbor University press, 1966

(٢١) John Sturrock, The french New Novel, Oxford University press, 1968

(٢٢) Klaus Netzer, Der Leser des "Nouveau Roman", Frankfurt am Main, Athenäum, 1970

(٢٣) Kurt Wilhelm, Der "Nouveau Roman", Berlin, E. Schimatt Verlas, 1969

(٢٤) M. Butor, Réponses à Tel Quel, n° II, 1962

(٢٥) A. Robbe-Grillet, "Nouveau Roman, Homme nouveau", La Revue de Paris, Sept. 1961.

الإنسان ما زال هنا ، بحواسه وخياله وفكره ، يتحرك في زمان ومكان محددين ويروي تجربة محدودة وغامضة في أكثر الأحيان ، ناقلًا لنا نظريته ونصرفته وانطباعاته .

هـ- لا تقدم الرواية الجديدة معاني وتفسيرات جاهزة : يرى هؤلاء الكتاب أن نظرتنا للأمور وفهمنا لها ما هما إلا جزئيان أو مبتوران . إذ أن «معاني العالم من حولنا هي جزئية ، مؤقتة وحتى متناقضة ، وهي دائما عرضة للمناقشة والخلاف . فكيف يستطيع العمل الفني أن يدعي إذن تقديم تفسيرات مسبقة ، مهما كان نوعها ؟»^(١٤)

و- الأدب هو الالتزام الوحيد الممكن للكاتب : القصة تبدأ عند كتابتها . والرواية تتكلم عن أشخاص ومواضيع ، ولكنها تعرض أيضا مراحل كتابتها . فهي مخاض وولادة مع كل آماتها وآلامها . ومع كل ما يرافق ذلك من تحضير وتجهيز وما يعترضه من مشقات وعوائق .

ز- الرواية ليست «قصة» فقط ، بل هي أيضا خطاب أدبي : ليس المهم فقط ما يروي . بل كيف يقال ، بآلة لغة وبأي أسلوب . الكلمة هي ما ترويه شهرزاد ، ولكنها هي شهرزاد أيضا . هي المغذاة والفاعلة ، تسرد أحداثًا وتنقل خطابًا ، وغاية هذا الخطاب أن يفعل ويفعل ، أن ينطلق من ذات تحد لديها ما يقوله لا ليدخل عقل وقلب قارئ فقط . بل ليثير لديه ما يقوله بدوره . هكذا تصبح «القصة نوعًا من التخاطب ، والقرائات المترتبة فيها عمداً هي دعوى مفتوحة للقارئ ، أي كان مستواه وثقافته . يُبدلي بدينه ويملاها بطريقة الخاصة .

أ- الرواية الحديثة ليست نظرية ولكنها بحث وتقريب ، فلم يكتب أحد من إعلامها أي مؤلف نظري إلا بعد أن ظهر له عدد من الروايات كشفت كل منها عن نظرة مختلفة إلى طريقة رواية الأحداث ونوعيتها والشخصيات والأماكن والأزمنة . جاءت النظرية إذن بعد التجربة ، وعندما ظهرت لم تكن موحدة القوانين .

ب- تابعت الرواية الحديثة التطور المستمر للنوع الروائي ، لم تدع إذن لمحو الماضي أو للتكرار لما قام به رواد كثيرون في عصور مختلفة ، ولكنها أرادت أن تشكل قفزة نوعية في هذا النوع الأدبي تكون حلقة في سلسلة التغيير المتواصل . ونذكر هنا أن جميع كتابها أبدوا إعجابهم وتأثرهم بكبار الروائيين من مختلف الجنسيات والمدارس من فيكتور هوغو إلى فلوير وبلزاك ومرسيل بروست وأندريه جيد وفرانز كافكا وإليم فولكتر وجيمس جويس وغيرهم ، كما عبروا جميعاً عن إعجابهم الشديد بألف ليلة وليلة .

ج- لا تهتم الرواية الحديثة سوى بالإنسان ووضعه في العالم بالرغم من تسمية البعض لها «مدرسة الأشياء» أو «مدرسة النظر» ، «الإنسان موجود في كل صفحة وفي كل سطر وكل كلمة وحتى لو وجد فيها كثير من الأشياء المصورة بدقة ، فهناك أولاً وقبل كل شيء النظرة التي تراها والفكر الذي يستعيدها والانفعال الذي يعيد تشكيلها»^(١٥)

د- تنشأ الرواية الجديدة ذاتية مطلقة : صحيح أن الكاتب لم يعد يدعى أنه «كلي المعرفة» ، بمعنى أنه يعلم كل شيء عن شخصيات القصة وعماد يدور حولهم وفي ذاتهم ، وصحيح أن البطل كاد يفقد هويته وحتى اسمه . الذي فقده بالفعل في قصص كثيرة . ولكن

(١٤) نفس المصدر .

(١٥) نفس المصدر .

٢ - بين الرواية الجديدة والرواية التقليدية :

قد لا تظهر من هذا العرض المقتضب أبعاد التغيير الذي أحدثه هذا التيار الأدبي في نظرة الكاتب إلى الرواية وموضوعها وشخصياتها وفي العلاقة بينه وبين القارئ. ولتبيان ذلك، علينا أن نلقي أولاً نظرة سريعة على الرواية التقليدية وكاتبها.

من المتعارف عليه أن الرواية هي «عمل خيالي ثوري، يعرض لنا أشخاصاً نفترضهم حقيقيين، يجعلهم يعيشون في محيط معين ويعرفنا على نفسياتهم ومغامراتهم ومصيرهم»^(١٦).

يتضح لنا من هذا التعريف الموسوعي للرواية - والذي يلتقي حوله أغلب النقاد الأدبيين قبل ظهور «الرواية الجديدة» - أن على الكاتب أن يعرف كل شيء عن الشخصيات التي يصورها لنا، أن يلم بكل ما يدور حولها، وأن يخصصها بطياع وسمات مميزة، وأن يلاحظها في أغلب مراحل وجودها ليتوصل إلى تحديد مصيرها. ذلك ما يفترض بالتالي أن القارئ سوف ينسجم مع ما يعرض أمامه ويعرف ما يحدث وأين وكيف، وسوف يسترسل مع مغامرات الأبطال. وهو يتأثر بها ويعجب فيقلد أو ينفر فيتعظ.

إن كل كتاب «الرواية الجديدة» يتفقون على معارضة هذه النظرة السائدة وينظرون بشكل مختلف إلى كاتب القصة وقارئها وأبطالها وموضوعاتها، إذ أن الرواية، بالنسبة لهم، هي «التعبير عن مجتمع يتغير، ويجب أن تصبح عما قريب تعبيراً عن مجتمع يدرك أنه يتغير»^(١٧).

أ - الكاتب

يتساءل آلان روب غرييه عن الدور الشائع للروائي التقليدي فيقول: «من هو هذا الروائي الكلي المعرفة والشمولي الوجود، الذي يتواجد في كل مكان وفي نفس الوقت، والذي يرى مظاهر الأشياء وخلفياتها، والذي يتتبع في الوقت ذاته تعابير الوجه وكوامن الفكر، والذي يعرف حاضر وماضي ومستقبل كل مغامرة؟»^(١٨)

وينتقل، بعد أن ينكر على الكاتب هذه القدرة الخارقة على معرفة الأشخاص والأشياء، إلى تحديد رؤيته للكاتب أو الروائي، قائلاً: «في كتبنا، هنالك على العكس، «رجل» يرى ويشعر ويتصور، رجل محدد المكان والزمان، توجهه عواطفه، إنسان مثلي ومثلث. والقصة لا تقدم أكثر من تجربته الشخصية، المحدودة وغير المحققة».

من كاتب خارق إذن، إلى كاتب عادي. وسواء أتكلم الروائي مباشرة أم بواسطة راو، فالمطلوب منه أن يتواضع من الناحية المعرفية. وهذا التواضع يعني أن يضع جانباً دور العارف بكل شيء أو الموجه للقصة وشخصياتها، وأن يتحول إلى ناقل تجربة أو حدث يقدم للقارئ بطريقة شبه سينمائية، أي بتصوير الحدث نفسه من زوايا مختلفة.

ولكن ذلك لا يعني أن كاتب «الرواية الجديدة» قليل المعرفة أو هزيل الثقاف. بل على العكس، فجميعهم يمتلكون ثقافة واسعة ويتمتعون باطلاع عميق على نتائج حضارات وشعوب مختلفة. ويجمع

LeRobert, Dictionnaire de la langue française, article: "roman."

Michel Butor, Répertoire II, p. 80.

Alain Robbe-Grillet, op. cit.

(١٦)

(١٧)

(١٨)

كما درجت العادة ، بل يطلب منه ان يكون مستكشفا للنص وللأحداث .

«إن سر سعادة الروائيين التقليديين وقرائهم ، كما تقول ناتالي ساروت»^(١٩) ، أنهم ركزوا مرادهم في نفس المكان الذي يقف فيه القارئ» . ثم تتابع : «بفضل تلك الوضعية المريحة يوحون لقرائهم بالشقة ، إذ يعطونهم انطباعاً بأنهم في منازلهم ، بين أشياء مألوفة . وهكذا يتولد شعور بالتعاطف والتعاون والعرفان بين القراء وذلك الراوي الذي يشبههم والذي يعرف ما يشعرون به . وبما أنه أكثر وعياً وانفتاحاً وخبرة منهم ، فإنه يكشف لهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم وعن الأمور والمشاكل المحيطة بهم ، ثم يقدمهم ، دون أن يتعبهم كثيراً أو يشط من عزائهم ، ودون أن يبطيء مسيرتهم أو يوقفها ، نحو ما يتوقون إليه عند بدئهم بقراءة الرواية : عوناً في وحدتهم ، وصفاً لأوضاعهم ، كشفاً عن خفايا حياة الآخرين نصائح مليئة بالحكمة ، حلولاً لمشاكل وتحولات يشكون منها ، إغناء لتجاربيهم أو انطباعاً بأنهم يعيشون حياة مختلفة .»^(٢٠)

هذا الدور القوي للكاتب يجعل من القارئ برأي الكاتبة وزملائها الآخرين ، مجرد منلق لأفكار ومناهج تمل عليه وتستحوذ على تفكيره وعواطفه فتجعله خاملاً كسولاً «يستسلم» مع رواية تدغدغ مشاعره ويكون أشبه بطفل يمسك بيد والده ليقوده في نزعة جميلة .

أما القارئ الذي ينشده «الروائيون الجدد» فيجب أن يكون مستعداً لمشاركة الكاتب مغامرة الرواية والاستكشاف والمناقشة ، عليه أن يدرك أنه ، مثل الكاتب ، شبيه بشهزاد التي تجهد في ابتداع كلام

النقاد ان ميشال بوتور ، مثلاً ، هو من أغنى الكتاب السفسرنسيين ثقافاً ، إن لم يكن اغنياهم على الإطلاق^(٢١) . كما أن أغلب هؤلاء الكتاب هم أساتذة جامعات وباحثون ومحاضرون مشهورون . وذلك أمر بديهي ، فدعوتهم الى تغيير الرواية وتثويرها تقتضي معرفة معمقة بها وتاريخها وتطورها وتأثيرها أو تأثرها ببقية الانسواع الأدبية وبمجممل الفنون ويتطور المجتمعات . ان غالبية رواياتها تطرح مواضيع حوار الثقافات وتلاقى الحضارات ، وذلك ما لا يستطيع القيام به سوى اشخاص واسمي الأفق والمعرفة .

أما دور هذا الكاتب ، فتحده ناتالي ساروت بأنه يكمن في «تجريد ما يشاهده من كل الأفكار المسبقة والصور الجاهزة التي تغلفه ، من كل ذلك الواقع الظاهري الذي يمكن لكل الناس ان يروه دون جهد وبأن يتوصل أحياناً الى شيء مجهول يبدو له أنه أول من يكتشفه ، وهو يدرك دائماً ، عندما يحاول توضيح هذا الجزء من الواقع الذي اكتشفه هو ، أن كل الطرق التي استخدمها سابقوه ، والتي أوجدوها لغاياتهم الخاصة ، لم تعد صالحة بالنسبة له ، فيلقي بها جانباً دونياً تردد ويجهد في إيجاد بدائل لها ، تتناسب والغاية التي ينشدها . وليس من المهم كثيراً إذا رأى أنها تخيب آمال القراء أو تزعجهم»^(٢٢)

ب - القارئ

ان تغير دور الكاتب وموقفه من الرواية ومن فعل الكتابة ذاته يقتضي تبديلاً في نظرته الى القارئ وتعامله معه . فهو لم يعد يقر باسترسال القارئ مع الرواية ،

(١٩) cf. Jean. Paul Sartre, in, Les Ecrivains en personne, Jan Roudaut, Michel Butor ou le livre future, Georges Raillard, Butor, et Michel Zeraffa, in La Grande encyclopédie Larousse, article Butor, Michel.

Nathalie Sarraute, L'Ere du Soupçon, p. 141-142.

(٢٠)

(٢١) نفس المصدر ص ١٣٣

(٢٢) نفس المصدر ص ١٣٣ - ١٣٤

ما بعد فترة المطالعة ، أو يبدأ بالاحرى عندما يضع الرواية جانبا .

نسارع الى القول أن المشاركة لا تعني الموافقة والتأييد . فلقد عنونت ناتالي ساروت كتابها الذي تعرض فيه نظرياتها حول الرواية : « عصر الريبة » (L'Ère du sourcon) وهي تقول في إحدى صفحاته : « بعد أن كان بطل الرواية يشكل الأرضية المشتركة التي يتفاهم من خلالها الكاتب والقارئ ، أصبح موضع ربيتها المتبادلة ، أصبح منطقة مدمرة يتجابهان فيها . هذا الموقف الراهن يجسد بشكل رائع كلمة ستندال : « لقد وصلت عبقرية الشك الى العالم » . ولقد دخلنا فعلا عصر الريبة » (١٣)

ج - البطل

نستشف من القول السابق أن بطل الرواية كان أحد مجالات التغيير التي إنطلقت منها الروائيون الجدد . والحقيقة أن تعديلا أساسيا قد لحق بمفهوم الشخصيات الروائية .

لقد اعتدنا أن نجد في كل رواية شخصيات محددة الملامح والتصرفات ، تتحرك كل منها بشكل متناسق مع خلفياتها الفكرية والاجتماعية والنفسية . ولطالما درسنا ، ولم نزل ، مزايا تلك الشخصيات وتفاعلها مع بيئتها وعصرها ، وانكب باحثون على التفتيش عن أسائها الحقيقية وعن واقعها التاريخي والجغرافي ، وتأثرنا بها فعاشت في مخيلتنا أسماء مثل جان فابجان وسيرانودوبرجواك و « بول وفيرجيني » وغيرهم .

كل ذلك لم يعد موجودا في « الرواية الجديدة » التي ترفض حتى اسم « بطل الرواية » ، لأن مجرد التسمية تعني أن الرواية تركزت وتمحورت حول هذه الشخصية الواضحة ، وهذا ما لم يعد ممكنا ، فعالمنا فقد مركزه منذ أمد بعيد وأصبحنا نعيش في زمن متحرك متغير لا يسمح بتشكيل أفكار واضحة ومحددة حتى عن شخصيات البشر . وحتى لو كان ذلك متيسرا ، فالرواية يجب ألا تقدمه جاهزا .

ينقذها من السيف المسلط فوق رأسها . لم يعد الوقت المخصص لقراءة الرواية فترة استرخاء ، ولكنه أصبح وقتا للتفاعل والتنقيب ، ويعود ذلك لكون الرواية معقدة متشابكة وكونها فقدت ترابطها وتسلسلها ، مما يستدعي جهدا كبيرا لتجميع شتاتها وفك رموزها وملء فراغاتها . وهذا ما يتطلب بدوره غوصا في أعماق اللغة التي كتبت بها ، مع ما يعترض ذلك من مصاعب وعقبات .

يتبادر الى الذهن هنا سؤالان :

١ - ألا يعني كل ذلك ان « الرواية الجديدة » تتوجه الى فئة قليلة من القراء ؟

٢ - وحتى لو توجهت الى جمهور عريض ، ألا يكون التنقيب والتفاعل اللذان تدعيهما نوعا من العيشية ؟

للإجابة عن السؤال الاول لابد من الاعتراف بأن جمهور القراء في فرنسا لم يكثر في البداية لهذه الروايات ، حتى أن بعضها لم يسجل سوى مبيع ثلاثين نسخة فقط خلال عام كامل . ولكن لم يطل الوقت حتى اقبل عليها القراء بأعداد كبيرة . صحيح أن جمهورها لم يعادل بعد من يقرؤون الروايات التقليدية وأن أساء كتابها باستثناء كلود سيمون - لم تصبح « شعبية » كاسم فرنسوا موريك مثلا ، ولكنها اتخذت خطا صار معروفا واكتسبت مؤيدين ومتابعين لنشاطها .

أما السؤال الثاني فجوابه لا يقتصر فقط على الرواية الجديدة وقرائها ، بل يتجاوزها الى كل عمل أدبي وفني ، إذ أن كل كاتب يتوجه بالضرورة الى قارئ ينتظر منه ردة فعل معينة ، من إثارة أو تشويق أو عجز وتعليم . ولكن ما تغير هنا أن الكاتب أصبح ينتظر من قارئه أكثر من ذلك ، أي أن يكون شريكا له في مغامرة الكتابة والبحث ، وأن يكمل ، إذا امكنه ذلك ، الكتاب الذي يقرؤه . دور القارئ يمتد إذن الى

هذه الروايات لا تقدم اذن معاني جاهزة يشوه القارئ يسر وطمأنينة ، بل تضعه في نوع من الحدة التي يتطلب اجتيازها كثيرا من الجهد والوعي واليقظة ذلك ما يدفع حتى بعض كبار النقاد عن انكار أي بعد فكري أو «موضوعي» لها : «لم تعد الرواية مبنية على فكرة أو طرح محدد ، حتى ولا على موضوع أو قضية»^(٢٤).

تلك مبالغة دون شك ، فال مواضيع موحدة دائمة وبكثرة ، ولكن في الاعياق ، واستخراج تسميه باستخراج الافكار من الشعر المصغر ، خاصة السريالي . نشير هنا على عجل أن إحدى غايات هؤلاء الكتاب التقريب بين الشعر والرواية وريتم المسافات التي تفصل بينهما .

أما نوعية الموضوعات التي تنطرق اليها «الرواية الجديدة» فهي كثيرة ومتنوعة ولكن اغنيها يتناول وضع الانسان المعاصر المرمي في متاهات المدن الحديثة مع كل ما يتفرع عن ذلك من ضغوطات ومتطلبات وريث فعل ، بينما تأخذ الرحلة مكان الصدرة ، الرحلة ككل مظاهرها وبمختلف الاتجاهات : جغرافية وتاريخية وعلمية وفنية وخيالية ، ذلك لأن الرحلة هي الموضوع الأكثر تجسيدا لاهداف الروائيين الجدد : هروب من واقع جامد واستكشاف لأفاق جديدة .

٣ - تقنيات التجديد

تتردد كلمة تقنية على السنة هؤلاء الكتاب للدلالة على المنهج أو المنظومة (Systeme) أو الآلية (mecanisme) التي يعتمد عليها كل منهم في بناء رواياته . ويتبين من هذه المفردات أن تجهيز الرواية وسردها يتطلبان بيانات ومخططات وتصاميم تمهيدية تشكل أساس البناء الروائي ومادته .

لقد فقدت الشخصية الروائية ملامحها ووحدتها وأحيانا اسمها . أصبحت «فتات شخصية» صعبة التعريف والتحديد . «فالشخصية الرئيسية هي «أنا» مجهولة أو غامضة ، والشخصيات الثانوية ليست سوى رؤى وأحلام وكوابيس وأوهام وانعكاسات أو ملحقات بها»^(٢٥) وجميع هذه الشخصيات عرضة لتبدلات غير معللة ، فهي تغير مظهرها وسنها ومهنتها وجنسياتها لدرجة أنها تصبح «أطارا فارغا لمحتوى متغير»^(٢٦).

ان رواية الشخص ، برأي روب غريبه^(٢٧) ، تنتمي الى الماضي ، الى فترة تميزت بسيطرة الفرد وتميزه ، بينما عصرنا الحاضر يتميز برقم التسجيل .

هل يعني ذلك ان «الرواية الجديدة» تهمل الناحية النفسية أو تلغيها ؟ ان القارئ هو من يقرر ذلك ويجيب عليه من خلال المعطيات والمعالم التي يقدمها له الكاتب .

٥ - الموضوع

كما حدث مع شخصيات الرواية ، فان موضوعها تفقد بدوره . والتفتت يستتبع التبعثر . فلالتقاط الفكرة ، أو الافكار ، التي يطرحها الكاتب ، علينا للممة فتاتها من مختلف جوانب وزوايا العمل الروائي . وهذه العملية ليست سهلة بالطبع . ذلك ما يعيدنا الى الجهد المنتظر من القارئ .

ان كثيرا من «الروايات الجديدة» تبدو كتشكيلات لافكار أو مواضيع دائمة التغير ، فالفكرة لم تعد تتوسع فيها حسب مسلسل زمني أو استنادا الى سببية نفسية أو وظيفية ، بل تستخرج اجزاؤها تباعا حسب قوانين التشابه والتناقض والتجمع والتبادل .

J. Théraval, N. Bothorelet F. Dugast, Les Nouveaux-romanciers, p. 83

(٢٤)

(٢٥) نفس المصدر ص ٨٧

Alain Robbe-Grillet, "Nouveau roman, homme nouveau", dans La Revue de Paris, Sept. 1961.

(٢٦)

R M Albères, Histoire du roman moderne, p. 416

(٢٧)

لان ما تسمح باكتشافه هذه المخططات التي استخدمها والتي لولاها لم اكن لاجرؤ على بدء طريقي ، يجبرني على تطويرها . ذلك ما قد يحدث منذ الصفحة الاولى ، وما قد يستمر حتى آخر تصحيح للمخططة .

هذا ما يراه بوتور الذي يبنى روايته «درجات» (Degres) على استعادة احداث عدة اسابيع في مدرسة ثانوية باريسية يرويها على التوالي ثلاثة اشخاص : استاذان وطالب ، وكل بأسلوبه الخاص ونظريته المختلفة الى الامور . اما عند كلود موريك وياتالي ساروت ، وخاصة عند روب - غرييه فمن الصعب جدا ، اذا لم نقل من المستحيل ، ان نجزم بوجود حقيقة واضحة محددة في أي من رواياتهم ، ذلك ان كلا منها تظهر وكأنها لعبة احتمالات او صور واشكال التغير والتبدل ، كتلك التي تظهر في آلة المشكال (Kaleidoscope) . وهم ينطلقون في ذلك من ان للحقيقة وجوها عديدة وانها تظهر في اعماق مختلفة .

ودراسة بنيوية للروايات الجديدة تظهر لنا :

- ان البنى التي تعتمد التسلسل الزمني للاحداث تترك مكانها لبنى تنطلق من توزيع الاماكن وتعدددها ، او من الاطلالة على مكان واحد من زوايا مختلفة .

- ان البنى المنطقية والتفسيرية تستبدل ببنى التبدل والتكرار والتبطين .

- انه ليس هناك من تنظيم للاحداث الرواية ، فبعض الروايات تظهر كنوع من الألعاب التركيبية التي يطلب الى القارئ ان يجمع اجزاءها المبعثرة ليعطيها الشكل الذي يراه مناسباً .

قد ينكر بعضهم اللجوء الى هذه التحضيرات ، حيث يقول الان روب - غرييه : «قبل الرواية لا يوجد شيء»^(٢٨) ، ويشرح ذلك في مكان آخر قائلا : ان دور الفن ليس تجسيد حقيقة او اجابة عن تساؤل معروفة مسبقا ، بل تقديم تساؤلات تظهر خلال كتابة الرواية»^(٢٩) . ولكن أكثرهم يعترفون بوجود تقنية تبنى عليها اعمالهم ، يتحدث عن ذلك ميشال بوتور في احدي محاضراته فيصرح : «لا استطيع البدء بكتابة رواية إلا بعد ان أكون قد درست تنسيقها خلال اشهر عديدة ، بعد ان اكون قد امتلكت مخططاتها . . . ثم ابدأ استكشافي مزودا بهذه الاجهزة ، بهذه البوصلة ، او بالاحرى بهذه الخارطة المؤقتة»^(٣٠)

سنحاول فيما يلي لقاء بعض الاضواء على الميادين التي تتناولها تقنيات التجديد .

أ - البنى المتحركة

اذا كان من النادر ان تقدم الرواية سردا او قصة متسلسلة ، فانها تظهر دائما كنسيج يحاك بعناية ودقة . فالروائي هو ، حسب قول ميشال بوتور^(٣١) ، «ذلك الانسان الذي يدرك ان بنية معينة تشكل عما يحيط به فيتبع تلك البنية ويحسنها ويدرسها حتى يصبح بإمكان كل انسان ان يقرأها» : لكل رواية بنية اذن ، ولكنها بنية لدنة ، قابلة للتشكيل والتعديل ، فالمخططات التي يضعها الكاتب ، على اهميتها ، لا تعني تقييدها له بشكل روائي محدد سلفا او سجنه ضمن هيكلية مسبقة ، التصاميم تحدد الاطار العام الذي يتحرك الكاتب ضمنه بناء على اكتشافات يولدها النص الروائي ويمكن ان تدخل احيانا تعديلات اساسية على ما قام بتحضيره في البداية . لايضاح هذه النقطة نعود لنكمل ما يقوله ميشال بوتور في محاضراته^(٣٢) : «أبدأ استكشافي ، وأبدأ مراجعتي ،

Alain Robbe-Grillet, op. cit.

A. Robbe-Grillet, pour un nouveau roman, p. 87

M. Butor. Intervention a Royaumont, in Essais sur Le roman, p. 19

M. Butor. Entretiens avec Georges Charbonnier, p. 43

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢) نفس المحاضرة ص ١٩٠

« السطيب يدق باب منزل الرهسين . تفتح والدتها .

تهض جرثود مثاقلة . تحد باب المضيق مفتوحاً
يا لعدم الانبناه . أم أن هناك لصاً ؟ تبسم . تقدم
نحو بقايا العيد .

مدام فيليس تفتح عينيها ، الرابيت العجور تصعد
السلم . . . »^(٣٣)

إن الشخصيات التي تتحرك هنا تسكن على التوالي
الأدوار : الأول والخامس والثالث من نمبي . وذلك ما
لا يكتشف بسهولة . ولكن الكاتب يعتمد ذلك
ليطلعنا ، ليس على شريط للأحداث . بل على أكثر
عدد منها بصورة متزامنة أو متوازنة .

٢ - السرد المتناثر : أو المتناثر : تعرض
الأحداث من وجهة نظر معينة ، ثم تستعاد من وجهة
نظر ثانية لتلتقي مع الأولى في نقطة ما من الرواية .
وهكذا دواليك . وهي بذلك تشبه الأشعة التي تأتي من
جهات مختلفة لتلتقي في نقطة واحدة . هذه الطريقة
تجسد عند ميشال بوتور في « درجات » (Degres)
وعند آلان روب-غرييه « في المتاهة » (Dans le
labyrinthe)

٣ - السرد المتقاطع : وهو شبيه بالسابق ، إلا أنه
يختلف عنه في كون نقاط الالتقاء مؤقتة ومتعددة ، أي
أن الأحداث تمر فيها لتتابع سيرها . لتوضح ذلك
نعطي مثلاً « معركة فرسالا » (La Bataille de
Pharsale) لكلود سيمون حيث يُعرض في البداية عدد
من المواضيع أو « المحركات » ، ثم تقدم منوعات
روائية تمر كل منها بهذه النقاط المحددة - معركة .

- إن النص المكتوب يصبح أهم من الأحداث
المروية .

- أن بنية الرواية تتضمن نصوصاً غريبة عنها ،
مأخوذة إما من كتاب آخرين أو من أعمال أخرى
للكاتب نفسه .

وهكذا فإن « الرواية الجديدة » لا نكتفي منا
بالوقوف في مكان مرتفع نرى فيه ما يجري حولنا أو
بسلوك درب يقضي بنا إلى مكان يقصده كاتب الرواية
التقليدية ، بل تدعونا إلى اكتشاف أحشاء الواقع ،
وذلك بوضعنا في طرقات وعرة ، كثيرة التشعبات
والمنعطفات لا يمكن لسالكها إلا أن يتأني ويتمهل
ويدرس ما حوله قبل أن يحدد اتجاهها أو يتوصل إلى
محطة .

ب - السرد

لقد أشرنا فيما سبق إلى الفرق بين السرد التقليدي
وبين الطريقة أو التقنية التي يعتمدها هذا التيار الأدبي
في عرض الأحداث ، ورأينا أن مجرد استعمال تعبير
« السرد » لا يتوافق مع توجهاته . ولكننا نعتمد هنا ،
مع تحفظ أصبح واضحاً على ما قد ينحو إليه من
تسلسل للأحداث والأزمنة ، لنبين فيما يلي الاتجاهات
الكثيرة والتعديلات الأساسية التي أدخلها الروائيون
الجدد على هذا المفهوم .

١ - السرد المتساوق أو المتوازي : أوضح مثال على
هذا الأسلوب هي رواية « عمر الخطاف » حيث نقلنا
ميشال بوتور بسرعة مذهلة ودون مقدمات بين أحوال
المبنى الذي تدور فيه الأحداث :

Michel Butor, *Passage de Milan*, p. 284-285

(٣٣)

(٣٤) يشرح ابن منظور فعل متل و فقول . « المتل من قولك : تسائل علينا الناس ، أي خرجوا من موضع واحد بعد أمر تباعاً متتابعين . وتسايل الفقه : حاد بعضهم في
أثر بعض . . . » لسان العرب ، جزء ٢٢ ، طبعة دار المعارف بمصر . نعتي بالتسايل إذن تتابع أحداث تروي كلاً أو جزءاً على أسس شخصيات مختلفة ثم يذنب نظريه
جميعها أو تكمّلها

محارب ، آلة ، قيصر ، رحلة - فيتولد عن ذلك « منظومة متحركة يعاد تشكيلها باستمرار حول نقاط ثابتة أو مراكز التقاء » .^(٣٥)

٤ - السرد المتناسخ : حيث تتعدد روايات قصة واحدة بشكل ينسخ بعضها بعضاً ويجعلنا نشك بحقيقة ما يجري ، ونتردد كثيراً قبل اعتياد رواية ما ، حتى إننا ننهي قراءة الكتاب دون أن نتأكد مما حصل بالفعل . هذه التقنية هي التي تعتمد عليها ناتالي ساروت في روايتها « مارنرو (Marnero) » التي تعرض لنا أحداثاً تروى بأربعة أشكال مختلفة ، ولعل هذا الأسلوب مستوحى من قاعات المحاكم حيث يتقدم كل من المحامين والشهود برواية تختلف عن الآخرين .

٥ - السرد المتناوِج : يتحدث كلود سيمون عن هذا النمط من السرد فيقول : « أن روايتي التي تحمل عنوان « قصة » (Histoire) يمكن أن تصور بشكل عدة خطوط متعرجة يختلف طول موجتها وتتراكم أحياناً فوق وأحياناً تحت خط متواصل . . . وهي تظهر وتختفي وتلامس وتتقاطع وتتداخل أو تتباعد . والخط هو في الواقع عبارة عن قوس بشعاع كبير ، عن دائرة تعود إلى نقطة انطلاقها (الراوي المستلقي على سريره) بينما تقصر فترات تناوِج الخطوط المتعرجة شيئاً فشيئاً ، وتتداخل ذراها أو تتلاحق بإيقاع يسرع شيئاً فشيئاً »^(٣٦)

٦ - السرد اللولبي : ينطلق الكاتب من نقاط محددة ليوسع بحثه الحلزوني عن خلفيات أحداث معينة . وسواء أكانت هذه الخطوط اللولبية ارادية - كما يحصل في رواية « استعمال الوقت » (L'Emploi du temps) التي يحاول فيها الراوي استرجاع أحداث

سنة من حياته - أم تواردية - كما هي الحال في « التعديل » (La modification) حيث يتوصل في نهاية رحلته إلى نتيجة مغايرة تماماً لما كان يتوقعه - فإنها تنطلق من مراكز متعددة ومتحركة ، وتتداخل وتتشابك لدرجة يصعب فصلها ، ولكنها تعكس مساراً فكرياً وبحثياً جديراً بالاهتمام .

٧ - السرد التشكيلي : وهو يعتمد على « وضع البطل » في مواجهة العالم الموضوعي وتصوير هذا العالم وهو ينهار أمام عينيه (واعيننا) ليعاد تشكيله بصورة مختلفة وبشكل أفضل^(٣٧) هذه التقنية هي التي يعتمد عليها كلود موريالك في « خرجت المركبة الساعة الخامسة (La Marquise sortit à cinq heures) » حيث يستعرض المارة في إحدى ساحات باريس ، مستشرفاً ما في أذهانهم وجاعلاً أفكارهم « نطفو وتلاقى وتذوب وتتمزق وتتكون من جديد كالغيوم في السماء »^(٣٨) .

٨ - السرد المتداخل أو المزجي : هنا تبلغ اللعبة أوجها ويصبح السرد خليطاً والقراءة إعادة تركيب . يشبه ميشال بوتور بعض نصوصه بـ « طبق سلطة » ولأن روب - غرييه بعض رواياته بـ « خلط ورق اللعب » . وكما يتبين من الاستعارتين فإن التقنية تكمن هنا في تجهيز نصوص عديدة ثم تفكيكها وتوزيع أجزائها على أقسام وفصول وصفحات الرواية ، ويفترض بالقارئ أن يحدد نهايات الجمل وبداياتها كي يتمكن من إعادة وصل أجزائها وتشكيل نصوصها . ذلك ما يعتمد عليه كلود سيمون في « صلاة الموت » (Le Libera) وكلود موريالك في « العشاء في المدينة » (Le Dîner en ville) وروبير بينجيه في

(٣٥) Claude Simon, "La Fiction mot à mot," dans Nouveau Roman, Hier, aujourd'hui, II, pratiques, p. 94.

(٣٦) من المصدر والمصحة .

Claude Mauriac, Le dîner en ville, p. 69

R-M. Aibérès. Métamorphoses du roman, p. 419.

(٣٨)

في نفس المقال : « إذا استطعنا أن تصور هذه الأماكن بدنسامينها ، إذا تمكنا من ادخال التقلبات والتداخلات والابعاد والسرعة التي تصل بينها ، فكم يصبح عملنا عظيما وعميقا عند ذلك »^(٣٩)

والشيء نفسه ينطبق على الزمن ، فكم هي اللحظات التي نعيشها صافية ، دون ذكريات أو أحلام أو توقعات أو حتى تخيلات وأوهام ؟ أضف الى ذلك الأزمنة الأخرى التي تجعلنا نعيش فيها ، ولو لفترات قليلة ، كتب التاريخ والروايات والمطبوعات والأفلام - تاريخية أم وثائقية أم خيالية - والأزياء وغيرها . « نحن لا نعيش انسياب الزمن أو مسيره ، بل نعيشه متقطعا . ان كل قطعة منه تبدو لنا موجهة ، ذات مدة معينة ، ومتوجهة نحو قطع أخرى ، ولكنها تبدو لنا دائما كقطعة ، ترسم فوق نسيج من النسيان أو عدم الانتباه . فلكي نستطيع دراسة الزمن في استمراره ، أي لكي نستطيع اظهار غفرانه ، من الضروري ان نطبقه على مسافة مكانية ، ان نعتبره مسارا أو مسافة »^(٤٠) .

لتجسيد هذه النظرة الى الزمان والمكان ، يعتمد هؤلاء الرواة مجموعة تقنيات نوجزها بما يلي :

- تقريب ومجاورة وموازة الأزمنة والأماكن ، وذلك ما يضع القارئ في جو متواتر ومتعدد الأماكن بدل وضعه أمام تسلسل زمني للأحداث ضمن مكان واحد أو أماكن متلاحقة .

- عملية الانتقال القوري من منطقة أو لحظة لأخرى ، أو من الواقع الى الخيال ، تتم دون مقدمات

« أحدهم » (Quelqu'un) وألان روب - غرييه في « الغيرة » (La Jalousie)

ج - الزمان والمكان :

نستخلص مما تقدم أن بنية الرواية وطريقة عرضها أو سردها تعكسان التقطع والتفتت والتنازع وهذا ما يمثله في نفس الوقت مفهوم الزمان والمكان اللذين لا يظهر منهما في الرواية سوى نقاط ، سوى لمحات أو معالم متفرقة متباعدة تحاول القراءة ان تعيد اليها التواصل والتوحد .

وبما أن « الرواية الجديدة » تنطلق من إعادة نظر بالمفاهيم الروائية ، فمن الطبيعي ان يتغير فيها مفهوما الزمان والمكان بدورهما ، متأثرين على الأرجح بنظرية اينشتاين النسبية من أن الزمن لا يجري بنفس السرعة في جميع الظروف . « المحيط الذي نعيش فيه لم تعد تنطبق عليه نظرية اقليدس بأن لكل مكان تميزه واستقلالته عن الامكنة الأخرى . فكل مكان هو ملتقى لأفاق أماكن أخرى ، هو نقطة ارتكاز لسلسلة من التقلبات الممكنة التي تمر في مناطق محددة أولا . في المدينة التي أسكنها توجد مدن أخرى كثيرة ، من خلال وسائط عديدة : لوحات الاعلانات ، وكتب الجغرافيا ، والأشياء المستوردة منها ، والجرائد التي تتكلم عنها ، والأفلام التي تصورها ، والذكريات التي يحملها البعض منها ، والروايات التي تجعلنا نتجول فيها »^(٤١) ، عدا عن وسائل النقل والاتصال التي تنقلنا اليها بسرعة فائقة .

هذا التداخل في الامكنة هو بعض ما يحاول الروائيون الجدد التقاطه وتصويره . يكتب ميشال بوتور

Michel Butor, l'Espace du roman, dans Répertoire II, p. 49.

(٣٩)

M. Butor, Essais sur le roman, p. 119.

(٤٠) نفس المصدر ص ٤٨ .

(٤١)

ودون استعمال أي من التعابير الطرفية الممهدة لذلك .
من النادر جدا أن نجد مثلا : « في ذلك الوقت ، أو
« حينذاك » ، أو « قبل ذلك » أو بعده ، أو أية كلمة
قد تحدد زمنا أو مكانا بالنسبة لآخر .

- إلغاء البداية والنهاية التي قد تسمح بتحديد دقيق
لأية فترة أو وصف مكاني .

- الإكثار من استعمال المضارع الذي يخلق نوعا من
اللازمنية ، ومن الحال والمصدر اللذين يضعان
الأحداث خارج إطار الزمن .

- جعل الأشخاص يتحركون في أماكن متشابهة
يصعب التمييز بينها ، وذلك ما يعكس الجور المتاهي
لكثير من المدن الحديثة .

لا شك أن القارئ قد لاحظ شيوع المفردات
الهندسية فيما سبق وذكرناه ، وذلك ليس صدفة بل هو
نابع من صميم توجهات هذا التيار الأدبي . « إن
محاولة تطبيق الصور الهندسية على المحيط الذي نعيش
فيه يسمح لنا بكشف كل خصائص هذا المحيط ، التي
لا نعيرها عادة الاهتمام الكافي .

هكذا نتوصل بمنهجية إلى اكتشاف كثافته وتوجهاته
وأشكال تأثير مختلف الأماكن على بعضها . . . ثم إن
كل انتقال من مكان لآخر يقتضي إعادة تنظيم للبيئة
الزمنية ، تغيرات في الذكريات أو المشاريع في ما يأخذ
مكان الصدارة ، ما يصبح أعمق أو «أهم» .^(٢٢)

د - التهافت والتوالد

إذا كان الزمن قد فقد وحدته واستمراريته وتحول
إلى فئات ، وإذا كان المكان قد فقد خصوصياته
واستقلاليته وأصبح نقطة وصل - أو جدار فصل - بين

أماكن أخرى ، فذلك لأننا نعيش في عالم مفكك يحيط
كل بلد فيه نفسه بأسوار منيعة من الاجراءات
والتعقيدات التي تمنع الدخول إليه إلا بعد صعوبات
واستثناءات ، ويعجهد كل شعب في نبش أساطيره
الخاصة وتكريس أبطاله الوطنيين ، ويكاد الإنسان
يسلم زمام أموره للآلة تجرى تحته وفوقه ، وتجري به
إلى مصير مجهول . في عالمنا هذا ، وفي الغرب منه
خصوصا ، طال التفكك أفراد المجتمع الواحد فتتوقع
كل منهم ما بين منزله وعمله ، حتى كاد التواصل
ينعدم بينهم إذا استثنينا بعض عبارات المجاملة أو
التعامل اليومي .

مقابل هذا الجو العام الذي تطرح فيه تساؤلات
كثيرة حول الماضي والحاضر والمستقبل ، يلعب الفن
عموما ، والأدب خصوصا ، دور التقريب والتواصل ،
تلعب الكلمة - مقروءة ومسموعة - والصورة - مرسومة
أو متلفزة - دورا حاسما في التأثير . هنا يطرح
« الروائيون الجدد » تساؤلا أساسيا حول موقع الرواية
ودورها ضمن وسائل الاعلام وأدوات الثقافة : هل
يمكن لنص متاسك أن يعبر عن هذا الواقع المتهاافت ؟
وهل يمكن لرواية متسلسلة أن تستمر في لعب دور مؤثر
بين وسائل الاعلام الحديثة بتقنياتها المتطورة وصورها
وشعاراتها وبافطاتها ؟

لقد كان للرواية التقليدية ، يجيب هؤلاء ، دور
لعبته في فترات طويلة من تاريخ الأدب . ولكنها لم تعد
اليوم كافية أو مؤهلة للمنافسة في ميداني تصوير الواقع
وتغييره . من هنا جاء تهافت النص كرمز لشكل روائي
تجاوزه الزمن أولا ، ولتصوير للواقع المفكك ثانيا ،
وللبقاء على دور الرواية كنوع أدبي ثالثا ، وللدعوة
القارئ إلى المشاركة في بناء نص مستقبلي جديد
أخيرا .

ذلك يقول جان ريكاردو : « ان على الكاتب ان يأخذ بعين الاعتبار العلاقات المعقدة التي يمكن لكل مقطع من النص ان يقيمها مع النصوص الأخرى . وهذا ما يخرجها من عزلته »^(١٣)

هـ - تقنية المصغرات

تعتمد « الرواية الجديدة » اذن الى تفكيك النص وتقنيته ، وعرض الأحداث بطرق وأساليب متنوعة ، وهي تهدف من وراء ذلك ، اضافة الى ما ذكرنا ، لتقديم الواقع المعاش بحركيته وغموضه ، ليس كحكاية ، بل كلفز يثير الفضول ويحفزه باتجاه التغيير والتحسين . من هنا نشأ فيها ما نسميه « تقنية المصغرات » (La mise en abyme) التي ترتبط من خلالها بالرواية البوليسية وتجعل منها نوعاً من متحف مادف يضم لوحات ونقوشاً وكتباً ويعرض أفلاماً وثائقية تساهم جميعها بالقاء أضواء على الأحداث والأماكن والأشخاص .

ستتطرق بعد قليل الى علاقة الرواية بالفنون الأخرى ، ولكننا نكتفي هنا بالقاء نظرة سريعة على طبيعة هذه المصغرات ودورها في الرواية .

أما هذه المصغرات فهي : الرواية البوليسية ، الكتب ، الرسم والتصوير ، المنحوتات ، المقطوعات الموسيقية ، الأفلام السينمائية والوثائقية . وأما دورها فهو أن تشكل « نماذج مصغرة ومشابهة » لبعض أو لكل ما تمثله الرواية ، وإن تكون عبارة عن معدات الاستكشاف وعن العبارات السحرية التي تسمح بايجاد طريق الخروج من المتاهة .

لقد شرح أغلب الروائيين الجدد طريقة استخدامهم لهذه المصغرات ، ولكن أكثر من ركز عليها هو جان

مهاقت اذن على طريق التوالد ، ليس تدميراً ، بل بناء . وليس ثورة بل تغييراً مُعقلاً لا يقتصر فيه الدور على الموهوب والعبقري ، بل يمكن لكل انسان أن يساهم فيه .

ولكن ، كيف يتوالد النص ؟

لقد لمحنا سابقاً الى أن الكاتب يستعيد موقفاً أو حدثاً أو حتى جملة ، ذكرها سابقاً ويعيد روايتها أو عرضها بتعديل بعض أجزائها . وقد يلجأ أحيانا الى اعتياد كلمة أو أكثر كنواة للنص ، ثم يقوم بتوليدها ، وذلك بابدال بعض حروفها أو تغيير أماكنها ، مع ما يفتح ذلك من آفاق أمام النص وتعديله وتطويره . قد يبدو ذلك لعباً على الكلمات للوهلة الأولى ، ولكن بعض هؤلاء الكتاب توصل فعلاً ، من خلال هذه التقنية ، الى ايجاد نصوص غنية وعميقة ومفيدة . أما طريقة التوالد الأكثر اعتياداً فهي اللجوء الى نصوص كتاب آخرين ، قدماء ومحدثين ، أجناب أو فرنسيين ، واقتطاع أجزاء منها يدخلها الكاتب ضمن نصه . ذلك ما يجعل القارئ يطلع على أكثر من نص في آن واحد ، وما يحفزه على الرجوع الى الكاتب المأخوذ عنه ، للاطلاع على النص الكامل ، أو لقراءة أعماله أو بعضها . ولكي لا يبدو الأمر وكأنه سرقة أدبية ، فإنهم غالباً ما يقدمون النص المقتطع بطريقة لافتة للنظر ، وذلك بوضعه بين معترضتين أو بطباعته بحرف يختلف عن الحرف المطبعي للرواية .

يتبين لنا اذن أنه ، قبل « الرواية الجديدة » ، كانت السمة الشخصية للإبداع هي الغالبة ، عند الكاتب ، وإن هذا التيار جعل ميدان الأدب بكامله ، أنواعاً وكتائباً وقارئاً ، يشارك في بناء الرواية ، ففتح النص أبوابه أمام النصوص الأخرى والاضافات الممكنة ، عن

« زجاجيات قابيل » تلك العلامة الكبرى التي نظمت كل حياتي خلال سنتنا هذه ». المصغرة الأولى تجعل المدينة مبنية على جريمة قابيل ، وذلك ما يحيلها جميعاً يكون فيه النار والماء عنصري التعذيب الاساسيين .

- فيلم وثائقي عن البحر الميت يعرض في إحدى دور السينما ويدير المدينة البريطانية مع سدوم وعمورة ضمن قائمة المدن الملعونة .

- مجموعة من ثلثي عشرة لوحة « تروي جميعها حكاية تيزيوس (Thesee) معروضة في متحف المدينة ، وهي توازي بالطبع بين ضياع البطل الاسطوري في متاهة كريت ووضع الشاب الفرنسي الذي يحمل اسم جاك ريفل .

- لوحتان أخريان ، منقوشتان بالصدفة على طاولة الغرفة التي استأجرها ، « مركب على شاطئ أوقيانيا وملك مخلوع ، هارب متدنثراً بمعطفه ، خلال غابة كثيفة مليئة بذئاب تلمع أعينها »^(١٥) .

ولا يخفى ما للصورة الأولى من دلالة اغترابية وللغاية من دلالة متاهية .

- أفلام سينمائية عديدة تصور روما والشواطئ اليونانية ومدناً شرقية منها اسطنبول ويعليك . منارات خلاص تلمع من بعيد .

- رواية بوليسية واقعية يطالعها الشاب ثم يتعرف ، بعد سلسلة من المصادفات ، بكاتبها - الذي يتعرض لمحاولة اغتيال - وبشخصياتها . يتكلم الشاب عن هذه

ريكاردو الذي خصص لها فصلاً من حوالي ثلاثين صفحة في كتابه « الرواية الجديدة »^(١٦) . وفصلاً من عشرين صفحة في « مسائل الرواية الجديدة »^(١٧) .

في خضم أحداث الرواية ، نجد الكاتب يتوقف أمام أحد الأعمال الفنية والأدبية التي ذكرنا ، محللاً أو عارضاً ، ونجد أن ما يقدمه العمل متساوق أو مواز أو متمم أو مناقض لما في الرواية التي ما نكاد نعود إلى مجرياتها حتى نطالعنا مصغرات أخرى تلعب نفس الأدوار ، وهكذا دواليك .

يرى جان ريكاردو في هذه التقنية نوعاً من النرجسية ، وفي القصص المعترضة التي تقدم من خلالها مآيلاً للشخصيات والأحداث ومعالم توجيه للقارئ .

لإيضاح هذه التقنية نعطي مثلاً من رواية ميشال بوتور « استخدام الوقت (L'Emploi du temps) »^(١٨) التي يحاول فيها شاب فرنسي ، بصعوبة كبيرة ، أن يسترجع أحداث سنة تدريبية أمضاها في مدينة إنكليزية . وتنشأ هذه الصعوبة في الدرجة الأولى عن أن تلك المدينة تبدوله عبارة عن متاهة هائلة تكثر فيها الحرائق التي تلتهم كثيراً من أبنيتها ، بخاصة مراكز التسلية فيها ، بالرغم من أمطارها التي تهطل بصورة شبه مستمرة وتزيد بالتالي من مظهرها المتاهي . ما يساعد هذا الشاب على استعادة الأحداث وتشكيل صورة واضحة عن المدينة :

- مجموعة رسومات على زجاج كاتدرائيتها تمثل قصة قابيل وهابيل والتي يقول عنها في نهاية الرواية :

(١٥)

J. ricardou. le nouveau Roman, PP. 47-74

(١٦)

J. Ricardou. Problemes du Nouveau Roman, PP. 171 — 190

(١٧)

Michel Butor, l'Emploi du temps, p. 295

(١٨) نفس المصدر ، ص ٥٢

لذلك أجد نفسي مجبرا على أن أوقف النظام الذي كنت أتبعه منذ شهر في حكايتي، مازجا بانتظام كل أسبوع مع ذكريات نوفمبر ملاحظات عن الأحداث الراهنة، النظام الذي كنت أتبعه مساء ذلك الاثنين الذي ادخلت فيه خلال الصفحات التي تستعيد الحريف البعيد بيانا عن سهرة اليوم السابق، خلال تلك الصفحات التي كنت أحاول فيها، لكني أوصّل جهد التوضيح والتفتيح إلى غايته، أن أزواج بقدر ما أستطيع من الأمانة، بين تنابح الأيام القديمة واستعادة أحداث أمسية الأحد، الأول من نيسان، عند آل بايلي، التي ظهرت مجددا خلالها نسخة «اغتيال بلستون» التي كنت قد أعرتها إياها منذ زمن طويل. بعد أن استعدتها من جيمس، تلك النسخة التي كنت اعتقد أنني اضعتها لأنني نسيت أنها لم تعد لها، تلك النسخة التي حلت مكانها أخرى توجد الآن على زاوية طاولتي اليسرى...»^(٤٨)

إن هذا جزء يسير من تشابك وتداخل الأحداث في ذهن الكاتب الذي يحاول بصعوبة بالغة أن يتلمس طريقه بينها، وأن يختار منها عادة ما يراه مناسباً. ولكن «الروائيين الجدد» لا يختارون بل يقدمون تجربتهم كما هي، بكل أبعادها وتعقيداتها، وهكذا، فإن الكتاب، بدل أن يقدم رواية لقصة، يجعلنا نعيش قصة الرواية. «فالرواية هي الميدان الظواهري المثالي، هي المكان الذي ندرس فيه بأية طريقة تظهر لنا الحقيقة أو يمكن أن تظهر لنا، ولذلك فإن الرواية هي مختبر القصة»^(٤٩).

الحكاية تتشكل إذن أمام أعيننا، وينقل عملية الشكل كاتب يتمتع إراديا عن لعب دور الواعظ أو

الرواية ذات العنوان اللافت للنظر - «اغتيال بلستون» (اسم المدينة) - فيقول : «لقد وجدت في كتابها سندا لي ضد هذه المدينة، ساحرا تعود على هذا النوع من المخاطر، واستطاع أن يمدني باصناف قوية من السحر ليساعدني على تحديها، ليساعدني على أن أخرج منتصرا من هذه السنة، من هذه الإقامة التي لم أكن أدرك وقتها كم هي خطيرة وسامة، وكم يتطلب التغلب عليها من جهد وصبر»^(٤٨).

نكتفي بهذا القدر من المصغرات التي تحويها الرواية - مثلها في ذلك مثل كل «الروايات الجديدة»، لاعتقادنا بأنها تعطي فكرة عن الدور الذي تلعبه، مشيرين إلى أن التركيز على الرواية البوليسية يعود إلى جو الغموض والخبرة الذي يكتنفها وإلى حفزها القاري للمشاركة في إيجاد الحل أو تصوره، وذلك ما هو من أساسيات «الرواية الجديدة».

و- قصة الرواية :

الرواية بحث واستكشاف، لقد ذكرنا ذلك مرات عديدة. ولكننا نستعرض هنا كيف تقدم «الرواية الجديدة» قصة ومراحل كتابتها. «الرواية ليست نتيجة البحث، بل هي البحث بذاته، يقول مؤلفو كتاب «الروائيون الجدد»^(٤٩)، «الرواية هي مغامرة الرواية، وعلى القاري أن يشترك بهذه المغامرة». والمثل الذي سبق وقدمناه يبين ذلك. نضيف هنا أن جاك ريفل يروي لنا مراحل وصعوبات الكتابة، ومن خلال ذلك يقص علينا الأحداث التي يتذكرها من سنته الإنكليزية. يقول مثلاً في بداية الفصل الثالث :

تموز، أيار

الثلاثاء أول تموز (يوليو)

(٤٨) نفس المصدر ص ٥٧ .

J Thoraval, N. Bothorel, F. Dugast, Les Nouveaux romanciers, p. 42

M. Butor, l'Emploi du temps, p. 133

M. Butor, Essais sur le roman, p. 9

(٤٩)

(٥٠)

(٥١)

« تدخل من الفتحة الصغيرة وانت تحتك بجانبها ، ثم ، حقيبتك المغطاة بجلد حبيبي قاتم ذي لون قنينة سميكة ، حقيبتك الصغيرة كرجل معتاد على الاسفار الطويلة ، تنتزعها بمقبضها اللزج ، باصابعك التي سخنت ... »^(٥٢)

عن ضمير المخاطب هذا ، يتحدث كاتب الرواية فيقول : « عندما يكون هنالك شخص تروى له قصته الذاتية ، او شيء عن نفسه لا يعلمه او على الاقل لا يعرفه بعد على مستوى الكلام ، عندها تروى حكاية بضمير المخاطب ، وتكون دائما حكاية « تعليمية » . . . وهكذا ، ففي كل مرة نريد ان نصور تقدما للوعي ، وتشكلا للكلام او لكلام ما ، يكون ضمير المخاطب هو الانسب »^(٥٣) .

نبقى قليلا مع هذا الكاتب لكونه ، مع جان ريكارو ، اكثر من توسع في شرح تقنيات « الرواية الجديدة » وننتقل معه الى الضميرين الآخرين :

« الـ » هو « يتركنا في الخارج ، والـ « أنا » يوصلنا الى الداخل ، ولكنه يكاد يكون داخلا مغلقا مثل الغرفة السوداء التي يظهر فيها المصور سلبياته . هذه الشخصية لا يمكنها ان تخبرنا ما تعرفه عن نفسها »^(٥٤) .

يعود بنا هذا المقطع الى المتكلم الذي يبدو عاجزا عن تلبية تطلعات هؤلاء الكتاب . ولكن ، لكونه ضروريا لحمل تجربة الروائي ومغامرة الكتابة ، فانهم يحاولون اخراجه من غرفته السوداء . وذلك بجعله متعددا ، مترددا ، مشتتا او تائها ، ويكون في كل الاحوال « جمعا بصيغة المفرد » بالاذن من ادونيس .

العالم او الفيلسوف ، مكتفيا بالبحث والتفتيش عن حقيقة ما ، وداعيا ايانا لمواكبته في تلك العملية . ومع ان بعض النقاد يرون ان « الكاتب لم يعد يكتب روايته بناء على تصميم مسبق ، بل ان الرواية هي التي تقود مؤلفها وتعمل عليه موضوعها وقصتها »^(٥٥) ، فذلك لا يقلل من اهميتها البحثية والاختبارية .

ز- الرواية والضمائر

من أبرز تقنيات التجديد في هذا التيار الادبي ، التغيير الذي طاول دور الضمير (بالمعنى اللغوي) في الرواية ، فلقد درجت العادة ، كما نعلم جميعا ، ان يكون البطل الحقيقي للرواية ضمير المفرد الغائب « هو » او « هي » الذي يمثل بالطبع الشخصية الاساسية في القصة التي تروى ، ونادرا ما يستبدل هذا الضمير بالمتكلم المفرد « أنا » عندما يتعلق الأمر بسيرة ذاتية أو بذكرات أو بتمصص الكاتب لشخصية بطله .

ولكن ، رغبة في صدم القارئ وحفزه على المشاركة من خلال ادخاله في صلب ما يجري ، فلقد تخلوا في الغالب عن ضمير الغائب ، وفي المرات النادرة التي ابقوا فيها عليه ، جعلوه متحركا مبها بشكل يجعل القارئ يتردد كثيرا قبل ان يقرر ، وأحيانا لا يستطيع التقرير الى أي من الشخصيات يعود هذا الضمير .

بدلا عن ذلك ، لجأ ميشال بوتور في « التعديل » (La Modification) الى ضمير المخاطب ، بادئا روايته كما يلي :

« ولقد وضعت قدمك اليسرى على المزلق النحاسي ، ويكتفك الايمن تحاول دون جدوى ان تدفع باب الفاطرة المزلق :

Pierre de Boisdeffre, Où va le roman ? p. 233

M. Butor, La Modification.

M. Butor, Repertoire, PP. 66-67

M. Butor, Essais sur le roman, p. 122.

(٥٢)

(٥٣)

(٥٤)

(٥٥)

لقد ارادت ان تثبت ان مفاهيم «الآدم» و«السر» الابداع «ليست وحدها القدرة على الانتاج الادبي . وان كل نوع ادبي وفني يحتاج . لكي يستمر ان تطور مستمر ، وان الادب والقن يجب ان يتجه نحو التلاقي والانتاج المشترك .

٤ - الرواية والقن :

« ان كتاب « الرواية الجديدة » هم صورة قس كس شيء ، يتأثرون بها يجرى داخلهم ومن حوصه . ويتنبهون لما يتغير في فكر وحياة معاصريهم . ويتألمون مع هذا التغير ، يحاولون ايجاد اشكال فنية جديدة . وآخذين بالاعتبار ما هو موجود وعاملين على تطويره »^(٥٦) .

هذا ما يقوله احد اعنف الخصوم الذي يحده مضطرا للتسليم باهمية هذا التيار الفنية والتجديدية . وسنحاول هنا ان نستعرض علاقته بقية التيارات الأدبية - مفردين للشعر مكانا مستقلا

أ - الرواية والرسم

يدرك هؤلاء الروائيون عمق الروابط بين الرواية والرسم ، او بالاحرى بين الرسم والكتابة شكل عام . واذا كان كل عمل روائي او شعري ، و حتى مسرحي ، يحرس ، منذ انقدهم ، على تكوين صور ذهنية لدى القارئ من خلال استعارة او كناية ومحدروما الى ذلك من صور شعرية وبائية . وذاك - كثير من الكتاب قد افسحوا في اعينهم الروائية او الشعرية

لقد سبق واشرنا الى روايات^(٥٧) يسرد فيها الاحداث اكثر من شخصية روائية تعرف كل منها عن نفسها بـ « انا » ، مما يوزع نفس الضمير عليها جميعا ويفتحه بالتالي امام احتمالات جديدة ، كما وجدنا ، احيانا اخرى^(٥٨) ، ان الاحداث تروى من قبل شخصية واحدة بأشكال متعددة ، مما يجعل من الـ « انا » مترددة وزئبقية ، ومرات اخرى^(٥٩) تنشت وتعمم لتصبح ضائعة مبهمه ، ولكن قابلة لاحتواء عدد لا متناه من الشخصيات .

هكذا يتعدل دور الضمائر ويتوسع ، اذ ان « لعبة الضمائر لا تسمح فقط بتمييز الشخصيات بعضها عن بعض ، بل هي ايضا الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا لكي نميز بدقة مراحل الوعي او الكمون التي تشكل كلا منها ، وان تحدد امكتهم بين الآخرين وبيننا »^(٦٠) .

« الرواية الجديدة » هي اذن حركة اعادة نظر بالرواية التي اعتدنا قراءتها ، اعادة نظر من مختلف الجوانب : الكاتب والموضوع والابطال والتقنيات ، جعلت من عملية الكتابة همها الاول وموضوعها المفضل ، جاهدة بذلك تحرير الرواية من قيود فرضت عليها لآمد طويل : وحدة الزمان والمكان والموضوع . ولما كانت عملية التحرير هذه قد طاولت ، من قبل ، الانواع الادبية والفنية الاخرى ، وخاصة المسرحية والشعر ، فان احد الاهداف الرئيسية كان تقريب هذه الانواع من بعضها وفتح الحدود التي تفصلها عن بعضها .

(٥٦) « درجات » (Degres) مثلا لميشال بوتور

(٥٧) « مارترو » (Martereau) لثانلي ساروت .

(٥٨) المتلصص (Le Voyeur) الان روب - غريبه .

(٥٩)

(٦٠)

M. R. F. Focus sur le roman, p. 123

Jean B. et Michel Le Présent de l'indicatif, p. 43-44

و « القصر » (Le palace) و « حكاية » (Histoire) والقصة التي سقناها ، ولدت من رغبة وحيدة ، هي ان « اخترع » شيئا من خلال بعض الرسوم التي احبها .

يشرح ميشال بوتور هذه العملية فيقول : « تحبني لوحة ما ، اعود اليها ، اريد ان انتزع سر قدرتها . ما الذي يعرفه هذا الرجل او اولئك الرجال ، واجهله انا ؟ ولذلك احاول ان اضع نفسي في مدرسته ، في مدارسهم ، حتى اجد بغيتي ، عندها يتملكني شعور رائع . وكل اكتشاف ، كل حل للعز يولد سحرا جديدا ، فالروائع فيها دائما يبايع لا تنضب ، ثم انني لا اتوصل لان اوضح لنفسي الاشياء الا عندما اوضحها للآخرين »^(٦١) .

ما ان تساءل : ولماذا الرسامون بالتحديد ؟ حتى يجيب الكاتب نفسه بكل تواضع : « ان الرسامين يعلمونني كيف ارى واقرأ وأؤلف ، وبالتالي كيف اكتب ، كيف اوزع المعالم على الصفحة ... اتنا نعيش اليوم عصر تنسيق الكتاب »^(٦٢) ولقد ذهب ميشال بوتور بتنسيق الكتاب الى درجة انه طبع « السهم المرتد » (Boomerang) بثلاثة ألوان : ازرق واحمر واسود ، ووزع الاسطر على الصفحات بشكل مستطيلات ومربعات ، وجعل الهوامش احيانا في اعلى الصفحة ، وحيانا في وسطها ، وحيانا في اسفلها ، مما يدفع بالقارئ الى تأمل شكل الصفحة قبل قراءتها ، ثم الى التوقف عند كلمات كتبت بالأحرف العريضة ، وعند أخرى كتبت بها يشبه خط اليد ، ويعد كل ذلك

مجالات واسعة لروائع الفن ، واذا كان كثير من الاعمال الادبية قد ارتبط عضويا بملوحات فنية^(٦٣) ، واذا كان تداخل جميع انواع الفنون قديما قدم الفن ذاته ، فان ما حاول الروائيون الجدد اضافته في هذا الميدان هو التفاعل العضوي بين الرواية والرسم ، بمعنى الاستفادة من تقنيات هذا الفن في طريقة الكتابة .

واول ما يلفت نظرنا بهذا الخصوص ان التعبيرات التي استعملت عند تفصيل تقنيات السرد تنتمي في غالبيتها الى مفردات الرسم . وهذه العبارات لم ترد بالمصادفة ، وانما بالتقاء الفنين :

« عندما يركز الروائي منصب الرسم او آلة التصوير في نقطة ما من البعد الذي يصوره ، فانه سيواجه كل مشاكل التركيب والتركيب والبعد التي يواجهها الرسام ، وسيكون عليه ، مثل هذا الأخير ، ان يختار واحدة من طرق عديدة ليعبر عن العمق ، واحدى اسهل هذه الطرق هي التنظيد الجلي لعدد من المشاهد الجلمدة »^(٦٤) .

التقنية اذن هي نفس ما يستعمله الرسام والمصور ، وهي ترافق كاتباً لرواية في جميع مراحل كتابته ، فكثيرا ما تكون اللوحة هي البداية ، اذ ان الان روب - غريه الف رواية « الاسيرة الجميلة » (La belle Captive) من خلال مجموعة من لوحات الفنان ما غريت ، بينما يحدثنا كلود سيمون عن بعض رواياته فيقول في مقدمة « اوريون الاعمي » (Orion Aveugle)^(٦٥) : « هكذا ولدت » طريق الفلاندر (La Route des Flandres)

(٦١) انظر بهذا الخصوص كتاب الدكتور عبد الغفار مكاوي « تصفية وصورة » (الشعر والتصوير عبر العصور) الصادر عن سلسلة « عالم المعرفة » ، الكويت ، العدد ١١٩ ، نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٨٧

(٦٢)

(٦٣)

(٦٤) ميشال بوتور ، نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

(٦٥) نفس المصدر والصفحة .

« يقوم الموسيقي بتأليف قطعه في قضاء ورقته المخططة ، فتمثل الخطوط الأفقية حريان الوقت ، بينما نحدد العمودية توزيع العازفين . والروائي ، من جهته ، يمكنه ان يوزع قصصا فردية متنوعة في مجسم مقسم الى طبقات ، مبنى بباريسي مثلا ، تكون فيه العلاقات العمودية بين مختلف الاشياء والاحداث مشابهة في تعبيرها للعلاقة بين الناي والكمان »^(٦٦) .

وإذا كانت آذاننا قد اعتادت سماع الآلات الموسيقية تعزف سوية لحنا واحدا ، فان هؤلاء الروائيين يحاولون جعل آذاننا واعينا تألف اشتراك عناصر قد تبدو متباعدة ، بل متنافرة ، للوهلة الاولى ، في اداء عمل روائي واحد .

هذا التأثير بالموسيقى هو في الواقع عودة الى اصول الفن للنهل من ينابيعها : أليست الموسيقى ، لحنا واغنية ، بالاضافة الى الرقص الذي يصاحبها ، هي أم الفنون ؟ او ليس الشعر سابقا للرواية والمسرحية في كل تواريخ الادب ؟

« من الناحية الظاهرية ، الموسيقى اقدم من الكلام المترابط ، ولقد استخدمت للتعبير قبله ، كما انها تبقى دائما الاداة التي تجعله ممكنا ، حتى ولو كنا نميل الى نسيان هذا الاصل . ان مجرد لفظ كلمة هو غير ممكن دون ادراك وامتلاك لصوت وايقاع ، دون تشكيل ومراقبة لاستمرارية وتميز رنة الصوت . هكذا يبدو الكلام المتراتب حالة خاصة من البنى الموسيقية . فالموسيقى تحفر مجرى النص ، وتبيء وتشكل ذلك المدى الذي يحدث فيه ويتحدد من خلاله شيئا فشيئا »^(٦٧) .

ندخل في النص وتفصيله . اليست تلك طريقة تأملنا للوحة وقراءتنا لها ؟ الا نتوقف عند الوانها وخطوطها العريضة قبل الغوص في تفاصيلها الدقيقة ؟

ولكن لوحاتهم الروائية - الفنية ليست سهلة القراءة ، نقول ذلك من قبيل التذكير ، فهم لا يقدمون لوحات لتأملها ونسترجل معها ، بل لنستكشفها ونسبر اغوارها . يقول رينيه - ماريل البيريس : « هادمين ، كما فعل سابقا في ميدان الرسم التكعيبيون وما قبل التجريديين ، كل تناسق اصطلاحي ربصري للوحة ، فان كتاب « الرواية الجديدة » ، الذين هم ورثو ما فوق الانطباعيين الانكليز ، واقارب الخياليين الفكريين للقصة العلمية المحولة الى لغز ، او الجماليين الذين يعيدون اكتشاف الفن الباروكي ، ليس من غاية مشتركة بينهم الا ان يجعلوننا نشعر بالتفاوت بين الرؤية والواقع ، بين الذوق العادي والجمالي »^(٦٨) .

ان ما يهمنا من هذا الرأي هنا ليس صحة حكمه على هذا التيار بقدر ادراجه للكتاب الذين يمثلونه ضمن مدارس للرسم قام حولها ، وما يزال ، جدل ودراسات عديدة . ذلك الربط بين « الرواية الجديدة » والرسم هو ما عرضناه بصورة مقتضبة وسريعة .

ب - الرواية والموسيقى

وللموسيقى ايضا دورها الكبير في تقنيات التجديد . ولا نعني بالموسيقى رنين الكلمة او نغم العبارة او ايقاع الجملة او غنائية بعض المقاطع او النصوص ، فتلك اشياء متلازمة والكتابة . ان ما نعنيه هنا ان التقنيات المستعملة في الكتابة والاداء الموسيقيين ، هي جد مناسبة للرواية :

R-M. Albérès. Métamorphoses du roman, p. 422

M. Butor. Répertoire II, p. 28

(٦٦)

(٦٧)

(٦٨) نفس المصدر ص ٣٣ - ٣٤ .

إخراج الفيلم السينمائي كمجموعة مشاهد يتألف كل منها من «لقطات» متلاحقة، وبين سرد الرواية المتقطع والمتداخل. وهناك تقنية شائعة في المونتاج السينمائي يحاول الروائيون الجدد الاستفادة منها واستخدامها في كتاباتهم. ما نعينه هنا هو «تداخل اللقطات»، أي تركيب صورتين أو أكثر فوق بعضها بشكل يجعلنا نرى عدة مشاهد في نفس الوقت، كأن يعرض الفيلم شخصا يتذكر أحداثا معينة، فيجعلنا نشاهد في وقت واحد الشخص المتذكر والوقائع السالفة.

العلاقة مع السينما هي إذن علاقة اصطیاد للدينامية. ونسجل هنا التقارب الكبير بين لفظتي سينما (Cinema) وحركية (Cinématique) أو حركي (Cinétique) في اللغة الفرنسية. مع الإشارة إلى التباين الأساسي الذي يصر الروائيون الجدد على وجوده - والموجود فعلا - بين فني السينما والرواية. فبالرغم من مجالات انتشارها الواسعة (في صالات السينما وعلى شاشات التلفزيون وأشرطة الفيديو) ومن تقنياتها الهائلة، تقدم الأولى حركية سلبية في أحيان كثيرة، أي أنها تضع المشاهد في موقف المتلقي من الناحيتين الفكرية والانفعالية، كما أنها تجعله يعيش في وهم الواقع، وأضعه، من خلال تسارع المشاهد وتلاحقها، حواجز عديدة بينه وبين فعل النقد أو التخيل. وكما رأينا، فإن «الرواية الجديدة» تجهد في جعل القارئ مؤثرا أكثر منه متأثرا، وفاعلا لا منفعلا.

«ان النجاح الذي حققته السينما يدفع بالبعض إلى التساؤل بقلق عن مستقبل الرواية. ولكن تفوق الفيلم

وهل لذلك علاقة مباشرة بالرواية؟ يسأل قارئ. نقول ان ما سبق يعطي أكثر من جواب على سؤال كهذا، ونقدم إضافة توضيحية من ميشال بوتور: «إذا كانت الرواية مختبرا للقصة، فإن الموسيقى هي المورد الذي نستمد منه أسلحة وأدوات أدب جديد»^(٦٩).

انطلاقا من مصدرية الموسيقى، تحاول الرواية إذن تطوير ذاتها. هذا ما جعل بعض الروايات الجديدة تتحول إلى برامج إذاعية، ليس تمثيلا، بل قراءة مصحوبة بمقطوعات موسيقية تؤلف خصيصا لها، أو يختارها الكاتب بنفسه من روائع الأعمال الموسيقية الكلاسيكية أو الحديثة. فرواية «حول مورتين» Autour de Mortin لروبير بينجيه، مثلا، أذيعت بالطريقة المذكورة، على حلقات، من راديو شتوغارت، كما ان عددا من أعمال ميشال بوتور أذيع من محطات مختلفة. وهذا أيضا ما جعل علاقة وثيقة تنمو بين هؤلاء الكتاب وبين مؤلفين موسيقيين وبين رسامين ومصورين، علاقة أثمرت في أحيان كثيرة، وما تزال، عددا من روائع الأعمال الفنية التي تشترك فيها الكلمة والصورة واللحن.

«ان الشعر ليس ترفا، والرسم ليس ترفا، لا، ان الموسيقى ليست تسلية الكسالى أو الهواة، فالموسيقى ضرورة لحياتنا، لحياة الجميع، ونحن بأمس الحاجة إليها اليوم»^(٧٠).

ج - «الريشة والكاميرا»^(٧١).

نلاحظ مما سبق ذكره ان هناك تقاربا لافتا للنظر بين تقنيات هذه الرواية وبين السينما، وبصورة خاصة بين

(٦٩) نفس المصدر ص ٣٥.

(٧٠) نفس المصدر ص ٤١.

(٧١) نتمتع هذا العنوان كترجمة حرفية لـ (Plume et caméra) من كتاب جان ريكاردو «تضايا الرواية الجديدة» Jean Ricardou, *Problèmes du Nouveau Roman*, PP. 69-79.

لعب دور ثلاثي بالنسبة لأدراكنا للواقع : ان نتعرف اليه ، ونكتشفه ، ونناقشه معه^(٧٧) والروائي الذي يرفض هذا الدور ، دون ان يدخل بعض البلبلة فيما حوله ، ودون ان يطلب من القارئ . جهدا اضافيا ، ان يعيده الى نفسه ويجعله يعيد النظر بعادات ومواقف اكتسبها منذ امد ، ذلك الروائي قد يصيب نجاحا سهلا وشهرة سريعة ، ولكنه يكون قد فشل في اخراجه من حالة ركود ، او على الاقل في فتح بعض النواقد التي يطل منها على آفاق جديدة .

يبقى ان هذا التيار ليس اول من انتهج التغيير سبيلا . فلقد حاول الباروكيون والسرورمانيون والسراليون وغيرهم تجديد اطر وتوجهات الفن والادب . ولكن التجديد الحالي طاول ، كما رأينا ، ميادين اشمل وأعمق .

« هذه الاعمال الغريبة . . . تريد ان تبين اننا نعيش في فترة اعادة نظر ، وان الرواية بدورها هي في طور اعادة نظر بذاتها »^(٧٨) .

٥ - بين الرواية والشعر

ننتقل في هذه المقاربة من مقالين لواحد من اكبر النقاد والسيماثيين الفرنسيين بين الخمسينات والسبعينات من هذا القرن ، وهو رولان بارت (Roland Barthes) والمقالان وردا في كتابه « الدرجة الصفر للكتابة »^(٧٩) Le Degre Zero de L'écriture بعنوان « كتابة الرواية » و « هل من وجود لكتابة شعرية ؟ » .

ليس مستمرا بالضرورة . فنحن امام « مشاهدة » فيلم او « فك رموز » كتاب . ومن المؤكد ان الجمهور العريض الذي تجتذبه السينما يتألف من اقلية مشاهدين تبهرهم الصورة ، ومن اقلية نشطة ، شبيهة بتلك التي يستحوذ عليها الادب ، تتقن تحليل الاشارات . ان مستقبل الرواية والسينما يكمن في تحديد نوعياتها ، او بالاحرى في التفتيش المتواصل عن تعريف بهما يكون دائم التغير والتطور »^(٨٠) .

نسارع الى القول هنا ان النقد الموجه للسينما لا يهدف باى حال الى التقليل من اهميتها الفنية والثقافية ، فذلك ما لا يستطيع احد انكاره ، وذلك على الأرجح ما جعل عددا من هؤلاء الروائيين يكتبون للسينما ، وما دفع بالان روب - غرييه الى كتابة عدد من رواياته على شكل سيناريوهات تتحدد فيها بدقة متناهية وضعية الشخص وحركاته ، وحتى الزاوية التي يجب ان تسلط عليه الكاميرا منها ، وما حدا به بعد ذلك ان ينصرف بشكل شبه كلي الى الاخراج السينمائي . ان المقصود هنا ان يحاول كل فن الاستفادة من تقنيات واتجاهات الفنون الاخرى ، وان يعمل في نفس الوقت على سد الثغرات التي يصعب عليها تجاوزها .

« عندما اصر على عدم تفضيل السينما او الرواية ، فذلك لانني اربأ بهما عن الاكتفاء بمهمة التصوير وأنني أريد لهما ان تكونا كتابتين خلاقيتين ، ان تكون كل منهما جديدة بحمل رسالة الفن »^(٨١) .

تطرح « الرواية الجديدة » نفسها اذن كعملية تفتيش عن تقنيات واشكال وآفاق روائية جديدة وذلك « بهدف

(٧٧) نفس المصدر ص ٨٨ .

(٧٨) نفس المصدر ص ٧٩ .

(٧٩)

(٨٠)

(٨١)

Michel Butor, Essais sur le roman, p. 10

Jean-Paul Sartre, in les Ecrivains en personne, p. 63

Roland Barthes, le Degre Zero de l'écriture, Ed. du Seuil, Paris, 1953

يبدأ بارت مقاله الثاني باستعراض الفرق بين الشعر والشعر في العصور الكلاسيكية ليخلص الى المعادلة التالية :

« اذا اسميت الشعر خطاباً أدنى ، اى مركبة الفكرة الاقل كلفة ، واسميت أ ، ب ، ج ، ملحقات خاصة للغة ، غير مفيدة ولكنها زخرفية ، مثل الوزن والقافية ومجموعة الصور ، فان كل مساحة الكلمات تندرج ضمن المعادلة المزدوجة :

الشعر = الشعر + (أ + ب + ج)

الشعر = الشعر - (أ + ب + ج)

ويستنتج عن ذلك بالضرورة ان الشعر يختلف دائماً عن النثر . ولكن هذا الاختلاف ليس في الجوهر ، بل في الكمية »^(١٧) .

هذا من وجهة النظر التقليدية ، ولكن المعادلة تغيرت فيما بعد ، بل ألغيت بكاملها مع تيارات الشعر المعاصر ، وبصورة خاصة مع بودلير (Baudelaire) ورامبو (Rimbaud) حيث « لم يعد الشعر نثراً مزداناً بزخرفات ومبتور الحرية ، بل أصبح صفة قابلة للتجزئة او الوراثة . لم يعد ملحفاً ، ولكنه اضحى مادة ، واصبح بالتالي قادراً ان يستغني عن الاشارات ، لانه يحمل جوهره في ذاته ، وهو ليس بحاجة للاعلان عن هويته »^(١٨)

هذا من ناحية الشكل ، اما المضمون فلقد تغير هو الآخر في نظر الشعراء المعاصرين . « في السفن الكلاسيكي ، كانت الفكرة الجاهزة تلد نصاً يعبر عنها » و « يترجمها » ... في حين ان الكلمات في

الشاعرية المعاصرة تنتج نوعاً من الاستمرارية الشكلية التي ينبع منها شيئاً فشيئاً ثقل فكري او شعوري هو مستحيل بدونها ، العبارة اذن هي الفترة الصعبة لحمل اكثر فكرية تتشكل خلاله الافكار وتنمو بفعل الكلمات . هذه الصدف الكلامية التي تولد منها ثمرة المعنى الناضجة ، تفترض بالتالي زمناً شعرياً ما هو بزمناً لصناعة بل لمغامرة ممكنة ، مغامرة التقاء العلامة والقصد »^(١٩)

قبل ان نتقل الى الغاية التي انطلقنا من اجلها من آراء رولان بارت ، نتوقف لحظة لنشير ان مقاله المذكور ينتهي بانكار قدرة الكلمات المجردة من فكرة وتقنية مسبقة على توليد الافكار ، « فعندما يعيد الكلام الشعري النظر « بالطبيعة » بشكل عام ، وذلك من خلال نسيجه فقط ، دون الاهتمام بمحتوى الخطاب ، ودون الانطلاق من خلفية فكرية معينة ، عند ذلك لا يعود هنالك من كتابة ولا يوجد الا أسلوب يلتفت الشاعر من خلاله ليجابه العالم الموضوعي دون المرور بأية صورة للتاريخ او للعلاقات الاجتماعية »^(٢٠) .

هذا الكلام لا يعني بالطبع ان بارت ينادى بالعودة الى الشعر الكلاسيكي فهو من اكثر المتحمسين للتجديد في العصر الحديث ، ومن القائلين ان ذلك الشعر يفترض بكل بساطة ان الطبيعة والمجتمع ينقادان بسهولة للعبارة ويستسلمان لها تصويراً وتعبيراً ، وخاصة اذا كانت موزونة مقفاة .

لا ضير في ان نتوقف برهة اخرى لنقدم مقطعاً ، ولو مطولاً بعض الشيء من مقاله « كتابة الرواية » ، نصل بعده الى الموضوع الذي نحن بصددده :

(١٧) نفس المصدر ص ٢٣ .

(١٨) نفس المصدر ص ٢٤ .

(١٩) نفس المصدر ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢٠) نفس المصدر ص ٤٠ .

هذا التلاقي ، دون ذوبان ، ومن خلال تقنيات التجديد ، هو الذي ينادى به ويطبقه عدد من الروائيين الجدد .

ما هو الشعر بنظر هؤلاء ؟

« ينطلق الشعر دائما من حنين الى عالم مقدس مفقود ، والشاعر هو ذلك الانسان الذي يدرك ان اللغة ، ومعها كل الاشياء الانسانية ، هي في خطر . ان الكلمات الشائعة لا تمثل ضمانة ، فاذا ما فقدت معناها بدأ كل شيء يفقد معناه . والشاعر يحاول ان يعيده اليها .

... الشعر اذن هو قبل كل شيء تلك الضمانة لاستعادة معاني الكلمات ولحفظ الالفاظ ، هو المفتاح السحري ، وتنتزع عن ذلك فضائل عديدة .

... والشعر الذي هو ناقد الحياة المعاصرة ، يقترح علينا تغييرها »^(٨١) لكونه حافظا لتراث اللغة والمجتمع ، متفاعلا مع حاضرها ومستشرفا لمستقبلها ، يبدو الشعر عنصرا ضروريا - واساسيا - في نسيج الرواية ، ولا يعنى بالشعر هنا تقديم مقاطع شعرية او شاعرية ، فذلك غير كاف ، عدا عن كون تلك المقاطع موجودة في اغلب الروايات التقليدية التي اعتاد كتابها ان يطلقوا العنان لخيالهم وشاعريتهم ليجعلوا القارئ يعيش بين الفينة والاخرى في جو من الايقاع والوزن والصورة تغنى فيه المشاعر وتراقص الكلمات .

« ولكن ليس فقط من خلال بعض المقاطع تستطيع الرواية - ويتوجب عليها - ان تكون شعرية (بل من

« سواء في تجربة الشاعر الصعبة ، وهو يتحمل مسؤولية التصدع الاخطر ، تصدع اللغة الاجتماعية ، او في كذب الروائي المطلوب منا تصديقه ، فان الصدق بحاجة هنا الى علامات كاذبة لكي يستمر ويستهلك . ان الكتابة هي نتاج هذه الازدواجية ومنبعها . وهذه اللغة الخاصة التي يحمل استعياها الكاتب مهمة ظافرة ولكن مراقبة ، تنطوي على نوع من العبودية الخفية في خطواتها الاولى ، والملازمة لكل مسؤولية : الكتابة ، الحرة في بداياتها ، هي القيد الذي يربط الكاتب بتاريخ هو مقيد بدوره ، لان المجتمع يطبعه بعلامات الفن الواضحة التي تجعله مرتبنا أمره »^(٨٢) .

هكذا يتوضح موقف رولان بارت من الكتابتين ، الشعرية والروائية ، بحيث يتحدد لهما دور مشترك في عملية التجديد اللغوية والاجتماعية والتاريخية ، مع احتفاظ كل منهما بخصائصه وتميزه . ولكن مثلما تنوع النظرة الى النوع الادبي الواحد وتحدث فيه تعديلات وتغييرات داخلية ، كذلك يحصل بين الانواع المختلفة التي تتباعد وتتقارب وتتداخل حسب التيارات والمدارس فلقد عرفنا الشعر المنشور والحر والمرسل ، كما عرفنا النثر الشعري والمسجع ، ولطالما تكلمنا عن نفحة شاعرية عند روائي ونعتنا نصا او مقطعا بالشاعري ، وكما حاولنا تجميع خيوط قصة من بين ابيات قصيدة او استخراجنا رواية من مجموع قصائد ديوان ، ثم كم من حكايا رواها الشعر صراحة تأريخا او حكمة او رمزا او ملحمة او اسطورة .

ولكن ذلك لم يمنع الشعر من البقاء والرواية من الاستمرار ، لقد تلاقيا وتداخلتا مع بعضهما ومع بقية الفنون دون ان يفقد كل منهما هويته .

(٨١) نفس المصدر ص ٣٢ .

(٨٢)

لحظة ، سوى انسان موجود في موقع مميز تمر من خلاله الاشياء لتتحول ألفاظا وكلمات»^(٨٣) .

قد نكون ، في هذا المقال ، اكثرنا من النظريات دون ان نقدم امثلة تدعمها وتخفف من جفافها في نفس الوقت . ولكننا كنا مجبرين على ذلك بحكم عمومية المواضيع المطروحة . اما هنا فسوف نعرض بعض الامثلة ، التي قد تكون مطولة بهدف اعطاء صورة واضحة عن شاعرية النص الروائي - وليس بعض مقاطعه فقط .

نبدأ من « عمر الخطاف »^(٨٤) .

« كل ما يبغيه ان يوقف كل شيء (الحديث والمجاملات والنكات والاصوات) ، ان يدفع الحشد كالفطير ، القاعة بما فيها ، الجدران والاثاث والراقصون ، تبدو كأنها تغيب في مسافة رمادية ، تنطفئ كل الاصوات ، وحدها انجيل تبدو مشمسة في فستانها الزاهي .

دوي الباب المصفوق يدهشه وكأنه ليس المسؤول عنه يتكلم جيران :

« ما اسم ذاك العاشق الوسيم ؟ »

يحمر وجه فيولا خجلا ، ومارتين تضطرب ايضا .

« متعبتان حتى انها لا تستطيعان الكلام » .

« الفساتين التي تجر على درجات السلم في النور الخافت .

(تعتمد هنا نفس طريقة كتابة الروائي . نتابع في الصفحة ذاتها)

الاسلوب بشكل عام) ، اى بالتحديد مما يتيح لنا ان نتعرف الى كاتب ، ان نميزه ، من مبدأ الاختيار الذي يعتمد منه ضمن احتمالات اللغة ، من المفردات ، من القواعد . . . والاسلوب لا يتحدد فقط من طريقة اختيار الكلمات وتنسيقها داخل الجملة ، بل تلك التي تجعل الجمل تتوالى ، والمقاطع والوقائع . على كل مستويات ذلك النسيج الهائل الذي هو الرواية ، يمكن ان يوجد الاسلوب ، اى الشكل ، او بالاحرى اختيار الشكل وتحديده ، النظم ، العروض . هذا ما نسميه في الرواية الحديثة بالتقنية»^(٨٥) .

يعيدنا هذا القول الى حيث بدأنا ، الى تقنية الرواية ، ولكن العودة توصلنا الى اكتشاف رائع : ان كل تقنيات السرد التي سبق وتحدثنا عنها هي تقنيات لنظم الرواية ، لبنائها الشعري واعادة النظر بالبنى والمفاهيم الروائية تهدف الى اغناء موضوعات الشعر ، باكتشافات العلوم الحديثة ، والى تنوع بنائه انطلاقا من الخطوط والاشكال الهندسية ونظرية النسبية ، ثم الى اغناء الرواية بالشعر ينساب فيها وجعلها وسيلة لا تقاوم الادب من ثغراته واخراج الروائي من صومعته وايقاظ القارئ من سباته . تطوير من داخل الانواع الادبية يطمح الى تطوير العلاقات الانسانية والاجتماعية .

« ان الرواية الشعرية هي ذلك الشيء الذي يدرك الواقع نفسه من خلاله فينتقد ذاته ويتغير . ولكن هذا الطموح مصحوب بالتواضع ، لان الروائي يعرف ان الهامه لا يمكن ان يأتي من خارج العالم ، وتلك قناعة دائمة عند الشاعر الاصيل . انه يعرف ان الهامه الحقيقي هو العالم في طور التغير ، وبأنه ليس سوى

(٨٣) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٨٤) نفس المصدر ص ٣١ .

(٨٥)

احتكاك العنق بالغطاء (هذه الذقن يجب ان تحلق)
تعد على سلطان النوم ؟ وتجاويد البيجاما . آه . لم انت
بعد . لم انت بعد .»

«كان للضفة الاخرى مظهر صحراء رملية ، ترسو
عليها مراكب محملة برجال مقيدين . فلك الحراس
قيودهم ، اوثقوا اذرعهم جيدا وراء ظهورهم ثم
انزلوهم . كانوا يحاولون التخلص ، ولكن المراكب
تركهم . . .»

لقد اوردنا هذا النص ، رغم طوله كاستشهاد ،
لنئين من خلاله امرين :

- الاول اعطاء صورة واضحة بعض الشيء عن
شاعرية الرواية باكملها ، وليس مقاطع منها ،
فالقصة - او بالأحرى القصص - التي اقتطفنا أجزاء
منها لا تقدم بشكل مباشر ، بل تختبيء وراء شاعرية
الكلمة التي تجربنا على الدوران حولها والتعمق فيها
قبل استشفاف الاحداث التي تتم عنها . وهنا لا بد من
إيراد ملاحظة أساسية : ان ترجمة النص الشعري
لا يمكن الا ان تفقده كثيرا من خصائصه اللغوية
والبنوية . فمهما حاول المترجم أن يكون أميناً ، يجد
نفسه مضطراً ، بحكم نقله للنص من بيئة لغوية الى
أخرى ، أن يتجاوز الكثير من بلاغته ، وخاصة من
الناحية اليدوية . ونحن نهدف من وراء هذه الملاحظة
أن نقول أن شاعرية النص المترجم - سواء ذلك الذي
نحن بصدد أو أي نص آخر - لا يمكن أن تظهر كاملة
لأنه يفقد كثيرا من جلالاته بتغيير هويته اللغوية .

- والأمر الثاني ينطوي على عودة الى الوراء ، الى
تقنيات السرد الروائي التي يظهر النص المذكور بعضاً
منها . فهو يبدأ بوصف حالة أحد شخصي الرواية
الذي يستيقظ من حلم جميل ليخرج غاضباً . يدعه
يفادر ويعود ليلسلط الاضواء على محادثة بين شاب

« وصل قارب الشمس الى مستنقع ملتهب حيث
كانت طيور كبيرة تغني بكلمات بشرية . كانت وجوهها
شبيهة بوجوه البشر ، وكانت لها اذعة متفرعة عن
اجنحتها ومنتهية بأيدٍ حقيقية تصفق لتواكب وقع
الشعر .

« يجب الانقوض فيليكس ، ولا الحدود .»

« وتدخل فيولا بمخطى حريرية كبيرة ، ممسكة
فستانها وكأنها تنهياً للتحية ، وتهايل وهي تعض على
شفتيها لكي لا تنفجر ضاحكة . جيران ، باتزان مرح ،
يرجوها بحركة من يده ان تتوقف . ارتعاش . ثم
همس :

- يا الهي ، انه الفواق .

- لقد نال كل منا ما يستحق .

- لا تتكلم بصوت مرتفع .

- هل آتيك بكأس ماء ؟

- رفض يصاحبه اختناق . ضحكة مجنونة .

- « هيا ، نامي ابتها الأميرة ، فسوف نهدئين في
سريرك » .

« وكان علي أن أفقد مرساتي ، لأنني أصبحت بعيداً
عن الجسر ، وأن أسمع حفيف السمك النائم تحت
قاربي » .

- « سمع فيليكس صوت باب الراهبات يقفل ،
ووقع أقدام الرهبان وهم ينصرفون . ولكنه لم يقرر فتح
جفنيه ، أو إخراج يده في البرد ليضيء المصباح .
يداعب الصفحة المطبوعة ، الساخنة بملامسة غطاء
السري . يمد قدميه المراثيتين من تعبها ، ويجلا
وسعيداً في نفس الوقت : كم قد تكون الساعة الآن ؟
ولماذا يفتح هاتين العينين المخباتين جيداً في مغاريتين من
المحمل المشع ؟ لماذا يحرك راسه عندما يكون مجرد

ان امعان التفكير في ما يقوله بوتور يبين ان التناقض غير موجود على الاطلاق ، اذ ان «التجلي» هو نتيجة للكتابة وليس لها . فالكتاب لا يبلغه الا «بمنهجية» . تناغم فنونا عديدة وترفدها خلفية ثقافية واسعة تمكنه من «نظم» احداث روايته بعبارة تستخرج من أعماق كنوز اللغة ، ثم هندستها وتوقعها أنغاما تتجاوب وتتكامل لتؤلف سمفونية الكلمة واللحن والصورة ، أما معرفة الاحداث والشخصيات وكوامن النفوس ، فلقد حلت مكانها معرفة اللغة وتقنيات الكتابة . يوضح رولان بارت هذه النقطة فيقول :

«الادب هو لغة ، ووجوده هو في اللغة ، واللغة في الاساس ، قبل كل الانواع الادبية ، هي منظومة معان : فهي تنطوي ، قبل ان تصبح ادبا ، على مواد خاصة (الكلمات) ، وعلى عملية تفكير وانتقاء وتصنيف ، وعلى منطق خاص . . . وزيادة على ذلك فان هذه الكلمات البسيطة هي مدلولات بحد ذاتها ، ولها تاريخ ومحيط . أما معانيها فهي لا ترتبط بالشيء الذي تدل عليه بقدر ارتباطها بكلمات أخرى ، قريبة ومختلفة في نفس الوقت ، وفي هذه المنطقة بالتحديد منطقة «ما فوق المعنى» ، أو المعنى الثانوي ، ينشأ الادب ويتعرض»^(٨٧).

«منطقة ما فوق المعنى» هذه هي التي يحاول الروائيون الجدد ولوجها ، ولكن ليس فقط من خلال مدلولات الكلمات ، بل من خلال الاسلوب والبنية الروائية ايضا . واذا كان تعبير «ما فوق المعنى» يذكركمنا على الفور بالسريالية ، فان ما ذكرناه سابقا يظهر البون الشاسع بين التيارين ، فنحن هنا بعيدون عن التلقائية واللاوعي المتحررين من رقابة العقل وعن النفسانية التي يرخي لها السرياليون العنان . ربما نجد التقاء في

وفايتين ما زالوا في الاحتفال الذي ما يلبث ان ينتهي بسماعنا وقع أقدام الخارجين . انتقال بعدها الى حلم يعيشه شخص آخر ينام في طبقة أخرى من المبنى . ثم مواكبة اثنين من المحتفلين الى منزلها ، فالانتقال مرة أخرى الى حلم يعيشه شخص آخر ، ثم الى تصوير شخصية تتردد بين النوم واليقظة ، تعود بعدها الى الحلم الاول . واذا ما اكملنا وجدنا قفزات كثيرة مشابهة لا يفصل الواحدة منها عن الاخرى سوى مجال سطر يترك فراغا . وهذا النوع من السرد هو ما اسميناه سابقا بالتوازي .

نعود الى شاعرية الراوي لنلقي ، مع ميشال بوتور ، بعض الأضواء على كيفية التوصل اليها :

«اذا ما توسعنا بمعنى كلمة أسلوب ، وهذا ما يفرض نفسه من خلال تجربة الرواية المعاصرة التي تعم الكلمة وتأخذها على كل المستويات ، فمن السهل ان نبرهن اننا باستخدامنا لبنى قوية بما فيه الكفاية ، شبيهة بما يدخل في نظم الشعر ، وشبيهة بالتصاميم الهندسية والموسيقية ، ويجعلنا العناصر تناغم بمنهجية مع بعضها البعض حتى تتوصل مجتمعة الى حالة التجلي التي ينتظرها الشاعر من نظمه ، نستطيع ان ندخل بشكل كامل ، حتى ضمن وصف الاشياء العادية أو النافذة ، قدرات الشعر الخارقة»^(٨٨)

هل أوصلنا هذا الرأي الى تناقض؟

الم نقل سابقا ان هؤلاء الروائيين لا يقرون المعرفة الشمولية للكتاب ولا الالهام الشعري او الفني ، وان هذا ما جعلهم يلجأون الى التركيز على التقنية وعلى الصناعة ؟ فكيف يحق لاحدهم ، والحال هذه ، ان يتكلم عن «التجلي» وعن «قدرة الشعر الخارقة» ؟

M. Butor, Essais sur le roman, P. 16

Roland Barthes, Essais critiques, p. 164.

(٨٦)

(٨٧)

منها ، نادرة ، أنيقة ، ألوانها وألفها أوضح ، أنغامها أجمل وأشجى وكأنها معزوفة بآلات عديدة ونادرة . .
لأنها اللحظة المناسبة للتوقف . عليه ان يرتاح قليلا .
لقد بلغ مرحلة جديدة»^(٨٨)

يعرض لنا هذا النص إحدى لحظات العشق والغزل والمداعبة بين الروائي - الشاعر والكلمات ، وحالة الوجد التي يعيشها وهو يسبح في اعماق اللغة ، ثم النشوة التي يبلغها عندما يشعر أن الكلمات اسلمته زمامها . الشعر كتعبير يصبح هنا تعبيرا عن حالة الكتابة مع ما يكتنفها من قلق وتردد واضطراب ولذة وعطاء .

«يستجمع كل قواه ، يحاول أن يبعد تلك الموجات الشريرة التي تبشها . . وفجأة يظهر في تلك الكلمات ، في تلك الجمل انتفاخ صعب تبينه . . يحقق برق ، يصمم ، يتفحص صوته . . . ولكن الكلمات ، ما ان بلفظها ، حتى تخف وتصغر وتنطير مثل فقاعات تنفخ في هواء كثيف . . .

«لقد أضاع كل شيء ، إنه وحيد ، محروم ، لقد جذب خارج ذلك الحصن الذي كان يحتمي به ، خارج ذلك السور القوي التي كانت تشكله اعماله ، كتبه ، مقالاته ، اسلوبه القوي ، المترابط ، المحكم ، جملة المصقولة كمدافع برونزية ، دقيقة الرماية تخيف المهاجمين .

«ولكنه قرر أن يخرج . لقد قبل التحدي وهو يتقدم وحيدا في أرض مكشوفة . . .»^(٨٩)

دور الحلم في عملية الكتابة ، ولكن الاختلاف واضح حتى في هذه النقطة ، اذ يرى روائيونا ان الحلم جزء من الواقع^(٩٠) ، جزء مهم دون شك ، ولكنه ليس اساس الواقع او تجسيده كما يعتقد فرويد والسراليون من بعده . .

أكثر من كونها فعلا للحلم أو للاوعي في اللغة ، الكتابة هي فعل ينطلق من الواقع ، بشقيه ، اليقظة والحلم ، الوعي واللاوعي ، للتعلم في معرفته ومن ثم لتغييره وتحسينه . وهذه الكتابة هي ، كما رأينا ، الرواية الشعرية ، أو الشعرية ، بتعبير أدق ، أي التي تعتمد بنى الشعر وأنغامه وروحته ، حتى ولو لم تكن تروي أحيانا سوى عملية تشكل النص :

«تنبسط الكلمات ، يشتد الخيط الذي يخترقها ، تهتز . . . يصغي الى رنينها ، الذي ينتشر . . وحيدا معها ، ينتصب هو بدوره ، خارج المادة الرخوة والباهتة التي كان منغمسا فيها ، تسحره حركاتها ، يرتبها ويغير أمكنتها لكي تشكل زخارف منقوشة بعناية أكبر . . . يتسع رنينها ، إنه الآن موسيقى ، غناء ، سير موقع ، تتوالد الايقاعات بعضها من بعض ، كلمات كان شيئا يجذبها تأتي من كل حذب وصوب . . . يتبع حركاتها مسحورا ، تصعد ، تهبط ، تنطلق من جديد وتهبط . يوجهها بحذر . أنظر إليها الآن وقد تعودت ونخضعت طائعة لايقاع معين . . . تحت الحظي ، تطير . . ينتظر اللحظة التي تصل فيها الى ارتفاع محدد ثم تعود الى الهبوط بملء إرادتها .

«للكلمات الآن بريق أكثر ، تأتي أعداد أخرى

(٨٨) « أن الحلم هو حياة ثانية يمكنها بالتأكيد أن تلبس دورا في الأولى ولكنها يجب أن تميز عنها بعناية وبعلامات فارقة ثم إن واحدة من رغباتنا ، من حاجتنا ، أن نعرف أكثر إلى العالم وإلى أنفسنا ، وبعض مشاهد الأحلام تتيح لنا ذلك ، حتى ان بعض الاكتشافات العلمية أو الشعرية قد تحدث في الحلم »

Michel Butor, Repertoire V, PP. 24-28.

Nathalie Sarraute, Entre la vie et la mort, PP. 66 — 67,

Nathalie Sarraute, les fruits d'or, PP. 112-113

(٨٩)

(٩٠)

«وداعاً ، صرخت لها وهي تركض مرفوعة الرأس ، رائعة ، وشعرها كتاج من اللهب الاسود ، تلهث ويتسم ، كنت تفكر يومها : لقد اعتقدت انني اضعتها ، ولكنني وجدتها ، لقد مثبتت على حافة هاوية ، الآن أعرف كيف احتفظ بها ، أتمسك بها»^(٩١)

الأمثلة كثيرة والمواضيع مختلفة ، والشعر موجود في حنايا الرواية ، ليساهم في تحديثها شكلاً ومضموناً ، وذلك ضمن اعادة نظر شاملة بمفهوم الادب ذاته الذي لم يعد يبدو تسلياً أو ترفاً ، بل حاملاً لدور أساسي في حاضر المجتمع ومستقبله .

٦ - بين «الرواية الجديدة» الفرنسية والرواية الفلبينية المعاصرة

لم تكن تقنيات التجديد في الرواية الفرنسية غائبة عن الرواية العربية التي يربط أكثر النقاد نشوءها - وتطورها - «بالمثل الذي تضربه الروايات الغربية» ، فهذا الفن «ليس جزءاً من تراثنا الادبي»^(٩٢) . ولكنه «مقتبس عن الغرب أو - على الأقل - متأثر به تأثراً شديداً»^(٩٣) .

هذا بالنسبة للرواية بصورة عامة ، اما بالنسبة لهذا التيار التجديدي ، فلقد ظهرت في مختلف أرجاء العالم العربي كثير من الاعمال الروائية المتأثرة به او المتماثلة معه . ولكن اللافت للنظر ان ظهور هذه الاعمال كان متزامناً مع الرواية الفرنسية الجديدة أو متأخراً عنها بضع سنين ، فمنذ أواخر الستينات من هذا القرن اصبحنا نقرأ عن «الرواية الجديدة» في المغرب أو مصر

الشعر يحكي الرواية ، والرواية تكتب بالشعر ، ولكن هذا التفاعل ليس الغاية القصوى ، وهو ان شكل المادة الاساسية لبعض اعمال ناتالي ساروت ، ثم فيليب سولر وجان - بيار فاي ، فانه يهدف الى ابعاد بكثير من نرجسية الكتابة عند اغلب الروائيين الجدد . فني (الاستجواب) لروبير بينجيه^(٩٤) لا يتوصل الشخص المستجوب الى تحقيق ذاته الا بعد اجاباته المطولة على اتهامات توجه اليه ، هكذا لتصبح اللغة وسيلة للخلاص وتجسيدا للوجود . وهي تصبح في الغالب ، كما سبق وذكرنا ، وسيلة اكتشاف للواقع وتأثير فيه الواقع بابعاده الذاتية والاجتماعية والتاريخية والمستقبلية :

«تقول لنفسك : ما الذي حدث منذ مساء ذلك الاربعاء ؟ منذ آخر سفر عادي الى روما ؟ وكيف تغير كل شيء ؟ وكيف وصلت الى هنا ؟

«إن القوى التي كانت تتجمع منذ زمن طويل تفجرت في قرار هذه الرحلة ، ولكن نتائج الانفجار لم تتوقف هنا ، لانك بتنفيذ هذا الحلم الذي داعبته طويلاً ، اجبرت نفسك على اكتشاف ان حبك لسيسيل هو جزء من حبك لروما ، وإذا كنت ترغب في الإتيان بها إلى باريس فذلك لجعل روما حاضرة كل يوم ، ولكنها لو جاءت الى مركز حياتك اليومية تفقد دورها كوسيط ، وتصبح امرأة مثل كل النساء ...

«ولكن ، ليس ذنب سيسيل اذا كان النور الروماني الذي تعكسه وتنشره ينطفئ عندما تأتي الى باريس ، انه ذنب الاسطورة الرومانية ذاتها التي ما ان تجهد في تجسيدها بصورة قاطعة وبطريقة خجولة ، تكشف تناقضاتها وتدينك ...

Robert Pinget, L'Inquisitoire. Ed. Minuit, Paris, 1962

Michel Butor, La Modification, PP. 277 - 279

(٩١)

(٩٢)

(٩٣) الياس حوري تجربة البحث عن الفن . ص ١٠٩ و ١١٠

(٩٤) بطرس حلال . نشأة الرواية العربية بين النقد والايديولوجيا . الفكر العربي ، بيروت ، السنة الثانية ، العدد ١٤ ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٥ - ١٤٠ .

نظرة مقارنة على تقنيات التجديد التي ظهرت في الرواية اللبنانية المعاصرة على وجه التحديد. ونستعمل مصطلح «المعاصرة» بدل «الجديدة» لأن وجود هذه الأخيرة يقتضي وجود تيار أو مدرسة لم يتضح أي منهما بعدا وعلى الأقل لم تظهر حتى الآن دراسات تحدد الملامح المميزة له.

إذا كان أغلب الكتاب العرب ما زالوا متمسكين بمعرفتهم الشمولية لما يدور في أعماق أبطالهم وما يجري حولهم، وإذا كانوا مستمرين في رسم شخصيات محدودة بياض وحاضر ومؤثرات نفسية واجتماعية، فذلك لا يحجب التصدع الذي أصاب الكاتب وشخصياته على السواء والذي كان من نتائجه ارتجاج في معرفة الكاتب وفي شخصية البطل، وكان من مسبباته، عدا عن التأثير بتجديد الغرب، هزيمة ١٩٦٧ وما تلاها؛ يضاف إليها، عند كتاب المشرق العربي خصوصا، واللبنانيين منهم بوجه أخص، الحرب اللبنانية^(٩٥)، ويسبقها في وعي الجميع مأساة فلسطين وشعبها.

بدأ التصدع بخدوش خفيفة ظهرت على سطح البناء الصلب، المتناسك، لبعض الروايات التي تشكل «طيور ايلول» نموذجا لها. ففي هذه الرواية التي تبدو فيها الكاتبة ممسكة بوضع شخصياتها المعلقة بين الريف والمدينة، ملمة بتاريخهم وحاضرهم، ومطلعة على دقائق شعورهم وعلى خفايا نفوسهم، مسترجعة حكاياتهم وعلاقاتهم من خلال ذكرياتها

أو لبنان أو العراق أو في الأدب الفلسطيني، وصارت تطالعنا تسميات «رواية الطليعة» و «الأدباء الشبان» و «جيل الستينات» و «جيل السبعينات» و «تيار الوعي»، في الروايتين المصرية واللبنانية على التوالي، وغير ذلك من التسميات والمصطلحات التي تفوح منها رائحة ما اطلق على الروائيين الفرنسيين الجدد أو على من تأثروا بهم من أمثال جيمس جويس وإزرا باوند وغيرهم^(٩٦).

من المؤكد ان الرواية العربية الجديدة قد استقت من تقنيات مثيلتها الفرنسية التي تسنى لعدد من الروائيين العرب ان يطلعوا عليها بشكل مباشر وان يتمثلوا بنى التجديد فيها ويطبقوها في رواياتهم. ولقد ظهرت، من جهة أخرى، ترجمات لبعض الاعمال النظرية فقط - للروائيين الفرنسيين، اذ ترجم فريدانطونوس كتاب ميشال بوتور «بحوث في الرواية الجديدة» (Essais Sur Le Roman) وترجم مصطفى ابراهيم مصطفى «نحو رواية جديدة» (Pour Un Nouveau Roman) لآلان روب غرييه، بينما كتب عدد آخر عن بعض أعلام الرواية الفرنسية، منهم لويس عوض في «دراسات عربية وغربية» ومحمد مندور في «النقد والنقاد المعاصرون»، كما يستشهد كثير من النقاد بأراء أولئك الروائيين أو بالترجمات عنهم.

من البديهي أننا لن نتمكن هنا من الاحاطة بكل الميادين التي يظهر فيها تأثير الرواية الفرنسية الجديدة على الرواية العربية المعاصرة، ولكننا سنكتفي بالقاء

(٩٥) بخصوص هذه التسميات انظر العدد الثاني من المجلد الثاني من مجلة فصول (القاهرة)، يناير فبراير مارس ١٩٨٢) الذي يحمل عنوان «الرواية وقن القصص»، وبصورة

خاصة دراسات: سامي خشبة، «جيل الستينات في الرواية المصرية»، ص ١١٧ - ١٢٤، محمد بدوي، «معمرة الشكل عند روايي الستينات» ص ١٢٥ - ١٤٢، سيزا

قاسم، «المفارقة في النص العربي المعاصر»، ص ١٤٣ - ١٥٢، ويحيى عبدالدايم، «تيار الوعي والرواية اللبنانية المعاصرة» ص ١٥٣ - ١٧٢.

(٩٦) يتفق كثير من النقاد العرب على تحديد هذه المسيمات، ومنهم على سبيل المثال: الياس حوري، «نوعية البحث عن ألق»، والذي يحمل عنوانا آخر هو «مقدمة لدراسة

الرواية العربية بعد الهزيمة» مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤، والذاكرة المفقودة، ص ٢٥ - ٤٢، غالي شكرى، «سوسيولوجيا النقد العرب الحديث»، ص ١٩٣ -

٢٠٢، أحمد محمد عطية، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، ص ٢٠ - ٢٩.

المروية بصيغة المتكلم ، فان الزمام يفلت من يدها بين الفينة والفينة . وسواء حصل ذلك عمدا أم نتج عن عدم قدرة الذاكرة على للممة نتف الماضي ، فان هذا التراجع - وإن بقدر يسير- عن المعرفة الكاملة والشاملة عند الكاتب هو أمر لافت للنظر^(٩٧) .

قبل أن تنتقل الى مراحل أخرى في معرفة الكاتب ، تجدر الإشارة الى أن وضعية البطل المتأرجح بين مكانين أو عقليتين كانت قد ظهرت منذ أواسط الخمسينات في ثلاثية سهيل ادريس - «الحي اللاتيني» ١٩٥٤ ، «الحندي الغميق» ١٩٥٨ ، و «اصابعنا التي تحترق» ١٩٦٢ . وفي روايات ليل بعلبكي وليل عسيران الصادرة في أوائل الستينات^(٩٨) . وضعيات متشابهة ، وطريقة عرض مقاربة لا تتطلب من القارئ كبير جهد لتتبع الأحداث أو لمعرفة ما يريد الروائي . ولكن حتى الحي اللاتيني التي هي أقدمها تنتهي بخدش معرفي - يطال القارئ هنا بدل الكاتب - عندما ينتقل البطل في آخر كلمات الرواية ، «الآن بداننا» ، من ضمير المتكلم المفرد الى الجمع تاركا بذلك للقارئ ان يحدد ماهية هذا الجمع ونوعية البداية وغايتها .

بعد بضع سنين ظهرت موجة جديدة من الروايات التي حلت فيها الشروخ مكان الخدوش ، واخذت الكتابة تمثل القلق والتصدع . واللافت للنظر أن هذه الموجة قد طغت بين ١٩٦٨ و ١٩٧٤ وانها تعكس «هذا القلق العام الذي يحاول أن يكشف بنية جديدة للنشر يمكن أن نعطيها صفة عامة هي محاولتها تأسيس أبعاد الحياة اليومية في شكل روائي مفتوح . وفي هذا

الشكل تنحل صورة الكاتب - المؤلف في التفاصيل أو في الشهادة لها ، ويصبح الشكل الروائي وكأنه مختبر اللغة الجديدة . مختبر يحاول أن يصيغ علامات الزمن المتقطع وان يكشف شكلا خاصا لا يعكسه في الابداع ولكنه يحاوره . القاسم المشترك الذي يوحد المحاولة الروائية الجديدة هو الوصول الى هذا الشكل الذي يستطيع ان يحاور الازمنة العربية المتداخلة (يتحدث الياس خوري عن الرواية العربية بشكل عام) دون ان يدعي لنفسه القدرة على صياغة آفاقها واحتيالاتها^(٩٩) .

كان أكثر الكتاب تمثيلا لهذه الموجة أملي نصرالله في «شجرة الدفلى» و «الرهينة» وليل عسيران في «عصافير الفجر» وحنان الشيخ في «انتحار رجل ميت» و «فرس الشيطان» ، وتوفيق يوسف عواد في «طواحين بيروت» ويوسف حبشي الاشقر في «لا تثبت جذور في السياء» وافتتحت برأينا في «ليل الغرباء» لغادة السنان و «عودة الطائر الى البحر» لحليم بركات^(١٠٠) . قد يعترض البعض هنا على تصنيف «ليل الغرباء» كرواية بينما هي ، برأي الكثيرين ، مجموعة قصص . ولكننا نرى ان خيوطا عديدة تجمع بين أجزاء الكتاب وتشكل منها وحدة روائية ، رواية جديدة .

ومنذ أواسط السبعينات مازالت الموجة الثالثة مستمرة ، موجة تفتت فيها الشخصيات والنصوص وانتقل السرد من التردد والقلق الى التداخي والابهام والتهاافت ، لكاننا تقنيات الرواية الفرنسية الجديدة قد وجدت في رعب الحرب اللبنانية وتخبط المثقفين في دوامتها وضياعهم في متاهاتها واحتراقهم في أتونها ،

(٩٧) تشير هنا الى ان رواية طيور ليلول قد ظهرت للمرة الاولى سنة ١٩٦٢ كما تذكر عدد من الدراسات التي كتبت عنها .

(٩٨) ليل بعلبكي ، أما أحيا ١٩٥٨ ، الألف الممسوحة ١٩٦٠ ، ليل عسيران . لن نموت غدا ١٩٦٢ ، الحوار الأخرى ١٩٦٣

(٩٩) الياس خوري ، الذاكرة المفقودة ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(١٠٠) تجدر الإشارة إلى أن غادة السنان وحليم بركات قد ولدا في سورية ولكنها عاشا لفترة طويلة في بيروت حيث نشرت أغلب أعمالهما .

«وهي ليست سفينة حلمه ، لذلك يطرحها للموج ، للبحر الكبير ، ليضيّعها في دفق لجته ، أو في عيون المتجمهرين على الشاطئ»

«ثم يعود الى الحلم»

«الى التصميم»

«الى البناء الجديد»^(١١١)

بناء تشكيلي اذن ، وهو تشكيلي ايضا عند فؤاد كنعان ، «على انهيار بابل» ، حيث يكفي تصفح بدايات فصول الرواية - ولن اقول قصصها - لنتكشف البنية المكوكية التي تراوح بين استرجاع الماضي - الى ضفاف الماضي مضيت - «أمسيت قلبي على دفقري»^(١١٢) وتصوير الحاضر من خلال غيوم تخف حيناً وتكاثف أحياناً ، أما «طواحين بيروت» فيحدث عنها ابراهيم السعافين قائلاً : «ان من يتأمل الرواية يلاحظ انه قام على تصوير التناقضات والتقابلات التي ترسم للملامح الاساسية للبناء الاجتماعي ، اذ تتحرك الاحداث حركة لولبية ، لا تتجه الى أمام حتى ترتد الى الخلف ، فقد نزل ان هذه الحركة تسعى الى تضيق الهوية التي تفصل بين الشخصيات أو الى ردمها ، فنفاجاً بأنها ترتد بشكل حاد لتوسيعها . من خلال تأزيم المواقف أو تجميدها .»^(١١٣) وتعتقد البنية أكثر عند حلیم بركات ويوسف حبشي الاشقر والياس الديري وغادة السمان حيث يشكل تقاطع وتشابك وتداخل الأحداث والأمكنة والأزمنة بنى مناهية توظف فيها كل التقنيات ليس فقط لتصوير الجو المناهي ، بل لاجبار القارئ على التوقف بين الفينة والفينة ، أو لنقل عدوى القلق والرعب اليه . وحتى الشكل ذاته يلعب دوراً في ذلك . لتتصفح فقط «كواييس بيروت»

الأرض الخصبة التي تثبت فيها وتنضج . غادة السمان بين «بيروت ٧٥» و «ليلة المليار» ، الياس الديري بين «الفارس القليل يترجل» و «عودة الذئب الى العرتوق» ، يوسف حبشي الاشقر بين «أربعة أفراس حمراء» ، و «المظلة والملك وهاجس الموت» . وحليم بركات في «الرحيل بين القوس والوتر» ، وحنان الشيخ في «حكاية زهرة» ، وفؤاد كنعان «على أنهار بابل» - بالرغم من لجوء هذه الرواية الأخيرة الى قرية يبدو ان الحرب لم تصلها - ومطاع صفدي في «أصابع القدر» ، وغيرهم ، كل هؤلاء يتماثلون ، وان بنسب متفاوتة ، مع الروائيين الفرنسيين الجدد .

ان المراحل الثلاث التي اشرنا اليها في محاولة تصنيف أولية لروايات فترة تناهز ثلاثين عاماً تتجسد بشكل خاص على مستوى البنية والسرد . واذا كنا سنركز هنا على المرحلتين الثانية والثالثة فقط ، فذلك لانهما تعكسان بوضوح ما نحن بصددده من تماثل مع الرواية الفرنسية الجديدة وتأثيرها .

لقد تعرضت بنية الرواية اللبنانية المعاصرة لتغيرات جذرية ، فاختفت فيها ، أو كاد ، تسلسل الأحداث الزمني وتواترها وأصبح أكثرها يلقي بنا منذ اللحظة الأولى في مناهة الأحداث ودواستها أو يحول بنا في طبقات متفاوتة العمق من استبطان الشخصيات واستذكارها واستشراقها وكوايسها . واخذنا ننزل وننحن نقرأها الى مناطق وفترات أخرى من خلال بنى تكرارية أو تبديلية أو تبطينية . هكذا نلقت نظراً أمل نصرالله في «تمهيد» الرهينة الى ان كتابتها «ليست سوى قارب من ورق» يصنعه «طفل واقف عند شاطئ البحر» .

(١١١) أمل نصرالله ، الرهينة ، ص ٦

(١١٢) فؤاد كنعان ، على أنهار بابل ، ص ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٨٧ .

(١١٣) ابراهيم السعافين ، «طواحين بيروت بين الرؤية والتشكيك» ، مجلة المعرفة دمشق ، السنة ٢٦ ، المجلد ٣٠٦ - ٣٠٧ ، ١٩٨٨ ، ص ٥٨

أو «ليلة المليار». سوف نجد أنفسنا أمام صفحات مقفلة من الزوايا الأربع لا تفصل بين مقاطعها سوى كلمة «كابوس» المتبعة برقم في الرواية الأولى، أو ثلاث دوائر صغيرة في الثانية. إلا يدخلنا ذلك في جو من الرعب المتواصل، في ليل قلق طويل لا تبدو فيه بارقة من أمل أو قيس من نور؟ «لم تنته الحدوتة بعد... ولن تنتهي قبل زمن طويل...»^(١٠٦) بعد هاتين العبارتين بسطر واحد تسأل الكاتبة «تمت؟»^(١٠٧) ولكن الرواية لا تتم، بل تفتح من جديد على «مشاريع كوايس» تعيد القارئ إلى جو القلق والرعب. أما «ليلة المليار» فإن كثرة حواراتها ترسم على الصفحة المقفلة واقعا مهلهلا، ممزقا، مهشما، يزيد في تصويره النقاط الثلاث التي تتكرر بعد كل عبارة أو جملة، والتي تلعب دور الفصل، والوصل، في الوقت نفسه.

لن نتوسع أكثر في إعطاء الأمثلة، بل نتقل إلى السرد. والواقع أن ما ذكرناه عن البنية يلقي بعض الضوء على تقنيات السرد في الروايات التي نتحدث عنها. والملاحظ، كما سبق وألمحنا، أن أسلوب السرد الغالبين هما الاسترجاعي، والمتداخل أو المتشابك. والأول هو الذي تتميز به بشكل خاص روايات أملي نصرالله وفؤاد كنعان، وإذا أردنا تحديده بشكل أدق لقلنا مع سيزا قاسم بأنه «استرجاع داخلي» وهو الماضي السابق لبداية الرواية، والذي تأخر تقديمه في النص، وهو يستحيل في الغالب «مزجيا»^(١٠٨) يجتمع فيه زمن الكتابة مع زمن التذكر مع زمن الذكريات والمزيج هنا يختلف، كما نلاحظ، عن تقنية «السرد

المزجي» التي سبق وعرفناها في الرواية الفرنسية الجديدة). أما الثاني، وهو الأكثر شيوعا، فهو الذي ينكسر فيه تسلسل حدث ما بشكل مفاجيء ليبدأ قصص حدث آخر ينكسر بدوره، وهكذا تتداخل في الرواية «أصوات متنوعة متفاوتة الزمان والمكان، وتختلط هذه الأصوات بصوت الراوي وتتفاعل معه معطية أبعاداً متناهية، القصة محدودة الزمان والمكان»^(١٠٩)، كما في رواية «الفارس القليل يترجل» وفي روايات حلیم بركات^(١١٠). وتقنيات السرد المتوازي والمتقاطع ليست غائبة عن هذه الرواية، ففي «بيروت ٧٥» تقدم لنا عادة السهمان عرضاً متوازياً لشخصيات روايتها ومشاكلهم وأماهم وتطوراً مأساة كل منهم. وتتطلب هذه المتوازيات في الغالب من إشارة إلى حالة الطقس تحمل أكثر من مجرد تسجيل وضع مناخي أو تحديد زمني:

أ- «الشمس شرسة وملتهية» (ص ٥)، «لقد أيقظت الشمس جسدها» (ص ١٣).

ب- «حين استيقظ أبو مصطفى السهاك من نومه كان الظلام دامسا» (ص ٢٥)، «كانت هنالك نقطة مضيفة ساكنة في البحر» (ص ٣٧).

ج- «انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة» (ص ٤٩، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ٦٦، ٦٨).

د- «ساح الخبر واهترا الورق وجفت حلق الرجال في «قهوة الليل» وابتلوا بالمطر حتى قاع عظامهم» (ص ٥٧)، «تمطر تمطر» (ص ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤).

(١٠٤) عادة السهمان، كوايس بيروت، ص ٣٣٧.

(١٠٥) بهذا التسلسل تنتهي رواية ليلة المليار للكاتبة نفسها، كما تنتهي روايتها بيروت ٧٥، بمجموعة من الكوايس (غير مرقمة).

(١٠٦) سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ٤٠ - ٤١.

(١٠٧) نبيه قنبر، «التأثر والتأثير في رواية عودة الذئب إلى العرثوق ولاياس الذيربي» مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، العدد ٣٤، ربيع ١٩٨٥، ص ١٠٣.

(١٠٨) انظر، الياس حوري، الذاكرة المفقودة، ص ١٣٤ - ١٤٣، خالدة سعيد، حركية الابداع، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

«وهكذا... الرواية هي قبل كل شيء رواية إضاعة وإعادة نظر، تضيء من الأوضاع والعلاقات ما كان محمواً ومقنعا بأعداء وشعارات ومبادئ عهاوت أمام الحرب فبدت الأشياء عارية (الأوضاع العائلية، البنية السياسية، والتركيبية الطائفية)»^(١٠٩)

والضائر التي تعبر عن هذه الشخصيات تعرضت بدورها للتعددية والابهام، بمعنى أن ضمير المتكلم أو الغائب ينتقل مداورة من شخصية إلى أخرى، فيصبح راوي «حكاية زهرة» متعددًا حيث تتكلم زهرة في بعض فصول الرواية، بينما يتحدث في فصول أخرى خالها وزوجها. وعند فؤاد كنعان تنتقل الـ «أنا» من فم لآخر حتى يتحرك بها لسان الكنيسة:

«قبل أن يمر النسيان ويعفو كنيسهم، كنت أنا كنيسهم، وكنت أسمى كنيسة مار قرياقوسى، وتحييا ماركرياكي، كما سيأتي فؤاد كنعان»^(١١٠).

أما في «كوابيس بيروت» فيخيل للقارئ أن مثات الشخصيات - مثات النسوة على الأقل - تعيش هذه الكوابيس الرهيبة، وإن عددا آخر مرشح لأن يرى ويروي - ويعيش - كوابيس مماثلة، بل وأشد هولاً، وذلك من خلال «المشاريع» المترتبة به بعد أن يعتقد أن الرواية قد «تمت»؟

وقبل إتمام هذه الجولة المقارنة مع «الرواية الجديدة» في فرنسا، تشير إلى تقنية استخدمتها هذه الأخيرة بكثرة، وهي «تقنية المصغرات».

وتظهر هذه التقنية أيضا عند حنان الشيخ في «حكاية زهرة» حيث يظهر التوازي على مستوى تبدل الرواة من فصل لآخر^(١١١).

أما السرد المتقاطع، فإنه يظهر بصورة خاصة في «عودة الذئب إلى العرتوق»، وهو ما يسميه نبيه قنبر بالمبعثر، إذ يقول: «وصعوبة الرواية تكمن في كونها لا تتبع تسلسل الأحداث وترباطها، وإنما تجزئها وتبعثرها تاركة للقارئ مهمة للمتها وجمعها. وسبب ذلك أن حاضِر الرواية لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من الأزمنة المتعددة المتشابكة التي تحتويها الرواية والتي تظهر مفككة مشتتة»^(١١٢).

إن تقنيات السرد هذه تحاول أن تشكل النسيج الفني الذي يعكس بواقعية ضياع الشخصيات في متاهات الحرب والغربة والاستلاب. ونشير هنا إلى أن أيًا من هذه الروايات لا تقدم «بطلاً» بالمعنى الروائي أو الاجتماعي أو السياسي للكلمة، بل هي تعرض شخصيات ضائعة، حائرة، قلقة، تتعرض لأنواع مختلفة من الضغط والكبت والعنف، ولعل ما تقوله خالدة سعيد عن «عودة الطائر إلى البحر»، ينطبق على أغلب الروايات اللبانية المعاصرة، وخاصة روايات المرحلة الثالثة: «الأبطال هنا - وكان أفضل لو قالت «الشخصيات» - لا يظهرون إلا من الزاوية التي تضيئها الحرب ولا يقومون بأفعال بصورة منفصلة عنها، وليسوا موجودين في الرواية إلا لأنهم تفاصيل في لوحة الحرب كما تمت على الجبهة الداخلية وعلى دروب النزوح المحرقة، أو ميادين المقاومة والمظاهرات».

(١٠٩) انظر تفصيل ذلك في مجلة فصول، القاهرة، المجلد الثاني، العدد الثاني ١٩٨٢: يحيى عياد «الديم» و«تيار الوعي» من ١٦٥ - ١٧٣.

(١١٠) نبيه قنبر، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٠٢.

(١١١) خالدة سعيد، حركية الاندماج، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(١١٢) على النهار بايل، ص ١٢١.

«ها أنا بشرى في زي ولادة...».

«ولادة تتأثل في غلالة أندلسية شفافة، وتروح في القصر وتجيء»، وتقول لشاعرها ابن زيدون:

«ان يطل بعدك ليلى فلكم
بت أشكو قصر الليل معك»^(١١٤)

وهي تصبح مكشوفة تماما عندما يقدم توفيق يوسف عواد أو غادة السمان ثبنا بالمراجع التي استخدموا نصوصا منها في «طواحين بيروت» و«ليلة المليار»، بعد ان يكون كل منهما قد وضع تلك النصوص بين مزدوجين في سياق الرواية.

ويبلغ تقاطع النصوص وامتزاجها أوجه عند حلیم بركات الذي تنطلق كتاباته من خلفية ثقافية واسعة والذي تتداخل في رواياته نصوص ورموز وأساطير تتكامل من خلالها الصورة التي رسمها. ففي رواياته الستة هي «دون حدث رئيسي»، دون مشكلة خارجية^(١١٥) يستكمل عالم الشخصيات الخارجي والداخلي بمجموعة المصغرات التي يستخدمها. هكذا ترى خالدة سعيد^(١١٦) ان «عودة الطائر الى البحر» هي «موشور مثقف نطل من خلاله على عالم حزينان ١٩٦٧. وتبدو الحرب عبر هذا الموشور في صيغ وألوان متعددة: فهي مطهر دائني يعبرها العربي. طريقا الى الخلاص. وهي عودة الهولندي الطائر الى البر في محاولة أخرى، وهي ارتفاع سيزيف بالصخر في محاولة لبلوغ القمة. اما العربي فيبدو عبر هذا الموشور لابسا وجه الكنعاني الذي غدر به أبناء يعقوب وأخرجوه من أرضه، ووجه العريس الذي خلف الضيغ عروسه

قلما تخلو رواية لبنانية ظهرت بين الستينات واليوم من هذه المصغرات التي تشمل رموزا وأساطير وشخصيات ونصوصا ذاتية أو مأخوذة من كتاب آخرين.

في «الفارس القليل يترجل» يتداخل نص الكاتب مع نصوص أخرى من بينها العهدان القديم والجديد:

«وضع عواد السلة أمامها.

«ترجل الفارس وقدم سيفه مشهورا إلى الأميرة المنهرة. أخذ عقدا وأهداه إليها: الحبيبة.

«سرت همهمة بين أفراد الحاشية».

«وهي لايا».

«وابتسامتها غمرت الآي إلى ضجر المدينة من قريضة معلقة في أعلى الضيعة».

«أتكأ على موعدها في الحال. شعت العينان بالوعد عاد إلى الركن القصي وهذا كمن اجتاز سباق الألف ميل ركضا. فليكن ليل وليكن نهار. اتخذ الكون ملامحه النهائية».

«فلتكن لايا».

«قامت الدبابير وقطفت الزهرة»^(١١٧).

من الصعب أن نبين في هذا النص الحدود التي تفصل أقوال الكاتب عن غيرها. تتداخل النصوص والأزمنة. ولكن ذلك يصبح أسهل عند آخرين:

«الى ضفاف الماضي مضيت.. مضيت الى قرطبة».

(١١٣) إلياس العبري. الفارس القليل يترجل، ص ٥٨ - ٥٩.

(١١٤) علي (نهار بايل، ص ٨٨.

(١١٥) إلياس حوري. الذاكرة المفقودة ص ١١٢.

(١١٦) حركية الأبدان، ص ٢٧٣.

«تنزلق من بين أصابعي كحفنة رمل ملونة عبثاً
أسرقها عن شيطان الزمن... تنزلق هاربة كالعمر،
كالعافية، كالشباب، ككل الأشياء التي أعجز عن
شرائها بملاييني... أدور حول قلعتها الحصينة
بالصمت واللامبالاة الزاهدة... أفتش عن ثغرة أنفذ
منها إلى ذلك البنيان المحكم لأخلخله، فلا أجد إليها
سيلاً... ومثاقبي الذهبية لا تجدي مع رخام
سكوته...»

«لعله أن الألوان لكسر طلسم سحرها عني... إذا
تركتها تستولي على روحي، دمرتي»^(١١٧).

عن هذا التغلغل الشعري إلى أعماق الرواية
المعاصرة يتحدث جبرا إبراهيم جبرا فيقول: «^(١١٨) أن
العربي اكتشف وقد دخل الآن عصر المدينة بعد ألف
سنة من عصر القرية أن حياته بحاجة إلى شكل
إبداعي لغوي لعل الشعر قاصر عنه. والموضوع هو
موضوع أشكال للتعبير عن طريق اللغة. والرواية
نفسها وعاء مدهل بقدرته على احتواء الشعر مضافاً إليه
الأشكال التعبيرية الأخرى التي تبقى مجذورة بالشعر
ولكنها باستعمال الثر في صيغ لم تستعمل في ما مضى
تجعل من نفسها أداة ماضية لأن يكون لنا غنى عنها
في التعبير عن عصرنا من ناحية وعن ذواتنا كقوى فاعلة
في هذا العصر من ناحية أخرى».

إذا كان جبرا قد رأى في الصياغة الشعرية للرواية
بقوالب ثرية جديدة اختياراً قام به الروائي العربي
المعاصر للأسباب والغايات التي ذكرها وجعل بالتالي
من هذا الاختيار التفسير الوحيد للأشكال الروائية
الجديدة فإنا نرى أن الموضوع أشد تعقيداً وإن أسباب
هذا التجديد أكثر تنوعاً. ما يخص دراستنا هنا هو

(فلسطين) في الحكايات الشعبية. تتوالى هذه الصور
يرافقها صوت الكاتب المعذب المتسائل الغاضب.
ويأتي صوته نهراً يتلاقى بأنهار غاضبة أخرى في العالم.
هكذا يهتف مع ديلان طوماس «ولن تكون للموت
سيطرة»، أو يردد صوت تي. أس. اليوت بحرقة:
«نحن الرجال الجوف»، أو يغني مع الزنوج في أميركا
صارخاً: «مثل شجرة نمت قرب الماء / لن نقتلع من
مكاننا».

تلعب الرموز والأساطير والحكايات الشعبية اذن،
إضافة إلى النصوص دور مصغرات تعطي للرواية أبعاداً
مكانية وزمانية وثقافية مختلفة، وتمدها بطاقة تنويع
وتحليل وتفسير هائلة. هذا البعد الرمزي والأسطوري
والفولكلوري يطالعنا في كثير من عناوين الروايات، من
«شجرة الدفلي» إلى «طيور أيلول» إلى «فرس الشيطان»
و«عودة الطائر إلى البحر» و«طواحين بيروت» و«على
أنهار بابل» وغيرها. أما في داخل الروايات، فمن
البديهي أنها أكثر من ذلك بكثير.

وكل هذا وذاك يصاغ بلغة شعرية، أو على وجه
الدقة، بلغة الشعر الحديث، نستطيع القول إن الشعر
لم يغيب يوماً عن الرواية العربية وإنه شكل دوماً لحمتها
أو سداها أو على الأقل بعض غرزات نسيجها. ولكنه
في الرواية المعاصرة بشكل وعاء القلق أو يشيد مدارج
الاحلام، يلغى في أتون الحرب والرعب والظلم وفي
متاهة الغربة والحرمان، أو يعزف - وإن قليلاً - لحن
الخلاص والتحرر وحنين العودة. الأمثلة أكثر من أن
تحصى حتى في الروايات الأقل شاعرية مثل «لا تنبت
جذور في السماء» أو «ليلة المليار»:

«بخبية المستحيل»...

(١١٧) غادة السمان، ليلة المليار، ص ٣١٥-٣١٦.

(١١٨) جريدة اللواء، بيروت، الثلاثاء، ٣١ أيار ١٩٨٨.

يبقى أن نقول أن المحيطين اللذين نشأنا فيهما يتأثلان في تغير كثير من المعطيات الاجتماعية والسياسية والعلمية وفي حلول القلق والضيق مكان وهم الاستقرار والمعرفة الشاملة.

نبلغ هنا نهاية هذا البحث، بل قل بدايته، إذ أنه جهد أن يقدم في صفحات قليلة صورة عن تقنيات وتفاعلات فنية يتطلب كل منها بحثاً مطولة ودراسات معمقة. ونختم بقول لجرار جينيت:

« أن إنسان اليوم يحس بوقته حالة قلق وبدخلية هوسا وغشيانا، يشعر أنه فريسة العبثية والتمزق، فيحاول تثبيت أقدامه بتوجيه تفكيره نحو الأشياء، بتشكيل صور وتصاميم تستعبر من الأبعاد الهندسية بعض صلابتها وثباتها. وفي الحقيقة أن هذا البعد الملجأ - ما هو الانسبي ومؤقت، لأن العلم والفلسفة والأدب المعاصرين يجهدون في محور ثوابت هذه «الهندسة المريحة» وإبدالها بطوبولوجيا متاهية، زمان - مكان، مسافات متداخلة، أو منحنية، البعد الرابع، وجه غير اقليدسي للكون يشكل مدى دواريا مخيفاً يبني فيه بعض الكتاب الجدد متاهاتهم »^(١٢٠).

متاهات أدبية تنشأ أن تكون مصغرات عن متاهات عالمنا الكثيرة وإن تعلمنا كيفية الخروج منها جميعاً.

العلاقة بالرواية الجديدة في فرنسا. واللافت للنظر أن أغلب الروائيين اللبنانيين الذين ذكرناهم بل قل جميعهم - باستثناء حليم بركات ذو الثقافة الانغلو-أميركية - هم على اطلاع واسع على الثقافة الفرنسية، وأن عدداً منهم أقام - أولاً يزال - في باريس لفترة أو فترات مختلفة. نذكر ذلك كملاحظة أولية لا تخلو من الدلالة، ونذكر ما يقوله الياس خوري عن الأشكال الروائية الجديدة والذي نراه أكثر شمولية من رأي جبرا:

« الرواية العربية في تجربتها وتجاربها حاولت أن تستعبر جميع الأشكال الممكنة والمحتملة. عادت إلى الموروث الشعري ومزجته بالحياة، حاولت الرواية التسجيلية شبه المباشرة أو استعارت شكل الرواية الغربية وشيئتها. ولكنها بقيت وكأنها على أبواب اقتحام مغامرتها، أو كأن مغامرتها الخاصة لا تزال تنتظر انفجاراً ما في بنية التعبير، انفجاراً داخل المزاوجة بين الموروث الشعري والتأثر بالتجارب الأدبية الغربية »^(١٢١).

مهما يكن من أمر، فهذه كانت محاولة للتعريف بالرواية الجديدة في فرنسا - وكما سبق وقلنا - بأوجه تأثيرها في الرواية اللبنانية المعاصرة أو تأثرها معها.

المصادر

بالعربية

- الأشقر ، يوسف حبشي ، لا تثبت جلدور في السماء . دار النهار، بيروت ١٩٧١ .
- المظلة والملك وهابيس الموت ، دار النهار، بيروت ١٩٨٠ .
- بركات ، سليم ، ستة أيام، بيروت ١٩٦١ .
- عودة الطائر إلى البحر، دار النهار، بيروت ١٩٦٩ .
- الرحيل بين القوس والوتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩ .
- حلاق، بطرس، «الرواية العربية بين النقد والأيدولوجيا»، مجلة الفكر العربي، بيروت، السنة الثانية العدد ١٤ ، ١٩٨٠ .
- نحوري ، الياس، تجربة البحث عن الحق، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤ .
- الذاكرة المفقودة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٢ .
- الديري ، الياس، الفارس القاتل يترجل، دار النهار، بيروت ١٩٧٩ .
- عودة الذئب إلى العرثوق، دار النهار، بيروت، ١٩٨٤ .
- السعافين، إبراهيم، «طواحين بيروت بين الرواية والتشكيل»، مجلة المعرفة، السنة الثانية، العدد الرابع عشر، دمشق ١٩٨٠ .
- سعيد ، خالدة، حركة الابداع، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩ .
- السنان، غادة، ليل الغرباء، منشورات غادة السنان، بيروت، ١٩٦٦ .
- بيروت ٧٥، منشورات غادة السنان، بيروت ١٩٧٥ .
- كوابيس بيروت، منشورات غادة السنان، بيروت ١٩٧٦ .
- ليلة المليار، منشورات غادة السنان، بيروت ١٩٨٦ .
- شكري، غالي، سوسيولوجيا النقد العربي الحديث، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣ .
- الشيخ، حنان، حكاية زهرة، بيروت ١٩٨٠ .
- عبدالدايم، يحيى، «تيار الوعي والرواية اللبنيانية المعاصرة»، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، يناير، فبراير، مارس، القاهرة، ١٩٨٢ .
- العيد، يماني، في معرفة النص، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣ .
- عواد، توفيق يوسف، طواحين بيروت، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤ .
- قاسم، سيزا، بناء الرواية .
- قنبر، نبيه، «التناثر، والترابط» في «عودة الذئب إلى العرثوق» للديري، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٣٤، بيروت، ربيع ١٩٨٥ .
- كنعان، فؤاد، على أنهار بابل، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٧ .
- مكايي، عبدالغفور، «قصيدة وصورة»، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد ١١٩، نوفمبر/تشرين الثاني، الكويت، ١٩٨٧ .
- نصرالله، أملي، - طيور أبلول، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٦٢ .
- شجرة الدقفل، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٦٨ .
- الرهينة، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٧٤ .

٢ - المراجع الأجنبية :

- Alberes, Rene - Maril, Metamorphoses du roman, Ed. Albin - Michel, Paris, 1967.
- Alberes, Rene-Maril, Histoire du roman moderne Ed. Albin-Michel, Paris, 1970.
- Barthes, Roland, Le degre Zero de l'écriture, Ed. du Seuil, Paris, 1953.

- Barthes, Roland, Essais critiques, Ed. Seuil. 1964.
- Boideffre, Pierre de, Ou va le roman? Ed. Mondiales, Paris, 1962.
- -----, La cafetiere est sur la table.
- Butor, Michel, Passage de Milan, Ed. Minuit, Paris, 1954.
- -----, L'Emploi du temps, Ed. Minuit, Paris, 1956.
- -----, La modification, Ed. Minuit, Paris, 1957.
- -----, Degres, Ed. Gallimard, Paris, 1960.
- -----, Repertoire I, Ed. Minuit, Paris, 1960.
- -----, Repertoire II, Ed. Minuit, Paris, 1964.
- -----, Essais sur le roman, Ed. Gallimard, Paris, 1964.
- -----, Entretiens avec Georges Charbonnier, Ed. Garnier, Paris, 1967.
- Chapsal, Madelaine, Les Ecrivains en personne, Ed. Juilliard, 1960.
- Genelle, Gerard, Figures I, Ed. Seuil, 1964.
- Janvier, Ludovic, Une parole exigeante.
- Le Robert, Dictionnaire de la langue française, article: "Roman".
- Mauriac, Claude, Le diner en ville.
- Michel, Jean-Bloch, Le present de l'indicatif.
- Netzer, Klaus, Der Leser des "Nouveau Roman", Frankfurt am Main, Athenaum, 1970.
- Nouveau Roman: Hier, Aujourd'hui, 2tomes, Ed. 10 / 18, U.E.G. 1972, (ouvrages collectifs).
- Paul Levill, Morton, From a new point of view, Ann Arbor University Press, 1966.
- Ricardeau, Jean, Problemes du Nouveau Roman, Ed. Seuil, Paris, 1967.
- -----, Le Nouveau Roman, Ed. Seuil, Paris, 1978.
- Robbe, Grillet, Alain, Le voyeur, Ed. Minuit, Paris, 1955.
- -----, "Nouveau Roman, Homme Nouveau" La Renne de Paris, Sept. 1961.
- Robbe-Grillet, Alain, Pour un nouveau roman, Ed. Minuit, Paris, 1963.
- Roudaut Jean, Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, Paris, 1964.
- Rousset, Jean, "Trois romans de la memoire", Cahiero internationaux du symbolisme, n°. 9-10-1962.
- Sarraute, Nathalie, Nortereau, Ed. Minuit, Paris. 1953.
- -----, L'Ere du Soupcon, Ed. Gallimard, Paris, 1955.
- -----, Les fruits d'or, Gallimard, Paris, 1963.
- -----, Entre la vie et la mort, Gallimard, Paris, 1968.
- Simon, Claude, Nouveau Roman, Hier, Aujourd'hui, II, Pratiques.
- -----, Orion aveugle, Ed. Skira, Paris, 1970.
- Sturock, John, The French New Novel, Oxford University Press, 1968.
- Thorayal, Bothorel, Dugast, Les Nouveaux Romanciers.
- Wilhelm, Kurt, Der "Nouveau Roman", E. Schimatt Verlas, 1969

صدر حديثاً

توطئة :

ينظر إلى تقارير معهد المراقبة الدولي عن التقدم العالمي نحو مجتمع قابل للبقاء، والمساة بسلسلة (أوضاع العالم) كأحد أنواع المساعدة العلمية المقدمة إلى مجتمعات العالم، بغرض إعانتها على تفادي المصاعب الخطيرة المحتملة قبل الوصول إليها، ونظرا لأهمية هذه التقارير فقد ترجمت كتب (أوضاع العالم) - بعد نشرها على نطاق واسع باللغة الإنجليزية - إلى عدة لغات أخرى، وتوجد ترجمات لها الآن باللغات الأسبانية والصينية واليابانية، إلى جانب بعض اللغات التي يتكلمها عدد أقل من الناس كالأندونيسية والبولونية والرومانية والتايلاندية، ويقدر مؤلفو هذه السلسلة بأن السوق العالمي للكتاب تطلب ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ نسخة في العام الماضي وحده.

وبالنسبة للغة العربية فقد شرع في ترجمة هذه السلسلة إليها ابتداء من الكتاب الثالث (أوضاع العالم ١٩٨٦)، الذي قام بترجمته الدكتور فوزي سهاونة رئيس قسم الدراسات السكانية بالجامعة الأردنية، بالتعاون مع لقيف من زملائه، وقد شجع القبول الكبير الذي قوبلت به الترجمة العربية لكتاب (أوضاع العالم ١٩٨٦) على ترجمة الكتاب الرابع (أوضاع العالم ١٩٨٧)، والذي نحن بصدد عرضه الآن. ويفصح الدكتور سهاونة في تقديمه له عن أمله في أن يتمكن من ترجمة هذه التقارير في السنوات القادمة كلها صدرت ليشرك القاريء العربي في فهم أوضاع العالم في فترة حرجة من تاريخ الإنسانية.

ويقع كتاب (أوضاع العالم ١٩٨٧) في ترجمته العربية في حوالي ٤٩٠ صفحة من القطع الكبير، تتضمن أحد عشر فصلا في مختلف الموضوعات الهامة التي عني المؤلفون بالكتابة فيها، والتي تشير في مجملها، وبمداخل مختلفة، إلى مخاطر أخطا معينة

أوضاع العالم ١٩٨٧م

تقرير لمعهد المراقبة الدولي عن التقدم نحو مجتمع قابل للبقاء.

تأليف: لسترر. براون - ساندرا بوستل - جود جيكبسون - خرسوفر فلافن - سينيثا بولوك - ادوارد س. وولف - وليم يو. شاندلر.

ترجمة: د. عبدالرحمن شاهين - د. فوزي سهاونة - د. عيسى شاهين - د. الياس صليبا - د. سمير سماوي.

عرض وتحليل: أبو الجرح

من السلوك الإنساني المعاصر بالنسبة لبقاء الإنسان ذاته على كوكب الأرض، وتقترح بعض الحلول الممكنة لمواجهة هذه المخاطر على المدى البعيد.



ففي الفصل الأول : (حدود التغير)، من تأليف كل من لسترر . براون وساندرا بوستل، وترجمة د. عبدالرحمن شاهين، يطالب المؤلفان بإجراء مراجعة قاسية لأفكارنا ولأساليب تعاملنا مع الأرض ونظمها الطبيعية، حيث ينتج عن السعي الخثيث نحو التقدم اختراق حدود الأمان في التعامل مع تلك النظم، وتهدد بذلك فرص بقاء الإنسان ذاته فوق كوكب الأرض.

ويضرب المؤلفان المثل بملاحظة الانخفاض الحاد في مستوى الأوزون الجوي فوق القطب الجنوبي، واحتمالات الخطر الداهم من وراء ذلك، وارتفاع درجة حرارة الجو نتيجة تزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الهواء الجوي، والآثار الخطيرة لذلك على مستوى العالم، وتسجيل زيادة سكانية كبيرة في مناطق عديدة بالعالم وما تسببه من ضغط متزايد على موارد الأرض المحدودة.

إن المجتمع القادر على البقاء هو الذي يسد حاجاته دون تقليص إمكانات التقدم للجيل القادم، ولكن الاقتصاد العالمي الذي يتوسع باستمرار تدعّمه للأسف نظم طبيعية لم تتوسع، فتتلاشى مثلاً مساحات كبيرة من الغابات بسبب التوسع في قطعها، أو بتأثير التلوث في الدول الصناعية، وتراجع الثروات السمكية والكائنات الحية في العديد من البحيرات والأنهار بسبب الأمطار الحامضية، تلك التي تؤثر أيضاً على التربة الزراعية فتحمضها، مع أن التربة المحمضة قد تحتاج إلى قرون من الزمن لتستعيد عافيتها.

ومن المآزق التي تواجهها الإنسانية نتيجة ازدياد اعتمادها على الطاقة في إنتاج الغذاء بروز علاقة وطيدة

بين أسعار الحبوب وأسعار النفط، وهي علاقة خطيرة لأن احتياجات العالم من الحبوب في تصاعد مستمر، بينما النفط آخذ في النضوب. ويرى المؤلفان أن الممكن الوحيد أمام بلدان العالم الثالث المهددة أكثر بمخاطر هذه الوضعية هو العمل على الحد من الاستهلاك بوقف نمو السكان، مع العمل على إنتاج غذاء أقل اعتماداً على النفط.

إن كثيراً من النتائج الاقتصادية المترتبة على التدهور البيئي نتيجة اختراق الحدود الطبيعية لا يدركها الإنسان إلا بعد حدوثها، وحينئذ تكون تكاليف التكيف مع الأوضاع المستجدة باهظة. فعلى سبيل المثال يقدر الخبراء أن تكاليف التكيف مع تسخين جو الأرض في القطاع الزراعي وحده ستصل إلى مئات البلايين من الدولارات للحفاظ على الأمن الغذائي العالمي، هذا غير تكاليف التكيف مع الأوضاع المستجدة الناتجة عن ارتفاع مستوى مياه البحار نتيجة ذوبان أنهار الجليد وقمم الجبال القطبية، ومنها تهديد المناطق الساحلية على مستوى العالم، خصوصاً المناطق المكتظة بالسكان في البنجلاديش وأندونيسيا وغيرها، وبعض المدن الكبرى مثل شانجهاي ولندن ونيويورك مثلاً.

إن الغابات والأشجار الأخضة في التلاشي، والمناخ المتغير، والتلوث بالأحماض، وإمدادات البترول المتضائلة، وغير ذلك من الإجهادات والضغط، خاصة إذا ما صحبها صراعات عسكرية، يمكن أن تسوق بعض الأمم أو المناطق في النهاية خلف الحدود الحرجة للاستقرار. وهو أمر يمكن البرهنة على صحته باستقراء عبر الماضي، حيث يثبت تاريخياً أن المجتمعات المتحضرة التي تخطت حدود الاستقرار الطبيعي والاجتماعي في الماضي قد اندثرت حضارتها وانتهت.

ويقرر المؤلفان أن الإحساس بمسؤوليتنا تجاه المستقبل يتطلب وضع أسس علمية وتعاون دولي لمراقبة

الأولى مرة أخرى بارتفاع معدلات الوفيات نتيجة انخفاض مستويات المعيشة.

ويركز المؤلف على ضرورة الوعي بالاتجاهات المتباعدة في الدخل والغذاء، ويبلغ إلى هذا الموضوع بالمدخل المعتاد لدى كُتّاب الغرب الذين يربطون بشكل مباشر بين انخفاض معدل نمو الاقتصاد العالمي بعد سنة ١٩٧٣م وارتفاع أسعار البترول في تلك السنة ثم الارتفاع الثاني آخر عام ١٩٧٩م.

إن تزامن انخفاض معدل نمو الاقتصاد العالمي مع ظهور أثر العوامل الأخرى على الزراعة، كالتجريف التربة، وإزالة الغابات، وغيرها. أدى إلى انخفاض معدل نمو إنتاج الحبوب، وبالتالي معدل النمو في نصيب الفرد من إنتاج الحبوب على مستوى العالم، ويرى المؤلف أن هذه النتيجة هي التي دفعت العديد من دول العالم الثالث إلى الاستدانة للمحافظة على استقرارها، ولكنها مع الوقت أصبحت غير قادرة حتى على دفع الفوائد المترتبة على ديونها الضخمة.

إن معظم هذه الدول المدينة تتمتع بمعدل نمو سكاني سريع يعمل على تخفيض الدخل فيها، ويزيد من عدم قدرتها على إدارة اقتصادها بشكل جيد.

إن تزايد معدل النمو السكاني مع عدم إجراء المزيد من تقسيم الحيازات الزراعية مثلاً، لا يعني إلا المزيد من لا أرض لهم في الريف، والمزيد من العاطلين عن العمل، والمهاجرين إلى مدن الأكواخ حول مدن العالم الثالث، والعابرين للحدود السياسية بحثاً عن عمل، وكل هؤلاء يكونون مصدراً خطيراً لعدم الاستقرار.

إن النزاع الاجتماعي لا بد أن ينشأ من تنافس الأعداد السكانية الكبيرة على المورد الطبيعي المتقلص أو الثابت، وقد يقضي في نهاية الأمر على الانسجام الاجتماعي في المجتمع.

نبض نظم دعم حياة الأرض حتى لا نباحث بنتائج خطيرة لممارسات نزلها عادية في حياتنا.



وفي الفصل الثاني : (تحليل الشراك الديموغرافي)
من تأليف : لسترر. براون، وترجمة د. فوزي سهاونة، يعتمد المؤلف على تحديد طبيعة المشكلة السكانية، وحجمها، وتأثيراتها الخطيرة على مستقبل العالم الثالث الذي لن يفلح في كبح جماح الزيادة السكانية في المدى القريب.

فحسب نظرية الانتقال الديموغرافي لفرانك نوتستين مرت معظم بلدان العالم بالمرحلة الأولى من نمو المجتمعات، التي تكون فيها معدلات المواليد ومعدلات الوفيات عالية، بحيث لا ينمو عدد السكان إلا ببطء شديد، وبلي ذلك دخول المجتمعات في المرحلة الثانية التي تقل فيها معدلات الوفيات نتيجة تحسن ظروف المعيشة والرعاية الصحية، بينما تواصل معدلات المواليد ارتفاعها، فينمو عدد السكان بسرعة كبيرة. وفي المرحلة الثالثة - حيث تقل الرغبة في الإنجاب كما هو الحال الآن في بعض المجتمعات الأوروبية - يحدث نوع من التوازن التقريبي بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات، وتحقق المجتمعات استقراراً ملحوظاً في عدد سكانها.

إن مشكلة الكثير من الدول النامية الآن هي الوقوع في شراك المرحلة الثانية، مع عدم القدرة على الانتقال إلى المرحلة الثالثة، وبذلك يتكسر تقسيم العالم إلى مجموعتين متضادتين من الدول، حيث تدفع معدلات النمو السكاني نصف العالم إلى مستقبل أفضل، والنصف الآخر نحو تدهور بيئي وانحطاط اقتصادي، وفي هذا النصف الثاني ربما تؤدي العلاقة المتدهورة بين السكان والأنظمة البيئية أو الحياتية المساندة إلى تخفيض مستويات المعيشة، وقد تمنعها من إتمام الانتقال الديموغرافي أبداً، بل قد تعود بها إلى المرحلة

وتعكس جزئياً فشل الزراعة في الريف، وتكرس الفروق المتزايدة في مستويات المعيشة داخل المدن .

ويقترن التحضر بازدياد كبير في استهلاك الطاقة، وفي حين تعتمد التجمعات الريفية على الموارد المحلية من الغذاء والماء والوقود، فإن المدن لا تستطيع إلا أن تستورد احتياجاتها هذه من خارجها. وفي المناطق الريفية يمكن استيعاب الفضلات محلياً، بينما تستهلك المدن طاقة كبيرة في جمع القمامة وتنقية ما تجلبه المجاري، وفي المحصلة يحتاج سكان المناطق الحضرية في العالم الثالث إلى طاقة أكبر مما يحتاجه سكان الريف للوصول إلى نفس مستوى المعيشة.

وبسبب النمو الحضري تستهلك مدن أفريقيا وآسيا نصف صادرات أمريكا الشمالية من الحبوب بعد أن كانت القارتان في الماضي مصدرتين للغذاء. ومع ذلك يمكن لتلك المدن توفير الكثير من احتياجاتها الغذائية من تنظيم استعمالات الأرض وإعادة استعمال الفضلات وتسويق المنتجات، كما حدث في شنغهاي وهونج كونج وغيرها .

إن إعادة تدوير ومعالجة المجاري في مزارع محيطية بالمدن في الدول الصناعية والنامية على السواء يعزز الاكتفاء الذاتي في تلك المدن، وقد حدث هذا بالفعل في الصين وفي الكويت والهند وتايلاند وفيتنام، لإنتاج المحاصيل والخضروات وتربية الأسماك بشكل واسع .

إن إعادة تدوير المواد المغذية إذا تمت من خلال استراتيجية صحية عامة وشاملة يمكن أن تساعد مدن العالم الثالث في تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، مع تخفيض التلوث البيئي في نفس الوقت .

ويتبين الآن بوضوح أن معالجة تلوث المياه وتلوث الهواء في المدن يحتاج إلى الجزء الأكبر من تمويل

وتثبت الدراسات وجود علاقة أكيدة بين الازدحام والعنف، لما يتسبب فيه الازدحام من إشاعة التوتر الذي تزداد به احتمالات السلوك الشاذ، وتثار من جرائه الفروقات الدينية والقبلية والإثنية والإقليمية .

وفي حقيقة الأمر ليس أمام دول العالم الثالث المزدحمة إلا أن تنجح في وضع سياسات اقتصادية جيدة وبرامج لتنظيم الأسرة، لأن الفشل في ذلك سيمود بها لا محالة إلى المرحلة الأولى من التحول الديموغرافي. ويتنبأ لسترر . براون بأن إختناق الدول النامية في محاولتها لتخفيض معدل المواليد قد يؤدي بها إلى الانحلال عن طريق التدهور الاقتصادي الناتج عن تدهور الظروف الحية، أي كما حدث للحضارات القديمة عندما لم يكن بالإمكان تلبية حاجات السكان .



وفي الفصل الثالث : (تقييم مستقبل التحضر)
من تأليف لسترر . براون وجود جيكيسون ، وترجمة د . فوزي سهاونة ، يدين المؤلفان الاتساع الديموغرافي المهيمن في أواخر القرن العشرين والمتمثل في سكنى المدن (أو التحضر) .

فتسارع عملية التحضر في بلدان العالم الثالث، بما ينتج عنه من تركيز السلطة السياسية في المدن، قد أدى إلى سياسات تفضيل في الأسعار والخدمات في المناطق الحضرية على حساب المناطق الريفية.

ويزيد معدل نمو المناطق الحضرية في العالم الثالث بما يساوي ثلاثة أضعاف معدل نمو مناطق الحضر في دول العالم الصناعي، مما يربك الإدارة المحلية في تضاعفها من أجل توفير الخدمات الضرورية، كشبكات المياه والصرف الصحي وغيرها .

إن التنمية الحضرية التي كانت تحدث في الماضي نتيجة النجاح الزراعي، فحدث الآن بشكل مختلف،

ومن جهة أخرى تكلف الإتحاد السوفيتي مبالغ كبيرة جدا للسيطرة على الآثار المباشرة للحادث، تتراوح ما بين ٣ بلايين و٥ بلايين دولار، هذا غير خسائر البلدان الأخرى.

ومع ذلك كانت الجهود المبذولة بعد الحادث للتقليل من الآثار الضارة بالصحة العامة في الإتحاد السوفيتي وفي شتى الدول الأوروبية دون المستوى المطلوب بكثير، مما هز ثقة الناس بالسلطات الحكومية، وثقة المجتمع بالتقنيات.

بينما جاءت ردود الفعل القوية من الشعوب نفسها، حيث عادت المظاهرات الضخمة المعادية للطاقة والتسلح النوويين تجوب أوروبا كلها، وامتدت المعارضة لتشمل كل الاتجاهات الأيديولوجية، بل شملت المعارضة بعض دول أوروبا الشرقية والإتحاد السوفيتي نفسه.

ومن جهة أخرى برزت الطاقة النووية كمصدر هام للتوتر بين البلدان المتجاورة، ففي أوروبا - التي يوجد بها ٦٠ محطة نووية ضخمة على بعد يقل عن ١٠٠ كيلومتر من الحدود الدولية - ظهرت الخلافات بين الدنمارك والسويد، وفرنسا وألمانيا الغربية، وألمانيا والنمسا، والمملكة المتحدة وإيرلندا.

إن كثيرا من المقترحات المطروحة لحل هذه المنازعات تبدو مثيرة للجدل بسبب الحساسية المرتبطة بالسيادة القومية، ولكن لابد على أي حال من اتفاقيات تأخذ في الاعتبار الآثار التي قد تصيب الدول المجاورة من جراء إنشاء مشروع نووي.

ما يجري حاليا هو إعادة نظر بالفعل في الحلم النووي حتى إن التوقعات القومية والدولية للقدرة الإنتاجية النووية قد هبطت باستمرار خلال الخمس

الاستثمارات الضرورية للإبقاء عليها، إلى درجة أن اقتصاديات بقاء المدن تتغير الآن وتميل نحو المدن الأصغر.

إن النمو الحضري المكلف هو أحد نتائج التحيز القوي للمناطق الحضرية في مجال الخدمات والرعاية الاجتماعية، وبالتالي هجرة الريفيين لموطنهم لأسباب عديدة، متجهين إلى المدينة، فينخفض الفائض الغذائي المنتج في الريف، ويزداد اعتماد سكان الحضر على الغذاء المستورد، وتضطر الحكومات إلى الاستدانة، وتعرض لضغوط البنك الدولي وصندوق النقد لإلغاء الدعم الغذائي الذي يقيد منه سكان المدن، ولتبنى سياسات تسعيرية زراعية تنشط إنتاج الغذاء المحلي، ولكن ما تحتاجه الدول النامية في الواقع للسيطرة على نمو مدن اليوم هو زيادة الاستثمارات في الريف، لتوفير فرص العمل فيه، ورفع إنتاجيته.



وفي الفصل الرابع : (إعادة تقييم الطاقة النووية)

من تأليف خرستوفر فلافن، وترجمة د. عيسى شاهين، يستعرض المؤلف الآثار المباشرة وغير المباشرة لحادث انفجار مفاعل تشيرنوبل السوفيتي في ٢٦/٤/١٩٨٦م.

لقد قامت الرياح ببعثرة ما تتراوح كميته بين ٥٠ و١٠٠ مليون كيري من الإشعاعات الخطيرة طوال ستة أيام استمر خلالها اشتعال النار في المفاعل المنكوب، وتساقطت هذه الإشعاعات على مناطق تبعد أكثر من ٢٠٠٠ كم من المفاعل، وتشمل ٢٠ بلدا على الأقل. ويتناسب العلماء بحسب حدوث ما بين ١٥,٥٠٠ و١٣٥,٠٠٠ حالة سرطان إضافية، و٣٥,٠٠٠ وفاة إضافية، غير أن الكثيرين من علماء الطب في الولايات المتحدة وأوروبا يتنبأون بأن إصابات السرطان نتيجة الحادث ستفوق كثيرا جميع التقديرات المتفق عليها.

طريق الاقتراض الخارجي بالفوائد العالية، ومع ذلك فإن توقعات الزيادة في استهلاك الكهرباء في المستقبل تضاعف من فاتورة مصاريف الكهرباء، وتؤكد أن أحد العوامل الرئيسية - إن لم يكن العامل الرئيسي فعلا - في تفاقم أزمة مديونية العالم الثالث يرجع الى الحاجة الى استثمارات جديدة في مجال الطاقة الكهربائية لمجاراة معدل النمو المتزايد في طلب الكهرباء.

ولمواجهة هذا الطلب أصبح من المحتم ادخال تغييرات أساسية على مستويات أخرى في إجراءات الصيانة، وزيادة الفاعلية، وإنقاص الفاقد في القدرة الكهربائية المنقولة.

إن رفع فاعلية الأجهزة الكهربائية بحيث تؤدي نفس الأغراض باستهلاك طاقة أقل هو أحد الأساليب الجديدة التي تستطيع الدول النامية الأخذ بها لمواجهة تزايد الطلب على الكهرباء فيها، إلى جانب وضع نظام تسعيرة للكهرباء يعكس الكلفة الحقيقية لها من أجل توفير الحافز اللازم لترشيد الاستهلاك، أي للاستخدام الفعال للكهرباء.

إن كهرية المناطق الريفية تشكل أحد الاهتمامات الرئيسية التي تشغل دول العالم الثالث حاليا، ولكن لسوء الحظ فإن العديد من برامج كهرية الريف ضعيف الإدارة أو خاطيء أو ضعيف التمويل. وغالبا ما يروج لكهرية الريف كهدف بحد ذاته، أكثر منه وسيلة لتحقيق أهداف أهم. في حين أن الكهرباء لن تكون أبدا علاجا سحريا لمشاكل الحياة في الريف.

إن الريفيين يستخدمون الكهرباء أساسا في الطبخ، والكهرباء أثمن من أن تستخدم في ذلك، وفي البدائل المحلية كالأخشاب وبقايا المزروعات وروث الحيوانات كفاية لهذا الغرض، كما يمكن إنجاز عمليات ضخ

عشرة سنة الماضية، لأسباب متنوعة حسب ظروف كل بلد، كالتكاليف الباهظة، والمشاكل الفنية، وسوء الإدارة، والمعارضة السياسية.

إن الشيء المفزع حقا هو أن يمتلك العالم حوالي ٤٠٠ محطة نووية مع عدم وجود خطة مقنعة واحدة لمعالجة الفضلات النووية الناتجة، في الوقت الذي يؤكد فيه الجيولوجيون أن تخزين الفضلات تحت الأرض قد يؤدي يوما الى حدوث مشاكل صحية عامة وخطيرة.

ويشير معدل وقوع الحوادث النووية الى احتمال وقوع ثلاث حوادث أخرى بحلول عام ٢٠٠٠، ولا ينظر الى حادثة تشيرنوبل كحد أعلى للخسائر الممكن حدوثها من حادثة نووية، فهناك محطات نووية أضخم بكثير، ومن الممكن أن تكون الظروف الجوية غير مساعدة وأكثر مما كانت عليه عند وقوع حادث تشيرنوبل، وهناك من البلدان ما لا تسمح له إمكانياته بالتعامل مع الحادث بمثل ما استطاع الاتحاد السوفيتي عمله.

ويخلص المؤلف الى القول بأن التخلي عن الطاقة النووية لم يعد خيارا اقتصاديا فحسب، بل يظهر كأفضل طريق عملي يمكننا سلوكه.



وفي الفصل الخامس : (كهرية دول العالم الثالث)
من تأليف خريستوفر فلاغن، وترجمة د. عيسى شاهين، يعالج المؤلف مسألة كهرية العالم الثالث المثيرة للقلق، لشدة الحاجة التنموية إليها من جهة، ولتكاليفها الباهظة من جهة أخرى بالنسبة للموارد والقدرات المحلية.

وتصل مصاريف كهرية العالم الثالث حاليا إلى ما يقرب من ٥٠ بليون دولار سنويا، يمول معظمها عن

بلاستيكية تحتوي على مركبات بتروكيميائية على درجة كبيرة من النقاء، وإهدار كل هذا هو بمثابة تبديد لمستقبلنا.

ويساهم النمو السكاني وارتفاع مستويات المعيشة وأنماط الاستهلاك العصرية في تكوين فيض القيامة، حتى إن عددا متزايدا من المدن يعاني بشدة من ارتفاع حجم الفضلات، وعدم القدرة على استيعابها والتخلص منها لنقص الإمكانيات.

وتعتبر معالجة القيامة الصلبة عن طريق الطمر تحت الأرض أو الحرق أكثر الطرق شيوعا حتى الآن على مستوى العالم، وإن كان لكل من الطريقتين محاذيرها. فالطمر يزيد من احتمالات تلوث المياه الجوفية ويتطلب البحث الدائم المكلف عن أماكن جديدة بدل التي امتلأت، والحرق يتطلب تكلفة عالية لإنشاء المحارق ويتسبب في تدهور نوعية الهواء بمنطقة المحرقة.

وبالرغم من مساعدة التقدم التكنولوجي في الاستفادة من حرق الفضلات الصلبة في الحصول على الطاقة البخارية أو الكهربائية، فإن الاعتراضات تتزايد على فكرة الحرق هذه، فإلى جانب الخوف التقليدي من تلوث الهواء تنور المخاوف من المشاكل الكامنة في احتراق قيامة تحتوي على مواد كلورينية (البلاستيك والورق المبيض مثلا)، إذ تتجمع جزيئات هذه المواد بالاحتراق مكونة مجموعة من الفيورانات والأكسينات الشائبة التي تعتبر من أخطر المواد الكيميائية على الصحة العامة، وهذه المخاوف هي التي تجعل من التدوير الحل الأمثل من نواح عديدة، فإلى جانب الفوائد الاقتصادية ينطوي التوسع في تدوير القيامة على فوائد بيئية كبيرة، كخفض الطاقة، وخفض تلوث الهواء، وخفض تلوث المياه، إلى جانب خفض نفايات التعدين واستهلاك المياه.

المياه وطحن الحبوب، والعمليات الميكانيكية الأخرى بطاقة الفضلات العضوية أو الطاقة العضوية للإنسان والحيوان عوضا عن استخدام المحركات الكهربائية. وفي كل الأحوال يجب عدم إعطاء الكهرباء الأولوية المطلقة. لأن كهربة الريف خارج إطار استراتيجية عامة للتنمية مآلها الفشل.

ومن المعضلات التي تواجهها كهربة الريف إيصال الكهرباء إلى المناطق الوعرة والجبلية والمناطق النائية التي يصعب توصيل الشبكة القطرية إليها، مما يوجب اتباع سياسة لا مركزية في كهربة هذه المناطق بالاعتماد على مصادر متجددة للطاقة لا تحتاج إلى وقود عضوي، كالمحطات المائية الصغيرة، أو المحطات المعتمدة على مصادر نباتية كالخشب والفضلات الزراعية، أو استخدام قوة الريح أو أشعة الشمس المتوفرة على نطاق واسع في غالبية الدول النامية.



وفي الفصل السادس : (تحقيق إمكانية إعادة استثمار الموارد وتدويرها) من تأليف سينثيا بولوك، وترجمة د. الياس صليبا، نلاحظ التركيز على اثبات الفوائد المتعددة لتدوير المهملات (القيامة).

فاستخراج الألمونيوم من الفضلات بدل إنتاجه من البوكسيت يخفض من استهلاك الطاقة وتلوث الهواء بنسبة ٩٥٪، وأما إعادة تصنيع الورق المستعمل فلا تحفظ لنا الغابات النافعة فحسب، بل وتقلل إلى حوالي $\frac{3}{4}$ كمية الطاقة الضرورية لإنتاج طن من الورق، كما تخفض كمية المياه المستعملة لإنتاج الورق بحوالي النصف.

إن جرد مكونات نفايات العالم يبين وجود فضلات معدنية أثمان من أفضل الخامات، وفضلات ورقية تعادل ملايين الهكتارات من الغابات، وفضلات

وفي الفصل السابع : (المحافظة على الزراعة في العالم) من تأليف لسترر . براون ، وترجمة د. فوزي سهاونة ، يحذر المؤلف من حالة الفوضى التي تتسم بها الزراعة في العالم، والتي يمكن التدليل عليها بالاطلاع على الأسباب الخاطئة التي أدت الى حدوث فائض في حبوب الغذاء في أواسط الثمانينات، وهي : زيادة الأرض المحروقة (القابلة للانجراف)، والدعم المفرط للإنتاج، وانخفاض استهلاك الأقاليم الجائعة من الغذاء .

إن زيادة مساحة الأراضي المزروعة بالحبوب قد تسببت في العديد من المناطق في انجراف كميات من التربة أكبر من المتجدد منها، حتى بدأت بلدان هامة كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين باصدار تشريعات للعودة الى زراعة الأراضي القابلة للانجراف بالأعشاب أو الأشجار بدلا من الحبوب. وعلى ذلك فمن غير المتوقع زيادة منطقة المحاصيل في العالم حتى نهاية القرن الحالي على الأقل، رغم توقعات الزيادة الكبيرة في سكان العالم.

من جهة أخرى أدت إضافة ملايين الهكتارات إلى المساحات المروية في العالم إلى استعمال عال لموارد المياه السطحية والجوفية، ولا يمكن ضمان استمرار هذا التوسع، حيث إن جفاف الآبار، وانخفاض مستوى الماء في طبقات الأرض، والمنافسة المتزايدة على الماء من مصادر غير زراعية كتوليد الكهرباء مثلا، تشير جميعها إلى محدودية الزيادة في مياه الري في المستقبل، ولهذا فإن أرباح الزراعة المروية ستكون معتمدة على الفوائد الناتجة عن الاستعمال الأكثر كفاءة للمياه بدلا من الموارد الجديدة.

ومن الأسباب الخاطئة في إنتاج الحبوب الزائد الاعتماد الكبير على السماد في زيادة الإنتاج، حتى

إن تدوير الفضلات هو على العكس مما يتصوره البعض أكثر جدوى من الناحية الاقتصادية من حرقها لتوليد الطاقة، وذلك إذا تم حساب التوفير في الطاقة اللازمة لإنتاج المواد المدورة من خاماتها.

ويتوقف نجاح برامج التدوير على إشراك المستهلكين أنفسهم في العملية، حيث يمكن لهم تصنيف المواد القابلة للتدوير، وفرزها قبل جمعها، والسماح للآخرين بالحصول منها على الأجزاء المفيدة لهم، على أن تقوم الحكومات بتشجيع جامعي النفايات والشركات التي تقوم بتدويرها والاستفادة منها، ويمكن للحكومات تشجيع المواطنين على المشاركة بزيادة عدد مرات الجمع من المنازل، وتشجيع الاتجاه الى التدوير بفرض رسوم مناسبة على جمع النفايات والتخلص منها بالطرق الأخرى - كالطمر والحرق - بالعمل على خلق طلب مضمون على المنتجات المصنعة من مواد مدورة.

إن القوانين المشددة الهادفة الى منع تلوث الهواء والماء تجعل التدوير أكثر قبولا، كما يمكن فرض ضرائب على الحاويات التي تستعمل لمرة واحدة للحد من استعمالها، أو منح إعفاءات للمنتجات التي تزيد نسبة مكوناتها المصنوعة من نفايات مدورة على ٥٠٪ .

إن فضلات المنازل تصلح سيادا لتحسين التربة، وتصلح الصحف للتحويل الى مواد عازلة في مجال الإسكان، كما تصلح إطارات السيارات في تعبيد الطرق، وهكذا بتنوع الاستخدامات يمكن خلق سوق للنفايات والمواد المدورة، ويؤمن لنا ذلك فوائد كثيرة في عالم يعاني من نقص الأموال ومحدودية الموارد، ويدفع عشرات البلايين من الدولارات سنويا للتخلص من نفايات سكانه .



وفي الفصل الثامن : (رفع الإنتاجية الزراعية) من تأليف ادوارد س. وولف ، وترجمة د. فوزي سهاونة ، ينطلق المؤلف من تقدير كبير للنتائج الطيبة التي حققها استعمال أنواع محسنة من الحبوب ذات إنتاجية عالية ، مع استخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية والمعدات الزراعية ، ولكنه يخلص إلى أن كل ذلك قد لا يكون كافياً لمسايرة الطلب المتزايد على الحبوب في المستقبل ، ويرى أن إعادة اكتشاف طرق الزراعة التقليدية من الممكن أن تساهم بشكل أفضل في حل إشكالية الغذاء للأجيال القادمة .

إن إنتاج الحبوب في بعض المناطق المتقدمة زراعياً قد أصبح قوياً جداً من سقف الإنتاج الحيوي لهذه الحبوب ، ليبقى مفتاح الزيادة المستقبلية في إنتاج الغذاء في العالم بأيدي فلاحي دول العالم الثالث ، أولئك الذين يبلغون حوالي ١,٤ بليون إنسان ، والذين لا يمتنعون عن استخدام أساليب الثورة الخضراء إلا عدم قدرتهم على تحمل تكاليفها .

إن الإفراط في استعمال السباد دون مراعاة الاستخدام الأكفأ له قد لا يكون نافعاً بالقدر الكافي ، أو تقل منفعته . كما لوحظ في عدة دول أوروبية - عما يكون متوقفاً من استخدامه .

أما دول العالم الثالث فتعيش مثقلة بديون خارجية كبيرة تجبرها على الحد من استيراد الأسمدة ، مما يستدعي البحث عن بدائل أقل تكلفة مع الاستفادة من الأبحاث الزراعية حول استعمال الطرق الحيوية لزيادة الإنتاجية .

ويرى المؤلف أن استعمال التوعيات الجديدة من الحبوب لا يقدم حلاً نهائياً لمشكلة الغذاء في العالم ، بل يوفر فقط وسيلة لكسب الوقت إلى أن يتمكن العالم من إبطاء معدل النمو السكاني ، لأنه لا يمكن للمحاصيل أن تزيد إلى ما لا نهاية .

وصل استعمال السباد إلى مستوى التشبع في كثير من البلدان الغربية ، وبدأت بعدها فوائد استعمال السباد في التراجع ، أما بلدان العالم الثالث فلا زالت تدعم استعمال السباد للوصول إلى اكتفاء ذاتي في الغذاء ، ولتشجيع تبني تقنية جديدة ، ولتنشيط عملية إنتاج المحاصيل للتصدير ، ولكن التوسع في استعمال الأسمدة يعمل على زيادة حاجة الزراعة إلى الطاقة المكلفة ، ويقلل من اعتمادها على الأيدي العاملة الرخيصة ، ولا يشجع على استعمال الأسمدة العضوية المتوفرة محلياً .

لقد شهدت الزراعة اعتماداً متزايداً على الطاقة منذ بداية القرن ، نتيجة التوسع في استخدام الوقود الحفري لإدارة مضخات الري وتشغيل الجرارات وصناعة الأسمدة ، وغير ذلك من الإستخدامات ، ولكن انخفاض إنتاج البترول ، سيرغم علماء الزراعة في العالم على تصميم طرق لتخفيض استهلاك الطاقة في عالم يحاول زيادة إنتاج الغذاء من أجل تحقيق الأمن الغذائي .

ويعتبر الدين الخارجي المتزايد في العديد من دول العالم الثالث مصدراً من مصادر الخطر على الأمن الغذائي ، فبينما يزداد النقص في الغذاء ستجد بعض الدول نفسها مضطرة لخفض الواردات بسبب المديونية .

ويخلص المؤلف إلى التأكيد على ضرورة الملاحظة في تقدير الإنتاج الغذائي القابل للبقاء ألا يكون ارتفاع الإنتاج في وقت ما على حساب استنفاد قاعدة الموارد التي يعتمد عليها الإنتاج في المستقبل ، وبالتالي لابد من استبعاد الغذاء المنتج على أراض قابلة للانجراف مثلاً ، واستبعاد أية أراض مروية بمياه جوفية تزيد كميتها على كمية المياه الواردة إلى البئر .



وقت مناسب ، وخصوصاً النتائج المعقدة التي لا يمكن الرجوع فيها .

لقد أثبتت القياسات ارتفاع نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو بشكل مستمر، ويتوقع العلماء وصول نسبة الكربون في الجو إلى ضعف مستواها قبل المرحلة الصناعية حوالي منتصف القرن القادم ، وسترتفع درجة حرارة الجو بسبب ذلك ما بين ١,٥ و ٤,٥ درجة مئوية ، متسببة في ارتفاع مستوى المياه في البحار والمحيطات بحوالي المتر .

وإلى جانب الكربون يتلوث الهواء الجوي نتيجة النشاطات العصرية بذرات الكبريت والرصاص والزنك والكاديوم والنحاس والزنك إلى درجة ثبت ضررها على العديد من الكائنات الحية وعلى صحة البشر .

كما تعمل مجموعة الملوثات من الكلوروفلوروكربون على تدمير طبقة الأوزون الحامية للحياة في طبقات الجو العليا .

وتؤثر تدفئة جو الأرض بفعل زيادة ثاني أكسيد الكربون تأثيراً كبيراً على الأمن الغذائي ، إذ تعمل على خفض رطوبة التربة في بعض المناطق التي تضم أماكن إنتاج الحبوب الرئيسية في العالم كالتي في أمريكا الشمالية والاتحاد السوفيتي .

كما تواجه الأراضي الزراعية المنخفضة - حيث يزرع معظم أرز العالم - خطر الغرق نتيجة ارتفاع مستوى مياه البحار، ومنها مناطق مكتظة بالسكان في أقاليم دالات الأنهار الآسيوية الخصبة .

وتشكل التهديدات المتزايدة من التغيرات في كيمياء الجو على الغابات مشكلة أخرى مكلفة في العقود القليلة القادمة، وقد ظهر أن نتيجة الضغوط الكيماوية على الغابات الأوروبية كانت أكثر سوءاً من كل

إن توفير أنواع من المحاصيل وتكنولوجيا جديدة للمزارعين في البلاد النامية هو أمر ضروري في السنوات المقبلة، ولكن يجب أن يتم ذلك مع تجنب الثمن الاجتماعي والبيئي المصاحب للجيل الأخضر من التكنولوجيا الزراعية.

ويدعو المؤلف إلى إعادة اكتشاف الزراعة التقليدية التي ساعدت المزارعين في المحافظة على خصوبة الأرض لقرون عديدة، كما يدعو إلى الاهتمام بالتقنيات الحيوية الزراعية الحديثة التي تمكن العلماء من التلاعب بجينات النباتات والميكروبات والحيوانات، ومن توفير طرق لتعديل الصفات الوراثية من جيل إلى آخر، غير أن تكاليف هذه التقنيات تعتبر حتى الآن فوق طاقة الكثير من بلدان العالم الثالث، كما أن تزايد تدخل القطاع الخاص في الأبحاث يحمل مخاطر احتكار علمي، ومناقسة شديدة، خصوصاً في مجال تحسينات محاصيل رئيسية كالقمح والذرة، حيث يسهل الاتجار بها على نطاق واسع .



وفي الفصل التاسع : (استقرار الدورات الكيماوية) من تأليف ساندرا بوستل ، وترجمة د . فوزي سهاونة ، يلاحظ الاهتمام الكبير بالكشف عن مخاطر تعطيل الدورات الكيماوية نتيجة السلوك اليومي لإنسان العصر ، الذي وصل إلى درجة كافية لتقويض الأنظمة الطبيعية التي تطورت على مر ملايين السنين .

فتقلص الأمن الغذائي نتيجة التغير المناخي ، وموت الغابات نتيجة تلوث الهواء والأمطار الحمضية ، والأخطار الصحية الناتجة عن التعرض للملوثات الكيماوية في الطبيعة، هي أخطار يحيط بها جميعاً الكثير من الغموض العلمي ، حتى أن المشكلة الماثرة الآن هي مشكلة تغيرات لا يمكن استباق حدوثها في

سيكون ؟ لأن الاقتصاد القادر على الثبات هو الذي يتم مع حفظ الموارد التي لا يمكن استبدالها .

ويرى شاندلر أن أمثل تقسيم للأمم إنما يأتي من مقارنة درجة اعتماد اقتصادها على السوق . والطريقة التي تتبعها في استعمال الموارد ، وإذا كانت معظم دول العالم الثالث قد اختارت بعد الاستقلال نمط الرقابة المركزية على الاقتصاد أكثر من تبني اقتصاد الاعتماد على السوق فإنه من الواضح أن العالم يمر الآن بنقطة تحول في الإدارة الاقتصادية ، وأبرز مثال على ذلك التحول الصيني المفاجيء نحو آليات السوق ، ليس فقط لأن عدداً هائلاً من الناس تأثر من جراء ذلك ، ولكن أيضاً بسبب النجاحات الأولى التي حظي بها الإصلاح المثير .

إن إنتاجية الأرض مع إنتاجية الأيدي العاملة هما معياران هامان في الأداء والتفديز ، ويكشفان دائماً عن مزايا أنظمة التعامل مع السوق والاعتماد عليه . كما أن ترتيب الأمم وفق إنتاجية العمالة الزراعية يظهر ميزة فعالة لاقتصاديات السوق ، حتى إن استمرار تدني الإنتاجية الملاحظ في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية يجعل من العسير على هذه البلدان أن تكون قادرة على الثبات اقتصادياً .

كما أن عدم كفاية الطاقة (بمعنى الاستعمال غير الكفهي لها) يساهم في إضعاف قدرة المجتمع على الثبات ، وهو ما يلاحظ في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية ، حيث تبين الإحصاءات أنها سيحتاجان إلى ضعف كمية الطاقة للفرد الواحد كالمتوفرة في الدول الغربية للوصول إلى مستوياتها نفسها في الحياة ومستوى الخدمات .

ويرى المؤلف أن الحكومة عندما تسيطر على الإنتاج الصناعي بشكل مباشر ، تكون الكفاية منخفضة ، قبل

التوقعات ولم يستطع العلماء مطلقاً التنبؤ بحجم التلف الذي أصاب الأشجار .

وتمثل التغيرات في التربة أصعب المشاكل ، لأنه لا يمكن عكسها في المستقبل القريب ، وبصفة عامة يحدث المزيد من الدمار كلما زاد تراكم الضغوط الكيماوية على مر الزمن ، وفي النهاية يمكن أن تصل الأنظمة الطبيعية إلى نقطة حرجية من الضغط لن تكون قادرة على تحملها بعد ذلك .

وكما هو الحال بالنسبة للأشجار تعمل الملوثات على تهديد صحة الإنسان وتقصير حياته ، حتى إن مكتب التقييم التقني قدر أن خلطة الكبريت الحالية والمواد الأخرى في الهواء قد تسبب ٥٠ ألف حالة وفاة في الولايات المتحدة سنوياً .

هذا غير ترسبات المعادن الضارة بالجسم البشري ، والتي يمكن أن تصل عن طريق الأغذية كالأسمك والخضروات المعرضة للتلوث ، ويتحقق الضرر بزيادة تركيزها في الجسم بمرور الوقت .

ولهذا تبرز الحاجة الملحة إلى وضع استراتيجية لتقليل أضرار الكيماويات على بيئة وصحة الإنسان ، مع ملاحظة أن الإجراءات المطلوبة فوراً تحتاج إلى تعاون دولي حقيقي ، لإنقاذ مستقبل الأرض . ويستطيع العديد من المعاهد أو المؤسسات المساعدة في بناء هذا التعاون اللازم ، مثل برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة ، واللجنة الاقتصادية لأوروبا التابعة للأمم المتحدة أيضاً ، والمجموعة الاقتصادية الأوروبية ، ومنظمة الأرصاد العالمية ، وغيرها .



وفي الفصل العاشر : (التخطيط لاقتصاديات قادرة على الثبات) من تأليف وليم يو . شاندلر وترجمة د . عبدالرحمن شاهين ، يذكر المؤلف بالأجيال القادمة عند الإجابة عن السؤال : كيف ينتج الشيء ؟ ولبن

أن يستدرك قائلا إن الأسواق وحدها لا تستطيع أن تحفظ الأمم داخل حدود تنمية قادرة على الثبات، أو أن تحل مشاكل الظلم التي تلحق بالإنسان وتقوم بسد حاجاته .

إن الوضع على مستوى العالم يشير إلى توقف الاتجاه نحو رقابة حكومية أكبر على الاقتصاد، والعديد من الأمم قررت ترك النشاطات الاقتصادية الداخلية تحت تصرف آليات السوق، وبدأت تجني ثمار هذا التحول، كما هو واضح في الصين وهنغاريا وزمبابوي، أما الأمم التي لم تتحول، مثل البرازيل والمكسيك ومصر، فهي متجهة نحو المتاعب .

ويقرر المؤلف أن الإنتاجية الزراعية قد تدنت في كل بلد اتبع سياسة التخطيط المركزي على مدار العشرين سنة الماضية، في حين أنها تستمر في الازدياد في البلدان المعتمدة على السوق، حيث يتمتع سكان هذه البلدان بمتوسط عمر أعلى مع معدل وفيات أقل في الأطفال، وهي مؤشرات تدل عموما على رفاهية أعظم .

ولكن على الرغم من مزايا الاقتصاد المعتمد على السوق فلا سبيل إلى إنكار ضرورة تدخل الحكومات على مستوى اقتصادي كلي من أجل حفظ توازن النظم الاقتصادية ورقابة التكاليف الخارجية .



وفي الفصل الأخير : (رسم مسار قابل للبقاء) من تأليف ليستر ر. براون وإدوارد س. وولف وترجمة د. سمير سايوي، يقرر المؤلفان أنه لم يعد ممكنا ترك رجال الاقتصاد وحدهم للقيام بمهمة رسم مسار التنمية، فالاعتبارات الاقتصادية البحتة، التي لا تأخذ في الاعتبار خطورة الضغوط المتزايدة على أنظمة الدعم الطبيعية، توشك أن تدفع بمستقبل الحياة فوق كوكب الأرض إلى الهاوية .

إن التحدي العلمي يثبت لنا أن الأرض لا زالت بعد كل هذا التقدم محاطة بجهل يستغرق تهديده وقتا طويلا، ويحتاج إلى مجهود فكري كبير. والحقيقة أن البحث العلمي لا يزال يعاني من قيود الالتزام الصارم بالتخصص، والتجزئة الجغرافية، وعدم الالتزام ببرامج بعيدة المدى، في حين يمضي العالم في سباق مفروض عليه يحتم العمل على ثلاث جهات عريضة على الأقل : الالتزام الدولي لإتمام التحول الديموغرافي، والحد من انبعاث الكربون، والقيام بثورة ثانية في مجال الطاقة. ويرى المؤلفان أن هذه الجهات الثلاث توفر مقياسا يقاس به مدى التقدم العالمي نحو حياة مستقرة .

إن إتمام التحول الديموغرافي في العديد من بلدان العالم الثالث أصبح شرطا لنجاتها من الانهيار البيئي، والتدهور الاقتصادي، وبالتالي التفكك الاجتماعي .

أما مسؤولية إعادة التوازن لدورة الكربون في الطبيعة، فيوزعها الكاتبان على البلدان الصناعية والنامية على السواء، لأنهما معا كانا مسئولين عن اختلالها، حيث تطلق البلدان الصناعية خمسة بلايين طن من ثاني أكسيد الكربون إلى الجو من حرق الوقود، كما أن إزالة الغابات وإحراقها في الدول الاستوائية النامية يطلق ما بين ٦,٠ إلى ٦,٢ بليون طن .

وأولى الخطوات في سبيل تخفيض الكربون المنبعث إلى الجو هي العمل على تخفيض استهلاك الوقود الحفري، بالإضافة إلى إمكانية زيادة فعالية الطاقة في الاقتصاد العالمي، واستعمال مصادر الطاقة المتجددة حيثما أمكن ذلك، إلى جانب الحد من انحسار الغابات والعمل على زراعة الأشجار بشكل واسع لموازنة الضغط الناتج عن إزالة الأحراج .

إن الاستقرار في انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون من الوقود منذ عام ١٩٧٩ م بسبب ارتفاع أسعاره هو في

حتى بدا السياق الى حد كبير وكأنه مؤلف واحد، وهو ما يعني نجاح المؤلفين في التنسيق فيما بينهم أثناء الكتابة والمترجمين أثناء الترجمة.

وتمتاز الترجمة العربية التي نحن بصدها بأسلوب شيق مناسب، يزيد من تشويق الكم الهائل من المعلومات المتدفقة عبر الصفحات.

والكتاب مزود إلى جانب ذلك بالكثير من الأشكال والجداول التوضيحية، والإرجاعات الجيوجرافية والفهارس التفصيلية، ويبدو جليا حرص مؤلفيه على مخاطبة المثقف العادي والمتخصص على السواء، وإثارة الاهتمام لدى الجميع بالقضايا المطروحة.

أما من حيث الموضوع فيكتسب أهميته من طبيعة القضايا التي يثيرها الكتاب، وتعلقها بمستقبل الحياة فوق كوكب الأرض، والمقترحات المطروحة لتدعيم قدرتنا وقدرة أحفادنا على البقاء.

ولقد التزم المؤلفون بحرص شديد على إثارة قلقنا حول المستقبل من جراء الممارسات اليومية التي تبدو عادية للكثيرين منا، وبلغ بهم هذا الحرص مداه، فسادت في الكتاب نزعة من التشاؤم العام بخصوص معظم المسائل المثارة، ابتداء من مشاكل الطاقة، إلى مشاكل النمو السكاني، إلى مخاطر التغير المناخي.. وغيرها، غير أن الصواب في رأينا هو عدم الإدلاء بأحكام قاطعة على هذا النحو فيما يتعلق بالمستقبل.

إن العقل البشري لا زال قادرا على صنع المفاجآت، وليس من الحكمة مصادرة المستقبل أمامه، بقطع الطريق على ما يمكن أن يقدمه من اكتشافات وانتكارات لمواجهة تحديات البقاء في القرون القادمة. ومن المعروف تاريخيا أن شهادات علمية في أواخر القرن الماضي كانت تؤكد استحالة انتقال الصوت عبر

نظر المؤلفين ثورة طاقة أولى. ويطلبان ثورة ثانية للعمل على تخفيض انبعاث ذلك الغاز، وليس فقط استقراره، من أجل درء مخاطر التغير المناخي وتقليل نسبة التسمم، والإقلال من تكاليف التكيف مع المتغيرات.

إن الالتزام بإعادة التوازن لدورة الكربون يستوجب مشاركة جميع البلدان نظرا للمسؤولية المشتركة في الإخلال بتلك الدورة، وأيضا لأن الآثار الناتجة عن ذلك لن تفرق بين دولة وأخرى.

ولكن السؤال الهام الذي يثار مرة بعد مرة هو عن كيفية توزيع المسؤولية تجاه المشاكل العالمية على المجتمع الدولي. ويجب المؤلفان بأن عددا محدودا من الدول هي التي تحمل مفتاح النجاح في هذا المجال أو ذاك، ويجوز تسميتها (بمراكز القرار).

ففي مجال النمو السكاني تعتبر الصين والهند مركزين للقرار في آسيا، ونيجيريا ومصر في أفريقيا.

وفيما يتعلق بإعادة التوازن لدورة الكربون بالحد من إحراق الوقود فإن القرار هو في يد مجموعة قليلة من البلدان على رأسها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين.

وفي وقف انحسار الغابات تكون البرازيل وأندونيسيا وزائير مراكز للقرار المطلوب.



تقييم الكتاب :

إن اشتراك سبعة من المؤلفين في تأليف هذا الكتاب، ثم خمسة من المترجمين في ترجمته، كان كفيلا بالقضاء على تجانس فصوله وأفكاره، غير أن القارئ لا يشعر بانتقالات عنيفة في مطالعته إياه،

ضاغطا على الاقتصاد والبيئة، متجاهلا الآراء الأخرى التي ترى أن الثروة البشرية هي طاقة يصح حسابها من الموارد إذا أمكن إتاحة السبل للإنسان كي ينتج أكثر مما يستهلك

ذلك أن الأصل هو كون الإنسان عنصرا أساسيا من عناصر التنمية، لا تقوم إلا به، ولا يجب أن تكون إلا من أجله. أما الوضع الطارئ الذي يصبح فيه الإنسان معوقا للتنمية فالمفروض أنه وضع شاذ لا يحدث إلا في ظروف سقيمة على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي .

ولا ننفي بذلك أن الزيادة السكانية يمكن أن تشكل عبئا ثقيلا على مسيرة التنمية في بعض المجتمعات، وفي مراحل معينة من مراحل تطورها مما يوجب على الحكومات التعامل معها بالقدر اللازم للحفاظ على ثمار الجهود التنموية ورفع مستوى معيشة السكان. ولكن تعميم هذه الصورة بحيث لا تكون الزيادة السكانية إلا عائقا للتقدم، ويشكل مطلقا، لا يعبر في رأينا عن التزام دقيق بمنهج علمي في تناول المشكلة .

أما القضية التي يثيرها الكتاب حول المسؤولية المشتركة للبلدان الصناعية والنامية في تلويث البيئة فقد سبق إثارتها على نطاق واسع، ويجب عدم المساواة المطلقة في تحمل هذه المسؤولية بين الدول الغنية والدول الفقيرة، فأولا حجم المسؤولية نفسه مختلف، إذ أن مساهمة قطع غابات العالم النامي في انبعاث الكربون هي تقريبا نصف مساهمة حرق الوقود في العالم الصناعي، إلى جانب أن الدول الصناعية تملك من الامكانيات للمادية والعلمية ما تستطيع به القيام بدور أكبر، في حين أن الدول النامية لديها أولويات أخطر بكثير في سعيها لتطوير مجتمعاتها ورفع مستوى

الأسلاك، واستحالة تشغيل مصباح كهربائي، وأعلن عالم فيزياء بريطاني سنة ١٨٩٧م أنه لا مستقبل للراديو. وفي العام الأخير من القرن الماضي (١٨٩٩م) طلب تشارلي هـ. دويل مفوض مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة من الرئيس ماكينلي إلغاء مكتبه لأن كل ما يمكن اختراعه قد اخترع، ومنذ الإدلاء بهذا القول تم اعتماد ما يزيد على ٤ ملايين براءة اختراع في الولايات المتحدة وحدها حسبما ذكر ريتشارد نيكسون في كتابه الأخير (١٩٩٩ - نصر بلا حرب).

كما أن توقعات توماس مالتس المتشائمة حول زيادة السكان في القرن العشرين بمعدل أكبر من الزيادة في الغذاء قد ثبت عدم صحتها حتى الآن.

الحقيقة أن هذه الخلفية التاريخية بعضها الآن كوننا على عتبات عالم جديد تلعب فيه الإلكترونيات دورا متزايدا الفاعلية، وتبشرنا إمكانيات الجيل الخامس للحاسبات الإلكترونية بما هو فوق الخيال، إلى جانب الأبحاث المثمرة في مجال زراعة المحيطات والبحار بالنباتات والطحالب الغذائية، وانفتاح أبواب الأمل في مستقبل التقنيات الحيوية الجديدة، إلى آخر ما يمكن أن تكون به الأجيال المقبلة - ربما - أسعد حظا من الجيل الحالي.

إن أسباب التفاؤل هذه قد لا ترسم لنا حدود الأمان بالنسبة للمستقبل، في ظل مشاكلنا الحالية وسلوكنا مع نظم الأرض الطبيعية، ولكنها مع ذلك كافية لموازنة تحفظنا على التفاؤل المفرط الذي لاحظناه في الكتاب، وعلى إصدار أحكام قطعية بالنسبة للمستقبل، دون أن نقصد، بذلك مواجهة المشاكل التي أثارها شيء من اللا مبالاة وعدم الاهتمام .

وبخصوص مشكلة النمو السكاني يقدم الكتاب وجهة نظر وحيدة لا يرى تزايد السكان بها إلا عبئا

الشائك. والمعروف أن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي يضغطان باستمرار على تلك الحكومات لإلغاء الدعم دون النظر إلى مجمل الظروف الاجتماعية والاحتياجات السياسية في البلاد، وفي المرات التي حاولت الحكومات فيها الاستجابة لضغوط صندوق النقد الدولي تفجرت القلاقل السياسية والاضطرابات الاجتماعية، وانسلخت المظاهرات وأعمال العنف الشعبية، كما حدث في مصر (يناير ١٩٧٧م)، وفي تونس (يناير ١٩٧٨م)، وفي الدار البيضاء ومدن المغرب عموماً (في صيف ١٩٨١م)، وفي تركيا (١٩٧٩م)، وفي السودان (١٩٨٥م)، وفي بيرو (١٩٧٨م)، وفي بنما (١٩٨٥م)، والأرجنتين (١٩٨٥م)، وتشيلي (١٩٨٥م)، وجمهورية الدومينيكان (أبريل ١٩٨٤م وفبراير ١٩٨٥م) واشتهرت هذه الاضطرابات باسم (اضطرابات صندوق النقد الدولي).

إن فكر المؤسسات المالية الدولية هو فكر محاسبي لا شأن له بالأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلد المدين، أي لا شأن له بحقوق الإنسان في توفير احتياجاته الأساسية أو عدم توفرها، ولكن كتاب (أوضاع العالم ١٩٨٧م) يهتم بالإنسان، جيله الحاضر وأجياله المقبلة، والأجدر بمؤلفه أن يحاولوا اقتراح إجراءات وسياسات تعين على تخطي الأزمة أو تخفيف منها بعيداً عن آراء تلك المؤسسات الدولية، على أساس أن الحل ليس في مجرد إلغاء الدعم، بل في علاج الخلل ما بين هيكل الأجور والأسعار والإنتاجية، ولا يصلح معالجة مشكلة الدعم على حساب تفاقم المشكلات الأخرى.

وبتأثير الفكر المحاسبي نرى في موضع آخر شبهة تنكر لحقوق الإنسان الريفي في المجتمعات النامية، حيث يستكثر المؤلف عليه التمتع بمزايا دخول

معيشة مواطنيها، وهي بالكاد قد بدأت في تصنيع نفسها. ولقد أبرزت المناقشات الدولية حول ضرورة الحفاظ على البيئة ضرورة توسيع مفهوم البيئة، ليشمل البيئة الاجتماعية إلى جانب البيئة الطبيعية، ومنذ عام ١٩٧٢م رفع شعار (الفقر هو أكبر ملوث للبيئة).

وفي المرات التي تطرق فيها المؤلفون إلى مشكلة مديونية العالم الثالث تم إسناد هذه المديونية الثقيلة إلى سوء الإدارة في البلدان النامية وقلة الموارد وميراث التخلف، أي أسندت المسؤولية إلى البلدان المدينة نفسها، مع إغفال مسؤولية الدول الغنية التي نهبت لقرون ثروات البلدان النامية وقبعتها من تراكم رأس مالها اللازم لانطلاق نهضتها الصناعية، وإغفال الظلم الذي تكرسه القوانين الاقتصادية الحاكمة لعلاقات التبادل التجاري الدولي، حيث تحدد الدول الصناعية الغنية من طرف واحد أسعار المنتجات الأولية التي تستوردها من بلدان العالم الثالث، وتحدد من طرف واحد أيضاً أسعار منتجاتها الصناعية التي تستوردها تلك البلدان، وما بين الأسعار هنا وهناك من فارق متزايد لا يمكن تسميته بغير النهب الحقيقي الحديث لبلدان العالم الثالث، وفي النهاية بإغفال الدور الذي لعبته بنوك تلك الدول الغنية حين ألحّت على بلدان العالم الثالث في فترة من الفترات لتتعرض، ولتزيد من الاقتراض بما يشبه الغواية، حتى أوقعتها في مصيدة الديون بما لا تستطيع معه فكاًكا، لتتواصل عمليات النهب عن طريق الفوائد المركبة والأقساط إلى الحد الذي تندفق فيه الأموال في اتجاه عكسي من البلدان الفقيرة إلى البلدان الغنية.

وفي المواضع التي تناول فيها المؤلفون قضية الدعم الذي تقدمه بعض الحكومات إلى مواطنيها من خلال أسعار منخفضة للسلع الأساسية، نلاحظ تبني المؤلفين لوجهات نظر المؤسسات المالية الدولية في هذا الموضوع

ذلك على انجراف التربة وعلى زيادة ثاني أكسيد الكربون في الجو . والحل الأمثل في رأينا ليس في منع الفلاح من استخدام الكهرباء ، ولكن بتوفير الكهرباء من مصادر محلية متجددة كاللحاء والرياح وأشعة الشمس .

وفي تقييمنا للكتاب نود أخيرا الإشارة إلى بعض مواضعه التي بدت - على غير الحقيقة - كما لو كانت جزءا من دعاية سياسية ، خصوصا في الفصل العاشر الذي كتبه وليم يو . شاندلر معندا مزاي الاقتصاد المعتمد على السوق ، مستخدما عبارات جازمة كان من الممكن معالجة الفكرة فيها دون الوقوع في شبهة التحيز ، خصوصا وأن الاتجاه نحو اقتصاديات السوق وتدعيم القطاع الخاص الذي أصبح ظاهرة عالمية لا يعبر عن انتفاءات أيديولوجية بقدر ما يعبر في الأساس عن الأخذ بدروس التجربة والاستجابة لمتطلباتها .

الكهرباء ، كأن حق التمتع بهذه المزايا حكرا على أهل المدن ، ولقد عبر بعض الكتاب الآخرين في مرات عديدة عن أسفهم لتعود الفلاح على السهر أمام التليفزيون منذ دخول الكهرباء إلى القرية ، وأنه يستهلك الكهرباء ليصبح متأخرا ، ولتقل إنتاجيته ، كأن السهر أمام التليفزيون لا يجوز إلا للمتخضرين من سكان المدن ، أو أن التليفزيون ليس في الحقيقة إلا إحدى وسائل التثقيف الذي هو حق للفلاح ، وواجب على الدولة ، وذو دور في نجاح التنمية ورفع مستوى المعيشة وبت التوعية الصحية والاجتماعية المفيدة .

إن أحد مؤلفي الكتاب ينصح الفلاح باستخدام الخسافات المحلية من الأخشاب وروث البهائم والمخلفات الأخرى في الطبخ لأن الكهرباء أئمن من أن يطبخ بها ، دون أن يلتفت إلى التحذيرات الأخرى من خطورة التوسع في حرق الأخشاب وخلافها ، ومن أثر

أولاً : موضوع بحث الكتاب :

تمثل ظاهرة الثقافة العربية الإسلامية العالمية منذ عصر التدين حتى عهد ابن خلدون موضوع الكتاب الثاني في سلسلة نقد العقل العربي الذي أصبح محور اهتمام المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري . وتشمل كلمة العالم هنا التراث الثقافي المغربي المكتوب الذي أنتجته شخصيات ومذاهب ومدارس فكرية عربية إسلامية ذات مكانة مرموقة في عالم المعرفة . ومن ثم « فبنية العقل العربي » ليس بكتاب وتحليل ونقد لعقل سواد الشعب للأمة العربية الإسلامية ، وإنما هو نقد وتحليل لآليات العقل العربي المثقف حتى عصر ابن خلدون . فالكتاب بهذا الاعتبار يمكن وصفه بأنه بحث متعمق يتنسب الى عالم الاجتماع الثقافي بالمعنى المعاصر لهذا المصطلح . وهكذا فهو يختلف على عدة مستويات عن بعض الكتب الأجنبية التي اهتمت بدراسة العقل العربي The Arab mind في الحقب الأخيرة .

ثانياً : الأنظمة المعرفية للثقافة العربية الإسلامية العالمية :

عما لا شك فيه أن مؤلفات الثقافة العربية الإسلامية العالمية تمثل تراثاً معرفياً ضخماً . وإن مشروع الجابري يمثل في الحقيقة خطوة جادة لعلمة هذا الزاد المعرفي وجعلنا نقرب أكثر من فهم مُنظم لظاهرة الثقافة العربية الإسلامية العالمية .

فبعرضه وتحليلاته وتعليقاته الإضافية على أمهات كتب وأطروحات هذه الثقافة بين عصر التدين وعهد صاحب المقدمة توصل المؤلف الى تحديد ثلاثة أنماط من

بنية العقل العربي نقد العقل العربي^(١)

تأليف : محمد عابد الجابري
عرض وتحليل : محمد الزواري^(٢)

(١) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) أستاذ الاجتماع بجامعة لوزنسيان ، أنتاريو ، كندا .

الأنظمة المعرفية التي عرفتھا الثقافة العربية الإسلامية العالمية ، وهي النظام البياني (البيان) والنظام المعرفي (العرفان) والنظام البرهاني (البرهان) .

فينتسب إلى النظام المعرفي البياني كل من اللغويين والنحاة وعلما البلاغة وأصول الفقه والكلام . ويستند هذا النظام المعرفي أساساً إلى النص (القرآن والحديث) والإجماع والاجتهاد كسلطات مرجعية في تشييده لتصوره للعالم ومن ثم خدمة العقيدة الإسلامية وبالأحرى فهمها (ص) (٣٨٤) .

أما العرفان فهو في نظر الكاتب (جملة التيارات الدينية التي يجمعها كونها تعتبر أن المعرفة الحقيقية بالله وأمر الدين هي تلك التي تقوم على تعميق الحياة الروحية واعتماد الحكمة في السلوك ، مما يمنح القدرة على استعمال القوى التي هي من ميدان الإرادة فالعرفان يقوم على تحنيد الإرادة بديلاً عن العقل) ص (٢٥٣)

وأخيراً فإن النظام البرهاني يرى أن اكتساب المعرفة بالكون ككل أو كاجزاء لا يتم إلا بواسطة قوى الانسان الطبيعية من حس وتجربة ومحاكمة عقلية (ص ٣٨٤) . ويؤكد الدكتور الجابري أن لأرسطو دوراً كبيراً في نشر منهج النظام البرهاني في تراث الثقافة العربية الإسلامية العالمية .

وهكذا يتضح أن عقل هذه الثقافة ليس بالعقل التجانس ، وإنما يتفرع في الحقيقة إلى ثلاثة عقول كما رأينا . ونتجت عن ذلك مصادمات غير هينة بين هذه الأنظمة المعرفية كان أخطرها في رأي صاحب الكتاب تراجع العقل البرهاني أمام العقل البياني الذي عرفه العالم العربي الإسلامي منذ عهد الانحطاط حتى العصر الحديث .

ثالثاً : أمثلة لطبيعة العقل البياني :

إن واحدة من الأطروحات الرئيسية التي شغلت بال العقل البياني هي بالتأكيد - في نظر المؤلف - إشكالية اللفظ والمعنى . فسيبويه ، عالم النحو العربي المعروف ، يُشير بوضوح إلى وجود هذه الإشكالية في اللغة العربية الفصحى . فيلاحظ سيبويه أن المتكلم باللسان - العربي الفصيح لا يمكن أن يُعبر بهذا الأخير بطريقة صحيحة إلا إذا أعطي الاهتمام اللازم للمعنى . أي أن المتحدث بلغة الضاد الفصيحة ينبغي أن يُفكر وهو يتكلم أو يتكلم وهو يُفكر فمناطق المعاني متداخلة حتماً مع اللفظ اللغوي عند سيبويه (ص ٤٨) .

ويسوق الدكتور الجابري بهذا الصدد المناظرة الشهيرة التي جرت في بغداد بين المنطقي أبي بشر مي بن يونس من ناحية وأبي سعيد السيرافي النحوي المعتزلي من ناحية ثانية. والمسألة المطروحة هنا هي في رأي الكاتب مسألة منطقية بحثة ورغم ذلك فإن أبا سعيد السيرافي لجأ إلى منطق النحو في القضية المطروحة بين المناظرين . فالنحاة على العموم طالما ربطوا بين منطق اللغة ومنطق العقل في تفكيرهم وأبحاثهم . وهكذا تبين إشكالية اللفظ والمعنى عند العقل كما يراها مؤلف الكتاب .

أما علماء أصول الفقه فإن النص القرآني أو الحديثي يهيمن عندهم على استعمال واستبصار العقل . إن الدلالة والاستدلال عندهم عمليتان مترابطتان : أي أن تصرف العقل في معنى اللفظ محدود إلى حد كبير . وبعبارة أخرى فإن صاحب الكتاب لا يتردد في القول بأن وظيفة العقل عند علماء أصول الفقه وظيفة ثانوية بالنسبة لمندلول النص . (فالاجتهاد هو إذن عبارة عن استشعار للنص . وإن المعقول هو أيضاً معقول النص) (ص ٥٣) .

لذلك . إن هذه النظرية مزدوجة الطبيعة : نظام الخطاب ونظام العقل . لكن علاقة هذين الأخيرين الواحد بالآخر تضاهي علاقة اللفظ بالمعنى ، إذ أن النظم هي تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل .

وباختصار ، فإن تكوين العقل البياني يركز اهتمامه أساساً على نظام الخطاب وليس على نظام العقل . وذلك يعني أن البياني لا يعتمد على نظام السببية كما هو الأمر في نظام العقل . ومن نتائج طبيعة العقل البياني ، كما يشير صاحب الكتاب إلى ظاهرة الاهتمام من جهة ، يتجنب التناقض بين الكلمات في الثقافة العربية الإسلامية العالمة ومن ناحية أخرى ، عرفت هذه الثقافة ظاهرة التناقض بين الأفكار . وما الاعتناء بفن البديع في الخطاب (خاصة في العصر العباسي) إلا ملمح من ملامح هيمنة اللفظ على المعنى ، الأمر الذي أدى إلى إغفاء عقلي في هذه الثقافة في رأي الدكتور الجابري (١٠٨) .

وبالإضافة إلى إشكالية اللفظ والمعنى التي عرقلت تحرر العقل البياني وصفاء تفكيره العقلائي فإن المؤلف يرى أن « القياس البياني » زاد الطين بلة . إذ أن هذا القياس « لا يعني استخراج نتيجة تلزم ضرورة عن مقدمتين أو أكثر بل يعني إضافة أمر إلى أمر آخر بنوع من المساواة . إنه ليس عملية جمع وتآليف بل هو عملية مقارنة ومقاربة . إن القائل لا يصدر حكماً من عنده لا يبتدئ بل يمدد حكم الأصل إلى الفرع ، إثباتاً أو نفياً اعتماداً على ما يجده هو من شبه بينها يبدد القياس » (ص ١٣٨ - ١٣٩) .

إن لزوم قياس العقل البياني لزوم غير ضروري ، إذ أن العلة غير مصرح بها بل يلتبسها المستدل من ملامح (إمارات) يعتقد أن الشارع أنط الحكم بها من أدلة في

تتضح هيمنة القواعد اللغوية أو أبواب الخطاب ، كما كانت تُسمى ، على مؤلفات علماء أصول الفقه . فأبواب الخطاب هذه تشغل ما لا يقل عن ثلث حجم الكتاب . وكمثال على ذلك يمكن ذكر كتاب « المعتمد في أصول الفقه » لأبي الحسين البصري المتوفي في عام ٤٣٦ هـ . علماً أن هذا الكتاب يُعد أهم أربعة كتب في أصول الفقه المعتزلي الممثل الرسمي والمخلص للنظام المعرفي البياني . ومن ثمَّ يخلص الدكتور الجابري إلى القول بأن النشاط العقلي في علم أصول الفقه هو نشاط وحيد الاتجاه : الانطلاق من اللفظ إلى المعنى كما هو الشأن في علوم النحو واللغة والبلاغة : بذلك أصبح - في رأي المؤلف - الاجتهاد في علم أصول الفقه اجتهاداً في اللغة التي نزل بها الذكر الحكيم وهذا الانشغال بالمسائل اللغوية لدى هؤلاء العلماء تم على حساب اهتمامهم بقضايا مقاصد الشريعة (ص ٦٣) .

يرى المؤلف أن علم الكتاب كجزء من النظام المعرفي البياني لم يتحرر هو الآخر من سطوة إشكالية اللفظ والمعنى ، فقد وضع المتكلمون المسلمون ، والمعتزلة على وجه الخصوص ، حدوداً لا ينبغي تجاوزها في تأويل الخطاب القرآني . إن كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل لأبي الحسن القاضي عبد الجبار يُفصح عن تأثير علم الكلام بإشكالية اللفظ والمعنى إلى حد كبير . وهذا مثال آخر يسوقه الدكتور الجابري للتدليل على أن العقل العربي تم إقصاؤه عن الممارسة الفعالة العقلية المستقلة عن الخطاب الشرعي (ص ٧٤) .

إن حال البلاغيين من قضية اللفظ والمعنى تشبه وضعية المتكلمين والنحاة المشار إليها أعلاه ، أي أن علماء البلاغة بقوا سجيناً إشكالية اللفظ والمعنى ونظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني مصداق

العارفون . والعقل العرفاني بالتأكيد متأثر هو بالنظرة الهرمية عند صاحب الكتاب .

وتحتل إشكالية الظاهر / الباطن فيه مكانة عمالة للفظ / المعنى في العقل البياني . وهكذا أصبح الزوج : الظاهر / الباطن أداة رئيسية لتأويل الخطاب القرآني . لكن تدخل العامل السياسي في عقلية التأويل هذه لعب دوراً مهماً خاصة عند الشيعة والمتصوفة .

ويعتقد أهل العرفان أن معرفتهم أفضل من المعرفة البيانية والبرهانية ، إذ أن طريق العرفان هو طريق الأصفياء ، خاصة الأولياء والأئمة .

إن أهم شخصية تمثل النظام المعرفي العرفاني هو في رأي صاحب الكتاب - ابن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) : الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر . فهذا الأخير يقول بأن الله جعل في كل شيء من مخلوقاته ظاهراً وباطناً . وأن من يسميهم بأصحاب الإشارات مُعَقِّون من التقيد بحدود اللغة (اللفظ والمعنى) ، إذ أن فهم القرآن الحق هو فهم بالقلب . المؤمن ينبغي أن يضع نفسه في منزلة الرسول ليسمع مثله القرآن في قلبه ، كما يسمعه الرسول من جبريل . فموقف العارفين هذا موقف خطير جداً . إذ أن ذلك يجعل فهم الصحابة أقل من فهم العارف الصوفي أو الشيعي . أما القياس العرفاني فيصفه المؤلف بأنه قياس بدون جامع ، وبدون حدٍّ أوسط ، وبدون رقابة عقلية . (ص ٣١٥) . فجعل الشيعة مكانة الولاية أفضل من النبوة مصداق لعدم ترابط وتناسق بنية القياس العرفاني فالوحي عند المتصوف والإمام عند الشيعي لها السلطة الدينية الكاملة التي لا تنافسها أي سلطة أخرى بخصوص مصداقية المعرفة .

لا يتردد الدكتور الجابري في إصدار نقده اللاذع . للموقف العرفاني المشار إليه هنا . فهو في نظره موقف

الشاهد يتخذها مرشداً إلى مطلوبه . ومن ثم يتضح أن اللزوم البياني هو لزوم يقوم على مجرد الجواز وفي أحسن الأحوال على الترجيح . وبالتالي ، فالقياس البياني ليس له قوة منطق اللزوم الضروري التي يستند إليها القياس المنطقي الإغريقي المتمثل في العبارة المنطقية : كل إنسان فاني ، سقراط إنسان ، إذن فهو فاني .

ويرجع الكاتب طبيعة القياس البياني (التجويزية أو الترجيحية) إلى البيئة الصحراوية التي عاش فيها الإنسان العربي بالجزيرة العربية (فالمبدأ الذي يؤسس وعي سكان هذه البيئة لن يكون السببية ولا الحتمية بل سيكون الجواز : كل شيء جائز . الاطراد قائم فعلاً ، ولكن المتغير المفاجيء الخارق للعادة ممكن في كل لحظة (ص ٢٤٣) .

وبعبارة أخرى ، فإن الرؤية القائمة على الانفصال وعدم الاقتران الضروري بين الظواهر والأشياء هي في نظر الدكتور الجابري رؤية تجعل الجهد العقلي محصوراً في المقارنة بين الأشياء ، بعضها مع بعض ، لا يتعداها . ومن ثم يلخص المؤلف خطأ البيانيين على اختلاف أصنافهم بأنهم (قرأوا النص القرآني بواسطة سلطة مرجعية أخرى هي عالم « الاعراب » عالمه الطبيعي والفكري الذي تحمله معها اللغة العربية التي جعلوا منها حكماً بدعوى أنها اللغة التي نزل بها القرآن) (ص ٢٤٨) .

رابعاً : طبيعة خاصيات العقل العرفاني

إن آليات النظام المعرفي العرفاني تختلف أساساً عن تلك التي رأيناها عند النظام المعرفي البياني . فوسائل كسب المعرفة هنا تتمثل في طرق الإلهام والكشف ، والرياضات والمجاهدات التي يتلقاها ويمارسها

الأسطوي . ولم يكتف مؤلف المنقذ من الضلال بالدعوة والتبشير بالمنطق بل ذهب إلى بيان عدم صلاحية الاستدلال بالشاهد على الغائب في العقليات (علم الكلام) إذ أن صلاحية هذا المنهج مقصورة على الفقه حيث لا يطلب اليقين وإنما يكفي بالظن .

ومع ذلك ، يعيب الدكتور الجابري على الغزالي أن المنطق كمنهج تحول معه « إلى مجرد آلية ذهنية شكلية مثل آلية قياس الغائب على الشاهد » (ص ٤٤٥) .

أما مساهمات ابن سينا في الدفع بالعقل البرهاني إلى الأمام فإنها في نظر المؤلف مساهمات سلبية ، إذ أن فلسفته هي عبارة عن تلفيق بين إلهيات الفارابي وأخرويات الإسماعيلية . وبذلك يدشن كل من الغزالي وابن سينا ما أطلق عليه صاحب الكتاب اسم أزمة الأنظمة المعرفية الثلاثة . إنها أزمة « اختلطت فيها المفاهيم واشتبهت المسائل وتصادمت الرؤى والاستشرافات داخل الثقافة العربية الإسلامية ، مما جعل الحاجة إلى إعادة التأسيس والتبينة ضرورة ملحة » (ص ٤٨٢) .

وهي أزمة حادة مست البیان والعرفان والبرهان وأدت الى ما سماه الكاتب « بالتداخل التلفيقي » بين أجزاء النظم المعرفية المذكورة هنا . ومن هنا جاءت أهمية دور مشروع ابن حزم . فمشروع هذا الأخير يصفه صاحب الكتاب بأنه « مشروع فكري فلسفي الأبعاد يطمح الى إعادة تأسيس البیان وإعادة ترتيب العلاقات بينه وبين البرهان مع إقصاء العرفان إقصاء تاماً » (ص ٥١٤) . وتتلخص معالم هذا المشروع الحزمي في المبادئ التالية :

١ - فهم الشريعة اعتماداً على حجة العقل .

هروب من عالم الواقع إلى عالم « العقل المستقبل » الذي يلجأ إليه العارف كلما اشتدت وطأة الواقع عليه وعجز عن تجاوز فرديته .

إن النظام العرفاني يلغي الاستبصار بالعقل . « الموقف العرفاني موقف سحري يُلغي العالم ليُجعل من « أنا » العارف الحقيقة الوحيدة . إن النظرية العرفانية ذات رؤية سحرية في الصميم . إنها تخلق كل شيء يريد العارف من لا شيء » (ص ٣٧٩) .

خامساً : البرهان في الثقافة العربية الإسلامية العالمة

في محاولة لكسب المعرفة يستعمل العقل البرهاني وسائل مختلفة أساساً عن تلك التي يلجأ إليها كل من النظام المعرفي البياني والعرفاني . فالبرهان يعتمد على قوى الانسان الطبيعية مثل الحس والتجربة واستعمال العقل في اكتساب معرفة الكون ككل أو كأجزاء . ويرى المؤلف أن العقل العربي البرهاني بدأ رحلته مع الفيلسوف العربي الكندي الذي دعا الى وجوب تعلم الفلسفة . وتلاه الفارابي بالتأكيد على أسبقية الفلسفة زمنياً عن الملة (الدين) (ص ٤٢٤) ، وأن ما في الملة مثالات لما في الفلسفة . ويشير المعلم الثاني إلى أن المنطق كفكر فلسفي تنطبق مبادئه وتعميماته على جميع الناس ، بينما بعض العلوم الأخرى مثل علم النحو يعطي قوانين تخص ألفاظ كل لغة . وفي نظر الدكتور الجابري أن الفارابي كان يتوجه بذلك إلى البيهانيين على العموم والنحاة على وجه الخصوص .

إن التأثير بالمنطق لم يقلت منه الإمام أبو حامد الغزالي رغم تصوفه ، فلقد بقي مناصراً له حتى آخر أيامه . ففي كتابه القسطاس المستقيم يحصر الغزالي طرق الاستدلال في القرآن في ثلاثة تؤول كلها إلى القياس

الإسلامية على أنه يقع خارج شجرة العلوم النقلية منها والعقلية » (ص ٥٤٧) .

سادساً : تعاطف المؤلف مع العقل البرهاني

لقد نجح الدكتور الجابري في هذا الكتاب الضخم (٦٠٠ ص) في معالجة وتحليل تراث الثقافة العربية الإسلامية في صياغة مبسطة سوف تجعل تراث هذه الثقافة في متناول غير المختصين من مثقفي الوطن العربي اليوم وفي المستقبل .

لقد أنجز الكاتب هذا الهدف بأسلوب ومنهج ولغة تتسم كلها بكثير من السهولة والوضوح كما أن المؤلف تقيد بروح التحليل والنقد التي يُشير إليها عنوان الكتاب . فالمؤلف كان أكثر قسوة وأشد نقداً للعقل العرفاني ، وفي المقابل فقد كان أكثر انبهاراً وحاساً وتعاطفاً مع العقل البرهاني . أما حدة نقده للعقل البياني فهي تميل إلى الاوصاف بشيء من القسوة . ومن ثمّ قولاء الدكتور الجابري هو ولاء وتعاطف بيّنان مع العقل البرهاني المستند إلى أسس المنطق الأرسطي على الخصوص . إن مثل هذا الموقف من البرهان يصبّق عليه قول المتنبي بعد تصرف :

العقل البرهاني قبل البياني والعرفاني

هو الأول ومهما في المسحل الثاني

إن هذا التحمس للبرهان دفع - في رأينا - بالمؤلف إلى نوع من التحيز لصالح العقل البرهاني فهو من جهة يمجّد قياس المنطق الأرسطي المتعلّق لكونه قياساً تتسم استنتاجاته باليقينية أو لزوم الضرورة كما هو الشأن في العبارة المنطقية المشهورة : كل إنسان فان - فسقراط إنسان إذن فسقراط فان .

ومن جهة ثانية فإن الدكتور الجابري يحقر من مكانة القياس البياني الذي طالما يستعمل علاقة الأصل بالفرع

٢ - العلة هي علاقة طبيعية ضرورية بين الأشياء .

٣ - السبب صفة خاصة بالكائنات التي تتمتع بحرية الإرادة .

٤ - قياس الفقهاء باطل لأنهم يقيسون على أشياء تختلف في النوع .

ويتأثر ابن حزم في كل ذلك بطبيعيات أرسطو ومفاهيمها ونظرياتها البرهانية في تأسيسه النظام المعرفي البياني على رؤية البرهان . وهذا لا يعني أن ابن حزم لا يترك مجالاً للنص في خدمة الشريعة . إن التمسك بالنص أمر وارد لا جدال فيه . لكن ما ورد فيه نص واضح هو قليل ومحصور . وعليه فإنه يجب استعمال العقل في باقي الأمور غير المحصورة ويمكن القول إذن إن رؤية ابن حزم هي رؤية تؤسس البيان على البرهان تصوراً ومنهجاً .

وجاء ابن رشد بالأندلس لكي يدفع بالمشروع الحزمي إلى الأمام . وتتمثل مساهمة صاحب كتاب « تهافت التهافت » في أنه أصبح شديد الالتزام بنظام السببية . وهو القائل بأن من رفع الأسباب فقد رفع العلم (ص ٥٣٦) . إن التوجه الحزمي الرشدي البرهاني (العقلاني) أثر تأثيراً عميقاً خاصة على كل من الشاطبي وابن خلدون . فالشاطبي يمثل قصة الفكر العربي الإسلامي في ميدان الفكر الأصولي ، أو علم الشريعة . أما ابن خلدون فقد بلغ بمقدمته أوج الفكر البرهاني في الفكر التاريخي والاجتماعي والسياسي . لكن حركة الفكر البرهاني لم يكتب لها الاستمرار بعد ابن رشد والشاطبي وابن خلدون . « ولكن النقلة التي بشر بها الشاطبي في ميدان علم الشريعة مثلها مثل النقلة التي بشر بها ابن رشد في ميدان الحكمة بدون قابلة ، بدون مستقبل ، تماماً مثل النقلة التي بشر بها ابن خلدون في ميدان ثالث بقي يُنظر إليه داخل الثقافة العربية

كمنهجية للتوصل إلى استنتاجات وتشريعات كما هو الأمر في تحريم الفقهاء للنبيذ (فرع) قياساً على الأصل الذي هو الخمر .

سابعاً : العقل البياني أقرب إلى روح العلم الحديث

إن نقد الكاتب للقياس البياني يعود في نظره إلى كون استنتاجاته ليست إلا احتمالية أو ترجيحية في أحسن الحالات ، وبالتالي فهي غير دقيقة ولا يقينية مثل تلك التي يتوصل إليها المنطق الأرسطي . إن التأمل في مدى التعاطف الذي يكنه صاحب الكتاب إلى القياس الأرسطي لا يسعه إلا أن يجد بعض المآخذ في مثل ذلك الموقف . فيقينية استنتاج أن سقراطاً فإن ثم التوصل إليها بسبب أن المقدمتين : كل إنسان فانٍ - وسقراط إنسان تتصفان باليقينية المطلقة بخصوص الفناء النهائي لبني البشر . إن الدكتور الجابري يدعو إلى إيجاد قياس شرعي إسلامي يتمتع بنفس درجة اليقينية التي يعرف بها قياس المنطق الأرسطي . نحن نرى أن دعوة مثل هذه هي دعوة غير واقعية وتعارض مع طبيعة الأشياء . فقياس الفقهاء والمشرعين المسلمين طالما تناول قضايا اجتماعية وإنسانية لم يرد فيها نص واضح ، لا في القرآن ولا في السنة ، وبالتالي فالمسائل والقضايا الجديدة هي نتيجة حركة تغير وتطور المجتمعات الإنسانية مع مرور الزمن .

فالقياس البياني المستند إلى نموذج النص / الفرع يمثل منهجية واقعية لمعالجة ما يجد من قضايا ومشاكل في صلب المجتمعات الإسلامية المتطورة . نعم إن ما يتوصل إليه الفقهاء عن طريق القياس بخصوص الفرع لا يتصف باليقينية التي يتصف بها الأصل . إنه لضرب من اللاواقعية والتبسيط أن ننشد اليقينية المطلقة من استنتاجات قياسية حول قضايا ومسائل إنسانية معقدة لم يبينها الشرع . فالدعوة إلى معرفة يقينية في مثل هذه

الأشياء هي دعوة غير واقعية ومناقضة للروح العلمية نفسها . والواقع أن كل ما يروجوه المشرع الذي يلوذ إلى المنهج القياسي هي تشريعات احتمالية أو ترجيحية . ولعل كل التشريعات التي اجتهد فيها البشر بأساليبهم المتعلقة والمتنوعة لا يمكن أن تكون مصداقاً لها إلا احتمالية أو ترجيحية بالنسبة لصالحهم . فالقياس هو عملية اجتهد . والمجتهد يُخطئ ويصيب . إن الدكتور الجابري يضرب عرض الحائط بالقياس الذي يمكن أن يُخطئ . ويطلب قياساً يكون دائماً مُصيباً . إن طلباً مثل هذا يخرجنا من عالم الإنسان . وهو في رأينا موقف غريب للمؤلف الذي عرف عنه التزامه بالواقع الاجتماعي للإنسان . ومن الغريب في هذا المضمار أن صاحب الكتاب لا يُشير ، لا من قريب ولا من بعيد ، إلى تحلي العلم الحديث كلياً تقريباً عن منطق أرسطو في كسب المعرفة . وإن المنطق التجريبي للعلم طالما يستعمل منهجية تشبه القياس البياني المستعمل لنموذج الأصل / الفرع . فعلى مستوى العلوم الدقيقة ، تستعمل العلوم البيولوجية أو الطبية مثلاً الحيوانات (الأصل) كميدان لتجاربها لبعض المخدرات أو الأدوية والتلقيحات ضد الفيروسات كفيروس مرض الأيدز Aids ، نظراً لأن أخلاقيات هذه العلوم تمنع ممارسة مثل هذه التجارب على بني الإنسان . وطالما ينساق العلماء المجرسون إلى تعميم نتائج الأصل (الحيوانات) على الفرع (الإنسان) . وهذه التعميمات هي تعميمات احتمالية أو ترجيحية بالنسبة لمدى تأثير الإنسان (النوع) بتلك الأدوية والمخدرات لوجود بعض الاختلافات - وإن كانت ضئيلة - بين الإنسان والحيوان . أما استعمال منهجية الأصل / النوع في العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة فهو واقع لا يحتاج إلى إثبات فعله الاجتماع والسياسة والاقتصاد الغربيون يعممون كثيراً من نظرياتهم حول التنمية والتحديث إلى مجتمعات العالم

الثالث ، علماً بأن منبت هذه النظريات هو واقع المجتمعات الغربية (الأصل) وليس واقع المجتمعات النامية (الفرع) . ودلت الدراسات في هذا الميدان على أن أكثر ما يمكن أن تصنف به مصداقية العلوم الاجتماعية ونظرياتها هي الاحتمالية أو الترجيحية لا اليقينية بخصوص العلاقة بين الأصل والنوع .

ويشأن هذه النقطة بالذات فالعلوم الاجتماعية والنفسية الغربية تعيش منذ السبعينات تحولاً ايسيمولجياً بخصوص طبيعة قوانين الظواهر النفسية والاجتماعية . فالختمية الاجتماعية (السوسيولوجية) المتصلبة التي دعا إليها عالم الاجتماع دور كايم Dur- keim وأتباعه ، أو الختمية السلوكية القاهرة التي قادها عالم النفس سكينر Skinner أصبحت مرفوضتين اليوم بين عدد كبير متزايد من علماء الاجتماع والنفس . وبعبارة أخرى ، فإن استنتاجات هذه العلوم أو تكهناتها هي في النهاية ذات طبيعة احتمالية أو ترجيحية لا يقينية، فتعدد العوامل التي تؤثر في الظواهر النفسية والاجتماعية تجعل من الصعب الحديث عن استنتاجات يقينية على مستوى الفرع كتلك التي يوصل إليها المنطق الارسطي بخصوص يقينية فناء سقراط الإنسان . ويكل صراحة ، فإن طلب اليقينية التامة من القياس البياني في كل استنتاجاته هو طلب غير مشروع ، ومن ثم ، غير واقعي وغير علمي . وفي رأينا أن الذي ينبغي أن نعيه على العقل العربي ليس هو استعماله للقياس البياني وإنما هو توقيفه عن الاجتهاد - بالقياس وغير القياس - في قضايا ومشاكله بالرجوع إلى تراثه ومبادئ حضارته ، بدل سقوطه في دوامة التقليد والتطفل بين أيدي المهيمتين على مصيره .

ثامناً : حدود العقل البرهاني

من القضايا الأخرى المركزية التي ينتقد فيها المؤلف

العقل البياني العربي الإسلامي مسألة وقوع هذا الأخير في سجن النص على حساب استعمال العقل البرهاني . إن إشكالية النقل والعقل إشكالية مطروحة منذ العهود الأولى لنشأة الثقافة العربية الإسلامية . فموقف علماء المسلمين الأوائل من هذا كان يؤمن بعدم وجود التناقض بين اجتهاد العقل وروح النص . وبهذا الصدد فإن الدكتور الجابري - تحت أنبهاره بالبرهان ، يكاد يعطي الانطباع بأن التفكير العقلي البرهاني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا ما جعله مفرط التحمس في جعل هذا النوع من التفكير الأول والأخير في كسب معرفة موثوق بها حول ظواهر الكون المتنوعة وهو موقف يتطلب الوقوف عنده . في رأينا ينبغي الإشارة هنا إلى ملمحين لهذا العقل :

١ - إن المعرفة المكتسبة عن طريق البرهان تبقي في النهاية معرفة محدودة المصدقية خاصة فيما يتعلق بالظواهر الأكثر تعقيداً ، وهذا باعتراف الكاتب نفسه .

٢ - إن التفكير العقلي البرهاني في معناه العام الحديث ، لا يمكن له أن يفكر ويتعقل في فراغ . وإنما هو يقوم بعملية التفكير والبرهان في إطار اجتماعي ، ثقافي ، سياسي ، ديني ، أيديولوجي . . . ومن ثم فتحرره المطلق من هذه المؤثرات غير وارد على مستوى الواقع والموضوعية . فمسألة إباحة تعاطي الكحول مثلاً في المجتمعات الغربية لا يمكن إرجاعها إلى برهان عقلائي بحث . فالأدلة الموضوعية على سلبية إباحة الكحول تفوق بكثير إيجابياتها . ورغم المعرفة بذلك فإن أكثر ما قامت به بعض هذه المجتمعات هو القيام بحملات توعية لتعاطي الكحول باعتدال (كما هو الشأن في فرنسا) ، أو منع تعاطيها عند قيادة السيارة ، كما هو الحال في بعض المقاطعات الكندية اليوم . فالعقل

لتبرير شرعية وجودها في هيكل الثقافة العربية الإسلامية العالمة . فاستناد العقل البياني الى النص له - في رأينا - ما يبرره إذا نظرنا إليه بمنظور علم اجتماع المعرفة . فمما لا شك فيه أن القرآن هو المؤثر الأول على طبيعة الظاهرة الإسلامية العربية بما فيها ثقافتها العالمة . إن أول ما يتميز به القرآن على المستوى البياني هو إعجاز لغته ، وإن هذا الكتاب يعلن في وضوح النهار أن فيه إشارات ومعلومات عامة حول كل شيء » . . . ما فرطنا في الكتاب من شيء » . كما أن الاسلام يؤكد أنه خاتم وأكمل الرسالات السماوية . فليس بالعجيب إذن أن تحتل المعرفة بالفاظ ومعاني اللغة التي نزل بها القرآن الصدارة في التكوين الثقافي والتفكير المعرفي عند عدد كبير من المفكرين العرب والمسلمين . وبالتالي فنحن نرى أن اهتمام هؤلاء باللفظ والمعنى - وهو أكثر ما يعيبه المؤلف عليهم - هو نتيجة حتمية - لا غرابة فيها - لهذه الرسالة الدينية الجديدة التي تمثل فيها لغة السوي السماوي ملمحاً رئيسياً من ملامح إعجازها . وبالتأكيد ، فإن الإعجاز اللغوي القرآني هو سمة يتميز بها الإسلام كدين عن الرسالات السماوية السابقة ، كما تتميز بها الحضارة العربية الإسلامية - إلى حد كبير - عن الحضارات الإنسانية الأخرى .

وفي هذا الصدد يمكن القول بأن معظم الحضارات الإنسانية عرفت البرهان والعرفان . . . فالحضارة العربية الإسلامية تشترك فيها مع الحضارات الإنسانية الأخرى . إن ما يميز هذه الحضارة إلى حد كبير هو أساساً العقل البياني . فالنظام المعرفي هو إذن حصيلة منتظرة لمثل تلك الخلفية التي يمتزج فيها تأثير العامل اللغوي بآليات التفكير في فهم النص كمرجع رئيسي لجذور طبيعة نشأة الحضارة العربية الإسلامية وتطورها .

إن سكوت الكاتب على جذور الظروف التي أنتجت

البرهاني ليس إذن بكامل الحضور بخصوص القضايا التي تتصف بتعقيدات ثقافية وأيديولوجية وسياسية واقتصادية . . . وهنا يأتي - في رأينا - دور النص القرآني والحديثي في البت في المسائل الشائكة مثل لإباحة أو منع تعاطي الكحول بالمجتمع ، وهو ما جاء فيه القول الفصل في القرآن بالنسبة للمجتمع الإسلامي الحق . وهذا يعني أن المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية العالمة تستند إلى مصدرين : المعرفة البرهانية والمعرفة النصية . إن الواحدة مكمل للآخرى في المنظور الإسلامي .

تاسعاً : مدى شرعية موقف المؤلف من العقول الثلاثة

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : ما هي شرعية مثل هذا النقد الذي تردد في صفحات النصف الأول من هذا الكتاب الضخم ؟ إن المنهجية التي استعملها المؤلف لتحديد طبيعة العقل البياني هي من نوع تحليل الخطاب البياني . أي أن صاحب الكتاب درس وحلل المؤلفات العربية الإسلامية البارزة لعلباء النظام المعرفي البياني منذ عصر التدوين حتى عهد ابن خلدون . وبعد القيام بالوصف المنهجي التفصيلي والمنظم لآليات العقل البياني الذي سطا على الثقافة العربية الإسلامية العالمة أصدر المؤلف حكمه المتشدد على هذا العقل .

فالمؤلف يبدو وكأنه كتب الكتاب ليصف العقل العربي ولينتقده في المقام الأول وليس لتحلل ويفهم الظروف الموضوعية التي أفرزته وشكلت طبيعته . فلا يكاد المرء يجد في القسم الذي خصصه المؤلف في كتابه لمناقشة العقل البياني أي محاولة جادة لفحص هذا العقل في ضوء ما يُسمى اليوم بعلم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge فمركزية إشكالية اللفظ / المعنى في بنية العقل العربي البياني لم تلق اهتماماً من صاحب الكتاب

العقل البياني أدى - في رأينا - بالدكتور الجابري إلى فقدانه تقيده المعروف بقوانين الحتمية الإجتماعية التي أكدها في مناقشته للتفكير الفلسفي العربي الإسلامي في كتابه «نحن والتراث» ففي هذا الأخير أبرز حتمية اجتماعية ثقافية فسّر بها ونقد بها بصورة أكثر إقناعاً الفرق بين الفكر الفلسفي الإسلامي العربي ، في كل من المشرق والمغرب ، حتى عصر ابن خلدون . أما صمته هنا عن الإفصاح عن حتميات العقول الثلاثة فيعكس في رأينا خللاً منهجياً ويضعف بالتالي قوة الأسس لشرعية نقده .

إن شدة ارتباط العقل العربي الإسلامي بالنص تمثل خصوصية لا جدال فيها حتى عند أصحاب العقل البرهاني مثل ابن خلدون . فصاحب المقدمة لا يتجاهل النص القرآني في تحليلاته الاجتماعية التي حفلت بها فصول هذا الكتاب . فبخصوص ظاهرة الترف وانحلال الحضارات يسوق ابن خلدون الآية المناسبة لتأكيد العلاقة الوثيقة بين البرهان والبيان في الثقافة العربية الإسلامية العالة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

من المآخذ الأخرى التي تستحق الإشارة إليها هنا نسيان الكاتب مناقشة سبب عدم تأثر كل من العقل البياني (حسب اعتقاد صاحب الكتاب) والعقل العرفاني بدعوة الإسلام الصريحة إلى مدى أهمية الاهتداء بنور العقل بالنسبة للكائن الإنساني . إن تأكيد القرآن على ذلك لا يحتاج إلى بيان . إن عدم تأثر نظامي العرفان والبيان بكل من المنطق الأرسطي العقلاني من جهة ،

ودعوة الاسلام إلى التدبر والتفكير والتعقل من جهة ثانية (وهذا حسب مقولة المؤلف) تُشابه إلى حد كبير العقل العربي السياسي . فهذا الأخير لم يتأثر بعد فترة الخلافة الراشدة القصيرة ، لا بمبادئ الديمقراطية الغربية حديثاً ، ولا بمبادئ الشورى الإسلامية قديماً وحديثاً . إن صمت المؤلف عن إثارة مكانة العقل في الإسلام (وهو العاشق للعقل والبرهان وآليتهما) لا بد أن تثير بعض التساؤلات ، عند البعض على الأقل . هل يدل ذلك على أن الكاتب لا يؤمن بأن ما يعطيه الإسلام للعقل من حرية غير كاف لإعطاء العقل وظيفته الكاملة في تحقيق عمليات البرهان الناضجة ؟ وفي انتظار الاجابة عن تلك التساؤلات يبقى انهيار الدكتور الجابري بالعقل البرهاني وآلياته - قبل أي نظام معرفي آخر - حقيقة لا جدال فيها . ولعل شدة هذا الانبهار هي التي جعلته لا يولي اهتماماً كبيراً إلى أسباب ظهور النظام المعرفي البياني والعرفان في الثقافة العربية الإسلامية العالة . ولعل ذلك الانبهار نفسه هو الذي جعله غير قادر على الحديث عن العقل العربي الإسلامي الذي تواجد فيه البرهان مع النص (أو البيان) ، جنباً إلى جنب ودون أن يضر هذا بمسيرة العلوم باختلاف أنواعها التي عرفت الثقافة العربية الإسلامية حتى عهد ابن خلدون . فالصراع بين البيان والبرهان ، أو التناقض بينهما ، في الثقافة العربية الإسلامية ليس إذن قضية حتمية كما عرف ذلك تاريخ العلوم الغربية الحديثة منذ عصر النهضة . وخاصية العقل العربي الإسلامي العالم هذه لم يعتن المؤلف بإبرازها وشرح حثيبتها . وهي تستحق - في نظرنا - اهتماماً أكثر في كتاب يركز على أنظمة المعارف للثقافة العربية الإسلامية .



العدد التالي من المجلة
العدد الأول - المجلد الواحد والعشرون
ابريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
الطاقة النووية

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

- (أ) الطاقة النووية
- (ب) الإعلام المعاصر
- (ج) الفكر العربي المعاصر
- (د) مدارس النقد الأدبي

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو تجماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثري ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فلماذا ما وضحت استجابة القراء والكتاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

ليرة	٥	سوريا	٧	ليرة	٧	ليرة الامارات	٧
قرشا	٤٠	القاهرة	٦	ريال	٦	عمانية	٦
ملياً	٣٠٠	السودان	٤	ريال	٤	عراق	٤
قرشا	٥٠	ليبيا	٥٠٠	فلس	٥٠٠	تونس	٥٠٠
بيسة	٥٠٠	مسقط	٥٠٥	ريال	٥٠٥	يمن الشمالية	٥٠٥
دنانير	٦	الجزائر	٤٠٠	فلس	٤٠٠	يمن الجنوبية	٤٠٠
مايم	٦٠٠	تونس	٤٠٠	فلس	٤٠٠	عراق	٤٠٠
دراهم	٧	المغرب	٥٠	ليرة	٥٠	سوريا	٥٠
			٣٠٠	فلسا	٣٠٠	دولة	٣٠٠

بشترافات:

كلاذ العربية ٥ دنانير

كلاذ الاجنبية ٦ دنانير

ل قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف
بنك الكويت المركزي وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك الى :

ارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت

الشمس
٤٠٠ فلس

To: www.al-mostafa.com